الله ﷻ
كيف لا يُحب

محمد سعد الشرقاوي

كتاب: كيف لا يُحب

إعداد: محمد سعد الشرقاوي

عدد الصفحات: ٦٦٤ صفحة

مقاس: ١٧ * ٢٤ سم

الألوان: ٢

عام الطباعة: ١٤٤١هـ-٢٠٢٠ م

الطبعة الأولى

الناشر

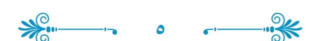


رقم الإيداع: ٢٠٢٠/٣٣٦٠م

ردمك: ٦-٠١-٦٨٠٦-٩٧٧-٩٧٨



المحتويات





الإهداء



إلى

من أحبُّوا رب العالمين بكل قلوبهم.
إلى الذين ملكت محبةُ الله قلوبَهم حتى قَرَّت عيونهم به،
واطمأَنَّت قلوبهم إليه، وأَنِسَت نفوسهم بقربه.
إلى المحبين الذين آثروا الله على من سواه.

المقدمة



بين يدي الحب



في بيت من بيوت مكة، أسيرٌ حرٌ.

أسروا جسده، وبقيت روحه لا يملكها غير باريها.

وما عسى أن تفعل الأغلالُ في أرواح بيعت لرب الأرض والسماء.

خُبيبُ بن عدي الأنصاري الشهيد..

يجلس في بيت الحارث بن عامر مُوثقاً بالقيود، مكبلاً بالسلاسل، ينتظر الموت.

كان من أبطال الإسلام، جاهد مع النبي ﷺ يوم بدر، وكان الحارث هذا من صناديد الكفار، تلقى ضربة من خبيب عجَّله بها إلى النار.

لم ينس أهلُه ثأرهم، ظلوا كذلك حتى غدروا بسرية من سرايا النبي ﷺ، ثم أخذوا خبيبا ليقتلوه.

أوثقوه في الأغلال أياما حتى يأتي موعد اللقاء.

خبيبٌ أسير، لا يأتيه من الطعام إلا الفتات..

ابنة الحارث، كانت تعجب من هذا الأسير، إذا جاء الليل صف قدمه يناجي مولاه، يتلو القرآن فيكاد نساء الحارث أن تذهب عقولهن من جميل ما يسمعون، لقد ظل يقرأ حتى ترك الأثر، فإنها ستسلم عما قريب.

وفي النهار، رجل موثق، وفي يده قطف عنب يأكل منه، رزق يسوقه الله إليه، وما في مكة يومئذ ثمرة.

علم خبيب أنهم قاتلوه غدا، فسأل ابنة الحارث موسى يأخذ بها شعره.

جاءت المرأة له بما سأل.

وفجأة تدخل المرأة وقد ارتعدت فرائصها، لقد جلس طفلها على قدم خبيب..

لعله الآن سيقتله، ويكون رأسا برأس.

دخلت عليه، نظر خبيب في عينها، علم ما دار بخلدها.

قال لها: تخشين أن أقتله، ما كنت لأفعل.

فلما أخذوه خارج الحرم ليقتلوه، قال: دعوني أركع ركعتين.





فتركوه فصلى، ثم قال: **لولا أن تظنوا أن بي جزعا لطولتها**، ثم قال: **اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا وَاقْتُلْهُمْ بَدَدًا. فلم تمض سنة وواحد منهم حي.**

ثم سألوه: **أَتُحِبُّ أَنَّ مُحَمَّدًا مَكَانَكَ؟**

فَقَالَ: **وَاللهِ مَا أُحِبُّ أَنِّي فِي أَهْلِي وَوَلَدِي وَأَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ شِيكَ بِشَوْكَةٍ.**

وبدأ القتل، يقطعون جسده إربا إربا، قطعة قطعة، وهو حي.

فأنشد يقول:

وَلَسْتُ أُبَالِي حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِمًا ... عَلَى أَيِّ شِقٍّ كَانَ للهِ مَصْرَعِي

وَذَلِكَ فِي ذَاتِ الإِلَهِ وَإِنْ يَشَأْ ... يُبَارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ [1]

وكأنه يهزأ بهم، يقول: وما يضرني هذا الجسد الذي قطعتموه أشلاءً ممزعة، لست أبالي، طالما أن هذا لربي، لأجله يهون كل شيء.

إنه الحب الذي يصنع الأعاجيب.

حب لا مثيل له، لأن الله لا مثيل له.

كنت أعجب، ولا يزال عجبي لا ينقضي من هؤلاء السَحَرة، سحرة فرعون.

لقد جاءوا يطلبون المال، فوعدهم فرعون بالمال والسلطان.

مال وسلطان كفيلان أن يغيرا النفوس، والمناهج، والعقائد، والقيم، والمبادئ.

لكن تغير كل شيء..

ما أن آمن هؤلاء حتى تغير كل شيء، أعلنوها صراحة: آمنا برب العالمين، رب موسى وهارون.

وعلى الفور، نُصبت المشانق، وأُعدت أخشاب الصلب، وشُحذت الأسنة والسيوف.

وجاء قرار الطاغية: ﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ سورة طه.

ليس العجب من طغيان الظالم ووعيده، إنما العجب من ثبات هؤلاء.

قالوا: ﴿لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾﴾ سورة طه.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٠٤٥)

لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا.. والله خير وأبقى.

هذا هو السر.

إيثار المحبوب الأعظم على كل شيء، والله خير وأطيب وأبقى من كل شيء.

امرأة فرعون، آسية بنت مزاحم، ترى حولها مُلْكَ الفرعون، القائل: **أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي**.

لكنها رغم كل هذا الثراء، وهذا الترف، أحبت جوار الرحمن، فكان سؤلها: «**رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ**».

وكأني ببلال بن رباح، يُعذب في رمضاء مكة، يطوف به الولدان، توضع على صدره الصخور، تُلهب السياطُ ظهره.

يقف بجواره أمية بن خلف، يقول له: قل كلمة واحدة تثني بها على آلهتنا، أو سُب محمدا، وأنا أعفو عنك.

يلتفت إليه بلال الحرُ بقلبه، المأسور جسده، يهزأ به، قائلا:

أحد، أحد، والله؛ لو أعلم كلمة هي أغيظ لكم منها؛ لقلتها.

أنى لك الثبات يا بلال؟

السر هنا، يقول ابن مسعود: «**هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِي الله**».[٢]

لأجلك يا مولاي تُرخص النفوس الغوالي، وما نفسي وما روحي بشيء إن أنت رضيت.

عَذَابُهُ فِيك عَــذْبٌ	**وَبَعْــدُهُ فِيك قُـرْبٌ**
وَأَنْتَ عِنْــدِي كَرُوحِي	**بَـلْ أَنْـتَ مِنْهَـا أَحَـبّ**
حَسْبِي مِـنْ الْحُـبِّ	**أَنِّي لِمَا تُحِبُّ أُحِـبُّ**

يجلس النبي ﷺ يوما بين أصحابه، ثم يثني على صاحبه، ورفيق دربه الصديق أبو بكر، لكن الثناء هذه المرة لا يُوصف جماله:

يقول النبي ﷺ: «**مَا لأَحَدٍ عِنْدَنَا يَدٌ إِلاَّ وَقَدْ كَافَيْنَاهُ مَا خَلاَ أَبَا بَكْرٍ فَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا يَدًا يُكَافِئُهُ الله بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ**».[٣]

(٢) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (١٥٠)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح ابن ماجه» (١٢٢).
(٣) أخرجه الترمذي في «سننه» (٣٦٦١)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٨٩٤).



ماذا فعل الصديق حتى يستحق هذا الثناء؟

لا أنا ولا غيري نستطيع أن نوفي الصديق حقه.

هـذا رجـل تحـت النبيـين في درجـة الصديقيـة، إنـه صدِّيـق في حبـه، صدِّيـق في إيمانـه، صدّيـق في بذلـه، في خوفـه، في رجـاءه، عندمـا كان يتسـابق السـابقون كان هـو الأول دائـما، عنـوان حياته: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢٠﴾﴾ سورة الليل.

يدفع ماله ينقذ أجساد المعذبين في رمضاء مكة من أسواط الجلادين، ثم يحررهم لله تعالى.

يدفع الظالم عن عنق رسول الله ﷺ، ويتلقى عنه ضربات المجرمين، حتى كاد أن يموت.

يسقي نبي الله، ثم يقول: فشرب حتى رضيت.. حتى رضيت يا أبا بكر؟ ذاكم هو المحب.

يوم أن يأتي عمر بنصف ماله يخرج الصديق ماله كله.

إنه السابق دائما، لا يلحقه أحد.

سبق بقلبه قبل بدنه، فالسير إلى ربنا بالقلوب قبل الأبدان.

يقـول: بكـر بـن عبـد الله المزني قـال: مـا فـاق أبـو بكـر أصحـاب محمـد ﷺ بصـوم ولا بصـلاة ولكـن بـشيء كان في قلبـه.

قال إبراهيم بن علية: «**الذي كان في قلبه الحب لله والنصيحة في خلقه**».[٤]

هـذا هـو مركـب المحبـة الخالصـة، تحمـل صاحبها حتـى تحط برحالـه في مقعد صـدق عند مليك مقتدر.

لما تخلـف كعـب بـن مالـك رضي الله عنه عـن الجهـاد في غـزوة تبـوك مـع النبـي ﷺ، ثـم جـاء تائبـا نادمـا، أمـر النبـي ﷺ الصحابـة بهجـره وصاحبيـه.

مرت الأيام كأنها السنين الطوال.

تقطعت قلوبهم عما بدر منهم، واشتد الأمر حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم.

لجأوا إلى الله حيث لا ملجأ منه إلا إليه.

أيـام الهجـر، وقبـل أن يـأتي الفـرج، مشـى كعـب بـن مالـك حتـى تسـوَّر جـدار حائـط ابـن عمـه أبـو قتـادة رضي الله عنه، وكان أحـبّ النـاس إليـه.

رآه كعب، فألقى السلام.

(٤) أخرجه الختلي في «**المحبة**» (١٤٤).

لكن أبا قتادة لم يردّ عليه السلام.

فقال كعب: **يَا أَبَا قَتَادَةَ، أَنْشُدُكَ بِالله فَهَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ الله وَرَسُولَهُ؟**

فَسَكَتَ أبو قتادة.. فأعاد السؤال مرتين، وفي المرة الثالثة، قال: **الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.**

يقول كعب: **فَفَاضَتْ عَيْنَايَ.** (٥)

أشد ما يؤلم المحب مثل هذا، أن يكون حبه محل شك وظن، لكن لما صدق رُسم مرسوم الحب قرآنا يتلى إلى يوم القيامة

فَلَيْتَكَ تَحْلُو، وَالحَيَاةُ مَرِيرَةٌ ... وَلَيْتَكَ تَرْضَى وَالأَنَامُ غِضَابُ

وَلَيْتَ الّذي بَيْني وَبَيْنَكَ عَامِر ... وبيني وبينَ العالمينَ خرابُ

إِذَا صَحَّ مِنْكَ الْوُدُّ فَالْكُلُّ هَيِّن ... وَكُلُّ الَّذِي فَوْقَ التُّرَابِ تُرَابُ

كانت هذه الأبيات تهزنا هزاً من داخلنا عندما كنا نسمعها من مشايخنا في مطلع شبابنا، كانت حكاية قلوب المحبين لرب العالمين.

لكنني صُدمت يوم أن عرفت أن قائل هذه الأبيات قالها لإنسان مثله!!

قلت: أيمكن أن يكون هذا حال إنسان مع إنسان؟

جاءني الجواب من كلام ربي، القائل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾. سورة البقرة (١٦٥).

أندادا يحبونهم كحب الله، ولكن ويبقى المؤمنون أشد حبا لله.

عندما يُحبُ إنسان مخلوقاً لدرجة الخضوع، والتعظيم، فتراه خاضعا ذليلا معظما، مَلَكَ حُبُه قلبَه، فهو بين يديه أسير، لا يملك خيارا، فاعلم أن هذا هو الرق والعبودية، وهذا المحبوب صار ندا اتخذه صاحبه دون الله عز وجل.

تراه أمامه ذليلا، منكسرا، متيما، ينسج فيه المحاسن، ينصره، يوالي ويعادي عليه، لا يقبل فيه قدحا ولا ذما ولا نقدا.

كلنا نحب آبائنا وأمهاتنا وأولادنا وأزواجنا وديارنا، هكذا فُطر الإنسان منا.

(٥) أخرجه البخاري (٤٤١٨)





لكن:

عندما نؤثر مراضي من نحب على مراضي رب العالمين، فهذا هو الإشكال الأعظم.

عندما نقدم محاب غير الله على محاب الله، ونؤثر سخط الله على سخط الخلق، فهذا هو الإشكال الأعظم.

قرأت يوما قصة ذاك المخذول(٦)، الذي كان مجاهدا في صفوف المسلمين، لكنه رأى امرأة من الروم فأعجبته، عشقها، ملكت عليه قلبه، صار أسير عيونها، عابدا أسفل كعابها، أرادها، لكنها أبت عليه، ألحَّ عليها، تمنعت، كاد أن يهلك، لا يستطيع الحياة دونها، أصبحت الهواء الذي يتنفسه.

علمت النصرانية الرومية أن الرجل صار عبدا رقيقا لا يملك معها خيارا، اشترطت عليه حتى يكَحِّل عينيه بها أن يتنصر.

كما قرأت أنت: أن يترك الإسلام، ويعبد الصلبان.

تُراه أبى؟ .. تُراه غار على ربه ومحبوبه الأعظم، الذي طالما جاهد لأجله؟

للأسف، لا.

وافق، بل سارع، لبس الصليب، وتزوج سيدته، وشقي بوضع الأغلال في عنقه.

مرّ عليه المسلمون يوما، وكان في حصن الروم، في صفوف أعداء الله.

سألوه: أين صلاتك، وأين جهادك، وأين القرآن الذي كنت تتلو؟

قال: **نسيته كله، إلا آيتين.**

ثم تلا قوله تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ۝١ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ۝٢﴾ سورة الحجر.

إياك أن تظن أن مثل هذا ذاق طعم الحب والأنس والإيمان بالله تعالى.

لا ورب الكعبة، إن الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب لا يرجع الإنسان وإن كان ما كان.

يقول أبو سليمان الداراني: **«إِنَّمَا رَجَعَ الْقَوْمُ مِنَ الطَّرِيقِ قَبْلَ الْوُصُولِ، وَلَوْ وَصَلُوا إِلَى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَا رَجَعُوا»**.

قصة أليمة، تحكي أصل الداء، عندما نُمَلِّكُ قلوبنا لغير الله، فنصبح أسرى، عبيدا، لهذا الذي ملكناه قلوبنا.

إن الله تعالى وحده الذي يُحبُ لذاته، محبة التعظيم، محبة الخضوع، محبة التذلل، محبة الطاعة المطلقة.

(٦) ذكر هذه القصة ابن الجوزي في «**المنتظم**» (١٢/ ٣٠٢)

الله وحده لجلال وجهه، ولعظيم سلطانه، ولجزيل إنعامه وإحسانه، هو من يُحبُ محبة التأليه، هو وحده الذي يُؤثَر ولا يُؤثر عليه.

في ذات ليلة جاءني سؤال، كثيرا ما يتكرر، يحكي قصة أليمة، قصة إنسان شقي بمن يُحب.

تقول المسكينة: **أحببته حباً مَلَك عليَّ قلبي، كنت معه كعصفورة تحلق في السماء، تنعم بجميل النسيم.**

أسمعني كل جميل.. أوهمني أنه يريد سعادتي، وأنه عوضي عن أيامي البائسة، لكن....

في ليلة من الليالي، فقدت فيها كل شيء، فقدت عُذريتي، وقبلها ديني، وحيائي..

بكاء مرير، يتقطع قلبي، لكنه أخذ يطمأنني: لن أتركك، لن أتخلى عنك، وهكذا كما يقول أمثاله من اللصوص.

تقول: **وتوالت اللقاءات، على أمل أن يأتي اليوم الذي أُزَفُ إليه.**

تقول: **خفت كثيرا، ألححت عليه، ألم يأن الأوان أن نجتمع؟**

فكانت الصدمة: **أنا لا أتزوج من أخطأت معها، وما يُدريني أنك عفيفة؟!!**

وذهب الذئب، وبقيتُ بعاري وآثامي.

ماذا أفعل؟ .. ألم يكن يُحبني؟

أين كلماته، وأين وعوده، وأين عوضه الذي وعدني به؟

قلت لها: **هو لم يُحبك قط.**

قالت: **كيف؟**

قلت: **هو أحب نفسه فيكِ، هو أرادك لنفسه لا لنفسك، للذته لا لنعيمك.**

قالت: **ومن ذا الذي يريدني لنفسي؟**

قلت لها: **الله وحده، يريدك لأجلك، يريدك لكِ، يريدك لتنعمي في الدنيا والآخرة.**

قالت: **وما تلف، وما ضاع، من يصلحه، ومن يعود لي به؟**

قلت لها: **كوني لله، وهو يصلح لك شيء.**

بعدها كنت يوما راجعا من درس الجمعة، حيث كنا نجتمع بمسجد الإمام البخاري، مساء يوم الجمعة من كل أسبوع، وكان الحديث عن الله، لقاءات بعنوان: «**إنه ربي**».

وفي هذه الليلة كانت عيد العشاق، ما يسمى «**عيد الحب**».





ألم يعتصر قلبك عندما ترى إنسانا كان بيده أن يعيش حرا كالطير لا يسترقه أحد، عزيز بربه، في نعيم في الدنيا والآخرة، ثم يذهب يبيع أشرف ما فيه قلبه ليسترقه إنسان، فيخسر كل شيء.

كنت أتمنى أن أنادي حتى يصل صوتي لكل إنسان: هلموا إلى الحياة الطيبة، تعالوا إلى النعيم، هنا جنة الأرض قبل جنة الدنيا.

معرفة الله، وحبه، والأنس به، ومناجاته.. مسكين هذا الذي لم تقر عينه بالله.

بعدها منّ الله علي وألقيت محاضرة بعنوان: «**أحبك ربي، وحبي لأجلي ما حييت**».

ثم أخذ أحد إخواني الأكارم مقطعا من المحاضرة، كنت أتكلم فيه عن: «**كيف لا يُحب**».. أفرده في مقطع، ثم نشره، وكتب الله له قبولا.

فجاءت تلك الفكرة، أن أكتب لي ولك هذه الرسالة «**الله، كيف لا يُحب**».. حديث عن الله.

كل ما أردت، أن أسقي شجرة الحب لله في قلبك، حتى تدخل جنة الدنيا، لتدخل جنة الآخرة.

كل ما أريده منك، إن سقى الكتاب شجرة الحب في قلبك أن تدعو لأخيك أن يدخله الجنة بلا حساب ولا عذاب.

والملتقى الجنة.

محمد سعد الشرقاوي

اللهم إنا نسألك حُبك، وحُب من يحبك، وحُب عمل يقربنا إلى حبك.
اللهم اجعلك أحب شيء إلينا.
اللهم اجعل حبك أحبّ إلينا من كل شيء، أحب إلينا من أموالنا وأهلينا وأنفسنا.
اللهم اجعل حُبك أحبّ إلينا من الماء البارد على الظمأ.
اللهم إنا نسألك الشوق إلى لقائك، ولذة النظر إلى وجهك الكريم.

حادي المسير



قال أبو أمامة رضي الله عنه:

حَبِّبُوا اللهَ إلى النَّاس يُحِبُّكم اللهُ عز وجل.

ليس حباً فحسب، بل أنت الأحبُّ



يقول الملك: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾.

ويقول الملك: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ الله بِأَمْرِهِ وَالله لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾.

ويدعو أعظم محب لربه، نبينا محمد ﷺ ربه، فيقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ، وَحُبًّا يُبَلِّغُنِي حُبَّكَ، وَحُبَّ عَمَلٍ يُبَلِّغُنِي حُبَّكَ**»[1].

وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يدعو الله في صلاته، فيقول:

«**اللَّهُمَّ اجْعَلْكَ أَحَبَّ شَيْءٍ إِلَيَّ، وَأَخْشَى شَيْءٍ عِنْدِي**»[2].

(١) أخرجه الترمذي في «سننه» (٣٢٣٥)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٥٨٢)

(٢) أخرجه القاسم بن سلام في «الطهور» (٩٧)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٣٠٤)، بإسناد صحيح.



المحبة روح كل مقام



مسألتنا ليست ترفا، ولا وجدا ولا ذوقا، إنما هذه المسألة قطب رحى الدين، وروح كل مقام من مقامات معراج قلب العبد إلى رب الأرض والسماء.

إنها أصل عقد الإيمان، لا يصح إيمان عبد إلا بها، أن تحب الله وحده حب تأليه وتعظيم وخضوع وذل وانقياد.

ثم أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما.

محبة الله أعظم محركات القلوب إلى الله تعالى، فهي رأس الطائر السائر، وجناحاه الخوف والرجاء.

واقرأ هذا الكلام الرائق للإمام ابن القيم رحمه الله ففيه كفاية:

وقال رحمه الله: «**إِذَا غُرِسَتْ شَجَرَةُ الْمَحَبَّةِ فِي الْقَلْبِ، وَسُقِيَتْ بِمَاءِ الْإِخْلَاصِ، وَمُتَابَعَةِ الْحَبِيبِ، أَثْمَرَتْ أَنْوَاعَ الثِّمَارِ. وَآتَتْ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا. أَصْلُهَا ثَابِتٌ فِي قَرَارِ الْقَلْبِ. وَفَرْعُهَا مُتَّصِلٌ بِسِدْرَةِ الْمُنْتَهَى**»[٣].

قال رحمه الله: «**لَوْ بَطَلَتْ مَسْأَلَةُ الْمَحَبَّةِ لَبَطَلَتْ جَمِيعُ مَقَامَاتِ الْإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ. وَلَتَعَطَّلَتْ مَنَازِلُ السَّيْرِ إِلَى اللَّهِ.**

فَإِنَّهَا رُوحُ كُلِّ مَقَامٍ وَمَنْزِلَةٍ وَعَمَلٍ. فَإِذَا خَلَا مِنْهَا فَهُوَ مَيِّتٌ لَا رُوحَ فِيهِ. وَنِسْبَتُهَا إِلَى الْأَعْمَالِ كَنِسْبَةِ الْإِخْلَاصِ إِلَيْهَا. بَلْ هِيَ حَقِيقَةُ الْإِخْلَاصِ، بَلْ هِيَ نَفْسُ الْإِسْلَامِ. فَإِنَّهُ الِاسْتِسْلَامُ بِالذُّلِّ وَالْحُبِّ وَالطَّاعَةِ لِلَّهِ. فَمَنْ لَا مَحَبَّةَ لَهُ لَا إِسْلَامَ لَهُ أَلْبَتَّةَ. بَلْ هِيَ حَقِيقَةُ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. فَإِنَّ الْإِلَهَ هُوَ الَّذِي يَأْلَهُهُ الْعِبَادُ ذُلًّا، وَخَوْفًا وَرَجَاءً، وَتَعْظِيمًا وَطَاعَةً لَهُ. بِمَعْنَى مَأْلُوهٍ. وَهُوَ الَّذِي تَأْلَهُهُ الْقُلُوبُ. أَيْ تُحِبُّهُ وَتَذِلُّ لَهُ. وَأَصْلُ التَّأَلُّهِ التَّعَبُّدُ. وَالتَّعَبُّدُ آخِرُ مَرَاتِبِ الْحُبِّ. يُقَالُ: عَبَّدَهُ الْحُبُّ وَتَيَّمَهُ: إِذَا مَلَكَهُ وَذَلَّلَهُ لِمَحْبُوبِهِ.

فَـ «**الْمَحَبَّةُ**» حَقِيقَةُ الْعُبُودِيَّةِ. وَهَلْ تُمْكِنُ الْإِنَابَةُ بِدُونِ الْمَحَبَّةِ وَالرِّضَا، وَالْحَمْدِ وَالشُّكْرِ، وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ!! وَهَلِ الصَّبْرُ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَّا صَبْرُ الْمُحِبِّينَ!! فَإِنَّهُ إِنَّمَا يُتَوَكَّلُ عَلَى الْمَحْبُوبِ فِي حُصُولِ مَحَابِّهِ وَمَرَاضِيهِ.

وَكَذَلِكَ الزُّهْدُ فِي الْحَقِيقَةِ: هُوَ زُهْدُ الْمُحِبِّينَ. فَإِنَّهُمْ يَزْهَدُونَ فِي مَحَبَّةِ مَا سِوَى مَحْبُوبِهِمْ لِمَحَبَّتِهِ.

---

(٣) مدارج السالكين (٣/ ١١)

وَكَذَلِكَ الْحَيَاءُ فِي الْحَقِيقَةِ: إِنَّمَا هُوَ حَيَاءُ الْمُحِبِّينَ. فَإِنَّهُ يَتَوَلَّدُ مِنْ بَيْنِ الْحُبِّ وَالتَّعْظِيمِ. وَأَمَّا مَا لَا يَكُونُ عَنْ مَحَبَّةٍ: فَذَلِكَ خَوْفٌ مَحْضٌ.

وَكَذَلِكَ مَقَامُ الْفَقْرِ فَإِنَّهُ فِي الْحَقِيقَةِ فَقْرُ الْأَرْوَاحِ إِلَى مَحْبُوبِهَا. وَهُوَ أَعْلَى أَنْوَاعِ الْفَقْرِ. فَإِنَّهُ لَا فَقْرَ أَتَمُّ مِنْ فَقْرِ الْقَلْبِ إِلَى مَنْ يُحِبُّهُ. لَا سِيَّمَا إِذَا وَحَّدَهُ فِي الْحُبِّ، وَلَمْ يَجِدْ مِنْهُ عِوَضًا سِوَاهُ. هَذَا حَقِيقَةُ الْفَقْرِ عِنْدَ الْعَارِفِينَ.

وَكَذَلِكَ الْغِنَى هُوَ غِنَى الْقَلْبِ بِحُصُولِ مَحْبُوبِهِ. وَكَذَلِكَ الشَّوْقُ إِلَى اللهِ تَعَالَى وَلِقَائِهِ. فَإِنَّهُ لُبُّ الْمَحَبَّةِ وَسِرُّهَا(٤).

(٤) مدارج السالكين (٣/ ٢٨)



سراج الحُب



بينما الناس يوم القيامة وقوف، ينتظرون فصل القضاء، قد دنت الشمس من رؤوس العباد، إذ برب العالمين سبحانه ينادي قائلا:

«أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي، الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي»(٥).

المتحابون بجلالي..

المحبة الخالصة أن يُحب المحبوب لكماله، والله ذو الكمال والجلال والإكرام.

كان النبي ﷺ يقول: **«أَلِظُّوا بِيَا ذَا الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ»**(٦).

أي: ألزموا هذه الدعوة، ألحوا على ربكم بجلاله وإكرامه، تعلقوا بربكم لأنه ذو الجلال والإكرام.

الله سبحانه يُحب لجلاله، ولجماله، ولعظيم إحسانه، وهذا سراج الحب.

إنها ثُلاثية الحب: الجلال، والجمال، والإحسان.

حب ناشئ عن كونه جليلا جميلا محسنا.

إن حديثنا هنا عن محبة مقترنة بتعظيم وإجلال، وتلك هي التي تثمر في القلب الإقبال على الله، وإيثاره على من سواه.

محبة تنشأ من معرفة العبد بربه، بأسماءه وصفاته ونعوت جلاله وعظيم جوده وكرمه وإحسانه.

محال أن يعرف العبد هذا الرب العظيم الجليل الجميل الغني الكريم ثم لا يكون أحب إليه من نفسه ومن كل شيء.

يقول إبراهيم بن علي: **«مَنِ الْمُحَالِ أَنْ تَعْرِفَهُ ثُمَّ لَا تُحِبُّهُ»**(٧).

ويقول أبو سعيد الخزاز: **«وَاعَجَبًا مِمَّنْ لَمْ يَرَ مُحْسِنًا غَيْرَ اللهِ كَيْفَ لَا يَمِيلُ بِكُلِّيَّتِهِ إِلَيْهِ»**(٨).

---

(٥) أخرجه مسلم (٢٥٦٦)

(٦) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٧٥٩٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٢١٣٠)

(٧) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤١٦)

(٨) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٦٦)



يظل العبد يتعرف على ربه ومولاه فيترقى في مقام محبته له حتى يسجد قلبه بين يدي مولاه سجدة لا يقوم منها إلى يوم القيامة.

فيكون في كل أحواله مخبتا منيبا، لأن قلبه لم يعد بين جوانحه إنما سافر قلبه لله وبالله وفي الله

جَرَتْ مَسْأَلَةٌ فِي الْمَحَبَّةِ بِمَكَّةَ – أَعَزَّهَا الله تَعَالَى – أَيَّامَ الْمَوْسِمِ، فَتَكَلَّمَ الشُّيُوخُ فِيهَا. وَكَانَ الْجُنَيْدُ أَصْغَرَهُمْ سِنًّا. فَقَالُوا: هَاتِ مَا عِنْدَكَ يَا عِرَاقِيُّ. فَأَطْرَقَ رَأْسَهُ، وَدَمِعَتْ عَيْنَاهُ. ثُمَّ قَالَ: عَبْدٌ ذَاهِبٌ عَنْ نَفْسِهِ، مُتَّصِلٌ بِذِكْرِ رَبِّهِ، قَائِمٌ بِأَدَاءِ حُقُوقِهِ، نَاظِرٌ إِلَيْهِ بِقَلْبِهِ، أَحْرَقَتْ قَلْبَهُ أَنْوَارُ هَيْبَتِهِ. وَصَفَا شُرْبُهُ مِنْ كَأْسِ وُدِّهِ. وَانْكَشَفَ لَهُ الْجَبَّارُ مِنْ أَسْتَارِ غَيْبِهِ. فَإِنْ تَكَلَّمَ فَبِاللهِّ. وَإِنْ نَطَقَ فَعَنِ اللهِّ. وَإِنْ تَحَرَّكَ فَبِأَمْرِ اللهِّ. وَإِنْ سَكَنَ فَمَعَ اللهِ. فَهُوَ بِاللهِّ وَللهِّ وَمَعَ اللهِّ[9].

وإليك سلفنا في هذا السبيل:

قال ابن القيم رحمه الله: «**فإذا قارن المحبة مهابة المحبوب وإجلاله وتعظيمه وشهود عز جلاله وعظيم سلطانه، انكسرت نفسه له وذلت لعظمته واستكانت لعزته وتصاغرت لجلاله وصفت من رعونات النفس وحماقاتها ودعاويها الباطلة وأمانيها الكاذبة، ولهذا فى الحديث: «يقول الله عَزَّ وجَلَّ: أين المتحابون بجلالى؟ اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى»، فقال: «أين المتحابون بجلالى»**، فهو حب بجلاله وتعظيمه ومهابته ليس حباً لمجرد جماله، فإنه سبحانه الجليل الجميل.

والحب الناشيء عن شهود هذين الوصفين هو الحب النافع الموجب لكونهم فى ظل عرشه يوم القيامة. فشهود الجلال وحده يوجب خوفاً وخشية وانكساراً، وشهود الجمال وحده يوجب حباً بانبساط وإدلال ورعونة. وشهود الوصفين معاً يوجب حباً مقروناً بتعظيم وإجلال ومهابة، وهذا هو غاية كمال العبد»[10]. اهـ

ويقول ابن القيم رحمه الله: «**فإذا انضم داعى الإحسان والإنعام إلى داعى الكمال والجمال لم يتخلف عن محبة من هذا شأنه إلا أردأ القلوب وأخبثها وأشدها نقصاً وأبعدها من كل خير، فإن الله فطر القلوب على محبة المحسن الكامل فى أوصافه وأخلاقه، وإذا كانت هذه فطرة الله التى فطر عليها قلوب عباده، فمن المعلوم أنه لا أحد أعظم إحساناً منه سبحانه وتعالى ولا شيء أكمل منه ولا أجمل**»[11]. اهـ

(٩) مدارج السالكين (٣/ ١٨)

(١٠) «طريق الهجرتين» (٢٩٣)

(١١) «طريق الهجرتين» (ص٣١٨)



شيء من الجلال



مهما كتب الكاتبون عن جلال وعظمة وكبرياء رب
العالمين لن يبلغوا مثقال ذرة من وصف جلاله وعظمته

أَعْلَى وَأَجَلُّ



يوم أحد.

وما أدراك ما يوم أحد؟

مشهد تشيب له الرؤوس.

حيث المعركة تشرف على النهاية.

حيث الشهداء تسيل دماؤهم الزكية على الأرض شاهدة على صدقهم وبطولاتهم ودفاعهم عن نبيهم ﷺ.

حيث يقف رسول الله ﷺ بين أصحابه بعد أن أشاع الشيطان أنه قُتل.

وهنا:

يرفع أبو سفيان عقيرته.

وينادي:

أَفِي القَوْمِ مُحَمَّدٌ؟ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ.

فيقول ﷺ: «**لاَ تُجِيبُوهُ**».

فقال أبو سفيان: **أَفِي القَوْمِ ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ؟** ثَلاَثَ مَرَّاتٍ.

فقال ﷺ: «**لاَ تُجِيبُوهُ**».

فقال أبو سفيان: **أَفِي القَوْمِ ابْنُ الخَطَّابِ؟** ثَلاَثَ مَرَّاتٍ

فقال أبو سفيان: **أَمَّا هَؤُلاَءِ، فَقَدْ قُتِلُوا**.

فقال عمر: **كَذَبْتَ وَاللهِ يا عَدُوَّ اللهِ، إِنَّ الَّذِينَ عَدَدْتَ لَأَحْيَاءٌ كُلُّهُمْ، وَقَدْ بَقِيَ لَكَ مَا يَسُوءُكَ**.

فقال أبو سفيان: **أُعْلُ هُبَلْ، أُعْلُ هُبَلْ**.

فقال النبي ﷺ: «**أَجِيبُوهُ**».

قَالُوا: **مَا نَقُولُ؟**



قَالَ: «قُولُوا: اللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ»

قال أبو سفيان: **لَنَا العُزَّى وَلاَ عُزَّى لَكُمْ.**

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَجِيبُوهُ»

قَالُوا: مَا نَقُولُ؟ قَالَ: «قُولُوا اللهُ مَوْلاَنَا، وَلاَ مَوْلَى لَكُمْ»[1].

الله أعلى وأجل، العلي الأعلى المتعال.

الله له العلو كله.

أعلى من كل شيء، أعلى في ذاته، وأعلى في شأنه، وأعلى في مقامه.

علا بذاته على جميع خلقه، فهو سبحانه خلق سبع أرضين، وفوق الأرضين سبع سموات، ثم فوق جميع مخلوقاته العرش العظيم، والرحمن على العرش استوى استواءً يليق بجلاله وكماله، قد أحاط بجميع خلقه، فهو الظاهر فليس فوقه شيء، وهو الباطن فليس دونه شيء.

قال الله: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ۝٥﴾. سورة طه.

قال الله عن ملائكته: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٤٩ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٥٠﴾. سورة النحل.

وعلا بشأنه وصفاته على جميع خلقه، فله من كل جميل حسن أعلاه وأطيبه.

وتعالى عن كل نقص وعن كل عيب.

تعالى عن الصاحبة، تعالى عن الولد، تعالى عن الشريك.

قال الملك العلي سبحانه: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٠٠ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝١٠١﴾. سورة الأنعام.

قال العظيم جل في علاه: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ۝٤٢ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ۝٤٣﴾ سورة الإسراء.

تسجد وتضع أعلاك في أسفل نقطة على الأرض عند قدميك لتقول سبحان ربي الأعلى.

قال الله: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١﴾. سورة الأعلى.

قال الله: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٦٠﴾. سورة النحل.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٠٣٩).

وإذا أصبحت عبداً للعلي الأعلى صَغُر في عينك كل طاغية فيعليك ربك بإيمانك به.

قال الله لموسى: ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾﴾. سورة طه.

وإذا أيقن قلبك علو ربك لم يستطع أن يتحرك إلا لأجله وحده.

قال الله: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَىٰ ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾. سورة الليل.

كل طواغيت العالم ممن خلعوا على أنفسهم، أو خلع الناس عليهم زورا وبهتانا ألقاب الجلال والعظمة والكبرياء، كلهم لا شيء.

سراب منتفخ، باطل لا حقيقة له.

وكأني بفرعون، ذاك القائل: أنا ربكم الأعلى.

وكأني به يدسُّ جندي من جنود الملك العزيز الأجلّ في فمه الطين.

حيث يقف جبريل عليه السلام، والماء يحيط بفرعون من كل جانب يستغيث ويصرخ، وإذ بجبريل يضع الطين في فمه.

أي شيء لك من الجلال والعظمة أيها المجنون.

دعك من هؤلاء، وتعال أحدثك عن ذي الجلال والإكرام.

أسلم لي قلبك، أحدثك عن الله، كي يغرس الله فيه شجرة حب، سقياها الأعظم مطالعة القلب لجلال الملك جل جلاله.



الحي الذي لا يموت



الحي الذي لا يموت
يحيي ويميت
خلق الموت والحياة
والحياة لا تكون إلا به ولا تكون إلا في جواره

فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ



كيف لا يُحب وهو الله الحي الذي لا يموت.

في يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول في السنة الحادية عشر من الهجرة النبوية المباركة.

وقع أعظم مصاب على قلوب أصحاب النبي ﷺ.

حتى أنهم أنكروا قلوبهم.

إنهم فجأة سمعوا أن رسول الله ﷺ مات.

ماذا؟

كان الخبر كالصاعقة.

لم يستطع الكثير منهم تصور الأمر.

ما معنى أنه مات؟

وكيف الحياة بعده؟

وقف عمر بن الخطاب - ذاك الجبل الأشم - ينادي بأعلى صوته قائلا: «**وَاللهِ مَا مَاتَ رَسُولُ اللهِ** ﷺ، **وَلَيَبْعَثَنَّهُ اللهُ، فَلَيَقْطَعَنَّ أَيْدِيَ رِجَالٍ وَأَرْجُلَهُمْ**».

ثم يأتي أبو بكر فيدخل على النبي ﷺ فيقبله ويبكي، ثم يقول: «**بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، طِبْتَ حَيًّا وَمَيِّتًا يَا نَبِيَّ اللهِ، لَا يَجْمَعُ اللهُ عَلَيْكَ مَوْتَتَيْنِ، أَمَّا الْمَوْتَةُ الَّتِي كُتِبَتْ عَلَيْكَ فَقَدْ مُتَّهَا**».

ثم يخرج أبو بكر على الناس وفيهم عمر فينادي عليهم قائلا: «**أَلَا مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا** ﷺ **فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ فَإِنَّ اللهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ**.

ثم تلا قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[الزمر ٣٠] وقوله سبحانه ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤][1].

من كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٦٧).

تخيل:

لو كان ربك يجوز عليه الفناء، أهذا رب؟!

لو جئت يوما تدعو ربك، فإذا به لا يجيبك، لأنه مات، أهذا رب؟!

رب العالمين هو الحي، واهب الحياة، خالق الموت والحياة، كل شيء هالك إلا وجهه جل في علاه.

قال الله: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. سورة غافر(٦٥).

الله هو الحي، له الحياة الكاملة.

حياته لم يسبقها عدم، ولا يلحقها فناء.

أنا وأنت وسائر الأحياء كنا يوما عدماً، موتى، ثم وهبنا ربنا تلك الحياة، ويأخذها منا متى شاء هو وحده.

حياته سبحانه لا يطرأ عليها غفوة ولا نوم ولا موت.

قال ربنا: ﴿الله لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾. سورة البقرة(٢٥٥)

ألم تسأل نفسك يوما: **لماذا لا ينام رب العالمين؟**

الجواب: لأنه رب العالمين، والنوم غفلة، ولا تصح ربوبيته لخلقه وتدبيره سائر شئونهم وهو نائم.

يقول النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ**»[٢].

حي لا يموت، قيوم لا ينام.

قال الله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِى لَا يَمُوتُ﴾. سورة الفرقان(٥٨) .

لذا كان الله ولا شيء معه، وكل شيء هالك إلا وجهه

قال الله: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾. سورة الرحمن

وهو الحي في ذاته، واهب الحياة لغيره.

كان كل شيء سواه عدما، فأوجده وخلقه وأحياه.

فما أضل هذا الإنسان الذي ضل عمن أحياه من الموت، ثم يميته، ثم يحييه.

قال الله: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. البقرة.

---

(٢) أخرجه مسلم في «**صحيحه**» (١٧٩)



خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ



كيف لا يُحب، والحياة والموت بيده هو وحده.

هو الذي خلق الموت والحياة اختبارا لك، ليظهر علمه فيك.

قال الله: ﴿الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾. سورة الملك (٢).

هو من يحيي ويميت، واهب الحياة، وخالق الموت.

يخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي.

قال الله: ﴿وَاللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾. سورة آل عمران (١٥٦)

يخلق الحياة، يوجدها، ويخلق الموت، ويوجده.

أحيا الأرض بعد موتها، تراها يابسة لا حياة فيها فينزل غيثه، فتدب فيها الحياة بعد الموت.

قال الله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾. سورة العنكبوت (٦٣).

هو واهب الحياة ومالكها.

هناك يوم القيامة بعد أن يدخل أهل الجنة الجنة، ويدخل أهل النار النار.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ كَهَيْئَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ، فَيُنَادِي مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، ثُمَّ يُنَادِي: يَا أَهْلَ النَّارِ، فَيَشْرَئِبُّونَ وَيَنْظُرُونَ، فَيَقُولُ: وَهَلْ تَعْرِفُونَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، هَذَا الْمَوْتُ، وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ، فَيُذْبَحُ ثُمَّ يَقُولُ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ فَلَا مَوْتَ»(٣).

اليوم في الدنيا حياة وموت، لأنه شاء ذلك، شاء أن تكون الدنيا فانية زائلة.

ويوم القيامة: خلود فلا موت، لأنه شاء لها الخلود.

يقال لأهل الجنة: «إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيَوْا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا»(٤).

وأما أهل النار فيتمنون الموت فلا يجدونه.

---

(٣) أخرجه البخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩).

(٤) أخرجه مسلم (٢٨٣٧).





هـؤلاء الجبابـرة الذيـن طالما حاربـوا ديـن الله، وقتلـوا أوليـاءه، وسـجنوا الدعـاة إلى الله، وصـدوا عـن سـبيل الله.

انظر حالهم في دار البوار، حيث لا موت، مع كل أسباب الموت.

يقـول الله: ﴿وَاسْـتَفْتَحُوا وَخَـابَ كُلُّ جَبَّـارٍ عَنِيـدٍ ﴿١٥﴾ مِـنْ وَرَائِـهِ جَهَنَّـمُ وَيُسْـقَى مِـنْ مَـاءٍ صَدِيـدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُـهُ وَلَا يَـكَادُ يُسِـيغُهُ وَيَأْتِيـهِ الْمَـوْتُ مِـنْ كُلِّ مَـكَانٍ وَمَـا هُـوَ بِمَيِّـتٍ وَمِـنْ وَرَائِـهِ عَـذَابٌ غَلِيـظٌ﴾. سـورة إبراهيـم (١٧).

يتمنون الموت فلا يجدونه، ينادون خازن جهنم: ليقض علينا ربك، ولكن:

قـال الله: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِـينَ فِي عَـذَابِ جَهَنَّـمَ خَـالِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَـتَّرُ عَنْهُـمْ وَهُـمْ فِيـهِ مُبْلِسُـونَ ﴿٧٥﴾ وَمَـا ظَلَمْنَاهُـمْ وَلَكِـنْ كَانُوا هُـمُ الظَّالِمِـينَ ﴿٧٦﴾ وَنَـادَوْا يَامَالِـكُ لِيَقْـضِ عَلَيْنَـا رَبُّـكَ قَـالَ إِنَّكُـمْ مَاكِثُـونَ ﴿٧٧﴾ لَقَـدْ جِئْنَاكُـمْ بِالْحَـقِّ وَلَكِـنَّ أَكْثَرَكُـمْ لِلْحَـقِّ كَارِهُـونَ ﴿٧٨﴾﴾ سـورة الزخرف.

فلا أحد أيا ما كانت قوته يملك إحياء نفسه، ولا البقاء على حياة نفسه، أو إحياء غيره.

هـو وحـده سـبحانه خالـق المـوت، يوجـده إن شـاء، فـلا أحـد أيـا مـا كانـت قوتـه يملـك أن يسـلب حيـاة مخلـوق إلا إذا أذن الله بذلـك.

هـذا غـلام أصحـاب الأخـدود يريـد الملـك الـذي ادّعـى أنـه رب وإلـه، أراد أن يقتـل غلامـا صغـيرا ضعيفـاً.

يرسله الملك مع جنوده، يريد أن يميته، أن يسلبه حياته، فيأمرهم أن يلقوه من أعلى جبل.

لكن:

اللهُ لم يأذن.

يرتجف الجبل، ويسقط الجنود صرعى، يأخذ الله حيواتهم، ويُبقي حياة الغلام.

يعـود الغـلام إلى الملـك الباطـل فتصيبـه الدهشـة قائـلا: «مـا فعـل أصحابـك»، أيـن الجنـود، كيـف لم تمـت؟!!

أجابه الغلام: «**كَفَانِيهِمُ اللهُ**».

يرسـل الملك طائفـة أخـرى مـن الجنـود، لكـن هـذه المرة إلى البحـر، لعـل الـبر يملكـه رب هـذا الغـلام دون البحـر.

يذهب الغلام معهم في قارب صغير.

ينقلب القارب، ويأخذ الله حياة الجنود، ويبقى الغلام حياً لأن الله أراد له الحياة.

يعود الغلام إلى الطاغية.

يكاد الطاغية أن يصاب بالجنون.

يسأل صارخا: أين أصحابك؟!!، أين الجنود؟!!

يرد عليه الغلام: **كَفَانِيهِمُ اللهُ**.

ثم يقول له بكل ثبات وقوة ويقين.

قوة وثبات من يعلم أن الموت والحياة بيد الله لا بيد غيره.

يقول: **إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ**(٥).

فلأنه واهب الحياة ومالكها وحده كن قويا شجاعا لا تخشى في الله لومة لائم، فحياتك ومماتك بيده لا بيد الخلق.

لماذا الجبن والفرار يا عبد الله؟

هل أرهبوك، هل أخافوك، هل هددوك بسلب الحياة؟

لا والله، لا يستطيعون، كيف لميت أن يهدد بالموت؟!

ولأنه الحي ومن سواه لا يملك حياة نفسه أمرك رب العالمين أن تتوكل عليه وحده

أن تتعلق به وحده، أن تعتمد عليه وحده، ألا ترجو أحدا سواه، فكل من سواه كانوا موتى ثم أحياهم ثم يميتهم ثم يحييهم.

أيمكن لعاقل أن يفوض أمره إلى ميت ولو كان في الظاهر حيا.

معارفك، وأصدقاؤك، وذوو الوجاهة والسلطان، كل هؤلاء لا يملكون حياتهم.

ماذا لو قصدت أحدهم فقالوا لك: مات.

أين وجهتك حينئذ؟

الله وحده متى قصدته وجدته حيا لا يموت، قيوما لا ينام.

قال الله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ الفرقان.

---

(٥) أخرجه مسلم في «**صحيحه**» (٣٠٠٥)





وَبِكَ نَحْيَا

كيف لا يُحب وحياتك لا تكون إلا به.

كان نبينا ﷺ إذا أراد النوم كل ليلة، قال: «**بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ أَمُوتُ وَأَحْيَا**»[٦].

وكان ﷺ إذا أصبح قال: «**اللَّهُمَّ بِكَ أَصْبَحْنَا، وَبِكَ أَمْسَيْنَا، وَبِكَ نَحْيَا وَبِكَ نَمُوتُ وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ**»[٧].

حياتك تكون بالله، هو من أحيا جسدك، وهو من يحيي روحك، فإذا أردت حياة لقلبك وروحك فالجأ إليه وحده.

كم من إنسان ماتت روحه وقلبه في جسده، فأصبح الجسد قبرا لهذه الروح وهذا القلب.

عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوم أن كافرا يسجد لوثن، كان ميتا.

فلما آمن أحياه الله.

قال الله: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. سورة الأنعام(١٢٢).

يا عبد الله، إن هناك حياة أخرى في هذه الدنيا غير حياة الأجساد، إنها حياة هذا القلب و الروح.

ولكل حياةٍ مادةُ إحياء، فالماء غداء الأجساد.

قال الله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾. سورة الأنبياء(٣٠).

ومادة حياة روحك وحياة قلبك هو الوحي، كلام الله وكلام رسوله ﷺ.

قال الله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. سورة الشورى(٥٢).

الله كما أنه أحيا الأرض بالغيث الذي ينزله من السماء ماءً فراتا، كذلك أحيا أرواح عباده وقلوبهم بكلامه الذي أنزله غيثا لقلوبهم.

وجعل الحياة في الإيمان به، والإقبال عليه، وطاعته، وترك معصيته.

---

(٦) أخرجه البخاري (٦٣١٢).

(٧) أخرجه الترمذي في «سننه» (٣٣٩١)، وصححه الشيخ الألباني في «**السلسلة الصحيحة**» (٢٦٢).



دعا خلقه لما فيه حياتهم، ونهاهم عما فيه موتهم، وهو أعلم بما يحييهم وما يميتهم.

الحياة لا تكون إلا في جواره.

قال الله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾. سورة الأنفال(٢٤).

الحياة فقط في جواره، ولكنها ليست تلك الحياة التي يشترك فيها الإنسان مع الفئران.

إنما هي الحياة الطيبة.

قال الذي يحيي ويميت سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. سورة النحل (٩٧).

تطيب الحياة عندما تكون مؤمنا طائعا، تحيا بالروح التي أنزلها الله، القرآن العظيم.

إنه الغيث الذي أنزله الله حياة لعباده.

أحكامه التي شرعها هي الحياة.

أولم تسمع قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. سورة البقرة(١٧٩).

عندما تغيب شمس الشريعة ستجد الموت في كل مكان.

ستجد رائحة الموت تزكم الأنوف.

ستجد القتل، والظلم، والقهر.

ستجد من يتأكلون بآلام الناس.

ستجد من يعيشون على صرخات اليتامى والأرامل.

سيقتلون الآلاف، بل الملايين، ويشعلون الحروب، حتى تمتلأ أرصدتهم البنكية.

سيبيعون الموت مع كل شيء، مع الطعام، والشراب، والدواء، فقط كي تنتفخ كروشهم.

ستراهم يستعبدون الناس في حياة الذل، الموت حينها أطيب وألذ، فقط كي تبقى عروشهم.

أما هنا، وما أدراك ما هنا؟ .. هنا تولد الحياة.. هنا في ظل وحي الله وشرعه، فقط تكون الحياة.

هذا الشرع الذي جعل سقيا كلب كفيلا بإدخال بغي جنة الخلد.

يقول النبي ﷺ: «أَنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا رَأَتْ كَلْبًا فِي يَوْمٍ حَارٍّ يُطِيفُ بِبِئْرٍ، قَدْ أَدْلَعَ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ،





فَنَزَعَتْ لَهُ بِمُوقِهَا فَغُفِرَ لَهَا»[8].

هذا الشرع الذي أخبرنا أن الله أدخل امرأة النار لأجل قطة، حبستها حتى ماتت.

يقول النبي ﷺ: «**عُذِّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرَّةٍ حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جُوعًا، فَدَخَلَتْ فِيهَا النَّارَ» قَالَ: فَقَالَ: وَاللهُ أَعْلَمُ: «لاَ أَنْتِ أَطْعَمْتِهَا وَلاَ سَقَيْتِهَا حِينَ حَبَسْتِيهَا، وَلاَ أَنْتِ أَرْسَلْتِهَا، فَأَكَلَتْ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ**»[9].

هنا ستجد نبي الله ﷺ يقول: «**مَنْ حَفَرَ مَاءً لَمْ يَشْرَبْ مِنْهُ كَبِدٌ حَرِّي مِنْ جِنٍّ وَلَا إِنْسٍ وَلَا طَائِرٍ إِلَّا آجَرَهُ الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[10].

هنا ستجد نبي الله ﷺ يقول: «**لَا يَغْرِسُ مُسْلِمٌ غَرْسًا، وَلَا يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلَ مِنْهُ إِنْسَانٌ، وَلَا دَابَّةٌ، وَلَا شَيْءٌ، إِلَّا كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً**»[11].

هنا، وهنا فقط سوف تسمع أن الله تعالى غفر لرجل لم يعمل خيرا قط إلا أنه كان يتجاوز عن المعسرين من أصحاب الديون.

يقول النبي ﷺ: «**حُوسِبَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَلَمْ يُوجَدْ لَهُ مِنَ الْخَيْرِ شَيْءٌ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يُخَالِطُ النَّاسَ، وَكَانَ مُوسِرًا، فَكَانَ يَأْمُرُ غِلْمَانَهُ أَنْ يَتَجَاوَزُوا عَنِ الْمُعْسِرِ»، قَالَ: «قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: نَحْنُ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْهُ، تَجَاوَزُوا عَنْهُ**»[12].

أعرفت الآن أين الحياة وأين الموت؟

الموت ليس فقط زوال الحياة؟

بل هناك حياة أبأس من الموت.. صنعها أولئك الذين ينشرون الموت في كل مكان.

أما رب العالمين، فإنه يريد لك الحياة، الحياة الطيبة.

هل سمعت بالدجال؟

الدجال صيغة مبالغة من الدَّجَل وهو الكذب، وهو عَلَم على المسيح الأعور الذي يظهر آخر الزمان، ويدعي أنه الرب.

كنت أتعجب لماذا سيتبعه الناس؟

---

(٨) أخرجه مسلم (٢٢٤٥).

(٩) أخرجه البخاري (٢٣٤٥)، ومسلم (٢٢٤٢).

(١٠) أخرجه ابن خزيمة في «صحيحه» (١٢٩٢)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٧١).

(١١) أخرجه مسلم (١٥٥٢).

(١٢) أخرجه مسلم (١٥٦١).



إليكم القصة:

هذا الدجال الأعور معه بعض الدنيا فإنه يأمر السماء أن تمطر فتمطر، والأرض أن تنبت فتنبت، حتى ترجع أنعامهم أسمن وأعظم، ويأمر الخربة أن تخرج كنزها فتخرج فيتبعه كثير من الناس(١٣).

نعم: إن كثيرا من الناس على استعداد أن يعيش عبدا للدجال الأعور في مقابل حياة الأنعام.

لكل زمان دجاجلة، يزيفون الحقائق، يصورون الموت على أنه حياة.

ينطلي كذبهم فقط على من يصدق فيهم قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾. سورة البقرة (٩٦).

أي حياة كانت، سيعيش، لا فرق عنده بين حياة طيبة وأخرى خسيسة.

أما أولئك الأطهار الذين لا يرضون بالدون، الذين أيقنوا بقوله سبحانه: ﴿وَمَا هَـٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾. سورة العنكبوت (٦٤).

لا يرضون إلا بالحياة الطيبة.

إما حياة تطيب بها الروح في هذه الدنيا، وإما حياة للروح حيث تأوي في قناديل معلقة بعرش الرحمن.

يقول مسروق: سَأَلْنَا عَبْدَ الله عَنْ هَـٰذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[آل عمران: ١٦٩] قَالَ: أَمَا إِنَّا قَدْ سَأَلْنَا عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: «أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلَاعَةً»، فَقَالَ: «هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟» قَالُوا: «أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا»، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا، قَالُوا: «يَا رَبِّ، نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى»، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا»(١٤).

ستراه يبذل روحه في سبيل الله، موقنا أنه لا يساق إلى الموت، وإنما إلى الحياة.

حيث قال الله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾. آل عمران ١٦٩.

---

(١٣) أخرجه مسلم (٢٩٣٧).

(١٤) أخرجه مسلم (١٨٨٧).

الأول فليس قبله شيء
والآخر فليس بعده شيء
كان الله ولا شيء معه ولا قبله،
وكل شيء هالك إلا وجهه.
والظاهر فليس فوقه شيء
والباطن فليس دونه شيء



اللهمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ



تدخل فاطمة بنت سيد الخلق نبينا محمد ﷺ يوماً عليه، وقد أنهكها تعب الحياة، وتركت الرحى أثراً على يديها الطاهرتين.

جاءت إلى أبيها تسأله خادما تستعين به على أعمال البيت، لكنها لم تجده، فذكرت ذلك لعائشة ﵂، فلما جاء النبي ﷺ أخبرته عائشة ﵂ بالأمر.

فذهب ﷺ إلى بيت ابنته ليلا، فوجدها وزوجها عليا ﵁ في لحافهما قد تهيئا للنوم، فاستئذن فدخل، ثم جلس بينهما، فقال:

لَا أُعْطِيكُمْ وَأَدَعُ أَهْلَ الصُّفَّةِ تَلَوَّى بُطُونُهُمْ مِنَ الْجُوعِ[1].

ثم قال لها بلسان الأب المشفق الحنون:

الَّذِي سَأَلْتِ أَحَبُّ إِلَيْكِ، أَوْ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ؟[2]. ابن ماجه (٣٨٣١) بإسناد صحيح.

قالت: **بَلْ مَا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ.**

قال لها قولي:

«اللهُـمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَرَبَّ الْأَرْضِ وَرَبَّ الْعَـرْشِ الْعَظِيـمِ، رَبَّنَـا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِـقَ الْحَـبِّ وَالنَّـوَى، وَمُنْـزِلَ التَّـوْرَاةِ وَالْإِنْجِيـلِ وَالْفُرْقَـانِ، أَعُـوذُ بِـكَ مِـنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْـتَ آخِـذٌ بِنَاصِيَتِـهِ، اللهُـمَّ أَنْـتَ الْأَوَّلُ فَلَيْـسَ قَبْلَـكَ شَيْءٌ، وَأَنْـتَ الْآخِـرُ فَلَيْـسَ بَعْـدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْـتَ الظَّاهِـرُ فَلَيْـسَ فَوْقَـكَ شَيْءٌ، وَأَنْـتَ الْبَاطِـنُ فَلَيْـسَ دُونَـكَ شَيْءٌ، اقْـضِ عَنَّـا الدَّيْـنَ، وَأَغْنِنَـا مِـنَ الْفَقْـرِ»[3].

الأول فليس قبله شيء.

أعط قلبك فرصة لتمرر عليه هذا المعنى:

كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ.

لم تكن لا أنت ولا أي شيء، كان الله وحده، لا شيء معه، ولا شيء قبله، لأنه: الأول فليس قبله شيء.

ثم خلق كل الخلق.. العرش، والكرسي، والملائكة، والسموات، والأرض، والجن، والإنس،

---

(١) أخرجه أحمد في «**مسنده**» (٥٩٦)، وإسناده جيد.

(٢) أخرجه ابن ماجه في «**سننه**» (٣٨٣١)، وصححه الشيخ الألباني في «**صحيح ابن ماجه**» (٣٠٨٩).

(٣) أخرجه مسلم (٢٧١٣).



والطـير، والجبـال، والشـجر، ويخلـق مـا لا تعلمـون.

ثم تأتي لحظة: «**كل شيء هالك إلا وجهه**».

يبقى هو وحده، لأنه: الآخر فليس بعده شيء.

فأوليـة كل شيء منـه.. أوليـة خلقـك منـه، فـأي شيء كان منـك ليخلقـك، أي سـبق إحسـان منـك تسـتحق بـه الخلـق.

كنت عدما فخلقك دون سبب منك أو سبق طاعة.

وأولية هدايتك منه، فأي فضل منك كان ليدلك عليه، ويهديك إليه.

وأولية طاعتك منه، فهو من حبب إليك الإيمان وزينه في قلبك، وكره إليك الكفر والفسوق والعصيان.

هو المبتدئُ بالإحسان إليك، وليس لك في ذلك فضل ولا مِنة.

الأول حيث ابتدئ هدايتك، فعرفك به، ودلك عليه قبل أي أحد.

هو من أعدّك، وهو من أمدّك.

أولم تسمع: «**وأنا اخترتك**».

أولم تقرأ: «**ولقد اخترناهم على علم على العالمين**».

إنك فقير اضطرارا إليه، ليس لك غيره أصلا لتتعلق به.

حرر نفسك من الأنداد، وصن قلبك عن التعلق بالأوثان، واعلم أن الأمر منه وإليه.

والله وتالله : منه وإليه، وحده لا شريك له.

سبقك سبحانه بالإحسان دون أدنى سبب منك، فكيف تشمخ بأنفك بعد هذا؟

قل لي بربك: أليس الفضل منه ابتداء، فكيف ذقت طعم نفسك الظلومة الجهولة؟

وهو الآخر، حيث يجود عليك بعفوه ومغفرته وتوبته.

وهو الآخر، إليه منتهى كل شيء، كل شيء هالك إلا وجهه، فإليه منتهى الحب والتعبد.

هـداك، فاهتديـت، فـزادك هـدى. . تـاب عليـك أولا، فتبـت إليـه ثانيـا، فقبـل توبتـك ثالثـا. فأنـت محفـوف بـين توبتـين، لأنـه الأول الآخـر.

فلا ابتداء لهدايتك إلا منه، ولا ثبات لك عليها إلا به.

فأنـت دومـا بـين هدايتـين، وبـين توبتـين، فـكل عملـك الصالـح ابتـدأك الله بالإحسـان إليـك فوفقـك لـه، ثـم إليـه المنتهـى في قبولـه وثوابـه، لأنـه الأول والآخـر.





وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ



وهو الظاهر فليس فوقه شيء، فكل خلقه دُونه.

دونه في كل شيء، لو اجتمعوا جميعا، الملائكة والإنس والجن، وكل خلقه.

لو اجتمعوا جميعا قوة وعلما وجمالا وحكمة وعزة وسمعا وبصرا وغنى فكانوا ما كانوا، فهم دون الملك، فهو فوق كل شيء.

وأنت على هذه الأرض تنظر بعين قلبك قبل عيني وجهك إلى هذه السماء فتوقن أن لك ربا فوق هذه السموات السبع، ملكا عظيما على العرش استوى.

تنظر إلى هذه السموات السبع، ثم الكرسي، ثم العرش، والرحمن على العرش استوى.

وانظر إلى هذه العظمة، وحاول تستحضر عظمة كل عظيم بجوار عظمة العظيم الجليل:

يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ عَامٍ.

وما بَيْنَ سَمَاءِ الدُّنْيَا وَالَّتِي تَلِيهَا مَسِيرَةُ خَمْسِ مئة عَامٍ.

وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءَيْنِ مسيرة خمس مئة عَامٍ.

وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَبَيْنَ الْكُرْسِيِّ مَسِيرَةُ خَمْسِ مئة عَامٍ.

وَبَيْنَ الْكُرْسِيِّ وَبَيْنَ الماء مسيرة خمس مئة عَامٍ.

وَالْعَرْشُ فَوْقَ الْمَاءِ، وَاللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فَوْقَ الْعَرْشِ، وَهُوَ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ[٤].

حتى نصل إلى العرش مسيرة خمسة آلاف سنة، والعرش سقف المخلوقات، لا يعلم عظمته إلا الله، والرحمن على العرش علا واستوى.

لأنه هو سبحانه الظاهر فكل خلقه دونه، وهو بهم محيط جل جلاله

تريد منه شيئا تجد لقلبك قبلة، وملاذا، وملجأً تلوذ إليه، ترى عينيك وقلبك شاخصين إلى السماء، كأنك تنادي على سيدك ومولاك.

وهكذا كان نبينا ﷺ كثيرا ما ينظر إلى السماء، وكان إذا دعا ربه رفع يديه إلى السماء ثم يسأل مولاه قائلا: اللهم، رب.

(٤) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (٦٥٩)، وابن خزيمة في «التوحيد» (٢/ ٨٥٥)، والدينوري في «المجالسة» (٢٨٣٠)، وصحح إسناده ابن القيم في «مختصر الصواعق الإسلامية» (٤٣٥).





الظاهر الذي علا عليهم بذاته وشأنه وقدره.. ومع هذا الظهور حيث هو سبحانه مستو على عرشه، بائن من خلقه، إلا أنه الباطن.

الباطن، فليس دونه شيء.

هذه الحجب، حجاب النور، والسموات السبع، والنجوم، والسحاب، وكل شيء، لا يحجبك عن ربك.

لَا يُوَارِي مِنْهُ سَمَاءٌ سَمَاءً وَلَا أَرْضٌ أَرْضًا، وَلَا جَبَلٌ مَا فِي وَعْرِهِ، وَلَا بَحْرٌ مَا فِي قَعْرِهِ.

هو سبحانه:

ليس شيء أقرب إليك منه، أقرب إليك من نفسك، ومن أنفاسك، ومن قلبك.. مع علوه هو أقرب إليك من كل أحد، أقرب إلى ناظريك من نظرك.. يعلم سرك، نجواك، خلجات نفسك، همومك وأحزانك، نياتك ومقاصدك.

باطنك له أظهر من ظاهرك لك.

الظاهر فليس فوق ظهوره شيء.

أظهر ربوبيته وألوهيته لخلقه بعظيم الأدلة الواضحة الدالة عليه، فجعل سبحانه في كل شيء آية تدلك عليه. قال سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾. سورة فصلت (٥٣).

فلا يعمى عن الله ولا يضل عنه إلا من استحب العمى على الهدى.

ومع ظهوره أعظم الظهور، فهو كذلك الباطن.

الباطن الذي احتجب عن العقول أن تكيفه، أو أن تحيط به علما.

ليس كمثله شيء، عقول جميع الإنس قاصرة عن أن تحيط به أو تعلم كنهه سبحانه.

سبحانه لا تدركه الأبصار، وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير.

العظيم الجليل



العظمة إزاره، والكبرياء رداؤه.

الكبير الأكبر

وما قدروا الله حق قدره

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ



في ذات يوم بينما نبينا ﷺ جالس بين أصحابه إذ دخل عليه حبر من أحبار اليهود.

فقال:

يَا مُحَمَّدُ إِنَّا نَجِدُ: أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ وَالأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلَائِقِ عَلَى إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ فَيَقُولُ أَنَا المَلِكُ أَنَا المَلِكُ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[1].

أي عظمة تلك؟!!

السموات السبع بعظمتها واتساعها وشموخها على إصبع.

الأرضين السبع بوديانها وسهولها وصحرائها واتساعها على إصبع.

مليارات الأشجار بل تزيد على إصبع.

الماء جميعا، مياه المحيطات والبحار والأنهار، وكل حبات التراب والرمال على إصبع.

سائر الخلق، ملايين الأنواع، وما تحتها من مخلوقات، مليارات من الملائكة والإنس والجن والطير والوحش، وما لا يعلمه إلا الله وحده، كل هذا على إصبع.

ثم: يهزهن جميعا.

يقول: أنا الملك أنا الملك.

الله أكبر: ما أعظمك وما أجلك ربي.

ومع ذلك يكون جواب النبي ﷺ تلاوة هذه الآية:

﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. سورة الزمر (٦٧).

(١) أخرجه البخاري (٤٨١١)، ومسلم (٢٧٨٦).





وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي



كيف لا يُحب والله هو الجليل العظيم الكبير.

يوم القيامة يقول الله تعالى: «أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلَالِي؟ الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي»[٢].

جلاله يحملك على حبه.

عظمته تملك عليك قلبك.

والله الذي لا إله غيره لو دخل القلبَ شيءٌ من عظمة الله وجلاله وكبرياءه لتاق شوقا إليه، ولسجد القلب من محبة ذي الجلال والإكرام.

إنه حب لجلاله سبحانه، ولعظمته، ولعلو ذاته وشأنه وصفاته.

الله:

عظيم كبير بذاته، عظيم كبير بشأنه وصفاته وأفعاله.

عظيم كبير بذاته فلا أعظم ولا أجل ولا أكبر من الله.

كل شيء مهما كبر ومهما عظم دون رب العالمين.

والله لو عرف قلبك عظمة رب العالمين لاستصغرت من سواه، ولعظم في عينيك أمره وقوله وحكمه، ولما أكْبَرت أحدا معه أبدا.

انظر إلى هذه الأرض واتساعها، كيف يكون حجمها بالنسبة للأرضين السبع.

الله تعالى لم يخلق أرضا واحدة.

قال الله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾. سورة الطلاق(١٢).

إذا: عندنا سبع أرضين، وسبع سموات.

هذه السموات السبع بالنسبة للكرسي كحلقة ألقيت في صحراء.

---

(٢) أخرجه مسلم في «**صحيحه**» (٢٥٦٦).



لـك أن تتخيـل أنـك ألقيـت خاتـما مثـلا في صحـراء شاسـعة، كـم يسـاوي هذا الخـاتـم في هـذه الصحـراء.

ثم الكرسي الذي وسع السموات والأرض هو موضع قدم الرحمن تبارك وتعالى.

قـال الله العظيـم في أعظـم آيـة في كتابـه: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾. سورة البقرة (٢٥٥).

ويقـول النبـي ﷺ: «مَا السَّماوَاتُ السَّبْعُ مَعَ الْكُرْسِيِّ إِلاَّ كَحَلْقَةٍ مُلْقَاةٍ بِأَرْضٍ فَلاةٍ، وَفَضْلُ الْعَرْشِ عَلَى الْكُرْسِيِّ كفضل الْفَلاَةِ عَلَى الْحَلْقَةِ»[٣].

وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «الْكُرْسِيُّ: مَوْضِعُ الْقَدَمَيْنِ، وَالْعَرْشُ لَا يُقْدَرُ قَدْرُهُ»[٤].

والرحمن على العرش استوى.

العـرش سـقف المخلوقـات جميعـا لا يعلـم قـدره وعظمتـه إلا الله، لـذا أذن الله أن نعـرف شـيئا عـن أحـد حملـة العـرش لأن العـرش مهـما وُصِـف فلـن يتحمـل عقلـك عظمـة خلقـه.

يقـول النبـي ﷺ: «أُذِنَ لِي أن أُحدِّثَ عـن مَلَكٍ مِنْ ملائكةِ الله مـن حَمَلة العـرش: إن مـا بـين شَـحمةِ أذُنِه إلى عاتِقِه مَسيرةُ سبع مئةِ عـام»[٥].

واحد فقط من حملة العرش ما بين شحمة أذنه إلى نهاية كتفه مسيرة سبعمائة عام.

هذا مَلَكٌ واحد، فكيف بالسبعة الأُخر، فكيف يكون هذا العرش.

فمن أنا؟ ومن أنت؟ ومن الناس؟

إذا استشـعرت ذلـك عرفـت معنـى عظمـة رب العالمين، وكبريـاء رب العالمين، وجـلال رب العالمين، ورأيـت نفسـك والنـاس جميعـا في أحجامهـم، وقدرتهـم بقدرهـم.

قال العظيم: ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. سورة الجاثية (٣٧).

لـه الكبريـاء الحـق في السـموات والأرض، فـكل متكـبر غـيره فكبريـاؤه باطـل، لأن الله هـو الكبـير حقـا، فكـبر ربـك، وعظـم مـولاك.

يقـول الله تعـالى في الحديـث القـدسي: «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي، فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا، قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ»[٦].

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٣٦١)، وصححه بمجموع طرقه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٩).
(٤) أخرجه ابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٤٨)، وصححه الشيخ الألباني في مختصر العلو (ص١٠٢).
(٥) أخرجه أبو داود في سننه (٤٧٢٧)، وصححه ابن حجر في فتح الباري (٨/ ٦٦٥)، والشيخ الألباني في مختصر العلو (ص١١٤).
(٦) أخرجه أبو داود في سننه (٤٠٩٠)، وصححه الشيخ الألباني في «**السلسلة الصحيحة**» (٥٤١).





أيها السالك إلى الله يجب أن تصحح التصورات، وتضع كل شيء في نصابه، لأنه من هنا يبدأ الخلل.

«إذ نسويكم برب العالمين».

لقي النبي ﷺ عدي بن حاتم، وكان يومئذٍ على النصرانية، فدعاه النبي ﷺ إلى الإسلام.

فقال له النبي ﷺ: **«مَا أَفَرَّكَ أَنْ يُقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؟ فَهَلْ مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ؟»**..

مَا أَفَرَّكَ أَنْ يُقَالَ: اللهُ أَكْبَرُ؟ فَهَلْ شَيْءٌ هُوَ أَكْبَرُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ؟

قال عدي: فأسلمت[٧].

هكذا يقال لهذه القلوب التي عظمت الأوثان والأنداد والطواغيت دون الله تعالى، يجب أن يقال لهذه القلوب: «هل من شيء أكبر من الله؟

يجب أن يعظم قلبك رب العالمين لأنه أهل التعظيم، ويجب أن يرى قلبك الناس على حقيقتهم.

يجب أن تراهم عبيدا مخلوقين مملوكين، سلطانهم وأموالهم عارية وهبة من رب العالمين، لا يملكون من سلطانهم شيئا، فليس لهم أن يتعاظموا أو يتكبروا.

نحن من نعظم من لا يستحق التعظيم، ونكبر من لا يستحق التكبير.

هم من صنعوا طواغيتهم، أضافوا لها هالة من التقديس، وهي لا شيء.

أصل الداء من فساد التصور.

انظر إلى العز بن عبد السلام سلطان العلماء.

خرج مرّة إِلَى السُّلْطَان أيوب فِي يَوْم عيد إِلَى القلعة، فشاهد العساكر مصطفين بَين يَدَيْهِ، ومجلس المملكة، وَمَا السُّلْطَان فِيهِ يَوْم الْعِيد من الأبهة، وَقد خرج على قومه فِي زينته على عَادَة سلاطين الديار المصرية، وَأخذت الْأُمَرَاء تقبل الأَرْض بَين يَدي السُّلْطَان.

فَالْتَفت الشَّيْخ إِلَى السُّلْطَان وناداه: يَا أَيُّوب، مَا حجتك عِنْد الله إِذا قَالَ لَك ألم أبوئ لَك ملك مصر ثمَّ تبيح الْخُمُور؟

فَقَالَ السلطان: هَل جرى هَذَا فَقَالَ نعم الحانة الْفُلَانِيَّة يُبَاع فِيهَا الْخُمُور وَغَيرهَا من الْمُنْكَرَات، وَأَنت تتقلب فِي نعْمَة هَذِه المملكة.

تخيل: يُنَادِيه كَذَلِك بِأَعْلَى صَوته، والعساكر واقفون.

فَقَالَ السلطان: يَا سَيِّدي هَذَا أَنا مَا عملته، هَذَا من زمَان أبي.

---

(٧) أخرجه أحمد في مسنده (١٩٣٨١)، وصحح إسناده الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على تفسير الطبري (١/ ١٨٦).



فَقَالَ الشيخ: أَنْت من الَّذين يَقُولُونَ «**إِنَّا وجدنَا آبَاءَنَا على أمة**».

فرسم السُّلْطَان بِإِبْطَال تِلْكَ الحانة.

يَقُول الباجي: سَأَلت الشَّيْخ لما جَاءَ من عِنْد السُّلْطَان، وَقد شاع هَذَا الْخَبَر: يَا سَيِّدي كَيفَ الْحَال؟

فَقَالَ يَا بني: رَأَيْته فِي تِلْكَ العظمة فَأَرَدْت أَن أهينه لِئَلَّا تكبر نَفسه فتؤذيه.

قال: فَقلت يَا سَيِّدي: أما خفته؟!

فَقَالَ: وَالله يَا بني استحضرت هَيْبَة الله تَعَالَى فَصَارَ السُّلْطَان قدامي كالقط[٨].

هذا هو الدواء: أن ترى كل مخلوق على حقيقته، أن يستحضر قلبك عظمة الله وكبرياءه وعلوه وجلاله، حينها لا يمكن أن تنافق مخلوقا، أو تداهن في دين الله عز وجل.

الله العظيم أهل أن تعظمه، وتعظم شعائره، وتعظم اسمه، وتعظم كتابه، وتعظم دينه، وتعظم أمره، وتعظم نهيه، وتعظم نظره لك، وسمعه إياك.

يقول الملك العظيم: ﴿**مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا**﴾. سورة نوح (١٣).

يقول الله: ﴿**ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ**﴾. الحج (٣٠).

يقول الله: ﴿**ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ**﴾. الحج (٣٢).

إذا وقر في قلبك تعظيم الملك سيعظم عندك اسمه أن تذكره على شيء مستقبح

قال مطرف بن عبد الله: «**لِيَعْظُمْ جَلَالُ اللهِ فِي صُدُورِكُمْ، فَلَا يُذْكَرُ اللهُ عِنْدَ مِثْلِ هَذَا يَقُولُ أَحَدُكُمْ لِلْكَلْبِ: أَخْزَاهُ اللهُ، وَلِلْحِمَارِ أَوِ الشَّاةِ**»[٩].

إذا وقر في قلبك تعظيم الملك ستعظم أمره، وتوقر حكمه، وتقدم أمره وحكمه على حكم غيره.

إذا وقر في قلبك تعظيم الملك ستعظم كلامه، لأنه القرآن العظيم، كلام العظيم.

إذا وقر في قلبك تعظيمه سبحانه لن يعظم عندك شيء سألت الله إياه لأنك تعلم أنه لا يتعاظم على الله شيء.

يقول النبي ﷺ: «**إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ فَلَا يَقُولَنَّ: اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ، وَلَكِنْ لِيُعْظِمْ رَغْبَتَهُ، فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَتَعَاظَمُ عَلَيْهِ شَيْءٌ أَعْطَاهُ**»[١٠].

(٨) ذكر هذه القصة السبكي في طبقات الشافعية (٨/ ٢١٢).

(٩) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٥١٣٦).

(١٠) أخرجه أحمد في مسنده (٩٩٠٠)، وصححه الشيخ الألباني في «**صحيح أبي داود**» (١٣٣٣).

عظيم في صفاته، عظيم في أفعاله.

فملكه أعظم الملك، ورحمته أعظم الرحمات، ومغفرته أعظم المغفرة.

وعفوه أعظم العفو، وحلمه أعظم الحلم، وفرحه أعظم الفرح.

وكرمه وجوده وإحسانه أعظم الجود وأعظم الكرم وأعظم الإحسان.

وهو ذو الفضل العظيم، والأجر العظيم.

قل لي بربك العظيم:

مهما قدمت، ومهما أطعت، ومهما بذلك، أتليق قرباتك تلك بهذا الملك العظيم الجليل؟

عندما يعظم ربك في قلبك تستصغر عملك، تستقله.

بل: تستحي منه.

بل: ستنتهي من صلواتك وقلبك قبل لسانك يقول: أستغفر الله.

بل أخبرني بربك العظيم:

بعدما مست شغافَ قلبك أطيافٌ من عظمة الملك أتراك تقدر على معصيته؟!

أتراك ترى معصية صغيرة في جنب الله.

أم أصبحت ترى أصغر مخالفة مثل جبل يوشك أن يسقط عليك.

عندما تركع في صلاتك عظّم ربك حق التعظيم، وقل بقلبك قبل لسانك: «**سبحان ربي العظيم**».

يقول النبي ﷺ: «**فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ عَزَّ وَجَلَّ**»[١١].

---

(١١) أخرجه مسلم (٤٧٩)



وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ



قَـالَ النبـي ﷺ: «إِنَّ للهِ تَبَـارَكَ وَتَعَـالَى مَلَائِكَـةً سَـيَّارَةً، فُضُـلًا يَتَتَبَّعُـونَ مَجَالِـسَ الذِّكْـرِ، فَـإِذَا وَجَـدُوا مَجْلِسًا فِيهِ ذِكْرٌ قَعَدُوا مَعَهُمْ، وَحَفَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِأَجْنِحَتِهِمْ، حَتَّى يَمْلَئُوا مَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَإِذَا تَفَرَّقُوا عَرَجُوا وَصَعِدُوا إِلَى السَّمَاءِ، قَالَ: فَيَسْأَلُهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِهِمْ: مِنْ أَيْنَ جِئْتُمْ؟»

فَيَقُولُونَ: جِئْنَا مِنْ عِنْدِ عِبَادٍ لَكَ فِي الْأَرْضِ، يُسَبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَكَ وَيُهَلِّلُونَكَ وَيَحْمَدُونَكَ وَيَسْأَلُونَكَ.

فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوْنِي؟

فَيَقُولُونَ: لَا وَاللهِ مَا رَأَوْكَ؟

فَيَقُولُ: وَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟

يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً، وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيدًا وَتَحْمِيدًا، وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا»[١٢].

الرباعية العظيمة.

ملحمة من الثناء على رب الأرض والسماء.

التسبيح، والتحميد، والتهليل، والتكبير.

يقول الله الكبير المتعال: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ﴾. سورة البقرة (١٨٥).

ما معنى أن تكبِّر الله.

الله هو الكبير.

الكبير بذاته، والكبير في صفاته، والكبير في أفعاله.

فلا أكبر منه سبحانه جل في علاه.

لكن هل الله حقا في قلبك أكبر من كل شيء؟

أكبر من نفسك؟

---

(١٢) أخرجه البخاري (٦٤٠٨)، مسلم (٢٦٨٩).





لا تستغرب، كم إنسان بائس وضيع يتكبر على ربه، ظن نفسه شيئا، وهو في الحقيقة تراب أو نطفة أحياه الكبير المتعال.

أو لم تسمع ذاك الأثيم الذي وقف أمام الخليل إبراهيم متبجحا قائلا: أنا أحيي وأميت.

إنه الطغيان الذي يغمر النفس الوضيعة عندما تشعر بالاستغناء.

كما قال الله: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ۝٦ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ۝٧﴾. سورة العلق.

في سورة العلق، يذكرك الله بمرحلة زمنية كنت فيها مجرد علقة، شيء مهين متعلق بجدار الرحم، هذا أنت أيها المسكين.

بل كل الناس كذلك، غنيهم وفقيرهم، قويهم وضعيفهم، ملكهم ومملوكهم، لا فرق، كلنا من ماء مهين.. كلنا تذلنا قطرة بول تحبس في جسد متهالك سيأكله الدود.

ألا تزال ترى نفسك كبيرا؟.. ألا يزال في عينيك كبراء مع الله، تكبر أقوالهم وأوامرهم وأحكامهم على حكم الله وأمره؟

هل كل كبراء الدنيا يتضاءلون في عينيك وفي قلبك إذا استشعر قلبك كبرياء رب العالمين؟

لقد أمرك الله أن تكبره، فقال: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾. سورة المدثر (٣).

ليس هذا فحسب، بل أن تملأ الدنيا بتكبيره، وتأمل ما أقصه عليك:

بينما الصحابة يتشاورون مع نبينا ﷺ في كيفية مناداة الناس للصلاة، أيتخذون بوقا كاليهود، أم جرسا كالنصارى[١٣].

وبينما هم كذلك إذ يُري ربنا عبد الله بن زيد وعمر بن الخطاب رؤيا فيها ما هو خير من ذلك وأطيب.

إنه أعظم نداء صدحت به الألسن لتنادي على القلوب المنهكة: أن هلموا إلى ربكم ليصلح لكم قلوبكم وأعمالكم.

إنه الأذان الذي يبدأ بالتكبير، ليخلع عن قلبك أي تعظيم لأحد دون الله.

الصلاة يا عبد الله ملحمة من التعظيم والتكبير لرب العالمين.

ينادى عليها بالتكبير، الله أكبر الله أكبر الله أكبر الله أكبر.

هكذا ليست مرة واحدة، بل مرات، كل مرة توقظ القلب من رقدته وغفلته، تقول أكبير غير الله تريد؟!

(١٣) أخرجه البخاري (٦٠٤).



ذاك النداء الذي تسمعه كل يوم خمس مرات ينادى به من أعالي المآذن الشامخات ليسري إلى قلبك ليذكره دوما أن الله أكبر من كل شيء.

ثم تستفتح صلاتك بالتكبير.

تكبيرة إحرام، لا يحرم بها فحسب ما كان مباحا من أمور الدنيا، بل يحرم بها قلبك فلا يُكبر أحدا غير الله.

وتركع بالتكبير، وتسجد بالتكبير، وهكذا ملحمة من التكبير طيلة الصلاة.

فإذا انحنيت يأتيك قول النبي ﷺ وهو يقول: «**فَأَمَّا الرُّكُوعُ فَعَظِّمُوا فِيهِ الرَّبَّ عَزَّ وَجَلَّ**»[١٤].

فتنحني في الصلاة معظما لربك فحسب.

نحن قوم لا ننحني إلا في الصلاة، لله رب العالمين وحده لا لغيره.

تقول وأنت راكع كما كان يقول نبينا ﷺ: «**سبحان ربي العظيم، سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْكِبْرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ**»[١٥]. «**اللَّهُمَّ لَكَ رَكَعْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَلَكَ أَسْلَمْتُ، أَنْتَ رَبِّي، خَشَعَ سَمْعِي وَبَصَرِي، وَمُخِّي وَعَظْمِي وَعَصَبِي، وَمَا اسْتَقَلَّتْ بِهِ قَدَمَيَّ، للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**»[١٦].

كأني بقلبك يقولها مدوية: يا من له وحده الملك والعظمة والكبرياء والجبروت لك وحدك ركعت، ولا أركع إلا لك، لأنه لا يستحق الركوع إلا أنت.

تركع هنا في محراب الصلاة لرب العالمين ثم تخرج إلى جميع الخلق ورأسك يناطح السماء، ليس كبرا على الناس، وإنما عزة وأنفة أن تخضع أو تنحني لغير الله.

تدخل الصلاة مكبرا، وتخرج منها مكبرا.. تخرج منها مكبرا ربك، معظما سيدك ومولاك الذي قال لك: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾. سورة المدثر (٣).

تكبره التكبير اللائق به، تُعظمه حق التعظيم، حيث قال لك: ﴿وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾. سورة الإسراء(١١١).

الله الكبير بذاته، الكبير في حكمه، الكبير في أمره.

فأمره أكبر من كل أمر، وحكمه أكبر من كل حكم، فتكبر أمره على أمر من سواه، وتكبر حكمه على حكم من سواه.

قال الله: ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾. سورة غافر(١٢)

أولم تسمع ما قاله أهل النار إذ تتقلب وجوههم في الجحيم، فينادون ربهم وهم في حسرات لا تنقطع:

---

(١٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٤٧٩).

(١٥) أخرجه النسائي في سننه (١٠٤٩)، وصححه الشيخ الألباني في «**صحيح أبي داود** » (٨١٧).

(١٦) أخرجه أبو داود في سننه (٧٦٠)، وصححه الشيخ الألباني في «**صحيح أبي داود**» (٧٣٨).





﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ۝٦٧ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ۝٦٨﴾. سورة الأحزاب.

هنا يذهب كبراؤهم، فيوقنون ألا كبير على الحقيقة إلا الله، وأنهم صنعوا طواغيتهم بأيديهم.

هناك سيرون حقيقة كبرائهم عندما يبعثهم ذو الكبرياء والعظمة فيذيقهم عذابه لما نازعوه رداء الكبرياء.

أولم يأتك أنه قال سبحانه في الحديث القدسي: «**الْعِزُّ إِزَارِي، وَالْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، فَمَنْ نَازَعَنِي بِشَيْءٍ مِنْهُمَا عَذَّبْتُهُ**»(١٧).

أما المؤمنون فقد وقر في قلوبهم عظمة وجلال وكبرياء ربهم فلم يروا معه كبيرا ولا عظيما.

وكأني بحديث النبي ﷺ وهو يقول: «**وَالتَّكْبِيرُ يَمْلَأُ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**»(١٨). يرسم لهم منهج الحياة.

يكبرون في النداء للصلاة، ويكبرون في صلواتهم، ويكبرون في أعيادهم، ويكبرون في جهادهم، ويكبرون عن صعودهم.

ويكأن تكبير العلي الكبير صار منهج حياة، يلهج به المسلم في كل حين.

هذا التكبير الذي يجعلك تضع الخلق جميعا في حجمهم الصحيح، عباد مخلوقون ضعفاء مملوكون، ليس لهم من ذواتهم ولا من غيرهم شيئا.

هم في الحقيقة عراة حتى عن ألقابهم، عراة عن كل مَلَكة، فأنى لهم العظمة والكبرياء.

فإذا اختال أحدهم بين يديك بنسبه، أو ماله، أو سلطانه، عرفت أنه ناقص استغنى، لكن في الحقيقة ابن الماء المهين.

عندما يأمرك أحدهم أن تعظم أمره، أو تكبر حكمه، لتعارض به أمر الله وحكمه، قل له: الله أكبر.

أمر الله أكبر من أمرك، وحكم الله أكبر من حكمك.

الذي قال: ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾. سورة غافر (١٢).

هذا التكبير الذي يجعلك دائما صغيرا أمام نفسك، إذا حدثتك أنك فلان، وأن فيك شيئا يحملك على رؤية هذه النفس، يأتيك كبرياء الله الذي وقر في قلبك ليردك ذليلا بين يدي ربك، متواضعا خاشعا متبذلا قائلا: أنا عُبيدك المسكين.

عندما يحملك سلطانك على قهر مسكين لأنك في عرف المساكين أكبر منه يأتيك قوله سبحانه: ﴿فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ النساء (٣٤).

(١٧) مسلم (٢٦٢٠)، والبخاري في «**الأدب المفرد**» (٥٥٢)، واللفظ له.

(١٨) أخرجه النسائي (٢٤٣٧)، وصححه الألباني في «**صحيح الجامع**» (٩٢٥).



فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ



بينما يقف كليم الرحمن موسى عليه السلام يكلم ربه.

إذ به يحدوه الشوق، ويدفعه الحب .

فيقول: «رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ».

لكن أنَّى لموسى أن يقدر على رؤية الله بجلاله وعظمته في هذه الدنيا.

لكن برحمته ولطفه بعبده قال له: ﴿لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾. سورة الأعراف (١٤٣).

وهنا أظهر الله من جلاله قدر أنملة من إصبعك الصغير الأخير (الخنصر)، أدنى تجلٍ.

تلا نبينا ﷺ قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾، ثم وضع إِبْهَامَهُ عَلَى مَفْصِلِ الْخِنْصَرِ قَالَ: فَسَاخَ الْجَبَلُ[١٩].

أي: لم يُظهر ربنا من جلاله إلى هذا المقدار اليسير جدا، فلم يتحمل الجبل الأشم الصلب ذاك القدر اليسير من جلال الملك فأصبح دكا لا أثر له.

من هول الموقف خرّ موسى صعقا..

لماذا؟

لقد صعق موسى من رؤية جبل تعرض لقدر أنملة من ذات العظيم فكيف لو رأى العظيم جل جلاله.

لقد حجب الله جلال وجهه في هذه الدنيا عن خلقه بحجاب من نور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه

يقول النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**»[٢٠].

---

(١٩) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤١٠٤)، بإسناد صحيح.
(٢٠) أخرجه مسلم (١٧٩).



الملك الحق



مالك الملك، لا شريك له.
بيده ملكوت كل شيء، وله كل شيء
يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء

مَجَّدَنِي عَبْدِي



عندما تقف بين يدي ربك في الصلاة، ينصب وجهه إليك، يسمع كلامك، ويجيب دعائك.

تناجيه، تكلمه، فيسمع، ويجيب.

إذا قلت: الْحَمْدُ للهَّ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

قال الله: حَمِدَنِي عَبْدِي.

وإذا قلت: الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال الله: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي.

وإذا قلت: مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ.

قال الله: مَجَّدَنِي عَبْدِي[1].

التمجيد هو التعظيم، فعندما ينسب العبد الملك لله وحده، في الدنيا والآخرة، فإنه يعظم ربه حق التعظيم.

الله هو الملك، الملك الحق.

دَخَلَ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ المَلِكِ الْكَعْبَةَ، فَإِذَا هُوَ بِسَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللهَّ، فَقَالَ: سَلْنِي حَاجَةً، قَالَ: إِنِّي أَسْتَحِي مِنَ اللهَّ أَنْ أَسْأَلَ فِي بَيْتِهِ غَيْرَهُ، فَلَمَّا خَرَجَ خَرَجَ فِي أَثَرِهِ، فَقَالَ: الآنَ قَدْ خَرَجْتَ فَسَلْنِي حَاجَةً، فَقَالَ: وَاللهَّ مَا سَأَلْتُ الدُّنْيَا مَنْ يَمْلِكُهَا، فَكَيْفَ أَسْأَلُهَا مَنْ لا يَمْلِكُهَا[2].

عندما يقال: فلان مَلِكٌ، أو الملك فلان بن فلان، يقال: وماذا يملك؟، وما غاية ملكه؟

الله هو الملك.

فما الذي يملكه الله؟

الله يملك كل شيء، وغيره لا يملكون أي شيء، حتى أنفسهم، حتى قلوبهم، حتى أنفاسهم.

﴿إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَـٰذِهِ الْبَلْدَةِ الَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُ كُلُّ شَىْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾.
سورة النمل (٩١).

(١) أخرجه مسلم (٣٩٥).
(٢) تاريخ الإسلام للذهبي (٣/ ٤٩).





وله كل شيء. كل شيء ملك له وحده، ما من شيء إلا والله أوجده من عدم.

تعال أيها الطيب لِنَفُضَّ التعلق بالأنداد.

طالما خشي الناس غير الله، ورجوا غير الله، وذلوا لغير الله، ظنا منهم أنهم يملكون شيئا.

فلما ظن الناس ذلك تعلقت قلوبهم بهؤلاء خوفا أن يمنعوا عنهم ما يملكون.

قل لقلبك: اطمئن.

الملك لله وحده.

الله مالك الملك، وملك الملوك، بيده الملك يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء.

يملك السموات السبع وما فيها، والأرضين السبع وما عليها، ويملك السموات والأرض وما بينهما.

يملك الملائكة، والإنس، والجن، والطير، والوحش.

يملك الحياة والموت، والنفع والضر.

قال الله: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾. سورة المؤمنون.

قال الله: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾. سورة المائدة (١٧).

قال الله: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾. سورة المائدة (١٢٠).

الله تعالى يخاطب قلبك وروحك فيقول: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. سورة البقرة (١٠٧).

هو ملك الناس، يملك هذه النفوس.

أنت صنعة الملك وحده، لا شراكة لأحد فيك مع الله، لم يتخذ أحدا من خلقه معاونا أو مساعدا ليخلقك.

هو من يملك النفع والضر.

يا عبد الله، كل خلق الله لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، فكيف يملكون هذا لغيرهم، فاجعل وليك الملك الحق لا هؤلاء الذين لا يملكون مثقال ذرة.

قال الملك الحق: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾. سورة الرعد(١٦).

الله يملك السمع والبصر.

سمعُ كل مخلوق هو من يملكه، يُسْمِعُك الله ما شاء هو لك أن تسمعه.

بصرُ كل مخلوق هو من يملكه، يُريك الله ما شاء لك أن تبصره وتراه.

قال الملك سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ الله فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾. سورة يونس (٣١)

يملك القلوب.

هذه القلوب هو من يملكها.

إذا شاء الله لقلب أن يحب أحدا ألقى فيه حبه، وإذا شاء الله لقلب أن يبغض أحدا ألقى فيه بغضه.

أولم تسمع قوله سبحانه: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ۝ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. سورة الأنفال (٦٣).

لو أنفقت كل ما في الأرض من مال ومتاع لتلقي حب أحد في قلب عبد لم يشأ الله له حبه ما استطعت، لأن قلب العبد ليس بيده أصلا فضلا أن يكون بيد غيره.

فإذا أردت محبة أحد لك فعلق قلبك بالله، فالقلوب بيده وحده.

تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: كَانَ النبي ﷺ **«يَقْسِمُ بَيْنَ نِسَائِهِ، فَيَعْدِلُ، وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ هَذِهِ قِسْمَتِي فِيمَا أَمْلِكُ، فَلاَ تَلُمْنِي فِيمَا تَمْلِكُ وَلاَ أَمْلِكُ»**[٣].

يملك القلوب.

فقد يحول الله بين العبد وقلبه إذا أعرض عن ربه ومولاه.

قال الملك سبحانه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾. سورة الأنفال (٢٤).

فأي قلب أقبل عليه أقامه على الهدى، وأي قلب زاغ أزاغه الله عن الهدى.

يقول النبي ﷺ: **«إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ»**[٤].

---

(٣) أخرجه الترمذي (١١٤٠)، وصحح إسناده ابن كثير في تفسيره (٦/ ٤٤٧).
(٤) أخرجه مسلم (٢٦٥٤).



ويقول النبي ﷺ: «مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا وَهُوَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، إِنْ شَاءَ أَنْ يُقِيمَهُ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَنْ يُزِيغَهُ أَزَاغَهُ»(٥).

وهذا يخوفك ويؤمنك.

يخوفك فتظل طيلة عمرك لا تأمن نفسك، ولا تعجب بعملك، بل تلجأ إلى ربك أن يقيم قلبك على طاعته، ويصرفه في مرضاته، ويثبه على دينه.

كما كان ﷺ يفعل، حيث كان يكثر من قول: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ»(٦).

ويؤمنك لأن قلبك بيد رب العالمين الكريم الرحيم، الذي سبقت رحمته غضبه، وأنه سبحانه لا يزيغ قلب العبد إلا إذا زاغ العبد عن طريق مولاه، وأراد الضلال.

قال الملك سبحانه: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ الله قُلُوبَهُمْ وَالله لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾. سورة الصف (٥)

يملك القلوب. وهو وحده من إذا مدحك فمدحه زين، ومن إذا ذمك فذمه شين.

ذات يوم قال رجل من الأعراب للنبي ﷺ: «يَا رَسُولَ الله إِنَّ حَمْدِي زَيْنٌ وَإِنَّ ذَمِّي شَيْنٌ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: ذَاكَ الله عَزَّ وَجَلَّ(٧).

هو يريد أن يقول أن له كلمة مسموعة نافذة مصدقة عند الناس، يملك بيانا يسحر به قلوب الناس، كعادة الشعراء في زمانهم، والإعلاميون في زماننا.

كان الشاعر ينظم القصيدة في مدح أو ذم فلان فتطير بها الركبان، ويصبح مثار تعظيم أو استهزاء عند الناس، كحال الإعلاميين اليوم يؤلفون الإفك حول شخص، ويحبكون الحديث، حتى إذا سمعه الناس ظنوا الضعيف قويا، والشريف وضيعا، والحقير عظيما، ويصبح أبو جهل العالم النحرير.

فكان ردُّ النبي ﷺ عليه: أن الذي يملك الخفض والرفع الله، لا أنت ولا الدنيا بأسرها، فلا خافض لما رفع، ولا رافع لما خفض.

هو من يملك الحب والبغض، والثناء والذم، بيده أن يجبر القلوب على حب هذا وبغض ذاك.

الله يملك الدنيا والآخرة.

قال الله جل في علاه: «مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَكَانَ الله سَمِيعًا بَصِيرًا﴾. سورة النساء (١٣٤)

---

(٥) أخرجه أحمد في مسنده (١٧٦٣٠)، وصححه الشيخ الألباني في «**صحيح ابن ماجه**» (١٦٥)

(٦) أخرجه الترمذي في سننه (٢١٤٠)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح ابن ماجه (٣٠٩٢)

(٧) أخرجه الترمذي في «سننه» (٣٢٦٧)، **وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترمذي»** (٢٦٠٥)



وقال سبحانه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾﴾. سورة الإسراء.

تأمل: لمن نريد.

لأن الدنيا ليست بيد أحد من أهل الدنيا.

لذا يقول النبي ﷺ: «**وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ الله لَكَ**»[(٨)].

ثم هذا الملك كله بيد الله وحده، لا شريك له سبحانه في ملكه.

قال الله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾. سورة الفرقان(٢)

يا عبد الله: غير الله لا يملكون مثقال ذرة.

بل ليس لأحد قط شراكة مع الله في مُلك ذرة، فعلق قلبك بالملك الحق، فكل من سواه مُلكهم باطل زائل، لا يملكون على الحقيقة، بل هم وما يملكون مِلك لله تبارك وتعالى.

قال الله: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾. سورة سبأ (٢٢)

بل حتى تلك اللفافة التي تكون على النواة، لا يملكها إلا الله.

قال الملك الحق سبحانه: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ الله رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾. سورة فاطر (١٣)

فالملك كله بيده لا بيد غيره.

قال الله: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. سورة الملك (١)

وكأني بك تقول: ولكن ملوك الأرض أليسوا ملوكا؟

نعم ملوك، لكن ملوك مملوكون لله، هم وما يملكون ملك رب العالمين، هو من وهبهم الملك، هو من ملّكهم. . لذا ملكهم على الحقيقة مُلك مستعار، مُلك مزيف.

والملك الحق هو الله وحده.

قال الله: ﴿فَتَعَالَى الله الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ المؤمنون.

(٨) أخرجه الترمذي في سننه (٢٥١٦)، وصححه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (٢٣٨٢).





هذه الأموال وهذا المتاع الذي بأيدينا ألسنا نملكه؟

مسكين هذا الإنسان.. الله هو الملك مالك الملك، يؤتي الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء سبحانه.

قال الله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾. سورة آل عمران (٢٦)

وكل ما في أيدي الخلق محض هبته، وفضل من عطاياه سبحانه.

لذا قال الله: ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾. سورة الحديد (٧)

إلا أن كثيرا من بني الإنسان عندما يؤتيه الله بعض الملك يظن المسكين أن له من الملك شيئا، فيحمله ذلك على الطغيان، كما فعل النمرود.

قال الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾. سورة البقرة (٢٥٨)

لكن كل أحد ستأتيه لحظة يوقن فيها أن الملك لله، وذلك يوم الدين، يوم القيامة، عندما يقبض الجبار السموات والأرض بيمينه ثم يهزهن ويقول أنا الملك، أين ملوك الأرض؟

لمن الملك اليوم؟.. لله الواحد القهار.



لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي



ويُحمد ربنا على أن الملك ملكه لا ملك غيره.

كيف لا يُحب وهو الملك، والحمد لله أنه الملك، الذي لم يجعل ذرة من مُلك لأحد.

كان النبي ﷺ إذا أصبح أو أمسى، قال: «أَصْبَحْنَا وَأَصْبَحَ الْمُلْكُ لِلَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ..»[٩].

لله الحمد كله أن جعل الملك بيده لا بيد الخلق.

الخلق ينسون وربي لا ينسى.

الخلق يبخلون وربي غني كريم.

الخلق يتعاملون بالهوى، وربي يأمر بالعدل والإحسان.

الخلق يغضبون، وربي سبقت رحمته غضبه، وإن غضب فإنه يحلم، وإن عاقب فإنه يعاقب من يستحق لا عن هوى.

الله ملك غني كريم رحيم حكيم، فلا يبخل، ولا يخشى الفقر، ولا يعطي ويمنع عبثا.

لذا حمد الله نفسه أن الملك له.

قال الله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾. سورة سبأ (١)

تخيل لو أعطى الله شيئا من خزائن ملكه لإنسان، كيف يكون عطاء هذا الإنسان ومنعه؟

قال الله: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾. سورة النساء (٥٣)

وقال الله: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾. سورة الإسراء (١٠٠)

لو أعطى الله ملكه لأكمل المؤمنين إيمانا لربما منع العطاء عمن كفر بالله.

لكن الله يعطي العباد لا لإيمانهم ولكن يعطيهم لأنه ربهم، ومدبر أمرهم، وليس لهم رب غيره.

يقول النبي ﷺ: «لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، إِنَّهُ يُشْرَكُ بِهِ، وَيُجْعَلُ لَهُ الْوَلَدُ، ثُمَّ هُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ»[١٠].

عش عزيزا كريما، لا تذل نفسك إلا لله الملك الحق، وعامل الخلق على حقيقتهم أنهم مملوكون لا يملكون لأنفسهم ولا لغيرهم شيئا.

قال ربك: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. سورة المائدة (٧٦)

---

(٩) أخرجه مسلم (٢٧٢٣).

(١٠) أخرجه البخاري في صحيحه (٦٠٩٩)، ومسلم في «صحيحه» (٢٨٠٤).



وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ



كيف لا يُحب وهو وحده من ينزع الملك ممن يشاء.

طفل صغير ملّكه الله حياة، لكنها كانت قصيرة.

أصابه المرض، وفي ذات ليلة شاء الملك أن ينزع الله تلك الحياة المؤقتة القصيرة عن ذاك الطفل.

يأتي أبوه وهو صحابي كريم، أبو طلحة رضي الله عنه، فيسأل عن حال ولده.

فقالت الأم الصالحة أم سليم: هُوَ أَسْكَنُ مَا كَانَ.

ثم قربت لزوجها العشاء، فأكل وشرب، ثم تزينت له، ففعل معها ما يفعل الرجل بامرأته.

ثم قالت له: يَا أَبَا طَلْحَةَ أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ قَوْمًا أَعَارُوا عَارِيَتَهُمْ أَهْلَ بَيْتٍ، فَطَلَبُوا عَارِيَتَهُمْ، أَلَهُمْ أَنْ يَمْنَعُوهُمْ؟

قال: لا.

قَالَتْ: فَاحْتَسِبِ ابْنَكَ[11].

دائما الإنسان في خوف، يخشى الفقد.

يخشى فقد ما يحب، يخشى فقد ولده، أو والديه، أو زوجه، أو ماله، أو...

قد يهدده ظالم بأخذ ما يُحب إن لم ينحني له.

المؤمن يوقن أن الملك الذي يؤتي الملك، وينزع الملك، الله وحده لا غير.

فإن لم يأذن الملك سبحانه بنزع ملك عبدٍ فإن كل ملوك الأرض لن يستطيعوا فعل شيء أبدا.

قال الله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. سورة آل عمران (٢٦)

وعندما توقن أن الذي ينزع عنك ما تملك هو من ملّكك ما تملك وهو الله وحده، يطمئن قلبك.

تحمده وهو ينزع عنك ملكه لا ملكك، فإن ما في يدك محض عارية أنت مُستخلف فيه لأجل.

لا يمكن أن يسخط قلبك على نزعه منك ما وهبك إياه.

ستنطق حينها راضيا: إنا لله وإنا إليه راجعون.

إنا لله: أي نحن وما نملك ملك لله، فإن أخذ فهو الذي أعطى.

---

(١١) أخرجه البخاري (٥٤٧٠)، ومسلم (٢١٤٤).





الصورة الكاملة



وكأني بك تقول: ولماذا ينزع الله الملك، وهو الملك الغني؟

ربما هناك آلاف الأجوبة، وملايين الحِكَم التي لا يمكن لعقلي ولا لعقلك فَهْم عشر معشارها، ولكن:

دعني أحدثك بجواب واحد، وحكمة واحدة، لعله يسكن ما في قلبك.

يجلس رجل صالح مع زوجته الطيبة المؤمنة، وفجأة:

يأتيهم الصارخ: قتل رجلٌ غريب ابنكم.

لك أن تتخيل كم هو حجم المصيبة، وفداحة الابتلاء.

مات الابن، بل قُتل. لماذا؟

اقرأ معي قول الملك الحكيم: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١)﴾. سورة الكهف.

يقول النبي ﷺ: «**وَأَمَّا الْغُلَامُ فَطُبِعَ يَوْمَ طُبِعَ كَافِرًا، وَكَانَ أَبَوَاهُ قَدْ عَطَفَا عَلَيْهِ، فَلَوْ أَنَّهُ أَدْرَكَ أَرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا**»(١٢).

لقد رأيت جزءا من الصورة، حيث يجلس رجل وزوجته، من أهل الإيمان، يبتليهم الله بفقد الولد، بل بقتله.

لعلك تنظر في جزء الصورة: حيث البكاء والحزن على مرارة الفراق.

لكن: عندما تكتمل الصورة تستشعر كيف كان لطفه في نزع الملك وسلب الحياة.

الصورة الكاملة هنا:

بيت صالح، زوج مؤمن وامرأة مؤمنة، لهما ولد، لو بلغ محل التكليف لكان كافرا.

سيكون شؤماً وغماً وهما وحزنا على أبويه.

لكن كان تقدير الملك محفوفا بالرحمات.

يأخذ الولد صغيرا الذي لو بلغ لكان كافرا، ولربما كان سببا في كفر أبويه.

ثم يبتلي الزوج وزوجته المؤمنين، فيرفع الله درجاتهما في جنان الخلد.

ثم يعوضهما الملك ابنا صالحا آخر تقر به أعينهما.

الآن: قد أعطيتك جوابا واحدا، ليطمئن قلبك.

---

(١٢) أخرجه مسلم (٢٣٨٠).



السميع البصير



وسع سمعه الأصوات، ولا يغيب عن عينه
ذرة في الظلمات.

الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ كُلَّ شَيْءٍ



كيف لا يُحب وهو السميع الذي وسع سمعه كل شيء.

بينما النبي ﷺ جالس في بيته مع أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، إذ جاءت خولة بنت ثعلبة تشتكي زوجها الذي ظاهر منها (**أي قال لها: أنت عليّ كظهر أمي، يقصد تحريمها عليه**).

وهي في ناحية الحجرة تشتكي، وعائشة تسمع بعض كلامها، ويخفى عليها بعضه.

وهي تقول: يَا رَسُولَ اللهِ، أَكَلَ شَبَابِي وَنَثَرْتُ لَهُ بَطْنِي، حَتَّى إِذَا كَبِرَتْ سِنِّي وَانْقَطَعَ لَهُ وَلَدِي ظَاهَرَ مِنِّي.

اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ.

وما هي إلا لحظات، حتى ينزل جبريل عليه السلام بالوحي، فيتلو على النبي ﷺ قوله سبحانه:

﴿قَدْ سَمِعَ الله قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَالله يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾. سورة المجادلة (١).

وهنا تعجب عائشة رضي الله عنها فتقول: «**تَبَارَكَ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ كُلَّ شَيْءٍ، إِنِّي لَأَسْمَعُ كَلَامَ خَوْلَةَ بِنْتِ ثَعْلَبَةَ وَيَخْفَى عَلَيَّ بَعْضُهُ، وَهِيَ تَشْتَكِي زَوْجَهَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ**»[(١)].

سمعها رب العالمين من فوق سبع سموات، ولم تسمعها عائشة رضي الله عنها، وهي معها في حجرتها.

وقف إبراهيم عليه السلام أمام والده ليبين له أن الإله الذي يعبده باطل، فقال له: ﴿يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾. سورة مريم (٤٢).

ووقف أمام قومه ليبين لهم أنهم في ضلال عن رب العالمين إذ عبدوا الأوثان من دون الله، فقال: ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ﴾. سورة الشعراء (٧٢).

كانت الصفة الأولى اللازم للإله الحق كونه سميعا، يسمع دعاء الداعين، فكيف يكون الإله أصما لا يسمع من يدعوه.

لذا الله هو السميع، الذي وسع سمعه كل شيء من خلقه. يسمع جميع خلقه في آن واحد، لا يشغله صوت عن صوت.

ما من مخلوق إلا ويسبح بحمد الله، كل منهم بلغته.

---

(١) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (٢٠٦٣)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح ابن ماجه» (١٦٧٨)



مليارات من الملائكة والإنس والجن، في هذه اللحظة منهم من يسبح ربه، ومنهم من يستغفر، ومنهم من يدعو ربه يسأله حاجته، كل هؤلاء يسمعهم، لا تختلف عليه الأصوات على تنوع الحاجات، لا يشغله سمع عن سمع، كلهم عنده كصوت واحد.

هذه النملة الصغيرة التي وقفت تنادي على صويحباتها لما رأت جند سليمان: ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾. سورة النمل (١٨).

سمع ندائها، وأسْمَعه نبيه سليمان، وسطره في كتابه قرآنا يتلى إلى يوم القيامة.

لا توجد دابة تدب على ظهر الأرض إلا وهو يسوق لها رزقها لأنه السميع العليم.

قال سبحانه: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. سورة العنكبوت (٦٠).

ليست الملائكة والإنس والجن والدواب والطير والوحش والنمل فحسب، بل يسمع حتى تسبيح الصخور والحصى.

نعم ليس كل شيء له صوت أنت تدركه، بل كم من حجر وشجر يسبح ربه، الله وحده يسمعه.

في ذات يوم أقبل أبو ذر الغفاري على النبي ﷺ فإذا حَصَيَاتٌ مَوْضُوعَةٌ بَيْنَ يَدَيْهِ - ﷺ - «**فَأَخَذَهُنَّ رَسُولُ اللهِ - ﷺ - فَسَبَّحْنَ فِي يَدِهِ**»[٢].

بل يحكي لنا رسول الله ﷺ فيقول: «**إِنِّي لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ إِنِّي لَأَعْرِفُهُ الْآنَ**»[٣].

بل ذاك الجزع الذي بكى شوقا إلى النبي ﷺ بعد أن ترك الجلوس عليه وهو يخطب في أصحابه، وجلس على المنبر، بكى الجزع وسمع النبي ﷺ والصحابه نشيجه وبكاءه.

سبحان السميع الذي وسع سمعه حتى الصخور والأحجار والأشجار.

سبحانه: سواء عنده من أسر القول ومن جهر به، يسمع سرك ونجواك وشكواك.

سمع يونس في بطن الحوت وهو يقول: «**لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ**».

يسمع ما يكيده الكفار والظالمين، لا يخفى عليه شيء من كلامهم.

يقول لموسى وأخيه هارون عليهما السلام: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿٤٤﴾﴾. فيقولا: ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴿٤٥﴾﴾.

فيطمئن قلوبهما قائلا: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴿٤٦﴾﴾ سورة طه.

---

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في «**السنة**» (١١٤٦)، وصححه الشيخ الألباني في «ظلال الجنة في تخريج السنة».
(٣) أخرجه مسلم (٢٢٧٧).



إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى



على سمع الله وبصره كل ما يجري في هذا الكون.

يذهب النبي ﷺ إلى الطائف، ليقول للناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، فيغلظوا له القول، بل ويغروا به سفهاءهم.

يخرج النبي ﷺ من الطائف حزينا، مهموما، يهيم على وجهه، ظل يمشي فاستفاق بقرن الثعالب، فرفع رأسه، فإذا سحابة تظله.

وفيها جبريل عليه السلام، يكلمه قائلا:

«إِنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ».

فَنَادَاه مَلَكُ الجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيه، ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ: إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ الله مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»**[٤].

كيف كان حال قلب النبي ﷺ وجبريل يقول له: **«إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك»**.

ما أعظم أن يطمئن قلبك بالله.

عندما تعلم عظمة سمعه، وأن سمعه وسع كل شيء، يغرس في قلبك التوكل عليه.

يقول الملك سبحانه: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ۝٢١٧ الَّذِى يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِى السَّاجِدِينَ ۝٢١٩ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٢٢٠﴾. سورة الشعراء.

يقينك بسعة سمعه، وأنه وإن غاب عن أذنيك كيد الكائدين، ولم يطرق أذنيك مكر الماكرين، فإن سمع الله بهم محيط.

اكتف بسمعه عن سمع غيره، حتى لو أصاب الصمم جميع الناس فلم يسمعوا شكايتك ولا استغاثاتك، فيكفيك سماع السميع العليم القائل: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ الله وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. سورة البقرة (١٣٧)

قد تتساقط قطرات دمعك، فلا تكاد تسمعها، ولا يسمعها من بجوارك، لكن صوت ارتطام هذه الدمعة لم يغب عن رب العالمين

فاجعل شكواك إليه كما قال يعقوب: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّى وَحُزْنِى إِلَى اللَّهِ﴾. سورة يوسف (٨٦).

---

(٤) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥)





أسمعتُ من ناجيت



خرج النبي ﷺ ليلة، فمرّ على أبي بكر فإذا هو يصلي، وقد خفض صوته.

فسأله بعد ذلك قائلا: يا أبا بكر، مررتُ بكَ وأنت تُصلّي تَخْفِضُ صوتَك؟

فقال أبو بكر الصديق: قد أسمعتُ من ناجيْتُ[٥].

عندما تطرق أذنك هذه الآية: ﴿وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ الْغَافِلِينَ﴾. سورة الأعراف (٢٠٥).

ويكأن الله يقول لك: لا ترهق نفسك بالجهر، لا ترفع صوتك، أنا أسمعك.

في ذات يوم خرج الصحابة مع النبي ﷺ في سفر، فكانوا كلما صعدوا واديا رفعوا أصواتهم بالتكبير والتهليل.

فقال لهم النبي ﷺ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لاَ تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلاَ غَائِبًا، إِنَّهُ مَعَكُمْ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ، تَبَارَكَ اسْمُهُ وَتَعَالَى**»[٦].

ليس ربنا أصم ولا غائبا، ربنا سميع قريب، فقط حرك شفتيك يسمعك.

وأنت تذكر ربك، وأنت تناجيه، وأنت تدعوه، فقط حرك شفتيك، وأسمع نفسك، وثق أنه سمعك.

أولم تسمع ما قاله سبحانه: «**أَنَا مَعَ عَبْدِي إِذَا هُوَ ذَكَرَنِي، وَتَحَرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ**»[٧].

ما أجمل قوله: «**وتحركت بي شفتاه**».

أليس هو القائل: «**أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي**»[٨].

إن ذكرته في نفسك، سمعك، فذكرك في نفسه سبحانه.

أنت من تعبد؟ .. لمن صلاتك؟

إن كنت حقا من أصحاب: «إياك نعبد »، فلا يضرك أن لم يسمع أحد بك إلا هو سبحانه.

---

(٥) أخرجه أبو داود في (**١٣٢٩**)، **وصححه الشيخ الألباني في «صحيح أبي داود»** (١٢٠٠).

(٦) أخرجه البخاري (٢٩٩٢)، ومسلم (٢٧٠٤).

(٧) أخرجه أحمد (١٠٩٧٥)، وصححه الشيخ الألباني في «**صحيح ابن ماجه**» (٣٠٥٩).

(٨) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).



اكتفي بسمعه لطاعاتك، ولا تكن ممن يُسْمِعُ الناس فيُسَمِّع الله بك على رؤوس الخلائق يوم القيامة.

كم من إنسان أعلى صوته بطاعته، لم يكن قصده ربه، إنما ثناءات العبيد، فتراه حريصا على إسماعهم، فكان جزاؤه كما قال النبي ﷺ: «**مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ الله بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ**»[٩]..

وقال ﷺ: «**مَنْ سَمَّعَ النَّاسَ بِعَمَلِهِ، سَمَّعَ اللهُ بِهِ سَامِعَ خَلْقِهِ، وَصَغَّرَهُ وَحَقَّرَهُ**»[١٠].-

في يوم القيامة سيتكفل الله بإسماعهم بدلا عنه، لكن لن يسمعهم تلك الطاعات التي كانت مزيفة في الدنيا، إنما سيسمعهم فضائح هذا العبد، ويظهر لهم كم أنه كان عبدا حقيرا صغيرا يوم أن كان قصْدُه هؤلاء العبيد وأعرض رب العالمين.

(٩) أخرجه البخاري (٧١٥٢).

(١٠) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦٥٠٩)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٥).





أَتُرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ حَدِيثَنَا؟



استوقفتني هذه الآية، وكنت دائما أقول لماذا ابتدأها الله بذكر السمع؟

قال الله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ الله قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾. سورة آل عمران (١٨١).

عندما يكون هناك ملك موصوف معروف بالعدل أو بالغنى أو بالشجاعة أو بالكرم، ثم يأتي أحد راعياه فيصفه بنقيض ما هو معروف منه، يقصد بذلك ذمه، ويكون هذا الملك ذا سلطان عظيم، ثم يصل إليه تلك المقالة الشنيعة.

ثم يرسل تهديدا إلى هذا الأفاك الأثيم قائلا له: «لقد بلغني ما قلت يقينا»، يا تُرى كيف يكون حاله حينئذ؟!

هؤلاء اليهود الذين جهلوا قدر الله فحملهم ذلك على التطاول على الله عز وجل، حتى وقف قائلهم ليصف الله الغني الكريم بالفقر.

توعدهم الملك الغني الذي له خزائن السموات والأرض، وهي ملأى لا تنقص أبدا، وهو مع كمال غناه له كمال الكرم، توعدهم فابتدأ وعيده أنه سمع إفكهم وكذبهم، وكتبه عنده، وسيوفيهم عليه عذاب الحريق.

بينما كان عبد الله بن مسعود رضي الله متعلقا بأستار الكعبة إذ رأى رجلين من قريش ورجلا من ثقيف، لا يعرفون الله ولا يقدرونه حق قدره، دار بينهم هذا الحوار:

قال أحدهم أَتُرَوْنَ أَنَّ اللهَ يَسْمَعُ حَدِيثَنَا؟

قَالَ أحدهم: يَسْمَعُ إِنْ جَهَرْنَا وَلاَ يَسْمَعُ إِنْ أَخْفَيْنَا.

وَقَالَ الآخَرُ: إِنْ كَانَ يَسْمَعُ إِذَا جَهَرْنَا فَإِنَّهُ يَسْمَعُ إِذَا أَخْفَيْنَا.

فذهب فقص على النبي ﷺ ما رأى، فأنزل الله تعالى هذه الآيات:

﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾﴾ فصلت[١١].

ربما إن سألت كثيرا ممن اعتاد لسانه الفحش: أتعلم أن الله يسمعك الآن؟

لكان جوابه: نعم، لكنه جواب عبد غافل عن عظمة الرب السميع، إن الله يسمع ويثيب ويعاقب، يسمع ويجيب، ليس سمعا وانتهت القصة، لذا تقول في الصلاة: سمع الله لمن حمده. أي سمع فاستجاب لمن حمده.

ماذا لو استشعر قلبك قبل أن ينطق لسانك بغيبة أو بسب أو بقذف أو بكلمة تستجلب بها مساخط الله، ماذا لو استشعر قلبك سمع الله العظيم الجليل، وأنه رب كلمة قالها العبد لا يلقي لها بالا يهوي بها في النار سبعين خريفا.

(١١) أخرجه البخاري (٤٨١٧)، ومسلم (٢٧٧٥).





كلمة أوبقت دنياه وآخرته



صديقان من بني إسرائيل، كان أحدهما مجتهدا في طاعة الله، والآخر مسرف على نفسه بالمعاصي.

وكان هذا المجتهد في الطاعة كلما رأى صاحبه على ذنب قال له: أقصر. أي دع المعاصي.

وفي ذات يوم وجده على ذنب، فقال له: أقصر. فقال المذنب: خلِّني وربِّي، أبُعِثتَ عليَّ رقيباً؟

فقال المجتهد في الطاعة: والله لا يَغفِرُ اللهُ لكَ، أو قال: لا يُدْخِلُكَ اللهُ الجنةَ.

فقبض الله أرواحهما، فاجتمعَا عند ربِّ العالمين.

فقال الله لهذا المجتهد: أكُنتَ بي عالماً؟ أو كنتَ على ما في يدي قادِراً؟

وقال للمُذنِب: اذهَبْ فادخُلِ الجنةَ برحمتي، وقال للآخر: اذهبُوا به إلى النار.

روى هذه القصة أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ، ثم قال أبو هريرة: **والذي نفسِي بيدِه لتكلَّمَ بكلمةٍ أوبَقَت دُنياه وآخِرَتَه**[12].

إنها محض كلمة أوبقت هذا العبد، فخسر كل شيء، سمعها رب العالمين، فغضب الملك، فعاقب.

يقول النبي ﷺ: «**إنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِنْ رِضْوَانِ اللهَّ، لا يُلْقِي لَها بالًا، يَرْفَعُهُ الله بِها دَرَجاتٍ، وَإنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بالكَلِمَةِ مِنْ سَخَطِ اللهَّ، لا يُلْقِي لَها بالًا، يَهْوِي بها في جَهَنَّمَ**»[13].

يقول سفيان الثوري: صَحِبْنَا الرَّبِيعَ بْنَ خُثَيْمٍ عِشْرِينَ سَنَةً «**فَمَا تَكَلَّمَ إِلَّا بِكَلِمَةٍ تَصْعَدُ**». حلية الأولياء (٢/١٠٩)

عشرون سنة، لا يسمعون منه كلمة تغضب الله.

عشرون سنة لا يتكلم إلا بكلمة يحب أن تصعد إلى الله.

هذا حال من علم أن الله يسمع السر والنجوى.

سمعه العظيم يلقي في قلبك الوجل، ويلقي عليك ثوب الحياء، أن يسمع منك ما لا يرضيه.

وهو القائل: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾. سورة الزخرف (٨٠)

فإذا استشعرت جلاله وعظمته، ثم أيقنت أنه يسمعك قبل سمعك لنفسك، كانت كلماتك في مراضيه، تستجلب بها رضوانه، وتنأى بها عن مساخطه.

وسبحان القائل: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. سورة الحجرات (١).

---

(١٢) أخرجه أبوداود في «سننه» (٤٩٠١)، وحسنه الشيخ الألباني في «تعليقه على العقيدة الطحاوية» (ص٣٥٧)، وأصله في «صحيح مسلم» (٢٦٢١).

(١٣) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٦٤٧٨).

وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي



كيف لا يُحب وهو البصير.

كحال الطغاة دوما، مستعدون لفعل أي شيء لإبقاء عروشهم، وملأ كروشهم، وتعبيد شعوبهم.

فرعون كبير الطغاة أصدر أمرا بذبح أطفال بني إسرائيل حفظا على ملكه من الزوال.

أصبح جنوده في حالة استنفار قصور لرصد أي مولود ذكر حتى يتم ذبحه إرضاء للفرعون وتثبيتا لعرشه.

أراد فرعون وجنوده أمرا، وأراد رب العالمين أمرا آخر، والله غالب على أمره.

أراد الله أن يمن على هذه الأمة المستضعفة بالعزة والغلبة وإهلاك عدوهم الغاشم.

لكن كيف يحدث ذلك، وفرعون قد ملأ الأرض بعيونه بحثا عن كل رضيع ليُذبح ذبح النعاج؟

الجواب: وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي.

فإذا عين الله كانت على عبده فماذا تصنع عيون فرعون وجنوده من عين رب العالمين.

يمكث نوح في قومه ألف سنة إلا خمسين عاما، تمضي سنين عمره في تبليغ رسالة ربه.

﴿يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. سورة الأعراف (٥٩).

لم يترك وسيلة لدعوتهم إلا وقام بها، ليلا ونهارا، سرا وجهارا.

أصر أهل الكفر على ضلالهم، عموا عن ربهم.

اتهموه بالضلال، وبالكذب، وهددوه بالقتل، وأصروا على كفرهم وضلالهم.

أوحى الله إلى نوح أنه لن يؤمن بعد الآن من قومه إلا من آمن، فقد غضب الملك وحان هلاك المكذبين.

أمره الله أن يصنع سفينة، وأن يحمل فيها أهل الإيمان، ومن كلٍ زوجين اثنين.

يأمر الله السماء فتفتح أبوابها بماء منهمر، ويأمر الله الأرض فتنفجر عيونها، ويلتقي ماء السماء وماء الأرض، حتى أصبح الموج كالجبال.

وهنا لا ينجو إلا نوح ومن معه أهل الإيمان.



لكن: كيف، وسفينته في غاية البساطة، لا يمكنها أن تقوم هذه الأمواج المتلاطمة

الجواب:

قال الله: ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾. سورة هود (٣٧)

قال الله: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾﴾. سورة القمر.

ربنا هو البصير.

يرى كل شيء.

يقول الملك العظيم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾. سورة الملك (١٩).

إنه بكل شيء بصير.. كل شيء خطر على بالك الآن، ربما لا تدرك ذرة مما خلق، ومع هذا هو به بصير.

ما من ذرة في السموات ولا في الأرض إلا وهي تحت بصره، يراها جلية واضحة، لا يحول بينها وبينه شيء.

لا يحجبه عن رؤية خلقه سحاب ولا سماء ولا أرض ولا بحر ولا صخر ولا جبل.

يرى تلك النملة السوداء في الليلة الظلماء الشاتية، وهي تمشي رويدا تواري جسدها النحيل من زخات المطر.

يرى هذا الماء الذي يجري تحت الصخور.

يرى حبات المطر المطمورة داخل السحاب.

يرى الحب والنوى، الذي يملأ جنبات الأرض يعلوه التراب، ويراه إذ ينفلق عنه النبات الصغير الضعيف يشق طريقه نحو الحياة.

يرى هذه الخلايا التي تملأ جسدك، كرات الدم التي تنساب في عروقك، ذاك العصب الذي لا يرى إلا بأشعة مخصوصة هو عنده أبين من الشمس بين عينيك.

يرى تقلب وجهك، وغمضات عينك، وحركات جفنك، وخلجات قلبك.

إنه البصير الذي قال: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾. سورة الأنعام (١٠٣).

يدرك أبصار الخلق، لحظ عيونهم، بصره إليهم أسبق من بصرهم لأنفسهم.

ما من طائر يطير بجناحيه إلا ورب العالمين هو من يمسكه في جو السماء، لأنه بكل شيء بصير.





فقل لي بربك: أيصيبك هم أو قلق ولك رب يرى كل هذا؟

النبي ﷺ كان يحب أن يوجهه ربه إلى البيت الحرام، ظل يقلب وجهه في السماء رجاء أن يوليه الله قبلة أبيه إبراهيم.

وكل هذا يحدث على عين الله البصير الكريم، فينزل عليه قرآنا يتلى إلى يوم القيامة:

يقول الملك: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾. سورة البقرة (١٤٤).

يخبر فيه الناس جميعا أنه كان يرى تقلب وجه نبيه، وأنه لم يك قط غافلا عن طِلبته ورجاءه، وأنه استجاب له فولاه ما يحب ويرضى لأنه الكريم.

ذاك الرجل المؤمن من آل فرعون يتآمر عليه الملأ، يكيدون له، يمكرون به، هو يعلم ضعفه، ففوض أمره إلى ربه البصير

قال الله: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾. سورة غافر (٤٤).

فكانت العاقبة: ﴿فَوَقَاهُ الله سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾. سورة غافر (٤٥).

إننا في غاية الضعف والعجز، لا سند لنا ولا قوة لنا إلا بربنا.

توكلك على الله، وتفويض أمورك إليه، وصدق التجائك إليه، هو قوتك، هو نجاتك.

الله قال لنبيه ﷺ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾. سورة الشعراء.

أي طمأنينة تلك التي غمرت قلب نبينا ﷺ وقد أحاطت به عناية الله وحفظه، حيث يراه إذا قام بين يديه يناجيه، ويراه إذا وضع جبهته ساجدا لربه ومولاه، فأنى له الخوف، وأنى له الضعف.

وكأني بأخيه موسى عليه السلام عندما قال له ربه: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿٤٤﴾ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴿٤٥﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى ﴿٤٦﴾﴾ سورة طه.

أسمع وأرى.

فماذا يصنع فرعون مع سمع الله وبصره.

أعظم ما يكون، أن تكون بعين الملك العظيم، فلا سبيل لأحد عليك حينئذ.

قال الله: ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾. الطور (٤٨).

استشعار نظر الحفيظ يصبرك على كل شيء، فأنت بعينه وعلى عينه.





أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى



هناك في مكة حيث كان النبي ﷺ يجهر بدعوته، قائلا: قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، وكفار قريش يكذبونه ويعادونه، إلا أنه لا يمل ولا يكل.

كان يخرج إلى الكعبة فيصلي لربه، كأنه يقول لصناديد الكفر: أنا لا آبه بكم، فالله متم نوره ولو كره الكافرون.

أغاظت صلاته أبا جهل، إذ كيف يتحداهم بين أصنامهم وطواغيتهم؟

فوقف بين إخوانه إخوان الشياطين ليقول: هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ .. قالوا له: نَعَمْ.

فَقَالَ: وَاللَّاتِ وَالْعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لَأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ، أَوْ لَأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ.

وصلت تهديداته إلى مسامع النبي ﷺ، فينزل جبريل بالوحي على النبي ﷺ، فيسمع من جبريل كلام الله إذ يقول:

﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ﴿٦﴾ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى ﴿٨﴾ أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّى ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى ﴿١٢﴾ أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴿١٩﴾﴾ سورة العلق.

يخرج النبي ﷺ إلى الكعبة، يكبر، يركع، يسجد لربه ومولاه.

يتقدم أبو جهل يريد أن يُنفذ وعيده، وكفار قريش يترقبون، ينظرون، أحقا سيفعل، وفجأة:

يَنْكُصُ المجرم الأثيم عَلَى عَقِبَيْهِ وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ.

قالوا لَهُ: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ لَخَنْدَقًا مِنْ نَارٍ وَهَوْلًا وَأَجْنِحَةً.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**لَوْ دَنَا مِنِّي لَاخْتَطَفَتْهُ الْمَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا**»[١٤].

أَلم يعلم بأن الله يرى..

إن أبا جهل نظر إلى قوته وبطشه مستضعفا رسول الله ﷺ، لكنه نسي أن لرسول الله ربا بصيرا، طمأن نبيه قائلا: فإنك بأعيننا».

(١٤) أخرجه مسلم (٢٧٩٧).



يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ



هكذا قال نبينا ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ، وَلَا إِلَى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ»(١٥).

تجمّل ما استطعت، وتزيّن أمام الناس بما تشاء، وتصنّع بكل خلق حسن.

كل هذا وإن أعجب الناس فلأنهم يرون ظاهرك، وستر الله عنهم باطنك، أما رب العالمين فمحل نظره قلبك الذي بين جنبيك.

قل لي بربك: ماذا يرى الله من قلبك الساعة؟.. عطاءات الملك الكريم تكون على ما في قلبك.

ألم تسمع قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾. سورة الفتح (١٨)

هنا السر: فعلم ما في قلوبهم فأنزل...

الهداية، السكينة، الثبات، العلم، الفهم، الفتح، كل خير، هنا بين جوانحك مفتاحه.

كثير منا هو حجر العثرة في طريق نفسه، أغلق أبواب الخير على نفسه بما في قلبه.

ألم يقل الله: ﴿إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا﴾. سورة الأنفال (٧٠).

فأخبرني بربك: هل يرى الله من قلبك الآن أنك تريده هو؟ تريد مرضاته وحده؟ تؤثره عمن سواه؟

هؤلاء أول ثلاثة تُسعر بهم جهنم، أمام أعين الناس في غاية الجمال، كيف لا، وأولهم مجاهد قُتل في أرض المعركة بين الحق والباطل، وثانيهم حافظ قارئ معلم لكتاب الله، وثالثهم منفق جواد كريم في شتى وجوه الخير التي يُحب الله أن ينفق فيهما

ثلاثتهم: كذابون، يقول الله لهم: كذبتم. فعلوا ليرى الناس مكانهم، لا ليرى الله قدرهم.

إنهم كذبوا بقلوبهم، اطلع الله على قلوبهم فوجدهم لم يريدوا وجهه، إنما أرادوا الناس(١٦).

كم من قلب كذّب أقوال صاحبه، وأفعال صاحبه.

ألم يقل الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾. سورة آل عمران (١٦٧).

---

(١٥) أخرجه مسلم (٢٥٦٤).

(١٦) أخرجه مسلم (١٩٠٥).



ألم يخبرنا ربنا فقال: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾. سورة الفتح (١١)

الله لا يُخدع، يطلع إلى قلبك وعملك، فإن رأى في قلبك الصدق بلّغك أعظم المنازل، وإن قصّر بك عملك.

يقول النبي ﷺ: «مَنْ سَأَلَ اللهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ، بَلَّغَهُ اللهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ»[١٧].

شتان بين عبد يموت فعلا في أرض المعركة، غارقا في دمائه، يقول الناس عنه الشهيد فلان، ثم يقال له يوم القيامة: كذبت.

وآخر: مات على فراشه، على سريره، لا يحمل أي لقب، بل لعله عند بعض الناس جبان خوار، لكنه عند رب العالمين في منازل الشهداء.

الفارق: ما في القلوب.

(١٧) أخرجه مسلم (١٩٠٩).





فأين الله؟



أي مكان هذا الذي يواريك عن عين العظيم جل جلاله

خَرَجَ ابْنُ عُمَرَ فِي بَعْضِ نَوَاحِي الْمَدِينَةِ وَمَعَهُ أَصْحَابُ لَهُ، وَوَضَعُوا سَفْرَةً لَهُ، فَمَرَّ بِهِمْ رَاعِي غَنَمٍ، فَسَلَّمَ.

فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: «هَلُمَّ يَا رَاعِي، هَلُمَّ »، فَأَصِبْ مِنْ هَذِهِ السُّفْرَةِ.

فَقَالَ لَهُ: إِنِّي صَائِمٌ.

فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: «أَتَصُومُ فِي مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ الْحَارِّ شَدِيدٍ سُمُومُهُ وَأَنْتَ فِي هَذِهِ الْجِبَالِ تَرْعَى هَذَا الْغَنَمَ؟

فَقَالَ لَهُ: أَيْ وَاللهِ أُبَادِرُ أَيَّامِي الْخَالِيَةَ.

فَقَالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ وَهُوَ يُرِيدُ يَخْتَبِرُ وَرَعَهُ: «فَهَلْ لَكَ أَنْ تَبِيعَنَا شَاةً مِنْ غَنَمِكَ هَذِهِ فَنُعْطِيكَ ثَمَنَهَا وَنُعْطِيكَ مِنْ لَحْمِهَا فَتُفْطِرَ عَلَيْهِ؟

فَقَالَ: إِنَّهَا لَيْسَتْ لِي بِغَنَمٍ، إِنَّهَا غَنَمُ سَيِّدِي.

فَقَالَ لَهُ ابْنُ عُمَرَ: «**فَمَا عَسَى سَيِّدُكَ فَاعِلًا إِذَا فَقَدَهَا، فَقُلْتَ: أَكَلَهَا الذِّئْبُ**».

فَوَلَّى الرَّاعِي عَنْهُ وَهُوَ رَافِعٌ أُصْبُعَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَهُوَ يَقُولُ: أَيْنَ اللهُ»[١٨].

إن بداية الانحدار غفلة هذا القلب عن رب العالمين، عندما ينسى القلب أو يتناسى، يغفل أو يتغافل عن نظر الله إليه.

حينئذٍ يتجرأ العبد على معصية ربه ومولاه.

هذا ما كان مع ذاك الرجل الذي رأى امرأة جميلة فأعجبته.

فغازلها، وراودها، فقالت له المرأة: وَيْلَكَ أَمَا كَانَ لَكَ زَاجِرٌ مِنْ عَقْلٍ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لَكَ نَاهٍ مِنْ دِينٍ؟

فقال لها: إِنَّهُ وَاللهِ مَا يَرَانَا إِلَّا الْكَوَاكِبُ. قَالَتْ: فَأَيْنَ مُكَوْكِبُهَا؟[١٩].

وهذا آخر قلّ حياؤه من ربه، أراد امرأة عن نفسها، فغلق دونها الأبواب.

فلما دنا منها قالت له: بقي باب لم تغلقه؟ قال لها: وما ذاك؟

قالت: الباب الذي بينك وبين الله[٢٠].

(١٨) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٤٩٠٨) بإسناد حسن.

(١٩) اعتلال القلوب للخرائطي (٨٣).

(٢٠) اعتلال القلوب للخرائطي (٨٥)





يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِه



لـو أن ملـكا أو سـلطانا مـلأ أرجـاء ملكـه بكامـيرات مراقبـة عـلى أعـلى مسـتوى، ونـادى في رعيتـه: أن مـن فعـل كـذا سـأعطيه كـذا وكـذا مـن الأجـر، ومـن فعـل كـذا مـن الـشر سـأعاقبه أشـد العقـاب.

ماذا لو استشعر الناس اطلاع ملكهم على أعمالهم؟

قال الله: ﴿وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾. سورة سبأ (١١)

استوقفني هـذا الحديـث العظيـم.. يقـول النبـي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ أَمَرَكُمْ بِالصَّلاَةِ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلاَ تَلْتَفِتُوا فَإِنَّ اللهَ يَنْصِبُ وَجْهَهُ لِوَجْهِ عَبْدِهِ فِي صَلاَتِهِ مَا لَمْ يَلْتَفِتْ**»[٢١].

مـا شـعورك عندمـا تقـف بـين يـدي الله تصـلي، وقـد نصـب وجهـه إلى وجهـك، أيمكنـك حقـا أن تلتفـت عنـه؟

عندما سأل جبريلُ النبي ﷺ عن الإحسان، قال له: «**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»[٢٢].

مفتاح إحسان الطاعة هو مشاهدة القلب لرؤية الرب.

لو طالع قلبك رؤية الله وأنت تذكره سترى له أثرا، لن يكون ذكر عبد غافل.

لـو طالـع قلبك رؤيـة الله وأنـت تصـلي لـه سـتكون الصلاة حينئذ قـرة عينك، وستنهاك عن كل سـوء.

لو طالع قلبك رؤية الله وأنت تُؤذى في سبيله لهان عليك كل مصاب.

حينهـا سـتنتهي مـن طاعاتـك وروحـك تجـول في الملكـوت الأعـلى، وتـرى قلبـك قبـل لسـانك يقـول: أسـتغفر الله.

بينـما عبـد الله بـن عمـر يطـوف، إذ لقيـه عـروة بـن الزبـير فطلـب إليـه ابنتـه سـودة، فلـم يـرد عليـه، فقـال عـروة: لـو رضي لأجابنـي، والله لا أراجعـه فيهـا بكلمـة.

فلما التقيا في المدينة، قال له عبد الله: أكنت ذكرت لي سودة بنت عبد الله؟ فقال له: نعم.

فقـال عبـد الله: ونحـن في الطـواف نتخايـل الله عـز وجـل بـين أعيننـا، وكنـت قـادرا أن تلقـاني في غـير ذلـك الموطـن، ثـم زوجنـي»[٢٣]..

هكـذا العبـد المحـب، كأنـه يـرى الله ينظـر إليـه في حركاتـه وسـكناته، فيكـون بـين النـاس بجسـده، وعنـد ربـه بقلبـه.

---

(٢١) أخرجه الترمذي في «سننه» (٢٨٦٣)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (١٧٢٤).
(٢٢) البخاري (٥٠)، ومسلم (٩).
(٢٣) حلية الأولياء (١/ ٣٠٩)



العليم الحكيم



أحاط بكل شيء علما، وأحكم كل شيء صنعا.

أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا



قام موسى عليه السلام خطيبا في بني إسرائيل، فوعظهم حتى وجلت قلوبهم، فقيل له: أي الناس أعلم؟

فقال موسى: أنا.

فعتب الله عليه إذ لم يرُدّ العلم إليه، وأوحى إليه سبحانه: بلى، عبد من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك.

ذهب موسى عليه السلام فلقي الخضر، وسأله أن يتبعه على أن يعلمه مما علمه الله.

ثم كانت القصة التي قصها الله علينا في سورة الكهف.

وعندما ركبا في السفينة، جاء عُصْفُورٌ فوقف عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ فَغَمَسَ مِنْقَارَهُ فِي البَحْرِ.

فَقَالَ الخَضِرُ لِمُوسَى: **مَا عِلْمُكَ وَعِلْمِي وَعِلْمُ الخَلائِقِ فِي عِلْمِ اللهِ إِلَّا مِقْدَارُ مَا غَمَسَ هَذَا العُصْفُورُ مِنْقَارَهُ**[1].

ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره.

تخيل لو أننا جمعنا جميع علوم البشر بشتى أصنافها، في جميع الفنون، على مرِّ العصور.

وكذلك جمعنا علوم الملائكة، وعلوم الجن، وكل شيء علمه مخلوق من مخلوقات الله.

كل هذه العلوم لا تساوي قطرة في علم الله عز وجل.

فما هو علم الله؟

الله بكل شيء عليم.

كل ما يخطر على بالك من شيء مادي محسوس، أو معنى من المعاني فالله به عليم.

الله قد أحاط بكل شيء علما، الله وسع كل شيء علما.

يقول العليم سبحانه: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. سورة آل عمران(٢٣١)

وقال سبحانه: ﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ﴾. سورة الأنبياء (٨١)

وقال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللهُ الَّذِى لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾. سورة طه (٩٨)

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (٤٧٢٧)، ومسلم في صحيحه (٢٣٨٠)



وقال عز وجل: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾. سورة الطلاق (١٢)

لو تخيلت ذرة مخلوقة وجدت في أي بقعة أو في أي صخرة أو في قعر أي بحر.

هذه الذرة يعلمها رب العالمين.

يعلم تفاصيل كل شيء عنها، متى خلقها، وحياتها، ومستقرها، ومستودعها، ومآلها.

لـو تخيلنـا أننـا أحضرنـا أذكـى وأعلـم ثلاثـة أسـاتذة في الفيزيـاء في جامعـات مثـل جامعـة هارفـارد وجامعـة كامبريـدج وجامعـة أكسـفورد، وقامـوا بأبحـاث مضنيـة حـول قضيـة مـا، ثـم خرجـوا لنـا بتصـور تفصيـلي عـن هـذه الجزئيـة الصغـيرة.

ستجد الناس يأخذون نتيجة البحث على أنه أعلى ما وصل إليه العلم مثلا في هذه الجزئية.

دعنـي أقـول لـك بصراحـة: مـا علمـه هـؤلاء ومـا يعلمـه كل الخلـق عـن أي شيء لا يسـاوي مـن علـم الله عـن هـذه الجزئيـة مثقـال ذرة.

ثـم كل هـذه العلـوم هـو مـن أذن لمـن شـاء بعلمـه، ولـو لم يـأذن أن يعلـم أحـد شـيئا مـا علـم، فهـو العليـم المُعَلِّـمُ مـن شـاء مـا شـاء.

قـال الله: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾. سورة يونس (٦١)

وقال الله: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾. سورة البقرة (٢٥٥)

الله واسع العلم، وسع كل شيء علما.

عندما يُقال فلان عالم واسع الاطلاع، حتى أنه صنف ألف كتاب، ترى الناس في غاية العجب.

فكيف بعلم الله؟!

إن من سعة علمه سبحانه أنك لو تخيلت ما في الأرض من أشجار صار أقلاما.

وأن البحر الذي يمده من بعده سبعة أبحر صار مدادا.

فإن كلمات الله لا تنفد، لأنه لا منتهى لعلمه.

قـال الله: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾. سورة الكهف (١٠٩)

قـال الله: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. سورة لقمان (٢٧)

كان هذا على سبيل الإجمال، وإليك شيء من تفصيل علمه إذا لا يحيط بعلمه الله أحد.



وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ



قال الملك: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. سورة الأنعام (١٠١)

الله يعلم كل شيء، لا يغيب عن علمه مثقال ذرة.

يعلم ما في السموات وما في الأرض.

قال الله: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾. سورة الحج (٧٠)

هذه السموات مليئة بخلق الله عز وجل.

عدد المجرات العملاقة التي تم رصدها ٣٥٠ بليون مجرة عملاقة (البليون يساوي ١٠٠٠ مليار)

المجرة تحتوي على ١٠٠ مليار نجم.

وعدد المجرات غير العملاقة ٧ ترليون مجرة.

حاول أن تستحضر الرقم، لأن الأمر لا يُتصور، كمْ مهول من الأجرام والكواكب والمجرات، لا يعلم عددها، ولا مساراتها، ولا ما فيها، ولا ما عليها إلا الله وحده.

هذه السموات مليئة بالملائكة الكرام، عددهم لا يعلمه إلا رب العالمين.

إذا كان فقط لا يخلو موضع أربع أصابع في السماء إلا وفيه ملك ساجد لله تعالى.

قال النبي ﷺ: «**أَطَّتِ السَّمَاءُ، وَحُقَّ لَهَا أَنْ تَئِطَّ مَا فِيهَا مَوْضِعُ أَرْبَعِ أَصَابِعَ إِلاَّ وَمَلَكٌ وَاضِعٌ جَبْهَتَهُ سَاجِدًا للهِ**»[٢].

وإذا كان البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، فإذا خرجوا لم يعودوا إليه إلى يوم القيامة[٣].

أي أن عدد زواره الجدد كل يوم سبعون ألف ملك، فكم يكون عدد الملائكة؟!!

دعك من السموات وما فيها، تعال إلى هذا الكويكب الصغير الذي نعيش عليه.

الله يعلم ما في البر وما في البحر.

---

(٢) أخرجه الترمذي في سننه (٢٣١٢)، وحسنه الشيخ الألباني في السلسلة الصحيحة (١٧٢٠).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٢٠٧)، ومسلم في صحيحه (١٦٢).



قال الله: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾. سورة الأنعام (٥٩)

يقول علماء الأحياء إن عدد أنواع المخلوقات على سطح الأرض ٢ مليون ونصف نوع، الإنسان نوع من هذه الأنواع، وعدد أنواع المخلوقات في البحر ١٠ مليون نوع.

لك أن تتخيل كم من الملايين تحت كل نوع.

الله يعلم كل مخلوق في كل نوع، يعلمه ويعلم حاله، ولا يغيب عن علمه طرفة عين، يعلم أفعالهم في جو السماء وفي باطن الأرض.

قال الله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَالله عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾. سورة النور (٤١)

يعلم ما ينزل من السماء من ملك، أو قطرات الندى، أو حبات المطر.

يعلم ما يصعد من الأرض من ملك، أو عمل، أو روح.

يعلم سبحانه عدد ورق الشجر، وعدد حبات الرمل.

لا تسقط ورقة من غصن، ولا دمعة من عين إلا يعلمها.

لا توجد حبة تحملها الرياح، ولا حبة يغطيها التراب إلا يعلمها.

قال الله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾. سورة الأنعام (٥٩)

ومن كمال علمه أنه لا تخرج ثمرة من وعاءها إلا يعلمها.

وما تحمل من أنثى في بطنها إلا يعلمه.

ولا تضع إلا بعلمه.

قال الله: ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا آذَنَّاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾. سورة فصلت (٤٧)

بل لا توجد دابة إلا والله يعلم في أي مكان تأوي بالليل أو بالنهار، بل ويعلم سبحانه في أي بقعة ستموت.

قال الله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾. سورة هود (٦)

بل ولا توجد دابة تعتدي على دابة إلا والله يعلم في أي شيء كانت الخصومة، ويعلم سبحانه من المعتدِي ومن المعتدَى عليه.



يقول أبو ذر الغفاري رضي الله عنه: رَأَى رَسُولُ اللهِ ﷺ شَاتَيْنِ يَنْتَطِحَانِ فَقَالَ لِي: «يَا أَبَا ذَرٍّ أَتَدْرِي فِيمَا يَنْتَطِحَانِ؟.

قال أبو ذر: قُلْتُ: لَا.

فقَالَ النبي ﷺ: «وَلَكِنْ رَبُّكَ يَدْرِي وَسَيَقْضِي بَيْنَهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[٤].

كل هذه المخلوقات يعلم الله عددها دون عدّ.

أحصى كل شيء عددا، دون أن يعده كما نعده نحن البشر.

قال الله: ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾. سورة الجن (٢٨)

يعلم سبحانه ما كان، ويعلم ما يكون، ويعلم ما سيكون، ويعلم ما لم يكن لو كان كيف يكون.

يعلم ما كان في الماضي، بأدق تفاصيله، لا ينسى منها شيئا.

كل ما حدث علمه عند الله، لا يغيب عنه منه شيء.

قال الله يحكي لنا مقالة فرعون: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (٥١) قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾. سورة طه (٥٢)

قال الله: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ سورة البقرة (٢٥٥)

ويعلم ما يحدث الآن بكل تفاصيله.

قال الله: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾. سورة يونس (٦١)

عالم الغيب والشهادة، ما تشاهده يعلمه الله جميعه على حقيقته دون لبس ودون خطأ، فيستوي عنده إسرار العبد وجهره، وسره وعلانيته، سواء كان قوله وعمله ليلا أو نهارا، هو به عليم

قال الله: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩) سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾. سورة الرعد (١٠)

يعلم الغيب وحده، وما من غيب أخبر به أحد من رسله إلا والله تعالى هو من أظهره عليه

قال الله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾. سورة الأنعام (٥٩)

قال الله: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾. سورة الجن (٢٧)

(٤) أخرجه أبو داود الطيالسي في «مسنده» (٤٨٢)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤/ ١١٧)





يعلم سبحانه ما لم يكن، لو قدر له أن يكون، يعلم سبحانه كيف يكون.

هـؤلاء المنافقـون الذيـن تخلفـوا عـن الجهـاد مـع النبـي ﷺ، يذكـر الله تعـالى أنـه مـن الخـير لأهـل الإيـمان عـدم خـروج هـؤلاء المنافقين، لأنهـم لـو خرجـوا معكـم أيهـا المؤمنـون لخذلوكـم ولنـشروا فيكـم الفتـن.

قـال الله: ﴿لَـوْ خَرَجُـوا فِيكُـمْ مَـا زَادُوكُـمْ إِلَّا خَبَـالًا وَلَأَوْضَعُـوا خِلَالَكُـمْ يَبْغُونَكُـمُ الْفِتْنَـةَ وَفِيكُمْ سَـمَّاعُونَ لَهُـمْ وَالله عَلِيـمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾. سورة التوبة (٤٧)

هـؤلاء المشركـون بـالله، المكذبـون للرسـل، يحكـي الله عـن حالهـم يـوم القيامـة أنهـم إذا وقفـوا عـلى النـار سـيقولون: يـا ليتنـا نـردّ إلى الدنيـا حتـى نؤمـن ونعمـل صالحـا، فيكذبهـم الله بأنهـم لـو ردوا إلى الدنيـا لعـادوا إلى الـشرك والتكذيـب برسـل الله.

قـال الله: ﴿وَلَـوْ تَـرَى إِذْ وُقِفُـوا عَلَى النَّـارِ فَقَالُـوا يَالَيْتَنَـا نُـرَدُّ وَلَا نُكَـذِّبَ بِآيَـاتِ رَبِّنَـا وَنَكُـونَ مِـنَ الْمُؤْمِنِـينَ ﴿٢٧﴾ بَـلْ بَـدَا لَهُـمْ مَـا كَانُـوا يُخْفُـونَ مِـنْ قَبْـلُ وَلَـوْ رُدُّوا لَعَـادُوا لِمَـا نُهُـوا عَنْـهُ وَإِنَّهُـمْ لَكَاذِبُـونَ﴾. سـورة الأنعـام (٢٨)

أنت أيها الإنسان لا أحد أعلم بك منه، فهو الذي خلقك، وهو من أنشأك وأوجدك.

قال الله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾. سورة الملك (١٤)

قـال الله: ﴿هُـوَ أَعْلَـمُ بِكُـمْ إِذْ أَنْشَـأَكُمْ مِـنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُـمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُـونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾. سـورة النجـم (٣٢)

يعلم السر وأخفى من السر

تخيل كل ما يجهر به جميع الخلائق، ما يسرون به، يعلمه الله في آن واحد.

قال الله: ﴿وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾. سورة طه (٧)

قال الله: ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾. سورة الفرقان (٦)

الله يعلم ما في الصدور، ويعلم في القلوب.

يعلم ما في النفوس وما توسوس به.

يعلم ما يبديه الخلق وما يكتمونه.

قال الله: ﴿وَالله يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾. سورة المائدة (٩٩)

قال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾. سورة آل عمران (١١٩)

قال الله: ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾. سورة غافر (١٩)

قال الله: ﴿وَالله يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ الله عَلِيمًا حَلِيمًا﴾. سورة الأحزاب (٥١)



قال الله: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ الله فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَالله غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. سورة الأنفال (٧٠)

قال الله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ الله عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾. سورة الفتح(١٨)

قال الله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾. سورة آل عمران (٢٣٥)

قال الله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾. سورة ق (١٦)

ويعلم كل أفعالك، أفعال قلبك، وأفعال جوارحك.

يعلم من تحب ومن تبغض، ومن ترجو ومن تخاف، ومن تنافق ومن تسترضي.

يعلم صلواتك وصدقاتك ودعواتك وغيرتك على محارمه.

قال الله: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾. سورة النساء (١٢٧)

اطمئن فإنه عليم بك، لا يخفى عليه حالك، وكيف تخفى عليه وهو يقول.

قال الله: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾. سورة النور (٦٤)

عليم سبحانه لا يُخدع، يعلم كل عبد على ما هو عليه.

فالله يعلم المصلح من المفسد، ومهما ادعى إنسان الصلاح فالله يعلم حقيقة أمره.

قال الله: ﴿وَالله يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾. سورة البقرة (٢٢٠)

الله عليم بالظالمين، فكم من إنسان يلبس ثوب المظلوم وهو في الحقيقة جلاد ظالم.

والله عليم بالمحسنين، فكم من إنسان يدعي الإحسان وهو أبعد ما يكون عنه.

والله عليم بالمهتدين، فكم من إنسان أضل من الأنعام، ويحسب أنه من المهتدين.

قال الله: ﴿وَالله عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾. سورة البقرة (٩٥)

قال الله: ﴿وَالله عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾. سورة آل عمران (١١٥)

قال الله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾. سورة آل عمران (٦٣)

قال الله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾. سورة الأنعام (١١٧)

كيف لا يُحب وكل أفعاله بعلم.

يخلق بعلم، يميت بعلم، يرزق بعلم، يبتلي بعلم، يؤتي الملك وينزعه بعلم، يعز ويذل بعلم،



يستر ويفضح بعلم، يغفر ويعذب بعلم، يحل ويحرم بعلم، يشرع بعلم.

لما أراد الله أن يخلق آدم خلقه عن علم، كان يعلم سبحانه ما الذي سيفعله آدم عليه السلام، كان يعلم كيف سيجتبيه، وكيف سيعلمه، وكيف سيكرمه، وكيف سيمتنع إبليس عن السجود له، وكيف سيدخل الجنة، وكيف سيعصي، وكيف سيتوب، وكيف سينزل الأرض.

لذا قال للملائكة قبل أن يخلق آدم: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. سورة البقرة (٣٠)

هذه الكواكب، الشمس والقمر والنجوم، تسير بعلمه.

هذا الليل والنهار قدّره بعلمه.

قال الله: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾. سورة الأنعام (٩٦)

قال الله: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ سورة يس

كل شيء خلقه أو أنزله إلى الأرض فهو بقدر معلوم، لم يكن عبثا ولا تجربة، فالله تعالى لا يجرب.

قال الله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾. سورة الحجر (٢١)

يبسط الرزق لمن يشاء بعلمه، ويقدر الرزق عمن يشاء بعلمه.

قال الله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ الله الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾. سورة الشورى (٢٧)

يؤتي ملكه من يشاء بعلمه، وينزعه عمن يشاء بعلمه.

لما بعث الله طالوت ملكا اعترض هؤلاء النفر من بني إسرائيل إذ كيف يُؤتى طالوتَ الملك دونهم، فكان الجواب كما قال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَالله يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَالله وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. سورة البقرة (٢٤٧)

واسع عليم: يوتي ملكه بعلم، لا بجهل.

يختار ويصطفي من شاء من خلقه بعلم.

قال الله: ﴿وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ﴾. سورة الأنعام (١٢٤)



قال الله: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾. سورة الدخان (٣٢)

أنزل القرآن بعلمه، فكل آية فيه، وكل حكم فيه، وكل تشريع فيه، كان عن علمه سبحانه.

انظر إلى جمال الوصف، يقول الملك: «وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾. سورة النمل(٦)

وقال الله: ﴿لَكِنِ الله يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾. سورة النساء(١٦٦)

ويقول الملك: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. سورة الأعراف (٥٢)

كل هذا يُطمئن قلبك.

يا عبد الله كل أفكار البشر ونظرياتهم إنما هي عن جهل وهوى، أما أحكام الله وشرعه فإنه عن علم وعدل.

عندما ينسخ الله بعض أحكامه، فينزل آية مكان آية، أو يبدل حكما بحكم، فكل هذا بعلمه سبحانه.

قال الله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَالله أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾. سورة النحل (١٠٢)

وانظر إلى جميل علمه، كيف خفف في أحكامه لعلمه بضعف خلقه.

هذه المرأة التي تُوفي عنها زوجها، حرّم الله نكاحها في أثناء العدة، بل نهى عن الخطبة، لكن لعلمه سبحانه أنه قد يرغب رجل في نكاح امرأة معتدة من وفاة زوجها أباح له التعريض بالنكاح رفقا منه سبحانه.

قال الله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ الله أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾. سورة البقرة (٢٣٥)

وسبحانه عنده علم كل شيء، لا يضل سبحانه، ولا يطرأ عليه النسيان.

قال الله: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾. سورة طه (٥٢)

كيف لا يُحب، وعلمك أنه بهذه العظمة في العلم يُريح قلبك، ويجعلك في غاية الاطمئنان لأحكامه الشرعية والقدرية.

فكم من أمر أراد الإنسان حصوله وكان محض الشر له.

وكم من أمر كرهه الإنسان وكره حصوله وهو محض الخير له.





يقول الله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. سورة البقرة (٢١٦)

على الحقيقة: والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

وكم من إنسان دعا الله بما فيه هلاكه، والله لا يستجيب لطفا منه، لعلمه أنه شر لعبده فيصرفه عنه بعلمه رحمة به.

قال الله: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾. سورة الإسراء (١١)

لذا شرع الله لك صلاة الاستخارة لأنه يعلم الخير على الحقيقة وأنت لا تعلم.

يقول جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُعَلِّمُنَا الِاسْتِخَارَةَ فِي الأُمُورِ كُلِّهَا، كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ القُرْآنِ، يَقُولُ: «**إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالأَمْرِ، فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الفَرِيضَةِ، ثُمَّ لِيَقُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ العَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلاَ أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلاَ أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدُرْ لِي الخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ أَرْضِنِي» قَالَ: «وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ»**(٥).

علمك أن الله عليم، وكفى به عليما يحررك.

يحررك من رق التعلق بمدح الخلق، لأنه لو علم طهارتك وصلاحك فماذا يضيرك أن جهل ذلك كل الخلق وعلم هو سبحانه.

يحررك من خوف مذمة الخلق ظلما، وتهمتهم لك عدوانا وافتراءً، لأنه لو علم براءتك فيكفيك علمه.

في ذات يوم قال الربيع بن خُثَيْم لِأَهْلِهِ: «**اصْنَعُوا لِي خَبِيصًا**». (طعام جميل حسن)

فَصَنَعُوا، فَدَعَا رَجُلًا كَانَ بِهِ خَبَلٌ، قَالَ: فَجَعَلَ الرَّبِيعُ يُلْقِمُهُ وَلُعَابُهُ يَسِيلُ.

فَلَمَّا أَكَلَ وَخَرَجَ قَالَتْ لَهُ أَهْلُهُ: تَكَلَّفْنَا وَصَنَعْنَا فِيهِ، ثُمَّ أَطْعَمْتَهُ مَا يَدْرِي هَذَا مَا أَكَلَ؟

فقَالَ الرَّبِيعُ: «**لَكِنَّ اللهَ يَدْرِي**»(٦).

يدري، وكفى.

(٥) أخرجه البخاري (٧٣٩٠).

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة في «**مصنفه**» (٢٤٥٤٠).



وَعَلَّمْنَاهُ

وهو العليم يُعَلم من شاء من خلقه ما شاء من علمه.

خرجنا من بطون أمهاتنا لا نعلم شيئا، فعلَّمَنا ربنا سبحانه كل هذه العلوم بكرمه وفضله.

قال الله: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾. سورة العلق.

علم الإنسان كيف يفصح عما بداخله.

علم بني الإنسان اللغات فيفهم الإنسان مراد أخيه.

تخيل لو أن الله لم يعلمنا البيان كيف سيكون الحال.

قال الله: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤﴾. سورة الرحمن

علم الإنسان كيف يزرع، وكيف يصنع، وكيف يُعمّر الأرض.

قال الله يحكي عن سليمان عليه السلام: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾. سورة الأنبياء(٨٠)

هو من علّم آدم أسماء كل شيء مما سيحتاج إلى معرفته

قال الله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝٣١ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾. سورة البقرة (٣٢)

وأعظم العلوم العلم به وبشرعه، هو سبحانه من علّم جميع الأنبياء والمرسلين، وآتاهم العلم والحكمة.

وهذا لوط عليه السلام، قال الله: ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾. سورة الأنبياء (٧٤)

وهذا يعقوب عليه السلام، قال الله: ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. سورة يوسف (٦٨)

وهذا يوسف عليه السلام، قال الله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ﴾. سورة يوسف(٢٢)

ولذا قال يوسف عليه السلام كما ذكره رب العالمين عنه: «رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي





بِالصَّالِحِينَ﴾. سورة يوسف (١٠١)

وهذا داود وسليمان عليهما السلام، قال الله: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾. سورة النمل (١٥)

وهذا موسى عليه السلام، قال الله: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾. سورة القصص (١٤)

وهذا الخضر، قال الله: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾. سورة الكهف (٦٥)

وهذا عيسى عليه السلام، قال الله: ﴿إِذْ قَالَ الله يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾. سورة المائدة (١١٠)

وقال في شأن نبيه محمد ﷺ: «وَأَنْزَلَ الله عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾. سورة النساء (١١٣)

فإن أردت العلم فاقصد العليم الذي أحاط بكل شيء علما وسله أن يعلمك وأن يُفَهِّمك.

قال الله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ الله وَالله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. سورة (٢٨٢) البقرة

إن أُغلق عليك باب علم فالجأ إليه يفتح عليك بما شاء من العلوم.

اسجد في محراب الطلب، وقل يا معلم إبراهيم علمني، ويا مفهم سليمان فهمني.

ثم إياك أن تشمخ بأنفك بشيء علمك الله إياه، فما من ذرة علم عند مخلوق إلا والله من علَّمه إياها.



أَلَيْسَ الله بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ



خرج النبي ﷺ من المدينة، ومعه أصحابه، قاصدين البيت الحرام، يريدون العمرة.

علمت قريش بذلك فقررت منع النبي ﷺ وأصحابه من دخول مكة والطواف ببيت الله الحرام.

وعلى مشارف مكة توقف الركب المبارك، وأرسلت قريش وفودها، رجلاً تلو رجل، يفاوض النبي ﷺ.

وبعد عدة من الرجال، انتهى الأمر بصلح الحديبية.

كان الصلح شديدا على المسلمين، إذ يحمل بين طياته ظلما واضحا لأهل الإيمان.

فالنبي ﷺ وأصحابه لن يدخلوا مكة هذه السنة، وإنما العام المقبل، ولك أن تتخيل هؤلاء خيرة أولياء الله، يلبسون إحرامهم، جاءوا ملبين، يشتاقون إلى بيت الله، وهم على مقربة منه، ثم يُصدون عن البيت، ويعودون دون أن تكتحل عيونهم، وترتوي قلوبهم منه.

وفوق ذلك تشترط قريش ردّ من جاء من المسلمين إلى النبي ﷺ، بل ويرى المسلمون بأعينهم أبا جندل بن سهيل بن عمرو يُرد إلى أبيه بعد أن جاء مسلما.

لم يتحمل عمر بن الخطاب ذاك الظلم، فقال: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ وَهُمْ عَلَى البَاطِلِ؟ فَقَالَ: «بَلَى».

فَقَالَ: أَلَيْسَ قَتْلاَنَا فِي الجَنَّةِ وَقَتْلاَهُمْ فِي النَّارِ؟ قَالَ: «بَلَى».

قَالَ: فَعَلاَمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا، أَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُمِ الله بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ؟

فَقَالَ: «يَا ابْنَ الخَطَّابِ، إِنِّي رَسُولُ اللهِ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي الله أَبَدًا»[٧].

يرجع النبي ﷺ إلى المدينة، وفي الطريق تنزل سورة الفتح.

وفيها يقول الله: ﴿وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ الله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ الله فِى رَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾. سورة الفتح

(٧) أخرجه البخاري (٣١٨٢).



الذي كفّ أيدي المسلمين وأيدي الكافرين عن القتال في هذا الموقف كان هو الله سبحانه، لماذا؟

بيّن الله بعض حكمته فقال: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

كان بمكة جماعة من المسلمين المستضعفين، منهم من هو معلوم، ومنهم من أسلم ولا يعلم المسلمون بإسلامه، فلو كان ثمة قتال بين المسلمين والكافرين لربما قتل المسلمون إخوانهم، فتلحقهم المعرة أبدا على ذلك.

وكذلك أيضا أراد الله تعالى أن يدخل في رحمته من شاء من أهل مكة بإسلامهم، فكثير من أهل مكة سيسلم بعد عام واحد أو عامين، بل وسيكون بعد ذلك منهم سيف الله خالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو، وغيرهم من أكابر أهل الإيمان بعد ذلك.

الله هو الحكيم، بل هو أحكم الحاكمين.

كل أفعال الله سبحانه تتم عن حكمة باهرة، فإنه تعالى عن العبث والطيش والسفه.

يخلق لحكمة، يحيي ويميت لحكمة، يعز ويذل لحكمة، يعطي ويمنع لحكمة، يقبض ويبسط لحكمة، يستر ويفضح لحكمة.

يحلم ويعاقب لحكمة، يبتلي ويعافي لحكمة، يبسط الرزق ويقدر لحكمة، يخفض ويرفع لحكمة، يمهل الكفار والظلمة لحكمة.

لما كان رب العالمين بكل شيء عليم، وعلمه أزلي ذاتي، لا يجرب الأشياء، لا تخفى عليه العواقب، بل يعلم ما كان، وما يكون، وما سيكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، كانت حكمته باهرة تبارك وتعالى.

خلق السموات والأرض والملائكة والإنس والجن بحكمته، لا يفعل ذلك عبثا أو لعبا.

قال الله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾. سورة الأنبياء (١٦)

قال الله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾. سورة ص (٢٧)

قال الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾. سورة هود (٧)

الموت والحياة لم يخلقهم عبثا إنما ليظهر المحسن من المسيء.

قال الله: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾. سورة الملك (٢)

أنت أيها الإنسان لم يوجدك الله عبثا.



قال سبحانه: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾. سورة المؤمنون (١١٦)

بل خلقك لتعبده وحده لا شريك له، لتخضع لأمره، لتنقاد له وحده محبة وتعظيما.

قال الله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾. سورة الذاريات (٥٦)

كل شيء خلقه أتقن خلقه، وقدّر فيه كل شيء في موضعه، بما يناسبه وبما تقوم به حياته، دون زيادة أو نقصان.

قال الله: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾. سورة طه (٥٠)

قال الله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾. سورة الفرقان (٢)

كل شيء فعله أو حكم به فهو في موضعه اللائق به، دون وكس أو شطط.

هو الغني سبحانه لا يخشى الفقر، ومع ذلك قدّر هذا غنيا وهذا فقيرا.

هو القوي الذي لا يُغلب، ومع هذا يمهل الكفار والمجرمين والظلمة، لا يعاجلهم بعقوبته.

هو النصير سبحانه، لكنه ينزل نصره حيث شاء لا حيث شاء الناس.

كل شيء خلقه فقدّره تقديرا.. كل شيء ينزله بقدر معلوم.. كل شيء عنده بمقدار.

قال الله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾. سورة الحجر (٢١)

قال الله: ﴿اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾. سورة الرعد (٨)

قال الله: ﴿قَدْ جَعَلَ اللهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾. سورة الطلاق (٣)

قال الله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾. سورة الشورى(٢٧)

قال الله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾. سورة القمر (٤٩)

لو قلت لك ماذا لو جعل الله تعالى الدنيا بحذافيرها لمن كفر بالله تعالى، وضيق على من آمن به، ماذا لو حدث ذلك في الدنيا؟

أليست الآخرة للمتقين؟

أليست الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة؟



لماذا جعل الله بعض المؤمنين أغنياء وبعضهم فقراء، وجعل بعض الكفار أغنياء وبعضهم فقراء؟

برحمته ذكر حكمته في ذلك فقال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِنْ كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾﴾. سورة الزخرف

ومعنى الآية: أنه لولا أن يكفر الناس إذا رأوا السعة التي قد يبسطها الله على من كفر به لجعل الدنيا في أيدي الكفار، إلى هذا الحد حيث ترى لبيوتهم سقفا من فضة، ومصاعد يعرجون عليها، وأبوابا وسررا من حرير وديباج يتنعمون بها، وزخارف مما تشتهيه النفوس، لكن حتى لا يُفتن الناس فيكفروا بالله إذا رأوا سعة الدنيا مبسوطة لهؤلاء لفعل الله ذلك لهوان الدنيا عليه.

قد ترى أنت مشهدا لا يتجاوز عدة ثوان على هذه الأرض، ربما لا يدرك أحد حينئذ حكمة هذا الشيء، عطاء ومنعا، أو حياة وموتا.

اعتدنا أن نرى الأشياء، نظنها مرت هكذا، لكن كل شيء عند الله تمّ وُفق حكمته، في وقته تماما، بقدر معلوم تماما، عدلا منه لا ظلما، حكمة منه لا عبثا.

هو المقدم والمؤخر، قدم هذا وأخر ذاك بحكمته سبحانه.

إثنان يتنافسان على الجلوس بجوار السائق، يتمازحان، وفي النهاية يركب أحدهما، ثم يصطدم السائق، فيموت الأول، وينجو الثاني.

عندما يكون خرق السفينة هو النجاة.

وقتل الغلام محض العطاء والكرم.

وبناء الجدار في قوم سوء محض الفضل والنعم.

توقن أن الأمور تجري بمقادير الحكيم الخبير.

هذه الشمس التي تأتي كل يوم وتغرب، تبعد عن الأرض مسافة معينة، قدّر الله سيرها، وبعدها، بما به تقوم الحياة.

هذا القمر الذي جعله الله للناس يهتدون به في سيرهم، قدّره الله منازل، يبعد عن الأرض مسافة مقدرة.

هذا الليل، وهذا النهار، الماء والهواء، الأرض واليابسة، بل حتى الماء الذي في جسدك.

كل شيء بحسبان، بميزان لا يختل، ولو تغير ذلك لاختل نظام الأرض وحياة الناس.

قال الله: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾. سورة يس



لحظة تأمل في هذا الكون تملأ قلبك محبة لرب العالمين.

كل يوم يأتي سبحانه بالشمس، ذاك السراج الذي يملأ الكون نورا، الوهاج الذي يملأ الكون دفئا.

يخرج الناس والطير في النهار، الذي جعله الله معاشا، يسعون فيه على أرزاقهم.

وكأني بذاك العصفور الصغير ينتظر نور الصباح، فما أن ينفلق فجر الصباح حتى يسعى على صغاره، يخرج جائعا ضاويا، فيرجع شبعان محملا بطعام أفراخه.

ثم يأتي الليل حيث جعله الله سكنا، تسكن فيه تلك الأجساد المنهكة من عناء السعي على المعاش نهارا.

كل يوم يسخر الله القمر، فيملأ السماء نورا، يهتدي به الناس في ظلمات البر والبحر.

ترى القمر في منازله لا يخطئ منزلا قط، به يعلم الناس السنين والحساب.

يرسل الرياح تحمل الخير، تحمل في طياتها اللواقح، فتخرج الثمار، وتزهر الزهور.

ترى الناس يترقبون المطر، أصابتهم الحاجة، فيرى ضعفهم، فيرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته، فيحيي به الأرض بعد موتها.

قال ربي: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾. سورة الأعراف (٥٧)

ينزل المطر ماء طهورا عذبا فراتا، فيشرب منه الإنس والطير والشجر والدواب.

قال ربي: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُحْيِيَ بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾ سورة الفرقان

كل ما تراه أمام عينك كان بقدر معلوم، ليس شيئا عن صدفة، أو عن جهل، أو عن هوى، بل تقدير الحكيم العليم.



وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ



قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: كُنْتُ أَقْرَأُ سُورَةَ الْمَائِدَةِ وَمَعِيَ أَعْرَابِيٌّ، فَقَرَأْتُ هَذِهِ الْآيَةَ: «**وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ**». فَقُلْتُ (وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ) سَهْوًا، فَقَالَ الْأَعْرَابِيُّ: كَلَامُ مَنْ هَذَا؟ فَقُلْتُ كَلَامُ اللهِ. قَالَ أَعِدْ، فَأَعَدْتُ: (وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ)، ثُمَّ تَنَبَّهْتُ فَقُلْتُ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ فَقَالَ: الْآنَ أَصَبْتَ، فَقُلْتُ كَيْفَ عَرَفْتَ؟ قَالَ: يَا هَذَا عَزِيزٌ حَكِيمٌ فَأَمَرَ بِالْقَطْعِ فَلَوْ غَفَرَ وَرَحِمَ لما أمر بالقطع[٨].

في سورة الإسراء ذكر الله الحكيم الأمر بتوحيده، ثم الإحسان إلى الوالدين، ثم حرم الإسراف والتبذير، وحرم قتل الأولاد خشية الرزق، وحرم الزنى، وقتل النفس إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأمر بالوفاء بالعهد، وتوفية الكيل والميزان، وحرّم أن يقول الإنسان بلا علم، ونهى عن الخيلاء.

ثم قال بعد ذلك: ﴿ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾. سورة الإسراء (٣٩)

الله الحكيم، أحكم الحاكمين، كما أنه لا يخلق ولا يفعل إلا بحكمة، كذلك لا يأمر ولا يُشَرِّع إلا بحكمة.

جعل كتابه محكما حكيما، لا عوج فيه، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم عليم.

فإذا أمر عباده بشيء أمرهم بما هو خير لهم في الدنيا والآخرة، وإذا حرّم عليهم شيئا فإنه يحرّم عليه ما فيه مفسدة حياتهم.

هذه العبادات التي أوجبها يذكر سبحانه أن الغرض منها تزكية النفوس وتطهيرها وتحصيل التقوى.

وأحكام المعاملات التي بين الناس لا يأمر ولا ينهى إلا بحكمة.

أمر بكتابة الديون، وبين الحكمة من ذلك فقال: ﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا﴾. سورة البقرة (٢٨٢)

وهذه الخمر والميسر ينهى عنها، ثم يذكر سبحانه شيئا من حكمته في حريمها على عباده.

قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾. سورة المائدة (٩١)

وعندما أوجب القصاص، ذكر أنه حياة للناس، حياة للقاتل حتى لا يقدم عليه إن علم أنه مقتول، وحياة للمقتول، حيث حفظ بهذا الحد حياة الناس.

---

(٨) ذكره الرازي في تفسيره (١١/ ٣٥٧).



قال الله: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. سورة البقرة (١٧٩)

حتى النجوى عندما نهى عنها ذكر حكمة ذلك فقال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾. سورة المجادلة

وعندما أوجب الحجاب على نساء المسلمين ذكر أن من الحكم الربانية ألا تتعرض المؤمنات لأذى الفساق. قال سبحانه: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ الله غَفُورًا رَحِيمًا﴾. سورة الأحزاب (٥٩)

تأمل: في آية المواريث كيف ختم الله الآية؟

قال الله: ﴿يُوصِيكُمُ الله فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. سورة النساء (١١).

ختمها بقوله: ﴿فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾.

وفي آية الزكاة كيف ختم الله الآية؟

قال الله: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَالله عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. سورة التوبة (٦٠)

ختمها بقوله: «**فريضة من الله والله عليم حكيم**».

إن الله تعالى هو من خلق هذا الإنسان، وهو أعلم به من نفسه، فتشريعه تشريع رب عليم حكيم.

قال الله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾. سورة الملك (١٤)

وقال سبحانه: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾. سورة المائدة (٥٠)

العليم الحكيم هو من فرض وأوجب وحكم وشرع، فأي حكم ستتبع؟ حكم الحكيم العليم أم حكم الإنسان الظلوم الجهول!



القوي المتين



على كل شيء مقتدرا
القدير، إذا أراد شيئا قال له كن فيكون.

وَكَانَ الله قَوِيًّا عَزِيزًا



يقول النبي ﷺ: «كَانَ رَجُلٌ يُسْرِفُ عَلَى نَفْسِهِ فَلَمَّا حَضَرَهُ المَوْتُ قَالَ لِبَنِيهِ: إِذَا أَنَا مُتُّ فَأَحْرِقُونِي، ثُمَّ اطْحَنُونِي، ثُمَّ ذَرُّونِي فِي الرِّيحِ، فَوَاللهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِّي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا، فَلَمَّا مَاتَ فُعِلَ بِهِ ذَلِكَ.

فَأَمَرَ الله الأَرْضَ فَقَالَ: اجْمَعِي مَا فِيكِ مِنْهُ، وفي رواية «قال الله: كن»، فَفَعَلَتْ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ.

فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟

قَالَ: يَا رَبِّ خَشْيَتُكَ.

قال: فَغَفَرَ لَهُ»[1].

سبحان القدير: قال للأرض اجمعي ما فيك منه، ففعلت، فإذا هو قائم.

هذا رجل أُحرق بالنار، ثم طُحن جسده وعظمه، ثم ذُرّي في الرياح، ومع ذلك جمعه الله بكلمة، لأنه القوي القدير.

أيمكن أن يكون الإله عاجزا ضعيفا؟.. أيمكن أن يكون رب العالمين في حاجة لعون خلقه؟

لا والله، بل الله هو القوي الذي لا يُغلب، القدير الذي لا يعجز.

ربنا الذي نعبده القوي الذي له القوة جميعا.

قال الله: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾. سورة البقرة (١٦٥)

الله لا يَضعُف عن فعل شيء أراده، إذا أراد أمرا فإنما يقول له كن فيكون، لا يصيبه النَصَب، ولا يحتاج معينا.

قال الله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾. سورة النحل (٤٠)

كن فيكون.. كلمح البصر.

قال الله: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾. سورة القمر (٥٠)

الله لا يستعصي عليه شيء. لا ينصب، لا يتعب، لا يثقله شيء، ليس شيء عبئا عليه، لا يحتاج عون أحد.

---

(١) أخرجه البخاري في «**صحيحه**» (٣٤٧٨)، ومسلم في صحيحه (٢٧٥٦)



قال الله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾. سورة ق (٣٨)

قال الله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾. سورة البقرة (٢٥٥)

لا يئوده: لا يثقله، ليس ذلك عليه ثقيلا، بل هو لا شيء بالنسبه لقدرته وقوته.

السموات والأرض وما فيهن في قبضته، وتحت قهره وسلطانه.

الماء، والريح، والنار، والبر، والبحر، والإنس، والجن، والملائكة، والوحش، والطير، والحيتان، حتى النمل في جحورها، كل خلقه في قبضته وتحت سلطانه.

قال الله: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾﴾. سورة فصلت

بقوته يخلق ما يشاء، ويرزق من يشاء، وينجي من يشاء، ويهلك من يشاء.

ترى تلك العصفورة الضعيفة التي لا تحمل رزقها، يسوق لها رزقها بقوته ورحمته.

قال الله: ﴿الله لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾. سورة الشورى (١٩)

قال الله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾. سورة الذاريات

بقوته ورحمته نجى صالحا والذين آمنوا معه.

قال الله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾. سورة هود(٦٦)

بقوته أهلك أعدائه فلا يعجزه أحد في السموات والأرض.

فهؤلاء يهلكهم بالريح.. وهؤلاء يهلكهم بالماء.. وهؤلاء يهلكهم بالصيحة.. وهؤلاء يخسف بهم الأرض.. وهؤلاء يمسخهم قردة وخنازير.. وهؤلاء يرسل عليهم الحجارة من سجين.

قال الله: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ الله بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾. سورة الأنفال (٥٢)

فمهما بلغت قوة العباد فلا تعد شيئا يذكر أمام قوته جل في علاه.

قوم عاد كانوا قد آتاهم الله قوة، فغرتهم قوتهم فنسوا رب العالمين حتى قالوا من أشد منا قوة، فأهلكهم الله بالريح.

نعم: كما سمعت بالريح، فصاروا كأعجاز نخل خاو منقعر.





قال الله: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٦﴾﴾. سورة فصلت

وبقوته ينصر أولياءه على أعدائه.

قال الله: ﴿كَتَبَ الله لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾. سورة المجادلة (٢١)

وكل من سوى الله ضعيف، لا يقوى على شيء إلا بقوة منه سبحانه.

قال الله: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ سورة الحج

لقد بلغ الضعف لكل الأنداد التي اتخذها الناس من دون الله سواء كانوا ملوكا من البشر، أو أولياء من الجن، أو شيئا من الحجر، أو شمسا أو قمر، بلغ بهم الضعف أنهم لو اجتمعوا جميعا هم وجميع الخلق على أن يخلقوا ذبابة فلن يستطيعوا خلقها، بل ولو أخذت منهم الذبابة شيئا من طعامهم وشرابهم فاجتمعوا على استنقاذه لما استطاعوا، أما رب العالمين فإن الخلق ما قدروه حق قدره، وهو القوي العزيز.



هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ



وهو القادر القدير المقتدر.

الله يقدر على ماذا؟

الله قدير على كل شيء.

قال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. سورة البقرة (٢٠)

قال الله: ﴿وَكَانَ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾. سورة الكهف (٤٥)

كل ما شاءه الله فعله، لا يعجز عن فعله.

وفي الجنة أسوق لك قصة آخر رجل يدخل الجنة حيث يخرج من النار فترفع له شجرة...ثم شجرة أحسن.. ثم شجرة عند باب الجنة أحسن من الأوليين.. وفي النهاية يقول الله له لك الدنيا ومثلها، فيقول العبد: يَا رَبِّ أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟

فيضحك رب العالمين ويقول إِنِّي لاَ أَسْتَهْزِئُ مِنْكَ وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ»[٢]..

ولكني على ما أشاء قادر. هنا تنتهي القصة، هل شاء الله حدوثه؟ إن كانت الإجابة نعم فقد تم الأمر.

لا يقف أمام قدرته شيء، فإذا وعد وفى سبحانه.

مرر على قلبك هذا النداء الرباني إذ يقول سبحانه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. سورة البقرة (١٠٦)

إنها آية تبعث في النفس جميل الطمأنينة، أن يكون ربك على كل شيء قدير.

عندما تتعامل مع وعوده سبحانه بهذا اليقين أنه على كل شيء قدير.

حتى لو كان الأمر في ظاهره مستحيلا، وأراد الله حدوثه فسيحدث.

حتى وإن تخلفت الأسباب، حتى ولو كان بمنظور البشر هذا من المستحيلات.

إذا أراد الله حدوثه فلا تسل كيف حدث، فقط لأن الله أراد.

كان عمر بن الخطاب ﵁ يدعو الله فيقول: «**اللَّهُمَّ قَتْلًا فِي سَبِيلِكَ، وَوَفَاةً فِي بَلَدِ نَبِيِّكَ**»

فقالت له ابنته حفصة أم المؤمنين: وَأَنَّى يَكُونُ هَذَا؟ قَالَ: «**يَأْتِي بِهِ الله إِذَا شَاءَ**»[٣].

مريم الصديقة فتاة عذراء، أراد الله أن يخلق فيها عيسى دون أب، فكان ما أراد الله.

لما جاءها جبريل بالبشرى قالت: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ الله

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (١٨٧)

(٣) أخرجه الطبراني في «**المعجم الأوسط**» (٢٧٩٥)، وصححه ابن حجر في «فتح الباري» (٤/ ١٠١).



﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾. سورة آل عمران (٤٧)

عندما تسير سفينة وسط أمواج كالجبال، وماء منهمر يُسكب من السماء، وصارت الأرض عيونا يخرج منها الماء، فقد تكون النجاة وسط ذلك أمرا مستحيلا.

قال الله: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾. سورة هود (٤٢)

قال الله: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾. سورة القمر

لكن الله أراد النجاة فكان جريانها به سبحانه.

ولذا قال نوح كما ذكر ربنا في كتابه: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. سورة هود (٤١)

بسم الله، بقوته وبحوله سوف تشق السفينة هذه الأمواج.

بسم الله، بقوته وحده سيحملنا، وبقوته سينجينا.

قال الله: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴿١٥﴾﴾ سورة القمر

قال الله: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾﴾ سورة الشعراء

عندما يُلقى إنسان في النار، تكون النجاة حينئذ مستحيلة، لكن رب العالمين هو الذي خلق النار، هي في قبضته وتحت سلطانه.

فكانت النجاة لإبراهيم بقوله عز وجل للنار: ﴿قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ سورة الأنبياء

عندما يُلقى طفل في البئر، يكون الموت المحتم، لكن الأمور تجري بإذن رب الأرض والسماء، فإذا شاء نجاة عبد نجاه. وعندما يُلقى بريء في السجن، فإن الله بقدرته هو يحرر عبده من هذه القيود.

إنه يوسف:

يُلقيه إخوته في البئر فيرسل الله له من يخرجه، قال الله: ﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَابُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾. سورة يوسف (١٩)

ويُلقى في السجن ظلما فيخرجه الله عزيزا، ويجمعه بأبيه وإخوته، ثم يقف مثنيا على ربه فقال: ﴿وَقَالَ يَاأَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾. سورة يوسف (١٠٠)

عندما يحاصر أعداء الله أهل الإيمان، وتكون الهلكة بحسابات أهل الأرض، لكن إذا شاء الله النجاة كانت لأن الله لا يعجزه شيء.





هذا موسى عليه السلام يخرج مع قومه من مصر، فيتبعهم فرعون بجنوده، فإذا الماء من أمامهم والعدو من خلفهم، ويقول أصحاب موسى إنا لمدركون.

إلا أن موسى يعرف ربه بقدرته وعظمته، فيقول قولة الواثق في ربه: ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾. سورة الشعراء (٦٢)

فتكون النتيجة: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ۝٦٣ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ۝٦٤ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ۝٦٦ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ۝٦٧ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۝٦٨﴾ سورة الشعراء

إنها القاعدة: «وَالله غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. سورة يوسف (٢١)

والله يفعل ما يشاء بقدرته، وكل شيء عليه يسير هين.

رزق الله زكريا عليه السلام الولد وقد بلغ من الكبر عتيا، وامرأته عاقر، ثم يقول: «**هو علي هين**».

قال الله: ﴿يَازَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ۝٧ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ۝٩﴾ سورة مريم

حتى هذه السموات السبع العظام والأرضين السبع خلقها سبحانه ولم ينصب ولا يتعب من خلقهن ولا إبداعهن بل كان ذلك على الله يسير.

قال الله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. سورة الأحقاف (٣٣)

قال الله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾. سورة ق (٣٨)

وإحياء جميع الخلائق بعد الموت، وبعثهم وحشرهم يسير على الله، كنفس واحدة.

قال الله: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾. سورة ق (٤٤)

لما خلق الخلق جميعا كان ذلك عليه يسيرا، ثم يعيدهم إذا شاء ذلك، وهو كذلك عليه يسير.

تخيل مليارات المليارات من المخلوقات من الإنس والجن والطير والوحش وما لا يعلمه إلا هو.

قال الله«أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ الله الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾. سورة العنكبوت (١٩)

بعث هؤلاء الخلق جميعا بالنسبة لله كخلقه نفسا واحدة، لا مشقة، لا صعوبة.

قال الله: ﴿مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾. سورة لقمان (٢٨)

ومن عظيم قدرته أن قادر على أن يبعث الإنسان بعد موته حتى أنه يجمع عظام بنانه مرة أخرى كما كانت في الدنيا .

قال الله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ۝٣ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ ۝٤﴾ سورة القيامة

أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ

الله هو القوي القدير، هو من يملك القوة، ويملك القدرة، ولا قوة ولا قدرة لك على فعل شيء إلا به.

وكل قوة في أحد من خلقه هو من وهبها لهم، فلا قوة لأحد إلا بالله.

لذا كان قول: «**لا حول ولا وقوة إلا بالله**» كنز من كنوز الجنة.

لأن العبد لا يفلح حتى يكون غايته رب العالمين، ولا يبلغ العبد غايته إلا بالله رب العالمين.

فعنوان فلاحك:

إياك نعبد، وهو توحيد القصد والغاية والوجهة.

وإياك نستعين: وهو أن يكون بلوغك لربك بربك، فأنت لله وبالله تنجو وتفلح، لله قصدا وعبودية وحبا، وبالله توكلا واستعانة.

كان النبي ﷺ يثني على ربه إذا استفتح الصلاة بالليل، ومن ثناءه على ربه ومولاه يقول: «**أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ**»[٤].

أنا بك أكون، بك آمنت، بك أسلمت، بك صليت، بك أطعت، بك تركت معصيتك.

كان ﷺ إذا غَزَا قال: «**اللهم أَنْتَ عَضُدِي ونَصيري، بِكَ أَحُول، وبِكَ أَصُولُ، وبِكَ أُقاتِلُ**»[٥].

أنت في حاجة إلى ربك في كل نفس.

حتى أن تضع جنبك على الأرض لا تستطيع ذلك إلا بربك.

ورفعك جنبك بعد استيقاظك من نومك لا تستطيعه إلا بربك.

كان ﷺ يعلم أصحابه أن يقول أحدهم إذا أوى إلى فراشه: «**باسْمِكَ رَبِّ وَضَعْتُ جَنْبِي وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ**»[٦].

لذا كان عنوان الاستسلام لله قول العبد: «**لا حول ولا قوة إلا بالله**».

---

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (٧٧١).

(٥) أخرجه أبو داود في سننه (٢٦٣٢)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح أبي داود (٢٣٦٦).

(٦) أخرجه البخاري في «**صحيحه**» (٦٣٢٠)، ومسلم في «**صحيحه**» (٢٧١٤).





قال النبي ﷺ لأبي هريرة: «**أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ قُلْتُ بَلَى قَالَ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ قَالَ أَحْسِبُهُ قَالَ يَقُولُ الله عَزَّ وَجَلَّ أَسْلَمَ عَبْدِي وَاسْتَسْلَمَ**»(٧).

عندما يراك الله تقولها بقلبك فكأنك تقول: يا من بيده القوة جميعا، فوضت كل أمري وأمور جميع الخلائق إليك، فيرد الله عليك: أسلم عبدي واستسلم، أي انقاد إليّ وسلّم أمره لي، وحينئذ يكفيك رب العالمين.

أولم تعلم أنك إذا قلتها عند خروجك من بيتك هداك الله ووقاك وكفاك.

يقول النبي ﷺ: «**إذا خرجَ الرجُلُ مِن بيته، فقال: باسْم الله، توكلتُ على الله، لا حولَ ولا قوة إلا بالله**» قال: «**يُقالُ حينئذٍ: هُدِيتَ وكفِيتَ وَوُقِيتَ، فتتنَحَّى له الشياطينُ، فيقول شيطانٌ آخرُ: كيفَ لك برجلٍ قد هُدِيَ وكُفِيَ ووقي؟**»(٨).

إنه إعلان العبد بكل قلبه أنه لا تحول له من حال إلى حال إلا بالله، ولا قوة له على شيء البتة إلا بالله.

فالقوة كلها له ومنه، والعون كله منه.

ألم تتفكر لماذا حينما نسمع المؤذن نقول مثل ما يقول، إلا عند قوله: «**حي على الصلاة، حي الفلاح** »، فنقول: «**لا حول ولا قوة إلا بالله**».

السر في ذلك: كأنك تجيب من دعاك إلى الصلاة بأنك ستجيبه بحول الله وقوته، لا بحولك أنت ولا قوتك.

النبي ﷺ عندما سُئل عَنْ صَوْمِ يَوْمٍ، وَإِفْطَارِ يَوْمَيْنِ؟

قَالَ: «**لَيْتَ أَنَّ اللهَ قَوَّانَا لِذَلِكَ**»(٩).

تعلَّم أن تطلب من ربك القدرة منه على أي خير تريد، فهو من يُقدّرُك أي يعطيك القدرة، أو يتخلى عنك فتصبح عاجزا ضعيفا.

عندما علمنا نبينا ﷺ صلاة الاستخارة، كان فيها أن تقول: «**وأستقدرُكَ بقُدرتِكَ**»(١٠)..

علمنا نبينا ﷺ أن نتعوذ بالله من العجز والكسل، فكان يقول ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ العَجْزِ وَالكَسَلِ**»(١١).

---

(٧) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٧٣٦)، وصححه الشيخ الألباني في «**السلسلة الصحيحة**» (٤/ ٣٥).

(٨) أخرجه أبو داود في سننه (٥٠٩٥)، وصححه الشيخ الألباني في «**صحيح الترغيب والترهيب**» (١٦٠٥).

(٩) أخرجه مسلم في صحيحه «(١١٦٢).

(١٠) أخرجه البخاري (٦٣٨٢)

(١١) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٨٢٣)، ومسلم في صحيحه (٢٧٠٦)

تبرأ من حولك وقوتك إلى حول الله وقوته، ولا تركن لنفسك، ولا لقوتك، ولا لما معك من أسباب، بل ليكن وثوقك بما في يد الله سبحانه أعظم مما في يدك، وأعلم أنه وحده من العون.

هو على نصرك قدير.

إياك أن تظن أن الكفار يعجزون ربك، لا والله

قال الله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾. سورة الأنفال (٥٩)

بل إن الله يمهلهم امتحانا واختبارا لعباده، يبلو بعضهم ببعض.

قال ربنا: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ الله لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾. سورة محمد (٤)

فإذا شاء الله نصر عباده نصرهم بقدرته وقوته.

عندما ينصرون دينه، عندما يقيمون شرعه.

حينئذ ينصرهم، حتى وإن ضعفت الأسباب التي معهم.

قال الله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا الله وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ الله مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾. سورة الحج

العزيز، رب العزة،
له العزة جميعا



يعز من يشاء، ويذل من يشاء
العزة في جواره، والذلة والصغار في عصيانه

إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا



كان حاكم مصر هو الملك الصالح نجم الدين أيوب، وكان ذا سيرة حسنة، وكان حاكم دمشق هو الملك الصالح إسماعيل، وكان سيئا، فخشي على ملكه من الملك الصالح نجم الدين أيوب، فتصالح مع الصليبيين ضد حاكم مصر، حتى أنه أذن لهم بدخول دمشق وشراء السلاح من أهلها، وهنا كان سلطان العلماء العز بن عبد السلام إماما عظيما يخطب في الجامع الأموي بدمشق، فما كان منه إلا أن صعد المنبر وأفتى بحرمة بيع السلاح للصليبيين، فلما علم الملك الصالح إسماعيل بذلك، أمر بسجنه ثم أخرجه بعد مدة لكن خلعه من جميع مناصبه ومن الخطابة في جامع دمشق، ثم أرسل إليه أحد أعوانه يعرض عليه عرضا فإن وافق وإلا فالسجن.

فلما جاءه رسول الملك شرع هذا الرجل مبعوث الملك في مسايسة الشيخ وملاينته، ثُمَّ قَالَ لَهُ: بَيْنك وَبَين أَن تعود إِلَى مناصبك وَمَا كنت عَلَيْهِ وَزِيَادَة أَن تنكسر للسُّلْطَان، وَتقبل يَده لَا غير.

فَقَالَ لَهُ: وَالله يَا مِسْكين مَا أرضاه أَن يقبل يَدي فضلا أَن أقبل يَده، يَا قوم أَنْتُم فِي وَاد وَأَنا فِي وَاد، وَالْحَمْد لله الَّذِي عافاني مِمَّا ابتلاكم بِهِ.

فَقَالَ لَهُ: قد رسم لي إِن لم توَافق على مَا يطْلب مِنْك وَإِلَّا اعتقلتك.

فَقَالَ: افعلوا مَا بدا لكم.

فَأَخذه واعتقله فِي خيمة إِلَى جَانب خيمة السُّلْطَان.

وَكَانَ الشَّيْخ يقْرَأ الْقُرْآن وَالسُّلْطَان يسمعهُ، فَقَالَ يَوْمًا لملوك الفرنج تَسْمَعُونَ هَذَا الشَّيْخ الَّذِي يقْرَأ الْقُرْآن؟

قَالُوا: نعم.

قَالَ: هَذَا أكبر قسوس الْمُسلمين، وَقد حبسته لإنكاره عَليّ تسليمي لكم حصون الْمُسلمين، وعزلته عَن الخطابة بِدِمَشْق وَعَن مناصبه، ثمَّ أخرجته فجَاء إِلَى الْقُدس وَقد جددت حَبسه واعتقاله لأجلكم.

فَقَالَت لَهُ مُلُوك الفرنج: لَو كَانَ هَذَا قسيسنا لغسلنا رجلَيْهِ وشربنا مرقتها.

ثمَّ جَاءَت العساكر المصرية وَنصر الله تَعَالَى الْأمة المحمدية، وَقتلُوا عَسَاكِر الفرنج، ونجى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الشَّيْخ فجَاء إِلَى الديار المصرية، فَأقبل عَلَيْهِ السُّلْطَان الْملك الصَّالح نجم الدّين أَيُّوب رَحمَه الله، وولاه خطابة مصر وقضاءها، وفوض إِلَيْهِ عِمَارَة الْمَسَاجِد المهجورة بِمصْر والقاهرة[1].

---

(١) ذكر هذه القصة السبكي في «**طبقات الشافعية**» (٨/ ٢٤٤)

سبحان العزيز المعز المذل.

أيها العبد المحرر من رق المخلوقين.

يا من يؤلمك الذل والاستعباد.

إن أردت العزة فليس لها سبيل إلا في جناب العزيز.

الله العزيز.

قال الملك: «هُوَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. سورة الحشر(٢٣)

وهو رب العزة وصاحبها ومالكها، فالعزة له جميعا من كل وجه.

قال الله: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. سورة يونس (٦٥)

قال الله: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾. سورة الصافات (١٨٠)

فما هي العزة؟

تجمع العزة أربعة معان، وهي الاستغناء، والقوة، والغلبة، والمنعة.

وتجمع الذلة أربعة معان، وهي الحاجة، والضعف، والقهر، واستباحة الحمى.

والاستغناء: أي عدم الحاجة، لأن ما يملكه يغنيه عن غيره، وكلما كان الإنسان مستغن عن غيره كان عزيزا بقدر غناه، وكلما احتاج لغيره كان له نصيب من الذل بقدر حاجته.

فالاستغناء عز، والحاجة ذل.

ورب العالمين هو الغني، غني بذاته، له الغني كله، لا يحتاج لأحد من خلقه، فكل من سواه هو من أوجده وخلقه، ويملكه، وفي سلطانه.

قال الله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾. سورة آل عمران (٩٧)

والقوة هي القدرة على فعل ما تريد دون ضعف، وكلما عجز الإنسان عن فعل ما أراد، أو فعله بضعف كان له من الذلة نصيب بقدر عجزه وضعفه.

فالقوة عز، والعجز والضعف ذل.

ورب العالمين له القوة جميعا، لا يُعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، يفعل ما يشاء دون نصب أو تعب.

والغلبة، وهي القوة على الغلبة، فيقال فلان عزيز إذا كان يملك القوة عند المغالبة فتغلب إرادته إرادة غيره، ويغلب خصمه عند المخاصمة.

وضدها الذلة، وهي الضعف عن المقاومة، فيقال فلان ذليل إذا ضعف عن تنفيذ إرادته، أو غلبه خصمه.

ويكون للعبد من العزة بمقدار غلبته لخصمه، ونصيب من الذلة بقدر غلبة خصمه له[٢].

فالغلبة عز، والقهر والهزيمة ذل.

ورب العالمين غالب على أمره، لا يغالبه أحد، فإذا أراد الله بأحد خيرا فلا راد لفضله، وإذا أراد الله بأحد سوءا فلا مرد له.

قال الملك: ﴿وَالله غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾. سورة يوسف (٢١)

قال الملك: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ الله بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. سورة يونس (١٠٧)

قال الملك: «وَإِذَا أَرَادَ الله بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ﴾. سورة الرعد (١١)

وإذا أراد الله نصر أحد فلا غالب له.

قال الله: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ الله فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾. سورة آل عمران (١٦٠)

والعزة من المنعة، أن يمتنع أن يصل إليه أحد بسوء، وعلى قدر المنعة تكون العزة، ويُصاب العبد بنصيب من الذلة على قدر ما يصل إليه الناس من سوء.

فالمنعة عز، واستباحة الحمى، ووصول الأذى والنقص ذل.

ورب العالمين عز وجل عن أي نقص أو أي عيب.

ورب العالمين عز وجل عن أن يصل إليه مخلوق بسوء أو ضر، فكل خلقه في قبضته وتحت قهره وسلطانه.

قال الله في الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي، فَتَنْفَعُونِي**»[٣].

وكل معان العزة من الاستغناء والقدرة والغلبة والمنعة لله وحده لا لغيره

وكل معان الذل تعالى الله عنها من كل وجه.

وكل من سوى الله فإنه يتعزز بما ملكه الله إياه، فهذا يتعزز بماله، وهذا يتعزز بجنوده وسلطانه، وكل هذا زائل.

أما الله فعزته ذاتية، لا يحتاج لأحد ليتقوى به، أو ليستغني به، أو ليستنصر به، أو ليمنع عنه أذى.

وهذه آية تخبرك عن عزته جل جلاله: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾. سورة الإسراء (١١١).

أما من سواه فمن ذله الذاتي يبحث عمن يتعزز به، من مال، أو جند، أو سلطان، فهو في الحقيقة ذليل الحاجة، وإن لبس رداء العز.

---

(٢) انظر الفروق للعسكري (١/ ٢٥١)

(٣) أخرجه مسلم في «**صحيحه**» (٢٥٧٧)



أرأيت هـذا القاتـل الـذي أزهـق الأرواح لإعـزاز ظـالم غشـوم، فيـا ليـت شـعري مـن أكثرهمـا ذلا، أهـذا الـذي يتعـزز بالسـفلة الذيـن ينهبـون أقـوات النـاس وأرواحهـم، أم سـفلة السـفلة الذيـن باعـوا دينهـم بدنيـا غيرهـم.

انظر إليه يوم القيامة عندما يقف بين يدي الملك العزيز ليقول له: لِمَ قَتَلْتَهُ؟

فَيَقُولُ: لِتَكُونَ الْعِزَّةُ لِفُلَانٍ.

فَيَقُولُ الله: إِنَّهَا لَيْسَتْ لِفُلَانٍ، فَيَبُوءُ بِإِثْمِهِ[٤].

يا ليتهم يدركون هذا في الدنيا قبل فوات الأوان.

يا ليتهم يدركون أن العزة لله جميعا، وأنها ليست لأحد دون الله، الذي أرادك أن تحيا عزيزا به.

تحيا عزيزا به عندما تتعزز به، فهو وحده من يقويك، ومن يغنيك، ومن يمنع عنك الأذى.

أما من سواه فهم عبيد مثلهم مثلك، فاستغن عنهم بالله تكن عزيزا به سبحانه.

جـاء جبريـل إلى النبـي ﷺ فقـال له: «**وَاعْلَمْ أَنَّ شَرَفَ الْمُؤْمِنِ قِيَامُ اللَّيْلِ، وَعِزُّهُ اسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ النَّاسِ**»[٥].

أرادك الله ألا تقف موقف ذل إلا بين يديه.

تمرغ أنفك في التراب بالسجود له وحده، فتعتز بشرف التذلل له دون من سواه.

تجمع حوائجك متضرعا له قائلا بلسان قلبك:

ربي: عبدك ببابك، مُسيكينك بفنائك.

سُئل الإمام أحمد بن حنبل ﵀ عن معنى وضع اليمين على الشمال في الصلاة؟

فقال: ذل بين يدي عز[٦].

وكل من اعتز بذي العز فذو العز له عز.

وكل من تذلل للخلق فعلق قلبه بهم في الدنيا فهو ذليل، ويوم القيامة تراهم خاشعين من الذل.

قـال الله: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾. سورة القلم

كانـوا في الدنيـا يسـجدون لـكل طاغـوت، قلوبهـم ذليلـة لملـوك الأرض، ظنـوا عزتهـم، أرادوا منهـم العـزة، فكانـوا في الدنيـا أذل الخلـق، ويـوم القيامـة في غايـة الـذل.

دعاهم الله للعزة بالسجود له وحده، فأبوا إلا أن يسجدوا ويخضعوا لغيره.

(٤) النسائي (٤٠٠٨)، وصححه الألباني في «**السلسلة الصحيحة**» (٢٦٩٨).

(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٤٢٧٨)، وحسنه الشيخ الألباني بطرقه في السلسلة الصحيحة (٨٣١).

(٦) نقله أبو يعلى في طبقات الحنابلة (١/ ٨١)





قال الله: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِنْ وَلِيٍّ مِنْ بَعْدِهِ وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾﴾. سورة الشورى

تعلقوا بالظلمة، وتعلقوا بالكفار الفجرة، يبتغون عندهم العزة، يبتغون عندهم المنعة، يظنون أنهم سيمنعونهم من الأذى.

تركوا الدين متعززين بهؤلاء، والله يقول: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ سورة النساء

العزة كلها في جنابه وفي جواره.

إن أردت غنى فوحده يغنيك، فبه الغنى، وليس عنه غنى طرفة عين.

وإن أردت القوة فالقوة لله جميعا، لا حول لك ولا قوة لك إلا به.

وإن أردت غلبة على عدوك، فالله غالب على أمره، وقضى سبحانه فقال: ﴿كَتَبَ الله لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ سورة المجادلة (٢١)

وإن أردت منعة، فهو من يمنع عنك السوء، ولن يمنعك من الله أحد.

في ذات يوم كان نبينا ﷺ نائما في ظل شجرة، فجاء رجل من المشركين، فوقف عند رأس النبي ﷺ بالسيف، ثم أيقظ النبي ﷺ قائلا له:

من يمنعك مني؟، من يمنعك مني؟، من يمنعك مني؟. هكذا ثلاثا

فقال النبي ﷺ: الله.

فسقط السيف من يد الرجل، فأخذه النبي ﷺ، ثم قال له: وأنت من يمنعك مني؟

فقال الرجل: كن خيرا مني.

فعفى عنه [٧].

لذا ما أعظم أن تعيش في جوار العزيز، ولا تنسى هذه أبدا: ومن اعتز بذي العز فذو العز له عز.

(٧) أخرجه البخاري (٢٩١٠)، ومسلم (٨٤٣)، وأحمد في «مسنده» (١٥١٩٠).





عَزَّ جَارُكَ



كانت العرب قديما إذا أراد أحد أن يدخل موضعا يخشى فيه من الأذى دخل في جوار سيد من سادتهم يعز في جواره

فأي الجوار أعز؟

لا أعز من جوار العزيز الحميد.

يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: إِذَا كَانَ عَلَى أَحَدِكُمْ إِمَامٌ يَخَافُ تَغَطْرُسَهُ أَوْ ظُلْمَهُ فَلْيَقُلْ: (اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ كُنْ لِي جَارًا مِنْ فُلَانِ بْنِ فُلَانٍ وَأَحْزَابِهِ مِنْ خَلَائِقِكَ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيَّ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَوْ يَطْغَى، عَزَّ جَارُكَ وَجَلَّ ثَنَاؤُكَ وَلَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ)[٨].

بل لا جوار على الحقيقة إلا جوار رب العالمين. لأنه وحده من يجير ولا يجار عليه.

قال الله: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ سورة المؤمنون

وحده الذي يعصمك، ويجيرك، ولا عاصم للعبد من دون الله، لأنه العزيز الذي لا يُمانع ولا يغالب.

وكل من تعلقت به ليمنعك من الله فهو سراب.

يقول الملك سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَٰنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾﴾ سورة الأنبياء

فإن أردت جوارا لا يخيب ولا يزول، فدونك جوار الملك العزيز جل جلاله

كن في صحبته، أولم تتأمل قوله سبحانه: ولا هم منا يصحبون.

إنها صحبة رب العالمين

كان النبي ﷺ إذا جاء السَحر أو سافر يقول: «**رَبَّنَا صَاحِبْنَا وَأَفْضِلْ عَلَيْنَا**»[٩].

---

(٨) أخرجه البخاري في «**الأدب المفرد**» (٧٠٧)، وصححه الشيخ الألباني في «**صحيح الأدب المفرد**» (٥٤٨)
(٩) أخرجه مسلم (٢٧١٨)



بعزة الله لا بعزة فرعون



بينما يقف الفريقان، جند الرحمن، وجند الشيطان.

يقف موسى عليه السلام في وجه طغيان فرعون، يجمع فرعون السحرة ليلبسوه بباطلهم ثوب الألوهية.

يقف موسى مستعينا بربه العزيز.

ويقف سحرة فرعون ليقولوا: ﴿فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾. سورة الشعراء (٤٤)

كأنهم يقولون بقدرة فرعون، ومنعته، وغلبته، ستكون لنا الغلبة.

نظروا إلى قوته الزائفة، وسلطانه الباطل، وجنوده الذين تستر بهم، فغرهم ذلك فظنوا أنهم في منعة من الغلبة، وأنهم قاهرون غالبون بغلبة فرعون.

أولم يقلها فرعون قائلا: ﴿سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾. سورة الأعراف (١٢٧)

هكذا: فوقهم قاهرون!!

هكذا الإنسان المخلوق من الماء المهين، عندما يخوله الله شيئا من الملك، تراه يتعزز بملكه، وسلطانه، وجنوده وزبانيته، بماله ومعارفه، يتعلق بكل هذا من دون الله، يبتغي به القوة والغلبة والمنعة، يبتغي به العزة، فيخذله الله من نفس الشيء الذي ظن فيه عزته.

قال العزيز الحكيم: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ۝٨٢﴾ سورة مريم

والله إنه الخذلان، يوم أن يتعلق العبد بغير الله تعالى فيستغني به عن ربه ومولاه، ومن لا غنى له عنه طرفة عين.

قال الله: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾. سورة الإسراء (٢٢)

نعم والله، تراه مذموما لا حامد له، مخذولا لا ناصر له.

فأين فرعون إذا؟ هلك في الوحل، والطين يملأ فمه، ذليلا مهينا هو وجنوده.

وأين قارون، وما تعزز به من مال؟ خسف الله به وبماله الأرض.

وأين أتباع كل مجرم ظالم، وأين أتباع كل طاغوت مهين؟

إنهم كما قال الجليل: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ﴾. سورة هود (١٠١)



يعز ويذل



بينما النبي ﷺ راجع من غزوته إذ قال رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، يقصد عدو الله هذا بنفسه العزيز ويقصد بالنبي ﷺ الشيء الآخر.

يتناقل الناس كلمته الفاجرة حتى وصلت إلى مسامع ولده عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول، وكان مؤمنا صالحا.

وحينئذ يحمله إيمانه على موالاة الله ورسوله، فيقف أمام أبواب المدينة، ليمنع أباه من دخولها قائلا له: «**والله لا تدخل المدينة حتى تقول: رسولُ الله الأعزُ وأنت الأذل**».

الله العزيز، يعز من يشاء، ويذل من يشاء.

قال الله: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. سورة آل عمران (٢٦)

العزيز من أعزه، والذليل من أذله، العزة بيده، والذلة بيده، فلا معز لمن أذله، ولا مذل لمن أعزه سبحانه.

هؤلاء هم بنو إسرائيل كانوا أذلة، سامهم فرعون سوء العذاب، ذبح أبناءهم واستحيى نسائهم.

كان يقول: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾. سورة الشعراء (٥٤)

كانوا في غاية الذل عند الفرعون وملأه، حتى قالوا: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ﴾. سورة المؤمنون (٤٧)

عبيد عند فرعون وملأه، والعبودية والرق غاية الذل.

أراد الله أن يعزهم وأن يذل فرعون وملأه.

قال الله: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾﴾ سورة القصص.

وقد كان ما أراد الله، أورثهم الله أموال الفراعنة وديارهم، وأهلك فرعون وجنوده أمام أعينهم.

قال الله: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ



﴿وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾. سورة الأعراف (١٣٧)

ثم دارت الأيام، فبدلوا نعمة الله، أعرضوا، وحرفوا التوراة، وتحايلوا على شرعه، حتى قتلوا الأنبياء والصالحين، فكانت النتيجة:

قال الله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾. سورة آل عمران (٦١)

ضربت عليهم الذلة: أذلهم الله، وسلط عليهم من يسومهم سوء العذاب والخزي في الحياة الدنيا.

العز بيده، والذلة بإذنه، يعز من يشاء بفضله، ويذل من يشاء بعدله.

هؤلاء العرب كانوا أذل الناس، لا يساوون شيئا في حساب الأمم، يعبدون الأوثان، ويأكلون الميتة، ويأتون الفواحش.

قبائل متحاربة، تقام بينهم الحروب على أتفه الأسباب، بينهم نعرات الجاهلية، يعتزون بفارس والروم. ثم: أعزهم الله بالإسلام، فدانت لهم فارس والروم بعد وفاة النبي ﷺ بخمس سنين.

حتى قالها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو ذاهب يتسلم مفاتيح بيت المقدس.

فبينما عمر يركب بعيره، وفي طريقه ليتسلم مفاتيح بيت المقدس كانت مخاضة (بركة ماء)، فنزل عن بعيره رحمة به، ثم خلع حذاءه، ثم خاض في الطين، فلما لقيه أبو عبيدة رضي الله عنه قال: لَقَدْ صَنَعْتَ الْيَوْمَ صَنِيعًا عَظِيمًا عِنْدَ أَهْلِ الْأَرْضِ، فَصَكَّ فِي صَدْرِهِ وَقَالَ: «أَوْهِ لَوْ غَيْرُكَ يَقُولُ هَذَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ، ثم قال:

«إِنَّكُمْ كُنْتُمْ أَذَلَّ النَّاسِ، وَأَقَلَّ النَّاسِ، وَأَحْقَرَ النَّاسِ، فَأَعَزَّكُمُ اللهُ بِالْإِسْلَامِ، فَمَهْمَا تَطْلُبُوا الْعِزَّ بِغَيْرِهِ يُذِلَّكُمُ اللهُ»[١٠].

إنه الإسلام مصدر العز، الإسلام بشموله، الإسلام كمنهج حياة، حينئذ تتبدل حياة الذل إلى حياة العز. أما ترك الإسلام، أو الانتقاء من الإسلام، فهذا أصل الداء، وسبب الذلة والهوان

يقول النبي ﷺ: «**إذا تبايعتُم بالعِينَةِ، وأخذتم أذنابَ البقرِ، ورضيتُم بالزَّرْعِ، وتركتُم الجهادَ، سَلَّطَ اللهُ عليكم ذُلًّا لا ينزِعُه حتى تَرجِعُوا إلى دينكم**»[١١].

كل ابتعاد عن هذا الدين تخبط في مستنقع الذل.

كل مخالفة لأمر الله ورسوله ﷺ ذلة تغشى حياة العبد وحياة الأمة.

---

(١٠) أخرجه ابن المبارك في «**الزهد**» (٥٨٤) بإسناد صحيح.

(١١) أخرجه أبو داود في «سننه» (٣٤٦٢)، **وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١١)**



عندما أخذت بنو إسرائيل من أحكام التوارة ما يوافق أهوائهم، وتركوا ما خالف أهوائهم، ضرب الله عليهم الخزي والذلة.

قال الله: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا الله بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. سورة البقرة (٨٥)

الدين الذي وعد الله المتمسك به بالعز هو الدين الذي أنزله في كتابه، وشرعه على لسان رسوله ﷺ.

الدين الذي أطول آية في كتابه العظيم تتكلم عن أحكام الديون، أمر من أمور المعاملات المادية بين الناس.

القرآن الذي فيه آيات تتكلم عن توحيد رب العالمين، وعن الصلاة والزكاة والصيام والحج، وكذلك فيه آيات تتكلم عن حرمة الربا، وتؤكد على حرمة التطفيف في الميزان، وخطورة أكل أموال الناس بالباطل.

فيه آيات تتكلم عن حرمة الزنا وتحريم الفواحش، والأمر بغض البصر، والأمر بالحجاب.

حتى الاستئذان على المحارم في البيوت تنزل في شأنه آيات كريمات.

فيه آيات تتكلم عن الحقوق، حق الوالدين، وحق الزوجة، وحق الزوج، وحق المساكين، واليتامى، والجار.

آيات تتكلم عن الرضاع وأحكامه، والطلاق وأحكامه.

آيات تتكلم عن العقوبات والحدود المقدرة لكل جريمة سواء كانت قتلا أو زنا أو سرقة أو قذفا لمحصنة أو قطعا لطريق.

آيات تتكلم عن علاقة الحاكم بالمحكوم، وعلاقة الدولة المسلمة بغيرها.

آيات تتكلم عن الجهاد، وأحكامه، وآدابه.

آيات تتكلم عن المواريث، وحق كل وارث، وأحكام الوصية.

ثم تأتي السنة بتفاصيل كل ذلك وأكثر، حتى أصبح دين الله أوضح من الشمس في رابعة النهار، لا يزيغ عنه إلا هالك. فمن ترك شيئا من هذا الدين رغبة عنه، وانتقى منه ما يشاء، فله من الذلة نصيب ولابد. يقول النبي ﷺ: «**وَجُعِلَ الذِّلَّةُ، وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي**»[١٢].

هؤلاء الذين حادوا الله ورسوله أذل الناس، أولئك الذين كانوا في شق ودين الله وأحكامه وشرعه في شق، لم يطبقوه على أنفسهم، ولا على من تلزمهم ولايته، أولئك الأذلون.

(١٢) أخرجه أحمد في «المسند» (٥١١٤)، وحسنه الشيخ الألباني في «الإرواء» (١٢٦٩).



قال الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ﴾. سورة المجادلة (٢٠)

كل معصية تجلب لك ذلا في الدنيا والآخرة، أبى الله إلا أن يذل من عصاه.

قال الحسن البصري: «إِنَّهُمْ وَإِنْ طَقْطَقَتْ بِهِمُ الْبِغَالُ، وَهَمْلَجَتْ بِهِمُ الْبَرَاذِينُ، إِنَّ ذُلَّ الْمَعْصِيَةِ لَا يُفَارِقُ قُلُوبَهُمْ، أَبَى اللهُ إِلَّا أَنْ يُذِلَّ مَنْ عَصَاهُ»[١٣]. هذا في الدنيا، وكذلك في الآخرة.

قال الله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧﴾﴾ سورة يونس

وترهقهم ذلة، ويعرضون على النار خاشعين من الذل، أما المؤمنون فهم أعز الناس في الدنيا والآخرة.

(١٣) الداء والدواء (ص٥٩)

الحق المبين



يقول الحق، ويهدي للحق، ويقذف بالحق، ويحق الحق بكلماته ولو كره الكافرون.

فَذَلِكُمُ الله رَبُّكُمُ الْحَقُّ



كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا قَامَ مِنَ اللَّيْلِ يَتَهَجَّدُ قَالَ: «اللَّهُمَّ لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ لَكَ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ الحَقُّ وَوَعْدُكَ الحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ، وَبِكَ خَاصَمْتُ، وَإِلَيْكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ، أَنْتَ المُقَدِّمُ، وَأَنْتَ المُؤَخِّرُ، لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ - أَوْ: لاَ إِلَهَ غَيْرُكَ»[1].

وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ الحَقُّ وَوَعْدُكَ الحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ حَقٌّ، وَقَوْلُكَ حَقٌّ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالنَّبِيُّونَ حَقٌّ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ،

من عظمة الله وجلاله أنه الحق، وقوله الحق، ووعده حق، ويهدي إلى الحق، ويقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق.

تدور معاني الحق حول هذه الثلاث:

الحق: هو الشيء الثابت الباقي الذي لا يزول ولا يضمحل.

وَالْبَاطِلُ: هو الشيء الذاهب المضمحل الذي لا يبقى.

الحق: هو الشي الموجود حقا في الواقع، صدقا لا كذبا.

معنى الباطل: هو الشي الذي لا حقيقة له في الواقع، إنما هو صورة مزيفة.

الحق: هو كل ما فيه نفع وخير.

الباطل: هو الغثاء الذي لا ينفع صاحبه ولا ينفع الناس.

الله هو الرب الحق، وكل من سواه ممن ادعي الربوبية فهم محض باطل، سراب، لا شيء.

الله هو حقا من يخلق، ويرزق، ويدبر الأمر، ويعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، ويقبض ويبسط، ويبتلي ويشفي، ويضر وينفع.

قال الله: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ الله فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَلِكُمُ الله رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٣٢﴾﴾ سورة يونس

---

(١) أخرجه البخاري (١١٢٠).



فهو الملك الحق، وكل من سواه فملكهم باطل لأنه عارية موهوبة زائلة.

قال الله: ﴿فَتَعَالَى الله الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾. سورة طه (١١٤)

كل من ألبس نفسه أو ألبسه الناس ثوب الربوبية فهو باطل، لا حقيقة له، أوهى من بيت العنكبوت، محض إفك وكذب، يخذلونهم أحوج ما كانوا لهم.

قال الله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾﴾ سورة العنكبوت

محض ظن، لا برهان عليه ولا به، بل هم في أنفسهم يعلمون أنهم على باطل.

قال الله: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ سورة الصافات

ولأنه الله هو الرب الحق، الملك الحق، المدبر الحق، المتصرف في كل شيء حقا، أمرك أن تتوكل عليه دون من سواه.

أن تفوض كل أمورك له، ولا تتعلق بالسراب، بالباطل.

قال الله: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾. سورة النمل (٧٩)

عجيب أمر هذا الإنسان، عندما يذهب ليقف أمام ميت، يقف ذليلا خاشعا، وقد تعلق به لينفعه، أو ليدفع عنه ضر.

أين عقول الناس؟

إنه لو كان حيا لكان باطلا أصلا أن تتعلق به، إذ كيف تتعلق بمن لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا.

والله هو الإله الحق، وكل من سواه ألوهيته باطلة.

قال الله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾. سورة الحج (٦٢)

لقد أقام سبحانه الآيات الباهرة على أنه الحق المبين الواضح.

قال الله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾. سورة فصلت (٥٣)

لكن ما شأن الناس تعلقوا بالباطل، وضلوا عن الحق المبين؟

لأنهم كرهوا الحق، تلك هي القصة.

قال الله: ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾. سورة الزخرف (٧٨)





وَالله يَقُولُ الْحَقَّ

والله لا يقول إلا الحق، لأنه العليم الذي لا يخفى عليه شيء، وهو القوي المتين الذي لا يخشى الدوائر، فأنى أن يقول باطلا.

إن تكلم فكلامه حق، يقص الحق، يخبر بالحق الصراح، لا يجامل ولا يحابي فيه أحدا.

فإن أردت حقا لا باطل فيه، فدونك كلامه وحكمه وخبره وقصه.

عندما أنزل كتابه أنزله بالحق، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

قال الله: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾. سورة الإسراء (١٠٥)

قال الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ سورة فصلت

الوحي، القرآن والسنة الصحيحة، ليس فيه ذرة ولا مثقال ذرة من باطل، بل كل ما قاله الله من أخبار السابقين فقد وقع كما أخبر، وكل ما أخبر به أنه سيقع فسيقع حقا كما أخبر.

قال الله: ﴿وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. سورة الرعد (١)

قال الله: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴿٢﴾ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴿٤﴾﴾ سورة النجم

يقول عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: «كُنْتُ أَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ أَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أُرِيدُ حِفْظَهُ، فَنَهَتْنِي قُرَيْشٌ، فَقَالُوا: إِنَّكَ تَكْتُبُ كُلَّ شَيْءٍ تَسْمَعُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَرَسُولُ اللهِ ﷺ بَشَرٌ يَتَكَلَّمُ فِي الْغَضَبِ وَالرِّضَا، فَأَمْسَكْتُ عَنِ الْكِتَابِ، فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ؟ فَقَالَ: «اكْتُبْ فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا خَرَجَ مِنِّي إِلَّا حَقٌّ»[٢].

إن أردت أن تعلم حقا لا باطل فيه فلن تجد مثل الوحي المعصوم، بعيدا عن كذب الكاذبين، وتبديل المضلين.

قصة ابني آدم، وماذا حدث فيها؟

قصة أصحاب الكهف.

أخبار موسى عليه السلام.

دونك كتاب الله بعيدا عن إفك دجاجلة أهل الكتاب.

قال الله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ

---

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦٥١٠)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٥٣٢)





الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ الله مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾. سورة المائدة (٢٧)

قال الله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾. سورة الكهف (١٣)

قال الله: ﴿نَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾﴾. سورة القصص.

وكل ما خالف ما قصه الله في كتابه، أو أوحاه إلى رسوله، فهو محض باطل وكذب.

إن أرد الإجابة عن تلك الأسئلة الوجودية التي تدور في خلدك، فلن تجد جوابا مريئا شافيا إلا الحق المبين الذي لا التباس فيه، وهو ما جاء به الله وحده، في كتابه أو على لسان رسوله ﷺ.

إن كلام الله لأنه الحق لا يحتاج إلى زخرفة، إنما الذي يحتاج إلى الزخرفة الباطل، حتى يلبسونه ثوب الحق، فيروج على أصحاب القلوب الفاسدة، لأن على الحق نورا، لا يعشى عنه إلا من استحب العمى على الهدى.

قال الله: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾. سورة الرعد (١٩)

قال الله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا مَا هُمْ مُقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ سورة الأنعام

يزخرف أولياء الشيطان الباطل، بكلام منمق معسول، وحجج واهية، لا تروج إلا على أصحاب الأهواء، أما أهل الإيمان فيؤمنون أن كلام الله هو الحق، لأنه الصدق والعدل.

كل القضايا التي وقع فيها الخلاف بين الناس، ففي كتاب الله الفصل بين الحق والباطل.

قال الله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ الله النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى الله الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَالله يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. سورة البقرة (٢١٣)

ووحيه هو الحق الذي به تحيا النفوس والقلوب والأرواح، وكل ما سواه من أراء الخلق وأذواقهم ومواجيدهم وطرقهم مما خالف الوحي فإنه لا يسمن ولا يغني من جوع، بل هو محض زبد يذهب جفاء، أما ما أنزله الله فهو الذي ينفع الناس، يمكث في القلوب.

قال الله: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ الله الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ الله الْأَمْثَالَ﴾. سورة الرعد (١٧)





فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ



بينما النبي الأمين ﷺ متوسد بردة له في ظل الكعبة، جاءه أصحابه المستضعفون بمكة يومئذ، وقد لقوا من المشركين شدة.

ها هي سمية تموت شهيدة، لم ينقذها أحد.

ها هو بلال لا تزال سياط جلاده أمية بن خلف تلهب ظهره، ولا تزال رمضاء مكة توقد الصخور تحت جسده العاري.

ها هو خباب تُحمى له أسياخ الحديد، ويوضع ظهره العاري عليها، لا يُطفئ نيرانها إلا شحم ظهره.

ها هم المستضعفون يُضربون ويسامون أشد العذاب.

جاءوا إلى النبي ﷺ، فقالوا: يا رسول الله، أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا، أَلاَ تَدْعُو اللهَّ لَنَا؟

يقوم إليهم، يثبت قلوبهم، يبث فيهم الأمل، يطرد عنهم شبح اليأس والضعف والوهن.

يقول قولة الواثق بوعد بربه حتى لو كان هكذا حاله وحال أصحابه: والله ليتمن هذا الأمر.

يقول: «**كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهِ، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللهَّ لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لاَ يَخَافُ إِلَّا اللهَّ، أَوِ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ**»[٣].

والله ليتمن هذا الأمر. قُضي الأمر، هذا وعد الملك الحق.

تمر الأيام، والشهور، والسنين، ويدخل النبي ﷺ الذي كان يتوسد في ظل الكعبة، بالكاد يستطيع أن يركع ركعتين في جوارها، ها هو الآن يدخل الكعبة، ويطوف حولها، يكسر تلك الأوثان الباطلة، وهو يقول: «**وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا**».

ها هو بلال بن رباح يصعد على ظهر الكعبة، يؤذن بنداء الحق: الله أكبر.

ها هي وفود العرب وقبائلها تدخل في الإسلام.

ها هو أبو سفيان وخالد وعكرمة وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وعمرو بن العاص، صاروا من كتيبة الإسلام.

---

(٣) أخرجه البخاري (٣٦١٢)





ها هو النبي ﷺ يقف في حجة الوداع معه أكثر ن مائة ألف يلبون بالتوحيد.

ولكنكم قوم تستعجلون.

إن وعد الملك القوي المتين حق، لا يُخلف الله وعده، فإذا وعد عبده وفى.

قال الله: ﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. يونس (٥٥)

وإن أيقنت أن وعده حق اطمأن قلبك، وكان كالجبال، يعمل لا يكد، يثبت لا يهتز، واثق من وعد ربه ومولاه.

يوقن أن الله وعده في الدنيا بالحياة الطيبة، ووعده بالأمن، ووعده بالتمكين، ووعده بالنصر.

قال الله: ﴿وَعَدَ الله الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾. سورة النور (٥٥)

قد يتأخر تحقيق الوعد لكنه لا يتخلف، مهما أرجف المرجفون، سيظهر الله دينه، ويمكن لأوليائه.

سيظهر المنافقون عند كل أزمة يقولون كما قال أسلافهم: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا الله وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾. سورة الأحزاب (١٢).

أما المؤمنون الموقنون المصدقون أن وعد الله حق، لن يهتز إيمانهم، حتى لو تكالب الأحزاب، واشتد الكرب، سيزيدهم الأمر ثباتا، سيزدادون يقينا أنهم على الحق.

قال الله: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا الله وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ الله وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾. سورة الأحزاب (٢٢)

عندما تراهم يحاربونك لأجل أنك على دين فاعلم أنك على الحق.

عندما يتحدون عليك لأنك تريد الطهر والعفاف فاعلم أنك على الحق.

عندما يحاربونك لأنك تريد تحرير الخلق من عبوديتهم للسادة حتى يعبدوا ويخضعوا لله وحده، فاعلم أنك على الحق.

ستزول الدنيا، وإن لم تر بعينك تحقيق الوعد، فكن على يقين أنه سيتم.

يقول النبي ﷺ: «لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللهُ بِهِ الْكُفْرَ»[٤].

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٦٩٥٧)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣)

أما وعد الآخرة فهو ما يهون عليك مصائب الدنيا، ويثبت قلبك عما حرم الله.

قال الملك سبحانه: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾. سورة لقمان (٣٣)

والله إنه لحق أن بعد الموت حياة.

والله إنه لحق أن الله يبعث من في القبور.

والله إنه لحق أن يحشر الله جميع الخلق إليه.

والله إنه لحق أننا سنعرض على الله، يكلمنا، يحاسبنا، ليس بيننا وبينه ترجمان.

والله إنه لحق تطاير الصحف، والميزان، والصراط.

والله إن الجنة حق، والنار حق.

والله إنه لحق تخاصم أهل النار، وتلاعن أهل النار.

اصبر حتى يأتي يوم القيامة، فبعد أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار، ينادي أهل الجنة على أهل النار: أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا من البعث والحشر والحساب والجزاء والجنة حقا، فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا؟ قالوا: نعم.

قال الله تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾. الأعراف (٤٤)



قُلِ الله يَهْدِي لِلْحَقِّ



ودينه هو الدين الحق، وكل ما سوى الإسلام فهي أديان باطلة، لا حقيقة لها، محض كذب وزور وضلالات.

أما هذا الدين العظيم فهو حق في قضاياه جميعا، حق في الاعتقاد، حق في الأحكام، حق في الشرائع.

قال الله: ﴿هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾. سورة التوبة (٣٣)

وهو الحق، ويهدي من أراد الحق إلى الحق، ويضل الله الظالمين، ويفعل الله ما يشاء.

قال الله: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَآئِكُمْ مَنْ يَهْدِى إِلَى الْحَقِّ قُلِ الله يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّى إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٥) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ (٣٦)﴾. سورة يونس

لا يوجد إنسان أراد أن يعرف الحق وتخلى الله عنه قط.

الله يهدي للحق.

انظر إلى هذا الغلام الصغير الذي تحيّر بين الساحر والراهب، لما علم الله صدقه هيأ له أسباب الهداية، فبعث دابة عظيمة منعت طريق الناس، فتوجه إلى ربه ومولاه، فقال: «**الْيَوْمَ أَعْلَمُ آلسَّاحِرُ أَفْضَلُ أَمِ الرَّاهِبُ أَفْضَلُ؟ فَأَخَذَ حَجَرًا، فَقَالَ: اللهُمَّ إِنْ كَانَ أَمْرُ الرَّاهِبِ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ أَمْرِ السَّاحِرِ فَاقْتُلْ هَذِهِ الدَّابَّةَ، حَتَّى يَمْضِيَ النَّاسُ، فَرَمَاهَا فَقَتَلَهَا، وَمَضَى النَّاسُ**»[٥].

أي أفكار تلك التي تحول بين العبد وبين أن يرى الحق؟

الحق يا صديقي أوضح من الشمس في رابعة النهار، يريه الله من صحّ قصده، أما من اتخذ إلهه هواه فسيكون حاله كما قال الملك: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ الله عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾. سورة الجاثية (٢٣)

عندما ترى الأشياء فيها بعض الضباب، قد أعتمت الصورة، وضعفت الرؤية، صحح قصدك، والجأ إلى الذي يهدي وحده إلى الحق سيبصرك حتما.

قف في دُجى الليل كما كان يفعل نبينا ﷺ كل ليلة، يقول وهو يستفتح صلاته بالليل:

«**اللهُمَّ رَبَّ جَبْرَائِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وَإِسْرَافِيلَ، فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ، اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ، إِنَّكَ تَهْدِي مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**»[٦].

---

(٥) أخرجه مسلم (٣٠٠٥).

(٦) أخرجه مسلم (٧٧٠).





إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ



هل تظن أن الحق كان ملتبسا بالباطل؟

هل تظن أنهم استحقوا عذاب الله عن جهل؟

أم أن الله فصل الحق عن الباطل وميزه، بحيث لا يختلط على الناس؟

لا والله، إن الله تعالى هو الحق، يقذف بالحق على أباطيلهم، يقذف بالحق على الباطل فيدمغه، ويزهقه.

يقذف بالحق بالبراهين الساطعة على ألسنة رسله وأوليائه.

ما من نبي إلا وأيده الله بالآيات الباهرة التي يعجز الناس عن مضاهاتها، بل ما أن يراها من يريد الحق حتى يؤمن ويذعن.

قال الله: ﴿تِلْكَ الْقُرَى نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَائِهَا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾. سورة الأعراف(١٠١)

ويقول النبي ﷺ: «مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ»[٧].

هؤلاء السحرة الذين جاءوا ليصدوا الناس عن الإيمان، متعلقين برب مزيف باطل، يقولون ملأ أفواههم: بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون.

ألقوا حبالهم وعصيهم، وألقى موسى عصاه.

لكن أي إفك يستطيع أن يقاوم صدق الحق، وأي باطل يستطيع أن يذهب ظلامه نور الحق.

إنها قذائف الحق التي يلقيها الله على الباطل فتدمغه فإذا هو زاهق.

قال الله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١٢٢﴾﴾. سورة الأعراف

إن الحق الذي يأتي به الله ما أن يحمله أهل الحق حتى يسحق الباطل الذي غرسه الشيطان وأولياؤه في نفوس الناس، لأن شجرة الباطل مجتثة ليس لها قرار، أما شجرة الحق فهي ضاربة بجذورها في أعماق النفوس.

لذا سيكون أعظم أهدافهم أن يحولوا بين الناس وبين نور الحق، لأن بنيانهم هش متهالك.

تراهم يصرخون في أتباعهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾. سورة فصلت(٢٦)

---

(٧) أخرجه البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢)



يقيم الله الحجج على ألوهيته، وعلى دينه، ويُنْطُقُ بها ألسنَ الأنبياء، وورثتهم من العلماء.

قال الله: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ سورة سبأ

قال الله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾. سورة الأنبياء (١٨)

لكن عندما يحول الحق بين الناس وأهوائهم سيكرهون الحق، سيصفونه بأبشع التهم، سيحاولون كتمانه، سيلبسونه بالباطل.

قال الله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾سورة المؤمنون

قال الله: ﴿لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾. سورة الزخرف (٧٨)

لما جاء موسى عليه السلام بالآيات البينات، قالوا هذا سحر.

قال الله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧٦﴾ قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ أَسِحْرٌ هَذَا وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ ﴿٧٧﴾﴾ سورة يونس

الباطل لا يفلح، لا يدوم، لا يثمر الخير.

هؤلاء أهل الكتاب، لما كان الحق يحول بينهم وبين كثير من شهواتهم، كتموا التوراة والإنجيل، وبدلوا كلام الله وأحكامه، وحرفوا الكلم عن مواضعه، فأنتجوا دينا جديدا يتماشى مع الهوى، دينا لا يصطدم مع الباطل، يترك لهم حرية الفجور، لكن هذه المرة باسم الدين.

قال النبي ﷺ: «إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا طَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ، اخْتَرَعُوا كِتَابًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمُ اسْتَهْوَتْهُ قُلُوبُهُمْ، واسْتَحْلَتْهُ أَلْسِنَتُهُمْ، وَكَانَ الْحَقُّ يَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ كَثِيرٍ مِنْ شَهَوَاتِهِمْ، حَتَّى نَبَذُوا كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ»[٨].

هؤلاء المجرمون فضحهم القرآن، حتى يحذر المسلمون صنيعهم.

قال الله: ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. سورة آل عمران (٧١)

لكنهم مهما لبسوا دين الله على الناس، ستظل تلك الفئة التي لم تبع دينها لأصحاب العروش تصدع بالحق المر وإن كرهوا.

قال النبي ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ»[٩].

كن على العهد كما كان أصحاب النبي ﷺ: «وَأَنْ نَقُومَ أَوْ نَقُولَ بِالْحَقِّ حَيْثُمَا كُنَّا، لَا نَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لَائِمٍ»[١٠].

---

(٨) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧١٨٣)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٦٩٤)

(٩) أخرجه مسلم (١٩٢٠).

(١٠) أخرجه البخاري (٧١٩٩).



الحكم القائم
بالقسط والعدل



لا يظلم مثقال ذرة
يأمر بالعدل، ويحكم بالعدل
الديان يجازي خلقه بمثقال الذرة

قَائِمٌ بِالْقِسْطِ



يقول النبي ﷺ: «نَزَلَ نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ تَحْتَ شَجَرَةٍ، فَلَدَغَتْهُ نَمْلَةٌ، فَأَمَرَ بِجَهَازِهِ فَأُخْرِجَ مِنْ تَحْتِهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِبَيْتِهَا فَأُحْرِقَ بِالنَّارِ، فَأَوْحَى الله إِلَيْهِ: فَهَلَّا نَمْلَةً وَاحِدَةً»[1].

عندما يعاتب الله نبيا على بعض النمل، ويذكّره قائلا: «**فهلا نملة واحدة**». أي هلا قتلت تلك النملة التي آذتك دون أن تحرق بيت النمل، تعرف حينها أن الله حكم عدل قسط، قائم بالقسط.

قال الله: ﴿شَهِدَ الله أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. سورة آل عمران (١٨)

الله القيوم، يقوم على خلقه جميعا بالقسط والعدل، لا يظلم مثقال ذرة، لا يكون منه ظلم أبدا.

قال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. سورة النساء (٤٠)

قال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾. سورة يونس (٤٤)

قال الله: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾. سورة الكهف (٤٩)

بل حتى إرادة الظلم منتفية عن الله سبحانه.

قال الله: ﴿وَمَا الله يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾. سورة آل عمران (١٠٨)

كل أوامره، شرعا أو كونا، فهي دائرة بين العدل والفضل، أما الظلم فقد نزه نفسه عنه سبحانه، وحرمه على نفسه.

كل كلامه سواء بأفعاله الكونية أو أوامره الشرعية صدق وعدل، لا يقول إلا الحق، ولا يحكم إلا بالعدل.

قال ربنا: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. سورة الأنعام (١١٥)

قال الله في الحديث الإلهي: «**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا**»[2].

لكن: ما معنى عدل الله؟

العدل: إعطاء كل ذي حق حقه، والظلم هضم الحقوق.

العدل: وضع الشيء في موضعه، والظلم: وضع الشيء في غير موضعه.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣١٩)، ومسلم (٢٢٤١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٧٧)





العدل: معاقبة الجاني بما يستحق، والظلم: معاقبة من لا يستحق.

الله سبحانه ليس لأحد عليه حق، بل هو أوجب ما أوجب على نفسه تفضلا منه على خلقه وتكرما.

فأما الإنسان، فإنه خلق من مخلوقات الملك، كان عدما فأنشأه، خلقه في أحسن تقويم، وصوره فأحسن صورته، ويعافيهم ويرزقهم ويقوم على مصالحهم، لا يغفل عن خلقه طرفة عين.

ثم هو أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه، وبين لهم الخير والشر، والحق والباطل.

وهداهم إليه، ويسر لهم الهدى، وصرف عنهم السوء والفحشاء، وأعانهم على طاعته.

ولو وضعت جميع طاعاتهم التي أحسنوا وقوعها كما يحب ويرضى في مقابل أدنى نعمه لرجحت كفة نعمه سبحانه وتقدس.

إلا أنه هو من أوجب على نفسه إثابة الطائع، ومجازاته نعيما في الدنيا والآخرة.

يقول النبي ﷺ: «**لَوْ أَنَّ اللهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهْلَ أَرْضِهِ لَعَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ، وَلَوْ رَحِمَهُمْ لَكَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِمْ**»[3].

فأعمال العباد منةٌ منه عليهم، ومحض فضله وتوفيقه، جعلها سببا لدخول جنته لا عوضا لها وثمنا.

يقول سيد الخلق وأعبد الأنبياء نبينا محمد ﷺ: «**لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الْجَنَّةَ**» **قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ**: «**لاَ، وَلاَ أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا**»[4].

والله تعالى عدل، لا يترك حسنة دون ثواب، مع أنه هو من وفق العبد إليها، ولولاه ما اهتدى ولا تصدق ولا صلى، لكنه بفضله وفقه، وبفضله يثيبه ويجزيه الجزاء الأوفى.

حتى الكافر الذي يعمل خيرا في الدنيا حال كفره يثيبه عليه في الدنيا، وليس له في الآخرة من نصيب.

يقول النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً، يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا وَيُجْزَى بِهَا فِي الْآخِرَةِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِهَا للهِ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الْآخِرَةِ، لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا**»[5].

والله حكم عدل، لا يعاقب أحدا بذنب غيره، ولا يعذب أمة ولا فردا إلا بعد بلوغ الحجة الرسالية، وهو عاقل أهل للخطاب.

قال الملك: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾. سورة الإسراء (١٥)

قال الله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾. سورة فصلت (٤٦)

قال الله: ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾﴾ سورة آل عمران

(٣) أخرجه أبو داود في «سننه» (٤٦٩٩)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٦٢).

(٤) أخرجه البخاري (٥٦٧٣)، ومسلم (٢٨١٦)

(٥) أخرجه مسلم (٢٨٠٨)



الخير منه فضلا، والعقوبة منه رحمة وفضلا وعدلا.

عـدلا إذ أن العبـد هـو سـبب عقوبتـه، وفضـلا إذ أنـه لا يعاقـب العبـد إلا ببعـض ذنبـه، ورحمـة إذ يعاقبـه ليعـود إليـه.

قال الله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾. سورة الشورى (٣٠)

وكل أفعالـه مـن عقوبـات عـلى خلقـه فببعـض ذنوبهـم، لم يظلمهـم شـيئا ولكـن النـاس أنفسـهم يظلمـون.

عندما تقرأ في القرآن ستجد كثيرا ما يقول سبحانه: (بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ - بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ - بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ - بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ - بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ)

قال الله: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. سورة الأنعام (١٢٩)

قال الله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾. سورة الأعراف (١٦٢)

قال الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ﴾. سورة الأنعام (١٢٠)

قال الله: ﴿وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾. سورة الأعراف (١٦٥)

قال الله: ﴿وَضَرَبَ الله مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا الله لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾. سورة النحل (١١٢)

ستجد أن الله تعالى لم يمنع خيره عن عبده إلا لأن عبده تولى وأعرض وأفسد.

لا يزيغ قلب العبد إلا إن زاغ، ولا يصرفه عن الطاعة إلا لما انصرف.

قال الله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ الله قُلُوبَهُمْ﴾. سورة الصف (٥)

قال الله: ﴿ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ الله قُلُوبَهُمْ﴾. سورة التوبة (١٢٧)

ومع ذلك لا يسوي بينهم حتى في العقوبة، بل يعذبهم على قدر أعمالهم.

قال الله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾. سورة النحل (٨٨)

يقول النبي ﷺ: «أَهْوَنُ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا رَجُلٌ فِي رِجْلَيْهِ نَعْلَانِ يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ، وَمِنْهُمْ فِي النَّارِ إِلَى كَعْبَيْهِ مَعَ إِجْرَاءِ الْعَذَابِ، وَمِنْهُمْ مَنْ فِي النَّارِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ مَعَ إِجْرَاءِ الْعَذَابِ، وَمِنْهُمْ مَنْ اغْتُمِرَ فِي النَّارِ إِلَى أَرْنَبَتِهِ مَعَ إِجْرَاءِ الْعَذَابِ، وَمِنْهُمْ مَنْ هُوَ فِي النَّارِ إِلَى صَدْرِهِ مَعَ إِجْرَاءِ الْعَذَابِ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَدِ اغْتُمِرَ فِي النَّارِ»[٦].

(٦) أخرجه أحمد في «مسنده» (١١١٠٠)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٦٨٦).





يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ

وهو حكم قسط يأمر بالعدل، ويحب أهل العدل، ويجعلهم عن يمينه يوم القيامة.

قال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. سورة النحل (٩٠)

قال الله: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. سورة المائدة (٤٢)

يقول النبي ﷺ: «**إِنَّ الْمُقْسِطِينَ عِنْدَ اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ، عَنْ يَمِينِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ، وَكِلْتَا يَدَيْهِ يَمِينٌ، الَّذِينَ يَعْدِلُونَ فِي حُكْمِهِمْ وَأَهْلِيهِمْ وَمَا وَلُوا**»(٧).

كل أحكام شرعه عدل، لا يكلف الناس إلا وسعهم، لا يشرع لهم ما هو فوق قدرتهم.

رفع الإثم عن الجاهل والمخطئ والناسي والمجنون.

لم يكلف المرأة أثناء حيضها بالصلاة ولا بالصوم، وأوجب عليها إن طهرت قضاء الصيام لا الصلاة.

ولم يكلفها الجماعة ولا الجهاد ولا النفقة.

وميزان التفاضل عنده بالتقوى لا بالمال ولا بالسلطان.

في شريعة الله لا محاباة للغني على الفقير، ولا للفقير على الغني.

لا محاباة لذي نسب رفيع على آخر ذي نسب وضيع، الكل سواسية.

لا محاباة لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود.

لا محاباة لحاكم على محكوم، ولا لأمير على مأمور، كلهم عبيد الله.

شرع القصاص في النفوس والجراحات بين الناس، عين بعين، ونفس بنفس، وإن تعذّر استيفاء الحق في الجروح قصاصا كانت الديات.

في شريعة الله النساء شقائق الرجال، المرأة الصالحة كالرجل الصالح.

قال الله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا

---

(٧) أخرجه مسلم (١٨٢٧)



﴿يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾. سورة النساء (١٢٤)

أمر عباده أن تكون قومتهم بالعدل، وأن يحكموا بين الناس بالعدل، وأن يشهدوا بالعدل، وأن يصلحوا بين الناس بالعدل.

قال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾. سورة النساء (٥٨)

وقال الله: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. سورة الحجرات (٩)

وقال الله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَالله أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾. سورة النساء (١٣٥)

وقال الله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. سورة المائدة (٨)

بل أرسل رسله، وأنزل كتبه، ليحكم بين الناس بالعدل، وليقوم الناس بالقسط.

قال الله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ الله مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾. سورة الحديد (٢٥)

لأجل ذلك عُودي الرسل وأتباعهم، بل وقَتلوا الأنبياء وأتباع الرسل لأنهم أمروا الناس بالقسط.

قال الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾. سورة آل عمران (٢١)

هكذا العلة: ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس.

شريعة العدل تؤرق مضاجعهم، تمنع عنهم استعباد الخلق، تحول بينهم وبين مص دماء المساكين.

فإن وجدت ظلما فاعلم أنه حدث لما غابت شريعة الله وسادت شريعة الإنسان الظلوم الجهول.





عَدْلٌ فِي قَضَاؤُكَ



قال النبي ﷺ: «مَا أَصَابَ مُسْلِمًا قَطُّ هَمٌّ وَلَا حَزَنٌ فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي فِي يَدِكَ مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِي قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلَّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَ حُزْنِهِ فَرَحًا» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ أَلَا نَتَعَلَّمُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ؟ قَالَ: «بَلَى يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ»[8].

عدل فيّ قضاؤك.

الله هو الوهاب الرزاق، يعطي ويمنع، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر.

اقتضت حكمته أن يرفع بعض الناس على بعض في الدنيا.

قال الله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾. سورة الزخرف (٣٢)

هذا مُوسع له في المال، وذاك مُقتر مضيق عليه.

هذا جميل الوجه، وهذا دونه في الجمال.

هذا قوي البنيان، وآخر ضعيف الجسم هزيل البنيان.

هذا صحيح، وذاك سقيم.

هذه تُرزق زوجا، وهذه تعيش بلا زوج.

هذه تتزوج وتسعد، وأخرى تبتلي في زوجها.

هذه تنجب، وأخرى عاقر لا تلد.

وهكذا، كانت أقدار الملك في هذه الحياة الدنيا.

حياة فيها تعب وكدر وكرب، لا تصفو لأحد أبدا، مشوبة بالألم.

كان هذا اختبارا منه لعباده، يبتليهم بالعطاء والمنع، بالخير والشر.

قال الله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾. سورة الأنبياء (٣٥)

قال الله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾. سورة الأنفال (٢٨)

(٨) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٧١٢)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٩٩)

قال الله: ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. سورة الزمر (٤٩)

اختبار مؤقت، مدة بقائهم في الدنيا، فمن نجح في الاختبار وكان عبدا لله كما يريد في كل أحواله انتقل إلى راحة ونعيم ليس بعده شقاء.

كثير من الناس لا يدرك القصة.

القصة أن الحياة ليست فقط تلك المدة التي قدرها الله لك في الدنيا، بل هناك ثلاث حيوات، تلك الدنيا هي أقلها زمنا.

هناك الدنيا، ثم البرزخ، ثم الآخرة.

ماذا لو قلت لك:

مدة حياتك من الخلق إلى العدم مثلا مليون سنة، تُختبر مدة مائة سنة فقط، وسيكون اختبارك في شيء تقدر عليه، ونسبة النجاح ٥١ بالمائة.

في هذه الفترة من حياتك سيعطيك الله الحياة ويرزقك ويحفظك وبطعمك ويكسيك ويشفيك، وكل خير سيأتيك فهو منه

لكن سيتم اختبارك بأن يسلبك نعمة أو بعض النعم فربما لن يعطيها لك، أو ربما سيعطيها لك ثم يأخذها منك.

فإن كنت عبدا في السراء والضراء، تعيش بقية المليون عاما أهنأ عيش وأطيبه.

أيعد هذا ظلما لك؟

كيف وإن كان الحال أن النعيم أبدي سرمدي، خلود فلا موت، والنعيم لم تر مثله عين ولم تسمع أذن ولا يخطر على قلب بشر.

شباب بلا هرم، وغنى بلا فقر، وسعادة بلا حزن، وجمال بلا قبح.

بل كلما زاد بلاؤك في الدنيا وصبرت عظم الجزاء في الآخرة.

لكن ها ههنا سؤال يرواد كل إنسان وقع عليه الظلم في الدنيا:

ماذا عن هؤلاء الظلمة الذين فرقوا بيني وبين من أحب؟

ماذا عن هذا القاتل الذي قتل زوجي فحرمني وأولادي منه؟

ماذا عن هذا الطاغية الذي قطّع جلادوه ظهري؟

ماذا عن هذا المجرم الذي انتهك عرضي؟

إنه يعيش يمرح ويلعب، وأنا ألتحف همومي، فمتى يشفي الله صدري، وينتقم لي ممن ظلمني؟



أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الدَّيَّانُ



جلس رجل من أصحاب النبي ﷺ بين يديه يوما، فقال:

يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ لِي مَمْلُوكِينَ يَكْذِبُونَنِي وَيَخُونُونَنِي وَيَعْصُونَنِي، وَأَضْرِبُهُمْ وَأَسُبُّهُمْ، فَكَيْفَ أَنَا مِنْهُمْ؟

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«يُحْسَبُ مَا خَانُوكَ وَعَصَوْكَ وَيُكَذِّبُونَكَ وَعِقَابُكَ إِيَّاهُمْ. فَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ دُونَ ذُنُوبِهِمْ كَانَ فَضْلًا لَكَ عَلَيْهِمْ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ بِقَدْرِ ذُنُوبِهِمْ كَانَ كَفَافًا، لَا لَكَ وَلَا عَلَيْكَ، وَإِنْ كَانَ عِقَابُكَ إِيَّاهُمْ فَوْقَ ذُنُوبِهِمْ، اقْتُصَّ لَهُمْ مِنْكَ الْفَضْلُ الَّذِي بَقِيَ قِبَلَكَ»**

فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَبْكِي بَيْنَ يَدَيْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَيَهْتِفُ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا لَهُ؟ مَا يَقْرَأُ كِتَابَ اللهِ: **﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾** [الأنبياء: ٤٧].

فَقَالَ الرَّجُلُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا أَجِدُ شَيْئًا خَيْرًا مِنْ فِرَاقِ هَؤُلَاءِ - يَعْنِي عَبِيدَهُ - إِنِّي أُشْهِدُكَ أَنَّهُمْ أَحْرَارٌ كُلُّهُمْ»[٩].

من لوازم الربوبية الجزاء، أنه يجازي سبحانه المحسن بإحسانه، والمسيء على إساءته.

والثواب والعقاب يكون في الدنيا والآخرة.

فأهل الإيمان يؤتيهم الله ثواب الدنيا، وحسن ثواب الآخرة.

وأهل الكفر والنفاق والطغيان، يجعل الله لهم العذاب الأليم في الدنيا بالحياة الضنك، والعذاب الأليم في الآخرة.

لكن ظهور الثواب والعقاب يكون جليا واضحا في الآخرة.

بعض الناس إذا رأوا الظالم يعيش في الظاهر سعيدا منعماً، والمظلوم مات مقهورا، أو عاش بقية عمره حزينا مكسورا، تساءل: أين عقوبة الله على هذا الظالم؟

أيها الناس: إن الله هو الديان، الذي يجازي كل مخلوق بما قدم، كما أنه عدل حكم قسط لا يرضى بالظلم فإنه يقضي بين خلقه يوم القيامة، فيؤدي كل مخلوق ما عليه من مظالم، حتى لو كانت دابة عجماء.

يقول النبي ﷺ: **«قال النبي ﷺ: «لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، حَتَّى يُقَادَ لِلشَّاةِ الْجَلْحَاءِ،**

---

(٩) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٦٤٠١)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٥٣١)

مِنَ الشَّـاةِ الْقَرْنَـاءِ»[١٠].

يقول أبو ذر الغفاري ﷺ: رَأَى رَسُولُ اللهَّ ﷺ شَاتَيْنِ يَنْتَطِحَانِ فَقَالَ لِي: «يَا أَبَا ذَرٍّ أَتَدْرِي فِيمَا يَنْتَطِحَانِ؟.

قال أبو ذر: قُلْتُ: لَا.

فقَالَ النبي ﷺ: «وَلَكِنْ رَبُّكَ يَدْرِي وَسَيَقْضِي بَيْنَهُمَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[١١].

إن الله ينتقـم مـن الظـالم، ويجيب دعـوة المظلوم حتى لـو كان كافـرا، بـل مـا مـن ذنـب أجدر أن يعجل الله العقوبـة لفاعلـه مثـل البغـي والظلم.

يقـول النبـي ﷺ: «مَـا مِـنْ ذَنْـبٍ أَجْـدَرُ أَنْ يُعَجِّـلَ الله لِصَاحِبِـهِ العُقُوبَـةَ فِي الدُّنْيَـا مَـعَ مَـا يَدَّخِـرُ لَـهُ فِي الآخِـرَةِ مِـنَ البَغْـيِ وَقَطِيعَـةِ الرَّحِـمِ»[١٢].

لكـن قـد لا تـرى أنـت الجحيـم الـذي يعيـش فيـه الظـالم، قـد تـرى أنـت ظاهـر الصـورة، فكـم مـن مُعاقـب ولا يـدري.

بـل قـد يعذبـه الله بولـده، أو بزوجتـه، أو بمالـه، أو يسـلط عليـه ظالمـا مثلـه، فكـم للقصـة مـن فصـول لم يرهـا المظلـوم بعـد.

ثـم الأعظـم أنـه ليـس مقيـاس النعيـم ومقيـاس العـذاب هـذه الدنيـا الفانيـة، فـكل عـذاب الدنيـا مهـما كان لا يسـاوي عـذاب الآخـرة.

خـبرني بربـك: أرجـل يُعـذب بالهـوان مثـلا سـتين سـنة، أم يـذوق هـوان الجحيـم وفضيحـة الآخـرة يـوم القيامـة.

إن غمسـة واحـدة في الجحيـم يـوم القيامة تنسي كل نعيم الدنيا، حتى يقول: وعزتك مـا رأيت نعيما قط.

سوف تُنصب محكمة أخرى يختصم فيها الناس أمام ملك عادل، لا يظلم مثقال ذرة.

قـال الله: ﴿إِنَّـكَ مَيِّـتٌ وَإِنَّهُـم مَّيِّتُـونَ ﴿٣٠﴾ ثُـمَّ إِنَّكُمْ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ عِنـدَ رَبِّكُـمْ تَخْتَصِمُـونَ ﴿٣١﴾﴾. سورة الزمر

قـال الله تعـالى: ﴿وَلَا تَحْسَـبَنَّ اللَّهَ غَافِـلًا عَمَّـا يَعْمَـلُ الظَّالِمُـونَ إِنَّمَـا يُؤَخِّرُهُـمْ لِيَـوْمٍ تَشْـخَصُ فِيـهِ الْأَبْصَـارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِـينَ مُقْنِعِـي رُءُوسِـهِمْ لَا يَرْتَـدُّ إِلَيْهِـمْ طَرْفُهُـمْ وَأَفْئِدَتُهُـمْ هَـوَاءٌ ﴿٤٣﴾﴾. سـورة إبراهيـم

في هـذا اليـوم يجمـع الله الأولـين والآخريـن، عُـرَاةً غُـرْلًا بُهْـمًا، لَيْـسَ مَعَهُـمْ شَيْءٌ، ثُـمَّ يُنَادِيهِـمْ بِصَـوْتٍ يَسْـمَعُهُ مِـنْ بُعْـدٍ كَـمَا يَسْـمَعُهُ مِـنْ قُـرْبٍ: أَنَـا المَلِـكُ، أَنَـا الدَّيَّـانُ، وَلَا يَنْبَغِـي لِأَحَـدٍ مِـنْ أَهْـلِ النَّـارِ، أَنْ يَدْخُـلَ النَّـارَ، وَلَـهُ عِنْـدَ أَحَـدٍ مِـنْ أَهْـلِ الْجَنَّـةِ حَـقٌّ، حَتَّـى أَقُصَّـهُ مِنْـهُ، وَلَا يَنْبَغِـي لِأَحَـدٍ مِـنْ أَهْـلِ الْجَنَّـةِ

(١٠) أخرجه مسلم (٢٥٨٢)

(١١) أخرجه أبو داود الطيالسي في «مسنده» (٤٨٢)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤/ ١١٧)

(١٢) أخرجه الترمذي في «سننه» (٢٥١١)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩١٨).





أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ، وَلِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عِنْدَهُ حَقٌّ، حَتَّى أَقُصَّهُ مِنْهُ، حَتَّى اللَّطْمَةُ» قَالَ: قُلْنَا: كَيْفَ وَإِنَّا إِنَّمَا نَأْتِي اللهَ عَزَّ وَجَلَّ عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا؟ قَالَ: «**بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ**»[١٣].

حتى اللطمة، حتى الدرهم، حتى السبّة، كل شيء من المظالم صغيرا أو كبيرا، وكل مظلمة، لها عنده حساب.

يقول النبي ﷺ: «**يَجِيءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ آخِذًا قَاتِلَهُ بِيَمِينِهِ، أَوْ بِيَسَارِهِ، وَآخِذًا رَأْسَهُ بِيَمِينِهِ، أَوْ بِشِمَالِهِ، تَشْخَبُ أَوْدَاجُهُ دَمًا فِي قُبُلِ الْعَرْشِ، يَقُولُ: يَا رَبِّ سَلْ عَبْدَكَ فِيمَ قَتَلَنِي؟ فَيَقُولُ اللهُ لِلْقَاتِلِ: تَعِسْتَ، وَيُذْهَبُ بِهِ إِلَى النَّارِ**»[١٤]. وفي لفظ: «**فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: لِمَ قَتَلْتَهُ؟ فَيَقُولُ: لِتَكُونَ الْعِزَّةُ لِفُلَانٍ، فَيَقُولُ: إِنَّهَا لَيْسَتْ لِفُلَانٍ فَيَبُوءُ بِإِثْمِهِ**»[١٥].

هذا القاتل الظالم لن يفلت من عقاب الله.

لم ينفعه آمروه، ولم يغن عنه أسياده شيئا، فاليوم يوم الدين، لا ظلم اليوم.

هذا الذي خان، ففجر، وانتهك العرض، يؤتى يوم القيامة بمن خان المجاهدين في أعراضهم، فانظر كيف الجزاء.

يقول النبي ﷺ: «**حُرْمَةُ نِسَاءِ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ كَحُرْمَةِ أُمَّهَاتِهِمْ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ مِنَ الْقَاعِدِينَ يَخْلُفُ رَجُلًا مِنَ الْمُجَاهِدِينَ فِي أَهْلِهِ فَيَخُونُهُ فِيهِمْ، إِلَّا وُقِفَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَأْخُذُ مِنْ عَمَلِهِ مَا شَاءَ، فَمَا ظَنُّكُمْ؟**»[١٦].

ما ظنك يومئذ؟ أيترك له من حسناته شيئا؟

هل شفى الله صدره يومئذ، وقد رآه أُخذت منه جميع حسناته، وأُلقي في الجحيم؟ هذا الذي ألهب ظهور المظلومين بالسياط إرضاء للسادة، سيأتي يوم القيامة ويقتص المظلوم من الظالم.

نعم والله، سيقف الظالم عاريا، ويمسك المظلوم سوطا، ويأخذ حقه غير منقوص.

قال النبي ﷺ: «**مَنْ ضَرَبَ بِسَوْطٍ ظُلْمًا اقْتُصَّ مِنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[١٧].

هذا الذي لوث عرض امرأة بريئة، رماها بالزنى، ومضى، سيقف يوم القيامة، ويُجلد حدّ القذف أمام الناس جميعا.

---

(١٣) أخرجه أحمد في «مسنده»(١٦٠٤٢)، وقال الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٦٠٨): «حسن لغيره». اهـ

(١٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢١٤٢)، والطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٢١٧)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٦٩٧).

(١٥) أخرجه النسائي في «سننه» (٣٩٩٧)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٦٩٨)

(١٦) أخرجه مسلم (١٨٩٧).

(١٧) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (١٦٠٠٤)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٦٣٧٤)

يقول النبي ﷺ: «مَنْ قَذَفَ مَمْلُوكَهُ بِالزِّنَا، يُقَامُ عَلَيْهِ الْحَدُّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ كَمَا قَالَ»[18].

في ذات يوم دعا رجل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما على طعام، فجاءت جارية تقدم لهم الطعام وبينما تضع الطعام قال أحد الجلوس: يَا زَانِيَةُ، فَقَالَ: مَهْ، إِنْ لَمْ تَحُدَّكَ فِي الدُّنْيَا تَحُدُّكَ فِي الْآخِرَةِ»[19].

شتمك، ثم مضى فرحا مغرورا، خدعك، وأخذ مالك، ثم مضى مسرورا، ولم تأخذ حقك في الدنيا.

دعهم يمضون في الدنيا، سيأتي اليوم الذي تُرد فيه الحقوق إلى أهلها.

ويومئذ لن تكون بحاجة إلى المال، إنما إلى حسنة يثقل بها ميزانك.

قال النبي ﷺ: «مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لاَ يَكُونَ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ»[20].

يُنادى على الرجل يوم القيامة تكون له حسنات وحسنات، فيظل يدفع ما عليه من حقوق العباد، حتى يفلس، وأي إفلاس أخسر وأشد حسرة من إفلاس الحسنات يوم القيامة.

يقول النبي ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»[21].

لا تقلق، لن يترك الله مظلمة حتى يقضي فيها بنفسه سبحانه.

قد يسامح الله ويعفو في حقه هو، أما حقوق العباد فلا ورب الكعبة، حتى يرضى المظلوم.

يقول النبي ﷺ: «الدَّوَاوِينُ عِنْدَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ ثَلَاثَةٌ: دِيوَانٌ لَا يَعْبَأُ اللهُ بِهِ شَيْئًا، وَدِيوَانٌ لَا يَتْرُكُ اللهُ مِنْهُ شَيْئًا، وَدِيوَانٌ لَا يَغْفِرُهُ اللهُ، فَأَمَّا الدِّيوَانُ الَّذِي لَا يَغْفِرُهُ اللهُ: فَالشِّرْكُ بِاللهِ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ، فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ [المائدة: ٧٢] وَأَمَّا الدِّيوَانُ الَّذِي لَا يَعْبَأُ اللهُ بِهِ شَيْئًا: فَظُلْمُ الْعَبْدِ نَفْسَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَبِّهِ مِنْ صَوْمِ يَوْمٍ تَرَكَهُ، أَوْ صَلَاةٍ تَرَكَهَا، فَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَغْفِرُ ذَلِكَ وَيَتَجَاوَزُ إِنْ شَاءَ، وَأَمَّا الدِّيوَانُ الَّذِي لَا يَتْرُكُ اللهُ مِنْهُ شَيْئًا: فَظُلْمُ الْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، الْقِصَاصُ لَا مَحَالَةَ»[22].

بل إن أهل الجنة لن يدخلوا الجنة حتى يقتص لبعضهم من بعض.

---

(١٨) أخرجه البخاري (٦٨٥٨)، ومسلم (١٦٦٠)

(١٩) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٣٣١)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٢٥٢)

(٢٠) أخرجه البخاري (٢٤٤٩)

(٢١) أخرجه مسلم (٢٥٨١)

(٢٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٦٠٣١)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٩٢٧)



هل سمعت عن قنطرة القصاص؟

قال النبي ﷺ: «**يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ، فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَأَحَدُهُمْ أَهْدَى بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا**»(٢٣).

اطمئن أيها المظلوم المكلوم، سيشفي الله صدرك يوم القيامة.

حيث تجلس على الأرائك في قصرك، ثم تنظر بعينيك إلى ظالمك وجلادك ومن خدعك ومن افترى عليك، تراه يتقلب في الجحيم.

ستزول الدنيا، وتستريح، ويزول البلاء، أو تزول أنت عنه، ثم الملتقى الجنة، حيث العوض عن كل لحظة شقاء مرت عليك.

قال الله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمُ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنْظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾**﴾ المطففين

(٢٣) أخرجه البخاري (٦٥٣٥)



السبوح القدوس



له الكمال كله من وجه

المنَزَّه والمُبَرَّأ من كل عيب وكل نقص

سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ



هل جربت يوما أن تتصل على أحد ما فلم يرد عليك، ثم اعتذر لك بعد ذلك بأنه كان مشغولا؟

هل كلمت يوما شخصا تحبه في أمر ليشفع لك فيه، ثم توالت الأيام ولم يفعل، ثم اعتذر لك بأنه نسي؟

هل احتجت شخصا ما في أمر مهم لم يكن عندك له غيره، وجربت كل سبيل للوصول إليه فلم تفلح، واتضح أنه كان نائما؟

هل قرأت خبرا عن حادثة، اعتذر قائدها عن خطأه بأن غفوة يسيرة كانت سبب الكارثة؟

هل قابلت يوما شخصا أصابه الهم والحزن لأنه تزوج ولم يُرزق بولد؟

هل أصابك الجوع والعطش يوما حتى توقف فكرك وعقلك؟

هل اعتذرت يوما لمن تحب عن خطأ متكرر منك، فقال لك: عفوا لقد مللت من كثرة خطأك واعتذارك، ولم يقبل؟

هل ندمت يوما على شيء فاتك، كانت بالنسبة لك فرصة ثم ضاعت منك؟

هل رفض أحدهم طلبك بشكل قاطع، فجئته بأكبر منه فقبل؟

هل طلبت من غني يوما شيئا، فخشي من المستقبل ونقص ما في يديه؟

هل اعتذر أحدهم لك عن حاجة قصدته فيها لأنه يخشى العواقب؟

هل ألّمت بك حاجة، وأردت قضاءها بكل سبيل لكنك ضعفت ولم تستطع؟

هل أصابك نصب بعد جهد يوم طويل أخلدك إلى الراحة أياما؟

هل رأيت إنسانا مضطربا لا يستطيع أن يستمع حوارا لأحد، ثم لما عُوتب اعتذر بأنه كان خائفا؟

كل ما سبق صفات الإنسان، صفاتٌ تعبر عن أصل خلقته.

الإنسان الضعيف المحتاج دوما إلى طعام وشراب وراحة بعد عمل.

يحتاج إلى زوجة تؤنسه، وولد يملأ عليه حياته، يتقوى به عند كبره وضعفه.

الإنسان النَّسيُّ العجول، الذي يخشى فوات الخير، لضعفه وفقره.

الإنسان الذي يقهره النوم، وتأخذه الغفوة، وتغلبه عينه حتى يغطَّ في ثُبات عميق.





الإنسان الملول، المتبرم من سؤال الناس إياه، تراه عسرا في إرضاءه، بعيدا في مسامحته وغفرانه.

كل هذه صفات نقص، تعتري بني البشر، هي صفاتهم التي لا ينفكون عنها.

لكن الله هو:

القدوس، الطاهر الذي تنزَّه سبحانه عن كل نقص وعيب.

السلام، الذي سلم عن كل آفة وعيب ونقص.

الله ذو الكمال، اجتمعت فيه كل صفات الكمال على أحسن ما يكون، وانتفت عنه كل صفات النقص والعيب، وثبت له كمال ضدها.

قال الله: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾. سورة الجمعة (١)

كان النبي ﷺ يقول في ركوعه وسجوده في الصلاة: «**سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ، رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ**»[١].

الله هو القدوس، لا يموت، ولا ينام، ولا يفنى، ولا ينقطع غناه، ولا يضل، ولا ينسى، ولا يظلم، ولا يخاف، ولا يَنْصَب، ولا يعجز، ولا يخشى الدوائر، ولا يشغله شأن عن شأن، لا يحتاج طعاما ولا شرابا، ولا يحتاج معينا، ولا تدركه الأبصار، ولا تحيط به الأفهام، وليس له صاحبة، ولم يتخذ ولدا، وليس له ولي من الذل، وليس له شريك في الملك، جل جلاله سبحانه.

الله هو الحي، له كمال الحياة، ومنزه عن الموت والفناء، كان الله ولا شيء معه، وكل شيء هالك إلا وجهه.

قال الله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾. سورة الإسراء (٥٨).

وهو القيوم، الذي لكمال قيوميته لا تأخذه سنة ولا نوم.

قال الله: ﴿الله لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾. سورة البقرة (٢٥٥).

قال النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَرْفَعُ الْقِسْطَ وَيَخْفِضُهُ، وَيُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ النَّهَارِ بِاللَّيْلِ، وَعَمَلُ اللَّيْلِ بِالنَّهَارِ**»[٢].

وهو الملك، الذي لكمال ملكه ليس له شريك في الملك، ولو بمثقال ذرة.

قال الله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾. سورة الإسراء (١١١)

وهو الأحد الفرد، الذي لكمال تفرده ليس له مثيل، ولم يكن له كفؤ ولا ند.

قال الله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. سورة الشورى (١١)

---

(١) أخرجه مسلم (٤٨٧).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٩)



قال الله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾. سورة الإخلاص (٤)

وهو الجليل الكبير، الذي لكمال كبرياءه لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار.

قال الله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾. سورة الأنعام (١٠٣)

وهو العليم، الذي لكمال علمه لا يضل ولا ينسى.

قال الله: ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾. سورة طه (٥٢).

وهو الغني، الذي لكمال غناه لم يتخذ صاحبة ولا ولدا.

قال الله: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ الله وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. سورة يونس (٦٨)

وقال سبحانه: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾. سورة الجن (٣)

وهو القهار، الذي لكمال قهره وسلطانه، لا يخاف عواقب الأمور.

إن أعتى ملوك الدنيا، وأكبر الدول العظمى، تفكر قبل أي قرار هل يضرهم قرارهم هذا أم لا؟

يخشى كل ملك عاقبة أمره أو فعله.

أما رب العالمين فلا يخاف عواقب الأمور، لكمال غناه، ولكمال عزته، ولكمال قدرته.

قال الله: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا ﴿١١﴾ إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾﴾. سورة الشمس

وهو العزيز، الذي لكمال عزته، لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه.

قال الله: ﴿وَالله يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾. سورة الرعد (٤١)

وهو القوي، الذي لكمال قوته لا يصيبه نصب ولا تعب.

قال الله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾. سورة ق (٣٨).

وهو القدير، الذي لكمال قدرته لا يعجزه شيء، ولم يتخذ معينا ولا مساعدا.

قال الله: ﴿وَمَا كَانَ الله لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾. سورة فاطر (٤٤)

قال الله: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾. سورة الكهف (٥١).

وهو الحفيظ، الذي لكمال حفظه لا يثقله حفظ السموات والأرض ومن فيها.





قال الله: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾. سورة البقرة (٢٥٥)

ولكمال ملكه ليس له ولي من الذل، فلا أحد يملك عليه شيئا، بل يوالي من شاء بعزته.

قال الله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾. سورة الإسراء (١١١)

ولكمال عدله لا يظلم مثقال ذرة. قال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾. سورة النساء (٤٠)

ولكمال علمه وقدرته وحكمته ورحمته، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون.

وهو الحكيم، الذي لكمال لحكمته الخير كله بيديه والشر ليس إليه.

ولكمال غناه لا ينقص ما عنده مهما أنفق وأعطى.

ولكمال رأفته بخلقه لا يمل حتى يملوا.

قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ لاَ يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا»[٣].

ولكمال علمه تنزه كلامه عن الريب، وعن العوج، وعن الكذب.

قال الله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾. سورة البقرة (٢)

فسبحان من تقدست ذاته وصفاته عن السوء والنقص والعيب، وسبحان من سلمت ذاته وصفاته من الآفة والأذى والذم.

وسبحان من تنزه عما يصفه الواصفون من صفات النقص والعيب.

وسبحان من سبحه كل خلقه، يسبح له من في السموات والأرض، وإن من شيء إلا يسبح بحمده.

قال الملك القدوس: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾. سورة الإسراء (٤٤)

سبحان الله عدد خلقه، ورضا نفسه، وزِنَة عرشه، ومداد كلماته.

سبحان الله العظيم، سبحان العلي الأعلى.

(٣) أخرجه البخاري (١١٥١)، ومسلم (٧٨٢)



الواحد الأحد، الفرد الصمد



لم يلد، ولم يولد.
لا كفؤ، ولا عدل، ولا ند، ولا مثيل له
الذي لا يُصمَد في الحوائج إلا له

لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ



بعث النبي ﷺ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ، وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ فَيَخْتِمُ بِقُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ.

فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ.

فَقَالَ: «**سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟**».

فَسَأَلُوهُ، فَقَالَ: لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُ**»[1].

إن أردت سورة جامعة تُعرف بها ربك فدونك سورة الإخلاص.

جاء المشركون يوما إلى النبي ﷺ، فقالوا: انْسُبْ لَنَا رَبَّكَ. أي صفه لنا.

فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ**﴾[2].

هذه السورة التي لم تتجاوز أربع آيات تعدل ثلث القرآن.

في ذات يوم نادى النبي ﷺ في أصحابه: احْشُدُوا.. أي: اجتمعوا.. تُرى لما يا رسول الله؟

قال: سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ.

أنت لا تتخيل حال قلوب الصحابة في هذه اللحظة، وهم من غيّر القرآن حياتهم فنقلهم من جاهليهم إلى هذا النعيم، الآن سيسمعون في ليلة واحدة ثلث القرآن.

وبالفعل خرج عليهم النبي ﷺ، فقرأ عليهم سورة الإخلاص، قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ. ثم تركهم ودخل بيته.

فقال بعضهم لبعض: هَذَا خَبَرٌ جَاءَهُ مِنَ السَّمَاءِ فَذَاكَ الَّذِي أَدْخَلَهُ.

إنه قال سيقرأ ثلث القرآن فلم يزد على أربع آيات، سورة واحدة، مؤكد أنه دخل بيته لمجيء الوحي، هكذا ظنوا.

لكنه خرج عليهم ﷺ، فقال: «**إِنِّي قُلْتُ لَكُمْ سَأَقْرَأُ عَلَيْكُمْ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، أَلَا إِنَّهَا تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ**»[3].

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٧٥)، ومسلم (٨١٣).

(٢) أخرجه الترمذي في «سننه» (٣٣٦٤)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الترمذي»(٢٦٨٠)

(٣) أخرجه مسلم (٨١٢)



إنها تعدل ثلث القرآن لأنها تتكلم عن الملك بأجمع وأعظم أسماءه وأوصافه.

ثلث القرآن حديث عن الله، يحدثك الله عن نفسه، ثم جاءت سورة الإخلاص تلخص لك ذاك الحديث في أربع آيات، إن وقرن في قلبك، خلصتك من الشرك والتعلق بالأنداد في الدنيا، وخلصتك من الجحيم يوم القيامة.

في هذه السورة اسم الله الأعظم، الذي إذا سُئل به أعطى، وإذا دُعي به أجاب.

في ذات يوم سمع النبي ﷺ صحابيا يدعو الله، يقول: «اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ. الْأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ.

فَقَالَ النبي ﷺ: «**قَدْ سَأَلَ اللهَ بِاسْمِ اللهِ الْأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى، وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ**»[٤].

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده»(٢٢٩٦٥)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح أبي داود»(١٣٤١).



الله الواحدُ الأَحَد



بعث النبي ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن، وقال له: «**إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ تَعَالَى، فَإِذَا عَرَفُوا اللهَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ..**»[٥].

وقال النبي ﷺ: «**بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسَةٍ، عَلَى أَنْ يُوَحَّدَ اللهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصِيَامِ رَمَضَانَ، وَالْحَجِّ**»[٦].

أن يوحدوا الله..

هذا أول واجب، أن يكون الله أحدا في قلبك، ليس فيه معبود غير الله، وهذا سبيله أن تعرف أحدية الله فتوحده.

الله هو الواحد الأحد، الواحد في ذاته، ليس إثنين ولا ثلاثة، ذات واحدة، ليس له ولد، ولم يولد.

ما من مخلوق إلا وله ثان، من كل شيء خلق الله زوجين.

تجد ليس مَلَكًا واحدا بل ملائكة.

تجد ليس إنسيا واحدا بل أناسي كثيرا.

تجد ليس جنيا واحدا، بل جنا كثيرا.

هكذا عوالم لا يعلم آحادها وأفرادها إلا الله.

لكن الله، ليس هناك رب ولا إله إلا هو.

ليس هناك من تفرد بهذه الذات وهذه الصفات إلا هو.

قد تجد أوثانا وأصناما وطواغيت تملأ الأرض يُلبسها أصحابها ثوب الربوبية، لكن هيهات، ما هي إلا باطل مصنوع.

الله الأحد في صفاته ونعوت جلاله، كان وحده، وكل شيء سيفنى، ويبقى وحده. لا مثيل له.

وسبحانه هو الواحد الأحد الذي لا مثيل له، ولا كفؤ له، ولا سميّ له، ولا نظير له، ولا عدل له.

قال الله: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾. سورة الإخلاص(١)

قال الله: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾. سورة مريم(٦٥)

---

(٥) أخرجه البخاري (٧٣٧٢).

(٦) أخرجه مسلم (١٦).

قال الله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾. سورة الشورى(١١)

أحد لا ثاني له، ليس لله ثان يشبهه لا في ذاته، ولا في أسمائه، ولا في صفاته.

لا مثيل له في ذاته. ولا مثيل له في حياته. ولا مثيل له في علمه. ولا مثيل له في غناه. ولا مثيل له في سمعه ولا في بصره. ولا مثيل له في رحمته وعفوه. ولا مثيل له في حبه ووده. ولا مثيل له في هبته وأعطياته. ولا مثيل له في قوته وعزته وقدرته. ولا مثيل له في حكمته وحكمه. ولا مثيل له في حلمه وستره.

وكيف يماثل الربُ العظيمُ الخالقُ الجليلُ الغنيُ العبدَ المخلوقَ الضعيفَ العاجزَ الفقيرَ.

فسمع العباد وبصرهم وعفوهم ورحمتهم وغناهم مثلهم، مثل حقيقتهم، سمع عبد ناقص ضعيف.

أما رب العالمين فسمعه وغناه ورحمته وعزته وعفوه وحلمه ورحمته وكرمه، كل هذا وكل صفاته وأفعاله إنما هي صفات وأفعال ذي الجلال والعظمة والجمال والإكرام.

أحدٌ لا شريك له في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وأفعاله.

لا يشاركه أحد في ملكه، ولا في خلقه، ولا في أمره، ولا في تدبيره أمر العالمين.

فهو وحده خلق وبرأ وصور وأبدع، وهو وحده يحيي ويميت، وهو وحده يعطي ويمنع، وهو وحده يخفض ويرفع، وهو وحده يضر وينفع، وهو وحده يقبض ويبسط، وهو وحده يعز ويذل.

هو وحده ينزل الغيث، ووحده ينبت الزرع، ووحده يشفي من السقم، ووحده ينجي من الغم.

وحده يهدي من الضلالة، ويُبَصّرُ من العمى.

لا يشاركه في ذرة من ذلك نبي مرسل، ولا مَلَك مقرب.

محمد ﷺ وجميع إخوانه من الأنبياء والمرسلين عبيد له، مذعنون لربوبيته، خاضعون لألوهيته، يبتغون القرب منه.

جبريل عليه السلام وجميع ملائك الرحمن عباد له، لا يسبقونه بالقول، وهم من خشيته مشفقون.

الأحد الذي لا ندّ، ولا كفؤ له، ولا عدل له.

لو اجتمع جميع خلقه من الملائكة والإنس والجن والوحش وكل ما علمت وما لم تعلم من خلقه، بما فيهم من حياة، وعلم، وحكمة، وسمع، وبصر، وقوة، وقدرة، ومنعة، وجمال، وغنى، ورحمة، وحلم، وعفو، ورفق، وجود، وإحسان، فكانوا جميعا في صورة مخلوق واحد فيهم كل هذا، ما ساوى ذلك ضوء شمعة بحذاء الشمس، بل لا مقارنة أصلا.

إن أصل كل ضلال وتيه وشقاء إنما يأتي عندما يُسوي العبد بين رب العالمين وآحاد خلقه، ولو في أي صفة مما اختص الله بها.



حينئذ ستنصرف القلوب ولابد إلى هذا الغير، وتذعن له، وتذل عنده، وهذا من العبودية.

يقول الله تعالى، يحكي لنا ما سيقوله المشركون يوم القيامة عن علة ورودهم الجحيم، قال سبحانه: ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ ۝٩١ وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ۝٩٢ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ۝٩٣ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ۝٩٤ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ۝٩٥ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ۝٩٦ تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٩٨﴾. سورة الشعراء

الله الأحد حقا، فوحّده بقلبك ووجهك وعملك صدقا.

قال الله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝١٦٢ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ۝١٦٣﴾. سورة الأنعام

اجعل حياتك ومماتك له وحده.

اجعل خضوعك وإذعانك وحبك وخوفك ورجاءك له وحده.

هذة نداءات الملك جل جلاله، يخاطب بها قلبك، يقيم قلبك بها على توحيده.

اسق قلبك هذه الآيات، وانظر إلى الأغيار بعدها، أترى لهم في قلبك نصيبا؟

قال الله: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ الله فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٣١ فَذَلِكُمُ الله رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ۝٣٢ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٣٣ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ الله يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ۝٣٤ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ الله يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ۝٣٥﴾ سورة يونس

قال الله: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٨٥ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ۝٨٦ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٨٧ قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٨٨ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ۝٨٩﴾. سورة المؤمنون

قال الله: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ۝٦٠ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٦١ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ۝٦٢ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى الله عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٦٣ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ۝٦٤ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا الله وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ۝٦٥﴾ سورة النمل

قال الله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ





يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾﴾ سورة القصص

قال الله: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَائِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَلِكُم مِّن شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾. سورة الروم (٤٠)

قال الله: ﴿أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَى أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ سورة الواقعة

قال الله: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾ سورة الملك

إن وقرت هذه الآيات قلبك، فلن تجد طاغوت إليه سبيلا.

الَّذي يُصْمَدُ إلَيْهِ في الْحَوَائِجِ



هل مرت بك ضائقة أو وقعت في كرب شديد، وبحثت وفتشت فيمن تعرف عمن يقوم بأمرك فيغنيك عمن سواه؟

قد تجد عدة خيارات بعضها أقوى من بعض، وإذ بك تقول في نفسك: الأمر لا يتحمل المخاطرة، هو فلان لها، تُقضى عنده وبه هذه الحاجة.

عندما يكون الأمر لا مجال فيه للمخاطرة، يختار الإنسان ما هو موقن بكفايته له.

كل ما يعلم أن فيه ذرة شك أنه قد لا يغني عنه شيئا يتخلى عنه، ولا يتعلق به.

إنما تجده قاصدا من ينجيه يقينا فحسب.

الله هو الصمد، الَّذِي يُصْمَدُ إِلَيْهِ فِي الْحَوَائِجِ.

في ذات يوم لقي النبيُّ ﷺ حصينَ، والدَ عمران بن حصين، وكان على الشرك حينئذ، فقال له النبي ﷺ: يا حُصين: كَمْ إِلَهًا تَعْبُدُ الْيَوْمَ؟



قَالَ: سَبْعَةً، سِتَّةٌ فِي الْأَرْضِ، وَوَاحِدٌ فِي السَّمَاءِ.

قَالَ: فَأَيُّهُمْ تَعُدُّهُ لِرَغْبَتِكَ وَرَهْبَتِكَ؟

قَالَ: الَّذِي فِي السَّمَاءِ.

فَإِذَا أَصَابَكَ الضُّرُّ مَنْ تَدْعُو؟»

قَالَ: الَّذِي فِي السَّمَاءِ.

قَالَ: فَإِذَا هَلَكَ الْمَالُ مَنْ تَدْعُو؟»

قَالَ: الَّذِي فِي السَّمَاءِ.

قَالَ: «**فَيَسْتَجِيبُ لَكَ وَحْدَهُ، وَتُشْرِكُهُمْ مَعَهُ؟**» [٧]

هكذا يُقر كل عبد حتى وإن كان وثنيا مشركا متعلقا بصنم عجوى أو صنم مصنوع من الحجر، أو تميمة تعلقها، سينفض يده من الأوهام التي هو موقن أنها سراب، ويتعلق فقط بمن بيده نجاته وهو رب العالمين.

قال الملك: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾. سورة الإسراء (٦٧)

ضلّ عنكم من تدعون، من تتعلقون به، من تقصدون، إلا الله، فحسب، فهو الصمد المقصود على الحقيقة.

الصمد، المقصود إليه في الرغائب، والمستغاث به عند المصائب والشدائد.

لكن: لماذا هو الصمد دون غيره؟

من معاني الصمد: الَّذِي لَا جَوْفَ لَهُ، أي لا يحتاج إلى طعام أو شراب، ليس فيه عوز لشيء، لا يحتاج إلى شيء قط، بل غناه ذاتي، كماله ذاتي، قوته ذاتية، علمه ذاتي.

ذاتي: أي ليس أمرا مكتسبا حادثا طارئا عليه.

نحن معاشر الإنس نُحصل كمالاتنا من أفعالنا، فلا يوصف أحدنا بالعلم إلا بعد جهله الأول الذي كان، ثم أعقبه الإنسان تعلما، فصار عالما.

أما رب العالمين فأفعاله من كماله، كمل ففعل.

هو خالق حيث لا مخلوق أصلا.

هو رازق حيث لا مرزوق أصلا.

كماله وغناه من ذاته.

(٧) أخرجه الترمذي في «سننه»(٣٤٨٣)، وصحح إسناده الحافظ ابن حجر في «الإصابة»(٢/ ٧٦).





لا يحتاج إلى الملائكة ولا إلى الإنس ولا إلى الجن، ولا إلى أحد.

حتى العرش وحملته، هو مستغن عنهم جميعا، بل العرش وحملته محمولون بقدرته وعظمته.

فلما كان له الكمال من كل وجه، كان أهلاً لأن يُقصد في كل أمر.

الاحتياج نقص، والاستغناء كمال.

وكل فاقة منك دليل نقص، وكل غنى منه دليل كمال.

لذا كل من ادّعى لله ولدا فقد زعم أنّ الله فيه فاقة لمثل ذلك، وتلك نقيصة يجل عنها رب العالمين.

لقد سبوه سبة شنيعة يوم أن أدعى الأفاكون ذلك عليه.

قَالَ اللهُ فِي الحديث الإلهي: كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي، كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ، لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُئًا أَحَدٌ»[٨].

الله الصمد الذي لم يلد ولم يولد، لكمال غناه.

الصمدُ: السَّيِّدُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي سُؤْدَدِهِ.

وَالشَّرِيفُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي شَرَفِهِ.

وَالْعَظِيمُ الَّذِي قَدْ عَظُمَ فِي عَظَمَتِهِ.

وَالْحَلِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي حِلْمِهِ.

وَالْغَنِيُّ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي غِنَاهُ.

وَالْجَبَّارُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي جَبَرُوتِهِ.

وَالْعَالِمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي عِلْمِهِ.

وَالْحَكِيمُ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي حِكْمَتِهِ.

وَهُوَ الَّذِي قَدْ كَمُلَ فِي أَنْوَاعِ الشَّرَفِ وَالسُّؤْدَدِ، وَهُوَ اللهُ سُبْحَانَهُ هَذِهِ صِفَتُهُ، لَا تَنْبَغِي إِلَّا لَهُ.

وإن قصدته لحوائجك، فاقصده بقلبك وعملك، فلا أحد يستحق أن تكون له إلا الله.

(٨) أخرجه البخاري (٤٩٧٤).



ربٌّ كلِّ شيءٍ ومَليكه



يدبر الأمر
ملكٌ لا كالملوك

رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكُهُ



تصور أي شيء يخطر على بالك سوى الله.

لتعلم أن الله هو ربه، وخالقه، هو من صنعه فأتقنه، وخلقه فأحسن خلقه.

يملكه، عنده خزائنه، يعلم عدده، عليم به، رقيب عليه، لا يخفى عليه، شهيد عليه، بصير به، قدير عليه، لا يعجزه، وكيل عليه، حفيظ له، محيط به من كل وجه، وسعته رحمته، ينزله بمقدار، عنده خزائنه، أحصى عدده، شملته رحمته، ويفنى كل شيء، ولا يبقى إلا هو.

واستمتع بهذه الآيات وهي تخبرك عن كل شيء، وتخيل بين ناظريك الآن أي شيء مهما عظم في صدرك أو صغر بين عينيك حتى لو كان مثقال ذرة.

قال الله: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾. سورة الأنعام (١٦٤)

قال الله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾. سورة الأنعام (١٠١)

قال الله: ﴿قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ سورة المؤمنون

قال الله: ﴿فَسُبْحَانَ الَّذِى بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. سورة يس(٨٣)

قال الله: ﴿وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ﴾. سورة النمل(٩١)

قال الله: ﴿وَالله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. سورة البقرة(٢٨٢)

قال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾. سورة آل عمران (٥).

قال الله: ﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾. سورة الأنعام (٨٠)

قال الله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾. سورة الطلاق (١٢)

قال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾. سورة النساء (٣٣)

قال الله: ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾. سورة الملك (١٩)

قال الله: ﴿وَالله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. سورة آل عمران (١٨٩)

قال الله: ﴿وَكَانَ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾. سورة الكهف (٤٥)



قال الله: ﴿وَمَا كَانَ الله لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾. سورة فاطر (٤٤)

قال الله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾. سورة يس (٨٢)

قال الله: ﴿وَكَانَ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا﴾. سورة النساء (٨٥)

قال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾. سورة النساء(٨٦)

قال الله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾. سورة يس (١٢)

قال الله: ﴿وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾. سورة الجن (٢٨)

قال الله: ﴿وَكَانَ الله بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطًا﴾. سورة النساء(١٢٦)

قال الله: ﴿وَكَانَ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾. سورة الأحزاب (٥٢)

قال الله: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾. سورة الأنعام(١٠٢)

قال الله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾. سورة الأعراف (١٥٦)

قال الله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾. سورة هود (٥٧)

قال الله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾. سورة الرعد (٨)

قال الله: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾. سورة الفرقان(٢)

قال الله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾. سورة القمر (٤٩)

قال الله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ﴾. سورة الحجر (٢١)

قال الله: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾. سورة الإسراء (١٢).

قال الله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾. سورة الإسراء(٤٤)

قال الله: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾. سورة النمل (٨٨)

قال الله: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾. سورة السجدة (٧)

قال الله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾. سورة القصص (٨٨)

أبعد هذا كله يهمك أمر أي شيء.

اقصد من بيده كل شيء، يكفيك من كل شيء، ويغنيك عن كل شيء.

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ

أصاب الناسَ قحطٌ على عهد سليمان عليه السلام، فخَرَجَ بِالنَّاسِ يَسْتَسْقِي. يسأله ربه السُقيا.

فَمَرَّ عَلَى نَمْلَةٍ مُسْتَلْقِيَةٍ عَلَى قَفَاهَا، رَافِعَةٍ قَوَائِمَهَا إِلَى السَّمَاءِ، وَهِيَ تَقُولُ:

اللَّهُمَّ إِنَّا خَلْقٌ مِنْ خَلْقِكَ لَيْسَ لَنَا غِنًى عَنْ رِزْقِكَ، فَإِمَّا أَنْ تَسْقِيَنَا وَإِمَّا أَنْ تُهْلِكَنَا.

فَقَالَ سُلَيْمَانُ لِلنَّاسِ: ارْجِعُوا فَقَدْ سُقِيتُمْ بِدَعْوَةِ غَيْرِكُمْ»[(١)].

الله قيوم السموات والأرض، يدبر الأمر.

القيوم، هو القائم بنفسه فلا يحتاج لأحد من خلقه، وهو القائم على جميع خلقه بما فيه صلاحهم في الدنيا والآخرة.

يدبر جميع أمور خلقه، لا يشغله أمر عن أمر، ولا مخلوق عن مخلوق.

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا تَهَجَّدَ مِنَ اللَّيْلِ قَالَ: «**اللَّهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الحَمْدُ أَنْتَ قَيِّمُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَلَكَ الحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ، أَنْتَ الحَقُّ، وَقَوْلُكَ الحَقُّ، وَوَعْدُكَ الحَقُّ، وَلِقَاؤُكَ الحَقُّ، وَالجَنَّةُ حَقٌّ، وَالنَّارُ حَقٌّ، وَالسَّاعَةُ حَقٌّ، اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ، وَبِكَ آمَنْتُ، وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ، وَإِلَيْكَ خَاصَمْتُ، وَبِكَ حَاكَمْتُ، فَاغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ، وَأَسْرَرْتُ وَأَعْلَنْتُ، وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي، لاَ إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**»[(٢)].

هذه النملة التي لا تكاد تراها بعينك، تدهسها بقدمك دون أن تشعر، تسحقها ولا تُبالي، يسمعها الملك من فوق سبع سموات، ويجيب دعائها، بل وينزل لأجلها الغيث.

لأنه الرب قيوم السموات والأرض ومن فيهن.

﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾

انظر إلى ساعتك التي بيدك الآن، وارقب عقرب الدقائق، ترى هذه اللحظة، في هذه الثواني الستين، يحدث فيها تدبير رب العالمين، لجميع خلقه، لا يشغله في أثناء التدبير مخلوق عن مخلوق.

وأنا أريدك أن يشهد قلبك هذا المشهد المليء بالجلال والعظمة والرحمة والقيومية.

ليشهد قلبك رباً له القوة والقدرة جميعا، وله الحكمة البالغة، والرحمة التي وسعت كل شيء، يدبر الآن شئون جميع خلقه.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٢٩٤٨٧) عن أبي الصديق الناجي به.
(٢) أخرجه البخاري (٧٤٤٢).

جميع الأمم:

كل ما خلق الله من دابة أو طائر أو إنس أو جن، كل من هذه أمة من الأمم، يدبر الله أمرهم بما فيه صلاحهم.

قال الله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾. سورة الأنعام (٣٨)

أُمَّةُ الإنس، أُمَّةُ الملائكة، أُمَّةُ الجنّ، أمة الوحش، أمة الطير.

من أصغر دويبة تدب على ظهر الأرض حتى هذا النمل أمة من الأمم، إلى أضخم مخلوق خلقه الله.

الآن في هذه اللحظة، ليستشعر قلبك شيئا من الهيبة والجلال والعظمة.

سبحانه مستو على عرشه، بائن من خلقه، محيط بهم إحاطة تامة، لا يعزب عنه مثقال ذرة.

أترى تلك النملة تحت الحجر.

أترى قطرات المطر.

أترى أوراق الشجر.

أترى على الأغصان ذاك الثمر.

أترى هذا الساجد في ضوء القمر.

أترى دمعة المهموم وقت السحر.

كل هذا بعين الرحيم الأبر.

يرى ويسمع ويعلم كل خلقه، لا يخفى عليه منهم شيء.

يمسك السموات والأرض بحلمه أن تزولا.

يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل، ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي.

يخلق الآن مليارات من الخلق، بل لا يعلم عدد ما يخلقه الآن إلا الله.

يحيي ويميت، يتوفى الناس عند المنام، ويرسل الأرواح، ويمسك بعضها، يهب هذا حياة، وآخر يذيقه كأس الممات.

يرزق، ويطعم، ويسقي، جميع خلقه الآن في آن واحد، حتى الأجنّة في بطون أمهاتها يسوق لها قوتها.

يرسل الرياح، ويسوق السحاب، وينزل الغيث، ويسوق الماء، وينبت الزرع، ويخرج الثمار.



يفلق الحب والنوى، ويظهر النجوم في السماء نورا وهدى.

يُري عباده البرق خوفا وطمعا، وينزل لهم من السماء رزقا.

يكلم ملائكته بالأمر من عنده، فيذعنون له، ويطيعون أمره.

يـؤتي هـذا ملـكا، وذاك صحـة أو مـالا، وذاك جاهـا وسـلطانا، وينـزع عـن آخريـن الملـك، يعطـي ويمنـع ابتـلاء لا سـخطا ورضوانـا.

يبتلي هذا فيزيده مالا وولدا، ويجعله أكثر نفيرا وعددا، بلاء منه لهذا، واستدراجا منه لذاك.

يحمل هؤلاء في البحر، ويسير هؤلاء في البر، ويهدي السبيل، وينير الطريق.

يمسك الطير في جو السماء، ويسوق الرزق لجميع خلقه دون عناء.

يهون على هذا سفره، ويطوي عنه بعده، ويخلفه في أهله وعقبه.

يهب لهذا ولدا، ويجعل من شاء عقيما.

يبتلي هذا، ويعافي ذاك.

يشفي هذا من سقم، ويقدر على ذاك المرض.

يسوق فرحا لمحزون هناك، ويسمع بث حزن لمهموم وشاك.

يستر هذا بفضله، ويفضح ذاك بعدله.

ينصر مظلوما، ويقصم ظالما.

يثبت هذا بفضله، ويتخلى عن ذاك بعدله.

يكرم هذا بفضله، ويهين ذاك بعدله

يجيب المضطر، ويكشف الضر، ويذهب الهم، وينجي من الغم.

يبرأ هذا، ويقضي دين هذا، ويجمع شمل ذاك.

يلم شعث هذا بفضله، ويمزق جمع ذاك بعدله.

ييسر لهذا أمره بفضله وكرمه، ويعسر على ذاك أمره بعدله.

يمد هذا بمدد من عنده برحمته، ويقطع عن ذاك موارد التوفيق بعدله.

يهدي قلب هذا بفضله، ويزيغ قلب ذاك بعدله.

يصطفي ويقرب، ويتولى ويعرض.

يتولى هذا العبد بإحسانه وينصره، ويعرض عن ذاك العبد بعدله ويخذله.

يضحك ويُبكي، يُغني ويُقني .

يعطي ويمنع، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع.

يخفض ويرفع، فلا خافض لمن رفعه، ولا رافع لمن خفضه.

يقبض ويبسط، فلا قابض لما بسط ولا باسط لما قبض.

يقرب هذا ويباعد ذاك، ويقدم هذا ويؤخر ذاك.

يرضى عن هذا ويسخط على ذاك، يحب هذا ويبغض ذاك.

يلقي في قلوب الناس حب عبده إحسانا، ويسخطهم على أسير الدنيا جزاء وفاقا.

يلقي في قلب هذا الرضا والسكينة برحمته، ويملأ قلب ذاك السخط بعدله.

يسلط من شاء على من شاء بعدله، ويكف من شاء عمن شاء بفضله.

يلقي في قلب هذا الإيمان ويزينه في قلبه برحمته، ويختم على قلب ذاك بعدله.

يمد هذا بعونه لصدقه، ويثبط هذا عن طاعته بكذبه.

يُقر عين هذا بولده، ويعذب ذاك بماله وولده.

يوسع في رزق هذا بفضله، ويقتر على ذاك بحكمته ولطفه.

يخرج من السماء ماء المطر المخبوء، ويقي عبده الخزي السوء.

يظهر آياته لخلقه، ويؤيد أولياءه بفضله.

يهدي من أقبل عليه، ويحلم على من أعرض عنه.

يثبت أولياءه برحمته وفضله، ويضل الظالمين بعدله.

يخرج أولياءه من الظلمات إلى النور، يُبَصّرهم سبيله، ويجعل لهم نورا يمشون به، ويهديهم إليه صراطه المستقيم.

يشرح صدور أولياءه، ويلقي الضيق في قلوب أعداءه.

يتوب على شارد، ويقيل عثرة عابد، ويعافي هذا الجاحد، وبنظرة من رضاه يصبح الولي الزاهد.

يفرح بتوبة هذا العبد الذي تاب إليه، ويحلم على ذاك العبد الذي أعرض عنه.

يضحك سبحانه من قنوط عباده مع قرب فرجه، ويعجب من شاب ليست له صبوة.

يطعم جائعا، ويكسو عاريا، ويفرج كربا، ويزيل هما، ويغيث ملهوفا، ويفك عانيا أسيرا، ويصحب مسافرا، ويجيب داعيا، ويعطي محروما، ويسلي محزونا، ويكفي يتيما، ويربي صغيرا.

يجبر كسيرا، ويعز ذليلا، ويؤمن خائفا، ويرد غائبا، ويشفي مريضا، ويكفي مسكينا.

يفتح لعبدٍ أبواب فضله، ويغلق على من شاء ما شاء بحكمته وعدله.

يـورث مـن شـاء أرضـه، ويبـؤئ مـن شـاء ملكـه، ويدمـر مـن شـاء في عرشـه، ويخسـف بمـن شـاء قـصره.

يدافع عن عبده، ويبرأ عرضه، ويلقي في قلوب العباد حبه، وينصره على عدوه.

يقوي من ضعف، ويعلم من جهل، وينجي من كرب، ويحفظ من ضيعة.

يعيذ هذا من شر، ويجير هذا من عدو، ويعصم هذا من ذنب.

يبارك لهذا في عمله وعمره وأهله وولده ورزقه برحمته، ويمحق بركة هذا بعدله.

يلين قلب هذا بذكره، ويقسي قلب ذاك بذنبه.

يطهر قلب هذا ويزكيه، ويجعل الرجس في قلب ذاك ويقصيه.

يصرف قلب الصادق إلى طاعته لإقباله، ويصرف قلبه عن السوء والفحشاء بإخلاصه .

يؤلف بين قلوب المؤمنين، ويلقي العداوة بين قلوب المجرمين.

يلقي السكينة في قلب هذا لإقباله وإنابته، ويحول بين ذاك وقلبه لإعراضه ونفرته.

يربط على قلوب عباده المؤمنين، ويثبت أقدامهم، ويلقي الوهن والرعب في قلوب المشركين.

يطفئ نيران حرب أُشعلت على أولياءه، ويغري العداوة والبغضاء بين أعداءه.

يمكر بالماكرين، ويستهزئ بالمستهزين، ويخادع المخادعين، ويمكن عباده المؤمنين من الخائنين.

يسوق البشرى لعبده حتى في منامه، ويعرض عن ذاك فيتخبطه الشيطان في أحلامه.

ينتقـم مـن أعـداءه فيشـف صـدور المؤمنـين، ويذهـب غيـظ قلوبهـم، ويعـلي شـأنهم، ويمكـن لهـم دينهـم.

سبحانه كل يوم هو في شأن.

يقـول النبي ﷺ في تفسـير قولـه تعـالى: ﴿كُلَّ يَـوْمٍ هُـوَ فِى شَـأْنٍ﴾ قَـالَ: «**مِـنْ شَـأْنِهِ أَنْ يَغْفِـرَ ذَنْبًـا وَيُفَـرِّجَ كربـا ويرفـع قومـا ويضـع آخريـن**»[٣].

بعد هذا كله آن لك أن تقول: وأنا بك وإليك، أنت قيوم السموات والأرض ومن فيهن.

(٣) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٦٨٩)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح ابن ماجه» (١٦٧).



ملكٌ لا كالملوك



رؤية الملكة تورث الطغيان.

هكذا ملوك الأرض، حتى لو كان مُلْكُهم كوخا من خشاش الأرض، فلهم طغيان بقدر رؤية ما يملكون.

ترى سيماهم - إلا من رحم ربك - كبرا وفخرا وطغيانا وظلماً.

وضعوا الحجبة والشفعاء، فلا تكاد تصل لأحدهم إلا بشفيع مُطاع.

بعيدا عن الإسهاب في وصف هؤلاء فحالهم لا يخفى، تعال أحدثك عن ملك لا كالملوك.

مع أن الله هو الملك الحق، وهو من يؤتي الملك من يشاء، وبيده ملكوت كل شيء.

مع أنه له الكبرياء في السموات والأرض.

مع كمال الغنى وعظيم السلطان، إلا أنه ليس كملوك الأرض، ليس فقط في عزته وكبرياءه وعظيم سلطانه، بل لعظيم رأفته وجميل إحسانه.

إن كان ملوك الأرض يغلقون أبوابهم، ويضعون عليها حراسهم، فلا يدخل عليهم أحد إلا بشفيع مطاع، فإن الله ليس كمثله شيء.

سبحانه تدخل عليه متى شئت، تناديه في أي وقت، ليس على بابه حاجب تستأذنه قبل الحديث، ولا شفيع يحول بينك وبينه.

يقول بكر بن عبد الله المزني رحمه الله: «**مَنْ مَثَلُكَ يَا ابْنَ آدَمَ؟ خُلِّيَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ الْمِحْرَابِ تَدْخُلُ مِنْهُ إِذَا شِئْتَ عَلَى رَبِّكَ، وَلَيْسَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ حِجَابٌ وَلَا تَرْجُمَانٌ**»(٤).

ما أن تتطهر، وتصف قدمك بين يديه، وتنصب وجهك وقلبك إليه، وتقول الله أكبر، حتى ينصب وجهه إليك.

إي والله، ينصب وجهه إليك، لا يعرض عنك، ما لم تلتفت عنه، هو مقبل عليك إقبالا خاصا، فإن قرأت استمع إليك وأجابك جواب الرب الجليل الجميل ذو الجلال والإكرام.

تقول: الحمد لله رب العالمين.

---

(٤) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٢/ ٢٢٩).

يرد عليك الملك الجليل: حمدني عبدي.

تقول: الرحمن الرحيم .

يقول الملك الجليل: أثنى عليّ عبدي.

تقول: مالكِ يوم الدين.

يقول الملك الجليل: مجَّدني عبدي.

تقول: إياك نعبد وإياك نستعين.

يقول: هذا بيني وبين عبدي، ولعبدي ما سأل.

تقول: اهدنا الصراط المستقيم. صراط الذين أنعمت عليهم. غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

يقول: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل.».[٥]

ثم فوق ذلك أنه يُقبل عليك أعظم من إقبالك عليه.

تتقرب منه شبرا يتقرب إليك ذراعا، تتقرب إليه ذراعا يتقرب إليك باعا، تمشي إليه يهرول إليك.

تأتيه في بيته يتبشبش إليك تبشبش أهل الغائب بغائبهم.

يفرح بك، يفرح بقدومك إليه، يستبشر بقدومك مع أنه الغني عن العالمين.

قال النبي ﷺ: «**مَا تَوَطَّنَ رَجُلٌ مُسْلِمٌ المَسَاجِدَ لِلصَّلَاةِ وَالذِّكْرِ، إِلَّا تَبَشْبَشَ الله إليه كَمَا يَتَبَشْبَشُ أَهْلُ الْغَائِبِ بِغَائِبِهِمْ، إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِمْ**».[٦]

يبعث إليك ملائكته تؤيدك، وتثبتك، وتحفظك من الأذى، وتستغفر لك، ويسألهم عن حالك وهو أعلم.

بل ويذْكُرك باسمك.

حُق لك يا أُبي أن تبكي فرحا وشوقا.

جاءه النبي ﷺ يوما، فقال له: «**إِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُقْرِئَكَ الْقُرْآنَ**»

قَالَ أُبَيٌّ بن كعب: آللهُ سَمَّانِي لَكَ؟

(٥) أخرجه مسلم (٣٩٥).

(٦) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (٨٠٠)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٦٥٢).

قَالَ: «نَعَمْ»

قَالَ: وَقَدْ ذُكِرْتُ عِنْدَ رَبِّ العَالَمِينَ؟

قَالَ: «نَعَمْ».. فَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ[٧].

وليس هذا خاصا بأبي بن كعب، بل أنت إن ذكرته في نفسك ذكرك في نفسه، ويذكرك باسمك بين ملائكته إن ذكرته بين خلقه.

ومع عظمته يرسل السلام إلى خديجة مع جبريل.

أَتَى جِبْرِيلُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ: هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ، أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلَامَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لاَ صَخَبَ فِيهِ، وَلاَ نَصَبَ»[٨].

بل ويباهي بعبده ملائكته.

خَرَجَ النبي ﷺ يوما عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: «**مَا أَجْلَسَكُمْ؟**»

قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللهَ وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ، وَمَنَّ بِهِ عَلَيْنَا.

قَالَ: «**آللَّهِ مَا أَجْلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟**».

قَالُوا: وَاللهِ مَا أَجْلَسَنَا إِلَّا ذَاكَ.

قَالَ: «**أَمَا إِنِّي لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي، أَنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمُ المَلَائِكَةَ**».[٩]

بل وتبلغ كرامته أن يرسلَ جبريلَ لعبدٍ من عباده، كي يسليه في حزنه ومرضه، هل تتخيل مثل ذلك.

في ذات يوم عَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَلَمَّا دَنَا مِنْ مَنْزِلِهِ سَمِعَهُ يَتَكَلَّمُ فِي الدَّاخِلِ، فَلَمَّا اسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ دَخَلَ فَلَمْ يَرَ أَحَدًا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**سَمِعْتُكَ تُكَلِّمُ غَيْرَكَ**»

قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَقَدْ دَخَلْتُ الدَّاخِلَ اغْتِمَامًا بِكَلَامِ النَّاسِ مِمَّا بِي مِنَ الْحُمَّى، فَدَخَلَ عَلَيَّ دَاخِلٌ، مَا رَأَيْتُ رَجُلًا بَعْدَكَ قَطُّ أَكْرَمَ مَجْلِسًا، وَلَا أَحْسَنَ حَدِيثًا مِنْهُ.

قَالَ: «**ذَاكَ جِبْرِيلُ ﷺ، وَإِنَّ مِنْكُمْ لِرِجَالًا لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ يُقْسِمُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَأَبَرَّهُ**»[١٠]

---

(٧) أخرجه البخاري (٤٩٦١)، ومسلم (٧٩٩).

(٨) أخرجه البخاري (٣٨٢٠).

(٩) أخرجه مسلم (٢٧٠١).

(١٠) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٧١٧)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣١٣٥)..

بـل أسـألك بـالله أن تقـرأ هـذا الحـوار بقلبـك قبـل عينـك، فإنـه والله يمـلأ عليـك قلبـك حبـا لله تبـارك وتعالى.

قَـالَ النبـي ﷺ: «إِنَّ للهَّ تَبَـارَكَ وَتَعَـالَى مَلَائِكَـةً سَـيَّارَةً، فُضُـلًا يَتَتَبَّعُـونَ مَجَالِـسَ الذِّكْـرِ، فَـإِذَا وَجَـدُوا مَجْلِسًـا فِيـهِ ذِكْـرٌ قَعَـدُوا مَعَهُـمْ، وَحَـفَّ بَعْضُهُـمْ بَعْضًـا بِأَجْنِحَتِهِـمْ، حَتَّـى يَمْلَئُـوا مَـا بَيْنَهُـمْ وَبَيْـنَ السَّـمَاءِ الدُّنْيَـا، فَـإِذَا تَفَرَّقُـوا عَرَجُـوا وَصَعِـدُوا إِلَى السَّـمَاءِ، قَـالَ: فَيَسْـأَلُهُمُ اللهُ عَـزَّ وَجَـلَّ، وَهُـوَ أَعْلَـمُ بِهِـمْ: مِـنْ أَيْـنَ جِئْتُـمْ؟

فَيَقُولُـونَ: جِئْنَـا مِـنْ عِنْـدِ عِبَـادٍ لَـكَ فِي الْأَرْضِ، يُسَـبِّحُونَكَ وَيُكَبِّرُونَـكَ وَيُهَلِّلُونَـكَ وَيَحْمَدُونَـكَ وَيَسْـأَلُونَكَ.

فَيَقُولُ: هَلْ رَأَوْنِي؟

فَيَقُولُونَ: لاَ وَاللهَّ مَا رَأَوْكَ؟

فَيَقُولُ: وَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟

يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ كَانُوا أَشَدَّ لَكَ عِبَادَةً، وَأَشَدَّ لَكَ تَمْجِيدًا وَتَحْمِيدًا، وَأَكْثَرَ لَكَ تَسْبِيحًا».

قَالَ: وَمَاذَا يَسْأَلُونِي؟

قَالُوا: يَسْأَلُونَكَ جَنَّتَكَ.

قَالَ: وَهَلْ رَأَوْا جَنَّتِي؟

يَقُولُونَ: لاَ وَاللهَّ يَا رَبِّ مَا رَأَوْهَا».

يَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ أَنَّهُمْ رَأَوْهَا؟.

يَقُولُـونَ: لَـوْ أَنَّهُـمْ رَأَوْهَـا كَانُـوا أَشَـدَّ عَلَيْهَـا حِرْصًـا، وَأَشَـدَّ لَهَـا طَلَبًـا، وَأَعْظَـمَ فِيهَـا رَغْبَـةً قَالُـوا: وَيَسْـتَجِيرُونَكَ.

قَالَ: وَمِمَّ يَسْتَجِيرُونَنِي؟ قَالُوا: مِنْ نَارِكَ يَا رَبِّ.

قَالَ: وَهَلْ رَأَوْا نَارِي؟

قَالُوا: لَا.

قَالَ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْا نَارِي؟

يَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْهَا كَانُوا أَشَدَّ مِنْهَا فِرَارًا، وَأَشَدَّ لَهَا مَخَافَةً.

قَالُوا: وَيَسْتَغْفِرُونَكَ.



قَالَ: فَيَقُولُ: قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ فَأَعْطَيْتُهُمْ مَا سَأَلُوا، وَأَجَرْتُهُمْ مِمَّا اسْتَجَارُوا.

قَالَ: فَيَقُولُونَ: رَبِّ فِيهِمْ فُلَانٌ عَبْدٌ خَطَّاءٌ، إِنَّمَا مَرَّ فَجَلَسَ مَعَهُمْ.

قَالَ: فَيَقُولُ: وَلَهُ غَفَرْتُ هُمُ الْقَوْمُ لَا يَشْقَى بِهِمْ جَلِيسُهُمْ[11].

بل وتبلغ كرامة العبد أن يكلمه كفاحا ليس بينه وبينه حجاب.

يقول جابر بن عبد الله رضي الله عنه: لقيني النبي ﷺ، فَقَالَ: «يَا جَابِرُ مَالِي أَرَاكَ مُنْكَسِرًا؟.

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اسْتُشْهِدَ أَبِي وَتَرَكَ عَلَيْهِ دَيْنًا وَعِيَالًا.

فَقَالَ: «**أَلَا أُبَشِّرُكَ بِمَا لَقِيَ اللهُ بِهِ أَبَاكَ، إِنَّ اللَّهَ لَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْ خَلْقِهِ قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، وَإِنَّ اللَّهَ أَحْيَا أَبَاكَ فَكَلَّمَهُ كِفَاحًا، وَقَالَ: يَا عَبْدِي تَمَنَّ عَلَيَّ مَا شِئْتَ أُعْطِيكَ، قَالَ: تَرُدُّنِي إِلَى الدُّنْيَا فَأُقْتَلُ فِيكَ، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: لَا، إِنِّي أَقْسَمْتُ بِيَمِينٍ أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يُرْجَعُونَ يَعْنِي الدُّنْيَا**»[12].

مع أنه ذو الجلال والكمال والعظمة والكبرياء إلا أنك لن تجد أرأف ولا أجود ولا أكرم ولا أرحم ولا أرفق بك من ربك. فكيف لا يُحب.

---

(١١) أخرجه البخاري (٦٤٠٨)، مسلم (٢٦٨٩)..

(١٢) أخرجه الترمذي في «سننه» (٣٠١٠)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٢٩٠).



وهو الجميل



له عظيم جمال الذات، وجمال الصفات، وجمال الفعال.
له الأسماء الحسنى والصفات العُلى.

جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ



كيف لا يُحب وهو الجميل جل في علاه.

هل تخيلت أشقى أهل الأرض، وأعظمهم بلاء، وأشدهم بؤسا.

لكنه كان مؤمنا، فيؤتى به يوم القيامة فيغمس في الجنة غمسة، ثم يخرج، فيُسأل:

هل رأيت بؤسا قط؟

هل مرّ بك شدة قط؟

هل أصابك ضر أو بلاء قط؟

فيقول:

لا والله يا رب، ما مرّ بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط، وما أصابني ضر ولا بلاء قط[١].

إنها غمسة في الجنة تنسي كل شقاء الدنيا، وتنسيك كل شدائدها وضرها وبلائها.

إنه ما سكن الجنة بعد، إنها محض غمسة واحدة، فكيف إذا كان من ملوكها وسكانها؟!

ولكن، بينما أهل الجنة فيها يتنعمون إذ يسمعون نداء رب العالمين:

تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟

فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟

فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ.[٢]

غمسة في الجنة تنسي شقاء الدنيا، ونظرة إلى وجه الكريم تنسي نعيم الجنة.

لأنه الله هو الجميل الذي لا أجمل ولا أحسن منه.

له الجمال كله، وله من كل شيء أحسنه وأجمله وأكمله.

في ذات يوم قال النبي ﷺ: «**لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**»..

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٠٧).

(٢) أخرجه مسلم (١٨١).





قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً، قَالَ: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ**»(٣)

إن الله جميل يحب الجمال

جمال رب العالمين له جمال الذات، وجمال الأسماء، وجمال الصفات، وجمال الأفعال.

فكيف لو رأوني؟!

أرأيت كيف حال قلبك، وحال حبك، وحال إقبالك، وحال دعائك، وحال رجائك، وحال شوقك، لو رأيت الله.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ للهِ مَلَائِكَةً سَيَّاحِينَ فِي الْأَرْضِ فُضُلاً عَنْ كُتَّابِ النَّاسِ، فَإِذَا وَجَدُوا أَقْوَامًا يَذْكُرُونَ اللهَ تَنَادَوْا: هَلُمُّوا إِلَى بُغْيَتِكُمْ، فَيَجِيئُونَ فَيَحُفُّونَ بِهِمْ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا.

فَيَقُولُ اللهُ: أَيَّ شَيْءٍ تَرَكْتُمْ عِبَادِي يَصْنَعُونَ.

فَيَقُولُونَ: تَرَكْنَاهُمْ يَحْمَدُونَكَ وَيُمَجِّدُونَكَ وَيَذْكُرُونَكَ.

قَالَ: فَيَقُولُ: فَهَلْ رَأَوْنِي،

فَيَقُولُونَ: لاَ، قَالَ: فَيَقُولُ: فَكَيْفَ لَوْ رَأَوْنِي؟

قَالَ: فَيَقُولُونَ: لَوْ رَأَوْكَ لَكَانُوا أَشَدَّ تَحْمِيدًا، وَأَشَدَّ تَمْجِيدًا، وَأَشَدَّ لَكَ ذِكْرًا.(٤)

لا أجمل منه سبحانه، فوجهه أجمل الوجوه وأجل الوجوه، ولا يستطيع أحد كائنا من كان أن يصف جماله.

وحتى أشوق قلبك، تخيل لو أن الخلق كلهم كانوا على أجمل صورة خلقها الله تعالى، ثم جمعنا كل هذا الجمال في ذات واحدة، هذا أولا.

ثم لو كان الخلق جميعا صاروا على جمال خُلق نبينا ﷺ، ثم جمعنا كل هذا الجمال من جمال الباطن في شخص واحد، وهذا ثانيا.

ثم لو كان هناك شخص جمع بين هذا كله من جمال الظاهر والباطن، لكان جماله بالنسبة لجمال رب العالمين، كنسبة مصباح ضعيف إلى نور شموس الكون ونجومه أجمعين.

فالله نور السموات والأرض، ليس عند ربك ليل أو نهار، وحجابه النور لو كشفه لأحرقت محاسن وجهه وبهاؤه وجلاله ما انتهى إليه بصره من خلقه.

---

(٣) أخرجه مسلم (٩١).

(٤) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٢٦٨٩)، والترمذي في «سننه» (٣٦٠٠).



يقول النبي ﷺ «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ - لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**»[٥]..

ولذا لما طلب موسى عليه السلام من ربه أن يراه في الدنيا، أظهر من بهاءه وجماله مقدار أنملة من أصبع إنسان خر الجبل دكا، وخر موسى صعقا.

ولذا سبحانه حجب وجهه برداء الكبرياء، فإذا دخل المؤمنون الجنة كان من رحمته سبحانه أن يرفع رداء الكبرياء عن وجهه لينعم المؤمنون برؤية وجهه الكريم.

يقول النبي ﷺ: «**جَنَّتَانِ مِنْ فِضَّةٍ آنِيَتُهُمَا، وَمَا فِيهِمَا، وَجَنَّتَانِ مِنْ ذَهَبٍ آنِيَتُهُمَا، وَمَا فِيهِمَا، وَمَا بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ إِلَّا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ فِي جَنَّةِ عَدْنٍ**».[٦]

إنه أعظم نعيم أهل الجنة، نعيم ما بعده نعيم.

كان من دعاء النبي ﷺ: «وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ»[٧].

وهو الجميل الذي ما جَمُل شيء قط إلا به سبحانه، فهو واهب الجمال، فكل جمال في الدنيا والآخرة منه، فكيف يكون جماله سبحانه.

وهو واهب الجمال، فلم يجمل شيء ألبتة إلا لأن الله هو من جمّله وحسنه.

هل نظرت يوما إلى جميل خلقه، وبديع صنعه؟

هل رأيت جمال هذه الحدائق والأشجار والورود والأزهار؟

قال سبحانه: أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾. سورة النمل (٦٠)

ثم جمّل جنته، جعل جنته في غاية الحسن فقال سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾. سورة يونس (٢٦)

فجعل فيها ما لم تر العيون ولم تسمع الآذان ولم يخطر على قلب بشر.

جمل فيها كل شيء، ترابها مسك أظفر، وحصباؤها اللؤلؤ، خدمها لؤلؤ مكنون.

لبنة من ذهب، ولبنة من فضة

---

(٥) أخرجه مسلم (١٧٩).

(٦) مسلم (١٨٠).

(٧) النسائي (١٣٠٤)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الكلم الطيب» (١٠٦).



أنهارها تجري تحت القصور من غير أخدود.[٨]

أشجارها سيقانها من ذهب.[٩]

خيامها من اللؤلؤ المجوف، وقصورها من الذهب والفضة.

كل شيء فيها في غاية الحسن والجمال، حتى فرشهم، حسان كما قال الكريم المنان: «مُتَّكِئِينَ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ﴾. سورة الرحمن (٧٦)

حتى أهلها في غاية الحسن والجمال، ليس فيهم قبيح.

قال ﷺ: «مَا مِنْ أَحَدٍ يَمُوتُ سِقْطًا وَلَا هَرِمًا - وَإِنَّمَا النَّاسُ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ - إِلَّا بُعِثَ ابْنَ ثَلَاثِينَ سَنَةً، فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ كَانَ عَلَى مَسْحَةِ آدَمَ، وَصُورَةِ يُوسُفَ، وَقَلْبِ أَيُّوبَ»[١٠].

ثم يزيدهم دوما حسنا وجمالا.

قال رسول الله ﷺ قَالَ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَسُوقًا، يَأْتُونَهَا كُلَّ جُمُعَةٍ، فَتَهُبُّ رِيحُ الشَّمَالِ فَتَحْثُو فِي وُجُوهِهِمْ وَثِيَابِهِمْ، فَيَزْدَادُونَ حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَرْجِعُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ وَقَدِ ازْدَادُوا حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُوهُمْ: وَاللهِ لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَقُولُونَ: وَأَنْتُمْ، وَاللهِ لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا»[١١].

كل هذا الجمال، مما نعرف، ومما لا نعرف، الله خالقه، وموجده، ومنشئه، ومجمّله، فكيف يكون جماله جل في علاه؟!

(٨) أخرجه ابن أبي الدنيا في «صفة الجنة» (٦٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٧٢٣).
(٩) أخرجه الترمذي في «سننه» (٢٥٢٥)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٧٣٢).
(١٠) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٠/ ٢٨٠)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٧٠١).
(١١) مسلم (٢٨٣٣).



وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى



له الأسماء الحسنى التي بلغت في الحسن أعلى ما يكون.

وله الصفات العُلى التي بلغت في العلو والكمال أعظم ما يكون.

وله الفعال الكاملة التي بلغت في الكمال والجمال أحسن ما يكون.

الله له المثل الأعلى في السموات والأرض.

أيُ حسن، وأيُ جلال، وأيُ جمال، فلله رب العالمين أحسنه وأكمله وأجمله وأعظمه، وبلا منتهى.

قال الله: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾. سورة الإسراء (١١٠)

قال الله: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. سورة النحل (٦٠)

قال الله: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. سورة الروم (٢٧)

فإن قال عن نفسه أنه الغني، فغناه أعظم وأعلى وأجمل وأكمل وأوسع وأكبر الغنى.

وإن قال عن نفسه أنه الرحمن الرحيم، فرحمته أعظم الرحمات وأعلاها وأجملها وأكملها وأطيبها وأوسعها.

وإن قال عن نفسه أنه الكريم الأكرم، فكرمه أعظم الكرم وأجوده وأكمله وأحسنه وأعلاه.

وإن قال عن نفسه أنه السميع البصير، فسمعه وبصره أكمل السمع والبصر وأوسعه وأعظمه وأكمله.

وهو الجميل له الأسماء الحسنى، فكما له غاية جمال الذات، فله غاية جمال الأسماء.

، قال الله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾. سورة الأعراف (١٨٠)

كل أسماء الله في غاية الجمال والحسن، فهي أعلام وأوصاف، وله من كل معنى أعظمه وأجمله وأحسنه.

فهو الله، له الألوهية على خلقه جميعا، لا إله إلا هو.

وهو الملك، ومالك الملك، وملك الملوك، له كل شيء، وغيره لا يملكون مثقال ذرة.

وهو القدوس، الذي تقدس وتنزه عن كل عيب ونقص.





وهو السلام، الذي سلم من كل سوء، وسلّم من شاء بها شاء.

وهو العزيز، له العزة جميعا، لكمال قوته وغناه، وهو غالب على أمره، ممتنع أن يلحقه أحد بسوء.

فإن جاءتك هواجس الشيطان لتقول لك أين الجمال في اسمه سبحانه «**الجبار**»، **أو** «**القهار**» **أو** «**ذو انتقام**».

فقل: سبحان من له الأسماء الحسنى، أبصر حسنها المحبون، وعمي عنها كل أفاك أثيم.

أما اسمه الجبار فهو في غاية الحسن والجمال.

بل هو شفاء قلوب المظلومين وجبر كسر المقهورين، فهو الجبار قاصم الجبابرة، الذي خضع لعظمته وجبروته كل جبار، فيقهرهم بقدرته، ويعاملهم بعدله، ويحفظ عباده من تجبر الجبابرة.

يقول النبي ﷺ: «**يَأْخُذُ الْجَبَّارُ سَمَاوَاتِهِ وَأَرضيه بِيَدِهِ، وَقَبَضَ بِيَدِهِ، فَجَعَلَ يَقْبِضُهَا وَيَبْسُطُهَا - ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْجَبَّارُ، أَيْنَ الْجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ الْمُتَكَبِّرُونَ؟**»[١٢].

وهو الجبار الذي يجبر كسر عبده، فما أحوج كل كسير إلى جبره تبارك وتقدس.

يجبر كسر الفقير فيغنيه.

ويجبر كسر المريض فيشفيه.

ويجبر كسر المظلوم فينصره ويؤويه.

ويجبر كسر التائب فيتوب عليه ويهديه.

ويكفي أن تعلم أن النبي ﷺ كان يدعو الله في كل صلاة بين السجدتين فيقول: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَاجْبُرْنِي، وَاهْدِنِي، وَارْزُقْنِي**»[١٣].

وأما القهار، فهو من أسماء العظمة والجلال، فالقهار الذي جميع خلقه في قبضته وتحت سلطانه، فقهر جميع خلقه على أمره، فلا يخرج أحد عن مشيئته طرفة عين.

ومن آثار هذا الاسم أنه سخر لك ما في الأرض نعمة منه وفضلا.

سخر الأرض، والبحر، والفلك، والدواب، ولولا تسخير الله هذه للإنسان لتكدرت عليه حياته.

تنظر إلى هذا البحر العظيم، سخره الله فمكنك من الإبحار فيه لتبتغي من فضله.

وهذه الدواب العظيمة سخرها الله لك، فهذه دابة تركبها، وهذه تنقاد إليك مطيعة ذليلة لتذبحها وتطعمها.

(١٢) مسلم (٢٧٨٨)، وابن ماجه في «سننه» (١٩٨).

(١٣) أخرجه الترمذي في «سننه» (٢٨٤)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٧٣٢).



قال الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. سورة النحل (١٤)

قال الملك القهار: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾﴾. سورة الزخرف

وأما انتقامه، وأنه عزيز ذو انتقام، فممن ينتقم؟

ألم تر ذاك الأثيم الذي حرّق عباد الله المؤمنين؟

ألم تر ذاك الغشوم الذي انتهك أعراض المؤمنات؟

ألم تر أولئك الطغاة الذين استعبدوا الناس فساموهم سوء العذاب، فأكلوا أموالهم، وسجنوا أبريائهم؟

ألم يؤرق مضجعك صرخات اليتامى، وأنات الثكالى؟

ألم يغتظ قلبك كمدا لهذه الأم التي فرق المجرمون بينها وبين ولدها ظلما وعدوانا؟

ألم يعتصر الألمُ قلبَك لصرخات تلك المسكينة التي وقفت تنادي على أمها المظلومة في سجون الظالمين؟

ألا يحتاج العبيد المستضعفون لرب عزيز ذي انتقام يُجري عذابه وانتقامه في هؤلاء ليشفي صدور قوم مؤمنين؟

إن كان لك قلب ستعلم حينها كم من شفاء في هذه الآيات حيث يقول سبحانه:

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾﴾ سورة إبراهيم



وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى



كما أن الله له جمال الذات، وله الأسماء الحسنى، كذلك له جمال الصفات والأفعال.

له المثل الأعلى من كل معنى حسن جميل يليق به، فله من كل شيء أعلاه وأكمله وأجمله وأحسنه وأطيبه.

فأفعال الله وصفاته في غاية الجمال والحسن، لأنها تدور بين الفضل والعدل.

وإن أردت بيان ذلك فاعلم أيها المحب: أن الشيء يجمل بحسن القصد وحسن الوقوع والحدوث.

فربما كان الفعل في ظاهره مؤلما لكنه بحسن القصد يكون جميلا.

فلو أن رجل رأى غافلا أمام عجلة القطار ثم جاء فدفعه، فوقع على الأرض في آخر لحظة فتكسرت أسنانه لكنه نجا من الموت، هل يُشكر الدافع ويُحمد على دفعه أم لا؟

الجواب: لا شك يُشْكَر ويُحْمَد بل هو معروف لا ينسى، ولن تنظر إلى سقوط الأسنان والألم.

فربك يا محبُ له حسنُ العواقب في كل أمر وفعل، فتعالى سبحانه عن العبث.

لذا كان النبي ﷺ يثني على ربه فيقول: «**وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ**»(١٤).

فكذلك رب العالمين، كل أفعاله خير، إما للعبد المفعول له أو في الجملة أي العاقبة.

وإن أردت أن يقف قلبك على طيف من ذلك، فدونك:

هذه سفينة لمساكين يعملون في البحر، لا ذنب لهم، يسعون على معاشهم، وفجأة تُخرق سفينتهم.

فهل كنت تظن أن خرق السفينة نجاة السفينة ومن عليها؟

وهذان أبوان صالحان، يأتيهما خبر مقتل ولدهما، دون جريرة أو ذنب؟

فهل كنت تظن أن هذا القتل هو محض رحمة رب العالمين؟

يقول الله الحكيم: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾﴾. سورة الكهف

بل هل كنت تظن أن اتهامَ عرض أم المؤمنين الصديقة بنت الصديق عائشة رضي الله عنها من المنافقين، ثم حزنَ النبي ﷺ وتألمه شهرا كاملا، والوحي منقطع لا ينزل عليه بشيء في هذا الأمر، هل كنت تظن ذلك خيرا لهم؟

هذه ظنون الناس، لكن ما أراده الله كان كله خيرا.

---

(١٤) أخرجه مسلم (٧٧١).





قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. سورة النور (١١)

كم من عبودية قامت بقلب النبي ﷺ، وبقلب أم المؤمنين عائشة، وبقلب أبي بكر الصديق، وقلوب أصحاب النبي ﷺ، من الصبر وانتظار الفرج والفرح بفضل الله ورحمته.

كم كانت المحنةُ منحةً على المؤمنين، فتمايزت الصفوف، وظهر المنافقون على حقيقتهم.

كم من درجات في الجنة كانت نتيجة الصبر على هذا البلاء العظيم.

كم كان درسا عظيما للأمة جميعا في بيان خطورة الوقوع في الأعراض، وسببا لنزول حد القذف، فكان ردعا لأمثال هؤلاء.

وانظر كيف أصبحت عائشة رضي الله عنها المبرأةَ من فوق سبع سموات، فمن رماها بما برأها الله منه كان كافرا.

وخذها قاعدة يا صديقي: كل نعمةٍ من الله فضل، وكل نقمةٍ منه عدل.

فإنه لا يظلم مثقال ذرة، فما أصابك من حسنة فهي محض فضله، وما أصابك من سيئة فببعض ما كسبت يداك، ويعفو ربنا عن كثير.

قال الله: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ﴾. سورة النساء (٧٩)

قال الله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾. سورة الشورى (٣٠)

حتى عذابه الذي يوقعه بعد طول إمهال، وعظيم حلم وصبر، يكون في غايته إرجاع العصاة إلى جنابه، ليتركوا ما فيه هلاكهم في الدنيا والآخرة.

فيذيقهم شيئا من عذابه فيكسر كبرهم وغرورهم، وحينئذ تزول طغيان النفوس، فيعرفوا أنه ليس لهم إلا الله، فيكون العذاب في حقيقته نجاة، ولذا أجمل الله الغاية فقال: «**لعلهم يرجعون**».

قال الملك سبحانه:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾. سورة الأنعام (٤٢)

وقال الملك: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. سورة الروم (٤١)

وقال الملك: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. سورة السجدة (٢١)

وقد تصل النفوس إلى حضيض السفول، فيكون تطهير الأرض من رجسها هو غاية الجمال، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون.

قال الله: ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾. سورة القصص (٥٠)

بل حتى النار خلقها رحمة بعباده، يقول سفيان بن عيينة: «**خُلِقَتِ النَّارُ رَحْمَةً يُخَوِّفُ بِهَا عِبَادَهُ لِيَنْتَهُوا**».



إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ



عندما يعرف العبد ربه يرى ما أصابه به من ضُرٍ هو عين رحمته.

هكذا قال مؤمن آل ياسين، يدل قومه على ربه.

قال الله: ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ۝٢١ وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٢ أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ ۝٢٣﴾. سورة يس

أين رحماته في الضر الذي يصاب به العبد؟

في النفس داعية الطغيان، فإذا استغنت طغت.

قال الله: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ۝٦ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ۝٧﴾. سورة العلق

فإذا أراد الله بعبده خيرا كسر طغيانه فأحوجه إليه، وحينئذ يستفيق المسكين فيرجع وينيب إلى مولاه.

قال الله: ﴿وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلَجُّوا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٥ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ۝٧٦﴾ سورة المؤمنون

ما أجمل فعال الكريم، لو كشف ضره لتمادى العبد في طغيانه، وإنما أذاقه شيئا من عذابه ليستكين المسكين إلى مولاه.

أما الهالك الشارد عن ربه، فلا يزيده البلاء إلا قسوة، ولا يزيده الضر إلا طغيانا، فبئس العبد هو.

قال الله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۝٤٢ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٤٣﴾ سورة الأنعام

فمن رحمته أنه يَمَسَّك بضر حتى تتضرع إليه.

قال الكريم الرحمن: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ۝٤٢ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا﴾. سورة الأنعام (٤٣)

لعلهم يتضرعون: لعلهم يخضعون إليه، ويتوبون له، ويستغيثون برحمته، فإذا تضرعت إليه كشف الضر عنك، فلا يكشف الضر إلا هو.

قال الله: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. سورة الأنعام (١٧)



وَقَدْ أَحْسَنَ بِي



بعد هذه الأحداث التي قصها الله في أحسن القصص، يقف الصديق يوسف ليثني على ربه ومولاه قائلا: ﴿وَقَالَ يَاأَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾. سورة يوسف (١٠٠)

مهما وصفت لك، لن تبلغ عقولُ الخلق ذرةً من جمال وحسن فعال الله، فهو اللطيف الخبير.

الَّذِي لَطُفَ صُنْعُهُ وَحِكْمَتُهُ وَدَقَّ حَتَّى عَجَزَتْ عَنْهُ الْأَفْهَامُ، فيوصل خيره إلى من شاء من خلقه برفق.

الله الجميل، ومن جماله جميل أفعاله، فكل أفعاله تقع على أحسن حال، وبأجمل ما يكون.

هذا يوسف الصديق قبل أن يلقيه إخوته في الجب يريه سبحانه رؤيا، ثم يقدر الله أن يقصها على أبيه يعقوب، فيطمئن قلب يوسف وأبيه قبل الفقد، حتى إذا ألقي يوسف في الجب كان مطمئنا أن الله جاعل له فرجا، وإذا جاء الخبر إلى يعقوب كان موقنا أنه لا يزال على قيد الحياة.

ثم بعد أن يُلقى يوسف في الجب، يقدر الله للسيارة أن يقفوا ويرسلوا واردهم فيُنقذ الله يوسف، ثم يلقي حبه على من يراه، فيقول المشتري لامرأته أكرمي مثواه.

ثم يعصمه من الفاحشة، ويجعل دخوله السجن سبب عزته.

ثم يقدر الله رؤيا الملك لتكون سببا لنجاته.

ثم يقدر الله الجدب، ويجعل أرض مصر خزانة الدنيا ليأتي إليه إخوته.

وهكذا في كل فعل يكون اللطف والجمال.

فعندما يخلق، فأحسن الخلق خلقه، وأحسن الصنع صنعه.

قال الله: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ﴾. سورة السجدة (٧)

قال الله: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾. سورة النمل (٨٨)

وكلامه أحسن الكلام، وأتمه، وأعدله، وأكمله، وأصدقه.

قال الله: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾. سورة الأنعام (١١٥)

وحديثه أجمل الحديث وأحسنه.





قال الله: ﴿الله نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾. سورة الزمر (٢٣)

وقصُّه وقصصه أحسن القصص وأجمله.

قال الله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾. سورة يوسف (٣)

وثوابه أحسن الثواب وأجمله.

قال الله: ﴿وَالله عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾

ودينه وحكمه أحسن الدين وأجمله.

قال الله: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ سورة البقرة

قال الله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ سورة المائدة

قال الله: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾. سورة الأنعام (١٥٤)

فكل أفعاله في غاية الجمال والحسن.

فأجمل الرزق رزقه، وأجمل الحلم حلمه، وأجمل العطاء عطاؤه، وأجمل المنع منعه، وأجمل الستر ستره، وأجمل العفو عفوه، وأجمل الثواب ثوابه، بل وأجمل العقاب عقابه.

فإنه يعاقب عبده ليتوب إليه.

قال الملك: «وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. سورة السجدة (٢١)

فكم من عبد كانت فضيحته سببا لنجاته، وكانت مصيبته سببا لحياته، ولو تركه منعَّما معافا لنسي ربه، ولغره حلمه وستره وعافيته، فيذيقه بعض بأسه لعله يعود إليه.

اللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ



قد يحدث أن يُلقب إنسان بأنه الملك، أو العزيز، أو يوصف بكونه رحيما، أو يقال له: الناصر.

قد يرحمك بعضهم، أو يعفو عنك أحدهم، أو ينصرك ملك من ملوكهم.

لكن: أَيْنَ السُّهَى مِنْ شَمْسِ الضُّحَى؟ وَأَيْنَ الثَّرَى مِنْ كَوَاكِبِ الْجَوْزَاءِ؟

لا أخير من الله في ذاته ولا في أسماءه، وفي كل فعاله وصفاته.

فهو خير الراحمين، وخير الناصرين، وخير الرازقين، وخير الغافرين، وخير الحاكمين، وخير الماكرين.

قال الله: ﴿وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾. سورة المؤمنون (١١٨)

وكيف لا وهو أرحم بالعبد من أمه، بل ومن نفسه، وسعت رحمته كل شيء.

وهو خير الناصرين.

قال الله: ﴿بَلِ الله مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾. سورة آل عمران (١٥٠)

لأنه قد ينصر قوي غيره بحق أو باطل، وقد يقوى على نصره وقد يضعف، أما الله جل جلاله فلا ينصر إلا بحق ولأجل الحق، وإن نصر عبدا فمن الذي يغلبه.

وهو خير الرازقين.

قال الله: ﴿وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾. سورة المائدة (١١٤)

قال الله: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾. سورة المؤمنون (٧٢)

فالرزق عطاء، وكل عطاء من غير الله فصاحبه يطلب به المثوبة، أما الله فلا يسألك به ثوابا ولا نفعا، بل هو محض إحسانه.

وكل مسئول غير الله فهو وإن ملك الدنيا فهو عاجز فقير محتاج، أما الله فهو الغني لا يعجز ولا يبخل.

وهو خير الحاكمين.

قال الله: ﴿وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ الله وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾. سورة يونس (١٠٩)

فإنه سبحانه لا يحكم عن جهل، ولا عن ضعف، ولا عن حاجة، ولا عن حيف وهوى، فلا يحكم بباطل، ولا بجور، ولا بخطأ، وإذا حكم نفذ حكمه، فلا راد لقضائه ولا معقب لحكمه.



لأنه حكم العليم الحكيم القدير العدل الذي يأمر بالعدل.

وهو خير الغافرين.

قال الله: ﴿أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ﴾. سورة الأعراف (١٥٥)

فكل غافر ذلةٍ غير الله يملّ، إلا الله، فيغفر ولا يملّ من خطأ عبده مهما تكرر.

وكل غافر غير الله قد يُعير صاحب الذنب، إلا الله يغفر ولا يُعير.

وكل غافر غير الله، قد يحب المذنب وقد لا يحب، إلا الله فهو الغفور الودود.

وكل غافر غير الله إن علم قبل المغفرة عودة المذنب فإنه لا يغفر، إلا الله يستغفره عبده فيغفر له مع علمه أنه سيعود فيذنب

وهو خير الحافظين.

قال الله: ﴿فَالله خَيْرٌ حَافِظًا﴾. سورة يوسف (٦٤)

فمتى تولى حفظ عبد فلا ضيعة، فهو عالم الغيب والشهادة، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، القوي الذي لا يغلب، ومن سواه ضعيف مغلوب مقهور.

وخير المكر مكره، فهو خير الماكرين.

قال الله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ الله وَالله خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾. سورة آل عمران (٥٤)

فالمكر إيصَالُ الشَّيْءِ إِلَى الْغَيْرِ بِطَرِيقٍ خَفِيٍّ، لكن كل مكر من بني البشر فهو شر وباطل لأنه سيء العاقبة، إلا مكر رب العالمين فكله خير، إذ أنه لا يمكر إلا بمن يستحق بالمكر، وتكون عاقبته خيرا.

ثم هو الباقي فلا يزول ولا يتغير ولا يفنى ولا يبيد.

قال الله: ﴿وَالله خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾. طه (٧٣)

فسبحان الجميل، جميل الذات، وجميل الأسماء، وجميل الصفات، وجميل الفعال.

جَمَّلَكَ اللَّهُ



الله الجميل، يحب الجمال، يحب منك أن تكون جميلا، جميلا في نفسك، وجميلا في فعلك، وتُجمّل من حولك.

في ذات يوم اسْتَسْقَى رَسُولُ اللهَّ ﷺ أي طلب السقيا فجاءه أحد الصحابة، وهو عمرو بن أخطب بإناء فيه ماء، فإذا في الماء شعرة، فرفعها منه عمرو رضي الله عنه.

فنظر النبي ﷺ إليه، ثم دعا له، فقال: «**اللَّهُمَّ جَمِّلْهُ، وَأَدِمْ جَمَالَهُ**».

يقول راوي الحديث: «**فَلَقَدْ بَلَغَ بِضْعًا، وَمِائَةَ سَنَةٍ وَمَا فِي رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ بَيَاضٌ، إِلَّا نَبْذٌ يَسِيرٌ، وَلَقَدْ كَانَ مُنْبَسِطَ الْوَجْهِ، وَلَمْ يَنْقَبِضْ وَجْهُهُ حَتَّى مَاتَ**»[١٥].

في هذه الدنيا قسّم الله جمال الوجه على الناس بحكمته، فأعطى يوسف شطر الحسن، والناس متفاوتون فيما بين ذلك.

إلا أن الله قد عوَّض من فاته ما يتمنى من جمال الوجه بنور الطاعة، فكم من إنسان ربما لم يكن ذا حظ من حُسن الخِلقة، إلا أن الله كساه بهاء الطاعة، فلا يراه إنسان إلا ويرى على مُحياه النور.

قِيلَ لِلْحَسَنِ رحمه الله: مَا بَالُ الْمُتَهَجِّدِينَ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ وُجُوهًا؟ قَالَ: لِأَنَّهُمْ خَلَوْا بِالرَّحْمَنِ فَأَلْبَسَهُمْ مِنْ نُورِهِ نُورًا»[١٦]..

طاعة الرحمن بهاء وحسن في الدنيا، والقبر، وفي الآخرة، ومعصية الله قُبح للعبد في الدنيا، وفي القبر، وفي الآخرة.

عندما ينزل الإنسان منا قبره، يبعث الله له جليسا في قبره، وهما صنفان:

إما رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ حَسَنُ الثِّيَابِ طَيِّبُ الرِّيحِ، يَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتُ تُوعَدُ.

فَيَقُولُ العبد: وَمَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ الَّذِي يَجِيءُ بِالْخَيْرِ.

فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحُ.

وإما رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ، وَقَبِيحُ الثِّيَابِ، مُنْتِنُ الرِّيحِ.

---

(١٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٠٧٣٣)، وصححه الشيخ الألباني في «التعليقات الحسان» (١٠/ ٢٤٤).

(١٦) أخرجه الدينوري في «المجالسة» (١٣٣).





يَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُوءُكَ هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتُ تُوعَدُ.

فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَوَجْهُكَ الْوَجْهُ الَّذِي يَجِيءُ بِالشَّرِّ.

فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ[١٧].

فكل عمل صالح يُجمّل جليسك في قبرك، وكل عمل لا يرضي الله يُقبح جليسك في قبرك.

في ذات يوم رأى النبي ﷺ رؤيا، فقصها على أصحابه، فقال: «**أَتَانِي اللَّيْلَةَ آتِيَانِ فَابْتَعَثَانِي، فَانْتَهَيْنَا إِلَى مَدِينَةٍ مَبْنِيَّةٍ بِلَبِنِ ذَهَبٍ، وَلَبِنِ فِضَّةٍ، فَتَلَقَّانَا رِجَالٌ شَطْرٌ مِنْ خَلْقِهِمْ كَأَحْسَنِ مَا أَنْتَ رَاءٍ، وَشَطْرٌ كَأَقْبَحِ مَا أَنْتَ رَاءٍ، قَالاَ لَهُمْ: اذْهَبُوا فَقَعُوا فِي ذَلِكَ النَّهْرِ، فَوَقَعُوا فِيهِ، ثُمَّ رَجَعُوا إِلَيْنَا، قَدْ ذَهَبَ ذَلِكَ السُّوءُ عَنْهُمْ، فَصَارُوا فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، قَالاَ لِي: هَذِهِ جَنَّةُ عَدْنٍ، وَهَذَاكَ مَنْزِلُكَ، قَالاَ: أَمَّا القَوْمُ الَّذِينَ كَانُوا شَطْرٌ مِنْهُمْ حَسَنٌ، وَشَطْرٌ مِنْهُمْ قَبِيحٌ، فَإِنَّهُمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا، تَجَاوَزَ اللهُ عَنْهُمْ**»[١٨].

فانظر - يا رعاك الله - كيف أنّ أعمالهم الصالحة لما قصرت فلم تكاثر أعمالهم السيئة،جمّلت نصف وجوههم فحسب، وبقي النصف الآخر قبيحا لقبح السيئات والمعاصي، ثم تداركهم الله برحمته فتجاوز عنهم فأذهب برحمته قبحهم، لأنه العفو الجميل.

ثم كما أن الله له جميل الفعال، فإنه يحب منك أن تُجمّل أفعالك

كان من دعاء النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ كَمَا حَسَّنْتَ خَلْقِي فَحَسِّنْ خُلُقِي**»[١٩].

جمّل ظاهرك وباطنك، جمّل قولك وفعلك، وافعل ذلك لأن الله الذي تحبه يحب منك الجمال.

أما ظاهرك، فاغتسالك وتنظفك وتطييك ولبسك ثوبا نظيفا حسنا، كل هذا يرضي ربك.

فهذا النبي ﷺ أجمل الناس وأطهرهم وأنظفهم.

يقول البراء بن عازب رضي الله عنه: «**رَأَيْتُهُ فِي حُلَّةٍ حَمْرَاءَ، لَمْ أَرَ شَيْئًا قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهُ**»[٢٠].

وحث على التطهر والاغتسال والتطيب يوم الجمعة، بل جعل ذلك سببا لمغفرة الذنوب.

قال النبي ﷺ: «**لاَ يَغْتَسِلُ رَجُلٌ يَوْمَ الجُمُعَةِ، وَيَتَطَهَّرُ مَا اسْتَطَاعَ مِنْ طُهْرٍ، وَيَدَّهِنُ مِنْ [ص: ٤] دُهْنِهِ، أَوْ يَمَسُّ مِنْ طِيبِ بَيْتِهِ، ثُمَّ يَخْرُجُ فَلاَ يُفَرِّقُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، ثُمَّ يُصَلِّي مَا كُتِبَ لَهُ، ثُمَّ يُنْصِتُ إِذَا تَكَلَّمَ الإِمَامُ، إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجُمُعَةِ الأُخْرَى**»[٢١].

---

(١٧) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٨٥٣٤)، وصححه الشيخ الألباني في «أحكام الجنائز» (ص ١٥٦).

(١٨) أخرجه البخاري (٤٦٧٤).

(١٩) أخرجه الطبراني في «الدعاء» (٤٠٤)، وصححه الشيخ الألباني في «إرواء الغليل» (٧٤).

(٢٠) أخرجه البخاري (٣٥٥١)، ومسلم (٢٣٣٧).

(٢١) أخرجه البخاري (٨٨٣).

وكان إذا رأى أحدا يحتاج إلى التنظف أو تجميل منظره حثه على ذلك.

فيقول جابر بن عبد الله ﵁: أتانا - رسولُ الله - صلَّى الله عليه وسلم - فرأى رجُلاً شعِثاً قد تفرَّقَ شَعرُهُ، فقال: «**أما كان هذا يَجِدُ ما يُسَكِّنُ به شَعْرَهَ؟** » ورأى رجُلاً آخر عليه ثيابٌ وسِخَة فقال: «أَما كان هذا يجِدُ ما يَغسِلُ به ثوبَهُ[٢٢]؟

بل حتى الطرق حثّ على تنظيفها وتطهيرها.

فقال ﷺ: «**طَهِّرُوا أَفْنِيَتَكُمْ، فَإِنَّ الْيَهُودَ لَا تُطَهِّرُ أَفْنِيَتَهَا**»[٢٣].

(٢٢) أخرجه أبو داود في «سننه» (٤٠٦٢)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤٩٣).

(٢٣) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٤٠٥٧)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٣٦).



اكس ألفاظك



الله الجميل يحب منك عندما تتلفظ بكلمة أن تنتقي أجمل الألفاظ، وأجمل العبارات.

قال الله: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾. الإسراء (٥٣)

نقول الحسن حتى لو كان ذلك لبهيمة أو حيوان مستقبح.

فهذا عيسى عليه السلام لَقِيَ خِنزِيرًا بِالطَّرِيقِ فَقَالَ لَهُ: انْفُذْ بِسَلَامٍ.

فَقِيلَ لَهُ: تَقُولُ هَذَا لِخِنْزِيرٍ؟

فَقَالَ عِيسَى إِنِّي أَخَافُ أَنْ أُعَوِّدَ لِسَانِي الْمَنْطِقَ بِالسُّوءِ»[٢٤].

المعنى قد يُؤدى بلفظ جميل حسن، وقد يؤدى بلفظ قبيح منفر، والمؤمن ينتقي أطايب الكلام كما تنتقى أطايب الثمار.

العسل ذاك الشفاء الشراب الجميل الرائق، أرأيت لو أن إنسانا أراد وصفه فقال: «**سائل أصفر يشبه العذرة، تتقيأه الزنابير**». أيمكن لأحد أن يشربه بعد ذلك؟!!

لذا يقول ابن الرومي[٢٥].:

في زخرفِ القول ترجيح لقائلهِ والحقُّ قد يعتريه سوء تغييرِ

تقول هذا مُجاجُ النحل تمدحهُ وإن تعِبْ قلت ذا قَيْءِ الزنابير

مدحاً وذماً وما جاوزتَ وصفَهما سحرُ البيان يُري الظلماءَ كالنور

المؤمن يكسو ألفاظه حتى لا تكون جارحة ثقيلة.

يقول الإمام المزني ﷀ: سمعني الشافعي يوما وأنا أقول فلان كذاب. فقال لي: يا أبا إبراهيم أكس ألفاظك، أحسنها، لا تقل فلان كذاب، ولكن قل حديثه ليس بشيء»[٢٦].

الصحراء مهلكة، لكن من الجمال سمتها العرب: مفازة.

(٢٤) ذكره مالك في «**الموطأ**» (٢/ ٩٨٥)..

(٢٥) ديوان ابن الرومي (١/ ٣٠٧).

(٢٦) نقله السخاوي في «**فتح المغيث**» (١/ ٣٧١).



ومن لدغه عقرب يُسمى لديغا، لكن من الجمال سمته العرب: سليما.

وكل ما يُستحيا من ذكره تكني عنه بما يفهم منه المعني، فانظر إلى الجماع مثلا، يذكره الله في كتابه بأجمل الألفاظ، فلا يُصرح، فيقول سبحانه: ﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ﴾. سورة النساء (٢٣٧)

حتى إخراج الإنسان الأذى، يسمى «**قضاء الحاجة**».

وكذلك الأفعال، قد يكون الفعل جميلا لكن قد يرافقه ما يقبحه، فتقول يا ليته ما فعله.

الصدقة إحسان لكن إن كان معها منٌّ بطلت، وكانت إساءة لا إحسانا.

والعفو كذلك جميل وحسن، لكن إن كان معه عتاب فقد حسنه وجماله.

لذا الله يحب أن يكون صبرك جميلا، وهجرك جميلا، وصفحك وعفوك جميلا.

قال الله: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾. سورة المعارج (٥)

قال الله: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾. سورة المزمل (١٠)

وقال الله: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾. سورة الحجر (٨٥)

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «**الْهَجْرُ الْجَمِيلُ هَجْرٌ بِلَا أَذًى، وَالصَّفْحُ الْجَمِيلُ صَفْحٌ بِلَا عِتَابٍ، وَالصَّبْرُ الْجَمِيلُ صَبْرٌ بِلَا شَكْوَى**»[٢٧].

حتى تسريحك امرأتك (طلاقها) يحب الله منك أن يكون جميلا.

قال الله: ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾. سورة الأحزاب (٤٩)

تسرحها بالمعروف، لا تهضمها حقها، فلا تأخذ شيئا من مهرها، بل توفيها إياه، ولا تفرق بينها وبين ولدها، وتحفظ سرها، بل تحسن إليها فلا تطلقها ثلاثا حتى إن أرادت الرجوع لا تكون قد قطعت أملها فيك، وتعطيها متعتها بالمعروف حقا على المحسنين.

الجمال في كل شيء يحبه ربنا سبحانه، حتى وأنت تذبح تلك البهيمة، كن محسنا، سقها إلى الموت سوقا جميلا.

رأى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رَجُلًا يَجُرُّ شَاةً لِيَذْبَحَهَا، فَضَرَبَهُ بِالدِّرَّةِ، وَقَالَ: سُقْهَا - لَا أُمَّ لَكَ - إِلَى الْمَوْتِ سَوْقًا جَمِيلًا»[٢٨].

وأي جمال يكون في ذبح هذا الحيوان؟

---

(٢٧) أنظر مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٦٦).

(٢٨) أخرجه البيهقي في «**السنن الكبرى**» (٩/ ٤٧٢).





قـال النبـي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ**»[٢٩].

المؤمن لا يُقبح أحدا، إلا ما قبحه الشرع، ولا يدعو على أحد بالقبح.

تَجْمُل الحياة، ومن يحيون معنا الحياة إن نحن جَمّلناهم، ويقبح كل شيء إن نحن قَبّحناه.

انظر إلى أم زرع عندما أثنت على زوجها كيف كان من جميل إحسانه أن قالت: «**فَعِنْدَهُ أَقُولُ فَلاَ أُقَبَّحُ**»[٣٠].

تقول ما تقول أم زرع أمام أبي زرع فلا يقول له قبّح الله قولك، ولا يقول له: ما هذا القبح، بل كان كريما جميلا، حتى أنها قالت: «**وَبَجَّحَنِي فَبَجِحَتْ إِلَيَّ نَفْسِي**». أي عظّمها وأثنى عليها حتى عظمت في نفسها.

كان ﷺ ينهى عن تقبيح الناس، وخاصة زوجتك.

قال النبي ﷺ: «**لَا تَقُولَنَّ: قَبَّحَ اللهُ وَجْهَكَ**»[٣١].

وكانت وصية النبي ﷺ بالنساء: «**أَطْعِمُوهنَّ مما تأكلون، واكسوهُنَّ مما يكتَسُون، ولا تَضْربوهنَّ، ولا تُقبِّحوهُن**»[٣٢].

وهكذا يكون العبد المحب لربه الجليل الجميل، جمّل قوله، وجمّل ظاهره وباطنه، لأنه الله جميل يحب الجمال.

---

(٢٩) مسلم (١٩٥٥).

(٣٠) أخرجه البخاري (٥١٨٩)، ومسلم (٢٤٤٨).

(٣١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١٧٣)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (١٢٧).

(٣٢) أخرجه أبو داود في «سننه» (٢١٤٤)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح أبي داود» (١٨٦١).

وربك الأكرم

وينبت الحب ويُزهر بألطاف الإحسان وعظيم البر.
إذا كانتِ القلوبُ جبلتْ على حبِّ من أحسنَ إليهَا.
فواعجبًا لمنْ لا يَرى محسِنًا إلا اللهَّ! كيف لا يميلُ بكلِّيته إليه
الله هو الكريم الأكرم، الذي لا أكرم منه.
عظيم الفضل، الفضل كله لله، أسبغ على عباده نعمه ظاهرة وباطنة.
وكرمه لذاته، أي لكونه كريما، لا لأنك تستحق.
عندما أوجدك كان ذلك لأنه أهل لذلك لا لأنك أهل لذلك.
عندما يرزقك ويعافيك ويهديك، يفعل ذلك لأنه رب، لا لأنك تستحق ذلك عليه.
ولقد كرمنا بني آدم.
فماذا فعل الله بك؟ وماذا فعل الله لك؟ وماذا يريد الله لك؟

وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ



تعال أحدثك عني وعنك:

كنا عدما، لا شيء.. أراد الله خلق هذا الإنسان، ذاك المخلوق الكريم على الله.

في لحظة ما لم يكن ثمة إنسان.

قال الله: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا﴾. سورة الإنسان (١)

ثم شاء الله أن يخلق هذا الإنسان من تراب، من طين، من حمأ مسنون.

وخلقه يوم خلقه بيده، ثم نفخ فيه من روحه.

نعم بيده ومن روحه، أرأيت هذا التشريف وهذا التكريم.

ألم تسمع ما يقول خالقك: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ سورة الحجر

وما أن نفخ الله من روحه في آدم حتى عطس، فلما عطس آدم قال: الحمد لله، فقال له رب العالمين....

ماذا قال؟

أتدري أول كلمة سمعها أبوك آدم من ربه وخالقه؟.. قال له: يرحمك ربك يا آدم.

قال النبي ﷺ: «لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ وَنَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ عَطَسَ، فَقَالَ: الْحَمْدُ للهِ، فَحَمِدَ اللهَ بِإِذْنِ اللهِ، فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ: يَرْحَمُكَ رَبُّكَ يَا آدَمُ، اذْهَبْ إِلَى أُولَئِكَ الْمَلَائِكَةِ إِلَى مَلَإٍ مِنْهُمْ جُلُوسٍ، فَسَلِّمْ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، فَقَالُوا: وَعَلَيْكُمُ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللهِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى رَبِّهِ، فَقَالَ: هَذِهِ تَحِيَّتُكَ وَتَحِيَّةُ بَنِيكَ بَيْنَهُمْ»[1].

هكذا كلمه رب العالمين بلا واسطة، قائلا له يرحمك الله يا آدم.

ثم علّم آدم الأسماء كلها، أسماء كل شيء، فصار آدم عبدا مُعَلَّما، علمه ربه بكرمه ورحمته، ثم باهى به ملائكته.

قال الله: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٦١٦٧)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٦٨٣).



﴿يَاآدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ سورة البقرة

ثم أمر الملائكة بالسجود له تكريما تشريفا وتكريما.

الملائكة، هذا الخلق النوراني، الذين لا يعصون الله ما أمرهم، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، يسجدون لآدم، ذاك المخلوق من الطين، والذي يعلم الله أنه سيعصيه بعد كل هذا التكريم والتشريف.

قال الله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾. سورة البقرة (٣٤)

ثم خلق منه زوجته ليسكن إليها، ليأنس بها ولا يستوحش.

قال الله: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾. سورة الأعراف (١٨٩)

حتى السكن والأنس لآدم أنعم الله به عليه، فجعل له زوجة منه، خلقها منه، حتى يشعر دائما أنها قطعة منه.

ثم أسكنه وزوجته الجنة، وأباح له كل شيء فيها هنيئا دون كلفة أو مشقة، إلا شجرة واحدة.

إلا أن إبليس عدو الله وسوس لآدم وزوجته، وأقسم لهما أن هذه شجرة الخلد، فنسي آدم، وعصى ربه ومولاه.

إلا أن الكريم سبحانه أدركه بلطفه فألقى في رُوعه الندم والتوبة، فتاب إلى ربه، فتاب عليه.

ثم كان النزول إلى الأرض، إلى دار الشقاء، إلا أن رحمات ربنا لم تنقطع عن آدم وذريته.

قال الله: ﴿وَقُلْنَا يَاآدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾. سورة البقرة

فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ



قرية من قرى بني إسرائيل أصبحوا يوما فإذا فريق منهم قد صاروا قردة.

مسخهم الله من صورة الإنسان إلى صورة القرد، وكانت هذه عقوبة ربانية لتحايلهم على الشرع، أرادوا أن يخالفوا أمر الله الذي حرمه عليهم، وهو الصيد يوم السبت، فاتخذوا حيلة، فخادعوا الله، وهو خادعهم.

أحد العقوبات الربانية المسخ، تحويل الإنسان من صورته الجميلة الحسنة إلى صورة قبيحة، فمسخ الله قوما إلى قردة وخنازير، لأن من تكريم الله لهذا الإنسان تكريم أن خلقه في أحسن تقويم.

قال الله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾. سورة التين (٤)

كيف لا يُحب وقد خلقك في أحسن هيئة، وصورك في أحسن صورة، خلقك فسواك قائما منتصب الهيئة.

يقول الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝٦ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ سورة الانفطار

هل لك أن تلقي على نفسك نظرة لتعرف عظيم فضل الله عليك في خلقه لك.

كنا في لحظة من لحظات الحياة نطفة من ماء مهين، ثم شاء الله أن يخلق من هذا الماء المهين إنسانا جميلا في أحسن تقويم.

خلقك الله في مراحل، خلقا من بعد خلق.

لك أن تتخيل ملايين الحيوانات المنوية تتسابق فيما بينها لتلقيح البويضة، ثم يختار الله منها واحدا ليقوم بذلك.

يظل هذا السائل أربعين يوما، ثم يحوله الله إلى علقة، وهي قطعة دم متجمد تتعلق في قرار مكين، في جدار هذا الرحم، تحوطها عناية الله، وأنا أريدك أن تقرأ في عظمة خلق هذا الرحم، وكيف جعله الله قرارا مكينا آمنا يحفظك فيه وأنت في أضعف أحوال حياتك.

سورة تسمى بهذه المرحلة، سورة العلق، هي أول ما نزل من القرآن، يقول الله في أولها: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾. سورة القلم

هناك في رحم الأنثى، شيء معلق، سيكون بعد أشهر إنسانا تدب فيه الحياة، يخرج إلى الدنيا ليجادل في الله، ليقول بملئ فيه: لا إله لهذا الكون، هكذا هو الإنسان.

فمن الذي حفظه معلقا في جدار هذا الرحم؟





تظل هناك كذلك أربعين يوما أخرى، ثم يحول الله العلقة إلى مضغة، وهي قطعة من اللحم تشبه تلك القطعة من اللحم التي مضغتها بأسنانك، وتظل كذلك أربعين يوما.

ثم تنفخ فيه الروح، وتتحول هذه المضغة إلى عظام، ثم تكسى هذه العظام باللحم، ثم يصورك الله في أحسن صورة.

يقول الملك سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ الله أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ سورة المؤمنون

قال الملك: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾. سورة غافر (٦٤)

ثم أنشأناه خلقا آخر.. صرت خلقا لا يشبه سائر المخلوقات التي تراها بعينك.

صرت خلقا بديعا جميلا سويا، حسن الصورة، معتدل القامة، تنطق بالبيان.

جعل لك عينيك، لتبصر بهما جميل ما خلق، تميز بهما المرئيات، وتدرك بهما ألوان الأشياء.

جرب أن تغمض عينك لترى عظيم فضله.

هل رأيت يوما ضعيف البصر، أم هل رأيت يوما فاقد البصر، يبحث عن طريقه فيتعثر، أو يبكي شوقا أن يرى من يحب؟

تستشعر حينئذ لماذا سمى الله العينين بالحبيبتين، ووعد من صبر على فقدهما بالجنة، فقال سبحانه كما في الحديث القدسي: «**إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ فَصَبَرَ، عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الجَنَّةَ**»[٢].

جعل لك أذنين تسمع بهما كل مسموع، فتطرب أذنك لكلام الله.

فوالله من أعظم البلاء أن يُبتلى عبد بفقد سمعه، فلا يتنعم بسماع كلام رب العالمين.

هل رأيت يوما ضعيف السمع، أو فاقد السمع، جاءه ولده يتمنى أن يقول له أنه يحبه، لكنه لا يسمع، أو يحتاج للصراخ حتى فقط يفهم منه شيئا؟

هل تدري كم تساوي زراعة قوقعة أذن لطفل ضعيف السمع؟

أقل سعر علمته تقريبا ١٦٠ ألف جنيه، بل قد يحاول الأطباء، ويزرعون تلك القوقعة الثمينة، فلا يفلحون.

وأنت ربما لم يخطر على بالك يوما أن تقول: أحمدك يا ربي أن جعلتني سميعا.

تستشعر حينئذ قوله سبحانه: ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ الله فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾. سورة يونس (٣١)

أن أنشأك الله سميعا بصيرا، نعمة تستحق منك حبا وشكرا لربك طيلة عمرك.

(٢) أخرجه البخاري (٥٦٥٣).

يقول سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾. سورة المؤمنون (٧٨)

ثم من عظيم فضله أن جعل كل هذا بقدر، بمقدار لا يكدر عليك حياتك.

قال الملك: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾. سورة الفرقان (٢)

كل شيء بقدر معلوم، إن زاد أو نقص فاتت منفعته، وتكدرت على الإنسان حياته.

فجعلك ترى بعينك ما تستقيم به حياتك، فلو بصّرك بأكثر من ذلك لفسدت عليك دنياك.

تخيل: لو أن أمامك الآن كوب ماء بارد، وأنت في غاية الظمأ، أو طعام لذيذ تشتهيه، فرفعته إلى فيك، وفجأة تحول نظرك إلى منتهى الدقة كأنه ميكروسكوب، فرأيت تلك البيكتريا حتى ما تُسمى بالصديقة، أو الكائنات الدقيقة التي لا تُرى بالعين أمامك تتحرك، أكنت تستطيع الحياة.

وجعلك تسمع ما تستقيم به حياتك، فلو أسمعك كل شيء لمت من الهلع والفزع.

هل حضرت يوما جنازة، وهل رأيتها محمولة على أعناق الرجال، هذه صورة صماء بالنسبة لك، لكنها في الحقيقة ليست كذلك.

يقول النبي ﷺ: «**إِذَا وُضِعَتِ الجِنَازَةُ، فَاحْتَمَلَهَا الرِّجَالُ عَلَى أَعْنَاقِهِمْ، فَإِنْ كَانَتْ صَالِحَةً قَالَتْ: قَدِّمُونِي، قَدِّمُونِي، وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ صَالِحَةٍ قَالَتْ: يَا وَيْلَهَا، أَيْنَ يَذْهَبُونَ بِهَا؟ يَسْمَعُ صَوْتَهَا كُلُّ شَيْءٍ إِلَّا الإِنْسَانَ، وَلَوْ سَمِعَهَا الإِنْسَانُ لَصَعِقَ**»[٣].

هل مررت يوما على مقبرة، ذاك الصمت الرهيب، على غير الواقع، فلولا فضل الله لأسمعنا صيحات المعذبين وأنينهم، ولو سمعنا ذلك لما دفنا ميتا قط.

يقول النبي ﷺ: «**لَوْلَا أَنْ لَا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ اللهَ أَنْ يُسْمِعَكُمْ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ**»[٤]

ومن رحمته أن جعل عقلك ينمو رويدا رويدا، حتى يكتمل وأنت في الأربعين، فتخيل لو خلقك الله تام العقل، فكيف يكون حالك وأنت في حال المهد تعقل ما تفعل ويُفعل بك؟

هل نظرت يوما في أصابعك؟ ماذا لو كانت جميعها نفس الطول؟

ماذا لو طال أنفك أو طالت أذنك أو خرجت أنيابك كالسباع؟

ماذا لو كانت لك عين واحدة، أو ثلاث؟

ماذا لو طال ذراك حتى وصل إلى ركبتيك، كيف يكون منظرك؟

ماذا لو طالت رقبتك شيئا يسيرا؟

سبحان من جعل الإنسان في أحسن تقويم.

---

(٣) أخرجه البخاري (١٣٨٠).

(٤) أخرجه مسلم (٢٨٦٨).



وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ



كيف لا يُحب وهو من أنطقك، جعلك ناطقا.

فليس ثمة شيء ينطق إلا والله من أنطقه، ففي يوم القيامة ستنطق الأرض، وتنطق الجلود، فيتعجب العصاة.

قال الله: ﴿وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا الله الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾. سورة فصلت (٢١)

ثم ليس نطقا فحسب، فربما نطق الإنسان بما لا يُفهم، فكان من رحمات الله أن علم الإنسان البيان، علمك كيف تُبين عما في داخلك، فتنطق بكلام يفهم منك.

قال الله: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤﴾ سورة الرحمن

ثم لغات عدة، ألسنة مختلفة، لكل قوم لسان، حتى أوصلها بعض الباحثين إلى قريب من سبعة آلاف لغة.

قال الله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾. سورة الروم (٢٢)

هذا اللسان نعمة عظيمة، آلة عجيبة، مجموعات عضلية وعصبية، يتحرك مع خروج الصوت، حركات مختلفة، فتخرج الحروف، فتجد لكل حرف مخرجا، وصفات تميزه عن غيره، أمر يعجز عن الوصف.

عندنا في هذه الشريعة العظيمة في اللسان دية كاملة، وفي الشفتين دية كاملة.

فلو أن رجلا قطع لسان إنسان فأفقده النطق لكان عليه دية كاملة، مئات الألوف، لأنه أفقده نعمة النطق.

انظر إلى عظم البيان الذي تسمعه من بليغ يذكرك بالله، أو يطرح عليك أعجوبة أدبية، أو يشرح لك مقطوعة علمية، فتفهم ما كان مغلقا، كل هذا رحمة من رحمات الملك.

ثم ليس فقط النطق والبيان، بل حتى هذا التذوق، الذي لولاه لاستوى عندك طعم كل شيء.

عندما تأكل ثمرة ثم تجد لها طعما جميلا، ثم أخرى لها طعم آخر، وثالثة ورابعة.

انظر إلى هذا المريض الذي أفقده مرضه طعم كل شيء، فتجده لا يشعر بلذة الطعام فلا يشتهيه، حتى استوى عنده كل شيء.

فهذا من فضله عليك، فهل شكرته يوما على ذلك؟

لذا قال الله ممتنا على هذا الإنسان فقال: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩﴾ سورة البلد

وجعل لك نعمة الشم، فتفرق بين الطيب من الروائح والخبيث، فتنعم بما طاب ريحه، وتنأى عما نتن ريحه وخبث.

تصور: لو فقد إنسان نعمة الشمّ كيف يكون حاله؟





نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ



في تلك السورة العظيمة التي تحمل اسم «**الإنسان**»، ابتدأها الله بمنته على إيجاد الإنسان من العدم، ثم هدايته السبيل إليه.

وفي آخر السورة يعود فيُذَكِّرُك مرة أخرى بمنته في إحسان خلقه، فيقول: ﴿نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ﴾. سورة الإنسان (٢٨)

شدُّ الأسر: هو نعمة شدّ العظام بعضها ببعض، وربط الأعضاء والمفاصل بالأعصاب ربطا عجيبا متقنا.

من أعظم أبواب المحبة أن تتفكر في بديع وجميل خلق الله لك.

هذا الجسد الذي في كل ذرة منه آية تدلك على الله، تكاد خلايا جسدك تنطق شاهدة بربوبية ملك عليم حكيم عظيم رحيم

تحار وأنت تنظر في بديع خلق الله للعظام، وتناسقها، وكيف قام الجسد بها أتم قيام وأحسنه.

٢٠٦ من العظام التي تشمل الجسد كله، كل عظمة مغطاة بغشاء، وبين كل عظمتين مفصل، يربط هذه بتلك، حتى تتحرك العظام بمنتهى الانسيابية، وأنواع من المفاصل المختلفة، كل مفصل يناسب الوظيفة المنوطة بهذه العظام، وسائل رقيق يمنع الخشونة حتى لا تحتك العظام فتتآكل، ويحدث الألم.

ثم من جميل خلقه أن يجعل العظام كالحافظة لأعضاء الجسد، فيجعل الجمجمة لحفظ المخ، والقفص الصدري لحفظ القلب والرئتين، وهكذا.

أدعوك حقا أن تزور طبيبا مختصا بالعظام، قل له حدثني عن عظام الجمجمة، والعمود الفقري، وعظام القفص الصدري، وسائر العظام، وأنا أضمن لك أن تخرج من عنده وقد ملَك إحسان الكريم عليك قلبك.

تعجز الكلمات عن الوصف، لكن إليك كلام أبي الشيخ الأصبهاني ﵀ في كتابه «**العظمة**»، **والذي يتحدث فيه عن عظمة الملك جل جلاله، يقول: قَالَ اللهُ ﷻ** ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] **فَإِذَا تَفَكَّرَ الْعَبْدُ فِي ذَلِكَ اسْتَنَارَتْ لَهُ آيَاتُ الرُّبُوبِيَّةِ، وَسَطَعَتْ لَهُ أَنْوَارُ الْيَقِينِ، وَاضْمَحَلَّتْ عَنْهُ غَمَرَاتُ الشَّكِّ، وَظُلْمَةُ الرَّيْبِ، وَذَلِكَ إِذَا نَظَرَ إِلَى نَفْسِهِ وَجَدَهَا مُكَوَّنَةً مَكْنُونَةً مَجْمُوعَةً مُؤَلَّفَةً مُجَزَّأَةً مُنَضَّدَةً مُصَوَّرَةً مُتَرَكِّبَةً بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ، فَيَعْلَمُ أَنَّهُ لَا يُوجَدُ مُدَبَّرٌ إِلَّا بِمُدَبِّرٍ، وَلَا مُكَوَّنٌ إِلَّا بِمُكَوِّنٍ، وَتَجِدُ تَدْبِيرَ الْمُدَبِّرِ فِيهِ شَاهِدًا دَالًّا عَلَيْهِ كَمَا تَنْظُرُ إِلَى حِيطَانِ**



الْبِنَـاءِ، وَتَقْدِيرِهَـا، وَإِلَى السَّـقْفِ الْمُسَـقَّفِ فَوْقَـهُ بِجُذُوعِـهِ، وَعَوَارِضِـهِ، وَتَطْيِـينِ ظَهْـرِهِ، وَنَصْـبِ بَابِـهِ، وَإِحْكَامِ غَلْقِـهِ، وَمِفْتَاحِـهِ لِلْحَاجَـةِ إِلَيْـهِ. فَـكُلُّ ذَلِـكَ يَـدُلُّ عَـلَى بَانِيـهِ، وَيَشْـهَدُ لَـهُ، فَكَذَلِـكَ هَـذَا الْجِسْـمُ إِذَا نَظَـرْتَ إِلَيْـهِ، وَتَفَكَّـرْتَ فِيـهِ وَجَـدْتَ آثَـارَ التَّدْبِـيرِ فِيـهِ قَائِمَـةً شَـاهِدَةً لِلْمُدَبِّـرِ دَالَّـةً عَلَيْـهِ، فَقَـدْ أَيْقَـنَ الْخَلَائِـقُ كُلُّهُـمْ أَنَّهُـمْ لَمْ يَكُونُـوا مِـنْ قَبْـلُ شَـيْئًا، وَلَا كَانَ لَهُـمْ فِي الْأَرْضِ أَثَـرٌ وَلَا ذِكْـرٌ، فَصَـارُوا، وَهُـمْ لَا يَشْـعُرُونَ أَنْفُسًـا مَعْرُوفَـةً مُصَـوَّرَةً مُجَسُـومَةً، قَـدِ اجْتَمَعَـتْ فِيهَـا جَـوَارِحُ، وَأَعْضَـاءٌ بِمِقْـدَارِ حَاجَتِهِـمْ إِلَيْهَـا لَمْ يَـزِدْ لَهُـمْ عَـلَى ذَلِـكَ، وَلَمْ يَنْقُـصْ مِنْهَـا مِـنْ قَطْـرَةِ مَـاءٍ لُحُومًـا مُنَضَّـدَةً، وَعِظَامًـا مُتَرَكِّبَـةً بِحِبَـالِ الْعُـرُوقِ، وَمَشْـدُودَةً بِجِلْـدٍ مَتِـينٍ مُـوَفًّى لَحْمُـهُ وَدَمُـهُ مَـا قَـدْ رُكِّبَـتْ فِيـهِ مِائَتَـانِ وَثَمَانِيَـةٌ وَأَرْبَعُـونَ عَظْـمًا، وَشُـدَّتْ بِثَـلَاثِ مِائَـةٍ وَسِـتِّينَ عِرْقًـا فِيهَـا بَلَغْنَـا لِلِاتِّصَـالِ، وَالِانْفِصَـالِ، وَالْقَبْـضِ، وَالْبَسْـطِ، وَالْمَـدِّ، وَالضَّـمِّ، وَيَجْعَـلُ فِيـهِ تِسْـعَةَ أَبْـوَابٍ لِحَاجَتِـهِ إِلَيْهَـا، فَمِنْهَـا أُذُنَـاهُ الْمَثْقُوبَتَـانِ لِحَاجَـةِ السَّـمْعِ قَـدْ جُعِـلَ مَاؤُهُمَـا مُـرًّا لِئَـلَّا يَلِـجَ فِيهَـا دَابَّـةٌ، فَتَخْلُـصَ إِلَى الدِّمَـاغِ، وَذَلِـكَ الْمَـاءُ سُـمٌّ قَاتِـلٌ، وَعَيْنَـاهُ لِحَاجَـةِ الرُّؤْيَـةِ مِصْبَاحَـانِ مِـنْ نُـورٍ مُرَكَّبَـانِ فِي لَحْـمٍ وَدَمٍ، وَقَـدْ جُعِـلَ مَاؤُهُمَـا مَالِحًـا لِئَـلَّا يُفْسِـدَهُمَا حَـرَارَةُ النَّفَـسِ بِالنَّفَـسِ، وَلَا يَذُوبَـانِ لِأَنَّـهُ شَـحْمٌ، وَمَنْخِـرَاهُ الْمَثْقُوبَتَـانِ لِحَاجَـةِ الشَّـمِّ، وَالنَّفَـسِ، وَإِلْقَـاءِ مَـا يَجْتَمِـعُ فِي رَأْسِـهِ مِـنْ قَـذَرِ الْمُخَـاطِ، وَفُـوهُ الْمَشْـقُوقُ لِحَاجَـةِ التَّنَفُّـسِ وَالْكَلَامِ وَالْأَكْلِ وَالشُّـرْبِ، قَـدْ جُعِـلَ مَـاؤُهُ عَذْبًـا لِيَجِـدَ لَـذَّةَ الْمَطَاعِـمِ وَطَعْـمَ الْمَذَاقَـاتِ، مُرَكَّبَـةٌ فِيـهِ الْأَسْـنَانُ لِحَاجَـةِ الْمَضْـغِ مِـنْ أَعْـلَى وَأَسْـفَلَ، كَحَجَـرَيْ رَحًـى يَطْحَنَـانِ الطَّعَـامَ بَيْنَهُـمَا، دُونَهُـمَا مَجْـرَى الطَّعَـامِ وَالشَّـرَابِ حَتَّـى يَسُـوقَ إِلَى الْمَعِـدَةِ، وَهِـيَ كَالْقِـدْرِ فِي الْجَـوْفِ قَـدْ وُكِّلَـتْ بِهَـا نَـارٌ تُنْضِجُـهُ فِيهَـا، وَهِـيَ الْكَبِـدُ بِدَمِهَـا، قَـدْ وُكِّلَـتْ بِذَلِـكَ الطَّعَـامِ أَرْبَـعٌ مِـنَ الرِّيَـاحِ رِيـحٌ تَسُـوقُهُ مِـنَ الْفَـمِ إِلَى الْمَعِـدَةِ، وَرِيـحٌ تُمَسِّـكُهُ فِي الْجَـوْفِ إِلَى أَنْ يَصِـلَ نَفْعُـهُ إِلَى الْبَـدَنِ، وَرِيـحٌ تَـصْرِفُ صَفْوَتَـهُ فِي الْعُـرُوقِ كَـمَا يُطْـرَدُ الْمَـاءُ فِي الْأَنْهَـارِ، وَرِيـحٌ تَدْفَـعُ ثِقَلَـهُ وَفَضْلَـهُ، وَذَلِـكَ حِـينَ يَجِـدُ فِي جَوْفِـهِ تَجْرِيـدَ الْخَـلَاءِ وَالْبَـوْلِ، وَقُبُلُـهُ وَدُبُـرُهُ لِحَاجَتِـهِ إِلَى طَـرْحِ ذَلِـكَ الْفَضْـلِ، وَكُلُّ وَاحِـدٍ مِنْهُـمَا عَـوْنٌ عَـلَى شَيْءٍ مِـنَ الْأَشْـيَاءِ الَّتِـي بِهَـا تُنَـالُ اللَّـذَّاتُ، وَتُـدْرَكُ الطَّلَبَـاتُ، وَتَحْيَـى النَّفْـسُ، وَيَطِيـبُ الْعُمُـرُ، وَلَـوْ نَقَـصَ مِنْهَـا لِامْـرِئٍ عُضْـوٌ أَوْ جَارِحَـةٌ لَطَفِـقَ مَنْقُـوصَ الْحَـظِّ مِـنْ شَـهْوَتِهِ، وَعَاجِـزًا عَـنْ إِدْرَاكِ بُغْيَتِـهِ، وَلَـوْ زَادَ فِيهَـا لَضَرَّتْـهُ الزِّيَـادَةُ وَتَـأَذَّى بِهَـا وَأَظْهَـرَتْ فِيـهِ عَجْـزًا كَـمَا يُظْهِـرُهُ النَّقْـصُ مِنْهَـا، وَإِنْ خَـصَّ اللهُ عَبْـدًا بِنُقْصَـانٍ أَوْ زِيَـادَةٍ فِي عُضْـوٍ أَوْ جَارِحَـةٍ فَذَلِـكَ دَلِيـلٌ عَـلَى ابْتِلَائِـهِ وَاخْتِبَـارِهِ وَتَعْرِيـفِ مَـنْ خَلَقَـهُ سَـوِيًّا فَضْـلَ إِنْعَامِـهِ وَإِحْسَـانِهِ، وَقَـدْ عَلِـمَ الْمَخْلُـوقُ أَنَّـهُ مُدَبَّـرٌ، وَأَنَّ لَـهُ خَالِقًـا هُـوَ مُدَبِّـرٌ لِأَنَّـهُ وَجَـدَ الْعَيْـنَ مُدَبَّـرَةً لِلْبَـصَرِ، وَلَوْلَاهَـا لَـكَانَ لَا يَقْـدِرُ عَـلَى النَّظَـرِ، وَلَا يَـرَى الدُّنْيَـا، وَلَا عَجَائِبَهَـا، وَلَا يُفَـرِّقُ بَـيْنَ الْحَسَـنِ وَالْقَبِيـحِ فِيهَـا، وَالْأُذُنَ تَسْـتَمِعُ، وَلَوْلَاهَـا لَـكَانَ لَا يَقْـدِرُ عَـلَى سَـمْعِ كَلَامِـهِ لَا يَسْـمَعُ كَلَامًـا، وَلَا حِسًّـا، وَلَا هَمْسًـا، وَلَا يَسْـتَفِيدُ أَدَبًـا، وَلَا عِلْـمًا، وَلَا يُـدْرِكُ قَضَـاءً وَلَا حُكْـمًا، وَالْأَنْـفَ لِلشَّـمِّ، وَلَـوْلَاهُ لَـكَانَ لَا يَتَلَـذَّذُ بِاسْتِنْشَـاقِ طِيـبٍ، وَلَا بِنَسِـيمِ رِيـحٍ، وَلَا يُمَيِّـزُ بَـيْنَ دَوَاءٍ نَافِـعٍ، وَسُـمٍّ قَاتِـلٍ، وَالْفَـمَ مُشْرَعًـا إِلَى مَـا اسْـتَبْطَنَ مِنْـهُ بِـهِ يَنْـزِلُ الطَّعَـامُ وَالشَّـرَابُ، وَيَصْعَـدُ النَّفَـسُ وَالْكَلَامُ، وَلَـوْلَاهُ مَـا ذَاقَ طَعْـمَ الْحَيَـاةِ، وَلَا تَخَلَّـفَ سَـاعَةً عَـنْ مَنْهَـلِ الْأَمْـوَاتِ، وَاللِّسَـانَ لِلنُّطْـقِ، وَلَـوْلَاهُ لَـكَانَ لَا يَقْـدِرُ عَـلَى دُعَـاءٍ، وَلَا نِـدَاءٍ، وَلَا عَـلَى نَجْـوًى، وَلَا عَـلَى طَلَـبِ شَيْءٍ ابْتَغَـى أَوِ اشْـتَهَى، وَلَا عَـلَى شَـكْوَى أَوْ وَصْـفِ بَلْـوَى، وَالْيَـدَ لِلْبَطْـشِ، وَلَوْلَاهَـا لَـكَانَ لَا يَسْـتَطِيعُ قَبْضًـا، وَلَا بَسْـطًا، وَلَا تَنَـاوُلًا، وَلَا دَفْعًـا، وَلَا تَلَقِّـيًا، وَلَا حَـكًّا، وَالرِّجْـلَ لِلْمَـشْيِ، وَلَوْلَاهَـا كَانَ لَا يَخْطُـو، وَلَا يَنْهَـضُ، وَلَا عَـنْ مَـكَانٍ إِلَى مَـكَانٍ يَنْتَقِـلُ، وَالْفَـرْجُ مَعِـينُ الشَّـهْوَةِ، وَنَهْـجٌ لِلنُّطْفَـةِ، وَلَـوْلَاهُ لَـكَانَ لَا يُوجَـدُ لَـهُ



نَسْلُ، وَلَا يُرَى لَهُ عَقِبٌ، وَسَبِيلُ سَائِرِ الْجُوَارِحِ الَّتِي لَمْ نَصِفْهَا بِسَبِيلِ مَا قَدْ أَتَى وَصْفُنَا عَلَيْهِ مِنْهَا، وَفِي التَّفَكُّرِ فِي الْأَمْعَاءِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْهَوَاءِ، وَالدِّمَاغِ، وَالْعَصَبِ وَالشَّوَى اللَّاتِي مِنْهَا مَا هِيَ بِمَجَارِي الْأَطْعِمَةِ، وَالْأَشْرِبَةِ، وَالْأَغْذِيَةِ، وَمِنْهَا مَا هِيَ مَقَاطِنُ الرُّوحِ وَالنَّفْسِ وَالْعَقْلِ وَالْحِلْمِ وَالْجَهْلِ وَالْعِلْمِ وَالْحُذْقِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَفِي رَحِمِ الْمَرْأَةِ الَّذِي يَقَعُ فِيهِ الْمَاءُ الدَّافِقُ وَيَخْرُجُ مِنْهُ الْخَلْقُ الْكَامِلُ، وَفِي الْمَفَايِحِ الَّتِي يَجْرِي فِيهَا الدَّمُ وَالنَّفَسُ، وَالَّتِي يَنْزِلُ عَلَيْهَا مِنَ الْأُنْثَى لِلْوَلَدِ، وَالَّتِي تَنْشَقُّ مِمَّا يَدْخُلُ الْجَوْفَ مَا تَحْيَى بِهِ النَّفْسُ، وَيَرْبُو عَلَيْهِ الْجِسْمُ، وَالَّتِي يَخْرُجُ بِهَا مَا تَقْضُمُهُ الْمِعِدَةُ مِمَّا لَوْ بَقِيَ فِيهَا لَقَتَلَ صَاحِبَهَا الشِّدَّةُ، وَفِي وُرُودِ الرُّوحِ الْبَدَنَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُرَى مِنْ أَيْنَ وَرَدَ؟ أَوْ كَيْفَ حَدَثَ؟ وَصُدُورِهِ عَنْهُ بِلَا أَنْ يُعْلَمَ كَيْفَ صَدَرَ؟ وَأَيْنَ ذَهَبَ؟ ثُمَّ إِنَّ الْخَلْقَ جَمِيعًا عَلَى سَبِيلَيْنِ ذُكُورٍ وَإِنَاثٍ، وَالْأَنَامُ طُرًّا عَلَى نَوْعَيْنِ: رِجَالٍ وَنِسَاءٍ، وَإِنَّ جَوَارِحَ كُلِّ أَحَدٍ عَلَى مِثَالِ غَيْرِهِ، وَصُورَةً كُلِّ وَاحِدٍ تَخْتَلِفُ عَنْ صُورَةِ غَيْرِهِ، فَأَيُّ دَلِيلٍ لِمُدَّعِي حَقٍّ فِي دَعْوَاهُ أَوْضَحُ مِمَّا وَصَفْتُ؟ وَأَيُّ حُجَّةٍ لَهُ أَوْكَدُ مِمَّا أَحْضَرْتُ؟ أَلَا يَعْلَمُ الْمُعَطِّلُ الشَّقِيُّ الْجَاهِلُ الْغَوِيُّ حِينَ لَمْ يَكُنْ لِنَفْسِهِ فِي خَلْقِهِ صُنْعٌ، وَلَا عَرَفَ لَهَا فِي الْأَرْضِ صَانِعًا أَنَّ مِثْلَ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ الْمُتَّفِقَةِ الْمُنْتَظِمَةِ الْمُلْتَأَمَةِ الْمُتَشَاكِلَةِ الْمُجْتَمِعَةِ فِي خَلْقٍ وَاحِدٍ، وَكُلُّ أَحَدٍ سَبِيلُهُ سَبِيلُ ذَلِكَ الْوَاحِدِ، وَمَثَلُ هَذِهِ الْعَجَائِبِ الَّتِي يُعْجِزُ عِلْمُ كَوْنِهَا فَضْلًا عَنْ إِحْدَاثِ مِثْلِهَا لَا تَتَكَوَّنُ مِنْ ذَاتِهَا، وَلَا يَسْتَطِيعُهُ إِلَّا حَكِيمٌ قَدِيرٌ عَلَى إِنْشَائِهَا»(٥).

(٥) اهـ العظمة لأبي الشيخ (١/ ٢٧٩).



ومعنا عقولنا؟



هل رأيت يوما ما إنسانا مجنونا فقد عقله؟

أم هل رأيت يوما ما إنسانا كأنه فقد عقله؟

عندما نقرأ في التاريخ عن أحداث بشعة، كثر فيها القتل، حتى كانوا بالملايين، مثل ما حدث في عصور الظلام، أو أيام الحرب العالمية، تتسائل كيف حدث ذلك؟

أخبر النبي ﷺ، عن زمان يكثر فيه القتل، حتى يقتل الرجل جاره وأخاه وعمه وابن عمه.

فقال الصحابة حينئذ: يا رسول الله، ومعنا عقولنا يومئذ؟

فقال ﷺ: «**إِنَّهُ لَتُنْزَعُ عُقُولُ أَهْلِ ذَلِكَ الزَّمَانِ، وَيُخَلَّفُ لَهُ هَبَاءٌ مِنَ النَّاسِ، لَا عُقُولَ لَهُمْ، يَحْسِبُ أَكْثَرُهُمْ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ، وَلَيْسُوا عَلَى شَيْءٍ**»(٦).

كيف لا يُحب، وقد وهبك الله عقلا، لولاه لكنت مجنونا.

إن أردت أن تعرف عظيم هذه النعمة، أدعوك لزيارة لمستشفى الأمراض العقلية، عافانا الله وإياك والمسلمين من كل سوء

كنت صغيرا أرى رجلا كبيرا عظيم البنيان، تراه من بعيد تخافه، وفجأة يتحول هذا الرجل الضخم إلى ألعوبة يلعب بها الصبيان، يجرون خلفه، وهو يصيح مرة، ويضحك أخرى، ويسب ثالثة، وفجأة يتعرى كما وُلد، فكنت أسأل: ما له هذا الرجل؟ فقيل لي: إنه مجنون.

شيء لا تراه، لَمَّا فقده الإنسان جعله خلقا آخر، لا يميز ما ينفعه مما يضره، ولا ما يعيبه مما يعيبه، ولا ما يستره مما يظهره.

ثم انظر إلى بديع خلق الله فيه، إذا كيف يحفظ الإنسان مليارات من المواقف والصور والمعلومات، ثم يستحضرها إن شاء في جزء من الثانية كأنها تعرض أمام عينه.

وانظر إلى كل هذه المعارف التي وصلت إليها عقول بني الإنسان، في شتى مجالات الحياة، كلها هبات الله أودعها هذه العقول.

ما من اعتقاد، ولا فعل، ولا قول، إلا وأصْلُه فكرةٌ جالت في هذا العقل، ثم نطق بها اللسان، أو قامت بها الجوارح، أو استقرت في القلوب.

(٦) أخرجه أحمد في «المسند» (١٩٤٩٢)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٩٤٩).

وهذا العقل مناط التكليف، فقد رفع الله القلم عن المجنون حتى يفيق.

وخاطب الله بآياته أولي الألباب والعقول.

فتجد عشرات الآيات يقول الله فيها: «**لعلكم تعقلون**»، «**إن كنتم تعقلون**»، «**أفلا تعقلون**»، «**إنما يتذكر أولو الألباب**».

وحرم الله كل ما من شأنه أن يذهب بالعقول، فحرم الخمر، وما شابهها مما يذهب العقل ويغيبه.

بل لعن الله لأجل هذه الخمر عشرة.

نزل جبريل على النبي ﷺ فقال له: «**يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَعَنَ الْخَمْرَ، وَعَاصِرَهَا، وَمُعْتَصِرَهَا، وَشَارِبَهَا، وَحَامِلَهَا، وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ، وَبَائِعَهَا، وَمُبْتَاعَهَا، وَسَاقِيَهَا، وَمُسْتَقِيَهَا**»[٧].

هذا العقل أحد وظائف القلب.

قال الله: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾. سورة الحج (٤٦)

منافذ العلم والبصيرة السمع والبصر والفؤاد.

قال الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾. سورة المؤمنون (٧٨)

جعل الله لك سمعا لتسمع به كلامه، تسمع الحقائق فتنقلها إلى القلب.

وجعل لك عينا، لترى آيات الله المشهودة فتنقلها إلى القلب.

ثم القلب يعقل الحق من الباطل.

هذا إن كان القلب متجردا، قلب أجرد، ليس فيه ميل، فإن كان مائلا زائغا، ضل العبد وإن كان سميعا بصيرا عاقلا.

يختم الله على سمعه وقلبه، ويجعل على بصره غشاوة، فأنى له الهدى.

قال الله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾. سورة الجاثية (٢٣)

---

(٧) أخرجه أحمد في «**المسند**» (٢٨٩٧)، وصححه الشيخ الألباني في «**إرواء الغليل**» (٨٣٩).

الغني الكريم الجواد
ذو الفضل العظيم



أسبغ على خلقه نعمه ظاهرة وباطنة،
لا تُعد ولا تُحصى.

لكم.. لام الحب



كم تؤثرني كلمة «**لكم**».

إنها لام الحب.

عندما يقول أب لولده، أو زوج لزوجته، فعلت هذا لك، إنه خصك به، جاء به لأجلك، ألا يغرس هذا الحب بقلبك؟

تقرأ القرآن فيملأُ الحب قلبك من كثرة هذه المنن، وكلها مشفوعة بقوله: «**لكم**».

تقرأ فتراه يقول سبحانه: «**خلق لكم - جعل لكم - سخر لكم - ينبت لكم - ذرأ لكم - أنشأ لكم - يزجي لكم - رزقا لكم - متاعا لكم - اصطفى لكم - شرع لكم - أكمل لكم - بين لكم - فصل لكم**».

كم أنت كريم على الله أيها الإنسان، حتى يخلق لأجلك:

خلق لك ما في الأرض جميعا، فقال الملك: ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾. سورة البقرة (٢٩)

أرأيت كل ما على هذه الأرض، مما لا يمكن عده وحصره، خلقه الله لك، لأجلك، لمنفعتك، مكنك منها، سخره لك، وجعل لك فيها ما تقوم به حياتك، حتى تعيش عيشة هنية لا كدر فيها.

قال الكريم: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِى الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾. سورة الأعراف (١٠)

قال الكريم: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِى فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾. سورة الحج (٦٥)

بل حتى جو السماء سخره الله لك أيها الإنسان، وأسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة.

قال الكريم: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾. سورة لقمان (٢٠)

قال الله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِى السَّمَاوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾. سورة الجاثية (١٣)

خلق لأجلك زوجا تسكن إليها، وتسكن إليك، حتى لا تستوحش.

حتى استيحاشك لم ينسه، حتى أُنْسُك دبَّره لك.





قال الكريم: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾. سورة الروم (٢١)

ولأجلك رزقك بالأولاد، بنين وحفدة، حتى أحفادك نعمة من الله عليك إذ أطال في عمرك فمتعك بهم في حياتك.

قال الله: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾. سورة النحل (٧٢)

جعل لأجل الأرض بساطا كالفراش المنبسط، ذلولا مسخرة، وجعل لأجلك فيها السبل الممهدة، وجعل السماء كالسقف لها، مبنية بناء إحكام.

ولأجلك يرسل الرياح فتسوق السحاب، فينزل الغيث، فيخرج به من كل الثمرات، رزقا لك، ومتاعا لك ولأنعامك.

قال الكريم: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. سورة البقرة (٢٢)

قال الكريم: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٣﴾﴾ طه

قال الكريم: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾. سورة الملك ١٥

قال الكريم: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾﴾ سورة نوح

قال الكريم: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٢﴾﴾ سورة عبس

ولأجلك سخر لك الأنعام، كلها منافع، تحملك إلى حيث تشاء، ولولا أنه سخرها لك لما استويت على ظهرها.

وأجرى لك فيها رزقا فتشرب من لبنها، وتأكل من لحمها، وتلبس من صوفها وجلدها.

بل لأجلك جمّلها لك، فتنعم بها ناظريك فلا تستوحش عند النظر إليها.

قال الله: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾

سورة النحل





قال الله: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ سورة المؤمنون

قال الله: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٢﴾ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ سورة الزخرف

ولأجلك سخر الشمس والقمر، ولأجلك سخر البحار والأنهار.

قال الكريم: ﴿الله الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾﴾ سورة إبراهيم

ولأجلك أنزل الماء من السماء، أنزل ماء طهورا فأحياك به، وأنبت به الكلأ والعشب فترعى فيه دوابك وأنعامك.

وأنبت لك به الزرع والزيتون، وجنات النخيل والأعناب، وفواكه كثيرة متنوعة، ومن كل الثمرات.

ونوع لأجلك ألوان الطعام والفواكه، فلا تمل من صنف واحد.

وسخر البحر لك لتأكل منه لحما طريا، وتستخرج منه حُليا زينة لأجلك، حتى زينتك وزينة زوجتك أنعم بها عليك.

قال الله: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾﴾ سورة النحل

قال الكريم: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْآكِلِينَ ﴿٢٠﴾﴾ سورة المؤمنون

وإن ركبت سفينتك فحملتك وسط أمواج البحار، فاعلم أن الله هو من حملك، وهو من سيرها برحمته.

قال الله: ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾. سورة الإسراء (٦٦)

ومن رحمته به، ولأجلك جعل الليل سكنا، ثم يلقي عليك النوم حتى تهدأ روحك، ويسكن جسدك المنهك طيلة النهار، ولأجلك يزيل برحمته ظلام الليل، ويأتي بنور الصباح، فتسعى على معاشك.



قال الله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾. سورة يونس (٦٧)

قال الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا﴾. سورة الفرقان (٤٧)

قال الله: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. سورة القصص (٧٣)

ولأجلك جعل لك النجوم لتهتدي بها في سبيلك في ظلمات البر والبحر.

قال الكريم: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾. سورة الأنعام (٩٧)

ولأجلك جعل لك بيتا تسكن فيه، هدى الإنسان كيف يبني له بيتا يأوي إليه.

وهدى الإنسان كيف يصنع بيتا صغيرا من جلود الأنعام، ينصبه في سفره يتقي به البرد والحر.

ولأجلك جعل لك صوف الأغنام وجلود الإبل، وجلود الماعز فراشا وأثاثا تنعم به في بيتك.

ولأجلك خلق لك ظلا يسترك من حر الشمس، وجعل لك الثياب تستر بها عورتك، وتقيك الحر والبرد.

كل هذا لعلك تسلم لرب العالمين، تخضع وتنقاد له وحده.

قال الكريم: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾﴾

ولأجلك علَّمَك كيف تصنع ما تتقي به ضربات عدوك.

قال الله: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ﴾. سورة الأنبياء (٨٠)

وهذا الدين القويم المحكم، وهذه الأحكام الربانية العادلة الرحيمة، وهذه الآداب السامية العظيمة، شرعها لك، وأتمها لأجلك

قال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾. البقرة (١٣٢)

قال الله: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾. سورة المائدة (٣)

قال الله: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾. سورة الشورى (١٣)



وعندما تتلو آيات الله فتجدها في غاية البيان والوضوح، فاعلم أن هذا التبيين كان لك، لأجلك، حتى تكون على نور وهدى، حتى لا تضل.

قال الرحمن الرحيم: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ الله لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾. سورة آل عمران (١٠٣)

قال الله: ﴿يُبَيِّنُ الله لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا﴾. سورة النساء (١٧٦)

فصَّل لك الحلال من الحرام، فلا يلتبس الأمر إلا على زائغ.

قال الملك: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾. سورة الأنعام (١١٩)

إيمانك به، وصلاتك وصيامك وصدقاتك وطاعاتك، كلها لك لا له، فهو الغني وأنت أحوج ما يكون لتسجد بين يديه، وأفقر ما يكون لتتعبد له.

قال الله: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾. سورة النساء (١٧٠)

قال الغني الكريم: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. سورة البقرة (١٨٤)

قال الرحمن: ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. سورة البقرة (٢٨٠)



إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ



كل ما سبق من نعم ربك، وما ترى حولك من عطايا، هي محض فضل الله، تفضل بها على خلقه كرما منه وفضلا.
وهب كل ذلك لخلقه، لا لأنهم يستحقون، ولا لأنه يريد منهم مثوبة، وإنما لأنه رب العالمين ذو الفضل العظيم.
قال الله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾. سورة النمل (٧٢)
إن كان للعبد حق عند ربه فلأن الله أوجبه على نفسه، لا لأنه واجب عليه.
فأنت وما تملك ملك له، وأنت وأعمالك محض توفيقه وعونه.
الله هو المنان، لا منة لأحد عليه، بل لله المن والفضل.
عندما تحدثك نفسك أن ما أنت فيه من خير، سواء كان من أمر الدنيا أو أمر الدين، فقل لنفسك: وما أنت دون الله؟
فلولا فضله لهلكت، ولولا فضله لفسدت الأرض.
قال الله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾. سورة النساء (٨٣)
قال الله: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾. سورة البقرة (٢٥١)
فإن وجدت قلبك لا يتعلق إلا بالله، وإن وجدت قلبك لا يرى ولا يشهد بعبودية غير الله فاعلم أنه محض فضله عليك.
هذا يوسف الصديق، يقول وهو في السجن: ﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾. سورة يوسف (٣٨)
وإن وجدت نفسك قد هُديت إلى الصرط المستقيم، فاعلم أنه محض منة الله عليك وفضله، ولولاه لضللت.
قال الله لنبيه محمدا ﷺ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ الله عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾. سورة النساء (١١٣)
وإن وجدت نفسك قد طهرت من خبث، فاعلم أنه لولا فضل الله ما زكت نفسك وما طابت.
قال الله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَالله سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. سورة النور (٢١)
ومن عظيم فضله أن الفضل بيده لا بيد غيره، يؤتيه من يشاء، فسل الله من فضله يعطك.
قال الله: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَالله وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَالله ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾ سورة آل عمران
وقال الكريم: ﴿وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾. سورة النساء (٣٢)

وهو القريب المجيب



لا تشقى بدعائه
تدعوه فيسمعك ويعطيك على قدره
لأنه لا يتعاظم عليه شيء أعطاه
فلا تيأسوا من روح الله

وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا



وقف نبي الله زكريا عليه السلام في محرابه ينادي ربه، يدعوه، يتوسل له، يسأله الولد.

يُفصح عن ضعفه، وعن عجزه، وعن فقده الأسباب، فقد شاب رأسه، وبلغ من الكبر عتيا، وامرأته عاقر لا تلد.

إلا أنه مع ذلك كله لم ييأس، ولم يقنط، بل يسأل ربه موقنا أنه سيعطيه.

لأنه لم يجد شقاء قط وهو يدعو ربه، فكيف لا يُجب.

كل ما ذكرته من النعم السابقة وهبها الله عباده دون مسألة، دون طلب.

لكنه سبحانه كذلك قريب مجيب.

يجيب سؤال عبده، يعطيه ما يريد، وفوق ما يريد.

والسؤال الآن:

لماذا نسأل الله؟

إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ



في ليلة شاتية طويلة، أذهب همُّ الدَّين النومَ من عين عبدٍ فقير مسكين، ظل يجول بفكره ماذا يفعل؟ وإلى من يذهب؟ وأي باب يطرق؟

الناس جميعا يستثقلون السؤال، وكلٌّ له همه.

فلان سيعتذر، وفلان يَعِدُ وينسى، وفلان يملُّ من سؤالي، وفلان أعطاني منذ شهرين، أتراه يفعل؟

وبينما تجول الأفكار، وتنتاب العبدَ الهواجس، ويعده الشيطان الفقر والضياع، حتى كاد أن ينهار أمام البلاء، فجأة:

يسمع آية من كتاب الله، أرسلها الله له، وكأنه يُسمعه إياها، يذكره بربه، لطفا منه وكرما.

يسمع قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِى وَلْيُؤْمِنُوا بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾. سورة البقرة (١٨٦)

تذكر العبد أن له رباً غنيا كريما جوادا لا ينام، لا يغلق بابه، قريب مجيب.

قام العبد فتطهر، ثم صفّ قدميه بين يدي ربه، ووضع يديه على صدره، ونظر إلى موضع سجوده، خاشعا متذللا لمولاه.

كبر ربه، موقنا أنّ الله أكبر من همومه، وأنه إن أنزلها بالله أوشك الله له بالغنى والفرج.

ثم بدأ يقرأ، ويستشعر أن الله ينظر إليه، نصب وجهه لعبده، يسمعه ويجيبه

قال العبد: الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

فقال الله: حَمِدَنِي عَبْدِي

قال العبد: الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فقال الله: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي

قال العبد: مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ

فقال الله: مَجَّدَنِي عَبْدِي

قال العبد: إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ

فقال الله: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ



قال العبد: اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ . صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ.

فقال الله: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ[1].

هنا تقضى الحوائج، كل حوائجك ضعها في محراب الصلاة، عندما تضع جبهتك على الأرض، تذكر أن الله ردّ عليك وأنت قائم فقال: «ولعبدي ما سأل»، القريب المجيب يسمعك ويرد عليك ويجيب دعائك.

الإنسان ضعيف فقير محتاج، ذو نفس جاهلة ظالمة، له عدو لدود يريد هلاكه في الدنيا والآخرة.

وحاجيات الإنسان لا تنتهي، لأن فقره وعجزه لا حد له، فهو دوما يبحث عمن يغنيه من فقر، ومن يقويه من ضعف، ومن يتعزز به من ذلة، ويتكثر به من قلة.

فإن أراد الله بعبده خيرا جعل افتقاره إلى ربه وحده، وحينئذ يكفيه من كل شيء، وإلا ضاع العبد عند أرباب متفرقين لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا.

لماذا نسأل الله وندعوه وحده؟.. لماذا تتعلق قلوب المؤمنين بربهم دون من سواه؟

لأنه ربهم لا رب لهم سواه.

هم يعلمون أنهم صنعته، هو من أنشأهم، هو أوجدهم، هو من خلقهم من العدم، وهو لا يتخلى عمن خلق.

حتى هذا الكافر بربه عندما تضيق به السبل، وتحيط به الكروب، ويظن الهلكة والضياع، لا يجد له ملاذا إلا ربه، فينسى جحوده، وينسى طواغيته وأنداده، فتخرج دعواته خالصة لربه، يسأله النجاة، معاهدا ربه أنه إن نجاه سيتخلى عن هذه الأنداد الباطلة، وبكرمه ينجيه مع علمه أنه مشرك، بل مع علمه أنه سيظل على شركه وكفره.

قال الملك سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ سورة يونس

وقال عز وجل: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾. سورة الإسراء (٦٧)

وانظر إلى هذا المظلوم حين يرفع أكف الضراعة إلى ربه سائلا إياه أن ينصره على ظالمه، يرفع الله دعوته فوق الغمام ويقول: «وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين»، حتى ولو كان المظلوم كافرا.

---

(١) أخرجه مسلم (٣٩٥).



يقول النبي ﷺ: «وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ يَرْفَعُهَا اللهُ فَوْقَ الغَمَامِ وَيَفْتَحُ لَهَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَيَقُولُ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي لَأَنْصُرَنَّكِ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ»(٢).

وقال النبي ﷺ: «اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ وَإِنْ كَانَ كَافِرًا فَإِنَّهُ لَيْسَ دُونَهُ حِجَابٌ»(٣).

إنه مجيب دعوة المضطرين، كاشف السوء، لأنه رب العالمين.

قال الملك الأكرم: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾. سورة النمل (٦٢)

ندعوه وحده، ونتعلق به وحده، ولا نيأس من فرجه:

لأنه الملك على الحقيقة، يملك كل شيء، يملك الدنيا والآخرة، له كل شيء، ومن سواه لا يملكون مثقال ذرة.

قال من بيده الملك: ﴿ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ سورة فاطر

سبحانه لا هادي لمن أضل، ولا مضل لمن هدى.

سبحانه لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع.

سبحانه لا قابض لما بسط، ولا باسط لما قبض.

سبحانه لا خافض لما رفع، ولا رافع لما خفض.

سبحانه لا مقرب لما باعد، ولما مباعد لما قرب.

لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يدفع السوء إلا هو.

لأنه القدير، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، كل شيء عليه يسير، إذا أراد شيئا قال له كن فيكون، لا يتعاظم على ربك شيء أبدا، لا مستحيل عليه.

قال النبي ﷺ: «إِذَا دَعَا أَحَدُكُمْ فَلَا يَقُلْ: اللهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، وَلَكِنْ لِيَعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ، فَإِنَّ اللهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ»(٤).

لأنه السميع، الذي يسمع دعاء عبده وإن كان نداء خفيا، وإن كان من عبد في بطن الحوت في ظلمة البحر في ظلمة الليل.

قال سبحانه: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ

(٢) أخرجه الترمذي في «سننه» (٣٥٩٨)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٨٧٠).
(٣) أخرجه الضياء في «المختارة» (٢٧٤٨)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٧٦٧).
(٤) أخرجه مسلم (٢٦٧٩).



﴿الدُّعَاءِ﴾. سورة آل عمران (٣٨)

لأنه البصير، الذي يرى مكان عبده، فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير.

لأنه الغني، عنده خزائن السموات والأرض، ما من شيء إلا عنده خزائنه، يده سحاء الليل والنهار، لا تنقصها النفقة.

يقول النبي ﷺ: «**يَدُ اللهِ مَلْأَى لاَ يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَقَالَ: أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ [ص: ١٢٣] وَالأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَغِضْ مَا فِي يَدِهِ**»[٥].

لأنه الكريم الأكرم، لا يبخل، يعطي عبده على قدره وعظمته لا قدر سؤال عبده وضعفه، فعطاؤه فوق المزيد.

لأنه قريب مجيب، أقرب إلى العبد من حبل الوريد، مجيب يجيب دعوة الداع إذا دعاه.

لأنه حيي كريم، يستحي أن يرفع العبد يده إليه فيردهما صفرا خائبتين.

قال النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ**»[٦].

لأنه الفتاح، يُفتخ كل مغلق بإذنه، ما يفتح سبحانه للناس من رحمة فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده.

قال سبحانه: ﴿مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. سورة فاطر (٢)

لأنه البرّ، عظيم الإحسان والبر.

وكأني بأهل الجنة وهم يقولون: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ﴾. سورة الطور (٢٨)

لأنه ليس شيء أكرم على الله من الدعاء، هذا قول رسول الله ﷺ[٧].

لأنه وعدنا بالإجابة، وسبحانه لا يخلف وعده.

قال الله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾. سورة غافر (٦٠)

لأنه بيده وحده تيسير كل شيء، فإن لم ييسر لك ما تريد لم يتيسر.

قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «**سَلُوا اللهَ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الشِّسْعَ؛ فَإِنَّ اللهَ إِنْ لَمْ يُيَسِّرْهُ لَمْ يَتَيَسَّرْ**»[٨].

لأنه لا يمل من سؤال عبده له، لا يسأم من إلحاح عبده، لا يمل من كثرة سؤالك.

---

(٥) أخرجه البخاري (٧٤١١)، ومسلم (٩٩٣).

(٦) أخرجه الترمذي في «سننه» (٣٥٥٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٦٣٥).

(٧) أخرجه الترمذي في «سننه» (٣٣٧٠)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٦٨٤).

(٨) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٤٥٦٠)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الضعيفة» (١/ ٧٦).

قال النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لاَ يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا**»[9].

بل ويغضب إن لم يسأله عبده.

قال النبي ﷺ: «**مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ**»[10].

لأن الدعاء عنده لا يضيع، فإما أن يعجل لك حاجتك، وإما أن يصرف عنك من السوء مثلها، أو يدخرها لك يوم القيامة.

فمهما كثرت حوائجك، فالله أكثر.

قال النبي ﷺ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَدْعُو بِدَعْوَةٍ لَيْسَ فِيهَا إِثْمٌ، وَلَا قَطِيعَةُ رَحِمٍ، إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ بِهَا إِحْدَى ثَلَاثٍ: إِمَّا أَنْ تُعَجَّلَ لَهُ دَعْوَتُهُ، وَإِمَّا أَنْ يَدَّخِرَهَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا أَنْ يَصْرِفَ عَنْهُ مِنَ السُّوءِ مِثْلَهَا**» **قَالُوا: إِذًا نُكْثِرُ، قَالَ:** «**اللهُ أَكْثَرُ**»[11].

فأنزل حوائجك جميعا بالله، وظن بربك كل خير، فإنه بكل جميل كفيل، وهو حسبك ونعم الوكيل.

قال النبي ﷺ: «**مَنْ نَزَلَتْ بِهِ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِالنَّاسِ لَمْ تُسَدَّ فَاقَتُهُ، وَمَنْ نَزَلَتْ بِهِ فَاقَةٌ فَأَنْزَلَهَا بِاللهِ، فَيُوشِكُ اللهُ لَهُ بِرِزْقٍ عَاجِلٍ أَوْ آجِلٍ**»[12].

لأنه لا ينسى.

ألم تسمع ثناءه على نفسه: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾. سورة مريم (٦٤)

لا ينساك قط.

لا ينسى دعاءك.

لا ينسى حوائجك.

لا ينسى دموعك.

لا ينسى همومك.

حتى لو لم يعجل لك سؤلك، فإنه ليس عن نسيان، فإنه لا يضل ولا ينسى، وإنما عن لطف وامتنان.

---

(٩) أخرجه البخاري (١١٥١)، ومسلم (٧٨٢).

(١٠) أخرجه الترمذي في «سننه» (٣٣٧٣)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٦٨٦).

(١١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١١١٣٣)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٦٣٣).

(١٢) أخرجه الترمذي في «سننه» (٢٣٢٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٨٣٨).



وعطاءات الملك على قدره



قَالَ سُلَيْمَانُ التَّيْمِيَّ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَنْعَمَ عَلَى الْعِبَادِ عَلَى قَدْرِهِ، وَكَلَّفَهُمُ الشُّكْرَ عَلَى قَدْرِهِمْ»[(١٣)].

كيف لا يُحب، وعطاءات الكريم عظيمة على قدر عظمته وواسع رحمته.

عندما تسأل الله توجه إليه باسمه الوهاب، قل له: رب هب لي.

الله الوهاب: الذي يعطي قبل السؤال، وفوق السؤال، فلأنه وهاب يهبك قبل أن تسأل، وفوق ما سألت.

الله الوهاب: المتفضل بالعطاء لا لأنه واجب عليه، بل محض فضله.

الله الوهاب: من كثرت مواهبه، وتنوعت حتى شملت ما لم يخطر للخلق على بال.

الله الوهاب: من عظم فضله حتى دام فلم ينقطع في حال دون حال.

كنت أتعجب من كثرة ما ورد على ألسنة الأنبياء عند سؤالهم ربهم بقولهم: «**رب هب لي**».

هذا إبراهيم ﷺ، قال: ﴿رَبِّ هَبْ لِى مِنَ الصَّالِحِينَ ۝١٠٠﴾. سورة الصافات

وهذا زكريا ﷺ، قال: ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ۝٣٨﴾. سورة آل عمران

وهذا سليمان ﷺ، قال: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ۝٣٥﴾. سورة ص

لكن يزول عجبك عندما ترى كرم الإجابة، وعظيم العطاء، إنه عطاء من لا يخشى القلة، عطاء الجواد البرّ عظيم الإحسان.

أما إبراهيم ﷺ فاستجاب له الله فأعطاه ما أراد وفوق ما أراد، أعطاه الغلام الحليم إسماعيل، والغلام العليم إسحاق، وكلاهما آتاه الله النبوة. قال الجواد الكريم: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾. سورة الصافات (١٠١)

وقال الله الأكرم: ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾. سورة الذاريات (٢٨)

فشكر إبراهيم ربه فقال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى وَهَبَ لِى عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾. سورة إبراهيم (٣٩)

ثم زاده فوق هذا يعقوب، فقال الله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ﴾.
سورة الأنبياء (٧٢)

---

(١٣) أخرجه البيهقي في «**شعب الإيمان**» (٤٢٥٨).



وأما زكريا عليه السلام فأعطاه الله ولدا نبيا وسيدا وحصورا ومن الصالحين، لم يجعل له من قبل سميا، برا تقيا، وفوق ذلك أصلح الله له زوجته.

قال الكريم: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾. سورة آل عمران (٣٩)

وقال الله: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾. سورة الأنبياء (٩٠)

وأما سليمان عليه السلام، فاستجاب له ربه فأعطاه من الملك ما لم يعطه لأحد من العالمين.

قال ذو الجلال والإكرام: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٣٨﴾ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٩﴾﴾. سورة ص

وهذا أيوب لم يشفه الله فحسب، بل وهب له أهله ومثلهم معهم، وأغناه بعد فقر وقلة.

قال الله الأكرم: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾. سورة ص (٤٣)

فإذا سألت ربك فأعظم رغبتك، وسله على قدره لا على قدرك، فإنه أكرم الأكرمين، وما عنده لا ينفد، ولو أعطى كل عبد مسألته.

قال الله في الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ**»[١٤].

ولذا يعلمنا النبي ﷺ أننا إذا سألنا الله أن نسأله الفردوس، وهي أعلى درجات الجنان.

قال النبي ﷺ: «**فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ، فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَى الجَنَّةِ**»[١٥].

وتقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «**إِذَا تَمَنَّى أَحَدُكُمْ فَلْيُكْثِرْ فَإِنَّمَا يَسْأَلُ رَبَّهُ**»[١٦].

ويقول أَبُو سَعِيدٍ الخدري رضي الله عنه: «**إِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَارْفَعُوا فِي الْمَسْأَلَةِ، فَإِنَّ مَا عِنْدَ اللهِ لَسْتُمْ مُنْفِذِيهِ**»[١٧].

لذا فرق عظيم بين أن يهبك الله ولدا، ذكرا كان أو أنثى، وبين أن يهبك الله ولدا يكون قرة عين لك.

كانت دعوة الصالحين: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾. سورة الفرقان (٧٤)

وقرة العين بزوجك وولدك أن يكونوا صالحين، فتكونوا جميعا في الجنة، لا يفرق بينك وبينهم.

(١٤) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).
(١٥) أخرجه البخاري (٢٧٩٠).
(١٦) أخرجه ابن أبي شيبة في «**مصنفه**» (٢٩٣٦٧)، وإسناده صحيح.
(١٧) أخرجه ابن أبي شيبة في «**مصنفه**» (٢٩٣٦٨)، وإسناده صحيح.



وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ



يغيب يوسف الكريم بن الكريم بن الكريم، عن أبيه يعقوب السنين الطوال.

يبكي الشيخ الكبير على فراق ولده حتى ابيضت عيناه من الحزن، حتى خرجت كلماته تحمل ما في صدره من ألم الفراق فقال: ﴿يَاأَسَفَا عَلَى يُوسُفَ﴾.

طيلة هذه المدة لم يكف يعقوب عن التضرع لربه أن يجمع بينه وبين حبيبه وقرة عينه.

طيلة هذه المدة لا خبر عن يوسف، لكنه كان يحسن الظن بربه، ويوقن أن الله سيجمعه به.

حتى جاء اليوم الذي قال لإخوته فيه: ﴿يَابَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾. سورة يوسف (٨٧)

ولا تيأسوا من روح الله، ولا تيأسوا من فرج الله، ولا تيأسوا من غوث الله.

ثم جاء اليوم الذي التقى الحبيب بحبيبه، لكن بأحسن ما يكون، والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

ربما تكون للعبد عند الله حاجة، يدعوه، ويلح عليه، إلا أنه لا يرى الفرج، ولا يرى استجابة، فيدب اليأس في قلبه، ويقنط من رحمة ربه، وهذا سوء ظن في الكريم سبحانه.

أيها المحب: عُدَّ منع الله عطاء، فإنه لم يمنعك بخلا، إنما منعك رحمة ولطفا.

الله هو الغني لا يمنع عبده فقرا وحاجة سبحانه وتعالى، فهو الغني بذاته، وخزائنه لا تنقصها النفقة.

والله هو الكريم الأكرم لا يمنع عبده بخلا، فجوده وإحسانه عمّ جميع خلقه.

والله هو القدير لم يمنع عبده لعجزه أن يستجيب دعاءه، فسبحانه إذا قضى أمرا قال له كن فيكون.

ولكن الله يعلم وأنتم لا تعلمون، وكم لله من حكمة في عطاءه ومنعه غابت عن عباده.

فلا يمنعك تأخر الإجابة عن دوام الافتقار إليه، والإلحاح عليه، فإنه يراك منكسرا تترقب فرجه، فيضحك إليك.

نعم كما قرأت: يضحك إليك.. ضحكا يليق بكماله وجلاله، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

يقول النبي ﷺ: **«ضَحِكَ رَبُّنَا مِنْ قُنُوطِ عِبَادِهِ، وَقُرْبِ غِيَرِهِ»** قَالَ: **قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوَ يَضْحَكُ الرَّبُّ**، قَالَ: **«نَعَمْ»**، **قُلْتُ: «لَنْ نَعْدَمَ مِنْ رَبٍّ يَضْحَكُ خَيْرًا»**[١٨].

(١٨) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (١٨١)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٨١٠).

يعلم الله أن تغيير الحال قد أوشك.

أوشك الفرج أن يأتي.

أوشك المرض أن يزول، وأوشك الدَّين أن يُقضى.

أوشك الأسير أن يعود، وأوشك الطريد أن يأمن.

أوشك المستوحش أن يأنس، وأوشك المحزون أن يفرح.

أوشك الضال أن يعود، وأوشك العاصي أن يتوب.

لكن الله لا يدبر الكون وفق أهواء الخلق، وإنما بعلمه ورحمته وحكمته.

يظل العبد يدعو ويدعو، والله يسمع، ولا يضيع دعاء عبده، لكنه قد يؤخر الإجابة رحمة بك.

فكم من عبد يدعو الله أن يرحمه بزوال أمر فيه شدة عليه، والعبد عجول لا يعلم الخير من الشر.

والله تعالى يرحمه فلا يستجيب له، وكأنه يقول لك: وكيف أرحمك مما به أرحمك.

من عرف الله حقا لم يقنط من رحمة الله وفرجه، ويعلم أن الله سيجعل بعد العسر يسرا.

قال الكريم: ﴿سَيَجْعَلُ الله بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾. سورة الطلاق (٧)

بل إن الله ينزل مع العسر يسرين.

ألم يقل الكريم سبحانه: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ سورة الشرح

يقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «مَهْمَا يَنْزِلْ بِامْرِئٍ شِدَّةٌ يَجْعَلُ اللهُ بَعْدَهَا فَرَجًا وَإِنَّهُ لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرَيْنِ»(١٩).

سيأتي الله بالغيث، يغيث به قلبك، تماما مثل هذه الأرض القاحلة، التي أجدبت، وربما لا ترى فيها إلا الموت.

حتى يأس الناس، يتطلعون إلى السماء، أين الغيث؟ لقد هلك الزرع.

وإذ برب العالمين يسوق الرياح فتثير السحاب فيبسط الله رحمته بعد القنوط، فتصبح الأرض مخضرة، وتنمو الزهور، وتكون الحياة كأطيب ما يكون، حتى يقال: لم يكن ثمة موات هنا.

قال الكريم: ﴿الله الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝٤٨ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ۝٤٩ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٥٠﴾ سورة الروم

وهكذا حالك أيها المسكين، سيسقي الله قلبك الغيث بفرجه، وترى بعينك آثار رحمته.

قال الكريم: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾. سورة الشورى (٢٨)

(١٩) أخرجه مالك في «**الموطأ**» (١٦٢١)، بإسناد صحيح.

أرادك لك، لأجلك.

شرع لك ما به حياتك.

يسَر السبيل إليه، ما جعل عليك من حرج وضيق.

يعلم ضعفك، فتصدق عليك.

يقبل عليك أعظم من إقبالك عليه



ماذا يريد الله لك؟



كيف لا يُحب وهو يريدك لك، ويريد لأجلك كل خير.

قال الله: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾. سورة إبراهيم (١٠)

أرادك عبدا له وحده، حُرا عمن سواه.

أرادك سيدا عزيزا كريما مطمئنا، لا يتعلق قلبك بالسراب، إنما يتعلق بمن له الخلق والأمر.

أرادك له وحده ليسلم قلبك، وتسلم روحك من التمزق بين الأرباب المصنوعة المختلقة.

فلا سواء بين من إلهه الله جل جلاله، وبين من تمزق قلبه بين طواغيت الأرض.

قال الله: ﴿ضَرَبَ الله مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. سورة الزمر (٢٩)

يريد هدايتك للحق، يريد لك الهدى.

قال الله: ﴿يُرِيدُ الله لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَالله عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾. سورة النساء (٢٦)

يريد أن يطهر هذه النفوس من أدوائها، يريدها نفوسا علوية سماوية، لا أرضية سفلية.

يريد أن يطهرها من من شهوة محرمة تقيدك وتكبلك، يريد أن يطهرك من ذنوبك.

يقول سبحانه: ﴿مَا يُرِيدُ الله لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. سورة المائدة (٦)

يريد لك وبك اليسر، ولا يريد لك العسر، يريد أن يخفف عنك، ولا يريد أن يثقل عليك.

كل تيسير في أمره، وكل تخفيف في شرعه.

قال الله: ﴿يُرِيدُ الله بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾. سورة البقرة (١٨٥)

قال الله: ﴿يُرِيدُ الله أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾. سورة النساء (٢٨)

يريد أن يتوب عليك، لأجلك هو التواب، مهما كان ذنبك يفرح بتوبتك ورجوعك إليه.

قال الله: ﴿وَالله يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾. سورة النساء (٢٧)

وكأني بمسكين يقول: إن كان يريد بي كل ما قلت فلماذا أمرني بهذا الأوامر، ولماذا حرّم علي كل هذه المحرمات؟

أجيبك فأقول لك: تعال معي لتزداد حبا لأنه أمرك ونهاك.



لِمَا يُحْيِيكُمْ



هناك في أرض الحبشة جاء الأطهار المؤمنون فارين بدينهم من ظلم صناديد كفار قريش، خرجوا من ديارهم مهاجرين إلى بلد يحكمها ملك عادل، لا يُظلم عنده أحد.

إلا أن كفار قريش تؤزهم شياطينهم، وتحملهم نفوسهم الكارهة لنور الحق، على مواصلة الصد عن سبيل الله.

فأرسلوا وفدا محملا بالهدايا والرشاوى إلى النجاشي وأساقفته بالحبشة، حتى يعودا بالمسلمين إلى مكة ليسومونهم سوء العذاب.

إلا أن النجاشي العادل أصرّ على أن يسمع هؤلاء المهاجرين.

وقف جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه أمام النجاشي، وحوله أساقفته، وبين يديه وفد الكفر وأهله.

سأل النجاسي جعفر ومن معه، فقال: «مَا هَذَا الدِّينُ الَّذِي فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ، وَلَمْ تَدْخُلُوا فِي دِينِي وَلا فِي دِينِ أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْأُمَمِ؟

أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ.

وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ.

وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ، يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ.

فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ.

فَدَعَانَا إِلَى اللهِ لِنُوَحِّدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ.

وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ، وَالدِّمَاءِ.

وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمِ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ.

وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ.

قَالَ: فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ، فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ، فَعَبَدْنَا اللهَ وَحْدَهُ، فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا، فَعَذَّبُونَا وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْخَبَائِثِ، فَلَمَّا قَهَرُونَا وَظَلَمُونَا، وَشَقُّوا عَلَيْنَا، وَحَالُوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ دِينِنَا، خَرَجْنَا إِلَى بَلَدِكَ، وَاخْتَرْنَاكَ عَلَى مَنْ

سِوَاكَ، وَرَغِبْنَا فِي جِوَارِكَ، وَرَجَوْنَا أَنْ لَا نُظْلَمَ عِنْدَكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ»[1].

إن من أعظم ما يغرس الحب في قلبك لرب العالمين أن أنقذك من هذه الجاهلية

نظرة واحدة إلى ما كان عليه أهل الجاهلية قبل الإسلام، وما عليه أهل جاهلية هذا الزمان من غير المسلمين، كفيلة بأن تجعلك تحمد الله ليل نهار، وتسجد عبودية ومحبة له سبحانه.

عندما أهبط الله آدم إلى الأرض قال له سبحانه: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦)﴾ سورة طه

مع الله لا ضلال، ولا شقاء.

عندما أمرك الله أن تخضع لأمره أخبرك أنها الحياة.

فقال سبحانه: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ سورة الأنفال (٢٤)

كيف لا يُحب، وهو إنما يأمر بالعدل والإحسان، وينهى عن الظلم والطغيان

يأمر بما فيه قيام الحياة الطيبة، وينهى عما فيه الهلاك والضياع.

يأمر بما فيه الصلاح، وينهى عما فيه الفساد.

فلا تجد أمرا من أوامره إلا وهو يفيض حكمة وهدى ورحمة ورفقا ولطفا وجمالا وإحسانا.

كيف لا، وهي كانت من رب العالمين العليم الحكيم الرحيم الحق الهادي الرفيق الطيب الجميل.

كل أحكامه عدل وإحسان، لا توجد مثقال ذرة من ظلم في أحكامه ولا في أمره، فهو سبحانه العدل الذي حرم الظلم والبغي على نفسه، وجعله بين الناس محرما.

قال الملك: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. سورة النحل (٩٠)

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. سورة النساء (٤٠)

وأمر بالحكم بين الناس بالعدل، والشهادة بالعدل، والقيام بالعدل.

فقال: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾. سورة النساء (٥٨)

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٧٤٠)، وصححه الشيخ الألباني في «فقه السيرة» (ص١١٥).





وقال سبحانه: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَالله أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾. سورة النساء (١٣٥)

وقال سبحانه: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. سورة المائدة (٨)

أحل كل طيب رحمة منه وفضلا، وحرم كل خبيث رفقا منه ولطفا.

قال الملك: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾ سورة المائدة (٤)

وقال الملك: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾. سورة الأعراف (١٥٧)

وقال سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾. سورة الأعراف (٣٢)

وأمتن علينا فأمرنا أن نأكل من رزقه من غير إسراف ولا تبذير.

فقال: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾. سورة الأعراف (٣١)

يأمر بما فيه طهرك، ويحب التوابين ويحب المتطهرين.

ولأنه القدوس الطيب حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن، فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾. سورة الأنعام (١٥١)

إنه يغار، ولأنه يغار حرم الفواحش، حرم الزنى والخنى وكل فحش في القول والفعل.

قال النبي ﷺ: «مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الفَوَاحِشَ»[٢].

هؤلاء الكذبة الذين يأتون الفواحش كذبوا على الله لما زعموا أنه الله أمرهم بها.

قال الله: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا والله أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ سورة الأعراف

بل توعد أولئك الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في المؤمنين.

فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ والله يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾. سورة النور (١٩)

عندما تطالع أحكامه يمتلئ قلبك حبا، فحيثما وجهت قلبك ووجهك نحو حكم من أحكام

(٢) البخاري (٥٢٢٠)، مسلم (٢٧٦٠).

الحكيم العليم ترى الرحمة، وترى الحكمة، وترى الرأفة، وترى الحسن والجمال، وترى الإحسان، وترى العدل.

أمر بالصلاح والإصلاح، ونهى عن الفساد والإفساد

فقال سبحانه: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾. سورة الأعراف (٨٥)

وأمر بالإصلاح بين المتخاصمين، وبين الزوجين.

فقال سبحانه: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۞ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۞﴾ الحجرات

وقال سبحانه: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾. سورة النساء (١٢٨)

أمر بقول الحق، والعمل بالحق، والدعوة إليه، ونهى عن كتمان الحق، ولبس الحق بالباطل.

فقال: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. سورة البقرة (٤٢)

وحرم شهادة الزور، قول الزور، والعمل بالزور.

وقال في وصف عباده: «وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾. سورة الفرقان (٧٢)

فقال سبحانه: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾. سورة الحج (٣٠)

أمر بالصدق، ويحب الصادقين، وحرم الكذب، ويكره الكاذبين.

وأمر بأداء الأمانات إلى أهلها، وحرم الخيانة.

فقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾. سورة النساء (٥٨)

وقال سبحانه: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. سورة الأنفال (٢٧)

وأمر بالوفاء في العقود والعهود.

فقال سبحانه: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾. سورة المائدة (١)

وقال: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾. سورة الإسراء (٣٤)





حتى مع الذين كفروا به وجعلوا له شريكا، وحاربوا المسلمين، أمر بإعلامهم قبل نقض الصلح، وحرم الغدر ونقض المواثيق والعهود.

فقال: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾. سورة الأنفال (٥٨)

وقال سبحانه: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾. سورة التوبة (٤)

بل لما أخذ المشركون من حذيفة بن اليمان وأبيه عهدا ألا يقاتلا مع رسول الله ﷺ، قال لهما النبي ﷺ يوم بدر: «**انْصَرِفَا، نَفِي لَهُمْ بِعَهْدِهِمْ، وَنَسْتَعِينُ اللهَ عَلَيْهِمْ**»[٣].

وأمر بصلة الأرحام، وحرم قطيعة الرحم، وجعلها إفسادا في الأرض، ووعد أن يصل وصلها وأن يقطع من قطعها.

فقال سبحانه: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ﴾. سورة محمد (٢٢)

وأمر بالصبر، ووعد الصابرين بأعظم الجزاء.

قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. الزمر (١٠)

أمر بالإحسان إلى الوالدين، خاصة عند الكبر، وحرم عقوم الوالدين، ولو بكلمة «**أف**».

فقال سبحانه: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ سورة الإسراء

ولو أمرا بالكفر فلا طاعة لهما، ومع ذلك فقد أمر سبحانه بحسن الصحبة لهما.

فقال: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴿١٥﴾﴾ سورة لقمان.

أمر بالإحسان إلى اليتامى، وإيتاءهم أموالهم، وجعل كافلهم رفيق نبيه في الجنة، وحرم العدوان على أموالهم، وتوعدهم بالعذاب الأليم.

فقال سبحانه: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾. سورة النساء (٢)

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾. سورة النساء (١٠)

---

(٣) مسلم (١٧٨٧).

وأمر بتطهير النفس من أمراضها، فحرم الكبر والعلو في الأرض.

فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾. سورة الإسراء (٣٧)

أمر بالإحسان إلى الفقراء، والمساكين، وابن السبيل، والأسير، وفرض لهم زكاة واجبة في أموال الأغنياء، وحث على الصدقة، حتى أن شق تمرة تحسن بها لمحتاج ينجيك بها من النار.

فقال سبحانه في صفات الأبرار: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾. سورة الإنسان (٨)

وقال سبحانه: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ سورة البلد

وقال في صفات أهل النار: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّاتٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾﴾ سورة المدثر

وجعل السعي على الأرملة والمسكين كالجهاد في سبيل الله.

قال النبي ﷺ: «**السَّاعِي عَلَى الأَرْمَلَةِ وَالمِسْكِينِ، كَالمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَوِ القَائِمِ اللَّيْلَ الصَّائِمِ النَّهَارَ**»[٤].

وأمر بالإحسان إلى كل الخلق، حتى في الكلمة، جعلها ربي صدقة، بل حتى في البسمة جعلها ربي صدقة.

قال الملك: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾. سورة البقرة (٨٣)

ونهى عن نهر السائل، فقال: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾. سورة الضحى (١٠)

ونهى عن منع الماعون، وهو كل ما يحتاجه الناس، حتى لو كان حبلا أو دلوا.

فقال سبحانه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾﴾ سورة الماعون

ووصى بالجار، بل ظل جبريل ينزل بوصية الله به، حتى ظن النبي ﷺ أنه سيكون له نصيب في الميراث

قال الله: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ﴾. سورة النساء (٣٦)

وجعل عونه وستره وتيسيره بأن يعين المسلم أخاه ويستره وييسر عليه.

---

(٤) أخرجه مسلم (٢٩٨٢).



قال النبي ﷺ: «مَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا، نَفَّسَ اللهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»(٥).

وأمر بالزواج، وحث على تيسيره، والعفاف لمن عجز عنه، وحرم الزنا واتخاذ الأخدان، ونهى عن مجرد قربه.

قال سبحانه: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾. سورة النور (٣٣)

وأمر بأكل الطيبات من الرزق، فأحل البيع، وحث على السعي بالحلال، وحرم السحت من أكل أموال الناس بالباطل، والسرقة، والرشوة، وحرم التطفيف في المكيال والميزان، وحرم بخس الناس أشياءهم.

قال الله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾. سورة البقرة (١٧٢)

قال الله: ﴿وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾. سورة البقرة (٢٧٥)

قال الله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾. سورة الأنعام (١٥٢)

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾. سورة الأعراف (٨٥)

وأمر بالطهارة، ويحب المتطهرين، حتى هذا السواك الذي تطهر به فمك تستجلب به مرضاته سبحانه.

قال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾. سورة البقرة (٢٢٢)

وقال ﷺ: «السِّوَاكُ مَطْهَرَةٌ لِلْفَمِ مَرْضَاةٌ لِلرَّبِّ»(٦).

حث على إقراض الناس قرضا حسنا، ووعد فاعله بالأجر العظيم والفضل الكبير، تيسيرا لعباده ورحمة بهم.

قال الكريم: «مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾. سورة البقرة (٢٤٥)

يقول النبي ﷺ: «دَخَلَ رَجُلٌ الْجَنَّةَ فَرَأَى عَلَى بَابِهَا مَكْتُوبًا الصَّدَقَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، وَالْقَرْضُ بِثَمَانِيَةَ عَشَرَ»(٧).

---

(٥) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

(٦) أخرجه النسائي في «سننه» (٥)، وصححه الشيخ الألباني في «إرواء الغليل» (٦٦).

(٧) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣٢٨٦)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٤٠٧).

وحرم الربا، وتوعد صاحبه بالحرب ومحق البركة، حربا منه سبحانه على هؤلاء الظلمة الذين يستغلون حوائج الناس.

قال الله: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ الله الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ الله الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَالله لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾﴾. سورة البقرة

ونهى سبحانه عن الشح والبخل، وحث على الصدقة والإحسان.

قال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ الله مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٣٧﴾﴾ سورة النساء

وأمر بكتابة الديون، حفاظا على أموال الناس من الضياع، حتى كانت أطول آية في كتاب الله تتكلم عن كتابة الدين

فقال سبحانه: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ الله فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾. سورة البقرة (٢٨٢)

وأحل الطيبات من الطعام والشراب، وجعله لا يعد ولا يحصر، وحرم الخبائث من الطعام والشراب، فحرم الميتة والخمر والخنزير وكل ما فيه ضرر.

فقال سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا أُحِلَّ لَهُمْ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ﴾. سورة المائدة (٤)

وقال سبحانه: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾. سورة الأعراف (١٥٧)

وجعل النفوس مصانة، فمن أحيا نفسا فكأنما أحيا الناس جميعا، وحرم قتل النفس إلا بالحق، بل جعل حرمتها أعظم عنده من حرمة الكعبة، ولو اجتمع أهل السموات والأرض على قتل نفس بغير حق لأدخلهم النار ، وتوعد من قتل مؤمنا متعمدا بالغضب واللعن والعذاب العظيم.

فقال سبحانه: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾. سورة المائدة (٣٢)

قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ الله عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾. سورة النساء (٩٣)

وحافظ على العقول من الضياع أو التغييب أو التزييف، فحرم سبحانه شرب الخمر، ونهى عن اتباع الغير بلا حجة أو برهان، ونهى عن الاستقسام بالأزلام، وحرم الطيرة والذهاب إلى الكهنة والدجالين والعرافين.





فقال سبحانه: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾. سورة المائدة (٩٠)

وقال سبحانه: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ﴾. سورة المائدة (٣)

وأحاط الأعراض بسياج منيع، فلا يتعرض عرض في ظل الشريعة لأذى الفساق، فشرع الاستئذان حتى داخل البيوت، وأنزل فيه آيات تتلى، وأمر بغض البصر، وفرض الحجاب على المرأة، وأمرها بستر زينتها، بل ومنعها حتى من ضربها قدمها حتى لا تلفت الأنظار إليها.

فقال سبحانه: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾. سورة النور (٢٧)

وقال سبحانه: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنْكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوَّافُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ الله لَكُمُ الْآيَاتِ وَالله عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ الله لَكُمْ آيَاتِهِ وَالله عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ سورة النور

وقال سبحانه: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ سورة النور

وحرم الزنى، وجعل له عقوبة رادعة في الدنيا، وعذابا مهينا في الآخرة.

وحرم قذف المؤمنات وجعل له حدا عظيما في الدنيا، وعذابا عظيما في الآخرة.

فقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ الله إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ الله غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾. سورة الفرقان

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ الله دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾ سورة النور



وحث على إنظار المعسر، ورغب في التجاوز عنه، حتى أنه غفر لرجل لم يعمل خيرا قط إلا أنه كان يتجاوز عن المعسر

قال الله: ﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. سورة البقرة (٢٨٠)

وقال النبي ﷺ: «**أُتِيَ اللهُ بِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِهِ آتَاهُ اللهُ مَالًا، فَقَالَ لَهُ: مَاذَا عَمِلْتَ فِي الدُّنْيَا؟ قَالَ: وَلَا يَكْتُمُونَ اللهَ حَدِيثًا، قَالَ: يَا رَبِّ آتَيْتَنِي مَالَكَ، فَكُنْتُ أُبَايِعُ النَّاسَ، وَكَانَ مِنْ خُلُقِي الْجَوَازُ، فَكُنْتُ أَتَيَسَّرُ عَلَى الْمُوسِرِ، وَأُنْظِرُ الْمُعْسِرَ، فَقَالَ اللهُ: أَنَا أَحَقُّ بِذَا مِنْكَ، تَجَاوَزُوا عَنْ عَبْدِي**»[٨].

وأمر بالتآلف والاجتماع، ونهى عن الفرقة والخلاف.

فقال سبحانه: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾. سورة آل عمران (١٠٣)

وأمر بكل ما من شأنه أن يؤلف بين القلوب،ويغرس المحبة في قلوبهم.

فقال سبحانه: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾. سورة الإسراء (٥٣)

ونهى عن كل ما يثير العداوة والبغضاء بين الناس، وأبغض الناس عنده المفرقون بين الأحبة، ولعن من خبب وأفسد امرأة على زوجها.

فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾. سورة المائدة (٩١)

وحرم الغيبة، والهمز واللمز، والسخرية، وسوء الظن، والتجسس، والتنابز بالألقاب.

فقال سبحانه: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ سورة الحجرات

وقال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾﴾ سورة القلم

بل نهى عن مجرد أن يتسبب المسلم في إدخال الحزن على أخيه بغير وجه حق كالنجوى.

فقال: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾. المجادلة (١٠)

(٨) البخاري (٢٠٧٧)، مسلم (١٥٦٠).





وشرع الحدود عقوبات وزواجر، يحيي بها النفوس، ويصون بها الدماء والأموال والأعراض.

فسبحان من جعل القصاص حياة، حياة لمن يفكر في إزهاق النفس بغير حق فيردعه حد الله عن فعله قبل فعله، فتبقى حياته وحياة غيره.

قال سبحانه: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَاأُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. سورة البقرة (١٧٩)

وحث على كظم الغيظ، والعفو، حتى عند القتل ذكَّر بالأُخُوة.

فقال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. سورة البقرة (١٨٧)

وقال سبحانه: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَالله يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤)﴾ سورة آل عمران

وأمر المؤمنين بالتناصح، والتعاون على البر والتقوى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونهاهم عن الغش، والتعاون على الإثم والعدوان.

فقال سبحانه: ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨)﴾ سورة البلد

وقال سبحانه: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣)﴾ سورة العصر

فقال سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾. سورة المائدة (٢)

وقال عز وجل: ﴿الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ الله إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. سورة التوبة (٧١)

فقال سبحانه: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾. سورة آل عمران (١١٠)

كل هذا، وغيره كثير مما لا يُحصى من أحكام العليم الحكيم، شرعه حياة لخلقه، نعيما لهم، وصيانة لأنفسهم، لأنه الرفيق الرؤوف الرحيم.



ولأنه عظيم أكرم الضعيف
النساء في ديننا غاليات مؤنسات كريمات
أطفالنا مصونة حقوقهم
بل الدواب عندنا لا تُظلم
حتى لو كانت نملة

النِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ



قالت المسكينة يوما، لقد تركت هذا الدين لأنه ظلم المرأة.

هكذا الإنسان كما قال الله: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشْكُرُونَ﴾. سورة يونس (٦٠)

أمسك مصحفا، وانظر إلى أسماء السور فيه، لن تجد سورة تُسمى مثلا بسورة «**الرجال**».

لكن تجد سورة من السور الطوال تُسمى سورة «**النساء**». تُعرف هذه السورة بسورة النساء الكبرى، وهناك سورة تُعرف بسورة النساء الصغرى، هي سورة الطلاق.

أشفق كثيرا على فتاة مسلمة أقنعها جاهل أو أفاك أثيم أن الله ظلم المرأة على حساب الرجل.

الله لا يحكم بالهوى، إنما حكمه حكم رب عليم حكيم خبير رحيم.

بالله عليك، فقط اقرأي القرآن مرة واحدة، وانظري إلى جميل الإحسان من ربك إليك.

بداية:

خطاب الله للرجال والنساء، فهنّ كما قال النبي ﷺ: «**إِنَّ النِّسَاءَ شَقَائِقُ الرِّجَالِ**»[1].

فكما أمر الله الرجال بالإيمان به وسائر أنواع الطاعات، خاطب كذلك النساء، وكما وعد الرجال بالأجر العظيم وعد كذلك النساء.

قال الله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾. سورة النساء(١٢٤)

وقال الله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. سورة النحل (٩٧)

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ الله لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾. سورة الأحزاب (٣٥)

وقال سبحانه: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾. سورة آل عمران (١٩٥)

وقال سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ

(١) أخرجه الترمذي في «سننه» (١١٣)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٨٦٣).

﴿أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. سورة النحل (٩٧)

والمرأة الصالحة لا تزال تصلح قلبها، وتقبل على ربها حتى تبلغ قدرها عند الله أن ينزل الله سورة تحمل اسمها.

هل سمعتِ عن مريم الصديقة؟ سورة كاملة تحمل اسم «**مريم**».

قدر عظيم من الحفاوة والتكريم لا يُوصف.

يتواتر ذكرها، حتى قبل ميلادها، ويذكر الله إنباته لها النبات الحسن، وكيف جعل كفالتها على يد نبي كريم، وكيف كان سبحانه يسوق لها رزقها في محرابها، وكيف جعلها وابنها آية، حتى وصفها بالصِّديقة.

قال الله: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾. سورة المائدة (٧٥)

آية واحدة مثل هذه الآية كفيلة لتملأ قلبك حباً.

يقول الملك: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَامَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ سورة آل عمران

اصطفاك وطهرك واططفاك. اططفاء بعد اصطفاء.

هذه خديجة رضي الله عنها بلغت منزلتها عند الله أن يرسل الله لها السلام باسمها مع جبريل عليه السلام.

في ذات يوم أَتَى جِبْرِيلُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ: هَذِهِ خَدِيجَةُ قَدْ أَتَتْ مَعَهَا إِنَاءٌ فِيهِ إِدَامٌ، أَوْ طَعَامٌ أَوْ شَرَابٌ، فَإِذَا هِيَ أَتَتْكَ فَاقْرَأْ عَلَيْهَا السَّلامَ مِنْ رَبِّهَا وَمِنِّي وَبَشِّرْهَا بِبَيْتٍ فِي الجَنَّةِ مِنْ قَصَبٍ لَا صَخَبَ فِيهِ، وَلَا نَصَبَ»[2].

وتبلغ كرامة عائشة على ربها أن ينزل براءتها من فوق سموات، قرآنا يتلى إلى يوم القيامة، حتى أنها قالت: «**وَأَنَا أَرْجُو أَنْ يُبَرِّئَنِي اللهُ، وَلَكِنْ وَاللهِ مَا ظَنَنْتُ أَنْ يُنْزِلَ فِي شَأْنِي وَحْيًا، وَلَأَنَا أَحْقَرُ فِي نَفْسِي مِنْ أَنْ يُتَكَلَّمَ بِالقُرْآنِ فِي أَمْرِي، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللهُ، فَوَاللهِ مَا رَامَ مَجْلِسَهُ وَلَا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ البَيْتِ، حَتَّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ الوَحْيُ**»[3].

لأن الله هو الحق لا يحكم إلا بالحق، فلا فرق بين رجل صالح وامرأة صالحة، هما سواء عند الله في ارتقاء درجات الجنان.

قال الله: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾. سورة الأحزاب (٣٥)

أما إكرامها في شريعة الله، فهذا أمر فوق الجمال، وإليكِ قبس من نور.

(٢) أخرجه البخاري (٣٨٢٠)، ومسلم (٢٤٣٢).

(٣) أخرجه البخاري (٢٦٦١).



الْمُؤْنِسَاتُ الْغَالِيَاتُ



كانت العرب في الجاهلية، ولا يزال في بعض من فيه رواسب الجاهلية شيء من ذلك، كانوا يكرهون البنات، حتى وصل بهم الإجرام أنهم كانوا يقتلونها حية.

لما جاءت شريعة الله العادلة، حرمت ذلك، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل جعل الله من كريم إحسانه بالبنات قدرا عظيما، حتى أنك تتمنى أن يرزقك الله بالبنات.

البنات في شريعة الله هن المؤنسات الغاليات.

قال ﷺ: «**لَا تَكْرَهُوا الْبَنَاتِ، فَإِنَّهُنَّ الْمُؤْنِسَاتُ الْغَالِيَاتُ**»(٤).

ثم جعل الله أعظم الأجر والجزاء لمن قام بتربيتها، وقام بالإنفاق عليها حتى تكبر.

قال النبي ﷺ: «**مَنْ يَلِي مِنْ هَذِهِ البَنَاتِ شَيْئًا، فَأَحْسَنَ إِلَيْهِنَّ، كُنَّ لَهُ سِتْرًا مِنَ النَّارِ**»(٥).

فإن كبرت وتأهلت للزواج لم يكلفها الشرع بنفقة قط، وجعل لها الحق في أن تقبل أو ترفض الزواج ممن لا تحب.

فقال النبي ﷺ: «**لاَ تُنْكَحُ البِكْرُ حَتَّى تُسْتَأْذَنَ، وَلاَ الثَّيِّبُ حَتَّى تُسْتَأْمَرَ**» **فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، كَيْفَ إِذْنُهَا؟ قَالَ:** «**إِذَا سَكَتَتْ**»(٦).

وإذا زُوجت ممن تكره كان لها الحق في إمضاء النكاح أو رفضه.

فهذه امرأة تدعى خنساء بنت خذام، زَوَّجَهَا أبوها وَهْيَ ثَيِّبٌ فَكَرِهَتْ ذَلِكَ، فَأَتَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ «**فَرَدَّ نِكَاحَهُ**»(٧).

وأوجب لها المهر، وحرم على الرجل أن يأخذ منه شيئا إلا عن طيب نفس منها.

فقال سبحانه: ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾. سورة النساء (٤)

قال الله: ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنْكُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ سورة النساء

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٧٣٧٣)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٢٠٦).
(٥) أخرجه البخاري (٥٩٩٥).
(٦) أخرجه البخاري (٦٩٦٨)، ومسلم (١٤١٩).
(٧) أخرجه البخاري (٥١٣٨).





بل من تزوج امرأة على ما قل من المهر أو كثر، وكان في نيته عند الزواج ألا يؤدي إليها مهرها، ثم مات ولم يعطها لقي الله يوم القيامة زان.

قال النبي ﷺ: «**أَيُّمَا رَجُلٍ تَزَوَّجَ امْرَأَةً بِمَا قَلَّ مِنَ الْمَهْرِ أَوْ كَثُرَ لَيْسَ فِي نَفْسِهِ أَنْ يُؤَدِّيَ إِلَيْهَا حَقَّهَا، خَدَعَهَا، فَمَاتَ وَلَمْ يُؤَدِّ إِلَيْهَا حَقَّهَا، لَقِيَ اللهَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُوَ زَانٍ**»(٨).

وتستحق نصف مهرها بمجرد العقد عليها، فإن أُرخي الستر وجب المهر كله، وإن لم تقدم لزوجها كوب ماء.

وتراه سبحانه يقرر حق الزوجة كما أن للزوج حقا، حيث كانت المرأة قبل ذلك لا يُعترف لها بحق الحياة حتى، فيقول: ﴿**وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِى عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ**﴾. سورة البقرة (٢٢٨)

وأمر بمعاشرتها بالمعروف، والصبر عليها، والتماس العذر لها، وإن أراد المفارقة فلتكن المفارقة بالمعروف، والتسريح بالإحسان.

فقال سبحانه: ﴿**فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ**﴾. سورة البقرة (٢٢٩)

وقال سبحانه: ﴿**وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ الله فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾. سورة النساء (١٩)

وحرم على الأولياء أن يحولوا بين المرأة ورجوعها لزوجها الذي طلقها طلاقا رجعيا، طالما تريد ذلك.

فقال سبحانه: ﴿**وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَالله يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾. سورة البقرة (٢٣٢)

وأوجب لها النفقة بالمعروف، فلا تضيع امرأة في شريعة الله، ولا تلجأ امرأة لعمل إن ظللت الشريعة عباد الله، لكن في مجتمعات النسوية العلمانية تعمل المرأة بلقمتها، في كل مهنة، بل تباع وتشترى عند بني الأصفر. وليست نفقة واجبة فحسب، جعل كل ما ينفقه الرجل على زوجته له به صدقة وأجر، حتى اللقمة، بل حتى شربة الماء.

قال النبي ﷺ: «**إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا، حَتَّى اللُّقْمَةَ تَرْفَعُهَا إِلَى فِي امْرَأَتِكَ**»(٩).

وقال النبي ﷺ: «**إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا سَقَى امْرَأَتَهُ مِنَ الْمَاءِ أُجِرَ**»(١٠).

حتى لو طلقها زوجها فكانت حاملا أو حاضنة فعلى الرجل أن ينفق عليها بالمعروف.

قال الله: ﴿**وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ**

(٨) أخرجه الطبراني في «**المعجم الأوسط**» (١٨٥١)، وصححه الشيخ الألباني في «**صحيح الترغيب والترهيب**» (١٨٠٧).
(٩) أخرجه البخاري (٦٧٣٣)، ومسلم (١٦٢٨) أخرجه البخاري (٦٧٣٣)، ومسلم (١٦٢٨).
(١٠) أخرجه أحمد في «**مسنده**» (١٧١٥٥)، وقال الشيخ الألباني في «**صحيح الترغيب والترهيب**» (١٩٦٣): « حسن لغيره «..

رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾. سورة البقرة (٢٣٣)

وإن ماتت وهي تلد بلّغها الله منازل الشهداء.

قال النبي ﷺ: «وَالْمَرْأَةُ تَمُوتُ بِجُمْعٍ شَهِيدَةٌ»(١١).

فإن أصبحت أمًّا كان حقها وبرها أوجب من حق الأب.

جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهَّ، مَنْ أَحَقُّ النَّاسِ بِحُسْنِ صَحَابَتِي؟ قَالَ: «**أُمُّكَ**» **قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أُمُّكَ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَبُوكَ»**(١٢).

حتى جعل الجنة تحت أقدامها ببر الأولاد ولها، فهو من أعظم القربات عند الله.

فقد جاء رجل إلى النبي ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهَّ، أَرَدْتُ أَنْ أَغْزُو وَقَدْ جِئْتُ أَسْتَشِيرُكَ، فَقَالَ: «**هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَالْزَمْهَا، فَإِنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ رِجْلَيْهَا»**(١٣).

وجعل لها نصيبا في الإرث سواء كانت بنتا أو أما أو زوجة أو أختا، فقد ترث ثلث التركة، وقد ترث السدس، وقد ترث الربع، بل قد ترث النصف، ونصّ الله على ذلك في آيات محكمات قطعية الثبوت والدلالة في سورة النساء.

والله تعالى اختص النساء بأحكام، حيث لم يوجب عليها الجماعة ولا الغزو، وإن لم تجد محرما فلا يجب عليها الحج والعمرة، وإن حاضت لم تصل ولم تصم، وإنما تقضي الصيام دون الصلاة، ولا يجب عليها النفقة في بيت زوجها.

كل هذا كان تخفيفا من الحكيم الخبير عليها مراعاة لطبيعة المرأة.

وعند نشوزها عن طاعة زوجها بدأ الله بالأخف في الإصلاح ثم الأشد، وحرم أذيتها بأي نوع من أنواع الأذى إن هي استجابت وأطاعت، وجعل ضربها في المرتبة الأخيرة بعد الوعظ والهجر، واشترط أن يكون ضربا غير مبرح، لا يترك أثرا، ولا يقطع جلدا، ولا يكسر عظما، وهو مشروط بغلبة الظن في إفادة الإصلاح والتأديب، فإن لم يفد حرم فعله.

قال الله: ﴿وَالَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾. سورة النساء (٣٤)

بل ويقف النبي ﷺ في حجة الوداع أمام الناس جميعا ليوصي بالنساء خيرا، فيقول: «**فَاتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ** [ص: ٨٩٠]**، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لَا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ، وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ**

(١١) أخرجه النسائي في «سننه» (١٨٤٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٢٢٦١).

(١٢) أخرجه البخاري (٥٩٧١).

(١٣) أخرجه النسائي في «سننه» (٣١٠٤)، وحسنه الشيخ الألباني في «إرواء الغليل» (٥/ ٢١).





رِزْقُهُـنَّ وَكِسْـوَتُهُنَّ بِالْمَعْـرُوفِ»[١٤].

وإن تـزوج الرجـل أكثـر مـن زوجـة أوجـب الله عليـه العـدل، وإن خـشي الإنسـان الظلـم حـرم عليـه التعـدد، ولـو تـزوج فـمال لإحداهـن عـلى الأخـرى جـيء بـه يـوم القيامـة وشـقه مائـل

قـال النبـي ﷺ: «**مَـنْ كَانَ لَهُ امْرَأَتَـانِ يَمِيلُ لِإِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَدُ شِـقَّيْهِ مَائِلٌ**»[١٥].

فهل بعد هذا الإحسان إحسان، وهل بعد هذا التكريم تكريم؟

---

(١٤) صحيح مسلم (١٢١٨).

(١٥) أخرجه النسائي في «سننه» (٣٩٤٢)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٩٤٩).





لَقَدْ رَحِمَهَا الله بِرَحْمَتِهَا صَبِيَّيْهَا



في ذات يوم جاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَى عَائِشَةَ ﵂، فَأَعْطَتْهَا عَائِشَةُ ثَلَاثَ تَمَرَاتٍ، فَأَعْطَتْ كُلَّ صَبِيٍّ لَهَا تَمْرَةً، وَأَمْسَكَتْ لِنَفْسِهَا تَمْرَةً، فَأَكَلَ الصِّبْيَانُ التَّمْرَتَيْنِ وَنَظَرَا إِلَى أُمِّهِمَا، فَعَمَدَتْ إِلَى التَّمْرَةِ فَشَقَّتْهَا، فَأَعْطَتْ كُلَّ صَبِيٍّ نِصْفَ تَمْرَةٍ، فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ فَأَخْبَرَتْهُ عَائِشَةُ فَقَالَ: **«وَمَا يُعْجِبُكِ مِنْ ذَلِكِ؟ لَقَدْ رَحِمَهَا الله بِرَحْمَتِهَا صَبِيَّيْهَا»**(١٦).

سبحان من جعل الإحسان إلى أبنائنا رحمة لنا.

يهبك الولد، ويربيه لأجلك، ويعافيه لك، ويثيبك على النفقة عليه، ويصلحه بصلاحك، ويلحقه بك في جنته.

هذه الشريعة العظيمة الباهرة قررت أعظم وأطيب ما يكون من حقوق الطفل، قبل هذه الجمعيات المشبوهة.

قبل أن يُوجد الطفل كفل الشرع له حقه في اختيار أم صالحة دينة.

فقال النبي ﷺ: **«تَخَيَّرُوا لِنُطَفِكُمْ، وَانْكِحُوا الْأَكْفَاءَ، وَأَنْكِحُوا إِلَيْهِمْ»**(١٧).

سمى الله إيجادة في الدنيا هبة، وجعله من نعمه التي امتن بها على عباده.

فقال سبحانه: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ ۝٤٩ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝٥٠﴾ سورة الشورى

وقال الكريم ذو الإكرام: ﴿وَاللهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾. سورة النحل (٢٧)

حرم سبحانه قتل الأولاد خشية الرزق.

فقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾. سورة الأنعام (١٥١)

بل جعله النبي ﷺ من كبائر الذنوب، فإنه لما سأله عبد الله بن مسعود ﵁: **«أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللهِ؟ قَالَ: «أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ». قُلْتُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ، قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «وَأَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ تَخَافُ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ»**(١٨).

---

(١٦) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٨٩)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٦٦).

(١٧) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (١٩٦٨)، وصححه بطرقه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٠٦٧).

(١٨) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٤٤٧٧)، ومسلم (٦٨).

وتوعد أولئك المجرمين الذين يقتلون البنات خشية العار أو الرزق بالعذاب العظيم، وسؤالهم يوم الدين.

فقال الملك: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾ سورة التكوير

وقال سبحانه: ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾. سورة الأنعام (١٤٠)

بل لما زنت امرأة على عهد رسول الله ﷺ، وجاءت تائبة نادمة معترفة على نفسها، تريد أن يُقام عليها الحد، لم يرجمها النبي ﷺ، بل قال لها: «**اذْهَبِي حَتَّى تَلِدِي**»، **فَلَمَّا وَلَدَتْ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ فِي خِرْقَةٍ، قَالَتْ: هَذَا قَدْ وَلَدْتُهُ، قَالَ: «اذْهَبِي فَأَرْضِعِيهِ حَتَّى تَفْطِمِيهِ»، فَلَمَّا فَطَمَتْهُ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ فِي يَدِهِ كِسْرَةُ خُبْزٍ، فَقَالَتْ: هَذَا يَا نَبِيَّ اللهِ قَدْ فَطَمْتُهُ، وَقَدْ أَكَلَ الطَّعَامَ، فَدَفَعَ الصَّبِيَّ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**»[19].

وحقه في أن ينتسب إلى أبيه، حتى يعيش بين الناس حياة الكرام، ولذا حرم الله الزنا، وجعل من كبائر الذنوب أن ينتفي الرجل من ابنه يريد فضيحته.

قال النبي ﷺ: «**مَنِ انْتَفَى مِنْ وَلَدِهِ لِيَفْضَحَهُ فِي الدُّنْيَا، فَضَحَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى رُءُوسِ الْأَشْهَادِ قِصَاصٌ بِقِصَاصٍ**»[20].

وحقه في الرضاع.

قال الله: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾. سورة البقرة (٢٣٣)

بل من فضله سبحانه أنه رخص للمرأة الحامل والمرضع الفطر في رمضان إن خافتا على ولدهما.

وأوجب على أبيه، أو وليه، النفقة عليه، فلا يترك للهلاك والضياع، ففي ظل هذه الشريعة لا تضيع دابة، فضلا عن إنسان كرمه الله رب العالمين.

بل جعل أفضل مال ينفقه الرجل هو ما ينفقه على عياله، بل له به صدقة.

قال النبي ﷺ: «**أَفْضَلُ دِينَارٍ يُنْفِقُهُ الرَّجُلُ، دِينَارٌ يُنْفِقُهُ عَلَى عِيَالِهِ**»[21].

وقال النبي ﷺ: «**إِنَّ الْمُسْلِمَ إِذَا أَنْفَقَ عَلَى أَهْلِهِ نَفَقَةً، وَهُوَ يَحْتَسِبُهَا، كَانَتْ لَهُ صَدَقَةً**»[22].

وأمر بالعدل بين الأولاد، وحرم تفضيل أحد منهم على البقية في الهبة.

---

(١٩) أخرجه مسلم (١٦٩٥).

(٢٠) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤٧٩٥)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٤٨٠).

(٢١) أخرجه مسلم (٩٩٤).

(٢٢) أخرجه مسلم (١٠٠٢).



يقول النعمان بن بشير رضي الله عنه: «**انْطَلَقَ بِي أَبِي يَحْمِلُنِي إِلَى رَسُولِ الله ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، اشْهَدْ أَنِّي قَدْ نَحَلْتُ النُّعْمَانَ كَذَا وَكَذَا مِنْ مَالِي، فَقَالَ: «أَكُلَّ بَنِيكَ قَدْ نَحَلْتَ مِثْلَ مَا نَحَلْتَ النُّعْمَانَ؟» قَالَ: لَا، قَالَ: «فَأَشْهِدْ عَلَى هَذَا غَيْرِي، فَإِنِّي لَا أَشْهَدُ عَلَى جَوْرٍ»، ثُمَّ قَالَ: «أَيَسُرُّكَ أَنْ يَكُونُوا إِلَيْكَ فِي الْبِرِّ سَوَاءً؟» قَالَ: بَلَى، قَالَ: «فَلَا إِذًا**»[٢٣].

بل العدل في شريعة الحكم العدل حتى في القبلات.

ففي ذات يوم كان هناك رجل جالس مع النبي ﷺ، فَجَاءَ ابْنٌ لَهُ فَأَخَذَهُ فَقَبَّلَهُ وَأَجْلَسَهُ فِي حِجْرِهِ، ثُمَّ جَاءَتِ ابْنَةٌ لَهُ فَأَخَذَهَا فَأَجْلَسَهَا إِلَى جَنْبِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**فَهَلَّا عَدَلْتَ بَيْنَهُمَا**»[٢٤].

وحقه في التربية على الدين والفضائل، وإبعاده عن نزغات الشياطين حتى قبل أن يجتمع أبواه.

يقول النبي ﷺ: «**لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَالَ بِاسْمِ اللهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا**»[٢٥].

وألزم الوالد القيام على دين أولاده حتى يكون سببا في نجاتهم من النار.

فقال الله تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾. التحريم (٦)

فقال النبي ﷺ: «**مُرُوا أولاكم بالصلاةِ وهم أبناءُ سبعِ سِنينَ، واضرِبوهم عليها وهم أبناءُ عَشرٍ، وفرِّقوا بينهم في المَضاجِعِ**»[٢٦].

كل هذا وغيره كثير جدا لأجل أطفالنا، لأنها شريعة الحكيم الرحيم.

---

(٢٣) أخرجه البخاري (٢٥٨٦)، ومسلم (١٦٢٣).

(٢٤) أخرجه الطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٥٨٤٧)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٠٩٨).

(٢٥) أخرجه البخاري (١٤١)، ومسلم (١٤٣٤).

(٢٦) أخرجه أبو داود في «سننه» (٤٩٥)، وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» (٢٤٧).



لأجل نملة



كيف لا يُحب، وهو سبحانه يعاتب نبيا كريما لأجل جمعٍ من النمل.

يحكي لنا رسول الله ﷺ فيقول: «**نَزَلَ نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ تَحْتَ شَجَرَةٍ، فَلَدَغَتْهُ نَمْلَةٌ، فَأَمَرَ بِجَهَازِهِ فَأُخْرِجَ مِنْ تَحْتِهَا، ثُمَّ أَمَرَ بِبَيْتِهَا فَأُحْرِقَ بِالنَّارِ، فَأَوْحَى اللهُ إِلَيْهِ: فَهَلَّا نَمْلَةً وَاحِدَةً**»[٢٧].

كلما تخيلت الأمر ازداد حبي لله العظيم.

نبي كريم يجلس تحت ظل شجرة، ثم تخرج نملة فتلدغه، فيتألم، فيحرق بيت النمل.

هذا كله يجري على عين الله، الذي يدبر أمر جميع خلقه، فلا يشغله مخلوق عن غيره.

رأى الله هذا الحدث، فيوحي لنبيه ويعاتبه، قائلا: فهلا نملة واحدة.

يعني: إنما لدغتك نملة واحدة، فهلا قتلت واحدة.

في هذه الشريعة الباهرة شريعة الحكيم العليم العظيم، شريعة العدل والإحسان، لا تُظلم البهائم ولا الدواب.

حتى أنه لا يُفرق بينه وبين صغاره بلا حاجة.

ملأني العجب يوم أن قرأت هذه القصة:

في ذات يوم كان الصحابة مع النبي ﷺ في سفر، قال ابن مسعود رضي الله عنه: كنا مع رسولِ الله ﷺ في سَفَرٍ، فانطَلَق لحاجتِه، فرأينا حُمَّرةً معها فَرْخانِ، فأخذْنا فرخَيها، فجاءتِ الحُمَّرة فجعلتْ تفرُشُ، فجاء النبي ﷺ فقال: «**من فَجَعَ هذِهِ بولَدِها؟ رُدُّوا ولدَها إليها**»[٢٨].

هكذا يا رسول الله تقول: من فجع هذه بولدها؟ ردوا ولدها إليها.

حتى مشاعرها، حتى أنات قلب هذه الدابة شيء لا يعتدى عليه بغير حق.

إطعام الدواب والطير في شريعة الرحمن لك به صدقة، فكيف لا يُحب ربنا بعد ذلك.

يقول النبي ﷺ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ، أَوْ إِنْسَانٌ، أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ**»[٢٩].

---

(٢٧) أخرجه البخاري (٣٣١٩)، ومسلم (٢٢٤١).

(٢٨) أخرجه أبو داود في «سننه» (٢٦٧٥)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٥)..

(٢٩) أخرجه مسلم (١٥٥٣).

في هـذه الشريعـة التـي أرسـى قواعدهـا الرحمـن الرحيـم قـد تنقـذك شربـة مـاء تقدمـا لكلـب ضـال مـن الجحيـم.

هـذا الحيـوان الـذي تأنـف منه النفوس، كانت سـقياه سببا في غفران ذنـوب بغي من بغايا بني إسرائيل.

يقـول النبـي ﷺ: «**بَيْنَـمَا كَلْـبٌ يُطِيـفُ بِرَكِيَّـةٍ قَـدْ كَادَ يَقْتُلُـهُ الْعَطَـشُ، إِذْ رَأَتْـهُ بَغِـيٌّ مِـنْ بَغَايَـا بَنِـي إِسْرَائِيـلَ فَنَزَعَـتْ مُوقَهَـا، فَاسْـتَقَتْ لَـهُ بِـهِ، فَسَـقَتْهُ إِيَّـاهُ، فَغُفِـرَ لَهَـا بِـهِ**»[٣٠].

بل لك في كل شربة ماء تسقيها لحيوان أجر عند الله تعالى.

فهـذا النبي ﷺ يسـأله رجـل فيقـول: «**إِنَّ لَنَـا فِي الْبَهَائِمِ لَأَجْرًا؟ فَقَـالَ**: «**فِي كُلِّ ذَاتِ كَبِـدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ**»[٣١].

حتى دواب الجن حرم الله عليك إفساد طعامهم!!

نعم هكذا كما قرأت، طعام دواب الجن لا يجوز لك إفساده عليهم.

ففـي ليلـة التقـى النبـي ﷺ بالجـن، فقـرأ عليهـم القـرآن، وكان ممـا قـال لهـم: «**لَكُـمْ كُلُّ عَظْـمٍ ذُكِـرَ اسْـمُ اللهِ عَلَيْـهِ يَقَـعُ فِي أَيْدِيكُـمْ أَوْفَـرَ مَـا يَكُـونُ لَحْـمًا وَكُلُّ بَعْـرَةٍ عَلَـفٌ لِدَوَابِّكُـمْ. ثـم قَـالَ رَسُـولُ اللهِ ﷺ لأصحابـه**: «**فَـلَا تَسْـتَنْجُوا بِهِـمَا فَإِنَّهُـمَا طَعَـامُ إِخْوَانِكُـمْ**»[٣٢].

وفي المقابل تدخل امرأة النار في هرة (قطة) حبستها حتى ماتت.

يقـول النبـي ﷺ: «**عُذِّبَـتِ امْـرَأَةٌ فِي هِـرَّةٍ سَـجَنَتْهَا حَتَّـى مَاتَـتْ، فَدَخَلَـتْ فِيهَـا النَّـارَ، لاَ هِـيَ أَطْعَمَتْهَـا وَلاَ سَـقَتْهَا، إِذْ حَبَسَـتْهَا، وَلاَ هِـيَ تَرَكَتْهَـا تَـأْكُلُ مِـنْ خَشَـاشِ الأَرْضِ**»[٣٣].

بـل حتـى هـذا الحيـوان الـذي سـخره الله لـك لتركبـه، أوجـب الله عليـك النفقـة عليـه، أوجـب عليـك إطعامـه، وحـرم أن تحملـه مـا لا يطيـق.

ففـي ذات يـوم دَخَـلَ النبـي ﷺ حَائِطًـا لِرَجُـلٍ مِـنَ الأَنْصَـارِ، فَإِذَا جَمَـلٌ فَلَـمَّا رَأَى النَّبِـيَّ ﷺ حَـنَّ إِلَيْـهِ، وَذَرَفَـتْ عَيْنَـاهُ، فَأَتَـاهُ النَّبِـيُّ ﷺ فَمَسَـحَ ذِفْرَتَـهُ فَسَـكَنَ فَقَـالَ: مَـنْ رَبُّ هَـذَا الْجَمَـلِ لِمَـنْ هَـذَا الْجَمَـلُ؟ قَـالَ: فَجَـاءَ فَتًـى مِـنَ الأَنْصَـارِ فَقَـالَ: هُـوَ لِي يَـا رَسُـولَ اللهِ فَقَـالَ: «**أَلَا تَتَّقِـي اللهَ فِي هَـذِهِ الْبَهِيمَـةِ الَّتِـي مَلَّكَـكَ اللهُ إِيَّاهَـا، فَإِنَّـهُ شَـكَا لِي أَنَّـكَ تُجِيعُـهُ وَتُدْئِبُـهُ**»[٣٤].

وحرم اتخاذه ككرسي.

---

(٣٠) أخرجه مسلم (٢٢٤٥).

(٣١) أخرجه البخاري (٢٣٦٣)، ومسلم (٢٢٤٤).

(٣٢) أخرجه مسلم (٤٥٠).

(٣٣) أخرجه البخاري (٣٤٨٢)، ومسلم (٢٢٤٢).

(٣٤) أخرجه أبو داود في «سننه» (٢٥٤٩)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح أبي داود» (٢٢٩٧).



فقال النبي ﷺ: «**ارْكَبُوا هَذِهِ الدَّوَابَّ سَالِمَةً، وَايْتَدِعُوهَا سَالِمَةً،وَلَا تَتَّخِذُوهَا كَرَاسِيَّ**»[٣٥].

وحرم قتل أي دابة عبثا، بل جعله الله من أعظم الذنوب عنده.

فقال النبي ﷺ: «**إِنَّ أَعْظَمَ الذُّنُوبِ عِنْدَ اللهِ رَجُلٌ تَزَوَّجَ امْرَأَةً، فَلَمَّا قَضَى حَاجَتَهُ مِنْهَا، طَلَّقَهَا، وَذَهَبَ بِمَهْرِهَا، وَرَجُلٌ اسْتَعْمَلَ رَجُلًا، فَذَهَبَ بِأُجْرَتِهِ، وَآخَرُ يَقْتُلُ دَابَّةً عَبَثًا**»[٣٦].

وهذه البهائم التي أذن الله بذبحها، أمر بالإحسان إليها عند ذبحها، فأوجب حدّ السكين، وإراحة الذبيحة، ونهى عن أن يريها السكين عند الذبح، بل جعل ذلك كأنها يميتها مرتين.

فقال النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ**»[٣٧].

وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «**أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِحَدِّ الشِّفَارِ، وَأَنْ تُوَارَى عَنِ الْبَهَائِمِ**» **وَقَالَ**: «**إِذَا ذَبَحَ أَحَدُكُمْ، فَلْيُجْهِزْ**»[٣٨].

و مَرَّ رَسُولُ الله ﷺ عَلَى رَجُلٍ وَاضِعٍ رِجْلَهُ عَلَى صَفْحَةِ شَاةٍ، وَهُوَ يَحُدُّ شَفْرَتَهُ، وَهِيَ تَلْحَظُ إِلَيْهِ بِبَصرِها، قَالَ: «**أَفَلَا قَبْلَ هَذَا، أَوَ تُرِيدُ أَنْ تُمِيتَهَا مَوْتَتَانِ**»[٣٩].

هكذا كان اللطف والرحمة والإحسان إلى الدواب والبهائم، فكيف لا يُحب.

---

(٣٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٥٦٣٩)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢١).

(٣٦) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢٧٤٣)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩٩٩).

(٣٧) أخرجه مسلم (١٩٥٥).

(٣٨) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (٣١٧٢)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣١٣٠).

(٣٩) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١/ ٣٣٢)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٤).

ودينه كله يُسر

يسَر طاعته، وعسَر معصيته

علم ضعفنا فخفف عنا

تصدَّق على عباده

وتلطف غاية التلطف لتستجيب إلى ما فيه حياتك

فكيف لا يُحب



فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى



قال الملك الكريم: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ۝١٠﴾ سورة الليل

فسنيسره لليسرى.. فسنيسره للعسرى.

كيف لا يُحب، وسبحانه جعل طاعته في غاية اليسر، وجعل معصيته في غاية العسر.

فمن أقبل عليه، وصدق بالله ووعده وحسن جزاءه، وابتغى رضوانه، زاده الله يسرا على يسر.

ومن أعرض عنه، ولم يصدق بالله، ولم يؤمن بوعده، واتبع ما يسخطه، يسّر الله طريق الضلال الذي هو في غاية العسر.

بينما الآيات تتوالى في سورة الأعراف عن الكافرين، ومحاوراتهم في الجحيم، إذا تأتي الآيات تتكلم عن أهل الإيمان، فيقول الله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. سورة الأعراف (٤٢)

جاءت هذه الجملة الطيبة في وسط الآية على غير المعهود، فإن المعهود في الآيات: «**والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة**».

لكن جاءت هذه الجملة الطيبة لتدفع عنك تلك الوساوس التي تنزع بها نفسك، وتنزغ بها الشياطين، قائلة لك: أنك لن تستطيع فعل الصالحات، وأنّ ترك المعصية عسير.

كل هذا باطل، فمن فضل الله أنه يسر الطاعة، جعلها في وُسع المكلفين.

أتدري ما معنى: لا نكلف نفسا إلا وسعها؟

كلمة: وُسعها، من السَّعة، أي أن المسلم يستطيع أن يفعل الواجب ويترك المحرم وهو في غاية السعة، لا يضيق بذلك.

الله تعالى لم يجعل علينا حرجا، أي ضيقا.

قال الله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾. سورة الحج (٧٨)

وفوق هذا التيسير هناك تيسير فوق التيسير، وهو إن حصلت مشقة لعذر جاء تيسير آخر.

ففي الوضوء والغسل من لم يجد الماء، أو وجده لكنه يتضرر من استعماله، لم يجب عليه استعماله، وإنما فقط يتيمم، فإن لم يجد ترابا يتيمم به، صلى بلا وضوء ولا تيمم.





قال الله: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ الله لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. سورة المائدة (٦)

بل يفيض قلبك حبا لربك حين تعلم عظمة هذا الدين في تيسيره، حينما غضب النبي ﷺ على هؤلاء الذين عسروا على ذاك الجريح الذي احتلم في ليلة باردة، فسأل رفاقه في السفر: «هَلْ تَجِدُونَ لِي رُخْصَةً فِي التَّيَمُّمِ؟

فَقَالُوا: مَا نَجِدُ لَكَ رُخْصَةً وَأَنْتَ تَقْدِرُ عَلَى الْمَاءِ فَاغْتَسَلَ فَمَاتَ.

فَلَمَّا قدموا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أخبروه بِذَلِكَ فَقَالَ: «قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللهُ، أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا؟ فَإِنَّمَا شِفَاءُ الْعِيِّ السُّؤَالَ، إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيهِ أَنْ يَتَيَمَّمَ، وَيَعْصِبَ عَلَى جُرْحِهِ خِرْقَةً، ثُمَّ يَمْسَحَ عَلَيْهَا، وَيَغْسِلَ سَائِرَ جَسَدِهِ»(١).

ومن أراد أن يصلي وجب عليه أن يقوم في الفرض، فإن عجز، أو كان هناك مشقة بالغة، صلى جالسا، فإن لم يستطع الجلوس صلى على جنبه.

قال النبي ﷺ: «صَلِّ قَائِمًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَقَاعِدًا، فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ فَعَلَى جَنْبٍ»(٢).

وإذا حاضت المرأة أسقط عنها الصلاة والصيام، فإذا طهرت لا تقضي الصلاة وإنما تقضي الصوم.

وعندما أوجب الصيام استثنى المريض والمسافر، فقال سبحانه: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ﴾. سورة البقرة (١٨٤)

فمن لم يستطع الصيام لمرض طارئ أو سفر فعدة من أيام أخر، ومن لم يستطع الصيام مطلقا لمرض مستمر أو كبر سن أطعم عن كل يوم مسكينا.

بل حتى المرأة الحامل، وكذلك المرضع، رحمة منه بجنينها ورضيعها، رفع عنهن الصوم، ثم تقضي بعد ذلك أو تطعم.

فقال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى وَضَعَ عَنِ الْمُسَافِرِ الصَّوْمَ، وَشَطْرَ الصَّلَاةِ، وَعَنِ الْحَامِلِ أَوِ الْمُرْضِعِ الصَّوْمَ»(٣).

وفي الحج حرم على المحرم أشياء كحلق الشعر وقص الأظافر ونحو ذلك، فإن أصابه مرض أو كان به أذى احتاج معه إلى حلق شعره مثلا، جاز له، مع فدية من صيام أو صدقة أو نسك.

قال الله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾. سورة البقرة (١٩٦).

---

(١) أخرجه أبو داود في «سننه» (٣٣٧)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح أبي داود» (٣٦٥).

(٢) أخرجه البخاري (١١١٧).

(٣) أخرجه الترمذي (٧١٥)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح أبي داود» (٢٠٨٣).



وما أُكره عليه العبد لا يؤاخذه الله عليه، حتى من أُكره على الكفر لا يؤاخذه الله بذلك.

هذا عمار بن ياسر من المستضعفين المؤمنين، آمن بالله ورسوله ﷺ، فعذبه المشركون، حتى قتلوا أمه سمية رضي الله عنها، وظلوا يعذبونه فَلَمْ يَتْرُكُوهُ حَتَّى سَبَّ النَّبِيَّ ﷺ، وَذَكَرَ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ ثُمَّ تَرَكُوهُ، فَلَمَّا أَتَى رَسُولَ اللهَّ ﷺ قَالَ: «**مَا وَرَاءَكَ؟**» قَالَ: **شَرٌّ يَا رَسُولَ الله، مَا تُرِكْتُ حَتَّى نِلْتُ مِنْكَ، وَذَكَرْتُ آلِهَتَهُمْ بِخَيْرٍ** قَالَ: «**كَيْفَ تَجِدُ قَلْبَكَ؟**» قَالَ: **مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ** قَالَ: «**إِنْ عَادُوا فَعُدْ**»[٤].

فأنزل الله تعالى قوله: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. سورة النحل (١٠٦)

ورفع عنا الخطأ والنسيان، فقال سبحانه: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ الله غَفُورًا رَحِيمًا﴾. سورة الأحزاب (٥)

وقال النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَّ قَدْ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ، وَالنِّسْيَانَ، وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ**»[٥].

ومن رحمته لا يؤاخذ العبد في يمينه طالما خرج لغوا لا يقصده، وإنما يؤاخذه إذا عقد القلب عليه.

فقال سبحانه: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ الله بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَالله غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾. سورة البقرة (٢٢٥)

وهذه الوسوسة التي تجول في خاطرك دون أن تكون عزما، لا يؤاخذك الله بها، عفا عنها العفو الكريم.

قال النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَّ تَجَاوَزَ لِي عَنْ أُمَّتِي مَا وَسْوَسَتْ بِهِ صُدُورُهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ أَوْ تَكَلَّمْ**»[٦].

وعند الضرورة قد يباح الحرام بقدره، فلا محرم مع ضرورة، والضرورة تقدر بقدرها.

قال الله تعالى: «إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. سورة البقرة (١٧٣)

هذا هو دين الله الكريم الرحيم

دين كله يسر، وعند المشقة والعذر تجد فوق اليسر يسر.

فالمشقة تجلب التيسير، والضرورات تبيح المحذورات.

فلا واجب مع عجز، ولا محرم مع ضرورة.

والوسوسة والخطأ والنسيان والإكراه كل هذا محل عفوه.

فأي كرم وأي فضل بعد هذا الكرم والفضل، فكيف لا يُحب.

(٤) أخرجه الحاكم في «**المستدرك**» (٣٣٦٢)، **قال ابن حجر في «فتح الباري» (١٢/ ٣١٢)**: «وَرِجَالُهُ ثِقَاتٌ مَعَ إِرْسَالِهِ، وَهَذِهِ الْمَرَاسِيلُ تَقَوَّى بَعْضُهَا بِبَعْضٍ». انتهى.

(٥) أخرجه ابن ماجه في «**سننه**» (٢٠٤٣)، **وصححه الشيخ الألباني في «صحيح ابن ماجه»** (١٦٦٢).

(٦) أخرجه البخاري (٢٥٢٨).





وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا



وإحسانه يأخذ بمجامع قلبك، حتى يكون السير إليه سير القلوب قبل الأبدان.

عندما تقرأ هذه الآية: «قال الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ الْآنَ خَفَّفَ الله عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَالله مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ سورة الأنفال

خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا.

كان في أول الأمر يجب على المسلم عند قتال المشركين الثبات أمام عشرة، وفراره من أمامهم محرم، ثم نسخ الله هذا الحكم تخفيفا على المسلمين، لضعفهم، فشملتهم رحمته، فأصبح الحكم وجوب الثبات أمام اثنين فقط.

الله الكريم الرحيم نحن خلقه، هو من أنشأنا، أعلم بنا من أنفسنا، يعلم ضعفنا وعجزنا، ولما سبقت رحمته غضبه، شملتنا رحمته فخفف عنا.

قال الملك: ﴿يُرِيدُ الله أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾. سورة النساء (٢٨)

كل شريعة شرعها الله فهي على ما هي عليه يسر وتخفيف من الله، حتى لو رأيتها شاقة بعض الشيء، فإنها تناسب ضعفك.

لما رأى الله ضعفك أمام نفسك وشهواتها منعك مما يعلم أن فيه هلاكك، وأنك لا تصبر عليه، فأمرك بغض البصر، ونهاك أن تمد عينك، رحمة بك لضعفك.

لأنه يعلم شدة تعلقك بغير المقدور عليه، فتظل متحسرا، فلا أنت نلت ما اشتهيت، ولا غضضت فاسترحت.

عندما أوجب الملك القصاص إبقاء على حياة الناس، شرع الدية ورغب في العفو، ثم علل ذلك فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. سورة البقرة (١٧٨).

والله ما أجمل الكلمة: ذلك تخفيف من ربكم ورحمة.

في أول الإسلام أوجب الله على نبيه ﷺ وعلى الأمة قيام الليل، ثم لأنه يعلم سبحانه ضعفنا، ويعلم أن فينا المريض، ومنا من يسعى على رزقه في النهار، ومنا المجاهد في سبيل الله، نسخ الله وجوب



قيام الليل، وأصبح مجرد ما تيسر وأمكن هو الواجب، ثم نسخ الله الوجوب، وأصبح مستحبا.

واقرأ معي هذه الآيات، وألق بعينك على هذه الكلمات، وهو يقول: «علم أن سيكون منكم مرضى..

قال سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ﴾. سورة المزمل (٢٠)

وانظر إلى عظمة لطفه وتيسيره وتخفيفه في هذا الحوار الذي كان بين الله ونبينا محمد ﷺ عند معراجه إلا السموات العلى

عندما فرض الله علينا خمسين صلاة في كل يوم وليلة، لقي النبي ﷺ موسى عليه السلام فقال له: «: يَا مُحَمَّدُ، مَاذَا عَهِدَ إِلَيْكَ رَبُّكَ؟ قَالَ: عَهِدَ إِلَيَّ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ، فَارْجِعْ فَلْيُخَفِّفْ عَنْكَ رَبُّكَ وَعَنْهُمْ، فَالْتَفَتَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى جِبْرِيلَ كَأَنَّهُ يَسْتَشِيرُهُ فِي ذَلِكَ، فَأَشَارَ إِلَيْهِ جِبْرِيلُ: أَنْ نَعَمْ إِنْ شِئْتَ، فَعَلَا بِهِ إِلَى الجَبَّارِ، فَقَالَ وَهُوَ مَكَانَهُ: يَا رَبِّ خَفِّفْ عَنَّا فَإِنَّ أُمَّتِي لَا تَسْتَطِيعُ هَذَا، فَوَضَعَ عَنْهُ عَشْرَ صَلَوَاتٍ ثُمَّ رَجَعَ إِلَى مُوسَى، فَاحْتَبَسَهُ فَلَمْ يَزَلْ يُرَدِّدُهُ مُوسَى إِلَى رَبِّهِ حَتَّى صَارَتْ إِلَى خَمْسِ صَلَوَاتٍ، ثُمَّ احْتَبَسَهُ مُوسَى عِنْدَ الخَمْسِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ وَاللَّهِ لَقَدْ رَاوَدْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَوْمِي عَلَى أَدْنَى مِنْ هَذَا فَضَعُفُوا فَتَرَكُوهُ، فَأُمَّتُكَ أَضْعَفُ أَجْسَادًا وَقُلُوبًا وَأَبْدَانًا وَأَبْصَارًا وَأَسْمَاعًا فَارْجِعْ فَلْيُخَفِّفْ عَنْكَ رَبُّكَ، كُلَّ ذَلِكَ يَلْتَفِتُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى جِبْرِيلَ لِيُشِيرَ عَلَيْهِ، وَلَا يَكْرَهُ ذَلِكَ جِبْرِيلُ، فَرَفَعَهُ عِنْدَ الخَامِسَةِ، فَقَالَ: يَا رَبِّ إِنَّ أُمَّتِي ضُعَفَاءُ أَجْسَادُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ وَأَسْمَاعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَأَبْدَانُهُمْ فَخَفِّفْ عَنَّا، فَقَالَ الجَبَّارُ: يَا مُحَمَّدُ، قَالَ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، قَالَ: إِنَّهُ لَا يُبَدَّلُ القَوْلُ لَدَيَّ، كَمَا فَرَضْتُهُ عَلَيْكَ فِي أُمِّ الكِتَابِ، قَالَ: فَكُلُّ حَسَنَةٍ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا، فَهِيَ خَمْسُونَ فِي أُمِّ الكِتَابِ، وَهِيَ خَمْسٌ عَلَيْكَ».. ثم في نهاية الحديث قال النبي ﷺ فَلَمَّا جَاوَزْتُ نَادَى مُنَادٍ: أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي، وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي[٧].

تعال استمتع معي بهذا الجمال في هذا الحديث:

الله يعلم كل شيء، وله الفضل أولا وآخرا.

انظر كيف ألهم موسى عليه السلام أن يقول ما قال للنبي ﷺ، وكيف ألهم الله نبيه ﷺ أن يدعو ربه، مقدما بين يدي دعوته حال أمته، وضعفهم، فيقول: «يا رب إن أمتي ضعفاء أجسادهم وقلوبهم وأسماعهم وأبصارهم وأبدانهم فخفف عنا.

وانظر كيف استجاب الكريم فخففها، وهو يعلم ابتداءً قبل فرضها أنها ستكون خمسا لا خمسين، لكن أراد أن يعطيك أجر خمسين، ويفرض عليك خمسا فحسب.

ثم انظر إلى جميل الختام وهو يقول سبحانه: «**أمضيت فريضتي وخففت على عبادي**». فاللهم لك الحمد.

(٧) أخرجه البخاري (٣٢٠٧) و (٧٥١٧).



ثم اعلم أيها العبد الضعيف أنه لا حول لك ولا قوة إلا بالله، فاستعن به يقويك.

عندما تسمع الأذان خمس مرات، تقول مثل ما يقول، إلا عندما يقول المؤذن» حي على الصلاة حي على الفلاح». تقول حينها: «**لا حول ولا قوة إلا بالله**». مع أنها خمس صلوات لا خمسين، إلا أنك لا غنى لك عن ربك، ولا عن عونه.

تبرأ إلى الله من حولك، ومن قوتك، فلا تحول لك من حال إلى حال، ولا قوة لك على شيء إلا بالله القوي المتين .

صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللهُ بِهَا عَلَيْكُمْ



وبعد كل هذا الإحسان، يتصدق الله عليك، فكيف لا يُحب.

في ذات يوم جاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى النبي ﷺ متعجبا يسأله عن هذه الآية: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُبِينًا﴾. سورة النساء.

فالآية تدل على إباحة قصر الصلاة في السفر عند الخوف، والآن قد أمن الناس، ولا يزال النبي ﷺ يقصر الصلاة في السفر، فكيف ذلك؟

فكان جواب النبي ﷺ: «**صَدَقَةٌ تَصَدَّقَ اللهُ بِهَا عَلَيْكُمْ، فَاقْبَلُوا صَدَقَتَه**»[٨].

لو أن رجلا كريما رأى أخاه في ضائقة ما، فأعطاه مالا يقضي به حاجته، ثم لما قضيت الحاجة جاء المدين بهذا المال ليدفعه لصاحبه، فقال صاحب المال، هو لك، لا أريده. كيف يمكنك أن تصف هذا الكريم النبيل؟

الله أكرم الأكرمين، بعد أن خفف الصلاة من خمسين إلى خمس، شرع قصر الصلاة الرباعية إلى ثنتين عند الخوف في السفر، فلما زال الخوف وبقي السفر، أبقى الله على قصر الصلاة، حتى وإن لم تحتج إليه، فهي صدقته، خذها من الكريم سبحانه فضلا منه وإحسانا.

دعى الله عباده للصدقة، ووعدهم بعظيم الخلف والعوض والجزاء في الدنيا والآخرة، هذا في حياتك، وبعد موتك يكون المال مال الورثة.

لكن كان من صدقة الله علينا أن تصدق علينا بثلث أموالنا عند الموت، نوصي بإخراجه بعد الوفاة، فتنفذ وإن كره الوارث، فضلا من الله ورحمة، وزيادة لك في عملك بعد الموت.

قال النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَصَدَّقَ عَلَيْكُمْ عِنْدَ وَفَاتِكُمْ بِثُلُثِ أَمْوَالِكُمْ، زِيَادَةً لَكُمْ فِي أَعْمَالِكُمْ**»[٩].

أرأيت ذاك العبد المسكين الذي أوى إلى فراشه، فنوى بقلبه، ولا يعلم ما في القلوب إلا الله، نوى أن يقوم فيصلي لله بالليل، فيعلم الله صدقه، ويعلم ضعفه، فيلقي عليه النوم صدقة منه عليه، ويعطيه أجر الصلاة كأنه قام فصلى، لأنه الكريم.

قال النبي ﷺ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِقِيَامِ سَاعَةٍ مِنَ اللَّيْلِ، فَيَنَامُ عَنْهَا، إِلَّا كَانَ نَوْمُهُ صَدَقَةً تَصَدَّقَ اللهُ بِهَا عَلَيْهِ، وَكُتِبَ لَهُ أَجْرُ مَا نَوَى**»[١٠].

---

(٨) أخرجه مسلم (٦٨٦).

(٩) أخرجه ابن ماجه في «سننه» ()، وأحمد في «مسنده» (٢٧٤٨٢)، وحسنه الشيخ الألباني بمجموع طرقه في «إرواء الغليل» (١٦٤١).

(١٠) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٢٥٨٨)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٦٠٢).



فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى



عجّت الدنيا بالطواغيت الذين ملأوا الأرض فسادا، لكن لم تعرف الدنيا جبارا عنيدا غشوما مثل فرعون.

استعبد بني إسرائيل، وسامهم سوء العذاب، ذبح أطفالهم، واستحيى نسائهم.

ادعى الألوهية، وجعل الناس يسجدون له من دون الله، فسّق أهل مصر حتى صاروا له تبعا.

تمادى في الطغيان حتى قال: أنا ربكم الأعلى.

صدّ عن سبيل الله من آمن، جاء بالسحرة ليطفئوا نور الله.

ولما آمن السحرة قتلهم شر قتلة، صلبهم على جذوع النخل، وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف.

ومع كل ذلك، وأكثر من ذلك، أرسل الله إلى موسى عليه السلام ليدعو فرعون وملأه.

فانظر كيف وصى الله موسى قبل ذهابه:

قال الله: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿٤٤﴾﴾ سورة طه

مع عِظم كفر فرعون وطغيانه، ومع علم الله أنه سيظل على كفره، بل ويعلم أنه سيهلك وهو يستميت في قتل عباده الموحدين، ومع ذلك كانت تلك وصيته: «**فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى**».

في ذات يوم جاء نفر من المشركين إلى النبي ﷺ، كان هؤلاء على الكفر، وأزهقوا كثيرا من الأرواح البريئة، والأنفس المعصومة، وانتهكوا الأعراض، زنوا فأكثروا.

فقالوا: إِنَّ الَّذِي تَقُولُ وَتَدْعُو إِلَيْهِ لَحَسَنٌ، لَوْ تُخْبِرُنَا أَنَّ لِمَا عَمِلْنَا كَفَّارَةً.

فأنزل الله تعالى آيات يدعوهم فيها إليه، وكانت في غاية التلطف:

قال الله: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. سورة الزمر (٥٣)

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ الله إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ الله غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ الفرقان[(١١)].

(١١) أخرجه البخاري (٤٣١٠)، ومسلم (١٢٢).

مع أن الله له كمال الغنى، ومع أن العباد لا غنى لهم عن ربهم طرفة عين.

ومع أنه سبحانه أوجب عليهم لهم لا له، وأوجب عليهم ما فيه الخير لهم في الدنيا والآخرة، وأحل لهم الطيبات، وحرم عليهم الخبائث.

ومع أنه علم ضعف عباده فخفف عنهم، ويسر لهم دينه، ورفع الحرج عنهم، إلا إلا أنه عندما دعاهم إليه كان دعاؤه في غاية التلطف والتودد، حتى يكسرك خطابه من واسع لطفه ووده.

فانظر كيف نادى على الناس جميعا:

فقال: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝٢١ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾ سورة البقرة. يدعوهم لعبادته، ويذكرهم بنعمه وأفضاله.

ويقول: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝١٦٨ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝١٦٩﴾ سورة البقرة

يمتن عليهم بما أباح لهم من حلال طيب، ثم يحذرهم عدوهم الشيطان الرجيم، وكيف أنه يدعوهم إلى السوء والفحشاء.

ويقول: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾. سورة النساء (١)

يأمرهم بتقواه، لأنه خلقهم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وبث منهما هذه الذرية، ثم يحثهم على صلة الأرحام.

ويقول: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ الله عَلِيمًا حَكِيمًا﴾. سورة النساء (١٧٠)

ويقول: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. سورة يونس (٥٧)

ويقول: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾. سورة لقمان (٣٣)

ويقول: «يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَالله هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾. سورة فاطر (١٥)

وينادي على الإنسان، بوصفه إنسان، يذكره بربه وخالقه، يعاتبه: ما الذي حملك على الإعراض، فيقول: ﴿يَاأَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝٦ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ سورة الانفطار





وينسب الخلق إليه نسبة العبودية، حتى أولئك الذين أعرضوا عنه.

فيقول: «وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾. سورة البقرة (١٨٦)

ويقول: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾. سورة الحجر

بل يرد على الشيطان اللعين الذي أقسم على إغواء بني آدم، فيقول: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾. سورة الحجر (٤٢)

بل وينادي على أولئك الذي أشركوا وقتلوا فأكثروا وزنوا فأكثروا، يناديهم بلفظ العبودية وينسبهم إليه، ويدعوهم للإنابة لهم، ولا يقنطهم من رحمته، فيقول: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾. سورة الزمر (٥٣)

وينادي على أهل الإيمان بألطف نداء وأطيبه، فإذا أراد أن يأمرهم أو ينهاهم أو يذكرهم، قدم بين يدي ذلك وصف الإيمان.

فيقول: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾. سورة البقرة (١٥٣)

ويقول: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾. سورة البقرة (١٧٢)

ويقول: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. سورة البقرة (١٨٣)

ويقول: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. سورة البقرة (٢٥٤)

وكثيرا ما يذكر لهم علة الأمر والنهي، ويبين لهم الحكمة، مع أنه كان كافيا أن يأمر فيُطاع، لكنه خطاب اللطيف الكريم

يأمرهم بالصيام، ويختم الأمر بالعلة: «**لعلكم تتقون**»

فيقول: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. سورة البقرة (١٨٣)

ويحثهم على كتابة الدَّين، ثم يبين لهم أن هذا لأجلهم كي لا يرتابوا.

فيقول: ﴿وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا﴾. سورة البقرة (٢٨٢)

وينهى عن الخمر، ثم يبين لهم بيان الحكيم العليم فيقول: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾. سورة المائدة (٩١)



وعندما أمرهم بالتثبت من خبر الفاسق، بيّن لهم العلة فقال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾. سورة الحجرات (٦)

وعندما نهاهم عن النجوى، أعلمهم أن هذا حفاظا على قلوبهم من أن يدخلها حزن، فقال: ﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾. سورة المجادلة (١٠)

بل قد يقدم العلة قبل الحكم، رفقا منه بخلقه.

فيقول: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ﴾. سورة البقرة (٢٢٢)

بل في خطابه للكافرين غاية التلطف، حتى تأسرك الكلمات، وتتسائل: أكل هذا التلطف مع الذين كفروا؟

فانظر كيف نادى عليهم يدعوهم إلى ترك ما هم عليه، ويعدهم بالصفح والمغفرة إن تركوا كفرهم.

فيقول: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾. سورة الأنفال (٣٨)

ويدعوا المشركين الذين ادعوا له الولد، يدعوهم إلى التوبة والاستغفار، وترك الشرك.

فيقول: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ سورة المائدة

وانظر كيف دعاهم إلى التفكر والنظر، والتأمر في حال السابقين، وذكرهم عاقبة ما هم عليه، بألطف ما يكون خطابا

فقال الجليل: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾ سورة سبأ

حتى لما وقعوا في الأسر بعد غزوة بدر، وشرع فيهم الفداء، انظر كيف يخاطب أعداءه الذين طردوا أولياءه من مكة، وأخذوا أموالهم، وجاءوا لحربهم.

فيقول: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. سورة الأنفال (٧٠)

ولا يذكر الإنذار إلا ومعه البشارة، بل ويقدمها غالبا عليه.





فيقول الكريم: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾. سورة الأنعام (١٤٧)

ويقول: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ سورة الحجر

ويقول: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. سورة الأعراف (١٦٧)

ثم يصف الكافر بأنه كان مع الشيطان على ربه، مع أنه سبحانه أراد نجاته، والشيطان أراد هلاكه.

فقال الله: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾. سورة الفرقان (٥٥)

ومن أجمل وألطف ما جاء في القرآن، قوله سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾. سورة الكهف (٥٠)

وكأنه يقول لك: إن إبليس حسدكم على مكانتكم عندي، فأبى السجود لأبيكم، فلعنته وطردته لأجل ذلك، ثم بعد ذلك توالونه من دوني وأنا حبيبكم وهو عدوكم، بئس للظالمين بدلا.

كان يحيى بن معاذ رحمه الله يتلو هَذِهِ الْآيَةَ ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾، ثم يقول: «**إِلَهِي وَسَيِّدِي، هَذَا رِفْقُكَ لِمَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ إِلَهٌ، فَكَيْفَ رِفْقُكَ بِمَنْ يَقُولُ: أَنْتَ الْإِلَهُ**»[١٢].

(١٢) أخرجه البيهقي في «**شعب الإيمان**» (٤١٩٣).



وإن أردت الآخرة، وأقبلت إليه، شكرك على إحسانك لنفسك.

يتقرب إليك أعظم من تقربك إليك

يزيدك هدى

لأنه يتولاك



وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ



تلك هي البداية، نقطة الانطلاق.

أن يرى الله من قلبك أنك تريده، تحب الهدى على العمى، تريد أن تصل.

ينظر الله إلى قلبك، فإن رأى فيه ذرة خير شكرك عليها فهداك واجتباك.

يقول الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾. سورة النساء (٤٠)

هذه الذرة من الخير التي أنبتها الله في قلبك، سيتولاها الكريم، حتى تصير شجرة تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

لا سواء عند الله بين من استحب العمى ومن استحب الهدى.

لا سواء بين من أقبل عليه، ومن أعرض عنه.

لا سواء بين من جاءه الحق فأذعن له، ومن جاءه الحق فتكبر عليه ورده.

إن رأيت زائغا أو ضالا أو تائها في الظلمات فاعلم أنه هو من تولى وأعرض، فإن الرب كريم عزيز.

قال الله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. سورة فصلت (١٧)

القصة: أول مرة، عندما سمعت القرآن، أول مرة عندما جاءك داعي الإيمان، ماذا فعلت، وماذا أردت؟

يقول الله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾. سورة الأنعام (١١٠)

بَيْنَمَا النبي ﷺ جَالِسٌ فِي المَسْجِدِ وَالنَّاسُ مَعَهُ إِذْ أَقْبَلَ ثَلاثَةُ نَفَرٍ، فَأَقْبَلَ اثْنَانِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَذَهَبَ وَاحِدٌ.

فَوَقَفَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَمَّا أَحَدُهُمَا: فَرَأَى فُرْجَةً فِي الحَلْقَةِ فَجَلَسَ فِيهَا، وَأَمَّا الآخَرُ: فَجَلَسَ خَلْفَهُمْ، وَأَمَّا الثَّالِثُ: فَأَدْبَرَ ذَاهِبًا.





فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَلاَ أُخْبِرُكُمْ عَنِ النَّفَرِ الثَّلاَثَةِ؟

أَمَّا أَحَدُهُمْ فَأَوَى إِلَى اللهِ فَآوَاهُ اللهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَاسْتَحْيَا فَاسْتَحْيَا اللهُ مِنْهُ، وَأَمَّا الآخَرُ فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللهُ عَنْهُ»[1].

أيسوي الله بين من أوى إليه، ومن أعرض عنه، لا والله، لا سواء.

قال الغفور الشكور: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا﴾. سورة الإسراء (١٩)

(١) أخرجه البخاري (٦٦)، ومسلم (٢١٧٦).

تقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا



ماذا لو أقبلت عليه؟

ماذا لو آمنت به؟

ماذا لو أطعته؟

لا تفي الكلمات تعبيرا عن عظمة الحفاوة والتكريم من الرب العظيم الغني، ولكن اسمح لي بنفحة تملأ عليك الدنيا طيبا:

يقول الملك جل جلاله كما في الحديث القدسي الذي يرويه خليل رب العالمين نبينا محمد ﷺ عن ربه الكريم الأكرم:

أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي.

فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ.

وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا.

وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً»(٢).

وفي رواية: «**وَمَنْ أَقْبَلَ عَلَى اللهِ مَاشِيًا، أَقْبَلَ اللهُ إِلَيْهِ مُهَرْوِلًا، وَاللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ، وَاللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ، وَاللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ**»(٣).

الله هو الشكور، والشكر هو الزيادة والمضاعفة في الجزاء والثواب.

عندنا نحن البشر تشكر غيرك لأنه أحسن إليك.

أما الله فيشكرك لإحسانك لنفسك، فهو الغني عن العالمين، لكنه يريدك لك، فإن أحسنت شكرك لإحسانك لنفسك.

تذكره في نفسك، فيذكرك في نفسك.

ومن أنت، ومن هو؟

أنت العبد المخلوق الفقير الضعيف صاحب النفس الظلومة الجاهلة.

أما هو فهو ذو الجلال والكمال والإكرام، ذو الغنى والعز والمجد والكرم.

تتقرب إليه شبرا يتقرب إليك ذراعا، وتتقرب منه ذراعا يتقرب إليك باعا، تأتيه تمشي يأتي إليك هرولة.

فتقربه إليك وإقباله عليك أعظم من إقبالك عليه.

---

(٢) أخرجه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

(٣) أخرجه أحمد في «**مسنده**» (٢١٣٧٤)، وإسناده حسن.





تَرَكَهَا مِنْ أَجْلِي



وإن تركت لأجله، أعطاك فوق المزيد.

مع أنه سبحانه جل في علاه حرّم لأجلك، لأنه رؤوف بعباده، أعلم بهم من أنفسهم، فحرم عليهم كل خبيث، تخبث به النفوس، وأحل لهم ما تطيب به النفوس، إن تركت ما حرمه لأجلك له عوضك عنه ما هو خير منه وأعظم وأطيب.

وأول ما يعطيك، أن يثيبك على ما نويت فعله مما حرمه عليك ثم تركته لأجله.

إنه ليس فقط لا يؤاخذك على إرادتك السوء، بل يجزيك على تركك الحرام خيرا عظيما.

قال الله في الحديث القدسي الإلهي لملائكته: «**إِذَا أَرَادَ عَبْدِي أَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً، فَلاَ تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ حَتَّى يَعْمَلَهَا، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا بِمِثْلِهَا، وَإِنْ تَرَكَهَا مِنْ أَجْلِي فَاكْتُبُوهَا لَهُ حَسَنَةً**»(٤).

ثم يعوضك عن الحرام الذي تركته لأجله خيرا في الدنيا والآخرة.

يقول النبي ﷺ: «**إِنَّكَ لَنْ تَدَعَ شَيْئًا اتِّقَاءَ اللهِ إِلَّا أَعْطَاكَ اللهُ خَيْرًا مِنْهُ**»(٥).

كن على يقين أنك إن تركت المال الحرام سيعوضك به بركة في الحلال الطيب.

وإن تركت النظرة الحرام سيعوضك عنها طيب الحياة ونعيما وسرورا تجد حلاوته في قلبك.

وإن تركت لأجله ما يجب أن تتركه لأجله من حلال طيب تبتغي بذلك القرب، فهذا أمر لا يعلم عِظم أجره إلا هو.

عندما تصوم فتترك الحلال الطيب من طعام وشراب وزوجة، فهذا أعظم أجرا من مضاعفة حسنة بسبعمائة.

فقط لأنه لأجله هو.

يقول النبي ﷺ: «**كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ يُضَاعَفُ، الْحَسَنَةُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِمِائَةِ ضِعْفٍ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِلَّا الصَّوْمَ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، يَدَعُ شَهْوَتَهُ وَطَعَامَهُ مِنْ أَجْلِي**»(٦).

بل ومن جميل ما أنت قارئ، نبأ هؤلاء الثلاثة الذي آثروا مرضات الكريم على حظ نفوسهم من

(٤) أخرجه البخاري (٧٥٠١).
(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٠٧٣٩)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الضعيفة» (١/ ٦٢).
(٦) أخرجه مسلم (١١٥١).

الدنيا، فكان جزاؤهم حب رب العالمين، وضحكه لهم، وما أدراك ما جزاء من يضحك الله إليه؟!

لكن إليك نبأهم أولا:

قال النبي ﷺ: «**ثَلَاثَةٌ يُحِبُّهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، يَضْحَكُ إِلَيْهِمْ وَيَسْتَبْشِرُ بِهِمْ، الَّذِي إِذَا انْكَشَفَتْ فِئَةٌ قَاتَلَ وَرَاءَهَا بِنَفْسِهِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِمَّا أَنْ يُقْتَلَ، وَإِمَّا أَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَيَكْفِيهِ، فَيَقُولُ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي كَيْفَ صَبَّرَ لِي نَفْسَهُ، وَالَّذِي لَهُ امْرَأَةٌ حَسْنَاءُ وَفِرَاشٌ لَيِّنٌ حَسَنٌ، فَيَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ فَيَذَرُ شَهْوَتَهُ فَيَذْكُرُنِي وَيُنَاجِينِي وَلَوْ شَاءَ لَرَقَدَ، وَالَّذِي يَكُونُ فِي سَفَرٍ وَكَانَ مَعَهُ رَكْبٌ فَسَهِرُوا وَنَصَبُوا ثُمَّ هَجَعُوا فَقَامَ فِي السَّحَرِ فِي سَرَّاءٍ أَوْضَرَّاءٍ**»[7].

هل حرك قلبك قول الملك: انظروا إلى عبدي كيف صبّر لي نفسه.

السر هنا: لي، ولا تكون إلا لمحب لا يتصنع الحب.

الحياة غالية لكنه أرخصها لربه، لم يبال، طالما أنها لله.

الفراش اللين، والزوجة الحسناء، متاع من متاع الدنيا تهفو إليه النفوس، لكن مناجاته ربه ومولاه أشهى لنفسه وأقر لعينه من كل هذا.

عندما ينصب الجسد يكون أشهى ما يكون أن يضع الإنسان جنبيه فيرقد، لكن هذا العبد مع نصبه، ولا رفيق، بل كلهم ناموا ورقدوا، إلا أنه قام يصف قدميه لربه ومولاه.

كان الجزاء: محبة الملك، وضحكه لهم، واستبشاره بهم.

أما جزاء من ضحك الله إليه، فمن ضحك الله له فلا حساب عليه.

يقول النبي ﷺ: «**إِنَّ رَبَّكَ إِذَا ضَحِكَ إِلَى قَوْمٍ فَلَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ**»[8].

فاللهم نسألك حبك، وضحكك إلينا، يا عظيم الفضل، يا كريم الإحسان.

---

(٧) أخرجه البيهقي في «**الأسماء والصفات**» (٩٨٣)، وحسنه الشيخ الألباني في «**السلسلة الصحيحة**» (٣٤٧٨).

(٨) أخرجه الطبراني في «**المعجم الأوسط**» (٤١٣١)، وصححه الشيخ الألباني في «**السلسلة الصحيحة**» (٢٥٥٨).



وَزِدْنَاهُمْ هُدًى



كريم ربنا والله، ما أن يقبل العبد هدى الله فيؤمن حتى يهديه، ويزيده هدى.

هؤلاء الفتية، أصحاب الكهف، شباب آمنوا بالله، فاعتزلوا الباطل وأهله.

ولأن الرب شكور، قال: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾. سورة الكهف (١٣)

نقطة الانطلاق الإيمان، التصديق، اليقين، الانقياد، القبول.

عندما توقن بربك ربا للكون، رب العالمين.

عندما توقن بربك إلها معبودا مطاعا لا معبود بحق إلا هو.

عندما تقر وتشهد له بالوحدانية، وتتبرأ من كل طواغيت الأرض.

عندما يصدق قلبك، ويشهد لسانك، ويصدق عملك، بأن الله واحد أحد، لا شريك له في ملكه، ولا في سلطانه، هو من يخلق ويرزق ويدبر الأمر، فيكون خضوعك وانقيادك وطاعتك وتحاكمك له وحده لا شريك له.

عندما توقن باليوم الآخر، وأنك ملاق ربك، وأنه سيجاسبك ويجازيك على عملك، وأن هناك جنة ونارا.

هنا نقطة الانطلاق، والتي منها يأتي كل خير، حينئذ يهديك الله بإيمانك، ويزيدك هدى، فينعم عليك الكريم بلذة الإيمان

للإيمان طعم، ولذة، وحلاوة، وبشاشة، يذيقها الله من آمن به ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا.

قال النبي ﷺ: «**ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا**»[٩].

عندما تقنع وتكتفي بربوبية الله لك، فترى كل من سواه عبيدا مملوكين مرزوقين، فيتعلق قلبك به وحده، وترجوه وحده، وتخافه وحده، ووتوكل عليه وحده، حينئذ تذوق حلاوة الإيمان.

عندما ينشرح صدرك لأحكام الإسلام التي شرعها الحكيم العليم، فترضى بها، وتقبلها دون انتقاء، حينئذ تتذوق حلاوة الإيمان.

(٩) أخرجه مسلم (٣٤).



عندما تؤمن بنبينا محمد ﷺ رسولا مبلغا عن الله رسالته ومراده، فلا تقدم عليه أحدا كائنا من كان، وتطيعه وتعزره، وتنصر شريعته، حينئذ تتذوق حلاوة الإيمان.

يقول الكريم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِى جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾. سورة يونس (٩)

يهديهم ربهم بإيمانهم، سيقودك هذا الإيمان إلى طريق الهدى، ويُرقيك الله في مراتب الكمال، ويأخذ بيديك إليه، فتكون صالحا مصلحا، ويتولاك رب العالمين



وماذا لو تولاك الله؟



أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

يقف يوسف عليه السلام بعد رحلة طويلة في الحياة، لم يتخل الله عنه فيها أبدا، ما أن يقع في ضيق حتى يجعل له مخرجا، أحسن به ربه في كل شيء، نجاه من الجب، والسجن، صرف عنه السوء والفحشاء، أعزه وجعله عزيزا، رأى بعينه تأسف إخوته واعتذارهم عما فعلوه، ردّ الله عليه أباه، خروا له سجدا.

في نهاية هذا الإحسان، لخّص يوسف الصديق جميل فعل الله به فقال: ﴿أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾. سورة يوسف (١٠١)

عندما يقول الملك الغني الكريم القدير العزيز واسع الرحمات لعبد: قد توليتك. فما معنى توليتك؟

أي تكفلت بك، أنا أقوم برعايتك وكفايتك، أنا أقوم بمصالحك، أنا أؤيدك وأنصرك، فاطمئن.

تستشعر حينئذ دعاء النبي ﷺ ربه: «وَتَوَلَّنِي فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ»[١٠].

أول طريق ولاية الله أن توالي أنت الله، أن تتخذ الله وليا فيتولاك حينئذ.

تتخذ الله وليا، فلا تتعلق إلا به، لا ترى ملكا ولا رزقا ولا تدبيرا إلا بيده، فتتبرأ من الأنداد التي تعلقت بها قلوب الخلق، ويكون رجاؤك وخوفك وتوكلك، وكل عبودية منك لله وحده لا شريك له.

معنى أن يكون الله وليك أن يكون أقرب ما يكون إليك، أحب ما يكون عندك، تبتغي القرب منه.

فَوَلِيُّ اللهِ مَنْ وَالَاهُ بِالْمُوَافَقَةِ لَهُ فِي مَحْبُوبَاتِهِ وَمَرْضِيَّاتِهِ وَتَقَرَّبَ إِلَيْهِ بِمَا أُمِرَ بِهِ مِنْ طَاعَاتِهِ[١١].

كلما كان الله أحب إليك من كل أحد، وكلما كنت أقرب إليه، أعظم موافقة لأمره، أكثر اتباعا لمراضيه كان حظك من ولايته أعظم.

كلما واليت طاعته، تنتقل من طاعة إلى طاعة، تتوالى على قلبك وجوارحك ولسانك مراضيه.

فكل من آمن بالله خالصا صادقا من قلبه، وعمل صالحا، فهو ولي لله تعالى، وبحسب قوة إيمانه، وصلاحه وتقواه، يكون أقرب إلى الله، وأعظم ولاية عنده.

(١٠) أخرجه الترمذي في «سننه» (٤٦٤)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح أبي داود» (١٢٨١).
(١١) نقلا عن شيخ الإسلام من مجموع الفتاوى (١١/ ٦٢).



ربما تنقدح في ذهنك صورة مشوهة عن أولياء الرحمن، فتظن أنهم أولئك الذين تسمع عنهم الكرامات، فتتخيل أنها درجة لا تُنال.

لا يا عبد الله، ليس شرطا في الولاية حدوث الكرامة، بل الاستقامة أعظم كرامة

ولاية الله ليست حكرا على أهل العلم، وإن كان أهل العلم العاملون به، هم سادة أولياء الله بلا ريب، لكن لابد من أن تكون العبودية على علم، وإلا فأي حظ له من ولاية الله وهو لا يعرف ربه، ولا يعرف مراضيه.

أولياء الله ليسوا أولئك الساكنين في الخرب، المتسخة ثيابهم، النتنة ريحهم، لا والله، فلا تنال ولاية الله بالنتن والقذارة، بل أولياء الله يتطهرون لأجله لأنه يحب المتطهرين، يتجملون له لأنه جميل يحب الجمال.

أولياء الله ليسوا أولئك الراقصين المتأوهين، الذين يتكففون الناس.

يقول الملك الكريم: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦٤﴾﴾ سورة يونس

وقال الله: ﴿وَالله وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾. سورة آل عمران (٦٨)

وقال الله: ﴿وَالله وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ﴾. الجاثية (١٥)

وقال الله: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ الله الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾. سورة الأعراف (١٩٦)

هذه أوصافهم كما ذكر الرحمن، إيمان وتقوى وصلاح.

أما أولئك الذين تعلقوا بغير الله، فظنوا أنهم ينصرونهم من دون الله، أو يبتغون عندهم العزة والمنعة من دون الله، أو تعلقت بهم قلوبهم فظنوا أن لهم من الأمر شيئا، فأحبوهم حب تعظيم وتوكل وذلة وخضوع، أو يخافونهم خوفا يخشون به منهم ضرا وأذى، فهؤلاء تعلقوا بالسراب، تعلقوا بالهباء المنثور.

أولياؤهم لا شيء، أوهى من بيت العنكبوت.

قال الله: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾﴾ سورة العنكبوت

هؤلاء الأنداد لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، لا يستطيعون نصر أنفسهم فضلا عن أن ينصروا غيرهم.





قال الله: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ الله قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾. سورة الرعد (١٦)

قال الله: ﴿وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنْصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ الله فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾. سورة الشورى (٤٦)

الولاية الحق لله، لأن الملك ملكه، والأمر أمره، والكون كله بيده، لا يكون شيء إلا بإذنه، فالله هو الولي على الحقيقة، وما سواه فباطل، إلا أنهم لن يدركوا ذلك إلا عندما يُخذلون.

قال الله: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾﴾ سورة الكهف



أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي!!!



كما أن من عباد الله من والى رب العالمين، فآمن به، وأطاعه، وأحبه، فتولاه الله، وكفى به وليا.

كذلك من الناس من والى الشيطان من دون الرحمن، فأطاعه، ولازم سبيله، فكان الشيطان وليه من دون الله.

لا أستطيع أن أتخيل إنسانا خلقه الله بيده، وأسجد له ملائكته، وأسكنه جنته، وخلق له ما في الأرض جميعا، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة، وطرد لأجله إبليس من رحمته لما أبى السجود له، ثم بعد ذلك كله يتولى عن ربه الذي لا يريد له إلا كل خير، ويوالي عدوه الذي لا يريد له إلا الشقاء والضلال والجحيم، جحيم الدنيا والآخرة، فبئس للظالمين بدلا.

قال الملك سبحانه: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾. سورة الكهف (٥٠)

عندما ترى إنسانا استمع لوساوس الشياطين، واستجاب لنزغاته، زين له الشيطان الباطل، وسول له، وأملى لهم.

زين له حتى أنساه ربه، فصور له أربابا مصنوعة، فتعلق بها المسكين من دون الله، حتى أن ذلك الهدهد ملأه العَجَب من ضلال هؤلاء، فقال كما قال الله: ﴿وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾ سورة النمل

عندما ترى عبدا بطيئا عن طاعة الله، سريعا في معصية الله، متبعا خطوات الشيطان، مسارعا فيما يغضب ربه ومولاه، فاعلم أنه من أولياء الشيطان، وما ظنك بعبد تولاه الشيطان، ماذا عساه أن يفعل به؟

سيزين له الشيطان عمله، ويأمره بالسوء والفحشاء، ويعده الفقر، وبلقي في قلبه الخوف والهلع والحزن، ويعده الأماني الكاذبه، ويغره ويمنيه، ثم يخذله أحوج ما يكون إليه.

سوف يضله الضلال البعيد، ويصده عن الصراط المستقيم، ويستحوذ عليه حتى ينسيه ربه، و يحسب أنه من المهتدين.

قال الله: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. سورة النحل (٦٣)

وقال الله: ﴿وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾. سورة النساء (١١٩)

وقال الله: ﴿إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ﴾. سورة الأعراف (٣٠)





وربما أوغل في سبيل الشيطان حتى يكون من جند الشيطان وحزبه، فيحارب أولياء الرحمن، فيوحي إليه الشيطان بالباطل، كما قال الله: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾. سورة الأنعام (١٢١)

وإياك أن تظن أن الله جعل للشيطان على الناس من سبيل، لا والله، إنما هؤلاء دعاهم الشيطان فاستجابوا له.

قال الله: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۝٩٨ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ۝١٠٠﴾ سورة النحل

ثم يوم القيامة يتبرأ منهم فيقول كما قال الله: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. سورة إبراهيم (٢٢)

لذا كانت وصية الله تعالى في سورة الأعراف بعدما قصّ علينا ما فعله الشيطان اللعين مع أبينا آدم ألا نتولى هذا الشيطان، فليس لنا من دون الله وليا ولا نصيرا.

قال الله: ﴿يَابَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٢٧ وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٢٨ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ۝٢٩ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ ۝٣٠﴾

أما رب العالمين فإن تولى عبدا فإنه كفى به وليا، لا يتخلى عن عبده

سيصلح لك دينك ودنياك وآخرتك.

كان النبي ﷺ يدعو الله يريد هذه الثلاثة يقول:

اللهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي.

وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي.

وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي»[١٢].

ابتدأ بالدين، وبه نبدأ، لأن صلاحه عصمة لدنياه، فإن فسد دين العبد فسد عليه كل شيء.

فقل لي بربك: ماذا وجد من فقد الله، وماذا خسر من كان الله معه ووليه.

(١٢) أخرجه مسلم (٢٧٢٠).



وإن تولى الكريم عبده أصلح له دينه وآخرته
يخرجه من الظلمات إلى النور
يجعل له نورا يمشي به في الناس
ينور قلبه وقبره ويتم له نوره على الصراط
يحبب له الإيمان ويزينه في قلبه
ويُكَرِّه إليه الكفر والفسوق والعصيان
يصرف عنه السوء والفحشاء

يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ



كان من دعاء نبينا ﷺ في صلاته: «اللَّهُمَّ اجْعَلْ فِي قَلْبِي نُورًا، وَفِي بَصَرِي نُورًا، وَفِي سَمْعِي نُورًا، وَفِي لِسَانِي نُورًا، وَعَنْ يَمِينِي نُورًا، وَعَنْ يَسَارِي نُورًا، وَفَوْقِي نُورًا، وَتَحْتِي نُورًا، وَأَمَامِي نُورًا، وَخَلْفِي نُورًا، وَمِنْ بَيْنِ يَدَيَّ نُورًا، وَاجْعَلْ فِي نَفْسِي نُورًا، وَأَعْظِمْ لِي نُورًا، وَاجْعَلْنِي نُورًا»[1].

عندما يتولى الله عبده المؤمن فإنه يخرجه من الظلمات إلى النور.

الظلام، كم هي مؤلمة وشاقة على النفس تلك الكلمة، تشعر معها بالوحشة، وتشعر معها بالتيه، أما النور فيأتي معه الهدى، يأنس به السائر، ويبصر به الإنسان سبيله.

رب العالمين نور السموات والأرض..

قال الكريم: ﴿الله نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. سورة النور (٣٥)

ولما سأل أبو ذر الغفاري ﷺ النبي ﷺ قائلا: «هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ قَالَ: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ»[2].

وليس ثمة ذرة من نور إلا وهي من نوره، أشرق نوره عليها، فهو نور السموات والأرض ومن فيهن.

هكذا كان يثني نبينا ﷺ على ربه كل ليلة إذا قام يصلي بالليل، يستفتح صلاته بالثناء على الملك جل جلاله، فيقول: «وَلَكَ الْحَمْدُ أَنْتَ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ»[3].

في هذه الدنيا يأتي الليل بظلامه، ثم يأذن فالق الإصباح بنور الصباح، فيذهب الظلام ويأتي الضياء معاشا للناس.

قال الله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ الله عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾. سورة القصص (٧١)

وفي هذه الدنيا ظلمات أخرى، أشق من ظلمات الليل، لأن ظلمة الليل يضل الإنسان فيها سبيله لدنيا يصيبها، أما تلك الظلمات فإن الإنسان إذا لم يخرجه ربه منها يضل سبيله إلى الله، فيخسر الدنيا والآخرة.

ظلمات الجهل، وظلمات النفس، وظلمات الهوى، وظلمات الحيرة والشك والريب، وظلمات

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣١٦)، ومسلم (٧٦٣).
(٢) مسلم (١٧٨).
(٣) أخرجه البخاري (١١٢٠)، ومسلم (٧٦٩).





الشبهات، وظلمات البغي والظلم، وظلمات الوساوس، وظلمات المعاصي، فأنى للعبد النجاة من هذه الظلمات؟

سترى إنسانا بلغ من علوم الدنيا مبلغا إلا أنه يسجد لصنم، أو يعظم بقرة بل ويتبرك بروثها، وربما يعبد فأرا ويقيم له معبدا، وربما يعبد بشرا مثله، بل ربما يعبد نفسه.

سترى إنسانا متخبطا حيرانا لا يعرف ربه، يزعم أنه لا دليل عليه، مع أن كل ذرة في الدنيا تصيح به هذا هو الله، إلا أنه لا يرى ولا يسمع، بهيمته خير منه، تسبح ربها ليل نهار، أما هو فلا يعرف حتى نفسه.

سترى إنسانا يعلوه الظلام، يتقلب بين الفواحش والمنكرات، فأظلم قلبه، وفاض الظلام على وجهه كقطع الليل المظلم، بائس حزين، قد أرهقته نفسه، وماتت روحه بين جسده، فصارت أمنيته أن يموت.

سترى إنسانا يمجد طاغوتا، بل ويرسي قواعده، بل ويحسنه للناس، ثم هو في هذا المستنقع الآسن، والوحل المطبق يقدمه للناس على أن دين رب الأرض والسماء، قد باع دينه بعرض من الدنيا زائل.

سترى أقواما عصفت بهم الأهواء فينتقلون من أقسى اليمين إلى أقصى اليسار، فهو خارجي يوما، ومرجئ أياما أخر، وفي كل مرة يقسم أنه صاحب الحق المطلق.

سترى ألوانا شتى من الأفكار والمذاهب والآراء، تُعرض على الناس لابسة ثوب الحق، تشتبه على كل مفتون، كلٌ منهم يأخذ بحظه من قذارتها، وهو يحسب أنه على شيء.

يأتي الشيطان للإنسان من كل جانب، يريد إغوائه، إما أن يغويه فيعميه عن رؤية الحق فيعبد الله على جهل، فحاله كحال من رأى السراب فظنه الماء الفرات، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا ووجد الله عنده فوفاه حسابه، وهذا حال الضالين.

وإما أن يرى الإنسان الحق، لكنه لخبث قلبه يصده الشيطان عن اتباعه، فيتقلب في ظلمات الهوى والضلال والشك، فيكون كالمغضوب عليهم، علموا الحق، ثم أعرضوا عنهم، فهم في ظلمات لا يبصرون.

لا سبيل إلى النور إلا من الله، فإن تولى الله عبده أخرجه بفضله من الظلمات إلى النور، وجعل له نورا يمشي به في الناس، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور.

قال الملك سبحانه: ﴿الله وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. سورة البقرة (٢٥٧)

أنت تحتاج إلى النور في قلبك ليرى قلبُك الحق فلا يضل.



وتحتاج إلى النور في سمعك فلا يسمع إلا الحق، لا يسمع إلا ما يرضي ربك.

وتحتاج إلى النور في بصرك حتى لا ترى إلا ما يرضي مولاك.

وتحتاج إلى النور في لسانك كي لا تقول به إلا الحق.

وتحتاج إلى النور عن يمينك وشمالك، ومن أمامك ومن خلفك، ومن فوقك ومن تحتك، حتى تعيش في نور من ربك، تنجو من كل ظلمة، لأن الشيطان أقسم أن يأتيك من كل جهة ليضلك ويغويك .

قال الله: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ سورة الأعراف

وانظر إلى فضله سبحانه، كيف أن الشيطان اللعين، قد يأتيك من كل جهة، إلا من فوقك، لم يستطع أن يحول بينك وبين رحمات الله النازلة عليك من السماء.



وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ



بينما الناس يسيرون في الظلام، يتخبطون، يتيهون، إذ بمصباح نور بين يدي إنسان، فاكتنفه الناس من كل جانب، يستضيئون بنوره، فكان سبب نجاتهم.

كذلك المؤمن عبد جعله الله نورا، يهدي به الله الناس، بقوله، وبنصحه، وبعلمه، وبعدله، وبسمته، وبهديه، وبعمله.

رب العالمين يجعل لعبده المؤمن نورا يمشي به في الناس، يكون مصباح هدى، ما أن يقترب منه أحد حتى يقتبس من نوره، على محياه النور، على عمله النور، وعلى كلامه النور.

قال الله: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. سورة الأنعام (١٢٢)

تأمل: وجعلنا له نورا يمشي به في الناس.

يبدأ هذا النور يسري في قلبك عندما تؤمن بالله، تلك أول ومضة، التقى نور الفطرة التي أودعها الله قلوب عباده مع نور الإيمان واليقين، نور على نور.

ثم تتوالى الأنوار، تخرج تسري إلى قلبك من وحي السماء.

نور الوحي، ذاك النور الذي يرسله الله مع أنبياءه لإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

ذاك النور الذي لم تخل منه الأرض قط، ينزله الله على أنبياءه نبيا تلو نبي، حتى تقوم خفافيش الظلام يريدون ليطفئوا نور الله، فيحرفون كلامه، ويبدلونه، ويكتمونه، إلا أن الله متم نوره ولو كره الكافرون المشركون المجرمون.

مهما حاول المشركون والمجرمون إطفاء نور الله فلن يستطيعوا، لأن الله أبى ذلك.

أبى الله إلا أن يظهر دينه، ويعلي كلمته، فيظل الحق يعلوه النور، يراه كل أحد، فلا يعمى عنه إلا من استحب العمى على الهدى

قال الله: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى الله إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾﴾ سورة التوبة

نبي الله موسى عليه السلام ينزل الله عليه التوراة فيها الهدى والنور، ليخرج بني إسرائيل من الظلمات إلى النور.

قال الملك: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾. سورة المائدة (٤٤)

فماذا فعلت بنو إسرائيل مع هذا النور؟



حرفوا التوراة، وكتموها، وزادوا فيها وأنقصوا، وحرفوا الكلم عن مواضعه، إرضاءاً لأشرافهم، فاشتروا بآيات الله ثمنا قليلا، فبئس ما يشترون.

قال الله: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾. سورة الأنعام (٩١)

قال الله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾. سورة المائدة (٤١)

ومع ذلك، لم يترك الله خلقه بلا نور وهدى، فبعث نبيه عيسى عليه السلام، وآتاه الله الإنجيل فيه هدى ونور.

قال الملك: ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾. سورة المائدة (٤٦)

فماذا فعلوا؟

إنها سيرتهم الدائمة مع نور الله المتدفق عليهم لإنقاذهم من الضلال.

إنهم نبذوا كتاب الله ورائهم ظهريا، كتموا كتاب الله، وحرفوا آيات الله، واشتروا بها ثمنا قليلا، ولبسوا الحق بالباطل، بل وكتبوا من عند أنفسهم الباطل والزور ثم قالوا هذا كتاب الله، كل هذا لأنه حال بينهم وبين شهواتهم.

لكن لأن الله رؤوف رحيم، لم يترك خلقه في الظلام، بل أنزل إليهم نورا مبينا، وتولى حفظه، فلا تناله أيدي المجرمين.

قال الله: ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ الله مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ سورة المائدة

والقرآن كله نور، جعله الله روحا تحيا به القلوب، ونورا ينير لك الطريق، أنزله الله رحمة منه لإخراج الناس من الظلمات إلى النور.

قال الله: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. سورة الزخرف (٥٢)

قال الله: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾. سورة الحديد (٩)

وكل من أعرض عن هذا القرآن فابتغى الهدى في غيره أضله الله، فهو الحق المطلق، لا عوج ولا لبس ولا غموض فيه. لذا كان من دعاء النبي ﷺ: «**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي**»[٤].

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٧١٢)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٩٩).



وَنُورَ صَدْرِي



عندما يملأ نور القرآن صدرك، فيسري الحق إلى قلبك، ترى بعد العمى.

كل آية فيه تحمل نورا يذهب ظلمة الجهل، وظلمة الأراء، وظلمة الأفكار.

ما من سؤال يدور في عقلك، تحتاج فيه لجواب يشفي صدرك، إلا وفي كلام الله الهدى والنور.

من ربك؟ وما هي صفات الرب الحق؟ ومن أنت؟ ومن خلقك؟ وما هو أصلك وتاريخك؟

ولماذا خُلقت؟ ومتى؟ وكيف؟ وكيف جئت إلى هذه الأرض؟

بل لماذا هذه السموات وهذه الأرضين؟ لماذا هذا الكون؟

ما هذا القلب النابض بين جوانحك؟ ولماذا أعطاك الله سمعا وبصرا وفؤادا؟

كيف تحيا في هذه الدنيا الحياة الطيبة؟ ومن أين يأتي الشقاء؟

من هم الملائكة؟ ومن هم الجن؟ ومن هو الشيطان؟ وماذا يريد منك؟ وكيف تنجو من شره؟

ما هذه الكتب؟ ولماذا نزلت؟

ما هو المنهج الذي به تقوم الحياة دون ظلم أو جور؟

ما جزاء الأبرار؟ وما جزاء الفجار؟ وهل الموت جزاء كاف للظالمين؟

أين العدل؟ وما هو معياره؟ ولماذا هذا فقير وهذا غني؟

ما هو الموت؟ وماذا بعد الموت؟ ولماذا البعث والحشر؟ ولماذا الثواب والعقاب؟

كل هذا وآلاف الأسئلة تجد جوابا نورانيا في كتاب الله يزيل لك كل ظُلمة.

فقط كل ما عليك الاعتصام بهذا الكتاب.

أقبل على القرآن بنفسية المهتدي، الذي يبحث عن شعاع النور ليضيء له طريقه، ستجد فيه جوابا شافيا كافيا لكل ما دار بخلدك.

قال الملك: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِن رَبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ سورة النساء



من دخل على القرآن قاصدا الحق سيجده بلا ريب، أما من عبد هواه، فإنه سيكون عليه عمى.

إن وجدت ضالا بعد ذلك فاعلم أن ذلك لفساد قلبه، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب في الصدور.

هذا النور لن يهتدي به إلا من اتبع رضوان الله، ستعشى عنه أعين من تولى عن الله.

لن تبصره تلك القلوب التي اتبعت ما تهواه نفوسهم، بل سيكون في الظلمات ليس بخارج منها

يقول الملك سبحانه: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۝١٥ يَهْدِي بِهِ الله مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ سورة المائدة

أولئك المترددون، المكذبون، الذين في قلوبهم الريب، لم يدخل الإيمان قلوبهم بعد، تراه أصم أعمى في الظلمات، ظلمات بعضها فوق بعض، ينتقل من ظلمة الجهل إلى ظلمة الشك، ومن ظلمة الشك إلى ظلمة الشرك، ومن ظلمة الشرك إلى ظلمات المعاصي والخبائث، سترى في لسانه الظُلمة فإن نطق فبالباطل، وفي سمعه ظلمة فلا يسمع إلا باطلا، وفي عينه ظلمه، أعمى عن كل حق بصير بكل باطل، متهوك ممقوت، أحاطت به الظلمات من جميع الجهات، ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور.

قال الله: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ الله يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. سورة الأنعام (٣٩)



نُورٌ عَلَى نُورٍ



قال الله: ﴿اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. سورة النور (٣٤)

كيف لا يُحب، وأنواره تتوالى على قلب عبده.

وله المثل الأعلى تبارك وتعالى، وقد ضرب جل وتقدس مثلا عظيما كريما لنوره في قلب عبده، فما أجمله وأطيبه:

تخيل: مشكاة، وهو كُوة (تجويف) في حائط، فيه زجاجة في غاية الصفاء والصلابة، داخل هذه الزجاجة مصباح في غاية الإضاءة، فزيته أي وقوده في غاية الصفاء، ومن شدة صفاءه يكاد يشع نورا، وإن لم يُوقد، فكيف إذا أشعلته، كيف يكون النور في هذه المشكاة.

كذلك نور الله في قلب عبده المؤمن، صدره كتلك المشكاة، فيه زجاجة، تلك الزجاجة قلب المؤمن صافية صلبة، صفا قلبه بطاعته لربه، وصار صُلبا بالحق الذي هو موقن به، ومن عظم صفاء قلبه أصبح كأنه كوكب دري منير، داخل هذه الزجاجة مصباح متوهج، وهو نور الإيمان، ومادته وحي السماء.

نور على نور، نور الفطرة، مع نور الإيمان، مع نور القرآن، مع نور الطاعة، تلاقت الأنوار حتى علا محُياه النور.

هذه الرباعية العظيمة، رباعية النور.

فطرة سوية، إيمان صادق، وحي معصوم، عمل صالح.

هذا هو الطريق، حينئذ تتابع الأنوار، نور الفطرة مع نور الإيمان مع نور الوحي، ثم أنوار الطاعة.

فكل طاعة يجعلها الله لك نورا في الدنيا والآخرة.

يقول النبي ﷺ: «**وَالصَّلَاةُ نُورٌ**»[٥].

كل ركعة تركعها، وكل صلاة تصليها، نور لك في الدنيا والآخرة.

بل مشيك في ظلمة الليل لتؤدي الصلاة في بيت الله نور لك يوم القيامة.

يقول النبي ﷺ: «**بَشِّرْ الْمُشَّائِينَ فِي الظُّلَمِ إِلَى الْمَسَاجِدِ بِالنُّورِ التَّامِّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[٦].

لابد من العمل الصالح، ذاك ثمرة هذا النور، وكلما ازداد الإيمان والعمل الصالح كلما ازداد النور.

---

(٥) أخرجه مسلم (٢٢٣).

(٦) أخرجه الترمذي في «سننه» (٢٢٣)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح أبي داود» (٥٧٠).

كلما صفا القلب فلم تكدره معصية الله كلما كانت الصورة أوضح لا التباس فيها.

كلما زاد حظك من كتاب الله علما وتعليما وعملا كلما توهج المصباح، حتى يعطيك الله تاجا من نور.

قال النبي ﷺ: «**مَنْ قَرَأَ الْقُرْآنَ وَتَعَلَّمَهُ وَعَمِلَ بِهِ أُلْبِسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تَاجًا مِنْ نُورٍ ضَوْءُهُ مِثْلُ ضَوْءِ الشَّمْسِ، وَيُكْسَى وَالِدَيْهِ حُلَّتَانِ لَا يَقُومُ بِهِمَا الدُّنْيَا فَيَقُولَانِ: بِمَا كُسِينَا؟ فَيُقَالُ: بِأَخْذِ وَلَدِكُمَا الْقُرْآنَ**»[7].

وكلما نقُص الإيمان كلما ذهب قدر من النور.

فكل ذنب ينقص به إيمانك، يذهب به بعض نور الإيمان من قلبك.

كل معصية تكون حجابا على قلب العبد تحول بينه وبين رؤية الحق.

قال الله: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ سورة المطففين (١٤)

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ ذَنْبًا كَانَتْ نُكْتَةً سَوْدَاءَ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ مِنْهَا قَلْبُهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ حَتَّى يُغْلَقَ بِهَا قَلْبُهُ». فَذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي كِتَابِهِ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾** [المطففين: ١٤]»[8].

يقول الحسن البصري: «**مَنْ عَمِلَ حَسَنَةً وَإِنْ صَغُرَتْ أَوْرَثَتْهُ نُورًا فِي قَلْبِهِ، وَقُوَّةً فِي عَمَلِهِ، وَإِنْ عَمِلَ سَيِّئَةً وَإِنْ صَغُرَتْ فَاحْتَقَرَهَا أَوْرَثَتْهُ ظُلْمًا فِي قَلْبِهِ، وَضَعْفًا فِي عَمَلِهِ**»

وهكذا كلما توالت الذنوب كلما خفت النور في القلب، وأحاطت به الحجب، حتى لا يكاد يبصر العبد طريقه.

وربما كان الذنب عظيما حتى أنه قد يذهب معه نور الإيمان كله، فلا يبقى منه إلا أصله.

قال النبي ﷺ: «**إِذَا زَنَى الرَّجُلُ خَرَجَ مِنْهُ الْإِيمَانُ فَكَانَ عَلَيْهِ كَالظُّلَّةِ، فَإِذَا انْقَلَعَ مِنْ عَلَيْهَا رَجَعَ إِلَيْهِ الْإِيمَانُ**»[9].

كان عبد الله بن عباس رضي الله عنه يقول لغلمانه: «**مَنْ أَرَادَ مِنْكُمُ الْبَاءَةَ زَوَّجْنَاهُ، لَا يَزْنِي مِنْكُمْ زَانٍ إِلَّا نَزَعَ اللهُ مِنْهُ نُورَ الْإِيمَانِ، فَإِنْ شَاءَ أَنْ يَرُدَّهُ عَلَيْهِ رَدَّهُ، وَإِنْ شَاءَ أَنْ يَمْنَعَهُ مَنَعَهُ**». أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٧٦٤٠)، بإسناد صحيح.

هكذا يُنزع الإيمان، وهكذا يُسلب العبد نوره بعدما آتاه الله إياه.

فإن وجدت في قلب عبد ظلمة، وإن رأيت التباس الحق بالباطل على أحد فاعلم أنه أُتي من نفسه، فإما لأنه لم يؤمن بعد، أو متبع لهواه، أو أعرض عن مصدر النور الوحي وبحث عنه عند زبالات أذهان الناس، أو هو مرتكس في معاصيه فأظلمت عليه قلبه، وحجبت النور أن يصل إليه، فمن صفا صُفي له، ومن كدّر كُدر عليه، ولا يظلم ربك أحدا.

---

(٧) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢٠٨٦)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٤٣٤).

(٨) أخرجه الترمذي في «سننه» (٣٣٣٤)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٤٢٢).

(٩) أخرجه أبو داود في «سننه» (٥١٩)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٥٠٩).



ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ



امرأة سوداء كانت تنقى الأذى من مسجد النبي ﷺ، تكنسه، تطهر بيت الله، تلتقط تلك العيدان المتناثرة كي لا تؤذي جباه الساجدين.

ثم مرضت المرأة الصالحة، وعلم النبي ﷺ بمرضها، فكان يسأل عنها جيرانها.

وفي ذات ليلة ماتت المرأة المسكينة، وكان النبي ﷺ قد نام، فكره الصحابة أن يوقظوا النبي ﷺ فدفنوها بالليل.

فلما أصبح النبي ﷺ سأل عنها، فأخبروه بأمرها، فقال مشفقا: أَفَلَا كُنْتُمْ آذَنْتُمُونِي؟ أي أعلمتموني.

فقال الصحابة: جِئْنَاكَ فَوَجَدْنَاكَ نَائِمًا فَكَرِهْنَا أَنْ نُوقِظَكَ.

فقال النبي ﷺ: دُلُّونِي عَلَى قَبْرِهَا، ثم صلى عليها، ثم قال: «**إِنَّ هَذِهِ الْقُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا، وَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنَوِّرُهَا لَهُمْ بِصَلَاتِي عَلَيْهِمْ**»[١٠].

القبر، ذاك المكان المظلم الموحش الضيق، أول منازل الآخرة، إن نجا منه العبد كان ما بعده أيسر منه.

دائما ما يفزع الإنسان من هذه الحفرة الضيقة، يخاطب نفسه: يا تُرى كيف يكون حالي في هذا المكان المظلم الضيق الموحش؟

أيها العبد المؤمن الصالح: إن تولاك الله فلا خوف ولا حزن.

هذا المكان المظلم يملؤه الله لك نورا.. هذا المكان الضيق يوسعه الله لك مدّ بصرك.

هذا المكان الموحش سيرسل الله لك جليسا جميلا طيب الريح ليؤنسك.. تنام فيه نومة العروس الهانئ.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: إِذَا قُبِرَ الْمَيِّتُ، أَوْ قَالَ: أَحَدُكُمْ، أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَزْرَقَانِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: الْمُنْكَرُ، وَلِلْآخَرِ: النَّكِيرُ، فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: مَا كَانَ يَقُولُ: هُوَ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ هَذَا، ثُمَّ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا فِي سَبْعِينَ، ثُمَّ يُنَوَّرُ لَهُ فِيهِ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ، نَمْ، فَيَقُولُ: أَرْجِعُ إِلَى أَهْلِي فَأُخْبِرُهُمْ، فَيَقُولَانِ: نَمْ كَنَوْمَةِ الْعَرُوسِ الَّذِي لَا يُوقِظُهُ إِلَّا أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَبْعَثَهُ اللهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ مُنَافِقًا قَالَ: سَمِعْتُ النَّاسَ يَقُولُونَ، فَقُلْتُ مِثْلَهُ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ: قَدْ كُنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُولُ ذَلِكَ، فَيُقَالُ لِلْأَرْضِ: الْتَئِمِي عَلَيْهِ، فَتَلْتَئِمُ عَلَيْهِ، فَتَخْتَلِفُ فِيهَا أَضْلَاعُهُ، فَلَا يَزَالُ فِيهَا مُعَذَّبًا حَتَّى يَبْعَثَهُ اللهُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ[١١].

(١٠) أخرجه البخاري (١٣٢١)، ومسلم (٩٥٦).

(١١) أخرجه الترمذي في «سننه» (١٠٧١)، وجود إسناده الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٣٩١).



يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ



مشهد مهيب.

هناك حيث الجحيم سعرت، نُصب على متن جهنم جسر أدق من الشعر وأحدّ من السيف، وعليه كلاليب وخطاطيف، وتحته ظلام دامس.

ثم يؤمر الناس بالعبور عليه، يقال لهم: انجوا على قدر نوركم.

ويُعطى كل عابر نورا على قدر عمله، ويُعطى المنافقون نورا[١٢].

فمنهم من نوره كالجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، ومنهم من نوره على قدر إبهامه يضيء مرة وينطفئ أخرى[١٣].

يبدأ الناس في العبور، والظلام حالك، وكلٌ معه نوره على قدر عمله، وفجأة:

كثير ممن على الصراط ممن كان معهم نور، فجأة انطفأ نورهم، ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون.

وهنا ينادي المؤمنون ربهم ووليهم، يستغيثون: ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا.

قال الكريم: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. التحريم (٨)

فيتولاهم الكريم برحمته وفضله.

فمنهم من يمر كطرفة العين، ومنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كأجاويد الخيل، ومنهم من يهرول عليه، ومنهم من يحبو على يديه ورجليه، يتعلق برجله مرة، وبيده مرة، يكاد يسقط، تلفحه النار من جوانبه، لكنه يمضي، يحبو، حتى انتهى، فنجى.

فالتفت إلى النار، فقال تَبَارَكَ الَّذِي نَجَّانِي مِنْكِ، لَقَدْ أَعْطَانِي اللهُ شَيْئًا مَا أَعْطَاهُ أَحَدًا مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ»[١٤].

فناج سليم، وناج مخدوش، ومكدوس في نار جهنم. اللهم سلمنا يارب.

فما بال الذين انطفأ نورهم؟

إنهم أصحاب النور المزيف في الدنيا، أصحاب الإيمان الكاذب، كانوا في الدنيا يخادعون المؤمنين والله خادعهم، كانوا يقولون لأهل الإيمان آمنا، وإذا خلوا بشياطينهم قالوا نحن نستهزئ بالمؤمنين، الله يستهزئ بهم اليوم، ولهم عذاب مهين.

---

(١٢) مسلم (١٩١).

(١٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣٧٨٥)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٥٩١).

(١٤) مسلم (١٨٧).



إنهم المنافقون الذين طالما أبطنوا في سرائرهم بغض الإسلام وأهله، تظاهروا بالدين، لكن الله يعلم سرهم ونجواهم.

ما أشد حسرتهم إذا أعطاهم الله نورا، ثم سلبه منهم، فينادون على المؤمنين: انتظرونا نأخذ من نوركم، نسير معكم في نوركم.

فينادى عليهم: ارجعوا ورائكم فالتمسوا لكم نورا، ارجعوا إلى الدنيا إن استطعتم فالتمسوا لكم نورا، ولكن هيهات، ذهبت الدنيا.

ثم يُضرب بينهم بسور له باب، باطنه رحمة عند أهل الإيمان، وظاهره عذاب وظلمة عند المنافقين.

حينئذ ينادونهم: ألم نكن معكم؟ أم نكن نصلي معكم ونصوم معكم؟ بل ونغزو ونجاهد معكم؟

قال المؤمنون: بلى كنتم معنا، ولكنكم فتنتم أنفسكم، تعلقتم بالدنيا وشهواتها وملذاتها، فآثرتموها على الآخرة، توليتم أعداء الله من اليهود والنصارى تبتغون عندهم العزة، وتربصتم بأهل الإيمان الهزيمة، كنتم تنتظرون هلاك أهل الإيمان، وذهاب شوكة المسلمين، جاءتكم العقوبات مرة بعد المرة فانتظرتم ولم تتوبوا إلى الله، وشككتم في هذا الدين فلم يكن إيمانكم صادقا، وغرتكم الأماني، غركم طول الأمل، وغركم الشيطان، فلا شيء ينجيكم اليوم من عذاب الله، اليوم النار مولاكم، فأين وليكم الشيطان اللعين لينصركم من بأس الله، وأما المؤمنون فمولاهم رب العالمين، كما أخرجهم من ظلمات الدنيا، وكما نوّر لهم قبورهم، كذلك أتمم لهم نورهم على الصراط، ونجاهم من النار بفضله وكرمه.

قال الله: ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ سورة الحديد

بعد هذه الآيات قال الله: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾. سورة الحديد (١٦)

قلها الآن: قد آن يارب، قد آن يارب، قد آن يارب.

لن تجد مثل ربك الذي يصلي عليك وملائكته ليخرجك من الظلمات إلى النور.

أتدري لماذا؟ لأنه الرؤوف الرحيم.

قال الرحمن الرحيم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ سورة الأحزاب





هنا يُوقد المصباح وتُغرس الشجرة المباركة



عندما ذكر الله ذاك المثل العظيم لنوره في قلب المؤمن، ذكر سبحانه أين يوقد مصباح النور، فقال: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٨﴾﴾ سورة النور

بيوت الله المتلألأة جمالا ونورا.

كنت أعجب من حرص النبي ﷺ على بناء المسجد أول ما هاجر إلى المدينة، فهو القائل: «**وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا**».

تملأك الدهشة عندما ينقل لنا القرآن مشهد رفع إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قواعد بيت الله الحرام، فقال سبحانه: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. سورة البقرة (١٢٧)

ذاك البيت الذي أمر الله خليله بتطهيره، فقال: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾. سورة الحج (٢٦)

فيها يُذكر رب العالمين، يُتلى كتابه، يناجيه عباده.

المحب متعلق ببيت حبيبه، لا يكاد يفارقه، فإن فارقه خرج منه بجسده، وترك قلبه فيه، كأنه قنديل معلق فيه.

لذا كان وصفه كما في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم القيامة:

«**وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ**»[١٥].

وفي رواية: «**وَرَجُلٌ مُعَلَّقٌ بِالْمَسْجِدِ، إِذَا خَرَجَ مِنْهُ حَتَّى يَعُودَ إِلَيْهِ**»[١٦].

تراه لا يكاد يرى منارة، أو شيئا يدل على مسجد، إلا ويهفو قلبه نحوه.

عندما تقرأ أن أول شيء كان يبدأ به النبي ﷺ إذا رجع من سفر هو المسجد[١٧]. ، حيث قال كعب رضي الله عنه: «**وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ، بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ، فَيَرْكَعُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ**».

---

(١٥) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).

(١٦) مسلم (١٠٣١).

(١٧) أخرجه البخاري (٤٤١٨) في حديث توبة كعب بن مالك.



هذا التعلق مع كل بيوت الملك جل جلاله، لكن تعلقه وحبه ببيت الله الحرام أعظم وأطيب .

ومن عجيب ما ذُكر، أمر تلك المرأة:

يقول عبد العزيز بن أبي رواد ﷺ: «**خَرَجْنَا مِنْ خُرَاسَانَ وَمَعَنَا امْرَأَةٌ، فَلَمَّا دَخَلَتِ الْحَرَمَ جَعَلَتْ تَقُولُ: أَيْنَ بَيْتُ رَبِّي؟ أَيْنَ بَيْتُ رَبِّي؟ فَقِيلَ لَهَا: الْآنَ تَأْتِينَ بَيْتَ رَبِّكِ، فَلَمَّا دَخَلَتِ الْمَسْجِدَ قِيلَ لَهَا: هَذَا بَيْتُ رَبِّكِ، قَالَ: فَاسْتَنَدَتْ إِلَى الْبَيْتِ فَوَضَعَتْ خَدَّهَا عَلَى الْبَيْتِ، فَمَا زَالَتْ تَبْكِي حَتَّى مَاتَتْ**»[18].

فلا عجب عندما ترى رجلا فقيرا مسكينا لكنه محب لربه، متعلق ببيته، يجمع الدرهم فوق الدرهم، وتتوالى عليه السنون، هو أحوج ما يكون للمال، لكنه يشتاق لبيت ربه، يريد الحج أو العمرة، حتى إذا وصل فرأى الكعبة انهمرت دموعه، ثم يقبل يتعلق بأستار الكعبة، لا يكاد يفارقها، إلا وقلبه هناك.

وكيف لا يتعلق قلبه ببيت ربه، وفيه الحياة، وفيه النعيم، وفيه القرب، وفيه الأنس، وفيه السكينة.

وكيف لا يتعلق قلبه ببيت ربه، وهو يعلم أن الله يفرح بقدومه إليه في بيته، كما يفرح أهل الغائب بغائبهم.

والله هذا الفضل كافٍ لأن يملأ قلبك حبا لمولاك.

قال النبي ﷺ: «**مَا تَوَطَّنَ رَجُلٌ مُسْلِمٌ الْمَسَاجِدَ لِلصَّلَاةِ وَالذِّكْرِ، إِلَّا تَبَشْبَشَ الله إليه كَمَا يَتَبَشْبَشُ أَهْلُ الْغَائِبِ بِغَائِبِهِمْ، إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِمْ**»[19].

إنهم جيران الملك يوم القيامة.

يقول النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُنَادِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيْنَ جِيرَانِي؟ أَيْنَ جِيرَانِي؟ فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: رَبَّنَا، وَمَنْ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُجَاوِرَكَ؟ فَيَقُولُ: أَيْنَ عُمَّارُ الْمَسَاجِدِ؟**»[20].

وكيف لا يهفو قلبك إلى بيت الله، وأنت تزور الكريم في بيته، في ضيافته جل جلاله، ولك أن تتخيل كيف أن كريما من أهل الدنيا كيف يفعل بزائره ويتحفه ويكرمه، فانظر كيف يكون كرم أكرم الأكرمين

قال النبي ﷺ: «**مَنْ تَوَضَّأَ فِي بَيْتِهِ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ، فَهُوَ زَائِرُ اللهِ، وَحَقٌّ عَلَى الْمَزُورِ أَنْ يُكْرِمَ الزَّائِرَ**»[21].

(١٨) أخرجه الفاكهي في «أخبار مكة» (٢٣٦).

(١٩) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (٨٠٠)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٦٥٢).

(٢٠) أخرجه أبو بكر الشافعي في «الغيلانيات» (١٠٩٥)، وجود الشيخ الألباني إسناده في «السلسلة الصحيحة» (٢٧٢٨).

(٢١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٦/ ٢٥٣)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١١٦٩).

فمن كرمه بزائره، أنه يُعد له ضيافته كما يقدم الزائر شيئا لضيفه يتحفه به، لكن هذا النُزُل من الجنة، تتقوى به الروح، تخرج من بيت الله وقد اغتذت روحك من الجنة، يأتيك من نعيمها وطيبها، فضلا عن عظيم الثواب.

قال النبي ﷺ: «**مَنْ غَدَا إِلَى الْمَسْجِدِ وَرَاحَ، أَعَدَّ اللهُ لَهُ نُزُلَهُ مِنَ الجَنَّةِ كُلَّمَا غَدَا أَوْ رَاحَ**»[٢٢].

ومن كرمه بزائره، أن الصلاة فيه مضاعفة، وكل خطوة تخطوها إليه يرفعك الله بها درجة، ويحط عنك بها خطيئة، وذلك ذهابا وإيابا.

ثم الملائكة تدعو لمن ينتظر الصلاة في المسجد، تقول: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه، اللهم تب عليه.

قال النبي ﷺ: «**صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَمَاعَةٍ تَزِيدُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ، وَصَلَاتِهِ فِي سُوقِهِ، بِضْعًا وَعِشْرِينَ دَرَجَةً، وَذَلِكَ أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ لَا يَنْهَزُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ، لَا يُرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ، فَلَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إِلَّا رُفِعَ لَهُ بِهَا دَرَجَةٌ، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ، حَتَّى يَدْخُلَ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ كَانَ فِي الصَّلَاةِ مَا كَانَتِ الصَّلَاةُ هِيَ تَحْبِسُهُ، وَالْمَلَائِكَةُ يُصَلُّونَ عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ الَّذِي صَلَّى فِيهِ، يَقُولُونَ: اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ تُبْ عَلَيْهِ، مَا لَمْ يُؤْذِ فِيهِ، مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ**»[٢٣].

بل من عظيم الكرم، أن حتى عودتك من المسجد إلى بيتك خطوة لك بها حسنة، وخطوة يمحو الله لك بها سيئة.

قَالَ رَسُولُ الله - ﷺ -: «**مَنْ رَاحَ إِلَى مَسْجِدِ الجَمَاعَةِ فَخَطْوَةٌ تَمْحُو سَيِّئَةً، وَخَطْوَةٌ تُكْتَبُ لَهُ حَسَنَةٌ، ذَاهِبًا وَرَاجِعًا**»[٢٤].

في بيوت الله تبنى الأرواح، تُزكى النفوس، تُربى الأجيال.

فيها يذكر اسم الله كثيرا، وفيها يُعلم الجاهل، ويوعظ الغافل، ويُذكر الناسي.

لذا نهى النبي ﷺ عن منع النساء من الذهاب إلى المساجد، مع أن بيتها خير لها، لكنها مؤمنة يهفو قلبها لبيت ربها فلا تُمنع

قال النبي ﷺ: «**إِذَا اسْتَأْذَنَكُمْ نِسَاؤُكُمْ بِاللَّيْلِ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَأْذَنُوا لَهُنَّ**»[٢٥].

ويظل العبد ملازما بيت الله، متعلقا به، لا يكاد يفارقه، حتى يكون من أوتاد المساجد، وما أدراك ما أوتاد المساجد؟

---

(٢٢) أخرجه البخاري (٦٦٢)، ومسلم (٦٦٩).

(٢٣) أخرجه البخاري (٤٧٧)، ومسلم (٦٤٩).

(٢٤) أخرجه أحمد في «المسند» (٦٥٩٩)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٩٩).

(٢٥) أخرجه البخاري (٨٦٥).



يقـول النبـي ﷺ: «**إِنَّ لِلْمَسَـاجِدِ أَوْتَـادًا الْمَلاَئِكَـةُ جُلَسَـاؤُهُمْ، إِنْ غَابُـوا يَفْتَقِدُونَهُـمْ، وَإِنْ مَرِضُـوا عَادُوهُـمْ، وَإِنْ كَانُـوا فِي حَاجَـةٍ أَعَانُوهُـمْ**»[٢٦].

ومـن تعلـق المحـب ببيـت ربـه، تـراه يتخـذ مسـجدا في بيتـه، يطيبـه، يطهـره، يسـكب فيـه دمعاتـه، يبـث فيـه إلى مـولاه شـكواه

هـذا أبـو بكـر الصديـق رضي الله عنه، وهـي بمكـة، بنـى في فنـاء داره مسـجدا، فَكَانَ يُصَلِّي فِيـهِ، وَيَقْـرَأُ الْقُـرْآنَ، فَيَتَقَصَّـفُ عَلَيْـهِ نِسَـاءُ الْمُشْرِكِـينَ وَأَبْنَاؤُهُـمْ، يَعْجَبُـونَ وَيَنْظُـرُونَ إِلَيْـهِ، وَكَانَ أَبُـو بَكْـرٍ رَجُـلًا بَـكَّاءً، لاَ يَمْلِـكُ دَمْعَـهُ حِـينَ يَقْـرَأُ الْقُـرْآنَ، فَأَفْـزَعَ ذَلِـكَ أَشْرَافَ قُرَيْـشٍ مِـنَ الْمُشْرِكِـينَ[٢٧].

هكـذا المُحـب لربـه، دومـا متعلـق ببيـت مـولاه، يقـضي فيـه مـا يسـتطيع مـن وقتـه، مـا أن يخـرج منـه حتـى يـترك قلبـه معلقـا فيـه، فـإن دخـل بيتـه فهـو مقبـل عـلى مسـجد بيتـه يصـلي فيـه مـا يـسر الله لـه مـن النوافـل، يجلـس فيـه يتلـو كتـاب ربـه، يناجـي فيـه مـولاه، يبـث فيـه شـكواه.

---

(٢٦) أخرجه أحمد في «مسنده» (٩٤٢٤)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٤٠١).
(٢٧) أخرجه البخاري (٤٧٦).



وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ



عندما ترى قلبك يحب الإيمان والمؤمنين، يحب الصلاة، يحب الطيبات، يحب مساعدة المحتاجين وإغاثة الملهوفين، يحب الطهر والعفاف والوفاء والصدق والأمانة، يحب مكارم الأخلاق، يحب العدل، يحب ما يحب الله.

فاعلم أن الله هو من حبب ذلك إليك، وزينه في قلبك.

وعندما ترى قلبك يبغض الكفر والكافرين، يبغض الفحش والفواحش، يكره الزنى وأكل الربا، يكره الخيانة والكذب والغدر، يكره الظلم والظالمين.

فاعلم أن الله هو من ألقى بغض ذلك في قلبك، بفضله كرّه إليك ما يبغضه ويكرهه.

قال الله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾. سورة الحجرات (٧)

ولذا كان من دعاء النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الْإِيمَانَ وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا، وَكَرِّهْ إِلَيْنَا الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ، وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِينَ»[٢٨].

*** الناس قسمان:**

قسم تولاه الله فزين له الطاعة فضلا منه وكرما، وقسم تولى الله عنه فتولاه الشيطان فزين له سوء عمله.

أما الأولون فأقبلوا على الله، قدموا مراضيه على هوى نفوسهم، فتولاهم فحبب إليهم ما يحب، وزينه في قلوبهم، وبغَّض إليهم ما يكره.

وأما الأسفلون فجاءتهم رسلهم بالبينات والهدى فاستحبوا العمى على الهدى، وكرهوا الحق، وآثروا أهواءهم، وباطلهم، ومتاع الدنيا الزائل على الآخرة، فزين لهم شياطين الإنس والجن ما كانوا يعملون.

قال الله: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾. سورة العنكبوت (٣٨)

تأمل: وكانوا مستبصرين. كانوا على بصيرة أنهم على باطل.

(٢٨) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٦٩٩)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٥٤١).





إن من جحد الله، وتعلق بالطواغيت من دون الله، حمله على ذلك بغضه للحق، وكبره، وقصد العلو والفساد.

هؤلاء قوم فرعون كانوا على يقين أنه باطل، وأن موسى على الحق، ولكنه الكبر.

قال الله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ سورة النمل

الأنفة أن يتساوى الناس، إنهم يعيشون على استعباد الخلق، هم لصوص الحياة، فإن جاء من يستنقذ الناس من العبودية لهم عادوه وكفروا بما جاء به.

قال الله: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ ﴿٤٧﴾﴾ سورة المؤمنون

عندما يحول الدين بين الإنسان والفواحش والظلم والبغي، تميل النفوس التي عشقت الباطل، وعاشت به، إلى الصد عن سبيل الحق والعدل والطهر، لا لأن الحق ملتبس بالباطل، ولكن لأن أكثرهم للحق كارهون.

قال الله: ﴿بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٧١﴾﴾ سورة المؤمنون

إياك أن تظن أن أبا جهل وأمية بن خلف وعقبة بن أبي معيط والعاص بن وائل وغيرهم من صناديد قريش كانوا يجهلون أو يشكون في رب العالمين، أو في صدق النبي الأمين ﷺ، لا والله.

يقول الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ: إِنَّ أَوَّلَ يَوْمٍ عَرَفْتُ فِيهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَنِّي أَمْشِي مَعَ أَبِي جَهْلٍ بِمَكَّةَ، فَلَقِينَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ: يَا أَبَا الْحَكَمِ، هَلُمَّ إِلَى اللهِ وَإِلَى رَسُولِهِ وَإِلَى كِتَابِهِ أَدْعُوكَ إِلَى اللهِ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، مَا أَنْتَ بِمُنْتَهٍ عَنْ سَبِّ آلِهَتِنَا، هَلْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ نَشْهَدَ أَنْ قَدْ بَلَّغْتَ، فَنَحْنُ نَشْهَدُ أَنْ قَدْ بَلَّغْتَ، قَالَ: فَانْصَرَفَ عَنْهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَقْبَلَ عَلَيَّ، فَقَالَ: وَاللهِ إِنِّي لَأَعْلَمُ، أَنَّ مَا يَقُولُ حَقٌّ وَلَكِنْ بَنِي قُصَيٍّ، قَالُوا: فِينَا الْحِجَابَةُ، فَقُلْنَا: نَعَمْ، ثُمَّ قَالُوا: فِينَا الْقِرَى، فَقُلْنَا: نَعَمْ، ثُمَّ قَالُوا فِينَا النَّدْوَةُ، فَقُلْنَا: نَعَمْ، ثُمَّ قَالُوا فِينَا السِّقَايَةُ، فَقُلْنَا نَعَمْ، ثُمَّ أَطْعَمُوا وَأَطْعَمْنَا حَتَّى إِذَا تَحَاكَّتِ الرُّكَبُ، قَالُوا: مِنَّا نَبِيٌّ وَاللهِ لَا أَفْعَلُ[٢٩].

إنه التنافس على الدنيا، على السيادة، على الرئاسة، على الشرف والمال.

هذا الذي أهلك الناس، أنى يكون له الملك علينا؟ أنى تكون فيهم النبوة دوننا؟

دفعهم الحسد إلى الكفر والصد عن سبيل الله.

قال الله: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ﴾. سورة البقرة (١٠٩)

(٢٩) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٦٩٧٩)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح السيرة» (ص١٦٢)..





قال الله: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ (٣٠) وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (٣١) أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ سورة الزخرف (٣٢)

عندما تفسد النفوس، وتموت القلوب، ترى الروح تتغذى على كل خبيث، وتكره كل طيب.

ستراهم يصدون عن سبيل الله يبغونها عوجا، يريدون الميل والزيغ، وهم يعلمون أنه الزيغ والضلال.

كما قال الله: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا الله بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾. سورة آل عمران (٩٢)

سيكرهون الدين وأحكام الشريعة لأنهم ستحول بينهم وبين شهواتهم، ستحول بينهم وبين استرقاق الناس واستعبادهم.

كما قال قائلهم يوما: «أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾. سورة الشعراء (١١١)

سيرفضونها لأنها شريعة العدل، وهو يريدون شريعة الغاب، فعندهم الدماء متفاوتة، والنفوس منها ما لا يساوي فلسا، ومنها ما يقتل لأجله كل نفس، لذا سيكرهون سنة الهادي القائل: «**إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ، أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَايْمُ اللهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا**»[٣٠].

بل سيسحقون كل من يأمر بالعدل، كما قال الله: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾. سورة آل عمران (٢١)

فإن لم يستطيعوا سيحرفون شريعة الله، ويبدلون أحكام الله، ويقدمون للناس دينا يرضي أهوائهم يستعبدون به الناس، كما فعل اليهود من قبل ليرضوا فجار بني إسرائيل.

يقول البراء بن عازب رضي الله عنه: «**مُرَّ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِيَهُودِيٍّ مُحَمَّمًا مَجْلُودًا، فَدَعَاهُمْ ﷺ، فَقَالَ: «هَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ؟»، قَالُوا: نَعَمْ، فَدَعَا رَجُلًا مِنْ عُلَمَائِهِمْ، فَقَالَ: «أَنْشُدُكَ بِاللهِ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى، أَهَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ» قَالَ: لَا، وَلَوْلَا أَنَّكَ نَشَدْتَنِي بِهَذَا لَمْ أُخْبِرْكَ، نَجِدُهُ الرَّجْمَ، وَلَكِنَّهُ كَثُرَ فِي أَشْرَافِنَا، فَكُنَّا إِذَا أَخَذْنَا الشَّرِيفَ تَرَكْنَاهُ، وَإِذَا أَخَذْنَا الضَّعِيفَ أَقَمْنَا عَلَيْهِ الْحَدَّ، قُلْنَا: تَعَالَوْا فَلْنَجْتَمِعْ عَلَى شَيْءٍ نُقِيمُهُ عَلَى الشَّرِيفِ وَالْوَضِيعِ، فَجَعَلْنَا التَّحْمِيمَ، وَالْجَلْدَ مَكَانَ الرَّجْمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اللهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَكَ إِذْ أَمَاتُوهُ»، فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا**

(٣٠) أخرجه البخاري (٣٤٧٥)، ومسلم (١٦٨٨).



«أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ الله أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ»[31].

سيحاربون هذه الشريعة لأنهم لصوص، يقتاتون على دماء المساكين، يأكلون الربا، ويعيشون على الرشي، وحينئذ لن يستحوا أن يقولوا كما قال أهل مدين: ﴿قَالُوا يَاشُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾. سورة هود (٨٧)

سيكرهونها لأنها شريعة الطهر والعفاف، وهم عبيد شهواتهم وفروجهم.

سينشرون الفواحش، ويعرون النساء، ويرخصون الزنا، وتصبح المرأة سلعة رخيصة، بل وينادون بالشذوذ، ويبررونه، فإن نادى فيهم أحد: أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون؟

سيكون جوابهم: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾. سورة النمل (٥٦)

هما فريقان: فريق اتبع رضوان الله، تجرد من هواه، وأراد الحق والعدل، فألقى الله في قلبه محبة الإيمان، وزينه في قلبه، وبّغض إليه الكفر والفسوق والفواحش والعصيان.

وفريق عبد لهواه، كاره للحق وأهله، فلا تسل عن واد من أودية الباطل فيه هلك، نعوذ بالله من الخذلان.

(٣١) أخرجه مسلم (١٧٠٠).

لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ



من أعظم ما يكون من ولاية الله لعبده، أن يصلح له دينه، وذلك بأن يصرف عنه السوء والفحشاء

وكأني بيوسف الذي أوتي شطر الحسن، شاب في ريعان شبابه، عبد في الرق في بيت سيده، وامرأة جميلة سيدة في بيتها، مطاعة عند زوجها، شغف حبُ يوسف قلبَها، حتى تخلت عن حيائها، وغلقت الأبواب تنادي على يوسف: هيت لك، تجملت لك، وتزينت لأجلك، فأقبل إليّ...

إلا أنه يعوذ بربه، ويلجأ إلى مولاه.

وفي لحظة ما يقع يوسف في شيء من الهمّ، إلا أن داعي الإيمان يناديه، وواعظ الله في قلبه يصيح به، أن أقبل على ربك ودع عنك هذا السبيل.

فيهرول يوسف هاربا، تتعلق به المرأة، تمسك بثوبه، لكنه يأبى، يفر إلى ربه، يأوي إليه، فآواه الله.

صرف الله عنه السوء والفحشاء.

قال الله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾. سورة يوسف (٢٤)

صرف الله عن قلبه ذاك الميل لمعصية الله، فلم يعد يلتفت.

ثم لم تكف المرأة، ولا صويحباتها عن إرادة السوء.

ينقلب الأمر إلى تهديد ووعيد.

فيفزع يوسف إلى ربه، وكأنه يقول: رب ومولاي: صرفتني عن السوء والفحشاء، فاصرفهم عني يا كريم، فاستجاب الكريم.

قال الله: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ سورة يوسف





كذلك الله يصرف عن قلب عبده المؤمن السوء والفحشاء، فلا يميل إليه، ويصرف عنه ما يؤذيه في دينه، فلا يعرض له، يصرف عنه كيد أولياء الشيطان، فكيف لا يُحب.

القلوب بيد الله وحده، هو سبحانه يقلبها كيف يشاء.

يقول النبي ﷺ: **«إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ، يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ»**(٣٢).

فمن عظيم فضل الله على عبده أنه يصرف قلبه إليه، إلى طاعته، ويصرف عن قلبه هوى ما لا يرضيه.

يقول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: **«كَانَتْ يَمِينُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّتِي يَحْلِفُ بِهَا: لَا وَمُصَرِّفِ الْقُلُوبِ»**(٣٣).

وكان النبي ﷺ يدعو ربه فيقول: **«اللهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ»**(٣٤).

تلك النعمة العظمى، أن يصرف الله قلبك إليه، أن يجعلك ميلك إلى مراضيه، ويصرف قلبك عن مساخطه.

ثم الثانية: أن يصرف عنك ما يؤذيك في دينك.

كل ما قد يفسد عليك دينك يصرفه الله عنك.

هذا يوسف الصديق لما دعا الله أن يصرف عنه شر النسوة استجاب الله له فصرف عنه كيدهن.

ستجد فجأة لم تعد محل تفكيرهم، سينشغلون بغيرك، صرفهم الله عنك لأنه تولاك.

سيصرف عنك صحبة السوء، فلا يأتونك، بل يزهدهم فيك.

سيصرف عنك سيء الأخلاق والأعمال، فتجد حتى خواطرها لا ترد عليك.

لذا كان من دعاء النبي ﷺ: **«وَاهْدِنِي لِأَحْسَنِ الْأَخْلَاقِ لَا يَهْدِي لِأَحْسَنِهَا إِلَّا أَنْتَ، وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لَا يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلَّا أَنْتَ»**(٣٥).

بل سيصرف عنك من الدنيا ما يؤذيك في دينك، بل يحميك منها كما يحمي المحب حبيبه.

يقول النبي ﷺ: **«إِنَّ اللهَ لَيَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الدُّنْيَا، وَهُوَ يُحِبُّهُ كَمَا تَحْمُونَ مَرِيضَكُمْ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ تَخَافُونَهُ عَلَيْهِ»**(٣٦).

تراك تريد سفرا، تريد زوجة ما، تريد عملا من أعمال الدنيا.

(٣٢) أخرجه مسلم (٢٦٥٤).
(٣٣) أخرجه النسائي في «سننه» (٣٧٦٢)، وجود إسناده الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٠٩٠).
(٣٤) أخرجه مسلم (٢٦٥٤).
(٣٥) أخرجه مسلم (٧٧١).
(٣٦) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٣٦٢٢)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣١٧٩).



وكلما وجهت نفسك نحوه عسَّره عليك، ثم يُغلق عليك الأمر، كلما استفتحت له بابا وجدته مغلقا، وربما أصابك بعض الحزن لفواته، وما ذلك إلا محض فضل الله عليك.

يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيُرِيدُ الْأَمْرَ مِنَ الْإِمَارَةِ، أَوِ التِّجَارَةِ، فَيَذْكُرُهُ اللهُ فِي سَبْعِ سَمَاوَاتٍ، فَيَقُولُ لِلْمَلَكِ: اصْرِفْهُ عَنْهُ، فَإِنِّي إِنْ أُيَسِّرْهُ لَهُ أُدْخِلُهُ بِهِ النَّارَ قَالَ: فَيَتَظَنَّى بِجِيرَانِهِ، أَيُّهُمْ دَهَانِي؟ أَيُّهُمْ فَعَلَ بِي؟ وَمَا صَرَفَهُ عَنْهُ إِلَّا اللهُ**»[٣٧].

ومن جميل فعل الله هنا أنك إن فوضت أمرك لربك، فسألته الخير، وتعوذت به من الشر، أنعم عليك بنعمتين:

نعمتان جميلتان: يصرفه عنك، ويصرفك عنه، حتى لا تحزن لفقده، فيذيق قلبك نعيم الرضى.

في صلاة الاستخارة التي علمها إيانا نبينا صلى الله عليه وسلم تقول في إثرها: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ العَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلاَ أَقْدِرُ، وَتَعْلَمُ وَلاَ أَعْلَمُ، وَأَنْتَ عَلَّامُ الغُيُوبِ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي، ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ، وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي - أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ - فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ، وَاقْدُرْ لِي الخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ أَرْضِنِي**»[٣٨].

تأمل: فاصرفه عني، واصرفني عنه.

فقط فوض أمرك لمولاك، تعلق بربك، والجأ إليه عند كل أمر، وسله أن ييسر لك ما فيه الخير لك في دينك ودنياك، وأن يصرف عنك ما فيه شر لك في دينك ودنياك، وأن يصرفك عنه، وأن يرضيك بقدره فيك.

اطلب من ربك الخير، فهو بكل جميل كفيل.

---

(٣٧) أخرجه أبو داود في «**الزهد**» (١٨١)، والدارمي في «**الرد على الجهمية**» (٨٠)، وإسناده صحيح.

(٣٨) أخرجه البخاري (٦٣٨٢).



إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ



قد تتسائل: أين السبيل إلى أن يصرف الله قلبك إليه، وأن يصرف عن قلبك السوء والفحشاء، وأن يصرف عنك كل شر؟

الجواب في نفس الآية:

قال الله: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾. سورة يوسف (٢٤)

تلك هي العلة: «إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ».

عبد خالص لله، ليس فيه شيء لغيره، لا سبيل للشيطان عليه.

قال الله: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ سورة ص

هذا العبد المُخْلَص خلص قلبه لله، فمحبته وخوفه ورجاؤه خالص لربه دون من سواه.

هذا القلب لابد أن يتعلق بمحبوب، فإما أن يكون خالصا لله، ليس فيه غيره، وإما أن يدخله الأغيار، غير الله.

الله وغيره، لا يمكن، لا يستقيم.

إما أن تكون عبدا لله وحده، فيحررك الله من كل قيد، ومن كل رق، وتكون حينئذ سيدا لا تسترقك شهوة.

أو تكون الأخرى، فيك عبودية لغيره.

هذا الرق، وهذه العبودية تنشأ من أحد سببين: إما حب وتعلق، وإما فقر وفاقة.

فالإنسان منا إذا أحب أحدا ملك عليه قلبه، فتراه ذليلا بين يديه، لا لاحتياجه، وإنما لتعلقه وحبه.

وكذلك الإنسان منا إذا احتاج وافتقر لما في يد غيره، ذلّ بين يديه، لا لحبه له، وإنما لفقره إليه.

المؤمن لما ملأت محبة الله قلبه، علم أنه لا يُحب لذاته إلا الله، علم من جلاله وجماله وكماله وإحسانه ما ملأ عليه قلبه محبة وإجلالا وتعظيما ورجاء لله عز وجل، فقدمه على من سواه، فلا تزاحم محبة غير الله محبة الله.

وكذلك لما وقرت ربوبية الله في قلبه، رأى الخلق كل الخلق عبيدا مملوكين مقهورين، فخلص فقره لله وحده، واستغنى به عمن سواه.

قال الفضيل بن عياض: وَاللهِ مَا صَدَقَ اللهَ فِي عُبُودِيَّتِهِ مَنْ لِأَحَدٍ مِنَ الْمَخْلُوقِينَ عَلَيْهِ رَبَّانِيَّةٌ[٣٩].

---

(٣٩) نقله عنه شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٥٩٨).

لذا كان عبدا لله خالصا، وتلك هي العبودية، كمال الحب مع كمال الذل.

أما من تعلقت قلوبهم بغير الله محبا أو فقرا، فتراه يتقلب بين الأرباب.

قد تراه عبدا لامرأته، تقوده حيث شاءت، يفعل لأجلها ما يرضيها، ولو كان يسخط ربه ومولاه، ستراه في الظاهر سيدها، لكن في الحقيقة هو أسير لها، مملوك عندها، تأمره فيأتمر، وتنهاه فينتهي.

وربما كان أسفل من ذلك، فعشق امرأة لا تحل له، فحمله ذلك على كل سوءة، حتى صار كالمجانين.

تراه يقول، ولا يستحي:

لا تَدْعُنِي إِلَّا بِيَا عَبدَها... فَإِنَهُ أشرَفُ أَسْمَائِي

وربما حمله هذا العشق على الزنا، حتى يفقد مروءته.

كما في حديث الثلاثة الذين انطبق عليهم باب الغار، حيث توسل إلى الله فقال: «**اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَتْ لِي ابْنَةُ عَمٍّ أُحِبُّهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ، فَطَلَبْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا، فَأَبَتْ حَتَّى آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَسَعَيْتُ حَتَّى جَمَعْتُ مِائَةَ دِينَارٍ فَلَقِيتُهَا بِهَا، فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا قَالَتْ: يَا عَبْدَ اللهِ اتَّقِ اللهَ، وَلاَ تَفْتَحِ الخَاتَمَ، فَقُمْتُ عَنْهَا**»(٤٠).

فانظر كيف حمله حبه لها على أن سألها الفاحشة، ولم يكتف بذلك، بل لما جاءته تستسلف منه مائة دينار اشترط عليها الفاحشة، خرج من مروءته، ولولا فضل الله عليه لهلك.

بل ربما حمله على القتل:

عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ قَالَ: أَتَى رَجُلٌ لابْنِ عَبَّاسٍ - رضي الله عنهما - فَقَالَ: إِنِّي خَطَبْتُ امْرَأَةً، فَأَبَتْ أَنْ تَنْكِحَنِي، وَخَطَبَهَا غَيْرِي، فَأَحَبَّتْ أَنْ تَنْكِحَهُ، فَغِرْتُ عَلَيْهَا فَقَتَلْتُهَا، فَهَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: أُمُّكَ حَيَّةٌ؟ قَالَ: لاَ، قَالَ: تُبْ إِلَى اللهِ - عز وجل - وَتَقَرَّبْ إِلَيْهِ مَا اسْتَطَعْتَ قَالَ عَطَاءٌ: فَذَهَبْتُ فَسَأَلْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ: لِمَ سَأَلْتَهُ عَنْ حَيَاةِ أُمِّهِ؟ فَقَالَ: إِنِّي لاَ أَعْلَمُ عَمَلاً أَقْرَبَ إِلَى اللهِ - عز وجل - مِنْ بِرِّ الْوَالِدَةِ»(٤١).

فانظر كيف حمله حبه لها على قتلها لما تزوجت غيره، نعوذ بالله من هوى يردي صاحبه.

بل ربما حمله على الكفر:

يقول عبدة بن عبد الرحيم خرجنا في سرية إلى أرض الروم فصحبنا شاب لم يكن فينا أقرأ للقرآن منه ولا أفقه ولا افرض صائم النهار قائم الليل فمررنا بحصن فمال عنه العسكر ونزل بقرب الحصن فظننا أنه يبول فنظر إلى إمرأة من النصارى تنظر من وراء الحصن فعشقها فقال لها بالرومية كيف السبيل إليك قالت حين تنصر ويفتح لك الباب وأنا لك ففعل فأدخل الحصن قال فقضينا غزاتنا في أشد ما يكون من الغم كأن كل رجل منا يرى ذلك بولده من صلبه ثم عدنا في سرية

(٤٠) أخرجه البخاري (٢٣٣٣)، ومسلم (٢٧٤٣).

(٤١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٤)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٤).

أخرى فمررنا به ينظر من فوق الحصن مع النصارى فقلنا يا فلان ما فعلت قراءتك ما فعل علمك ما فعلت صلواتك وصيامك قال اعلموا أني نسيت القرآن كله ما اذكر منه إلا هذه الآية ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون »[٤٢].

نظرة واحدة أصابت قلبه، فتعلق القلب، فلما راودها ساومته بدينه، فألقاه، إنه كان فارغ القلب من محبة الله، وإن كان في الظاهر يحفظ القرآن ويصلي بالليل، بل وفي صفوف المجاهدين.

لأن السير إلى الله سير قلوب قبل الأبدان، وما انقطع من انقطع إلا لأنه لم يصل، فلو وصل ما عاد.

لو أحب الله فعلا لما قدر على أن يدخل هوى مثل هذا إلى قلبه، سيأبى قلبه لا محالة.

القاسم المشترك بين هؤلاء جميعا هو قلب فارغ من محبة الله، فصادف ذاك العشق قلبا فارغا فتمكن منه.

كما قال القائل: **أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الْهَوَى ... فَصَادَفَ قَلْبًا خَالِيًا فَتَمَكَّنَا**

وقد يتعلق بابنه، أو صاحبه، فيحمله ذلك على فعل ما يسخط الله، أو ترك ما أوجبه الله عليه.

وقد يتعلق بالدنيا، حتى تراه عبدا للمال، يفعل لأجله كل شيء، تراه منافقا ذي وجهين، أو لصا، بل فيه كل سوءة، فقط في سبيل المال يفعل كل شيء، حتى لو أريد منه تغيير الدين وتبديل الملة لفعل.

لذا قال النبي ﷺ: «**تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ، تعس عبد القطيفة، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وَإِنْ مُنِعَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ**»[٤٣].

سماه عبدا، عبد يعبد المال، عبد يعبد حتى ثوبه.

يتعلق العبد بالدنيا حتى يكون عبدا ذليلا خادما لقطعة قماش، تسترقه قطعة قماش أو قطعة أثاث.

وقد يتعلق بالجاه والسلطان، ومحبة الثناء، حتى ترضيه الكلمة، وتسخطه الكلمة، فتراه سيدا في الظاهر وهو عبد لمن يثني عليه، أو عبد لمن يجعله ذا سلطان.

إنه الرق والعبودية لغير الله، تراه أسيرا في عنقه قيد لا يملك إلا الإذعان لمن تعلق بهم، أو ذلّ بين أيديهم.

أما العبد الحر، فهو حر مما سوى الله، لا تسترقه امرأة، ولا طاغوتا، ولا درهم ولا دينارا.

إنما يفعل لله فقط، يعطي ويمنع لله، ويرضى ويسخط لله، ويحب ويبغض لله وفي الله.

قال النبي ﷺ: «**مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ**»[٤٤].

ذاك هو العبد المُخْلَص.

(٤٢) رواه ابن الجوزي في «**المنتظم**» (٥/ ١٢٠)..

(٤٣) أخرجه البخاري (٢٨٨٦).

(٤٤) أخرجه أبو داود في «سننه» (٤٦٨١)، وحسنه الشيخ الألباني في «**السلسلة الصحيحة**» (٣٨٠).



ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ الله قُلُوبَهُمْ



قاعدة في التعامل مع رب العالمين، الجزاء من جنس العمل.

من أقبل على الله أقبل الله عليه، ومن أوى إلى الله آواه الله، ومن استغنى عن الله فالله عنه أغنى.

حتى يصرف الله إليك كل خير، ويصرف عنك كل شر، عليك البداية: اصرف قلبك وهمك وجوارحك إليه، إلى مراضيه، حينئذ لا ينصرف الله عنك.

واصرف قلبك وهمك وجوارحك عن مساخطه، يصرف عنك كل سوء.

هما خياران لا ثالث لها: إما أن تقبل على الله، تصرف قلبك إليه، أو أن تعرض عنه، وتنصرف عنه.

هنا في محراب الصلاة يقبل الله عليك ما أقبلت عليه، فإن انصرفت عنه، والتفت قلبك إلى غيره، انصرف الله عنك.

قال النبي ﷺ: «**لا يزالُ اللهُ عز وجل مُقبلًا على العبدِ وهو في صلاته ما لم يلتفت، فإذا التَفَتَ انصَرَفَ عنه**»[45].

هؤلاء الذين انصرفوا عن الله، صرف الله قلوبهم عنه وعن مراضيه، لأنه كما هو كريم، هو غني عزيز.

في سورة التوبة ذكر الله في آية حالا من أحوال المنافقين، فقال سبحانه: ﴿**وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ الله قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ**﴾. سورة التوبة (١٢٧)

مع أن القرآن مصدر النور والخير والهدى، لكن لما انصرف هؤلاء عن القرآن وأعرضوا عنه، جازاهم الله بجنس أعمالهم فصرف قلوبهم عنه.

فعندما ترى إنسانا موغلا في آراء الناس ونظرياتهم، ويريد بذلك إصلاح حياة الناس، ولا تجد في كلامه نور الوحي فاعلم أنه انصرف بقلبه عنه فصرفه الله، تراه مولعا مفتونا بآراء الناس وفلسفاتهم، وعند القرآن أعمى لا يراه.

كذلك قال الله: ﴿**يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ**﴾. سورة الذاريات (٩)

---

(٤٥) أخرجه أبو داود في «سننه» (٩٠٩)، وحسنه لغيره الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٥٤٥).



قال الله: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾. سورة الأعراف (١٤٦)

فلا سواء بين من انصرف بكل قلبه وجميع جوارحه إلى الله، ومن انصرف عن الله.

لا سواء بين من صرف قلبه وهمه وجوارحه عن مساخط الله، ومن صرفها فيما يغضبه.

لذا كانت وصية النبي ﷺ لمن سأله عن نظر الفجأة، أن قال له: «**اصرف بصرك**»[٤٦].

(٤٦) أخرجه مسلم (٢١٥٩).



وهو المستعاذُ من كل شر
يُعيذك من شر الشيطان ونزغاته ووساوسه
تذكر ربك فيصرفه عنك ويقيك وذريتك من شره
إنه الحصن الحصين



وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ



خلق الله آدم عليه السلام بيده، ونفخ فيه من روحه، وعلمه الأسماء كلها، وأمر الملائكة بالسجود له، إلا أن إبليس أبى واستكبر، فطرده الله من رحمته.

حينئذ أقسم اللعين بعزة الله على إضلال آدم وذريته.

قال الله: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ سورة ص

أسكن الله آدم الجنة، وخلق له حواء ليسكن إليها فلا يستوحش.

أحلّ الله لآدم كل شيء في الجنة، إلا شجرة واحدة.

أعلمه الله أن إبليس عدوه اللدود، وأنه سيحاول إغواءه ليخرجه من الجنة فيشقى.

لكن الشيطان بدأ عداوته، وسوس لآدم وزوجه، زيّن له الأكل من هذه الشجرة، صوّر له أنها شجرة الخلد، حتى أقسم لهما بالله أنه من الناصحين.

نسي آدم، فعصى ربه، فأكل هو وزوجه من الشجرة.

تاب الله على آدم فتاب آدم إلى ربه، وقبل توبته، لكن قضى الله هبوط آدم وزوجه والشيطان إلى الأرض.

وبدأت المعركة:

آدم وذريته، والشيطان وذريته.

وكما فعل الكريم سبحانه مع أبينا آدم حيث أباح له كل الجنة إلا شجرة، أباح لنا كل الدنيا، وسخرها لنا، بل وطيبها، إلا قليلا جدا منها، حرمه علينا رحمة بنا لا بخلا علينا.

وكما فعل الكريم مع أبينا آدم حذرنا هذا العدو اللدود، وأعلما بخطته كاملة، ومسالكه، وحبائله، وكيف سيكيد لنا، وكيف ننجو من شره.

قال الله: ﴿يَابَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ سورة الأعراف (٢٧)

كل قصد الشيطان أن يقطع طريق العبد فلا يصل إلا الله، كلما أردت أن تصل إلى الله قطع عليك الطريق.





قال الله: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ سورة الأعراف

لا توجد طاعة تريدها لله إلا وسيحاول بشتى الصور أن يثنيك عنها ابتداءً، سيخوفك من عاقبة الطاعة، سيخيل إليك الفقر والضيعة.

قال الله: ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾. سورة البقرة (٢٦٨)

قال النبي ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعَدَ لِابْنِ آدَمَ بِأَطْرُقِهِ، فَقَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ: تُسْلِمُ وَتَذَرُ دِينَكَ وَدِينَ آبَائِكَ وَآبَاءِ أَبِيكَ، فَعَصَاهُ فَأَسْلَمَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْهِجْرَةِ، فَقَالَ: تُهَاجِرُ وَتَدَعُ أَرْضَكَ وَسَمَاءَكَ، وَإِنَّمَا مَثَلُ الْمُهَاجِرِ كَمَثَلِ الْفَرَسِ فِي الطِّوَلِ، فَعَصَاهُ فَهَاجَرَ، ثُمَّ قَعَدَ لَهُ بِطَرِيقِ الْجِهَادِ، فَقَالَ: تُجَاهِدُ فَهُوَ جَهْدُ النَّفْسِ وَالْمَالِ، فَتُقَاتِلُ فَتُقْتَلُ، فَتُنْكَحُ الْمَرْأَةُ، وَيُقْسَمُ الْمَالُ، فَعَصَاهُ فَجَاهَدَ» فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَمَنْ قُتِلَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، وَإِنْ غَرِقَ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ وَقَصَتْهُ دَابَّتُهُ كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ»(١).

سيقعد لك في طريق الإسلام، سيلقي لك الوساوس والشبهات حتى لا تسلم، سيوحي إلى أوليـاءه ليجادلوك بالباطل.

فإن عصيته فأسلمت سيقعد لك في طريق الطاعة يثقلها عليك، ويخوفك عواقبها.

كلما حاولت أن تقيم دين الله خوّفك أولياءه، وهوّل لك قوتهم.

قال الله: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. سورة آل عمران (١٧٥)

فإن عصيته، وأقدمت عليها سيحاول معك ألّا تكون خالصة لله، بل سيلقي في قلبك تحسينها للناس.

فإن عصيته، وأخلصت النية لله يأتيك فيها حتى لا يحضر قلبك عند فعلها، فلا تشعر معها بأثر على قلبك.

يقول النبي ﷺ: «إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ أَدْبَرَ الشَّيْطَانُ لَهُ ضُرَاطٌ، حَتَّى لَا يَسْمَعَ التَّأْذِينَ، فَإِذَا قُضِيَ التَّأْذِينُ أَقْبَلَ حَتَّى إِذَا ثُوِّبَ بِالصَّلَاةِ أَدْبَرَ حَتَّى إِذَا قُضِيَ التَّثْوِيبُ، أَقْبَلَ حَتَّى يَخْطُرَ بَيْنَ الْمَرْءِ وَنَفْسِهِ يَقُولُ لَهُ: اذْكُرْ كَذَا وَاذْكُرْ كَذَا لِمَا لَمْ يَكُنْ يَذْكُرُ مِنْ قَبْلُ حَتَّى يَظَلَّ الرَّجُلُ مَا يَدْرِي كَمْ صَلَّى»(٢).

فإذا انتهيت من طاعتك ألقى في النفس العجب بها، حتى يظل الإنسان يشمخ بطاعته ويرى نفسه، حتى يهلك.

(١) أخرجه النسائي في «سننه» (٣١٣٤)، وجود إسناده الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٩٧٩).

(٢) أخرجه مسلم (٣٨٩).



وعند كل محرم حرّمه الله عليك، سيأتيك ليزينه لك.

وتزيينه مراحل وخطوات، ليس خطوة واحدة.

فبداية: يحسنه لك، يجمّل لك صورته، لأنه قبيح على الحقيقة، خبيث على نفسك وروحك، فلا تقدم النفس عليه إلا بتزيين يغطي قبحه.

قال الله: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. سورة الأنعام (٤٣)

انظر ما الذي فعله مع أبينا آدم وزوجه؟

لقد وسوس لهما بأن هذه الشجرة فيها المُلك والخُلد.

قال الله: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ﴿٢٢﴾﴾ سورة الأعراف

عندما تخرج المرأة من بيتها، يكتنفها الشيطان،يوسوس لها حتى تتزين في زيها، في كلامها، ويقول لها: إنك لا تمرين بأحد إلا أعجبتيه.

فترى الرجل عنده زوجته حلال طيب، وتتطلع نفسه إلى الحرام، ويُخيل إليه الشيطان أنها أجمل، وما هو إلا تزيين الشيطان.

قال النبي ﷺ: «**الْمَرْأَةُ عَوْرَةٌ، فَإِذَا خَرَجَتْ اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ**»[٣]. ويقول ابن مسعود رضي الله عنه: «**إِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا خَرَجَتْ مِنْ بَيْتِهَا اسْتَشْرَفَهَا الشَّيْطَانُ، وَقَالَ لَهَا: إِنَّكِ لَا تَمُرِّينَ بِأَحَدٍ إِلَّا أُعْجِبَ بِكِ**»[٤].

ثم من تزيينه أنه يسهله لك، لا يُعظمه في عينك، سيقول لك: الأمر بسيط، لا يستحق منك هذا العناء.

قال الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾. سورة محمد (٢٥)

سول لهم: أي سهل لهم، وهذا من العجب أن يأتي لفظ التسويل مع الردة عن دين الله، فلك أن تتخيل كيف سهل الردة على النفس مع أنه ليس بعدها ذنب.

ثم من تزيينه أن يعدك بالصلاح بعده، ويمنيك بطول العمر بأن التوبة مُدركة، ولن تفوتك، فقط هذه المعصية ثم تكون من الصالحين.

ألم تر إلى إخوة يوسف، كيف كاد الشيطان لهم.

---

(٣) أخرجه الترمذي في «سننه» (١١٧٣)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٦٨٨).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (١٧٧١٠).



: ﴿اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾. سورة يوسف (٩)

تلك هي المصيبة: وتكونوا من بعده قوما صالحين.

فإذا فعلت الذنب، ندّمك عليه، ليس ندم التوبة، وإنما ندم القنوط من رحمة الله، تبرأ منك، وأوهمك أنه لا أمل فيك، وأنك خسرت الآخرة.

قال الله: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾. سورة الحشر (١٦)

ليس هذا فحسب، بل سيشاركك كل شيء حتى طعامك وشرابك، حتى مسكنك.

قال النبي ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَحْضُرُ أَحَدَكُمْ عِنْدَ كُلِّ شَيْءٍ مِنْ شَأْنِهِ، حَتَّى يَحْضُرَهُ عِنْدَ طَعَامِهِ، فَإِذَا سَقَطَتْ مِنْ أَحَدِكُمُ اللُّقْمَةُ، فَلْيُمِطْ مَا كَانَ بِهَا مِنْ أَذًى، ثُمَّ لِيَأْكُلْهَا، وَلَا يَدَعْهَا لِلشَّيْطَانِ، فَإِذَا فَرَغَ فَلْيَلْعَقْ أَصَابِعَهُ، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي فِي أَيِّ طَعَامِهِ تَكُونُ الْبَرَكَةُ»(٥).

إنه عدوك المبين، تبدأ عداوته لك في اللحظة التي تنزل فيها إلى هذه الدنيا، ينخسك فتصرخ.

قال النبي ﷺ: «كُلُّ بَنِي آدَمَ يَطْعُنُ الشَّيْطَانُ فِي جَنْبَيْهِ بِإِصْبَعِهِ حِينَ يُولَدُ، غَيْرَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، ذَهَبَ يَطْعُنُ فَطَعَنَ فِي الْحِجَابِ»(٦).

حتى عند نومك لن يتخلى عنك، سيأتيك لينسيك ذكر الله، يعقد على رأسك العقد، حتى ينسى الإنسان ذكر ربه، فيستيقظ خبيث النفس كسلان.

قال النبي ﷺ: «يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إِذَا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ يَضْرِبُ كُلَّ عُقْدَةٍ عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ، فَارْقُدْ فَإِنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ اللَّهَ، انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ وَإِلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلَانَ»(٧).

بل في منامك، سيأتيك يتلاعب بك، حتى يلقي في قلبك الأحزان، لأن الحزن يضعف سيرك إلى الله.

قال النبي ﷺ: «وَالرُّؤْيَا ثَلَاثَةٌ: فَرُؤْيَا الصَّالِحَةِ بُشْرَى مِنَ اللهِ، وَرُؤْيَا تَحْزِينٌ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَرُؤْيَا مِمَّا يُحَدِّثُ الْمَرْءُ نَفْسَهُ، فَإِنْ رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ فَلْيَقُمْ فَلْيُصَلِّ، وَلَا يُحَدِّثْ بِهَا النَّاسَ»(٨).

ويظل يعاديك، يحاول معك لا ييأس حتى عند الموت.

لذا كان النبي ﷺ يتعوذ بالله من الشيطان، حتى عند الموت سأل الله أن يقيه شره عنده، فقال:

---

(٥) أخرجه مسلم (٢٠٣٣).
(٦) أخرجه البخاري (٣٢٨٦).
(٧) أخرجه البخاري (١١٤٢).
(٨) أخرجه مسلم (٢٢٦٣).

«**وَأَعُوذُ بِكَ أَنْ يَتَخَبَّطَنِي الشَّيْطَانُ عِنْدَ الْمَوْتِ**»[9].

لا يغفل عنك لحظة، جاثم على قلبك، لا ينام، يبعث سراياه ليفتنوا الناس، يحرش بين المسلمين، يفرق بين المرء وزوجته.

قِيلَ لِلْحَسَنِ: يَا أَبَا سَعِيدٍ أَيَنَامُ الشَّيْطَانُ؟ قَالَ: «**لَوْ غَفَلَ لَوَجَدَهَا كُلُّ مُؤْمِنٍ مِنْ قَلْبِهِ**»[10].

فإن كان الأمر كذلك، فما السبيل للنجاة من كيده ووساوسه؟

حتى نفهم السبيل، تأمل هذا المثل جيدا:

قَالَ شيخ لتلميذه مَا تصنع بالشيطان إذا سول لك الخطايا؟

قَالَ: أجاهده.

قَالَ: فَإِن عاد؟

قَالَ: أجاهده.

قَالَ: فَإِن عاد؟

قَالَ: أجاهده.

قَالَ: هَذَا يطول.

ثم قال له الشيخ: أرأيت إن مررت بغنم فنبحك كلبها أَوْ منعك من العبور، مَا تصنع؟

قَالَ: أكابده وأرده جهدي.

قَالَ: هَذَا يطول عليك، ولكن استعن بصاحب الغنم يكفه عنك»[11].

الشيطان مخلوق ضعيف كيده، هو وسراياه في قبضة الملك، إن تولاك عصمك وأجارك منه، وإن تولى عن عبد كان من أولياء الشيطان. لذا أعظم ما ينجيك من الشيطان أن تستعيذ بالله دوما منه، ومن نزغاته، ووساوسه، وخطراته، وشركه، وكيده.

الحصن الحصين الذي به نجاتك ذكر الله، وصدق التجاءك إليه، واعتصامك به.

لا قلب أطهر من قلب نبينا ﷺ، ورغم ذلك كان يتعوذ بالله دوما من شره، بل ويخبرنا أن له قرينا من الجن مثلنا تماما، لكن الله أعانه عليه فسلم من شره.

---

(٩) أخرجه النسائي في «**سننه**» (**٥٥٣١**)، وصححه الشيخ الألباني في «**صحيح أبي داود**» (١٣٨٨).

(١٠) أخرجه ابن أبي شيبة في «**مصنفه**» (٣٥٢٩٢).

(١١) تلبيس إبليس (ص٣٥).



سألت عائشة رضي الله عنها النبي ﷺ، فقالت: «**يَا رَسُولَ اللهِ أَوْ مَعِيَ شَيْطَانٌ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قُلْتُ: وَمَعَ كُلِّ إِنْسَانٍ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قُلْتُ: وَمَعَكَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «نَعَمْ، وَلَكِنْ رَبِّي أَعَانَنِي عَلَيْهِ حَتَّى أَسْلَمَ**»(١٢).

فمن رحمة الله بنا أن شرع لنا ذكره في كل حين، حفظا من هذا الشيطان اللعين، فلا تجد حالا من أحوال الحياة إلا وفيه ذكر لله تعالى، فإن ذكرت الله خنس الشيطان وهرب، فإنه لا يقاوم ذكر الله.

قال النبي ﷺ، فيما يحكيه عن يحيى عليه السلام فيما أمره الله أن يعلمه بني إسرائيل: «**وَآمُرُكُمْ أَنْ تَذْكُرُوا اللَّهَ فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خَرَجَ الْعَدُوُّ فِي أَثَرِهِ سِرَاعًا حَتَّى إِذَا أَتَى عَلَى حِصْنٍ حَصِينٍ فَأَحْرَزَ نَفْسَهُ مِنْهُمْ، كَذَلِكَ الْعَبْدُ لَا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيْطَانِ إِلَّا بِذِكْرِ اللهِ**»(١٣).

ومن رحمة الله أن هذا منذ اللحظة الأولى التي هي بداية وجودك في هذه الدنيا، عندما يأتي الرجل أهله.

يقول النبي ﷺ: «**لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَالَ بِاسْمِ اللهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَإِنَّهُ إِنْ يُقَدَّرْ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ فِي ذَلِكَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْطَانٌ أَبَدًا**»(١٤).

وعند صباح كل يوم شرع لك أن تقول ما يحفظك به من شره طيلة اليوم.

قال النبي ﷺ: «**مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ**»(١٥).

وإن خرجت من بيتك فذكرت الله، وتوكلت عليه، حفظك منه كذلك. قال النبي ﷺ: «**قَالَ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ، فَقَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، فَيُقَالُ لَهُ: حَسْبُكَ قَدْ كُفِيتَ وَهُدِيتَ وَوُقِيتَ؛ فَيَلْقَى الشَّيْطَانُ شَيْطَانًا آخَرَ فَيَقُولُ لَهُ: كَيْفَ * لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ كُفِيَ وَهُدِيَ وَوُقِيَ**»(١٦).

فإن دخلت المسجد فقلت: «**أَعُوذُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، وَبِوَجْهِهِ الْكَرِيمِ، وَسُلْطَانِهِ الْقَدِيمِ، مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ**». قَالَ الشَّيْطَانُ: حُفِظَ مِنِّي سَائِرَ الْيَوْمِ(١٧).

---

(١٢) أخرجه مسلم (٢٨١٥).

(١٣) أخرجه الترمذي في «سننه» (٢٨٦٣)، صححه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٥٥٢).

(١٤) أخرجه البخاري (١٤١)، ومسلم (١٤٣٤).

(١٥) أخرجه البخاري (٣٢٩٣).

(١٦) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٨٢٢)، وصححه الشيخ الألباني في «تخريج الكلم الطيب» (٥٩).

(١٧) أخرجه أبو داود في «سننه» (٤٦٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح أبي داود» (٤٨٥).

فإن صليت فجاءك يوسوس لك فاستعذ بالله منه، يصرفه الله عنك

فهذا عثمان بن أبي العاص رضي الله عنه، أَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ حَالَ بَيْنِي وَبَيْنَ صَلَاتِي وَقِرَاءَتِي يَلْبِسُهَا عَلَيَّ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**ذَاكَ شَيْطَانٌ يُقَالُ لَهُ خَنْزَبٌ، فَإِذَا أَحْسَسْتَهُ فَتَعَوَّذْ بِالله مِنْهُ، وَاتْفِلْ عَلَى يَسَارِكَ ثَلَاثًا**» قَالَ: **فَفَعَلْتُ ذَلِكَ فَأَذْهَبَهُ اللهُ عَنِّي**»[١٨].

وإن دخلت بيتك فذكرت الله عند دخولك، وعند طعامك، خرج من بيتك، وترك لك طعامك وشرابك.

قال النبي ﷺ: «**إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ، فَذَكَرَ اللهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: لَا مَبِيتَ لَكُمْ، وَلَا عَشَاءَ، وَإِذَا دَخَلَ، فَلَمْ يَذْكُرِ اللهَ عِنْدَ دُخُولِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ، وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللهَ عِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ**»[١٩]. وإن ذكرت الله عن خلعك ثوبك سترك الله عنهم، فلا يرون منك عورة.

قال النبي ﷺ: «**سَتْرُ مَا بَيْنَ أَعْيُنِ الْجِنِّ وَعَوْرَاتِ بَنِي آدَمَ إِذَا نَزَعَ أَحَدُكُمْ ثَوْبَهُ يَقُولُ: بِسْمِ اللهِ**»[٢٠].

وعند نومك إن قرأت آية الكرسي لم يزل عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح[٢١].

وإن جاءك في نومك فأراك ما يحزنك، فقط تستعيذ بالله من شرها، ولا يذكرها لأحد، فإنها لا تضره بإذن الملك سبحانه.

قال النبي ﷺ: «**إِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ رُؤْيَا يُحِبُّهَا، فَإِنَّمَا هِيَ مِنَ اللهِ، فَلْيَحْمَدِ اللهَ عَلَيْهَا وَلْيُحَدِّثْ بِهَا، وَإِذَا رَأَى غَيْرَ ذَلِكَ مِمَّا يَكْرَهُ، فَإِنَّمَا هِيَ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَلْيَسْتَعِذْ مِنْ شَرِّهَا، وَلَا يَذْكُرْهَا لِأَحَدٍ، فَإِنَّهَا لَا تَضُرُّهُ**»[٢٢].

وإن قرأت سورة البقرة في بيتك فرّ منه الشيطان.

قَالَ النبي ﷺ: «**لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ، إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ**»[٢٣].

وإن جاءك ليوسوس لك، أو لينزغ بك حتى تعصي ربك، كل ما عليك أن تلجأ إلى الله وتحتمي به، وتستعيذ بالله من شره، فإنه يختفي ويذهب.

---

(١٨) أخرجه مسلم (٢٢٠٣).
(١٩) أخرجه مسلم (٢٠١٨).
(٢٠) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٥٠٤)، وصححه لغيره الشيخ الألباني في «إرواء الغليل» (١/ ٨٩)..
(٢١) أخرجه البخاري (٢٣١١).
(٢٢) أخرجه البخاري (٦٩٨٥).
(٢٣) أخرجه مسلم (٧٨٠).



قال الله تعالى: «﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. سورة فصلت (٣٦)

قال النبي ﷺ: «يَأْتِي الشَّيْطَانُ أَحَدَكُمْ فَيَقُولُ: مَنْ خَلَقَ كَذَا، مَنْ خَلَقَ كَذَا، حَتَّى يَقُولَ: مَنْ خَلَقَ رَبَّكَ؟ فَإِذَا بَلَغَهُ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللَّهِ وَلْيَنْتَهِ»[٢٤].

هو سيحاول جاهدا أن يحرش بينك وبين المؤمنين، بينك وبين زوجك، سيغضبك، فإن استعذت بالله منه ذهب كل ذلك.

قال النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ، ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ»[٢٥].

هذا الشيطان ما أضعفه، حتى أنه لا يستطيع أن يفتح بابا مغلقا، بل ولا يقدر أن يكشف إناءً.

قال النبي ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَحُلُّ سِقَاءً، وَلَا يَفْتَحُ بَابًا، وَلَا يَكْشِفُ إِنَاءً»[٢٦].

إن اعتصمت بربك، وعذت بمولاك، كفاك شره ووسوسته بفضله ورحمته، لا بفضلك ولا بعملك.

قال الله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾. سورة النساء (٨٣)

الشيطان جاثم على قلبك، فإن ذكرت الله لم يجد له ملجأً، سيفر، لا يقاوم ذكر الله، إنما يتملك قلوب الغافلين.

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «الشَّيْطَانُ جَاثِمٌ عَلَى قَلْبِ ابْنِ آدَمَ، فَإِذَا سَهَا وَغَفَلَ وَسْوَسَ، وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهَ خَنَسَ»[٢٧].

يظل المؤمن ملازما ذكر الله بقلبه ولسانه، حتى لا يجد الشيطان إليه سبيلا، إلا طائفا سُرعان ما يذهبه العبد بتذكره واستغفاره وإنابته، حتى يندم الشيطان أنه وسوس له أصلا.

يظل العبد ملازما ذكر الله بقلبه ولسانه، في كل أحواله، حتى يصير شيطانه مهزولا ضعيفا ذليلا مدحورا؟

قَالَ النبي ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُنْضِي شَيَاطِينَهُ، كَمَا يُنْضِي أَحَدُكُمْ بَعِيرَهُ فِي السَّفَرِ»[٢٨].

---

(٢٤) أخرجه البخاري (٣٢٧٦).

(٢٥) أخرجه البخاري (٣٢٨٢).

(٢٦) أخرجه مسلم (٢٠١٢).

(٢٧) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٤٧٧٤)، وصححه الشيخ الألباني في «هداية الرواة» (٢٢٢١).

(٢٨) أخرجه أحمد في «مسنده» (٨٩٤٠)، حسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٥٦٨).



ويقول ابن مسعود رضي الله عنه: «إِنَّ شَيْطَانَ الْمُؤْمِنِ يَلْقَى شَيْطَانَ الْكَافِرِ، فَيَرَى شَيْطَانَ الْمُؤْمِنِ شَاحِبًا، أَغْبَرَ مَهْزُولًا، فَيَقُولُ لَهُ شَيْطَانُ الْكَافِرِ: مَا لَكَ، وَيْحَكَ، قَدْ هَلَكْتَ، فَيَقُولُ شَيْطَانُ الْمُؤْمِنِ: لَا وَاللهِ مَا أَصِلُ مَعَهُ إِلَى شَيْءٍ، إِذَا طَعِمَ ذَكَرَ اسْمَ اللهِ، وَإِذَا شَرِبَ ذَكَرَ اسْمَ اللهِ، وَإِذَا نَامَ ذَكَرَ اسْمَ اللهِ، وَإِذَا دَخَلَ بَيْتَهُ ذَكَرَ اسْمَ اللهِ، فَيَقُولُ الْآخَرُ: لَكِنِّي آكُلُ مِنْ طَعَامِهِ، وَأَشْرَبُ مِنْ شَرَابِهِ، وَأَنَامُ عَلَى فِرَاشِهِ، فَهَذَا شَاحِبٌ، وَهَذَا مَهْزُولٌ»[29].

لكن إنما يجد الشيطان سبيل لمن وجد بغيته عنده، ليس له سلطان على المؤمن، إنما تأثيره على من خبثت نفسه فأحب الشيطان وعمله.

لذا يوم القيامة يتبرأ الشيطان من ممن اتبعه، يُنصب له منبر، ينادي في أتباعه كما قال الله تعالى.

قال سبحانه: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. سورة إبراهيم (٢٢)

هذه القصة كلها: دعوتكم فاستجبتم لي.

عندما يكون القلب عبدا لغير الله، متعلقا بالدنيا وشهواتها، يسهل على الشيطان إغواء العبد، فإنه يأتيه من نقطة ضعفه، أما من كان عبدا لله وحده فليس للشيطان عليه سبيل.

قال الله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾. الإسراء (٦٥)

لذا ليكن قلبك محررا من شهوات الدنيا، لا تسترقك امرأة ولا سلطان، ولا يُخضعك طاغوت ولا سجان.

إنما كن عبدا لله فحسب يكفيك شر الوسواس الخناس.

واعلك أن الشيطان كاللص، يتللص على قلبك.

واللِّصُّ إِذَا رَأَى السِّرَاجَ يُوقَدُ فِي الْبَيْتِ لَا يَقْرُبُ مِنْهُ وكذلك الشيطانُ إذا رأى سراجَ قلبك مضيئاً لم يقترب.

(٢٩) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (١٩٥٦٠)، بإسناد صحيح..



ويزكي تلك النفوس من آثامها ويحررها من أغلالها
يزكيها فيمدها بنور كلامه
ويطهر تلك القلوب من آفاتها حتى يباهي بالعبد ملائكته



وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا



قال النبي ﷺ: «**لَمَّا صَوَّرَ اللهُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يَتْرُكَهُ، فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ، يَنْظُرُ مَا هُوَ، فَلَمَّا رَآهُ أَجْوَفَ عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقًا لَا يَتَمَالَكُ**»[1].

أجوف: به موضع فارغ يحتاج دوما لملأه، فتراه يشعر بالفقر والحاجة، لا يشبعه شيء.

لا يتمالك، لا يملك نفسه أمام رغباتها وشهواتها.

هكذا هي نفس الإنسان في أصل خلقته، لذا طمع فيه الشيطان، وعلم من أين يأتيه.

جعل الله لنا نفوسا وقلوبا.

أما القلب فخلقه الله على الفطرة، سالما من كل باطل، يقبل الحق، مريدا له، فلو تُرك القلب من غير أن يؤثر عليه مبطل لكان مسلما.

فطر الله القلب لا يطمئن ولا يسكن بمألوه ولا محبوب غير رب العالمين.

قال الله تعالى في الحديث القدسي: «**وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا**»[2].

هكذا كل إنسان، خلقه الله على الفطرة، قلبه أبيض كالصفا، طاهر ليس فيه خبث، ثم يلوثه الإنسان باتباعه ما تهواه نفسه، أو زينه له الشيطان، مما حرم رب العالمين.

قال النبي ﷺ: «**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ البَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ**»[3].

فالعدو الأول، والسبب الرئيس في هلاك الإنسان هو نفسه التي بين جنبيه.

هذه النفس جُبلت على صفات حسنة وأخرى سيئة، على صفات خير وأخرى شر.

قال النبي ﷺ: «**إِذَا تَزَوَّجَ أَحَدُكُمُ امْرَأَةً فَلْيَأْخُذْ بِنَاصِيَتِهَا وَلْيَقُلْ: أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِهَا وَخَيْرِ مَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ مَا جُبِلَتْ عَلَيْهِ**»[4].

فما كان فيها من سوء وشر يحتاج العبد إلى تطهيره وتهذيبه.

قال الله: ﴿**وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا**﴾. سورة النساء (٢٨)

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦١١).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

(٣) أخرجه البخاري (١٣٥٨)، ومسلم (٢٦٥٨).

(٤) أخرجه أبو داود في «سننه» (٢١٦٠)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح أبي داود» (١٨٧٦).





خلق الإنسان ضعيفا، ضعيف في بنيته، ضعيف في همته، ضعيف في صبره.

لا يصبر عن شهوات نفسه، لا تشتهي نفسه شيئا إلا وينجذب نحوه دون روية، حتى لو كان فيه هلاكه.

مثله كهذه الفراشة التي ما ترى الضوء حتى تتجه نحوه حتى لو كان فيه نار ستحرقها، لكن غلبت شهوتها عقلها إن كان لها عقل.

لكن الفرق بيننا وهذه الفراشات، أنها لم تجد من يحجزها عما فيه هلاكها، لم تجد من يدفعها عن شهوات نفسها، أما أنا وأنت فقد أنزل الله إلينا كتابا نورا مبينا، وأرسل إلينا رسولا يتلو علينا آيات الله ويزكينا ويعلمنا الكتاب والحكمة، ورغم ذلك نأبى عليه.

يقول النبي ﷺ: «**إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا، فَأَنَا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، هَلُمَّ عَنِ النَّارِ، وَهُمْ يَقْتَحِمُونَ فِيهَا**»(٥).

هكذا نفس الإنسان في طبعه الجهل والظلم، جهول بربه، ظلوم لنفسه وغيره، ما أن يشعر بالاستغناء حتى يطغى، وما من زلة إلا وهو إما ناقص عن جهل أو ظلم، فأصل كل خير العلم والعدل، وأصل كل شر وبلية الظلم والجهل.

قال الله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾. سورة الأحزاب (٧٢)

قال الله: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ۝ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ۝﴾ سورة العلق

فيه طمع غالب، لا يملأ جوفه إلا التراب، لو أعطاه الله واديا من ذهب لأراد ثانيا وثالثا.

يقول النبي ﷺ: «**لَوْ كَانَ لِابْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لَابْتَغَى ثَالِثًا، وَلَا يَمْلَأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ الله عَلَى مَنْ تَابَ**»(٦).

حريص على المال، حريص على الحياة، شحيح، فيه جبن وخور.

قال الله: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾. سورة النساء (١٢٨)

وقال الله: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. سورة الحشر (٩)

وقال النبي ﷺ: «**يَهْرَمُ ابْنُ آدَمَ وَتَشِبُّ مِنْهُ اثْنَتَانِ: الْحِرْصُ عَلَى الْمَالِ، وَالْحِرْصُ عَلَى الْعُمُرِ**»(٧).

عجول، لا يتأنى.

قال الله: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾. سورة الإسراء (١١)

هلوع، إن مسه الخير كان شحيحا قتورا حريصا منوعا، وإن مسه الشر سخط وتشكى وكان جزوعا.

---

(٥) أخرجه البخاري (٦٤٨٣)، ومسلم (٢٢٨٤).

(٦) أخرجه البخاري (٦٤٣٦).

(٧) أخرجه مسلم (١٠٧٤).

قال الله: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾. سورة الإسراء (١٠٠)

قال الله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ سورة المعارج

لكن استثنى الله من جنس هذا الإنسان إنسانا آخر له نفس مثل أي نفس، لكنها نفس مزكاة، زكاها هذا القرآن، زكاها أحكام هذه الشريعة.

فقال الله: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُولَٰئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾﴾ سورة المعارج

عند البلاء تجده يائسا، وعند السراء تراه فرحا فخورا

قال الله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَئُوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾﴾ سورة هود

هكذا هي نفس الإنسان أيضا، لكن استثنى الله منهم فقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ سورة هود

عظيم الجدل، يرى نفسه، يُعظم رأيه وقوله، لا يقبل أن يُخطّأه أحد

قال الله: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾. سورة الكهف (٥٤)

ستجد في هذه النفس الكثير من الآفات، امتحن الله بها الإنسان، وأقدره الله على تهذيبها، بل وأن يبلغ بها أعلى الدرجات، حتى يباهي الله بالعبد ملائكته.

فهذه النفس سواها رب العالمين، وهيأها لقبول الخير والشر.

قال الله: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ﴿١٠﴾﴾ سورة الشمس

فمن أقبل على نفسه فزكاها، تزكت، وكانت نفسا طيبة طاهرة زكية، ومن أهملها فتركها بلا تطهير وزكاة خبثت نفسه

وتزكية النفوس والقلوب هو نمائها في الصلاح، أي في موطن صالح.

والنفس كتلك النبتة، حتى تنمو لابد لها من ثلاث:

راع يقوم على إصلاحها.

غذاء صالح، به قوامها وصلاحها وبرها.

دفع تلك العلائق والآفات التي تعوق صلاحها وكمالها.

فأما الأولى: ......





وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ



تلكم الأولى: أن يتولى الله عبده فيصلح له نفسه، وينمي فيها خيرها، ويطهرها من شرها.

فلا غنى للعبد عن ربه طرفة عين، هو من يزكيه ويتولى إصلاحه ويرقيه في درجات الكمال.

لذا كانت دعوة النبي ﷺ: «**اللهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا**»[٨].

كان النبي ﷺ يقول في صباح كل يوم ومساءه: «**يَا حَيُّ يَا قَيُّومُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ**»[٩].

نفس نبينا ﷺ أطهر النفوس، ومع ذلك يرجو ربه ومولاه ألا يخليه ونفسه طرفة عين.

يستعيذ بربه من شرور نفسه، ليس شرا واحدا بل هي شرور، فيقول ﷺ: «وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا[١٠]»

ويعلم الصديق أبا بكر أن يستعيذ بالله من شر نفسه صباح مساء، وعند نومه.

قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ مُرْنِي بِشَيْءٍ أَقُولُهُ إِذَا أَصْبَحْتُ وَإِذَا أَمْسَيْتُ؟ قَالَ: قُلْ: اللَّهُمَّ عَالِمَ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ، فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، رَبَّ كُلِّ شَيْءٍ وَمَلِيكَهُ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ، قَالَ: قُلْهُ إِذَا أَصْبَحْتَ، وَإِذَا أَمْسَيْتَ، وَإِذَا أَخَذْتَ مَضْجَعَكَ[١١].

فبفضله وحده سبحانه زكت النفوس، ولولا فضله ورحمته وولايته لعبده لهلك العبد في أغوار نفسه.

قال الكريم: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللهِ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. النور (٢١)

وأما الثانية: غذاء صالح، ولا تصلح هذه النفوس إلا بالوحي.

تظل هذه النفس في جهلها وظلمها وشحها وحرصها وهلعها وجبنها، فتأتي آيات القرآن فيحيي به الله النفوس بعد موتها، وتنبت فيها شجرة الخير، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

---

(٨) أخرجه مسلم (٢٧٢٢).

(٩) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (١٠٣٣٠)، وصححه الشيخ الألباني في «**السلسلة الصحيحة**» (٢٢٧).

(١٠) أخرجه الترمذي في «سننه» (١١٠٥)، وصححه الشيخ الألباني في «**صحيح أبي داود**» (١٨٤٤).

(١١) أخرجه الترمذي في «سننه» (٣٣٩٢)، وصححه الشيخ الألباني في «**السلسلة الصحيحة**» (٢٧٥٣).





هـذه النفـس الظالمـة الجاهلـة، فقـيرة لمولاهـا الكريـم كـي يزيـح عنهـا الجهـل بنـور الوحـي، ويزيـح عنهـا الظلـم بعـدل الشريعـة.

لـذا أنـزل الله في كتابـه، وبـين عـلى لسـان رسـوله ﷺ، الهُـدى مفصـلا، شـاملا لـكل مـا تتزكـى بـه نفسـه، فـلا تجـد في النفـس خلقـا حسـنا إلا وفي القـرآن تحسـينه وتكميلـه، وذكـر مـا يدعـو إليـه، ولا تجـد في النفـس آفـة أو طبـع سـوء إلا وفي القـرآن تزكيتـه وتهذيبـه.

فالقـرآن يخرجـك مـن الجهـل إلى العلـم، ومـن الظلـم إلى العـدل، ومـن اتبـاع الشـهوات إلى الصـبر عـن الحرمـات، ومـن الكـبر إلى التواضـع، ومـن الهلـع والجـزع إلى الصـبر والـرضى، ومـن الشـح والبخـل إلى الجـود والكـرم، ومـن الجبـن والخـور إلى الشـجاعة والإقـدام، ومـن الغلظـة والفظاظـة إلى اللـين وخفـض الجنـاح.

فـكل مـن أراد إصلاحـك بعيـدا عـن الوحـي فاعلـم أنـه يقـودك نحـو الهاويـة، ولـن تـزداد نفسـك بذلـك إلا ظمئـا.

ففي هذه النفس ظمأ لا يرويه إلا غيث الوحي، وندى حديث رسول الله ﷺ.

وانظـر كيـف صنـع الوحـي عظـماء الصحابـة، كيـف نقلهـم مـن الجاهليـة وظلامهـا وظلمهـا، إلى كريـم الصفـات، وجميـل الخـلال.

أهـذا عمـر بـن الخطـاب الـذي كان يعـذب المسـتضعفين بمكـة، يُضـرب بـه المثـل في الفظاظـة والغلظـة، كيـف حولـه القـرآن إلى رجـل رقيـق القلـب، غزيـر الدمـع، يـرق قلبـه لدابـة يخشـى أن تتعثـر في العـراق عـلى شـط الفـرات.

أهـذه الخنسـاء التـي مـلأت الدنيـا رثـاء في أخيهـا صخـر حزنـا عـلى موتـه، ثـم هـي مـن تقـدم أبناءهـا الأربـع يـوم القادسـية، فيقتلـوا جميعـا في سـبيل الله، ثـم يصلهـا الخـبر، فـلا تزيـد عـلى أن تقـول: «**الحَمد لله الَّذِي شرفني بِقَتْلِهِم وَأَرْجُو من رَبِّي أَن يجمعني بهم فِي مُسْتَقر رَحمته**»[١٢].

لا تجـد حكـما مـن أحـكام هـذه الشريعـة إلا وفيـه تهذيـب لهـذه النفـوس، وتطهـير لهـا مـن دنسـها ورجسـها.

هـذه الـزكاة، وهـذه الصدقـات، لا ينـال الله منهـا شـيئا، وإنـما مـن خيراتهـا العظـام تطهـير نفسـك، وتزكيـة روحـك مـن داء الشـح والبخـل.

قال الله: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾. سورة التوبة (١٠٣)

أوجـب غـض البـصر عـن المحـارم، تزكيـة لهـذه النفـوس حتـى لا تتعلـق بـما لا يحـل، فكـم مـن نظـرة ألقـت في قلـب صاحبهـا الفتـن.

(١٢) الاستيعاب لابن عبد البر (٤/ ١٨٢٩).



قال الله: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾. سورة النور (٣٠)

وأما الثالثة: فإنسان يقوم على نفسه ليل نهار، يفتش في عيوبها وآفاتها، يقوم قيام صدق يتزكى، يطلب زكاة نفسه.

قال الله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ سورة الأعلى (١٤)

قال الله: ﴿وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾. سورة فاطر (١٨)

ينظر في كل عيب، ثم يستعين الله على نفسه في كل نَفَس، يسأله صلاح نفسه، وتطهيرها.

يحاسب نفسه حساب الرجل الشحيح لشريكه، فيوقفه على أصغر ما يكون.

قال ميمون بن مهران ﵀: «لَا يَكُونُ الرَّجُلُ تَقِيًّا حَتَّى يُحَاسِبَ نَفْسَهُ أَشَدَّ مِنْ مُحَاسَبَةِ الرَّجُلِ شَرِيكَهُ، حَتَّى يَنْظُرَ مِنْ أَيْنَ مَطْعَمُهُ، وَمَشْرَبُهُ، وَمَكْسَبُهُ»[١٣].

وقال الحسن البصري ﵀: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ قَوَّامٌ عَلَى نَفْسِهِ يُحَاسِبُ نَفْسَهُ لله، وَإِنَّمَا خَفَّ الْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى قَوْمٍ حَاسَبُوا أَنْفُسَهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَإِنَّمَا شَقَّ الْحِسَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى قَوْمٍ أَخَذُوا هَذَا الْأَمْرَ عن غَيْرِ مُحَاسَبَةٍ، إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَفْجَؤُهُ الشَّيْءُ فَيُعْجِبُهُ فَيَقُولُ: وَاللهِ إِنِّي لَأَشْتَهِيكَ وَإِنَّكَ لَمِنْ حَاجَتِي، وَلَكِنْ وَاللهِ مَا مِنْ وُصْلَةٍ إِلَيْكَ، هَيْهَاتَ حِيلَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ، وَيَفْرُطُ مِنْهُ الشَّيْءُ فَيَرْجِعُ إِلَى نَفْسِهِ فَيَقُولُ: مَا أَرَدْتُ إِلَى هَذَا، مَا لِي وَلِهَذَا، مَا لِي عدد غير هذا وَاللهِ لَا أَعُودُ إِلَى هَذَا أَبَدًا إِنْ شَاءَ اللهُ، إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ قَوْمٌ أَوْثَقَهُمُ الْقُرْآنُ وَحَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ هَلَكَتِهِمْ، إِنَّ الْمُؤْمِنَ أَسِيرٌ فِي الدُّنْيَا يَسْعَى فِي فِكَاكِ رَقَبَتِهِ، لَا يَأْمَنُ شَيْئًا حَتَّى يَلْقَى اللهَ، يَعْلَمُ أَنَّهُ مَأْخُوذٌ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ كُلِّهِ»[١٤].

وعندماتقوم على إصلاحها، لن تستسلم لك نفسك ابتداء بل ستأمرك بالسوء، وليس مرة واحدة، بل مرات ومرات، لن تيأس، سوف توسوس لك بالشر، كأنه صوت خفي يتسلل إلى قلبك.

قال الله: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. سورة يوسف (٥٣)

قال الله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾. سورة ق (١٦)

عند كل واجب من أوامر الملك ستمنيك نفسك، قائلة: ولم العجلة، غدا تفعل، أنت تقدر عليه، لكن ليس اليوم. كما حدث مع كعب بن مالك أيام غزوة تبوك، يقول: «وَتَجَهَّزَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَالْمُسْلِمُونَ مَعَهُ فَطَفِقْتُ أَغْدُو لِكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُمْ فَأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا فَأَقُولُ فِي نَفْسِي: «أَنَا قَادِرٌ عَلَيْهِ فَلَمْ يَزَلْ يَتَمَادَى بِي حَتَّى اشْتَدَّ بِالنَّاسِ الْجِدُّ»[١٥].

(١٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٥٢٧١)، وإسناده صحيح.
(١٤) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٦٣٥٧)، بإسناد حسن..
(١٥) أخرجه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩).





ثـم إن جئـت تفعـل صعبتـه عليـك حتـى تكسـل عنـه، تضعـف، تخـبرك أنهـا لـن تسـتطيع، ستشـعرك بالعجـز.

وعنـد كل حـرام ستسـهل لـك المعصيـة، لأن الحـرام في أصلـه عسـير مسـتعص عـلى القلـب سـتجد مقاومـة مـن قلبـك، لا يقبـل بسـهولة، فتظـل النفـس تسـهله حتـى يفعلـه الإنسـان، وفي النهايـة ينتـصر أحدهمـا، فإمـا أن ينقلـب قلبـك نفسـا، أو تنقلـب نفسـك قلبـا.

هـذا قابيـل قاتـل أخيـه، أول جريمـة قتـل عـلى ظهـر الأرض، لم يكـن قابيـل شرا محضـا، بـل كان في قلبـه بعـض خشـية وبقيـة إيـمان، جعـل القتـل عليـه عصيـا، لكـن ظلـت نفسـه توسـوس بـه، وتسـهل لـه القتـل، كـما فعلـت مـع إخـوة يوسـف: «**وتكونـوا مـن بعـده قومـا صالحـين**».

فكانـت النتيجـة كما ذكر الله: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُـهُ قَتْلَ أَخِيـهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. سورة المائدة (٣٠)

وكانت النتيجة كما قال الله: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾. سورة يوسف (١٨)

هما مساران:

إما عبد استعاذ بربه من شرور نفسه، ولجأ إلى الله لجوء الغريق لينجيه من وساوسها، ويطهره من آفاتها.

ثم أقبل على نفسه ينظر عيوبها وآفاتها، ثم سقاها غيث الوحي، يزكيها بآيات القرآن.

وهنـا تنتقـل نفسـه رويـدا مـن النفـس الأمـارة بالسـوء إلى اللوامـة التـي تتلـوم أي تـتردد عنـد فعـل مـا يغضـب الله، فـإن قـوي الإيـمان مـرة غلـب نفسـه فأطـاع، وإن ضعـف الإيـمان مـرة غلبتـه نفسـه فعـصى، فيتلـوم مـرة أخـرى فيلـوم نفسـه عـلى مـا فعـل.

ثـم إن أكمـل العبـد تزكيـة نفسـه، ولم ييـأس مـن صلاحهـا، واسـتعان بربـه ومـولاه، كانـت نفسـا مطمئنـة، يملكهـا ولا تملكـه، زمامهـا بيـده، فيغلـب إيمانـه هـوى نفسـه غالبـا، وإن زلـت قدمـه مـرة، تـاب وأنـاب.

قـال الله: ﴿وَأَمَّـا مَـنْ خَافَ مَقَـامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَـنِ الْهَوَى ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ الْجَنَّـةَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٤١﴾﴾سورة النازعات

هـذا هـو الجهـاد حقـا، مـع خطـرات هـذه النفـس، وشـهواتها، ورغباتهـا، فمـن أفلـح فيـه بـاع نفسـه لله، واشـترى بهـا جنـة عرضهـا السـموات والأرض.

قال النبي ﷺ: «**وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ**»[١٦].

وإمـا عبـد ملكتـه نفسـه، أرخـى لهـا حبلهـا، فقادتـه إلى مواطـن الـردى، لا تهـوى شـيئا إلا ركبـه، فيظـل العبـد في سـفول حتـى تكـون نفسـه أخـس قـدرا مـن البهائـم.

فتجـده في صـورة إنسـان إلا أن نفسـه صـارت كنفـوس السـباع، يسـتمتع بالعـدوان عـلى خلـق الله مـن حيـوان أو إنسـان.

(١٦) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٣٩٥٨)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٥٤٩).





ومنهم من تجد نفسه صارت كنفوس الكلاب، لا يستمتع إلا بالجيف.

ومنهم من تجد نفسه صارت كنفوس العقارب والحيات، ينفث في الناس سمومه، يشعل الحروب، ويفرق بين الأحبة.

ومنهم من تجد نفسه حيوانية شهوانية، ليس له مطمح ولا سعي إلا في بطنه وفرجه، ولا حديث له إلا في ذلك، ولا شغل له إلا في ذلك، فله يسعى ويعمل.

والموفق فيها من أعانه الله، ووكله إليه، والمخذول فيها من وكله الله إلى نفسه.

وَطَهِّرْ قَلْبَهُ



بينما النبي ﷺ جالس بين أصحابه، إذ دخل عليه فتى شاب، فقال: يَا رَسُولَ الله، ائْذَنْ لِي بِالزِّنَا، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ عَلَيْهِ فَزَجَرُوهُ وَقَالُوا: مَهْ. مَهْ. فَقَالَ: «**ادْنُهْ، فَدَنَا مِنْهُ قَرِيبًا**». **قَالَ: فَجَلَسَ قَالَ: «أَتُحِبُّهُ لِأُمِّكَ؟ » قَالَ: لَا. وَالله جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأُمَّهَاتِهِمْ». قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لِابْنَتِكَ؟ » قَالَ: لَا. وَالله يَا رَسُولَ الله جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِبَنَاتِهِمْ». قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لِأُخْتِكَ؟ » قَالَ: لَا. وَالله جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِأَخَوَاتِهِمْ». قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لِعَمَّتِكَ؟ » قَالَ: لَا. وَالله جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِعَمَّاتِهِمْ». قَالَ: «أَفَتُحِبُّهُ لِخَالَتِكَ؟ » قَالَ: لَا. وَالله جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ. قَالَ: «وَلَا النَّاسُ يُحِبُّونَهُ لِخَالَاتِهِمْ». قَالَ: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيْهِ وَقَالَ: «اللهُمَّ اغْفِرْ ذَنْبَهُ وَطَهِّرْ قَلْبَهُ، وَحَصِّنْ فَرْجَهُ»** قَالَ: فَلَمْ يَكُنْ بَعْدُ ذَلِكَ الْفَتَى يَلْتَفِتُ إِلَى شَيْءٍ[١٧].

وطهر قلبه.

عندما أقول لك: طهر ثوبك، على الفور يأتي على بالك أن خبثا أو نجاسة أصابته، ولذا تحتاج إلى ماء طهور ليذهب عنك هذا الرجس.

فما معنى هذا الدعاء، وهل يتنجس القلب، ومن بيده تطهيره، وما هو الطهور الذي سيسكب على قلبك فيذهب رجسه؟

كان النبي ﷺ يدعو ربه فيقول: «**اللهُمَّ طَهِّرْنِي مِنَ الذُّنُوبِ وَالْخَطَايَا، كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْوَسَخِ**»[١٨].

خلق الله هذا القلب طاهرا أبيض كالصفا، ثم يأتي الإنسان فتعرض عليه الفتن، فكلما سقط في فتنة نُكت في قلبه نكتة سوداء، وتدنس قلبه بخبث هذا الذنب، فالذنوب خبائث، قاذورات.

أراك متفاجئا!!، خبائث، قاذورات!!

هكذا سمى الله الفواحش، وإن سماها الناس غير ذلك.

قال الله: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾. سورة الأعراف (١٥٧)

وهكذا قال عنها النبي ﷺ: «**اجْتَنِبُوا هَذِهِ الْقَاذُورَاتِ الَّتِي نَهَى الله عَنْهَا فَمَنْ أَلَمَّ فَلْيَسْتَتِرْ بِسِتْرِ اللهِ وَلْيَتُبْ إِلَى اللهِ فَإِنَّهُ مَنْ يُبْدِلْنَا صَفْحَتَهُ نُقِمْ عَلَيْهِ كِتَابَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ**»[١٩].

---

(١٧) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٢٢١١)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٧٠).

(١٨) أخرجه مسلم (٤٧٦).

(١٩) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٧٦١٥)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٦٦٣).



دعهم يسمون الزنا علاقة غرامية، أو علاقة عاطفية، أو نزوة، أو خيانة زوجية، هو زنا خبيث، صاحبه خبيث، وإن قالوا عنه ما شاءوا.

دعهم يسمون الخمر مشروبا روحيا، أو ماء الحياة، ستظل الخمر أم الخبائث كما قال عنها النبي ﷺ[٢٠].

كل ما حرمه الله خبائث وقاذورات، لكن حال الإنسان مع الذنوب كمثل رجل كان يسير في طريق نسيمه طيب، وفجأة انحدر به السير عن طريقه، فسلك طريقا معوجا، فإذ به يشم رائحة جيفة نتنة، فأمسك بأنفه، فإذا به يرى لافتة عريضة مضيئة مكتوب عليها: هذا طريق الجيف والنفايات، وهنا يُحدث نفسه أيخرج عن هذا الطريق ويعود إلى طريقه المستقيم الذي كان يسير فيه، أم يكمل، فإن أكمل ولم يعد سيمر على جيفة بعد جيفة، ومع مضي الوقت ستعتاد أنفه على الرائحة الخبيث، وربما استمتع بها، لا لأنها طيبة فيها نعيم، ولكن لأن النفس طارت خبيثة لا يلائمها إلا الخبائث.

وكذلك الإنسان خلق الله قلبه طيبا طاهرا، فإن أذنب تألمت روحه، وتكدر صفو قلبه، فإن لم يتب ويرجع، تعودت النفس على الخبائث حتى أنها قد تستلذ بها، لا لأن فيها طيب النعيم، ولكن خبثت النفس فأصبحت لا تقع إلا على الخبائث.

يقول النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا**»[٢١].

الله هو الطيب، لا يقبل إلا الطيب من القول والعمل، إليه يصعد الكلم الطيب، وأحل الطيبات وحرم الخبائث.

والمؤمن طيب، لا يأكل إلا طيبا، ولا يقول إلا طيبا، ولا يتزوج إلا الطيب، ولا تطيب حياته إلا بالطيبات.

قال النبي ﷺ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِ مَثَلُ النَّحْلَةِ، لَا تَأْكُلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَلَا تَضَعُ إِلَّا طَيِّبًا**»[٢٢].

قال الله: ﴿**الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ**﴾. سورة النور (٢٦)

فكل محرم خبيث، تعافه النفوس الطيبة، تستقبحه النفوس السوية، تنفر منه نفوس المؤمنين.

فكيف لا يُحب رب العالمين، وقد جعل الحرام خبيثا قذرا تعافه كل نفس طيبة، وهذا من تعسيره للحرام عليك حتى إذا أقبلت على الحرام نفرت منه نفسك وروحك، فكانت كمن يُرغم نفسه على ما تكره، لكنه سكر الشهوات، تفقد الإنسان عقله، فيأتي القذر يستمتع به، لا لأنه ممتع ولكن لأنه قتيل هواه.

ستجري المعارك بين الأطهار الأنقياء الطيبين، وبين الخبثاء الأنجاس.

---

(٢٠) أخرجه الدارقطني في «سننه» (٤/ ٢٤٧)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٨٥٤).

(٢١) أخرجه مسلم (١٠١٥).

(٢٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٦٣٧)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٥٥).



سيفعلون كل ما بوسعهم كي تخبث الحياة بها فيها، كي لا يكون في الأرض شيء طيبا، سيدّعون أنه لا فرق بين الحلال الطيب والحرام الخبيث، فإن قام أهل الطهر بالإنكار عليهم أمروا بإخراجهم من بلادهم وديارهم، لأنهم مجرمون متطهرون، ولا عجب أن تصبح الطهارة جُرما في مستنقع الخبائث.

هذا جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، وقف أمام النجاشي يبين له أنهم اعتنقوا الإسلام وتركوا خبث الجاهلية، فأراد أقوامهم قهرا وظلما أن يردوهم إلى جاهليتهم ليستحلوا هذه الخبائث

قال له: «**أَيُّهَا الْمَلِكُ، كُنَّا قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ، وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ، وَنُسِيءُ الْجِوَارَ يَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَّا الضَّعِيفَ، فَكُنَّا عَلَى ذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللهُ إِلَيْنَا رَسُولًا مِنَّا نَعْرِفُ نَسَبَهُ، وَصِدْقَهُ، وَأَمَانَتَهُ، وَعَفَافَهُ، » فَدَعَانَا إِلَى اللهِ لِنُوَحِّدَهُ، وَنَعْبُدَهُ، وَنَخْلَعَ مَا كُنَّا نَعْبُدُ نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ دُونِهِ مِنَ الْحِجَارَةِ وَالْأَوْثَانِ، وَأَمَرَنَا بِصِدْقِ الْحَدِيثِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ، وَصِلَةِ الرَّحِمِ، وَحُسْنِ الْجِوَارِ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَحَارِمِ، وَالدِّمَاءِ، وَنَهَانَا عَنِ الْفَوَاحِشِ، وَقَوْلِ الزُّورِ، وَأَكْلِ مَالَ الْيَتِيمَ، وَقَذْفِ الْمُحْصَنَةِ، وَأَمَرَنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ لَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَأَمَرَنَا بِالصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصِّيَامِ «، قَالَ: فَعَدَّدَ عَلَيْهِ أُمُورَ الْإِسْلَامِ، فَصَدَّقْنَاهُ وَآمَنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ، فَعَبَدْنَا اللهَ وَحْدَهُ، فَلَمْ نُشْرِكْ بِهِ شَيْئًا، وَحَرَّمْنَا مَا حَرَّمَ عَلَيْنَا، وَأَحْلَلْنَا مَا أَحَلَّ لَنَا، فَعَدَا عَلَيْنَا قَوْمُنَا، فَعَذَّبُونَا وَفَتَنُونَا عَنْ دِينِنَا لِيَرُدُّونَا إِلَى عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ مِنْ عِبَادَةِ اللهِ، وَأَنْ نَسْتَحِلَّ مَا كُنَّا نَسْتَحِلُّ مِنَ الْخَبَائِثِ**»[٢٣].

فإن تنجس القلب بالخبائث والقاذورات، فمن ذا الذي بيده أن يطهره؟

الله وحده هو من يطهر قلبك، لأنه يريد لك الطهارة، والقلوب بيده سبحانه.

قال الله: ﴿مَا يُرِيدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. سورة المائدة (٦)

وأول سبيل لطهارة هذا القلب ألا يكون فيه إله غير الله.

أن تتبرأ من كل ند ومثيل وشريك اتخذه الناس مع رب العالمين.

ألا يرى قلبك ربا ولا إلها يستحق الخضوع والحب والتعظيم إلا الله عز وجل.

فأصل نجاسة القلب تعلقه بغير الله، ولذا كان المشرك نجسا، قلبه متنجس.

قال الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ﴾. سورة التوبة (٢٨)

كل وثن يطوف حوله قلب العبد ينجسه.

وكأني بك تصورت عينك الآن ذاك الصنم الذي كان يصنعه أهل الجاهلية يلطخونه بالدماء، ويحنون رؤوسهم عنده.

(٢٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٧٤٠)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح السيرة النبوية» (ص١٧٥).





أو ذاك القبر الملفوف في ثوب أخضر، وعليه أنوار خضراء، التصقت به أكف الناس، ووضعوا عنده الأموال، وكل جاء بحاجته يتنى قضاءها.

نعم هذه أوثان من أوثان الجاهلية، لكن أوثان القلوب لا عدّ لها ولا حصر.

فقد يكون الوثن سيدا غنيا مطاعا يطوف حوله قلبك، يتمسح به، ينافقه، يثني عليه بالباطل، ترى إنسانا يكذب لأجله، بل ربما يقتل لأجله، فإن فتشت عن العلة ستجد تعلق القلوب بهذا السيد، حيث ظن المسكين أن له من الأمر شيئا.

وقد يكون الوثن ثناءات الناس، تلك التي تجعلك تطوف حولها، لها تسعى وتجد، ترمق نظراتهم إذا صففت قدمك في الصلاة، تترقب كلماتهم إذا ألقيت درسا، تتسمع حديثهم عنك إن أعطيت سائلا.

وقد يكون الوثن حاكما أو شيخا أو كبيرا، أو حتى فكرة أو تنظيرا لشيء ما، جعله الإنسان مقدسا يقدمه على حكم الله ورسوله ﷺ، وكلما عُورض بكتاب الله أو سنة رسوله ﷺ صاح به من كل جانب، إنا وجدنا آبائنا، ومفكرينا، وفلاسفتنا، وكبرائنا، وقادتنا، كذلك يفعلون.

وقد يكون الوثن هوى الإنسان، ما تميل إليه نفسه بالباطل، فتراه في الحقيقة يعبد نفسه، يلوي آيات القرآن وأحاديث النبي ﷺ لينصر باطله، ويكذب، بل ويحرف دين الله، كل هذا انتصارا لما تهواه نفسه.

إن كل شيء خلع الإنسان عليه صفات الربوبية دون الله، فظن أن له من الأمر شيئا، ينفع أو يضر، يعطي أو يمنع، يعز أو يذل، يغني أو يفقر، يخفض أو يرفع، يرزق أو يقطع، فقد جعله الإنسان وثنا، وبه يتنجس القلب.

وكل شيء خلع الإنسان عليه صفات الألوهية دون الله، فخضع له، وانقاد لحكمه، أو أحبه كحب الله، أو خافه أو رجاه كخوفه ورجاءه الله، فقد جعله وثنا، وبه يتنجس القلب.

والله يقول: «فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ﴾. سورة الحج (٣٠)

وقد يوغل عابد الوثن في شركه حتى يؤصل للشرك بالله، ويحرف كتاب الله، ويبدل دين الله المنزل، ويدعو الناس له باسم الدين، لكنه دين محرف يرضي أهواء السادة، يحمل الناس على الوثنية باسم الدين، فهذا حاله أن الله لم يرد أن يطهر قلبه، فامتلأ رجسا على جس، حتى مات قلبه.

قال الله: ﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. سورة المائدة (٤١)



إِنَّ المُؤْمِنَ لاَ يَنْجُسُ



في ذات يوم خرج أبو هريرة رضي الله عنه من بيته جُنبا، أي عليه جنابة، فلقي النبي ﷺ فَأَخَذَ بِيَدِهِ، قال أبو هريرة: فَمَشَيْتُ مَعَهُ حَتَّى قَعَدَ، فَانْسَلَلْتُ، فَأَتَيْتُ الرَّحْلَ، فَاغْتَسَلْتُ ثُمَّ جِئْتُ وَهُوَ قَاعِدٌ، فَقَالَ: **«أَيْنَ كُنْتَ يَا أَبَا هِرٍّ»**، فَقُلْتُ لَهُ، فَقَالَ: **«سُبْحَانَ اللَّهِ يَا أَبَا هِرٍّ إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَا يَنْجُسُ»**(٢٤).

المؤمن لا ينجُس حيا ولا ميتا.

لكنه بحكم خلقته أنه بشر، يذنب، وكل ذنب يلوث القلب، يحتاج الإنسان لتطهيره.

قال النبي ﷺ: **«تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ، عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ، مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»**(٢٥).

هكذا الذنوب، كل ذنب ينكت تلك النكتة السوداء، وكلما أذنب العبد كلما وضعت نقطة أخرى، يفقد القلب طهارته شيئا فشيئا، رويدا رويدا.

وهنا إما أن يلجأ العبد إلى ربه بعد كل ذنب، يستغفره، يتوب إليه، وحينئذ يمنُّ عليه الكريم فيغسل قلبه، فيرجع طاهرا أبيضا.

وإن لم يفعل، توالت الذنوب والخبائث والقاذورات، وعلا رجس الذنوب على القلوب حتى يصبح القلب خبيثا نجسا أسودا، لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشربه قلبه.

قال النبي ﷺ: **«إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ، صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ، حَتَّى يَعْلُوَ قَلْبَهُ ذَاكَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ»**(٢٦).

ولكن بم سيطهر المؤمن قلبه إن دنسته معصيته؟

الله القدوس المنزه عن كل عيب، جعل أشرف وأعظم كلامه القرآن الكريم آيات مُطَهَّرة، لا يمسه إلا الملائكة المطهرون، ولا يستشعر جمال آياته وجلالها وحسن معانيها إلا أصحاب القلوب الطاهرة، وكذلك هي مُطَهِّرة تَطْهُر بها القلوب.

قال الله القدوس: ﴿كَلَّا إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾ فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾﴾ سورة عبس

---

(٢٤) أخرجه البخاري (٢٨٥)، ومسلم (٣٧١).
(٢٥) أخرجه مسلم (١٤٤).
(٢٦) أخرجه أحمد في «مسنده» (٧٩٥٢)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٤٢٢).





وقال سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ سورة الواقعة

تطهر بها القلوب تلاوة، وسماعا، وعملا، وتحاكما. فكل حكم من أحكام هذه الشريعة المطهرة يحمل قلبك على ما هو أزكى وأطهر. وضوءك للصلاة تطهير لقلبك من ذنوبك.

يقول النبي ﷺ: «**إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ - أَوِ الْمُؤْمِنُ - فَغَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنَيْهِ مَعَ الْمَاءِ - أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ -، فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَ مِنْ يَدَيْهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ كَانَ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مَعَ الْمَاءِ أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ -، فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَشَتْهَا رِجْلَاهُ مَعَ الْمَاءِ - أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ - حَتَّى يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنَ الذُّنُوبِ**»[٢٧].

أرأيت فضل الكريم الذي يريد طهارتك، يغسلك من ذنوبك خمس مرات كل يوم، تخرج مع آخر قطرة خطاياك، حتى تخرج نقيا طاهرا.

طاعاتك، صلاتك، زكاتك.

قال الكريم: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾. سورة التوبة (١٠٣)

عندما أمر الله المؤمنين ألا يكلموا أزواج النبي ﷺ إلا من وراء حجاب، علل ذلك بأنه أطهر لقلوبكم وقلوبهن.

قال الله: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾. سورة الأحزاب (٥٣)

فإن أردت طهارة قلبك فابحث عما هو أطهر، فكل كلمة وكل فعلة قد تأخذ بقلبك لريح الخبث فاصرف قلبك وجوارحك عنها، لأن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين

ثم اعلم أن الجنة لا يدخلها إلا الأطهار، فإنها دار الطيبين، شعارها طبتم فادخلوها خالدين، فإن لم تتطهر من ذنوبك في بالتوبة، فيرحمك الله حينئذ بالمصائب ليطهرك بها من آثامك وأوزارك.

دخل النبي ﷺ على أعرابي يعوده في مرضه، فقال له: «**لَا بَأْسَ، طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللهُ**»[٢٨].

فإن لم يتب من بعض ذنوبه، ولم تكفرها المصائب والبلايا في الدنيا، كان هناك تطهير يوم القيامة، إما أن يغفرها الله له، وإما أن تكون الأخرى، محن يوم القيامة وأهوالها، والمرور من على الصراط، ثم قنطرة القصاص، فإن لم تف هذه الأهوال بتطهير العبد، دخل النار فمكث فيها على قدر ما يذهب خبثه، فإن صار نقيا طاهرا أدخله الله الجنة.

يقول النبي ﷺ: «**يَخْلُصُ الْمُؤْمِنُونَ مِنَ النَّارِ، فَيُحْبَسُونَ عَلَى قَنْطَرَةٍ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَيُقَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ مَظَالِمُ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ**»[٢٩].

---

(٢٧) أخرجه مسلم (٢٤٤).
(٢٨) أخرجه البخاري (٣٦١٦).
(٢٩) أخرجه البخاري (٦٥٣٥).



وهو الْمُسْتَعَانُ



على كل خير وعند كل نائبة.
منه العون والمدد

وَالله الْمُسْتَعَانُ



لا أستطيع أن أصف حال أم المؤمنين عائشة ﵂ عندما خاض في عرضها الخائضون، وكيف أنها مرضت لأجل ذلك، وكانت تبكي حتى تظن أن البكاء فالق كبدها، ولكن كل هذا يمكن أن تضعه في جانب، وهذا الموقف الذي تعرضت له في جانب آخر.

وذلك يوم أن جاءها النبي ﷺ، وهو من هو، رسول الله، ثم هو زوجها، وأحب الخلق إليها، وهي الآن في بيت أبيها الصديق، وهو أحب الناس إلى قلبها بعد رسول الله ﷺ.

ولأدع الحديث لأم المؤمنين تحكيه بنفسه، واستشعر حالها، وحال قلبها يومئذ:

تقول: فَبَيْنَا نَحْنُ كَذَلِكَ إِذْ دَخَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَجَلَسَ وَلَمْ يَجْلِسْ عِنْدِي مِنْ يَوْمِ قِيلَ فِيَّ مَا قِيلَ قَبْلَهَا، وَقَدْ مَكَثَ شَهْرًا لَا يُوحَى إِلَيْهِ فِي شَأْنِي شَيْءٌ.

قَالَتْ: فَتَشَهَّدَ.

ثُمَّ قَالَ: «**يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً، فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ، فَاسْتَغْفِرِي اللهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ العَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ، ثُمَّ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ**»

قالت: فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ مَقَالَتَهُ، قَلَصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً.

وَقُلْتُ لِأَبِي: أَجِبْ عَنِّي رَسُولَ اللهِ ﷺ.

قَالَ: وَاللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ.

فَقُلْتُ لِأُمِّي: أَجِيبِي عَنِّي رَسُولَ اللهِ ﷺ فِيمَا قَالَ.

قَالَتْ: وَاللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ.

قَالَتْ: وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، لَا أَقْرَأُ كَثِيرًا مِنَ القُرْآنِ، فَقُلْتُ: إِنِّي وَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ سَمِعْتُمْ مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ، وَوَقَرَ فِي أَنْفُسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي بَرِيئَةٌ، وَاللهِ يَعْلَمُ إِنِّي لَبَرِيئَةٌ لَا تُصَدِّقُونِي بِذَلِكَ، وَلَئِنِ اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ، وَاللهِ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ لَتُصَدِّقُنِّي.

وَاللهِ مَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا، إِلَّا أَبَا يُوسُفَ إِذْ قَالَ: ﴿**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ**﴾ سورة [يوسف: ١٨].

ثُمَّ تَحَوَّلْتُ عَلَى فِرَاشِي وَأَنَا أَرْجُو أَنْ يُبَرِّئَنِي اللهُ، وَلَكِنْ وَاللهِ مَا ظَنَنْتُ أَنْ يُنْزِلَ فِي شَأْنِي وَحْيًا، وَلَأَنَا أَحْقَرُ فِي نَفْسِي مِنْ أَنْ يُتَكَلَّمَ بِالقُرْآنِ فِي أَمْرِي، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللهُ، فَوَاللهِ مَا رَامَ مَجْلِسَهُ وَلَا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ البَيْتِ، حَتَّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ الوَحْيُ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ البُرَحَاءِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الجُمَانِ مِنَ العَرَقِ فِي يَوْمٍ شَاتٍ، فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَكَانَ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا، أَنْ قَالَ لِي: «**يَا**



عَائِشَـةُ احْمَـدِي اللهَ، فَقَـدْ بَـرَّأَكِ اللهُ».

فَقَالَتْ لِي أُمِّي: قُومِي إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ.

فَقُلْتُ: لاَ وَاللهِ، لاَ أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلاَ أَحْمَدُ إِلَّا اللهَ»[1].

لقد كان البلاء كله ثقيلا جدا، لكن أثقل منه كلام النبي ﷺ حيث لم يجزم ببراءتها أمامها، مع كونه لم يجزم بالريبة، لكن مجرد سماعها منه ذلك كان ثقيلا عظيما عليها، وزاد الأمر عليها أنها لم تر منه اللطف الذي كانت تعتاده منه خاصة في مرضها

فماذا فعلت عائشة وهي الصغيرة السن، لم تتعود بعد على صدمات الحياة، وكانت نفسها تتوق وتتشوف من رسول الله ﷺ غير ذلك؟

هنا وكأني بقلب أم المؤمنين اتجه بكله إلى السماء، لم يعد يلتفت إلا إلى الله فحسب، انقطع رجاؤها إلا من الله.

أخذت تبحث عن كلمة تعبر بها عن اعتصامها بمولاها، عن استمدادها العون منه وحده، فالأمر عظيم.

تذكرت قول يعقوب عليه السلام، لكنها حتى نسيت اسمه فقالت :

» وَاللهِ مَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا، إِلَّا أَبَا يُوسُفَ إِذْ قَالَ: ﴿**فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ**﴾.

فأعانها الله بما لم تكن تتخيله، أنزل براءتها في لحظتها، وفوق ذلك آيات تتلى إلى يوم القيامة تحث عن طهرها وعفتها وصيانتها، تلك الحصان الرزان، رضي الله عنها.

الله المستعان، أي وحده من يملك عونك.

أنت من غير الله لا شيء البتة، أنت به تكون، ومن دونه لا ولن تكون.

كان النبي ﷺ يثني على ربه إذا استفتح الصلاة بالليل، ومن ثناءه على ربه ومولاه يقول: «**أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ**»[2].

أنا بك أكون، بك آمنت، بك أسلمت، بك صليت، بك أطعت، بك تركت معصيتك.

بمعونتك، بتوفيقك، بممددك، بفضلك، وحدك لا شريك لك.

كان ﷺ إذا غزا قال: «**اللهم أَنْتَ عَضُدِي ونَصيري، بِكَ أَحُول، وبِكَ أَصُولُ، وبِكَ أُقاتِلُ**»[3].

أنت في حاجة إلى ربك في كل نفس.

حتى أن تضع جنبك على الأرض لا تستطيع ذلك إلا بربك، ورفعك جنبك بعد استيقاظك من نومك لا تستطيعه إلا بربك.

(١) أخرجه البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٧٧١).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه (٢٦٣٢)، وصححه الشيخ الألباني في صحيح أبي داود (٢٣٦٦)..

كان ﷺ يعلم أصحابه أن يقول أحدهم إذا أوى إلى فراشه: «**بِاسْمِكَ رَبِّ وَضَعْتُ جَنْبِي وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ**»(٤).

أنت عبد ضعيف عاجز، لك نفس أمارة بالسوء، وشيطان جاثم على قلبك لا يترك فرصة لإغوائك.

فماذا عساك تفعل يا مسكين؟

لا تحزن، لك رب منه العون، ونعم العون، وبرحمته يعينك لأنه يعلم ضعفك، سيقويك.

قال الله: ﴿**قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ**﴾. سورة الأنبياء (١١٢)

الرحمن المستعان، جمع بينهما ليعلمك أنه برحمته يعينك، لأنه يعلم ضعفك وحاجتك.

لذا تبرأ إلى الله من حولك وقوتك، انفض يدك من نفسك، ومن علمك، ومن صحبتك، لا تتعلق بالأوهام.

من هنا يأتي الخذلان، يوم أن تتعلق بغير الله.

قال الملك: ﴿**لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا**﴾. سورة الإسراء (٢٢)

فقط اجعل رجاءك فيمن بيده القوة والقدرة، لمن بيده عونك.

كان النبي ﷺ يدعو ربه فيقول: «**رَبِّ أَعِنِّي وَلاَ تُعِنْ عَلَيَّ**»(٥).

حتى قرين النبي ﷺ من الجن أعانه الله عليه فسلم النبي من شره.

قال النبي ﷺ: «**مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ، إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ**» **قَالُوا: وَإِيَّاكَ؟ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ:** «**وَإِيَّايَ، إِلَّا أَنَّ اللهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ**»(٦).

بل ويأخذ النبي ﷺ بيد معاذ بن جبل رضي الله عنه، ثم يقول: يَا مُعَاذُ إِنِّي لَأُحِبُّكَ». فَقَالَ لَهُ مُعَاذٌ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهِ وَأَنَا أُحِبُّكَ. قَالَ: «**أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ أَنْ تَقُولَ: اللهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»(٧).

يوصيه أن يستعين ربه دبر كل صلاة، يطلب منه العون على ذكره وشكره وحسن عبادته.

ولم العجب، وقد علمنا ربنا أن نستعينه في كل ركعة، سبعة عشر مرة على الأقل يوميا تقول: «**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ**».

لأن العبد لا يفلح حتى يكون غايته رب العالمين، ولا يبلغ العبد غايته إلا بالله رب العالمين، وهذا معنى: «**بك وإليك**».

---

(٤) أخرجه البخاري في «**صحيحه**» (٦٣٢٠)، ومسلم في «**صحيحه**» (٢٧١٤).

(٥) أخرجه الترمذي في «سننه» (٣٥٥١)، وصححه الشيخ الألباني في «**صحيح أبي داود**» (١٣٥٣).

(٦) أخرجه مسلم (٢٨١٤).

(٧) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٢١١٩)، وصححه الشيخ الألباني في «**صحيح الأدب المفرد**» (٥٣٤).



إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ



عنوان فلاحك:

إياك نعبد، وهو توحيد القصد والغاية والوجهة.

وإياك نستعين: وهو أن يكون بلوغك لربك بربك، فأنت لله وبالله تنجو وتفلح، لله قصدا وعبودية وحبا، وبالله توكلا واستعانة.

إنها غاية الاستسلام عندما تقول: «**لا حول ولا قوة إلا بالله**».

قال النبي ﷺ لأبي هريرة: «**أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ قُلْتُ بَلَى قَالَ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ قَالَ أَحْسِبُهُ قَالَ يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَسْلَمَ عَبْدِي وَاسْتَسْلَمَ**»[٨].

عندما يراك الله تقولها بقلبك، فكأنك تقول يا من بيده القوة جميعا، فوضت كل أمري وأمور جميع الخلائق إليك، فيرد الله عليك: أسلم عبدي واستسلم، أي انقاد إليّ وسلّم أمره لي، وحينئذ يكفيك رب العالمين.

أولم تعلم أنك إذا قلتها عند خروجك من بيتك هداك الله ووقاك وكفاك.

يقول النبي ﷺ: «**إِذا خرجَ الرجُلُ مِن بيته، فقال: بِاسْمِ الله، توكلتُ على الله، لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله**» قال: «يُقالُ حينئذٍ: هُدِيتَ وكفِيتَ وَوُقِيتَ، فتتنَحَّى له الشياطينُ، فيقُول شيطانٌ آخرُ: كيفَ لك برجلٍ قد هُدِيَ وكُفِيَ ووقي؟»[٩].

إنه إعلان العبد بكل قلبه أنه لا تحول له من حال إلى حال إلا بالله، ولا قوة له على شيء البتة إلا بالله.

فالقوة كلها له ومنه، والعون كله منه.

ألم تتفكر لماذا حينما نسمع المؤذن نقول مثل ما يقول، إلا عند قوله: «**حي على الصلاة، حي الفلاح** »، فنقول: «**لا حول ولا قوة إلا بالله**».

السر في ذلك: كأنك تجيب من دعاك إلى الصلاة بأنك ستجيبه بحول الله وقوته، لا بحولك أنت ولا قوتك.

النبي ﷺ عندما سُئل عَنْ صَوْمِ يَوْمٍ، وَإِفْطَارِ يَوْمَيْنِ؟

قَالَ: «**لَيْتَ أَنَّ اللهَ قَوَّانَا لِذَلِكَ**»[١٠].

---

(٨) أخرجه أحمد في مسنده (١٠٧٣٦)، وصححه الشيخ الألباني في «**السلسلة الصحيحة**» (٤/ ٣٥).

(٩) أخرجه أبو داود في سننه (٥٠٩٥)، وصححه الشيخ الألباني في «**صحيح الترغيب والترهيب**» (١٦٠٥)..

(١٠) أخرجه مسلم في صحيحه «(١١٦٢).

تعلَّم أن تطلب من ربك القدرة منه على أي خير تريد، فهو من يُقدّرُك أي يعطيك القدرة، أو يتخلى عنك فتصبح عاجزا ضعيفا.

من مثلك يا ابن آدم، خُلّي بينك وبين المحراب تدخل على ربك متى شئت.

ألم يقل الله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾. سورة البقرة (١٥٣)

كلما شعرت من نفسك عجزا وضعفا، تطهر، وأقبل على مولاك، ثم قم بين يديه، وضع جبهتك على الأرض، وسله العون على نفسك، قل: يا مولاي أعني على نفسي.

أولم تسمع وصية النبي ﷺ لمن سأله مرافقته في الجنة: «فَأَعِنِّي عَلَى نَفْسِكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ»[١١].

عندما علمنا نبينا ﷺ صلاة الاستخارة، كان فيها أن تقول: «وأستقدرُكَ بقُدرتِكَ»[١٢].

لكن أظهر فقرك وضعفك أمام ربك، واخرج إلى الناس قويا، لا تسألهم شيئا، فإن اضطررت لسؤالهم فاسأل بعز.

نبينا ﷺ في غزوة بدر يرى فاقة أصحابه وضعفهم وعجزهم، يقف يمد يده إلى السماء، يستغيث ربه، يذكر ضعفهم وعجزهم، حتى سقط رداؤه من على منكبيه.

وكأني به واقف يقول: «اللهُمَّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللهُمَّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ.

يرفع الصديق الرداء من على الأرض، ويضعه على كتفي نبي الله، ثم يقول: «يَا نَبِيَّ اللهِ، كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ.

فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] فَأَمَدَّهُ اللهُ بِالْمَلَائِكَةِ[١٣].

علمنا نبينا ﷺ أن نتعوذ بالله من العجز والكسل، فكان يقول ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ العَجْزِ وَالكَسَلِ»[١٤].

إن كلفك الله بفعل أمر، أو ترك محرم، فاعلم أنك تستطيع، فإن عجَّزتك نفسك، فاستعذ بالله من عجزها، واستعن بربك تعالى.

قال النبي ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ، خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجَزْ»[١٥].

(١١) أخرجه مسلم (٤٨٩).

(١٢) أخرجه البخاري (٦٣٨٢).

(١٣) أخرجه مسلم (١٧٦٣).

(١٤) أخرجه البخاري في صحيحه (٢٨٢٣)، ومسلم في صحيحه (٢٧٠٦).

(١٥) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).



ثُلاثيةُ العون



تستعينُ الله بقلب صادق خالص.

لا يوجد شيء البتة صدق العبد ربه في طلبه لأجله، واستعانه عليه إلا أعانه.

فإن وجدت تثبيطا وكسلا وعجزا وخذلانا فاعلم أنك أوتيت من نفسك.

إما أن العبد لم يصدق الله تعالى في طلبه وإرادته. أو هو صادق في طلبه لكن لحظ نفسه وليس لله تعالى.

أو هو صادق في طلبه، ويريده لله، لكنه متعلق بنفسه أو بغير الله فيخذل حيث يكله الله لمن تعلق به.

قال الله: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ الله انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾. سورة التوبة (٤٦)

أما والله قد أساء الظن بربه من ظن أنه يؤثر الله على هواه، ويريد الله بصدق ثم يتخلى الله عنه.

قال عبد الواحد بن زياد رحمه الله: **«مَنْ نَوَى الصَّبْرَ عَلَى طَاعَةِ الله صَبَّرَهُ اللهُ عَلَيْهَا وَقَوَّاهُ لَهَا، وَمَنْ نَوَى الصَّبْرَ عَنْ مَعَاصِي الله أَعَانَهُ اللهُ عَلَى ذَلِكَ وَعَصَمَهُ مِنْهَا، أَتُرَاكَ تَصِيرُ لِمَحَبَّتِهِ عَنْ هَوَاكَ فَيَخِيبُ صَبْرُكَ، لَقَدْ أَسَاءَ بِسَيِّدِهِ الظَّنَّ مَنْ ظَنَّ بِهِ هَذَا وَشَبَّهَهُ»**[١٦].

قد تريد الزواج، ولا تجد مالا، لكن تريد العفاف، لا تريد أن تغضب ربك، ثق يقينا أن الله إن وجد في قلبك صدقا ثم استعنت به سيعينك ولابد.

قال النبي ﷺ: **«ثَلَاثَةٌ حَقٌّ عَلَى الله عَوْنُهُمْ: الْمُجَاهِدُ فِي سَبِيلِ الله، وَالْمُكَاتَبُ الَّذِي يُرِيدُ الأَدَاءَ، وَالنَّاكِحُ الَّذِي يُرِيدُ العَفَافَ»**[١٧].

قد يكون عليك دَين، وتعسرت حياتك، ولا تستطيع سداده، ثق يقينا أن الله إن وجد في قلبك صدق الأداء عند الاقتراض وبعده، سيعينك ويقضي لك دَينك.

قال النبي ﷺ: **«مَنْ أَخَذَ دَيْنًا وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يُؤَدِّيَهُ، أَعَانَهُ الله عَزَّ وَجَلَّ»**[١٨].

قال النبي ﷺ: **«مَا مِنْ عَبْدٍ كَانَتْ لَهُ نِيَّةٌ فِي أَدَاءِ دَيْنِهِ، إِلَّا كَانَ لَهُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ عَوْنٌ»**[١٩].

---

(١٦) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ١٦٣).

(١٧) أخرجه الترمذي في «سننه» (١٦٥٥)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٣٠٨).

(١٨) أخرجه النسائي في «سننه» (٤٦٨٧)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٠٢٩).

(١٩) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٤٦٧٩)، وصححه بطرقه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٦/ ٧٧٩).



وعلى قد صدق النية يكون العون، ويكون مدد الله على قدر افتقارك إليه.

كتب سالم بن عبد الله بن عمر ﷺ إلى عمر بن عبد العزيز، فقال: «**وَلَا يَمْنَعْكَ مِنْ نَزْعِ عَامِلٍ أَنْ تَقُولَ: لَا أَجِدُ مَنْ يَكْفِينِي عَمَلَهُ، فَإِنَّكَ إِذَا كُنْتَ تَنْزِعُ لِلَّهِ، وَتَعْمَلُ لِلَّهِ، أَتَاحَ اللهُ لَكَ رِجَالًا وَكَالًا بِأَعْوَانِ اللهِ، وَإِنَّمَا الْعَوْنُ مِنَ اللهِ عَلَى قَدْرِ النِّيَّةِ، فَإِذَا تَمَّتْ نِيَّةُ الْعَبْدِ تَمَّ عَوْنُ اللهِ لَهُ**».

اجعل هذه وصية نصب عينيك: «**العون من الله على قدر النية، فإذا تمت نية العبد تم عون الله له**».

ومن دلائل صدق النية التي تستجلب بها عون الله ألا تتعرض لأسباب الفتن، ثم تقول لا أستطيع المقاومة.

لا يا عبد الله، إن كنت صادقا في طلب مراضي رب العالمين فإياك ومواطن الفتن، فإن الفتنة من استشرف لها اختطفته، ومن ابتلي بها وهو عنها فار أعانه الله عليها.

قال النبي ﷺ: «**يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ، لَا تَسْأَلِ الإِمَارَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُعْطِيتَهَا عَنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا**»[٢٠].

ثم إليك بعض أسباب العون التي بها تستجلب عون الملك تبارك وتعالى:

كن عونا لأخيك لا عونا عليه يعنك الله، فهل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

قال النبي ﷺ: «**وَاللهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ**»[٢١].

إن وجدت أخاك في حاجة يحتاج عونك شدّ يدك بيده، واجعل قوتك على قوته، فإن الله يجعل لك منه عونا كما كنت عونا لأخيك، وعون الله لا مثيل له.

وإياك أن تكون عونا للشيطان على أخيك فتُخذل.

وقد تعين الشيطان على أخيك بكلمة تيؤسه بها من رحمة الله، تيؤسه بها من صلاح نفسه، تعجزه بها أمام شهواته.

يقول أبو هريرة ﷺ: أُتِيَ النَّبِيُّ ﷺ بِرَجُلٍ قَدْ شَرِبَ، قَالَ: «**اضْرِبُوهُ**» قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَمِنَّا الضَّارِبُ بِيَدِهِ، وَالضَّارِبُ بِنَعْلِهِ، وَالضَّارِبُ بِثَوْبِهِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ، قَالَ بَعْضُ القَوْمِ: أَخْزَاكَ اللهُ، قَالَ: «لَا تَقُولُوا هَكَذَا، لَا تُعِينُوا عَلَيْهِ الشَّيْطَانَ»[٢٢]

لذا من فضل الله على عبده أن يرزقه صاحبا صالحا إن ذكر الله أعانه، وإن نسي الله ذكّره.

يقول النبي ﷺ: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِالْأَمِيرِ خَيْرًا جَعَلَ لَهُ وَزِيرَ صِدْقٍ، إِنْ نَسِيَ ذَكَّرَهُ، وَإِنْ ذَكَرَ أَعَانَهُ،**

(٢٠) أخرجه البخاري (٦٦٢٢)، ومسلم (١٦٥٢)..

(٢١) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

(٢٢) أخرجه البخاري (٦٧٧٧).



وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِهِ غَيْرَ ذَلِكَ جَعَلَ لَهُ وَزِيرَ سُوءٍ، إِنْ نَسِيَ لَمْ يُذَكِّرْهُ، وَإِنْ ذَكَرَ لَمْ يُعِنْهُ»[٢٣].

ولا تظن أنك لست بحاجة لإخوانك فهذا من عُجبك بنفسك، فإن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِى أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾. سورة الأنفال (٦٢)

وهذا موسى عليه السلام سأل الله أن يعينه بأخيه، فقال الله له: ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾. سورة القصص (٣٥)

وأعظم صاحب يعينك على طاعة الله هو الصاحب بالجنب، زوجك / زوجتك.

لذا كانت وصية الله اختيار أهل الصلاح، قال الملك: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾. النور (٣٢)

وقال النبي ﷺ: «مَنْ رَزَقَهُ اللهُ امْرَأَةً صَالِحَةً، فَقَدْ أَعَانَهُ اللهُ عَلَى شَطْرِ دِينِهِ، فَلْيَتَّقِ اللهَ فِي الشَّطْرِ الثَّانِي»[٢٤].

---

(٢٣) أخرجه أبو داود في «سننه» (٢٩٣٢)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤٨٩).

(٢٤) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٩٧٢)، وحسنه لغيره الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٩١٦).



ويثبتك أمام طوفان الفتن

مهما علت أمواجها، ومهما اشتد بريقها،

سيأخذ بيدك وينجيك

إن اعتصمت به وحده



وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ



خرج النبي ﷺ على قومه يحدوه الأمل أن ينقذهم الله من النار، أن يخرجهم من الظلمات إلى النور، يذهب إليهم في أسواقهم ونواديهم، ينادي عليهم ليل نهار: قولوا لا إله إلا الله تفلحوا.

لكن صناديد الكفر لم يستجيبوا، قاموا بكل حيلة لوأد هذه الدعوة المباركة.

عرضوا عليه الدنيا، عرضوا عليه الملك، عرضوا عليه أن يأتوا له بأجمل النساء، عرضوا عليه أن يأتوا إليه بأموالهم، فقط دع هذا الدين، لكنه أبى.

طلقوا بناته، فوجدهم عنده بلا زوج، لعله يرجع، لكنه لم يرجع عن طريقه ودعوته.

آذوه في أصحابه، قهروهم، وضربوهم، وساموهم سوء العذاب، حتى ماتت سمية، لعله يلين، لكنه صبر وصبّر أصحابه وثبت وثبتوا على دينه.

استعانوا عليه باليهود والنصارى من جزيرة العرب، أثاروا الشكوك حول دعوته ودينه، لكنه وكأن شيئا لم يكن، بل كان كالطود الشامخ لا تلين له قناة.

آذوه هو، سبوه، وسخروا منه، وقالوا عنه مجنون وشاعر وساحر، بل وضربوه حتى سال الدم الشريف من وجهه، بل وحاولوا قتله، لعله يخاف فيرجع، لكنه ثبت ثبوت الجبال الرواسي.

هجّروه من بلده، وأغاروا عليه، وحاربوه، وحاصروا مدينته، واغتالوا أصحابه أكثر من مرة، ورأى بعينيه أشلاءهم وجثثهم مثلوا بها، إلا أنه لم يفر قط، ولم يتنازل لحظة.

كل هذا الثبات، كان من الله وحده، فكيف لا يُحب.

هكذا قال الله لنبيه ﷺ: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾﴾ سورة الإسراء

فكيف لا يُحب، وهو مثبت قلوب المؤمنين.

في سيرك إلى الله ستأتيك الفتن من كل جانب، ستكون في قلبها كتلك السفينة تعصف بها الريح يمنة ويسرة.

فتن الشهوات والشبهات، ستحيط بك من كل جانب.

إلحاد، ووثنية، وتثليث، وتمجيد للطواغيت، وتحريف للدين، وتأويل حداثي للتراث، وإسقاط لأهل العلم، وحرب على القرآن والسنة، وبث لشبهات الخوارج والروافض والمعتزلة والمرجئة، وإحياء للصوفية القبورية من جديد، وسيل جارف من هجوم العلمانيين والليبراليين واليساريين، وغير ذلك كثير.





فواحش، وعري، وإباحية، واختلاط ماجن، ودنيا فاتنة، وشهرة زائفة.

فتن كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا، ويمسي مؤمنا ويصبح كافرا.

حتى يكاد فؤادك أن يطير من مكانه.

الكفار والمنافقون وضعاف الإيمان من المسلمين، هذا مع نفسك الأمارة بالسوء، وشياطين الإنس والجن، فأنى لك الثبات

لكنك ستثبت إن شاء الله.

سيُثبت الله قلبك، سيربط على قلبك، لأن الكريم إذا تولاك فلن يتخلى عنك، فقط كن أهلا لولاية الملك.

لذا كان النبي ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «**يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ**».

فقال له الصحابة يَا رَسُولَ الله، آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ، فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟

قَالَ: فَقَالَ: «**نَعَمْ، إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الله عَزَّ وَجَلَّ يُقَلِّبُهَا**»[1].

الله يقلب القلوب، ويصرف القلوب، وكذلك يثبت القلوب، ويربط على القلوب.

هؤلاء الفتية أصحاب الكهف، لعلهم في مثل عُمرك، مجتمعاتهم وأقوامهم على غير الدين، لكن الله ربط على قلوبهم فلم تذهب مع أمواج الكفر المتلاطمة.

قال الله: ﴿**إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤)**﴾ سورة الكهف

كم من إنسان كان على الإسلام ثم ارتد عن دينه.

بل هناك إناس رأوا النبي ﷺ وأسلموا ثم ارتدوا وماتوا على الكفر، نعم والله كفروا بعد إيمانهم.

وهناك كثير كانوا على الطاعة ثم انتكسوا وصاروا من أولياء الشيطان.

ستجد إنسانا كان على السُنة ثم صار ينافح ويحارب ليطفأ نور السنة.

ستجده يوما كان على مُحياه النور، واليوم يدعو الناس للفواحش، يغشاه الظلام من كل جانب.

لماذا؟

هذا أمر مرعب جدا والله؟

من ثبت كيف ثبت، ومن عصفت به الفتن كيف سقط؟

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٢١٠٧)، وصححه الشيخ الألباني في «**السلسلة الصحيحة**» (٢٠١٩).



لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا



الأمر الأول والأعظم لثباتك أن تعتصم بربك ومولاك ليثبتك أمام الفتن، فتعلق بالله تعلق الغريق في عرض البحر يثبتك مهما كانت الأعاصير، وإنما خُذل من خُذل لإعراضه عن الله ورؤيته لنفسه.

كان النبي ﷺ يوصي أصحابه فيقول: «**إِذَا كَنَزَ النَّاسُ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ، فَاكْنِزُوا هَؤُلَاءِ الْكَلِمَاتِ: اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الثَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ، وَالْعَزِيمَةَ عَلَى الرُّشْدِ، وَأَسْأَلُكَ شُكْرَ نِعْمَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ حُسْنَ عِبَادَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا، وَأَسْأَلُكَ لِسَانًا صَادِقًا، وَأَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا تَعْلَمُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا تَعْلَمُ، وَأَسْتَغْفِرُكَ لِمَا تَعْلَمُ، إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ**»[٢].

اللهم إني أسألك الثبات على الأمر.. دعوة لو أُعطيتها أعظم من كنوز الذهب والفضة.

لقد ذكر الله في أول سورة آل عمران، وهي سورة تتحدث عن الفتنتين العظيمتين الشبهات والشهوات، ذكر دعاء الصالحين: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾. سورة آل عمران (٨)

دائما وأبدا تعلق بالله وحده، اعتصم بربك وحده، لا تركن إلا إليه، حتى نفسك الظلومة الجهولة، اتركها خلف ظهرها وأقبل عليه، واعلم من تعلق شيئا وكله الله إليه.

قال النبي ﷺ: «**مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ**»[٣].

والأمر الثاني: بناء الإيمان في قلبك.

في ذات يوم أرسل النبي ﷺ رسالة إلى هرقل ملك الروم يدعوه إلى الإسلام، فأمر هرقل جنوده أن يحضورا أحدا من العرب ممن هم في بلاده ليسألهم عن هذا الدين، فكان أبو سفيان ونفر من قريش تجارا بأرض الشام يومئذ، فجيء بهم أمام هرقل، فسألهم عن النبي ﷺ وأصحابه، فكان مما سأل:

فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ؟

قال أبو سفيان: لاَ.

قال هرقل: كَذَلِكَ الإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ[٤].

كان أول وصف لمن أنعم الله عليهم بالثبات هو الإيمان.

قال الله: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾. سورة الأنفال (١٢)

قال الله: ﴿يُثَبِّتُ الله الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِى الْآخِرَةِ﴾. سورة إبراهيم (٢٧)

هذا القلب حتى يثبته الله لابد فيه من وصفين: الصلابة – الصفاء.

---

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٧١١٤)، وجود إسناده الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٢٢٨).
(٣) أخرجه الترمذي في «سننه» (٢٠٧٢)، وحسنه الشيخ الألباني في «غاية المرام» (٢٩٧).
(٤) أخرجه البخاري (٧).



زجاجة لا إسفنجة



قلب المؤمن صلب صاف، بصفاءه يرى الحق من الباطل، وبصلابته يردُ الباطل فلا يؤثر فيه.

أما القلب الإسفنجي فإنه يتشرب كل شيء، معتم كدر لا يرى الأشياء على حقيقتها، تلتبس عليه الحقائق، لا يميز، دائما في ريب.

يقول ابن القيم: «**وَقَالَ لي شيخ الاسلام رضى الله عَنهُ وَقد جعلت اورد عَلَيْهِ غيرادا بعد إيراد لا تجعل قَلْبك للايرادات والشبهات مثل السفنجة فيتشربها فَلَا ينضح الا بهَا، وَلَكِن اجْعَلْهُ كالزجاجة المصمتة تمر الشُّبُهَات بظاهرها وَلَا تَسْتَقِر فِيهَا، فيراها بصفائه ويدفعها بصلابته، وَإِلَّا فاذا اشربت قَلْبك كل شُبْهَة تمر عَلَيْهَا صَار مقرا للشبهات**»[٥].

إنما تأتي الصلابة من قوة الإيمان.

وتأتي قوة الإيمان من اليقين لما أنت عليه.

الله هو الحق، وقوله الحق، وكتبه ورسله ولقاؤه حق، والجنة والنار حق.

أقام الله البراهين عليه، وعلى وبوبيته وألوهيته، حتى أنه سبحانه له في كل شيء آية تدل عليه.

قال الملك الكريم: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾. سورة فصلت (٥٣)

حتى تقاوم هذا الزحف التتري على قلبك لتشكيكك في الله ودينه لابد أن تتعلم الإيمان.

يقول جندب بن عبد الله ﷺ: «**كُنَّا غِلْمَانًا حَزَاوِرَةً مَعَ رَسُولِ اللَّهِ -ﷺ- فَتَعَلَّمْنَا الإِيمَانَ قَبْلَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ تَعَلَّمْنَا الْقُرْآنَ، فَازْدَدْنَا بِهِ إِيمَانًا**»[٦].

لابد أن تمرر على قلبك تلك الآيات البينات الدالة دون التباس أو غموض على الله، وصدق كتابه، وصدق رسله، وملائكته، واليوم الآخر، والقدر خير وشره.

لا يصح لمؤمن أن يكون إيمانه في مهب الريح، كلما ألقى زنديق شبهة تشكك، بل تزول الجبال ولا نزول.

قال علي ﷺ: أُفٍّ لِحَامِلِ حَقٍّ لَا بَصِيرَةَ لَهُ يَنْقَدِحُ الشَّكُّ فِي قَلْبِهِ بِأَوَّلِ عَارِضٍ مِنْ شُبْهَةٍ، لَا يَدْرِي

---

(٥) مفتاح دار السعادة (١/ ١٤٠).

(٦) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (٦١)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٥٢).



أَيْنَ الْحَقُّ؟ إِنْ قَالَ أَخْطَأَ وَإِنْ أَخْطَأَ لَمْ يَدْرِ مَشْغُوفٌ بِمَا لَا يَدْرِي حَقِيقَتَهُ، فَهُوَ فِتْنَةٌ لِمَنْ فُتِنَ بِهِ»[٧].

وإن أردت يقينا يثبت في قلبك ثبوت الجبال فأقبل على كتاب ربك فإنه الحق وبالحق نزل، لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه، تجد فيه جميع الأجوبة عن الأسئلة الوجودية، بلا أي غموض، بمنتهى الوضوح، مشفوعة بالأدلة العقلية، التي توافق الفطرة، حقا صرفا لا باطل فيه.

قال الله: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾. سورة البقرة (٢)

قال الله: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾. سورة الإسراء (١٠٥)

قال الله: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ سورة فصلت

القرآن قذائف الحق، يقذفها الله على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق.

لا يمكن لأباطيل المبطلين أن تقاوم الحق الذي قذف الله به، فقط أنت أقبل على القرآن، على الوحي وأنت تريد الحق.

قال الله: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾. سورة الأنبياء (١٨)

قال الله: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾ سورة سبأ

إن أغلب من هزته الشبهات فلكونه لم يملأ قلبه بالحق ويعقده عليه، بل:

إما كان قلبا فارغا فنظر في الباطل فدخله واستقر فيه .

أو دخله الحق لكنه لم يعقد قلبه عليه، لم يكن على يقين منه.

لذا الوحي هو نور الإيمان الذي ينبغي أن يغمر قلبك، فكل من مكّن باطلا من قلبه ضل.

لذا لما رأى النبي ﷺ مع عمر بن الخطاب صحيفة فيها شيء من التوراة، غضب، وقال: **«أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، لَا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ، أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى كَانَ حَيًّا، مَا وَسِعَهُ إِلَّا أَنْ يَتَّبِعَنِي»**[٨].

أمتحيرون أنتم بعدما جئتكم بالحق الصراح، الحق الأبيض الذي لا غبش فيه، وماذا عند أهل الكتاب؟

إنها كتب محرفة، كتبها الكذبة بأيديهم افتراء على الله لإرضاء ساداتهم وكبرائهم.

---

(٧) أخرجه ابن عبد البر في «**جامع بيان العلم وفضله**» (٢/ ٢٢٦).

(٨) أخرجه أحمد في «**مسنده**» (١٥١٥٦).



والله لو كان موسى نفسه حيا لاتبع رسول الله وخاتم النبيين، صاحب الكتاب المهيمن.

فإن ثبت الإيمان واستقر في قلبك لم يكن لمبطل قط أن يجد إليه سبيلا.

وإن فُتح عليك باب شبهة أغلقه، فإن لم تستطع فصمّ عنه أذنك، فإن الشبهة تلبس ثوب الحق على جسم الباطل.

إن الدجال من أشد الباطل وضوحا، شخص مخلوق أعور، يزعم زورا أنه الله، بين عينيه كافر، فأي وضوح بعد هذا.

ومع ذلك قال النبي ﷺ: «**من سَمِعَ بالدَّجَال فلينأ عنهُ، فوالله إن الرَّجُل ليأتيهِ وهو يحسِبُ أنه مؤمنٌ فيتَّبِعُهُ مما يبعثُ به من الشُّبهاتِ**»[٩].

---

(٩) أخرجه أبو داود في «سننه» (٤٣١٩)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٦٣٠١).

قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا



لقد استشاط الطاغية فرعون غضبا من موسى عليه السلام، حيث جاء لينزع عنه ذاك الثوب الباطل الذي لبسه زورا مدعيا أنه إله.

كيف لموسى أن يطالب فرعون وملأه أن يكونوا عبيدا لله.

زعم الطاغية أن موسى ساحرا، أراد أن يقضي على هذه الدعوة في مهدها وأمام الناس.

جمع السحرة من كل حدب وصوب.

جاءوا إليه يطمحون في المال، فأغراهم الخبيث بالمال والجاه.

قال الله: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾ سورة الأعراف

التقى موسى والسحرة، وبدأت المواجهة.

ألقى السحرة حبالهم وعصيهم، واعتزوا بفرعون.

ألقى موسى عصاه، فإذا هي تلقف ما يأفكون من باطل.

أيقن السحرة أن هذا ليس سحرا، هذا نبي مؤيد من رب عظيم.

كلمهم موسى عن دعوته، وعن الإله الحق رب العالمين، وعن جنته التي أعدها للمؤمنين.

آمن السحرة، سجدوا لله وحده، بل وأعلنوها أمام الطاغية: آمنا برب العالمين رب موسى وهارون.

كاد الفرعون أن يُجن، هدد وتوعد، سيقطع الأيدي والأرجل، ستصلبون، سينزل عليكم عذابه.

ذهب المال، وذهب الجاه، وتحولت الحياة إلى جحيم.

لكن ثبات عجيب، لا يمكن لإنسان تصوره، وكان الرد عظيما:

قال الله: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٢﴾ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٣﴾ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿٧٤﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا





﴿الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى﴿٧٦﴾﴾ طه

هذا هو الإيمان الذي إذا خالطت بشاشته القلوب آثر صاحبه الله على من سواه.

أيا ما كانت عواصف الفتن من شهوات وملذات، سيذهبها حب الله وما عنده، والخوف من عقابه وغضبه.

شوقٌ مُقْلق، خوف مزعج



قال يوسف بن أسباط: «**لَا يمْحُو الشَّهَوَاتِ مِنَ الْقُلُوبِ إِلَّا خَوْفٌ مُزْعِجٌ أَوْ شَوْقٌ مُقْلَقٌ**»[10].

الشهوات مزينة، والنفس تميل إليها، والشيطان يؤزك لها أزا.

النساء، المال، السلطان.

هل سيتحمل قلبك هذه الفتن؟

ما الذي ثبَّت السحرة بعد أن جاءوا يطلبون المال، فوعدهم معه بالسلطان، سيكونوا مقربين ليس من دوائر صنع القرار، بل من الفرعون ذاته.

ثم الآن مهددون بالقتل، بل بأبشع صور القتل.

إنه الإيثار، عندما توقن أن لك ربا عظيما جليلا جميلا كريما ما أن تذهب روحك حتى تلقاه، فأي ضير في ذلك.

عندما توقن أنه أعدّ بنفسه لعباده جنة عرضها السموات والأرض، فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، فأي ضير في ذلك.

تعرف حينها السر، كيف قالوا: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾. سورة الشعراء (٥٠)

هذا القرآن الذي أنزله الله تثبيتا لقلب نبيه.

قال الله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾. سورة الفرقان (٣٢)

في القرآن ستجد:

لماذا قبض هابيل يده عن أخيه، وأنه لم يكن جبنا، وإنما: «**إني أخاف الله رب العالمين**».

كيف ثبت نوح طيلة ٩٥٠ سنة من التكذيب، كيف لم ييأس، كيف لم يتخل عن دعوته.

كيف ثبت إبراهيم أمام النمرود، أمام هذه النار، أمام إصرار أبيه على الكفر، أمام أمر الله له بذبح ولده.

---

(١٠) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٨/ ٢٣٨).



وكيف ثبت موسى وهارون أمام فرعون، أمام بطشه وظلمه وطغيانه.

كيف ثبت سليمان أمام فتنة الملك، فلم يطغ ولم يظلم حتى الدواب.

كيف ثبت أيوب أمام البلاء بالمرض تلك السنين الطوال.

كيف ثبت يعقوب وصبر على فراق يوسف، ومع ذلك لم ييأس من فرج الله ورحمته.

كيف ثبت يوسف أمام فتنة النساء، واختار السجن على أن يفعل ما يغضب رب العالمين.

كيف ثبتت مريم الصديقة على اتهام الفساق لها بما هي منه بريئة.

كيف ثبت أصحاب الأخدود أمام النيران المشتعلة في تلك الأجساد الضعيفة.

وكيف ثبت النبي محمد ﷺ أمام المشركين والمنافقين.

أصل الداء هو تعلق هذه النفوس بهذه الأرض، وإيثار الدنيا على الآخرة.

قال الله: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ١٦ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ١٧﴾ سورة الأعلى

هما طريقان: إما أن تؤثر الله وجواره فتكون الجنة هي المأوى، أو تؤثر الدنيا وشهواتها فتكون الجحيم هي المأوى.

قال الله: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ٣٤ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ مَا سَعَى ٣٥ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى ٣٦ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ٣٧ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ٣٨ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ٣٩ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ٤٠ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ٤١﴾ سورة النازعات

وهو الحفيظ السلام



لا يُحفظ شيء ولا يسلم إلا بإذنه
فإن تولاك فإنه
يحفظك، ويُسلمك من كل سوء، يحفظ دينك،
وعرضك، وولدك، يخلُفك بخير، فكيف لا يُحب.

إِنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَهْلَهُ



ذاك الخليل إبراهيم عليه السلام، أسلم بكله لله، بقلبه وجوارحه وكيانه.

في كل اختبار يخرج منه عبدا خالصا لله وحده، ليس لأحد من الخلق فيه ذرة.

أثنى عليه الله فقال: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾. سورة البقرة (١٢٤)

فأتمهن. هكذا دون نقصان، دون تباطؤ، دون التفات.

أحد هذه البلاءات:

أمره الله أن يأخذ إسماعيل وأمه هاجر إلى مكة، حيث لا أحد، ليس فيها إنسان. يذهب إبراهيم دون نقاش، دون جدال.

يترك زوجته، المرأة الضعيفة، ومعها إسماعيل، طفل رضيع، ويترك معهم جرابا فيه تمر، وسقاء فيه ماء.

ثم يمضي، تبعته المرأة الصالحة قائلة: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا في هذا الوادي، الذي ليس فيه إنسان ولا شيء؟

تكرر السؤال، وإبراهيم يمضي ولا يلتفت.

هنا أدركت، فقالت: آللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟

قَالَ نَعَمْ.

قَالَتْ: إِذَنْ لاَ يُضَيِّعُنَا

مضى إبراهيم عليه السلام إلى سبيله، لكنه قبل تركهم توجه إلى الله فدعاه قائلا:

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾. سورة إبراهيم (٣٧)

وبدأ الاختبار.

نفد التمر والماء، عطشت وعطش إسماعيل، وجعل الطفل يبكي ويتلوى من الجوع.

هرولت هاجر نحو جبل الصفا، صعدت عليه، نظرت لعلها ترى إنسانا، لكن لم تر شيئا.

نزلت من عليه، انطلقت نحو جبل المروة، صعدت عليه ثم نظرت لعلها ترى أثرا، لكن لم تر شيئا.

سبع مرات تفعل ذلك، ولكن لا شيء في الأفق يدل على الحياة.





وفجـأة بعـد سـبعة أشـواط مـن السـعي المجهـود تسـمع صوتـا، لكـن لا تـرى شـيئا، نزلـت مهرولـة حتـى وصلـت عنـد قدمـي إسـماعيل

فإذا مَلَكٌ يضرب الأرض بجناحيه، وإذا الماء يتفجر ماء عذبا فراتا.

وإذ بالمَلَك يقـول لهـا: لاَ تَخَافُـوا الضَّيْعَـةَ، فَـإِنَّ هَـا هُنَـا بَيْـتَ اللهِّ، يَبْنِـي هَـذَا الغُـلاَمُ وَأَبُـوهُ، وَإِنَّ اللهَّ لاَ يُضِيـعُ أَهْلَـهُ[1].

تقول هاجر: آللهَّ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟، يجيب إبراهيم: نعم.

تقول الموقنة المؤمنة بأن من استجاب لأمر الله لا يضيع: إِذَنْ لاَ يُضَيِّعُنَا.

ثم يأتي الفرج بعد الشدة، فيطمئنها المَلَك: لاَ تَخَافُوا الضَّيْعَةَ.. وَإِنَّ اللهَّ لاَ يُضِيعُ أَهْلَهُ

هكذا كان السير:

اسـتيثاق أنـه أمـر الله، ثـم يقـين بحفـظ الله وكنفـه، ثـم تمحيـص واختبـار، ثـم حفـظ وكلاءة، ثـم تقريـر قاعـدة الحفـظ.

إن الله لا يضيع أهله.

مخيفة كلمة الضياع.

عندما يكون الشيء غاليا مجرد التفكير في فقده يكون مؤلما غاية الألم.

الله هـو الحفيـظ، وهـو خـير حافظـا، لا يُحفـظ شيء إلا بفضلـه، ولا يضيـع شيء إلا لمـا تـولى الحفيـظ عـن حفظـه.

الله هو السلام، يُسلّم من شاء من خلقه، بما شاء كيفما شاء، فهو السلام، ومنه السلام.

وما الذي تخشى عليه الضيعة؟

تخشى ضيعة قلبك، وتخشى ضيعة دينك، وهذا أغلى ما تملك.

في ظل هذه الفتن يكاد قلبك يذهب من هول ما يرى وما يسمع.

تـكاد تذهـب الفتـن بإيـمان العبـد، لـولا الله لضعنـا ورب الكعبـة، هـو مـن يحفـظ القلـوب، والإيـمان في القلـوب.

فإن رأيت عبدا مفتونا ذهب دينه فاعلم أن الولي أعرض.

قـال ابـن القيـم ﵀: «تـالله مَـا عـدا عَلَيْـك الْعَـدو إِلَّا بعـد أَن تـولى عَنْـك الْـوَلِيّ فَـلَا تظـن أَن الشَّـيْطَان غلـب وَلَكِـن الْحَـافِظ أعـرض[2].

تخشى ضياع العلم، وذهاب القرآن من الصدور.

(١) أخرجه البخاري (٣٣٦٤).

(٢) الفوائد (٦٨).

تخشى ضيعة ولدك وأهلك ومالك.

كل هذا، بل وكل شيء إن أردت حفظة فاقصد من لا يئوده، من لا يثقله حفظ السموات والأرض ومن فيهن، جل جلاله.

الله يحفظ ما يشاء بقوته وعزته، فلا يقصد أحد شيئا أراد الله حفظه إلا عاد خاسئا مقهورا.

ما من دابة إلا وناصيتها في يد الملك، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

قال الله: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾. سورة هود (٥٦)

كل سلاطين الأرض، كل جلادي الملوك، كل سحرة الإنس والجن، وشياطين الإنس والجن، وكل الظلمة والفجرة، وكل ما يؤذي، كل شيء لا يملك أن يصيبك بذرة من أذى إلا إذا شاء الله.

قال الله: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ الله لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾. سورة التوبة (٥١)

قال الله: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾. سورة البقرة (١٠٢)

وقال النبي ﷺ: «**فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ وَأَهْلَ الْأَرْضِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِغَيْرِ مَا كَتَبَ الله لَكَ مَا اسْتَطَاعُوا**»[٣].

أنت وكل الخلق فقراء إلى حفظه وكنفه وكلاءته، فإن رأيت ضيعة فاعلم أن الحفيظ أعرض.

ولذا كان نبينا ﷺ يسأل الله حفظه كل يوم صباح مساء، يقول: «**اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ وَمِنْ خَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي، وَمِنْ فَوْقِي**»[٤].

استودع ربك دينك، وعملك، وولدك، فإنه فقط الذي إذا استودع شيئا كان قادرا على حفظه.

تالله، وديعة الله لا تضيع.

قال النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ إِذَا اسْتُودِعَ شَيْئًا حَفِظَهُ**»[٥].

ولذا كان النبي ﷺ إذا ودّع مسافرا قال: «**أَسْتَوْدِعُ اللهَ دِينَكَ وَأَمَانَتَكَ وَخَوَاتِيمَ عَمَلِكَ**»[٦]، «**أَسْتَوْدِعُكَ اللهَ الَّذِي لَا تَضِيعُ وَدَائِعُهُ**»[٧].

دينك أولا، ثم الباقي هين.

---

(٣) أخرجه الترمذي في «سننه» (٢٥١٦)، والفريابي في «القدر» (١٥٧)، واللفظ له، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٣٨٢).

(٤) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١٢٠٠)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٩١٦).

(٥) أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٥١٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الكلم الطيب» (١٦٩).

(٦) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤٥٢٤)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الكلم الطيب» (١٧٠).

(٧) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (٢٨٢٥)، وجود إسناده الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١/ ٥١).



احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ



بينما عبد الله بن عباس رضي الله عنه يوما يركب خلف النبي ﷺ دابته، أراد المعلم الهادي أن يقوي قلب الغلام ويدله على سبيل الحفظ والكلاءة.

فقال له: يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ، احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ لَكَ، وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلاَّ بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ»(٨).

أهل الله هم أهل طاعته، هم الحافظون لما أمر الله بحفظه، يحفظهم رب العالمين ويكلؤهم بقوته وطَوله.

احفظ الله، أي: احفظ أمر الله، لا تضيعه.

يوم الحديبية كانت الشروط التي اشترطها المشركون على النبي ﷺ وأصحابه جائرة، إلا أن الله أوحى إليه بقبولها، فلما قبلها لم يتحمل عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذا الجور من المشركين، فكان هذا الحوار:

قال عمر: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ وَهُمْ عَلَى البَاطِلِ؟

قال النبي ﷺ: «**بَلَى**».

فَقَالَ عمر: أَلَيْسَ قَتْلاَنَا فِي الجَنَّةِ وَقَتْلاَهُمْ فِي النَّارِ؟

قَالَ النبي ﷺ: «**بَلَى**».

قَالَ عمر: فَعَلاَمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا، أَنَرْجِعُ وَلَمَّا يَحْكُمِ اللهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ؟

فَقَالَ النبي ﷺ: «**يَا ابْنَ الخَطَّابِ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، لَنْ أُخَالِفَ أَمْرَهُ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللهُ أَبَدًا**»(٩).

ولن يضيعني الله أبدا. احفظ هذه الكلمة المتكررة من أهل الإيمان برب العالمين.

هاجر تقول: آللَّهُ الَّذِي أَمَرَكَ بِهَذَا؟ إِذَنْ لاَ يُضَيِّعُنَا.

رسول الله ﷺ يقول: «**لَنْ أُخَالِفَ أَمْرَهُ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي اللهُ أَبَدًا**».

وقالتها تلك الفتاة المؤمنة التي قالت لأبيها وأمها: «**أَتَرُدُّونَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَمْرَهُ؟ ادْفَعُونِي؛ فَإِنَّهُ لَمْ يُضَيِّعْنِي**»(١٠).

---

(٨) أخرجه الترمذي في «سننه» (٢٥١٦)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٣٨٢).

(٩) أخرجه البخاري (٣١٨٢)، ومسلم (١٧٨٥).

(١٠) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٩٧٨٤)، بإسناد صحيح.

يقين الواثق أن الأمور بيد ربه لا بيد أحد غيره، وأنه إن أطاع ربه فأنى له الضياع.

احفظ حدود الله، فما كان منها أمرا فلا تتجاوزه، وما كان منها نهيا فلا تقربه.

قال الله: ﴿وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ﴾. سورة التوبة (١١٢)

الجزاء من جنس العمل، حفظ بحفظ، وضياع بضياع.

هذه الصلاة أمرك الله بحفظها، وجعل علامة المؤمنين حفاظهم عليها كما أمر، لذا سماها إقامة الصلاة، وكأنك تقيم بناءا لا مجرد ركعات تؤديها.

قال سبحانه: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾. سورة البقرة (٢٣٨)

وقال في وصف المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾. سورة المؤمنون (٩)

لم تكن أمة قبلنا قط إلا وهي تصلي، فرض الله الصلاة على جميع الأمم، وإن اختلفت هيئاتها، إلا أن كثيرا من الأمم ضيعها ولم يؤدها كما أمر.

وقال سبحانه: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾. سورة مريم (٥٩)

وقال النبي ﷺ: «**إِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ عُرِضَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ فَضَيَّعُوهَا، فَمَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا كَانَ لَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ**»(١١).

فإن كنت تروم حفظ الله فهل حقا حفظت صلاتك؟

حفظت الوضوء لها، فكان كما يرضي ربك، ويليق بلقاء الملك؟

يقول النبي ﷺ: «**وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ**»(١٢).

ثم هل حافظت على صلاتك فلم تضيعها عن وقتها؟

قل لي بربك متى تصلي صلاة الصبح؟

ومتى تحضر إلى عملك؟

كثير يخشون ضياع الراتب، لذا لا يضيع ساعة الحضور، فكيف ترجو حفظ الله ولم تحفظ موعد لقائك به؟

إنَّ ترْك صلاة واحدة حتى يضيع وقتها منك يساوي على الحقيقة مصيبة رجل فقد أهله وماله في ساعة واحدة.

تخيل: رجل يملك مالا عظيما، وله زوجة وأولاد، وفجأة جاءت آفة أتلفت عليه ماله، وماتت زوجته وأولاد جميعا، كل هذا في ساعة واحدة، أترى رجلا أعظم مصيبة منه؟

---

(١١) أخرجه مسلم (٨٣٠).

(١٢) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (٢٧٧)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٢٢٤).

نعم، ذاك الذي ضيع صلاة واحدة أعظم مصابا منه.

قال النبي ﷺ: «**الَّذِي تَفُوتُهُ صَلاَةُ العَصْرِ، كَأَنَّمَا وُتِرَ أَهْلَهُ وَمَالَهُ**»(١٣).

ثم، هل تؤديها تامة أم منقوصة؟

هل قيامك وركوعك وسجودك فيها تام أم منقوص؟

هل سمعت عن لصوص الصلاة؟ سُرّاق الصلاة؟

أولئك الذين يسرقون صلاتهم، لم يحفظوها بل سرقوها وأعطوها للشيطان.

كيف؟

قال النبي ﷺ: «**أَسْوَأُ النَّاسِ سَرِقَةً الَّذِي يَسْرِقُ مِنْ صَلَاتِهِ**». **قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، وَكَيْفَ يَسْرِقُ مِنْ صَلَاتِهِ؟ قَالَ:** «**لَا يُتِمُّ رُكُوعَهَا وَلَا سُجُودَهَا**» **أَوْ قَالَ:** «**لَا يُقِيمُ صُلْبَهُ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ**»(١٤).

هل حافظت فيها على حضور قلبك؟

قل لي بربك: في هذه العشر دقائق التي صليت فيها العشاء، كم دقيقة وجهت قلبك إلى الله فلم تلتفت عنه؟

كم دقيقة استطعت أن تمسك بها بقلبك فأديتها لله سالمة من حظوظ الدنيا.

يقول النبي ﷺ: «**إن الرجل لينصرفُ، وما كُتب له إلا عُشرُ صلاتِه، تُسعُها ثُمنُها، سُبْعُها سُدُسُها، خُمسُها، رُبُعُها، ثُلثُها، نصفُها**»(١٥).

بعد ذلك هل ترى أنك حافظت على الصلاة كما أمر الله أم ماذا؟

يقول الإمام الزهري رحمه الله: **دَخَلْتُ عَلَى أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ بِدِمَشْقَ وَهُوَ يَبْكِي، فَقُلْتُ: مَا يُبْكِيكَ؟ فَقَالَ:** «**لاَ أَعْرِفُ شَيْئًا مِمَّا أَدْرَكْتُ إِلَّا هَذِهِ الصَّلاَةَ وَهَذِهِ الصَّلاَةُ قَدْ ضُيِّعَتْ**»(١٦).

هذه الصلاة ترمومتر لقياس إيمانك، فإن وفقك الكريم لتؤديها كما أمر، متطهرا كما يُحب، في وقتها، تامة غير منقوصة، تقيم ركوعها وقيامها وسجودها، خاشعا فيها مقبلا بقلبك على ربك، فإن هذا دليل على حفظك لما سواها من فرائض الله.

وإن كان العبد لها مضيعا، فهو لما سواها أضيع كما قال الفاروق عمر.

---

(١٣) أخرجه البخاري (٥٥٢)، ومسلم (٦٢٦).

(١٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٢٦٤٢)، وصححه لغيره الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٥٢٤).

(١٥) أخرجه أبو داود في «سننه» (٧٩٦)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح أبي داود» (٧٦١).

(١٦) أخرجه البخاري (٥٣٠).

وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ



خرج إبراهيم الخليل بزوجته سارة مهاجرا، وفي الطريق دخل قرية فيها جبار من الجبابرة.

وكانت سارة امرأة حسناء، فرآها بعض المقربين من هذا الملك الطاغية، فقال للطاغية: لَقَدْ قَدِمَ أَرْضَكَ امْرَأَةٌ لَا يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تَكُونَ إِلَّا لَكَ.

فأرسل الطاغية إلى إبراهيم عليه السلام، فسأله: أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ مَنْ هَذِهِ الَّتِي مَعَكَ؟

قَالَ إبراهيم عليه السلام: أُخْتِي.

ثم رجع إبراهيم إلى زوجته سارة، ثم قال لها: «إِنَّ هَذَا الْجَبَّارَ، إِنْ يَعْلَمْ أَنَّكِ امْرَأَتِي يَغْلِبْنِي عَلَيْكِ، فَإِنْ سَأَلَكِ فَأَخْبِرِيهِ أَنَّكِ أُخْتِي، فَإِنَّكِ أُخْتِي فِي الْإِسْلَامِ، لَا تُكَذِّبِي حَدِيثِي، فَإِنِّي لَا أَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ مُسْلِمًا غَيْرِي وَغَيْرَكِ.

يبدو أنه كان من دين هذا الملك، أو قوانينه، أنه لا يتعرض لرجل معه أخته، فإن كانت ذات زوج أخذها، هكذا هي الجاهلية برجسها وخبثها، فلما علم إبراهيم عليه السلام ذلك عَرَّض في الكلام، فقال: هي أختي، لأنها أخته في الإسلام حقا.

لكن لما علم الطاغية حسنها توقفت قوانينه، وداس دينه بقدمه، فما هي إلا أباطيل يضحكون بها على السذج من الناس، فتتغير القوانين وتُقلب الموازين، لا مانع عندهم، فلا قداسة إلا لهم فقط.

فأرسل إليها الطاغية المجرم، فَقَامَ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى الصَّلَاةِ، وأُتي بها إليه، فلما رآها قام إليها يريد الاعتداء عليها.

فقامت تصلي، تستغيث بربها ومولاها، وتتوسل إلى الله بعفافها، بحفظها فرجها، وقالت: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ آمَنْتُ بِكَ وَبِرَسُولِكَ، وَأَحْصَنْتُ فَرْجِي، إِلَّا عَلَى زَوْجِي فَلَا تُسَلِّطْ عَلَيَّ الكَافِرَ.

فَغُطَّ حَتَّى رَكَضَ بِرِجْلِهِ. أي صُرع واختنق حتى سقط، وأصدر صوتا يشبه الغطيط.

فقالت سارة: اللَّهُمَّ إِنْ يَمُتْ يُقَالُ هِيَ قَتَلَتْهُ، فأرسله الله، فقام المجرم إليها ثانية.

فَقَامَتْ تَوَضَّأُ تُصَلِّي، وَتَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ آمَنْتُ بِكَ وَبِرَسُولِكَ وَأَحْصَنْتُ فَرْجِي إِلَّا عَلَى زَوْجِي، فَلَا تُسَلِّطْ عَلَيَّ هَذَا الكَافِرَ

فصُرع، وفُعل به كما فُعل به أولا، فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ إِنْ يَمُتْ فَيُقَالُ هِيَ قَتَلَتْهُ، فَأُرْسِلَ.





فَقَالَ الطاغية: وَاللهِ مَا أَرْسَلْتُمْ إِلَيَّ إِلَّا شَيْطَانًا، ارْجِعُوهَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ، وأعطاها هاجر[17].

الجزاء من جنس العمل، فلما حفظ إبراهيم وزوجته الله بالغيب، حفظ الله عرضه من هذا المجرم الأثيم.

أمر الله المؤمنين والمؤمنات بحفظ فروجهم، فمن حفظ فرجه صان الله عرضه وحفظه.

قال الله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧﴾ المؤمنون

الزنى وانتهاك المحارم والأعراض من أقبح ما يكون، حتى أنه يذهب إيمان العبد، يرفعه فوق رأسه كالظلة.

الله يغار، ولغيرته حرم الفواحش، يقول النبي ﷺ: **«يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ، مَا أَحَدٌ أَغْيَرَ مِنَ اللهِ أَنْ يَرَى عَبْدَهُ أَوْ أَمَتَهُ تَزْنِي، يَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ»**[18].

لذا أمرت الشريعة بحفظ الفروج صيانة لهذه النفوس عن الرذائل، وحفظا للمجتمعات من الفواحش.

أمرت بحفظ كل ما يؤدي تضييعه إلى تضيع حفظ الفرج، أمرت بحفظ النظر واللسان من إطلاقهم خلف الشهوات.

قال النبي ﷺ: **«قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ. قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّا نَسْتَحْيِي وَالحَمْدُ للهِ، قَالَ: لَيْسَ ذَاكَ، وَلَكِنَّ الِاسْتِحْيَاءَ مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَالبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلْتَذْكُرِ المَوْتَ وَالبِلَى، وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ اسْتَحْيَا مِنَ اللهِ حَقَّ الحَيَاءِ»**[19].

الرأس وما وعى: تحفظ عينيك أن ترى بهما ما يغضب الله، وتحفظ سمعك أن تسمع بهما ما يغضب الله، وتحفظ لسانك أن تقول به ما يغضب الله، بل وتحفظ أنفك أن تتعمد أن تشم بها ما يغضب الله.

يقول النبي ﷺ: **«كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِنَ الزِّنَا، مُدْرِكٌ ذَلِكَ لَا مَحَالَةَ، فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالْأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الِاسْتِمَاعُ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلَامُ، وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ، وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الْخُطَا، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ وَيُكَذِّبُهُ»**[20].

فكل عضو له نصيب من الحفظ، إن قام به العبد كا سببا في حفظ فرجه من تلك المصيبة

(١٧) أخرجه البخاري (٢٢١٧)، ومسلم (٢٣٧١).
(١٨) أخرجه البخاري (٥٢٢١)، ومسلم (٩٠١).
(١٩) أخرجه الترمذي في «سننه» (٢٤٥٨)، وحسنه لغيره الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٧٢٤) .
(٢٠) أخرجه مسلم (٢٦٥٧).





الكبرى، وإن أطلقه وضيع حفظه، فلم يغض بصره، ولم يحفظ أذنه ولسانه ويده وقلبه، كانت الكارثة، نعوذ بالله من الخذلان.

وأمرت كذلك الشريعة بحفظ العورات، فلا تنتشر الفواحش إلا في مجتمعات تُكشف فيها السوءات.

قال معاوية بن حيدة رضي الله عنه: يَا رَسُولَ اللهِ عَوْرَاتُنَا مَا نَأْتِي مِنْهَا وَمَا نَذَرُ؟ قَالَ: احْفَظْ عَوْرَتَكَ إِلاَّ مِنْ زَوْجَتِكَ أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ، فَقَالَ: الرَّجُلُ يَكُونُ مَعَ الرَّجُلِ؟ قَالَ: إِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ لاَ يَرَاهَا أَحَدٌ فَافْعَلْ، قُلْتُ: وَالرَّجُلُ يَكُونُ خَالِيًا، قَالَ: فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ يُسْتَحْيَا مِنْهُ»[٢١].

---

(٢١) أخرجه الترمذي (٢٧٦٩)، وحسنه الشيخ الألباني في «**صحيح ابن ماجه**» (١٥٥٩).



وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا



ويمضي موسى عليه السلام طالبا للعلم من الخضر عليه السلام، فبلغ بهما الجوع مبلغا، حتى وصلا إلى قرية فطلبا من أهلها الضيافة، فلم يستجب لهما أحد.

وإذ بالخضر عليه السلام يرى جداراً كاد أن يسقط على الأرض، فنقضه ثم بناه مرة أخرى.

فتعجب موسى من صنيعة المعروف مع قوم لئام أبوا حتى إطعام الغريب الجائع، فقال له: لو طلبنا أجرا على هذا البناء؟!

وفي نهاية القصة يبين الخضر عليه السلام الحكمة من بناء جدار في قرية أهلها بهذا السوء.

قال الله: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾. سورة الكهف (٨٢)

كلٌ منا يخشى على ولده في غيابه، خاصة إذا سافر، وكذلك تأتيه الهواجس: ماذا لو أدركتني الوفاة؟ ماذا سيصنع أولادي من بعدي؟ من يخلُفني فيهم؟

إن أعظم من يخْلُفك في أهلك وولدك هو رب العالمين.

كان النبي ﷺ إذا سافر، يقول في دعائه: «**اللهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ، وَالْخَلِيفَةُ فِي الْأَهْلِ**»(٢٢). ولما مات أبو سلمة رضي الله عنه، دعا له النبي ﷺ، فقال: «**اللهُمَّ اغْفِرْ لِأَبِي سَلَمَةَ وَارْفَعْ دَرَجَتَهُ فِي الْمَهْدِيِّينَ، وَاخْلُفْهُ فِي عَقِبِهِ فِي الْغَابِرِينَ**»(٢٣).

هذان الغلامان تولى الله حفظ ماله بنفسه.

أرأيت تدبير الملك الحفيظ الرحيم الذي ساق نبيا كريما من أولي العزم مع عبد صالح إلى هذه البلدة في هذه الساعة ليقيما جدارا يحفظ الله به مال أيتام حتى يبلغا فيستخرجا كنزهما.

ولكن هاهنا سبب لا تلتفت عنه: «**وكان أبوهما صالحا**».

كان النبي ﷺ إذا أوى إلى فراشه، قال: «**بِاسْمِكَ رَبِّ وَضَعْتُ جَنْبِي وَبِكَ أَرْفَعُهُ، إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا، وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ**»(٢٤).

بما تحفظ به عبادك الصالحين.

---

(٢٢) أخرجه مسلم (١٣٤٢).
(٢٣) أخرجه مسلم (٩٢٠).
(٢٤) أخرجه البخاري (٦٣٢٠)، ومسلم (٢٧١٤).



الصلاح كلمة عظيمة تعني عبدا أصلحته الطاعة.

لكن دائما يكون الجزاء من جنس العمل، وكأن الأب كان صالحا صلاحا عاما وصلاحا خاصا حفظ الله به مال أطفاله.

يقول سعيد بن جبير رحمه الله: «**كَانَ يُؤَدِّي الْأَمَانَاتِ وَالْوَدَائِعَ إِلَى أَهْلِهَا، فَحَفِظَ اللهُ تَعَالَى لَهُ كَنْزَهُ حَتَّى أَدْرَكَ وَلَدَاهُ فَاسْتَخْرَجَا كَنْزَهُمَا**»[٢٥].

لما حفظ أمانات الناس وودائعهم وأموالهم فلم يخنهم ولم يضيعها حفظ الله له مال أطفاله أحوج ما كانوا.

كثير هم الذين يخونون ويسرقون لأجل أولادهم.

ظلموا أنفسهم وأولادهم، أخطأوا الطريق، ضيعوهم حيث أراودا حفظهم، نسوا أن الحفيظ الله هو الذي قال: ﴿**وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا**﴾. سورة النساء (٩)

إن ولاية الله لعبده وحفظه له مشروطة بصلاحه، فهو القائل: ﴿**وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ**﴾. سورة الأعراف (١٩٦)

لما حضرت الوفاةُ عمرَ بن عبد العزيز رحمه الله دَخَلَ عَلَيْهِ مَسْلَمَةُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّكَ أَقْفَرْتَ أَفْوَاهَ وَلَدِكَ مِنْ هَذَا الْمَالِ فَتَرَكْتَهُمْ عَالَةً لَا شَيْءَ لَهُمْ، فَلَوْ أَوْصَيْتَ بِهِمْ إِلَيَّ أَوْ إِلَى نُظَرَائِي مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ، قَالَ: فَقَالَ: أَسْنِدُونِي ثُمَّ قَالَ: «**أَمَّا قَوْلُكَ إِنِّي أَقْفَرْتُ أَفْوَاهَ وَلَدِي مِنْ هَذَا الْمَالِ فَإِنِّي وَاللهِ مَا مَنَعْتُهُمْ حَقًّا هُوَ لَهُمْ، وَلَمْ أُعْطِهِمْ مَا لَيْسَ لَهُمْ، وَأَمَّا قَوْلُكَ لَوْ أَوْصَيْتَ بِهِمْ إِلَيَّ أَوْ إِلَى نُظَرَائِي مِنْ أَهْلِ بَيْتِكَ فَوَصِيِّي وَوَلِيِّي فِيهِمُ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ، بَنِيَّ أَحَدُ رَجُلَيْنِ: إِمَّا رَجُلٌ يَتَّقِي فَسَيَجْعَلُ اللهُ لَهُ مَخْرَجًا، وَإِمَّا رَجُلٌ مُكِبٌّ عَلَى الْمَعَاصِي فَإِنِّي لَمْ أَكُنْ لِأُقَوِّيَهُ عَلَى مَعْصِيَةِ اللهِ. ثُمَّ بَعَثَ إِلَيْهِمْ وَهُمْ بِضْعَةَ عَشَرَ ذَكَرًا قَالَ: فَنَظَرَ إِلَيْهِمْ فَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ فَبَكَى ثُمَّ قَالَ: بِنَفْسِي الْفِتْيَةُ الَّذِينَ تَرَكْتُهُمْ عَيْلَى لَا شَيْءَ لَهُمْ، بَلَى بِحَمْدِ اللهِ قَدْ تَرَكْتُهُمْ بِخَيْرٍ، أَيْ بَنِيَّ إِنَّكُمْ لَنْ تَلْقَوْا أَحَدًا مِنَ الْعَرَبِ وَلَا مِنَ الْمُعَاهَدِينَ إِلَّا كَانَ لَكُمْ عَلَيْهِمْ حَقًّا، أَيْ بَنِيَّ إِنَّ أَمَامَكُمْ مَيْلٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ، بَيْنَ أَنْ تَسْتَغْنُوا وَيَدْخُلَ أَبُوكُمُ النَّارَ، وَأَنْ تَفْتَقِرُوا وَيَدْخُلَ أَبُوكُمُ الْجَنَّةَ، فَكَانَ أَنْ تَفْتَقِرُوا وَيَدْخُلَ أَبُوكُمُ الْجَنَّةَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ تَسْتَغْنُوا وَيَدْخُلَ النَّارَ، قُومُوا عَصَمَكُمُ اللهُ**»[٢٦].

عمر بن عبد العزيز كان أمير المؤمنين، باستطاعته لو شاء أن يجعل أبناءه ملوكا بعده، كان يمكنه أن يملأ كنوزهم ذهبا، إلا أنه كان قيما على أموال الناس بالعدل، حفظ أموال المسلمين، حتى مات فقيرا، فحفظ الله له أبناءه، تولاهم بحفظه وكلاءته وكنفه، وأنى لهم الضياع بعد ذلك.

يقول بعض من عاصر أولاد عمر بن عبد العزيز وأولاد سليمان بن عبد الملك: «**فَلَقَدْ رَأَيْنَا بَعْضَ أَوْلَادِ عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَحْمِلُ عَلَى ثَمَانِينَ فَرَسًا فِي سَبِيلِ اللهِ، وَكَانَ بَعْضُ أَوْلَادِ سُلَيْمَانَ**

(٢٥) حلية الأولياء» (٤/ ٢٨٧).

(٢٦) حلية الأولياء (٥/ ٣٣٣).





بْـنِ عَبْـدِ المَلِـكِ مَـعَ كَثْـرَةِ مَـا تَـرَكَ لَهُـمْ مِـنَ الْأَمْـوَالِ يَتَعَاطَـى وَيَسْـأَلُ مِـنْ أَوْلَادِ عُمَـرَ بْـنِ عَبْـدِ الْعَزِيـزِ لِأَنَّ عُمَـرَ وَكَلَ وَلَـدَهُ إِلَى اللهِ عَـزَّ وَجَـلَّ، وَسُـلَيْمَانُ وَغَـيْرُهُ إِنَّـمَا يَكِلُـونَ أَوْلَادَهُـمْ إِلَى مَـا يَدَعُـونَ لَهُـمْ مِـنَ الْأَمْـوَالِ الْفَانِيَـةِ، فَيَضِيعُـونَ وَتَذْهَـبُ أَمْوَالُهُـمْ فِي شَـهَوَاتِ أَوْلَادِهِـمْ»[٢٧].

إن صـلاح العبـد المؤمـن صـلاح للدنيا، صلاح لـه ولأولاده بل وكل من حوله، وهذا مـن بركة الطاعة.

يقـول محمـد بـن المنكـدر رحمه الله: «: إِنَّ اللهَ لَيُصْلِـحُ بِصَـلَاحِ الْعَبْـدِ وَلَـدَهُ وَوَلَـدَ وَلَـدِهِ وَأَهْـلَ دُوَيْرَتِـهِ وَأَهْـلَ الدُّوَيْـرَاتِ حَوْلَـهُ فَـمَا يَزَالُـونَ فِي حِفْـظٍ مِـنَ اللهِ مَـا دَامَ بَيْنَهُـمْ»[٢٨].

إن كنـت تريـد حفـظ أولادك فأقـم ديـن الله فيهـم، أُبـذل وُسـعك كـي يكونـوا صالحـين، والله يتـولى أمرهـم دونـك.

لا يسـترعي الله تبارك وتعـالى عبـدا رعيـة قلـت أو كثـرت إلا سـأله الله تبـارك وتعـالى عنهـا يـوم القيامـة أقـام فيهـم أمـر الله تبـارك وتعـالى أم أضاعـه حتـى يسـأله عـن أهـل بيتـه خاصـة.

كثـير ممـن يجمـع المـال الحـرام يريـد حيـاة كريمـة لأولاده، يخشـى عليهـم الضيعـة، وكأن الله سـيحفظهم بالحـرام، ويضيعهـم بالحـال، أهـذا ظنـك بـالله.

في ذات يـوم وعـظ سـفيان الثـوري رجـلا حتـى يكـف عـن أكـل الحـرام، فقـال الرجـل: فَكَيْـفَ أَصْنَـعُ يَـا أَبَـا عَبْـدِ اللهِ بِعِيَـالِي؟ فَقَـالَ سُـفْيَانُ: اسْـمَعُوا هَـذَا يَقُـولُ: إِذَا عَـصَى اللهَ رُزِقَ عِيَالُـهُ، وَإِذَا أَطَـاعَ اللهَ ضُيِّـعَ عِيَالُـهُ»[٢٩].

الخلاصة يا صديقي: أصلح ما بينك وبين الله، وسيصلح الله لك كل شيء.

(٢٧) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٢٤٩)، والبداية والنهاية (١٢/ ٧١٥).
(٢٨) أخرجه ابن أبي شيبة في «**مصنفه**» (٣٥٤١٥).
(٢٩) أخرجه أبو نعيم في «**حلية الأولياء**» (٦/ ٣٨٠).

اللَّهُمَّ احْفَظْنِي بِالْإِسْلَامِ



يقول أبو عِمْرَانَ التُّجِيبِيِّ كُنَّا بِمَدِينَةِ الرُّوم، فَأَخْرَجُوا إِلَيْنَا صَفًّا عَظِيمًا مِنَ الرُّوم، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِثْلُهُمْ أَوْ أَكْثَرُ، وَعَلَى أَهْلِ مِصْرَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ، وَعَلَى الْجَمَاعَةِ فَضَالَةُ بْنُ عُبَيْدٍ، فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى صَفِّ الرُّومِ حَتَّى دَخَلَ فِيهِمْ، فَصَاحَ النَّاسُ وَقَالُوا: سُبْحَانَ اللهِ يُلْقِي بِيَدَيْهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ!

فَقَامَ أَبُو أَيُّوبَ الأَنْصَارِيُّ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ لَتُؤَوِّلُونَ هَذِهِ الآيَةَ هَذَا التَّأْوِيلَ، وَإِنَّمَا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةَ فِينَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ لَمَّا أَعَزَّ اللهُ الإِسْلامَ وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ، فَقَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ سِرًّا دُونَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ أَمْوَالَنَا قَدْ ضَاعَتْ، وَإِنَّ اللهَ قَدْ أَعَزَّ الإِسْلامَ وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ، فَلَوْ أَقَمْنَا فِي أَمْوَالِنَا، فَأَصْلَحْنَا مَا ضَاعَ مِنْهَا. فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى عَلَى نَبِيِّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرُدُّ عَلَيْنَا مَا قُلْنَا: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، فَكَانَتِ التَّهْلُكَةُ الإِقَامَةَ عَلَى الأَمْوَالِ وَإِصْلاحِهَا، وَتَرْكَنَا الغَزْوَ فَمَا زَالَ أَبُو أَيُّوبَ، شَاخِصًا فِي سَبِيلِ اللهِ حَتَّى دُفِنَ بِأَرْضِ الرُّومِ(٣٠).

الأنصار كتيبة الإسلام، الناس دثار والأنصار شعار.

أولئك الأطهار الذين آووا رسول الله ﷺ وأصحابه، ونصروا الله ورسوله، يؤثرون أهل الإسلام على أنفسهم ولو كان بهم حاجة، أثنى الله عليهم في كتابه، حتى صار حبهم علامة على الإيمان.

في لحظة من تلك اللحظات التي تنتاب النفس البشرية نظر الأنصار إلى الدين فإذا ناصروه كُثر، أعز الله دينه، ودخل الناس في دين الله أفواجا، فتهامس القوم: أموالنا قد ضاعت، والإسلام أعزه الله، فلو أقمنا في أموالنا نصلح ما ضاع منها

علم الله ما تهامسوا به سرا، فأنزل الله تعالى ميزان العدل، ليصحح تلك التصورات.

فقال الله: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾. سورة البقرة(١٩٥)

فكانت التهلكة عندما نصلح دنيانا على حساب ديننا، عندما نترك إقامة هذا الدين في نفوسنا ونفوس الخلق فإن هذا هو الضياع والهلكة حتى لو أصلحنا دنيانا.

كان من دعاء النبي ﷺ: **«اللَّهُمَّ احْفَظْنِي بِالْإِسْلَامِ قَائِمًا، وَاحْفَظْنِي بِالْإِسْلَامِ قَاعِدًا، وَاحْفَظْنِي بِالْإِسْلَامِ رَاقِدًا»**(٣١).

اللهم احفظني بالإسلام: أي يا رب بإسلامي لك احفظني في جميع أحوالي.

---

(٣٠) أخرجه الترمذي في «سننه» (٢٩٧٢)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١/ ٤٧).

(٣١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١٩٢٤)، وحسنه الشيخ الألباني بطريقيه في «السلسلة الصحيحة» (١٥٤٠).





أعظم أسباب الحفظ إسلام قلبك وروحك لله، وإقامة هذا الإسلام العظيم فيمن حولك.

إن الله ضمن لمن خرج في سبيل دينه أن يحفظ عليه، حتى لو ظنه الناس هلكة، فإن الله ضامن ولا يضيع ضمان الملك.

في ذات يوم خرجت امرأة في سرية من سرايا المسلمين مجاهدة في سبيل الله، وَتَرَكَتْ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ عَنْزًا لَهَا، وَصِيصِيَتَهَا كَانَتْ تَنْسِجُ بِهَا، فلما رجعت فقدت عنزة من غنمها وَصِيصِيَتَهَا.

فتوجهت إلى ربها تناشده، تقول: يَا رَبِّ إِنَّكَ قَدْ ضَمِنْتَ لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيلِكَ أَنْ تَحْفَظَ عَلَيْهِ، وَإِنِّي قَدْ فَقَدْتُ عَنْزًا مِنْ غَنَمِي، وَصِيصِيَتِي، وَإِنِّي أَنْشُدُكَ عَنْزِي، وَصِيصِيَتِي »، **قَالَ: فَجَعَلَ رَسُولُ الله ﷺ يَذْكُرُ شِدَّةَ مُنَاشَدَتِهَا لِرَبِّهَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «فَأَصْبَحَتْ عَنْزُهَا وَمِثْلُهَا، وَصِيصِيَتُهَا وَمِثْلُهَا»**[٣٢].

حتى لا تصيبنا الهلكة، حتى لا نضيع، لابد أن نقيم الدين.

تلك وصية الله القائل: «شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾. سورة الشورى (١٣)

نقيمه في أنفسنا أولا، وفيمن ولانا الله ثانيا، في بيوتنا، في شركاتنا، في مجتمعاتنا، في حياتنا.

يقول النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ سَائِلٌ كُلَّ رَاعٍ عَمَّا اسْتَرْعَاهُ، أَحَفِظَ ذَلِكَ أَمْ ضَيَّعَ؟ حَتَّى يُسْأَلَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ**»[٣٣].

إننا إن تركنا تلك الحياة لغيرنا أن يفسدها بعصيانه دون أن نأخذ على يديه ضاعت سفينة النجاة، وتقاذفتها أمواج الفتن، ولن تتركها إلا أشلاء في قاع البحر المظلم.

يقول النبي ﷺ: «**مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا**»[٣٤].

إن كان الصلاح سبيل ولاية الله وحفظه وكنفه، فإن الفساد مؤذن بخراب العالم، فإن ترك المصلحون المفسدين فسدت الأرض، وعمّ الهلاك الصالح والفاسد.

قال الله: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ سورة هود.

(٣٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٠٦٦٤)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٩٣٥).

(٣٣) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» (٩١٢٩)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٦٣٦).

(٣٤) أخرجه البخاري (٢٤٩٣).



وقد تحيط بك الخطوب، ويكيد لك الأعداء، ويمكر بك المجرمون، حتى يقال: لا نجاة

لا تحزن

الله ينجيكم منها ومن كل كرب

وكذلك ننجي المؤمنين

لأن كل شيء بيديه لا ملجأ ولا منجا منه إلا إليه



قُلِ الله يُنَجِّيكُمْ



كان عكرمة بن أبي جهل على الكفر، يحارب الإسلام بكل قوته، فلما قتل أبوه يوم بدر على الكفر ازداد كفره وغيظه.

عندما فتح النبي ﷺ مكة فرّ عكرمة حتى ركب البحر، وبينما هم في السفينة إذ هاجت الريح، وكادت السفينة أن تغرق.

وقف صاحب السفينة يذكرهم بالحقيقة التي يقرونها بقلوبهم ويجحدونها كبرا وعلوا فقال لهم: أَخْلِصُوا فَإِنَّ آلِهَتَكُمْ لَا تُغْنِي عَنْكُمْ شَيْئًا هَاهُنَا.

قَالَ عِكْرِمَةُ: وَالله لَئِنْ لَمْ يُنَجِّنِي فِي الْبَحْرِ إِلَّا الْإِخْلَاصُ لَا يُنَجِّينِي فِي الْبَرِّ غَيْرُهُ، اللهُمَّ إِنَّ لَكَ عَلَيَّ عَهْدًا، إِنْ أَنْتَ عَافَيْتَنِي مِمَّا أَنَا فِيهِ أَنْ آتِيَ مُحَمَّدًا حَتَّى أَضَعَ يَدِي فِي يَدِهِ، فَلَأَجِدَنَّهُ عَفُوًّا كَرِيمًا، قَالَ: فَجَاءَ فَأَسْلَمَ»[1].

كثيرة هي تلك المهالك التي تحيط بالإنسان من كل جانب، والإنسان الضعيف عندما يوقن بالهلكة يبحث عمن ينجيه، ويدرك حينها أنه لا نجاة له إلا بالله وحده.

حتى أولئك الكفرة الذين ينكرون الله كبرا وعلوا، يكون هذا حالهم في الرخاء والسراء، فإذا اشتد الكرب وأيقنوا بالهلاك نسوا كل باطل وتركوا هذا السراب، ولجأوا إلى من بيده نجاتهم حقا، وهو الله وحده.

قال الله: ﴿قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۝٦٣ قُلِ الله يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ ۝٦٤﴾ سورة الأنعام

بل يعاهدون ربهم أنهم إن نجاهم من كربهم سيؤمنون ويشكرون، لكن ما أن تحدث النجاة حتى يعود إلى كفره وبغيه.

قال الله: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۝٢٢ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٢٣﴾ سورة يونس

الله وحده بيده النجاة.

لأن كل شيء بيده، السموات والأرض في قبضته، الكون كله طوع أمره.

الماء جند من جنوده، وخلق من خلقه، يهلك به من يشاء، وينجي فيه وبه من يشاء.

---

(١) أخرجه النسائي في «سننه» (٤٠٦٧)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٧٢٣).





هذا نوح عليه السلام يركب هو والمؤمنون سفينة ليست شيئا في وزن تلك السفن العملاقة التي نخوض عباب البحر، يحيط بها الماء كل جانب، أمواج كالجبال، تراها كريشة في مهب الريح.

لكن حملها الله، ونجا الله نوحا ومن معه برحمته جل في علاه.

قال الله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾﴾ العنكبوت

يقف موسى ومن معه من المؤمنين أمام البحر الخضم، وخلفه فرعون وجنوده، إن ولجوا البحر غرقوا يقينا، وإن بقوا على شاطئه حصدتهم سيوف الظالم.

لكن الله ينجيبهم برحمته.

قال الله: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ سورة الشعراء

يونس عليه السلام يركب السفينة، تجري قُرعة، يُلقى في البحر، ثم يلتقطه حوت عظيم، فأي نجاة بعد ذلك؟

لكن الله ينجيه.

قال الله: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ سورة الأنبياء

النار تذيب الحديد، من الذي يقف لها، ومن الذي يحول بينها وبين الهلاك؟

يجمع المجرمون نارا عظيمة لحرق إبراهيم، فمن الذي ينجيه، وهو عبد ضعيف لا ناصر له من الناس؟

لكن الله ينجيه.

قال الله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنْجَاهُ الله مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. سورة العنكبوت (٢٤)

تتوقف الأسباب، بل تكون أسباب الهلاك أسبابا للنجاة.

فقط إن أراد الله النجاة.

حتى فرعون أراد الله أن يُنجي جثته، لتشهد الأجيال إن رأته مصير الطغاة.

قال الله: ﴿فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾. سورة يونس (٩٢)



وَكَذَٰلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ



على مرّ الزمان شهدت الدنيا كثيرا من الظلمة الفجرة، الذين طغوا في الأرض فأكثروا فيها الفساد، يصبون عذابهم على المستضعفين.

يستنجد المستضعفون بربهم: «**ربنا نجنا من القوم الظالمين**».

يستجيب الله، فينزل بأسه على المجرمين، وينجي برحمته عباده المؤمنين.

من كان يظن أن ينجو نوح ومن معه من القِلة المؤمنة، بعد أن هدده المجرمون بالرجم بالحجارة حتى الموت إن لم يكف عن دعوتهم إلى الله.

قال الله: ﴿قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ۝١١٦ قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ۝١١٧ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝١١٨ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ۝١١٩ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ۝١٢٠﴾ سورة الشعراء

من كان يأتي في خاطره أن يفتح الله أبواب السماء بماء منهمر، ويفجر عيون الأرض، فيلتقي الماء على أمر قد قدر، ثم يحمل الله عباده المؤمنين وسط الأمواج التي كالجبال، ويعصم الله المؤمنين، ويهلك الكافرين.

قال الله: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. سورة المؤمنون (٢٨)

ويستمر ركب الإيمان..

ويأتي هود عليه السلام، ينادي على قومه أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره.

لكنهم قوم عاد، ومن مثل عاد؟

قالوا: من أشد منا قوة؟!

يبطشون بطش الجبارين، وقالوا متبجحين: وما نحن بمعذبين.

يشاء القوي المتين أن يرسل عليها الريح العقيم: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ۝٢٥﴾سورة الأحقاف

تدمر كل شيء!

فأين هود والذين آمنوا معه؟

قال الله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾. سورة هود (٥٨)



نجاهم الملك برحمته.

ويستمر ركب الإيمان..

ويأتي صالح عليه السلام إلى قومه، ينادي عليهم: أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره.

لقد كانوا ينحتون بيوتهم في الجبال، لكنهم اتبعوا أمر المسرفين، الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون.

ثم باتوا يمكرون ويخططون، يريدون قتل صالح ومن معه من المؤمنين.

قال الله: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ۝٤٨ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ۝٤٩ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٠﴾ سورة النمل.

كم كانوا يحتاجون لإهلاكهم؟

صيحة واحدة من مَلك واحد من ملائكة الله، رجفت بهم الأرض، فصاروا هشيما.

قال الله: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾. سورة القمر (٣١)

قال الله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾. سورة الأعراف (٧٨)

لكن أين صالح والمؤمنون معه، لقد صاح المَلك، ورجفت الأرض؟

قال الله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ۝٦٦ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ۝٦٧﴾ سورة هود

ويستمر ركب الإيمان..

ويأتي شعيب عليه السلام، ينادي في قومه: أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره، ولا تفسدوا في الأرض، ولا تنقصوا المكيال والميزان.

وكعادة الطغاة المجرمين في كل زمان، يعلمون أن الحق سيحول بينهم وبين الفساد والإفساد، فكان التهديد والوعيد، إنه التهجير أو الكفر بالله.

قال الله: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾. سورة الأعراف (٨٨)

بل لولا قومه لرجموه وقتلوه.

قال الله: ﴿قَالُوا يَاشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ﴾. سورة هود (٩١)

فجاءهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم، رجفة وصيحة وسحابة أظلتهم تحمل نارا، فأصبحوا صرعى على وجوههم، إنه كان عذاب يوم عظيم.



قال الله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾. سورة الأعراف (٩١)

وقال الله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾. سورة الشعراء (١٨٩)

ولكن: أين شعيب ومن معه من المؤمنين؟

قال الله: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾. سورة هود (٩٤)

نجاهم الله برحمته.

ويستمر ركب الإيمان..

ويأتي لوط عليه السلام، يدعو قومه إلى الله، وينهاهم عن الفواحش.

لقد كانوا فجارا أنجاسا يأتون الذكران من العالمين، فما كان جواب قومه إلا أن هددوه بالطرد والتهجير والرجم.

حتى امرأته كانت مع الخبثاء الفجار.

قال الله: ﴿قَالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَالُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ﴾. سورة الشعراء (١٦٧)

وقال الله: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾. سورة النمل (٥٦)

فعذبهم الله عذابا عظيما مهينا، صاح بهم المَلك، ورُفعت قريتهم ثم قلبت بمن فيها، وأمطر عليهم حجارة من سجيل منضود.

قال الله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ ۝٨٢ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ۝٨٣﴾ سورة هود

ولكن أين لوط من هذا العذاب؟

قال الله: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾. سورة النمل (٥٧)

نجاهم الله برحمته.

على مدار التاريخ، يحلم الله على المكذبين، يمهلهم، لا يعاجلهم بالعذاب، يرى سبحانه ما يحدث لأنبياءه وأولياءه من التعذيب، حتى يكاد الرسل أن ييأسوا من هداية هؤلاء الفجار، لشدة كفرهم وعظيم بطشهم، فيغضب الجبار سبحانه فيكون العذاب الذي ليس له دافع، ثم تكون النجاة للرسل وأتباعهم.

قال الله: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾. سورة يوسف (١١٠)

قال الله: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾. سورة يونس (١٠٣)





وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ



لقد كانت النجاة منة عظيمة على بني إسرائيل، حت أن الله تعالى ذكّرهم بها أربع مرات في كتابه

الأولى: في سورة البقرة

قال الله: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾. البقرة(٤٩)

الثانية: في سورة الأعراف

قال الله: ﴿وَإِذْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾. سورة الأعراف(١٤١)

الثالثة: في سورة إبراهيم

قال الله: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾. سورة إبراهيم(٦)

الرابعة: في سورة طه

قال الله: ﴿يَابَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى﴾. سورة طه(٨٠)

وإذ نجيناكم وإذا أنجيناكم إذ أنجاكم قد أنجيناكم

قصة نجاة، جعلها الله عبرة لهذه الأمة المحمدية.

لا يوجد طاغية مثل فرعون.

ولا ملأ وحاشية أطغى وأفسد وأفسق من ملأ فرعون.

ولا جنود أظلم وأفجر من جنود فرعون.

لقد اجتمع طغيان فرعون، وخبث هامان، ومكر ومال قارون، وظلم جنودهم، على استعباد بني إسرائيل.

وصف الله فرعون بالعلو والفساد والإجرام والظلم والطغيان.



لك أن تتخيل أمة مستعبدة، يذبح أطفالها كل يوم.

يُسام الرجال سوء العذاب، مذلة ومهانة واستعبادا.

بطش وتنكيل، سجن وتعذيب، قتل وتحريق.

ويشاء الملك نجاة هذه الأمة من هذا العذاب.

كانت دعوات المستضعفين دوما ربنا نجنا برحمتك من القوم الظالمين.

قال الله: ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَامُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ سورة القصص.

قال الله: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَاقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ سورة يونس.

يجمع الطاغية جنوده من جنبات الأرض، يخرج وقد امتلأ كبرا وغرورا، يريد أرواحهم، لم يكفه استعباده لهم وإذلاله إياهم طيلة هذه السنين.

لقد تركوا لك الأرض يا فرعون، فماذا تريد منهم بعد؟

ودعني أتركك مع كلام الملك، يحدثك عن هذه اللحظات الخطيرة من حياة أمتين، أمة الفرعون وأمة بني إسرائيل.

أمة ستهلك، سيدمرهم الله، وأمك ستنجو، بل سترث الأرض من بعدهم.

قال الله: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾﴾ سورة الشعراء

قال الله: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾﴾ سورة الأعراف

انظر كم كانت بنو إسرائيل مجرد شراذم في نظر فرعون، ليسوا بشرا على الحقيقة عنده، بل محض عبيد.

وكيف للعبد أن يغيظ سيده!!





، ومع أنهم شراذم إلا أنه يحذرهم، يخشى على سلطانه المزعوم، سيترك الناس الخضوع له، فماذا يصنع الطاغية دون عبيد أذلاء مقهورون، إنه يتغذى على قهرهم وإذلالهم.

لقد طغى فرعون وجنوده حتى أغضب رب العالمين أشد الغضب فكان الانتقام.

الله ينتقم، ولا يقف أمام انتقامه أحد.

قال الله: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾. سورة الزخرف (٥٥)

قال الله: ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَى مُوسَى وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٦﴾﴾ سورة الصافات.

سيظل هذا الدرس أملا لهذه الأمة، كلما جاء يوم العاشر من محرم، صام المسلمون، وتذكروا يوم النجاة، وأن الله الذي نجى موسى من فرعون وجنوده رب قادر على أن ينجيهم من طغاة الأرض، فلا يأس مع الله رب العالمين.

لاَ مَلْجَأَ وَلاَ مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ



هذه الأمم التي بعث الله إليها الرسل لنجاتهم في الدنيا والآخرة، فكذبوا واستكبروا، فحلّ بهم عذاب الله، وقصّ الله علينا أصناف العذاب الذي أوقعه بهم.

هؤلاء أهلكهم غرقا، وهؤلاء خسفا، وهؤلاء بالرجفة، وهؤلاء بالصيحة، وهؤلاء بالريح، وهؤلاء سلط عليهم بعض خلقه فمزقهم شر ممزق.

قال الله: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ الله لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾. سورة العنكبوت (٤٠)

تأمل: أخذنا - أرسلنا - خسفنا - أغرقنا.

كل هذا حتى نوقن أن سبيل النجاة منه إليه.

كان النبي ﷺ يثني على ربه، فيقول قبل نومه مما يقول: «**لاَ مَلْجَأَ وَلاَ مَنْجَا مِنْكَ إِلَّا إِلَيْكَ**»(٢).

الله يريد لك النجاة من كل شر، لا يريد بك السوء.. لأجل ذلك بعث الرسل لنجاتك.

يقول النبي ﷺ: «**مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ، كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فَقَالَ: رَأَيْتُ الجَيْشَ بِعَيْنَيَّ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ العُرْيَانُ، فَالنَّجَا النَّجَاءَ، فَأَطَاعَتْهُ طَائِفَةٌ فَأَدْلَجُوا عَلَى مَهْلِهِمْ فَنَجَوْا، وَكَذَّبَتْهُ طَائِفَةٌ فَصَبَّحَهُمُ الجَيْشُ فَاجْتَاحَهُمْ**»(٣).

وأعظم النجاة أن تنجو من الكفر به، أن تكون مؤمنا حقا، فتنجو في الدنيا والآخرة.

يجب أن تستشعر أنك بإيمانك أنقذك الله.

انظر إلى المؤمنين من قوم شعيب عليه السلام كيف أيقنوا أن حقيقة النجاة أن ينقذك الله من ملل الكفر ودنس الجاهلية.

قال الله: ﴿قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا الله مِنْهَا ﴿٨٩﴾﴾ سورة الأعراف

وهذا مؤمن آل فرعون، ذاك الذي صدع في قومه بالتوحيد، ولم يعبأ بهؤلاء المجرمين، وقف يقول لهم: النجاة هنا، عند العزيز الغفار.

---

(٢) البخاري (٢٤٧)، ومسلم (٢٧١٠).

(٣) أخرجه البخاري (٦٤٨٢)، ومسلم (٢٢٨٣).





قال الله: ﴿وَيَاقَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾﴾ سورة غافر

ستستشعر حلاوة الإيمان عندما ترى الكفر وأهله وما هم عليه فساد لهذه النفوس، وإماتة لمعالم الحياة، ومهانة للنفوس، وانتكاس للفطرة، وضياع للحقوق، وطمس للعدل، واستعباد للخلق، وأن الله أنقذك يوم أن عرّفك به وجعلك من أتباع دينه.

يقول النبي ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَمَنْ أَحَبَّ عَبْدًا لَا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَمَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ، بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ، مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ»(٤).

عندما ترى تلك الديانات الباطلة، هذا ملحد، وذاك وثني، وهذا مشرك، قل رب نجني من الكفر وأهله.

النجاة حقا عندما ينجيك الله من الخبائث.

عندما تستشعر ما شعر به لوط وامرأة نوح.

وقف لوط مستحضرا خبث ما عليه هؤلاء الفجرة، فخشي على نفسه وأهله، فقال: ﴿رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ﴾. سورة الشعراء (١٦٩)

ووقفت امرأة فرعون، تلك المؤمنة تنظر إلى كل ملك فرعون، فلم تر فيه إلا الهلكة والضيعة، خصيت على نفسها منه ومن عمله، فدعت ربها فقالت: ﴿قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾. سورة التحريم (١١)

عندما ترى من حولك يأكلون المال الحرام لا يبالون، هذا ربا، وذاك رِشا، قل رب نجني مما يعملون.

عندما ترى هذا يفخر بالزنى، وذاك يجاهر بالشذوذ، وهذا يقنن الفجور، فقل رب نجني مما يعملون.

عندما ترى السب والشتم والقذف والزور والبهتان صار أمرا مستساغا لا يُنكر، فقل رب نجني مما يعملون.

ولن تتم النجاة لك إلا بإنكار هذه المنكرات، بكل ما تستطيع، فإن الله إذا غضب لن ينجو من عذابه إلا المصلحون.

نعم المصلحون، يجب أن تتجاوز نقطة الصلاح لتكون مصلحا.

ألم يأتك نبأ تلك القرية من بني إسرائيل، التي تحايلت على شريعة الله، فعصوا الله كأنهم يخادعونه، وما يخدعون إلا أنفسهم، فكان العذاب البئيس، مسخهم الله قردة وخنازير.

(٤) أخرجه البخاري (٢١)، ومسلم (٤٣).



لكن لم ينج من عذاب الله إلا هؤلاء الذين أنكروا المنكر، ووعظوهم لله معذرة له سبحانه.

قال الله: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٦﴾﴾ سورة الأعراف

أنجينا الذين ينهون عن السوء.

هم أهل النجاة، وإن لم نفعل ستغرق بنا السفينة جميعا.

يقول النبي ﷺ: «**مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاَهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا، وَنَجَوْا جَمِيعًا**»[٥].

إن قال كل منا ليس هذا شأني، ليفجر من يفجر، وليعصي من يعصي، سيكثر الخبث، وإن كثر الخبث عمّ العذاب الصالح والطالح.

قالت زينب رضي الله عنها للنبي ﷺ: «أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟

قَالَ: «**نَعَمْ إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ**»[٦].

هناك عقوبات خاصة لكل عاص، وهناك عقوبات عامة.

عندما يتخلى الصالحون عن الإصلاح.

عندما يُترك الظالم لا يقال له: اتق الله، ولا يُؤخذ على يديه.

يقول النبي ﷺ: «**إِنَّ النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ أَوْشَكَ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللهُ بِعِقَابٍ مِنْهُ**»[٧].

ويقول النبي ﷺ: «**مَا مِنْ رَجُلٍ يَكُونُ فِي قَوْمٍ يُعْمَلُ فِيهِمْ بِالْمَعَاصِي، يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يُغَيِّرُوا عَلَيْهِ، فَلَا يُغَيِّرُوا، إِلَّا أَصَابَهُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَمُوتُوا**»[٨].

لنكن من هذه البقية التي يدفع الله بها العذاب عن الناس، الذين ينهون عن الفساد في الأرض.

قال الله: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ سورة هود

---

(٥) أخرجه البخاري (٢٤٩٣).

(٦) أخرجه البخاري (٣٣٤٦)، ومسلم (٢٨٨٠).

(٧) أخرجه الترمذي في «سننه» (٢١٦٨)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٥٦٤).

(٨) أخرجه أبو داود في «سننه» (٤٣٣٩)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٣٥٣).



رصيدُ النجاة (ثلاثة وثلاثة)



قد يقع أحدنا في أمر جلل عظيم، يظن الإنسان به هلكته، يفتش عن النجاة فلا يجد لها سبيلا، حتى يكاد الإنسان يوقن أنه لا مفر ولا مهرب.

الله يقول: ﴿قُلِ الله يُنَجِّيكُم مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾. سورة الأنعام (٦٤)

الله يُنجي عبده تكرما وتفضلا، لكن..

عندما يكون للعبد رصيد عند الله من عمل خالص لوجهه، يكون هذا أرجى للنجاة.

عندما التقم الحوت يونس عليه السلام، ونادى ربه في الظلمات: ﴿فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ سورة الأنبياء

لقد استجاب الله ليونس عليه السلام، لكن تأمل هذه الآية جيدا:

قال الله: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤)﴾ الصافات

لقد كان يونس كثير الصلاة في الرخاء، فنجاه الله عند شدته وكربه.

حديثان عجيبان جدا.

ثلاثة أنجاهم الله، وثلاثة كانوا أول الهالكين.

وإليك نبأ الناجين:

ثلاثة آواهم المبيت بغار، تتدحرج صخرة من أعلى جبل، تنزل رويدا رويدا، فلا تجد لها موضعا إلا باب الغار.

تقدير الملك سبحانه.

وكأني بهم يحركون الصخرة بكل قوتهم، يصرخون، ينادون، لعل مغيثا ينقذهم، لكن لا أحد.

قد تنقطع بك الأسباب، تلك التي تجعلك مطمئنا، يسلبها الله منك، فلا تجد حينها حقا ملجأ ولا ملاذا إلا عنده.

قال أحدهم:

إِنَّهُ لاَ يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللهَّ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ[٩].

---

(٩) أخرجه البخاري (٢٢٧٢).



وفي رواية: «إِنَّهُ وَاللهِ يَا هَؤُلَاءِ، لَا يُنْجِيكُمْ إِلَّا الصِّدْقُ، فَلْيَدْعُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَا يَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ صَدَقَ فِيهِ»[10].

وفي رواية: «يَا عِبَادَ اللهِ وَاللهِ لَا يُنْجِيكُمْ مِمَّا وَقَعْتُمْ فِيهِ إِلَّا أَنْ تَصْدُقُوا اللهَ عَزَّ وَجَلَّ، فَهَاتُوا مَا عَمِلْتُمْ خَالِصًا فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ بِالذُّنُوبِ»[11].

وفي رواية: «لَا يُنْجِيكُمُ الْيَوْمَ إِلَّا الصِّدْقُ، لِيُحَدِّثْ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِأَفْضَلِ عَمَلٍ عَمِلَهُ وَيَصْدُقْ»[12].

وفي رواية: «انْظُرُوا أَفْضَلَ أَعْمَالٍ عَمِلْتُمُوهَا للهِ تَعَالَى فَسَلُوهُ بِهَا؛ لَعَلَّهُ يُفَرِّجُ بِهَا عَنْكُمْ »[13].

هو يوقن أن الله يسمعهم الآن، يرى موضعهم الساعة، وما الصخرة في قوة الله، هو الذي حركها أصلا، بإذنه حدث ما حدث، والآن رصيدك في النجاة.

عمل صالح خالص صادق لله، ليس لنفسك ولا للناس فيه ذرة.

فتّش كل منهم في أعماله، أيجد عملا كان لله صرفا؟

وجد أولهم بره بأبويه، لقد كان خالصا صادقا في بره بأبويه، حتى أنه لا يقدم عليهما أحدا، لا زوجة ولا ولدا.

جاء الاختبار، تأخر في عمله، عاد إلى بيته، جاء باللبن لأبويه ليشربا، لكنهما ناما.

كره أن يوقظهما وأن يقطع عليهما النوم الهنيئ.

ظل واقفا والإناء في يده، وحوله صغاره، لا يشرب ولا يشربون حتى يستيقظ الأبوان.

ظل طيلة الليل، تمر الساعات ولا ينثني عزمه، حتى أذن الفجر، ثم شربا.

هنا الرصيد: اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرِّج عنا ما نحن فيه.

تتحرك الصخرة رويدا رويدا، لكن لا يستطيعون الخروج.

البر الخالص لله يحرك الصخور.

جاء الثاني ففتش في أعماله.

فإذ به يتوسل إلى الله بعفته، وصدقه في ترك شهوته.

عشق قلبه ابنة عمة، أحبها كأشد ما يُحب الرجال النساء، راودها عن نفسها، لكنها كانت عفيفة، أبت عليه.

(١٠) أخرجه البخاري (٣٤٦٥).

(١١) أخرجه الطبراني في «**الدعاء**» (١٩٦).

(١٢) أخرجه تمام في «**الفوائد**» (٣٩٥).

(١٣) أخرجه البيهقي في «**السنن الكبرى**» (١١٦٤٠).

تدور الأيام ويأتي الاختبار:

أصابتها ضائقة، فتشت في الناس لعل أحدا يقرضها، جاءت لابن عمها، ذاك الذي شغف حبها قلبه .

لكنه عرض مقايضة، نفسك بالمال، عرضك بمائة وعشرين دينارا.

للأسف ضعفت، وقبلت.

جلس الشاب منها مجلس الرجل من امرأته، كاد أن يغضب ربه، هي أحب النساء إليه، لقد سعى إلى هذا وبذل فيه كل هذا المال.

المرأة عفيفة، لا تريد الحرام.

لآخر مرة تذكره بالله.

اتق الله، إني لا أحل لك، لا تفض الخاتم إلا بحقه.

وقعت الكلمة في قلبه موقعها.

قام عنها، وتركها، وترك لها المال.

ثم قال: اللهم إن كنت فعلت هذا ابتغاء وجهك ففرِّج عنا ما نحن فيه.

تحركت الصخرة، رويدا رويدا، لكن لم يستطيعوا الخروج بعد.

عفة صادقة تحرك الصخور.

وجاء الثالث ففتش في صالح أعماله.

تذكر ذاك الفقير الأجير الذي عمل له عملا، لكنه مضى وترك أجرته.

كان الرجل أمينا ناصحا لأخيه.

لم يحفظ المال فحسب، وإنما تاجر له في أجرته، حتى نمى المال، وصارت تلك الأجرة اليسيرة المئات وربما الآلاف من بهيمة الأنعام.

جاء الأجير بعد سنين، يطالب بحقه، بأجرته.

قال له الرجل الأمين: هذا كله أجرتك.

أخذ الأجير كل هذه الأنعام، ساقها جميعا، ولم يعرض ولم يترك للرجل دويبة صغيرة، ولم يوقفه الرجل ليطلب نصفها أو ربعها.

هنا قال: اللهم إن كنت فعلت هذا ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن.

فتحركت الصخرة، ونجوا جميعا.

أمانة خالصة صادقة تحرك الصخور.

ماذا لو كنتُ أنا أو أنت رابعهم؟

ألي ولك مثل ذلك؟

الإخلاص والصدق نجاة، ولا نجاة لك إلا بالله، أن تخلص وتصدق له سبحانه.

هؤلاء الثلاثة نفعهم إخلاصهم فنجوا من مهلكة الدنيا، وبها ينجون من النار يوم القيامة.

القاسم المشترك بين الثلاثة: إن كنت فعلت هذا ابتغاء وجهك ففرج عنا.

وهناك ثلاثة أُخر أول من تُسعر بهم جهنم، لا ينجون من الجحيم.

يقول النبي ﷺ: «**إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ**»(١٤).

القاسم المشترك: إنما فعلت ليقال.

لم تكن أعمالهم – مع أنها عظيمة جدا – خالصة لله، بل كانت لعز نفوسهم، فهلكوا.

هل علمت الآن لماذا لم تنج بعد من هوى نفسك، ونزغات الشيطان؟

هل علمت الآن لماذا لا تزال مكبلا عن طاعاتك، مطلقا في معاصيك؟

إنه الصدق.

يقول كعب بن مالك رضي الله عنه، أحد الثلاثة الذين تاب الله عليهم: «**إِنَّ اللهَ إِنَّمَا نَجَّانِي بِالصِّدْقِ، وَإِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ لَا أُحَدِّثَ إِلَّا صِدْقًا**»(١٥).

لا يوجد عبد قط صدق مع الله فخذله.

اصدق مع ربك في طلب مرضاته يوفقك لمرضاته، وتذكر: إن تصدق الله يصدقك.

---

(١٤) أخرجه مسلم (١٩٠٥).

(١٥) أخرجه البخاري (٤٤١٨).



فِيمَ نَجَوْنَا الْيَوْمَ وَهَلَكُوا؟



واحد بالمائة فقط هم أهل النجاة يوم القيامة.

يقول النبي ﷺ: «**يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ، قَالَ: وَمَا بَعْثُ النَّارِ؟، قَالَ: مِنْ كُلِّ أَلْفٍ تِسْعَ مِائَةٍ وَتِسْعَةً وَتِسْعِينَ**»(١٦).

أمر تشيب له الرؤوس، ورب الكعبة.

عندما يُنصب الجسر على جهنم، وعليه كلاليب وخطاطيف، ويؤمر الناس بالمرور.

حتما سترد عليه، لكن هل ستنجو؟

عندما يمر الناس ينقسمون إلا ثلاث فرق:

فَنَاجٍ مُسَلَّمٌ، وَمَخْدُوشٌ مُكَلَّمٌ، وَمَكْدُوسٌ فِي النَّارِ. هكذا قال النبي ﷺ(١٧).

ناج سلّمه الله من أذى الخطاطيف والكلاليب وحر جهنم.

وناج، لكنه مخدوش، ضربته الكلاليب والخطاطيف، وأصابه لفح النار، لكنه لم يسقط.

وآخر سقط في نار جهنم.

حتى أن آخر من ينجو، يقف عند آخر الصراط، بعد أن لفحته النار، ينظر إلى النار تحطم الناس، يقول: «**تَبَارَكَ الَّذِي نَجَّانِي مِنْكِ، لَقَدْ أَعْطَانِي اللهُ شَيْئًا مَا أَعْطَاهُ أَحَدًا مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ**»(١٨).

يقف الناجون من أهل الإيمان على الناحية الأخرى، فإذا كثير من إخوانهم سقطوا، يعرفونهم.

يأتون ربهم يكلمونه في إخوانهم، يقولون: «أَيْ رَبِّ كُنَّا نَغْزُو جَمِيعًا، وَنَحُجُّ جَمِيعًا، وَنَعْتَمِرُ جَمِيعًا، فِيمَ نَجَوْنَا الْيَوْمَ وَهَلَكُوا؟»(١٩).

هؤلاء الناجون كيف نجوا؟

وهؤلاء المكلومون بجراحهم لماذا طعنتهم الكلاليب؟

وهؤلاء الذين سقطوا في الجحيم كيف سقطوا؟

سبب النجاة الأوحد يوم القيامة: من كان تقيا.

---

(١٦) أخرجه البخاري (٣٣٤٨)، ومسلم (٢٢٢).

(١٧) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).

(١٨) أخرجه مسلم (١٨٧).

(١٩) أخرجه أحمد في «**مسنده**» (١١١٢٧)، وإسناده صحيح.



هذا الذي وقر حب الله وتعظيمه والخوف منه في قلبه، حتى حمله ذلك على أن يتقي عذاب الله.

يقول الله: ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ سورة مريم

قال الله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾ سورة الزمر

هذا الذي تباطئ على الصراط، فلم يسرع، أبطأ به عمله، كان بطيئا في الطاعة في الدنيا، كثير الوقوف، كثير الالتفات، يعوج أحيانا يمينا وشمالا، فضربته الكلاليب وأصابته النار ببعض ذنبه.

وهذا الذي سقط، أسقطه عمله.

يقول النبي ﷺ عن هذه الخطاطيف: «فَتَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ، مِنْهُمُ الْمُوبَقُ بِعَمَلِهِ، وَمِنْهُمُ الْمُخَرْدَلُ، ثُمَّ يَنْجُو»[٢٠].

ذنوب نسيها العبد، ولم ينسها الله، قد توبق العبد يوم القيامة.

ولا سواء بين ناج سليم، وناج لفحته النار، وآخر سقط في الجحيم.

ونحن مساكين، من منا يقوى على النار.

قال الله: ﴿وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾. سورة الأنبياء (٤٦)

يقول النبي ﷺ: «لَيُصِيبَنَّ أَقْوَامًا سَفْعٌ مِنَ النَّارِ، بِذُنُوبٍ أَصَابُوهَا عُقُوبَةً، ثُمَّ يُدْخِلُهُمُ اللهُ الجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ، يُقَالُ لَهُمُ الجَهَنَّمِيُّونَ»[٢١].

لن ينجيك القيامة إلا عملك الصالح هنا في الدنيا.

يوم القيامة سيود المجرم أن ينجو ولو بكل ما يملك، وكل من يعرف، حتى لو كان ولده.

قال الله: ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهَا لَظَى ﴿١٥﴾﴾ سورة المعارج

إنها ثلاثية النجاة، إيمان بالله، وإيمان برسوله، وجهاد في سبيل الله بالنفس والمال.

إن كنت تظن سبيل النجاة غير ذلك فلا تتعب نفسك، ولا تنس أن الناجون يوم القيامة من لفح النار واحد بالمائة.

قال الله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾﴾ سورة الصف

(٢٠) أخرجه البخاري (٦٥٧٣).

(٢١) أخرجه البخاري (٧٤٥٠).

ويخوفونك
وتأتيك الهواجس
ويتهددونك
لكن عند الله الأمن، وبيده الأمان
هو الكافي
هو وحده إن تولاك
يُذهب الخوف من قلبك، فتغشاه السكينة، فتحيا في كنفه آمنا، فكيف لا يُحب

لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ



الخوف، ذاك الشعور الموحش، ذاك الألم الذي يفسد على الإنسان كل نعيم الدنيا، حتى لو كان أنعم أهل الأرض.

الخوف من حدوث ما يؤذي.

الخوف من شرور الخلق، الخوف من الفقر، الخوف من المرض، الخوف من الفشل، الخوف من السقوط من أعين الناس، الخوف من الفراق بين الأحبة، الخوف من الموت.

كل هذه الأقدار المؤلمة يخشى الإنسان وقوعها، يخاف من لحظة الحدوث.

وكلما ترقب الإنسان وقوعها كلما فقد طعم النِّعَم، لذا من كان آمنا ومعه أقل ما يكون من متاع الدنيا كان كأن الدنيا كلها بحذافيرها عنده.

قال النبي ﷺ: «**مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا**»(١).

أما الآمن فهو في سكينة وطمأنينة تسكن القلب فتجعله مطمئنا، فلا يقلق ولا يضطرب ولا يفر.

لكم من الذي بيده الأمن؟

من الذي بيده أن يذهب هذا الخوف من قلبك، ويلقي في قلبك الطمأنينة والسكينة؟

الله هو المؤمن، بيده الأمن، يؤمّن من شاء بما شاء.

وحده ولا أحد غيره يُذهب المخاوف من قلب عبده فيحيا آمنا، أو يلقي في قلب من يشاء الخوف والرعب فتصبح الحياة له جحيما.

لذا كان النبي ﷺ يدعو فيقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْأَمْنَ يَوْمَ الْخَوْفِ**»(٢).

هو سبحانه يؤمن أولياءه برحمته وفضله، ويلبس أعداءه لباس الخوف بعدله.

قال الله: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾. سورة النور (٥٥)

وقال سبحانه: ﴿وَضَرَبَ اللهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾. سورة النحل (١١٢)

هذا الأمن جعله الله لأهل الإيمان، لأولياءه. قال الله: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. سورة يونس (٦٢)

---

(١) أخرجه الترمذي في «سننه» (٢٣٤٦)، وصححه الشيخ الألباني في «**السلسلة الصحيحة**» (٢٣١٨).

(٢) أخرجه الحاكم في «**المستدرك**» (٤٣٠٨)، بإسناد صحيح..



أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ



الخليل إبراهيم عليه السلام يسعى بكل سبيل كي يدل قومه على الله، يريد أن يبرهن لأبيه وقومه أن هذه الآلهة الباطلة التي خضعوا لها وألّهوها من دون الله محض سراب باطل لا حقيقة له.

ضرب لهم مثالا بهذه الأجرام والكواكب، مبتدئا بالكوكب، ثم القمر، ثم الشمس، وفي كل مرة تظهر الأجرام ثم تذهب وتختفي، فهل يليق بإله أن يأفُل ويغيب.

إن الإنسان يحتاج إلى إله أن يكون سميعا بصيرا لا يغيب عنه، يعلم حال معبوده، يجيبه، يدفع عنه الضر، يأتي له بالخير، فيطمأن وهو عابد له، فأنى يكون هذا المخلوق يذهب ويأتي.

فبين لهم أن ربه وإلهه الحق هو من فطر وأنشأ كل شيء، فطر السموات وما فيها من نجوم وكواكب، وفطر الأرض ومن عليها.

وهنا خوّفه قومه من آلهتهم، من طواغيتهم، فأعلنها لهم صريحة مدوية تصدع القلوب لمن كان قلب، وكيف أخاف ما أشركتم.

يقول الملك: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ سورة الأنعام

أهل الإيمان الذين أيقنوا أن الأمر كله لله، هو وحده من يدبر الأمر، لا شريك له في ذلك.

الحياة والموت بيده، هو وحده يحيي ويميت.

العطاء والمنع بيده، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع.

الرزق بيده، لا يملك خزائن الله أحد إلا الله.

الضر والنفع بيده، فلو اجتمع من في السموات والأرض على نفع عبد بشيء لم يستطيعوا إلا أن أذن الملك، ولو اجتمع من في السموات والأرض على ضر عبد لم يستطيعوا إلا بإذن الملك، فما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها، وفي قبضته وتحت قهره وسلطانه.

الخفض والرفع بيده، لا خافض لمن رفع، ولا رافع لمن خفض.

القبض والبسط بيده، لا قابض لما بسط، ولا باسط لما قبض.



مالك الملك يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء.

حتى قلوب الخلق بيده لا بيد غيره، فهو من يحول القلوب إلى هذا، ويصرفها عن ذاك.

هو المحيط بكل شيء، أحاط بكل شيء علما، أحاط بالناس، كل خلقه في قبضته.

قال الله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ﴾ سورة الإسراء (٦٠).

أيقنوا أن ربهم الذي بيده كل ذلك هو الحي الذي لا يموت، القيوم الذي لا ينام، السميع البصير الشهيد العليم الرقيب لا يعزب عنه مثقال ذرة، القوي المتين القاهر القدير المهيمن المحيط الذي لا يعجزه شيء، الملك الغني الذي له خزائن كل شيء، الرزاق الوهاب المقيت المحسن الكريم المنان فكل عطية منه وحده، البر الرحيم الرحمان وسعت رحمته كل شيء، الذي له كل كمال وجمال، فاطمأنت قلوبهم به.



وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ



كان النبي ﷺ إذا قام من الليل يصلي، يستفتح صلاته بالثناء على ربه، فكان مما يقول: «**لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ**»[٣].

كثيرة هي الأقدار المؤلمة في هذه الحياة، والنفس بطبعها فيها جزع، قليلة الصبر، ما أن يجري على خاطرها توقع البلاء حتى يملأها الهم والحزن.

هذا الخوف من المستقبل الذي أذهب نوم كثير من الناس، أذهبه الله عن أوليائه.

لأنهم يوقنون أن الله لا يأتي إلا بالخير، وأن الشرّ المحض لا يفعله الله.

المؤمن يوقن أن اختيار الله له أفضل وأحسن وأكمل من اختيار العبد لنفسه.

نفسك ظالمة جاهلة عجولة تقصد شهوتها فحسب، فكم من أمر تمناه العبد، وسعى لأجله، وكان شرا له، وكم من أمر كرهه الإنسان، وفرّ منه، وكان محض الخير له.

القصة تبدأ من تصحيح التصورات.

معيار الخير والشر.

خير وشر بالنسبة إلى ماذا؟

تعال لنصحح المعيار.

ما الدنيا؟

مَرَّ النبي ﷺ بِالسُّوقِ، بِجَدْيٍ أَسَكَّ مَيِّتٍ، فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ.

ثُمَّ قَالَ: «**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟**»

فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيْءٍ، وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟

قَالَ: «**أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟**»

قَالُوا: وَاللهِ لَوْ كَانَ حَيًّا، كَانَ عَيْبًا فِيهِ، لِأَنَّهُ أَسَكُّ، فَكَيْفَ وَهُوَ مَيِّتٌ؟

---

(٣) أخرجه مسلم (٧٧١).

فَقَالَ: «**فَوَاللهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ، مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ**»[٤].

عندما تكون الدنيا أهون على الله من هوان هذا الجدي الأسك الميت على أهله، أيعقل حينئذ أن يخاف الإنسان على شيء يصيبه فيها.

الخير الذي تتعلق به قلوب المؤمنين، وتخشى فواته هو خير الآخرة، فإن فات العبد الدنيا كلها فلا يضره إن سلمت له آخرته.

كان النبي ﷺ يحفر الخندق مع أصحابه، لم يذق طعاما منذ ثلاث، ربط الحجر على بطنه من الجوع، البرد شديد، والمشركون على أبواب المدينة، وهو يقول لأصحابه:

اللَّهُمَّ إِنَّهُ لاَ خَيْرَ إِلَّا خَيْرُ الآخِرَهْ... فَبَارِكْ فِي الأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ»[٥].

إن المصاب الذي يقصم الظهور، ويقض المضاجع، هو مصيبة الدين، عندما يصاب المرء في دينه، أو يخشى على دينه.

لذا كان دعاء النبي ﷺ: «**وَلاَ تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا**»[٦].

كل مصيبة لا تكون في دين العبد فليست مصيبة، وكل مشكلة لا تدخل مع العبد قبره فليست مشكلة أصلا.

إن الذي ينبغي أن يقلق العبد ويخاف حدوثه أن يُفتن في دينه، أن تكون الدنيا بلاء عليه في دينه.

يقول أبو الدرداء رضي الله عنه: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – وَنَحْنُ نَذْكُرُ الْفَقْرَ وَنَتَخَوَّفُهُ، فَقَالَ: «**آلْفَقْرَ تَخَافُونَ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُصَبَّنَّ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا صَبًّا حَتَّى لَا يُزِيغَ قَلْبَ أَحَدِكُمْ إِزَاغَةً إِلَّا هِيَهْ، وَايْمُ اللهِ لَقَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى مِثْلِ الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا وَنَهَارُهَا سَوَاءٌ**»[٧]..

لذا وأنت تصلي صلاة الاستخارة تطلب من العليم القدير أن يدلك ويهديك إلى الخير في الأمور، تبدأ بقولك: «اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي..»

قدمت الدين لأنه الأصل، فماذا لو جاءك الغنى وكان وبالا عليك وفتنة لك، أيكون خيرا حينئذ؟

وماذا لو رزقت هذه الزوجة أو هذا الزوجة فأخذت بيدك إلى النار، أيكون خيرا لك؟

وماذا لو أعطاك الله الولد فكان فتنة لك، فكم ممن فتنه حبه لولده، حمله ذلك على أكل الحرام فهلك، أكان الولد حينئذ خيرا لك؟

(٤) أخرجه مسلم (٢٩٥٧).

(٥) أخرجه البخاري (٢٨٣٥)، ومسلم (٥٢٤).

(٦) أخرجه الترمذي في «سننه» (٣٥٠٢)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٧٨٣).

(٧) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (٥)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٥).



وماذا لو أعطاك الله هذا المنصب وهذا الجاه وهذا السلطان، فكان سبب طغيانك وظلمك الخلق، أيكون حينئذ خيرا لك؟

وماذا وماذا.. كثيرة هي الأمنيات التي يسعى الإنسان إليها بجهده، فإن لم تحدث ظل يتشاءم ويصيبه الهم والحزن، وما هو إلا محض فضل الله عليه.

قال الله تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾. سورة الإسراء (١١)

يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَيُرِيدُ الْأَمْرَ مِنَ الْإِمَارَةِ، أَوِ التِّجَارَةِ، فَيَذْكُرُهُ اللهُ فِي سَبْعِ سَمَاوَاتٍ، فَيَقُولُ لِلْمَلَكِ: اصْرِفْهُ عَنْهُ، فَإِنِّي إِنْ أُيَسِّرْهُ لَهُ أَدْخَلَهُ بِهِ النَّارَ قَالَ: فَيَتَظَنَّى بِجِيرَانِهِ، أَيُّهُمْ دَهَانِي؟ أَيُّهُمْ فَعَلَ بِي؟ وَمَا صَرَفَهُ عَنْهُ إِلَّا اللهُ**»[٨].

بل ليس الأمر في فوات دنيا كنت تريد تحصيلها، بل تكون العقوبات من الله لعبده في الدنيا من مرض وفقر وفقد وتسلط ظالم واتهام جائر وغير ذلك خيرا للعبد.

يقول النبي ﷺ: «**إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[٩].

حتى الحياة والموت، أنت لا تدري أي شيء خير لك، أهو أن يطول بقاؤك، أم أن يعجل الله موتك، لذا كان ﷺ فيقول: «**لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ مِنْ ضُرٍّ أَصَابَهُ، فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ فَاعِلًا، فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي**»[١٠].

عندما تنظر إلى الأمر بهذه الصورة، ستحب اختيار الله لك، وتسأله دائما أن يجعل كل قضاء قضاه لك خيرا.

وهذه أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، يعلمها النبي ﷺ دعاء تدعو الله به، أن تقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنَ الْخَيْرِ كُلِّهِ، عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّرِّ كُلِّهِ، عَاجِلِهِ وَآجِلِهِ، مَا عَلِمْتُ مِنْهُ وَمَا لَمْ أَعْلَمْ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ مَا سَأَلَكَ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا عَاذَ بِهِ عَبْدُكَ وَنَبِيُّكَ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قَرَّبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ، وَأَسْأَلُكَ أَنْ تَجْعَلَ كُلَّ قَضَاءٍ قَضَيْتَهُ لِي خَيْرًا**»[١١].

إن العبد المحب لربه، يكون الأحب إلى قلبه الأحب إلى ربه.

يقول الحسن البصري رحمه الله: «**وَجِعَ عِمْرَانُ بْنُ الْحُصَيْنِ وَجَعًا كَأَنَّهُ يَعْرِفُ الْمَنِيَّةَ، فَقَالَ لَهُ بَعْضُ مَنْ يَأْتِيهُ: لَقَدْ كَادَ يَمْنَعُنَا مَا نَرَى، فَقَالَ: «لَا تَفْعَلُوا، فَوَاللهِ إِنَّ أَحَبَّهُ إِلَيَّ أَحَبُّهُ إِلَى رَبِّي**»[١٢].

---

(٨) أخرجه أبو داود في «**الزهد**» (١٨١)، والدارمي في «**الرد على الجهمية**» (٨٠)، وإسناده صحيح..

(٩) أخرجه الترمذي (٢٣٩٦)، وحسنه الشيخ الألباني في «**السلسلة الصحيحة**» (١٢٢٠).

(١٠) أخرجه البخاري (٥٦٧١)، ومسلم (٢٦٨٠).

(١١) أخرجه ابن ماجه في «**سننه**» (٣٨٤٦)، وصححه الشيخ الألباني في «**السلسلة الصحيحة**» (١٥٤٢).

(١٢) أخرجه الطبراني في «**المعجم الكبير**» (١٨/ ١٠٤)، وإسناده صحيح.

اجعلها عنوان حياتك لتستريح من عناء الهموم، حتى تعيش آمنا من المخاوف.

« أَحَبَّهُ إِلَيَّ أَحَبَّهُ إِلَى رَبِّي».

اجْتَمَعَ وُهَيْبُ بْنُ الْوَرْدِ، وَسُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، وَيُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ. فَقَالَ الثَّوْرِيُّ: قَدْ كُنْتُ أَكْرَهُ مَوْتَ الْفُجَاءَةِ قَبْلَ الْيَوْمِ. وَأَمَّا الْيَوْمَ: فَوَدِدْتُ أَنِّي مَيِّتٌ.

فَقَالَ لَهُ يُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ: وَلِمَ؟ فَقَالَ: لِمَا أَتَخَوَّفُ مِنَ الْفِتْنَةِ.

فَقَالَ يُوسُفُ: لَكِنِّي لَا أَكْرَهُ طُولَ الْبَقَاءِ.

فَقَالَ الثَّوْرِيُّ: وَلِمَ تَكْرَهُ الْمَوْتَ؟

قَالَ: لَعَلِّي أُصَادِفُ يَوْمًا أَتُوبُ فِيهِ وَأَعْمَلُ صَالِحًا.

فَقِيلَ لِوُهَيْبٍ: أَيُّ شَيْءٍ تَقُولُ أَنْتَ؟

فَقَالَ: أَنَا لَا أَخْتَارُ شَيْئًا، أَحَبُّ ذَلِكَ إِلَيَّ أَحَبُّهُ إِلَى اللهِ.

فَقَبَّلَ الثَّوْرِيُّ بَيْنَ عَيْنَيْهِ. وَقَالَ: رُوحَانِيَّةٌ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ[١٣].

بهذا القلب المحب يرضى العبد عن أقدار الله.

يبيت مطمئنا، يحيا هادئا دون مهدئات دوائية.

كل قضاء الله له خير، وليس ذلك إلا للمؤمن.

يقول صهيب رضي الله عنه: «**بَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَاعِدٌ مَعَ أَصْحَابِهِ إِذْ ضَحِكَ فَقَالَ: «أَلَا تَسْأَلُونِي مِمَّ أَضْحَكُ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمِمَّ تَضْحَكُ؟ قَالَ: «عَجِبْتُ لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، إِنْ أَصَابَهُ مَا يُحِبُّ، حَمِدَ اللهَ وَكَانَ لَهُ خَيْرٌ، وَإِنْ أَصَابَهُ مَا يَكْرَهُ فَصَبَرَ، كَانَ لَهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ أَمْرُهُ كُلُّهُ لَهُ خَيْرٌ إِلَّا الْمُؤْمِنُ**»[١٤].

---

(١٣) أورده ابن القيم في «**مدارج السالكين**» (٢/ ٢٠٧).

(١٤) أخرجه أحمد في «**مسنده**» (٢٣٩٣٠)، **وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة»** (١٤٧).



وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ



وعند جبل أُحد تخضبت الرمال بالدماء الطاهرة الزكية، هذا الركب المبارك الذين قضوا حياتهم وهم ينافحون عن الله ورسوله ﷺ.

وقف النبي ﷺ يتفقد أصحابه، دمه يسيل من وجهه الشريف، سبعون منهم نالوا شرف الشهادة، وسبعون آخرون جرحى، لا تزال تسيل دماؤهم بعد.

المصاب جلل، والخطب عظيم.

كان أبو سفيان ومن معه من المشركين انطلقوا بعدما انتهى القتال، وعلى بُعد أميال من المدينة يتوقف ركب أهل الجاهلية، يحدث الشيطان تلك النفوس التي أذهب الكفر منها كل خير حتى المروءة، قالوا وهم في غاية الندم: كيف تركناهم وهم بهذه الحال، أفلا عدنا إليهم فنستأصل شأفتهم، ونجهز عليهم، ونقضي على هذا الدين الجديد.

هكذا كانت نزغة الشيطان.

ثم رأوا جمعا من الأعراب متجهين نحو المدينة، فأعطوهم مالا على أن يوصلوا تلك الرسالة إلى النبي ﷺ وأصحابه، مضمونها: أن أبا سفيان قد جمع لكم جموعا، وهو في طريقه إليكم ليستأصل ما تبقى منكم.

يصل الخبر إلى النبي ﷺ وأصحابه، وهم على هذه الحال، لم يدفنوا شهدائهم بعد، وجروحهم تسيل دما، وقلوبهم تعتصر ألما.

إلا أن الله ألقى السكينة في قلوب المؤمنين، زادهم الله إيمانا وثباتا، لم يخافوا، لم يفروا، لم يجبنوا.

بل وقف النبي ﷺ وأصحابه ليقولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل.

إنه الاستكفاء بالله وحده، الثقة بمعية الملك الكبير الأعلى، لن يتخلى عنا، هو نصيرنا، ومولانا، نعم المولى ونعم النصير

يمتطي المؤمنون خيولهم، لا تهمهم جموع المشركين، رغم مصابهم لا يخافون، لا ينتظرون جحافل الشرك لتغزوهم في ديارهم، بل يبادر أحدهم كالليث نحو فريسته، لا تلين لهم قناة.

يصل المؤمنون إلى حمراء الأسد لكن لا يجدوا للمشركين أثرا.

أين هم؟

لقد فرّ أعداء الله، ألقى الله في قلوبهم الرعب بشركهم، دب فيهم الوهن، انطلقوا خائفين مذعورين.

هذا الموقف العظيم، يراه الله جل في علاه، فينزل بشأنه قرآنا يُتلى إلى يوم القيامة.



قال الله: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾﴾ سورة آل عمران

حسبنا الله ونعم الوكيل: أي يكفيني ربي عن كل شيء، وهو نعم من توكلت واعتمد عليه.

إنها ذات الكلمة التى قالها إبراهيم الخليل، يوم أن جمع المشركون نارا عظيمة وقرروا حرق إبراهيم عليه السلام.

فوض إبراهيم أمره إلى ربه، واستكفى به عمن سواه، فقال: حسبنا الله ونعم الوكيل.

يقول عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «**حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ، «قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ» حِينَ قَالُوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا، وَقَالُوا: حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ﴾**»(١٥).

لم ولن تنتهي المعركة بين جند الرحمن وجند الشيطان.

يغرس الله تعالى غرسا في عباده يستعملهم في طاعته، يصنعهم على عينه، يكلؤهم برحمته ورعايته.

ويجمع الشيطان أولياءه، يؤزهم إلى الكفر أزا، سيوحي إليهم أن لا يكفي كفركم ولا فسقكم بل لابد من صد الناس عن دين الله، ولابد من تفسيق الناس حتى يسهل اقتيادهم.

سيؤرقهم أولئك الأطهار، أن كيف يتطهرون ويذروننا في الخبائث، إما أن يتنجسوا مثلنا أو يرحلوا عنا من ديارنا.

سيمكرون ويخططون ويكيدون ليطفئوا نور الله.

يبدأ الأمر بالتهديد والوعيد، يحملون خيارات متعددة.

سنأخذ أموالكم، لكنه في النهاية لن يكون كافيا.

وربما: إما أن تكونوا مثلنا أو اخرجوا عنا، لكن حتى لو تركت لهم ديارهم فلن يكون كافيا.

إذا ما الذي يكفي؟

إسكات صوت الحق، وفقط، بأي وسيلة كانت، طالما لا تريدون الكفر والفسق، فاصمتوا، أو سنصمتكم، بالسجن أو القتل، لا خيار ثالث.

لكن هل سيتخلى المؤمنون عن دينهم، عن دعوتهم، عن إنقاذهم الناس من عبودية الناس كي يعبدوا رب الناس؟

هل سيترك المؤمنون طريقهم لأجل هذه التهدايدات الظالمة، وهذا المكر اللعين، وإن كان مكرهم

---

(١٥) أخرجه البخاري (٤٥٦٣).

لتزول منه الجبال؟

هل يفرون وينعزلون في كهوفهم وجبالهم تاركين لهم تلك الأجيال ليشوهوها ويمسخوها ويبدلوا دينها؟

المؤمن لا يفر.

المؤمن لا يخشى إلا الله.

المؤمن يستنصر بربه ومولاه، يتوكل عليه، يكتفي به.

أنت ضعيف، وعدوك يملك أسباب القوة، سجله حافل في البطش والتنكيل والتعذيب.

على مدار التاريخ سُجن مئات الآلاف من أولياء الله.

هُجّر ملايين من بلادهم وديارهم.

قُتل في هذا الطريق أنبياء كُثر.

حُرق أصحاب الأخدود.

نُشر بالمنشار زكريا، وذبح لأجله يحيى، وألقي في النار إبراهيم.

ومع كل ذلك كيف استمر الركب المبارك، كيف لم يهنوا ويضعفوا ويتركوا طريقهم؟

إنه الاستكفاء بالله وحده.

لماذا الاستكفاء بالله؟

قال الله: ﴿أَلَيْسَ الله بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾. سورة الزمر (٣٦)

هذه هي العلة: ويخوفونك بالذين من دونه.

عندما يوقن القلب أنه الله هو العظيم الذي لا أعظم منه، القوي الذي لا أقوى منه، الكبير الذي لا أكبر منه.

عندما يوقن القلب أن نواصي جميع الخلق بيده وحده.

عندما يوقن القلب أنه لا يحدث شيء البتة إلا بإذنه، هو النافع الضار، المعز المذل، القابض الباسط، الخافض الرافع.

عندما يوقن القلب: ﴿قُل لَن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ الله لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾. سورة التوبة (٥١)

عندما يوقن القلب بعظيم إحاطته سبحانه، وعلمه بمكر الماكرين وكيد الكائدين.

عندما يوقن القلب أن الأمور يدبرها الله وحده، والكون كله ملكه وفي يده.

عندما يوقن القلب أن الله هو من يكف بأس وشر الفجار، وهو من يسلطهم إذا شاء.



عندما يوقن القلب أن مركب النجاة يسيره الله برحمته، ولا تستطيع أعاصير الكفر والضلال أن تغرقه إذا شاء الله نجاته.

عندما يوقن القلب أنهم مهما مكروا فعند الله مكرهم، ومهما مكروا فإنه يمكر بهم، وكما يكيدون فإنه يكيد، وسيجعل كيدهم في تضليل.

حينئذ سيكون التفويض والتوكل والثقة في الله وبالله وحده.

من كان الله معه فمن عليه، ومن يتوكل على الله فهو حسبه وكافيه.

معك الركن الشديد، القهار الذي لا يُغلب، فأنى لك الخوف.

قال الله: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ﴾. سورة المائدة (٣)

قال الله: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾. سورة المائدة (٣٤)

استشعار معية الملك جل جلاله، وتأييده، وسمعه وبصره، وعظيم علمه، وقوة بطشه بالمجرمين، يقوي عزمك، ويذهب الوهن والخور والجبن من قلبك.

إن أولئك الذين يفرون وينتكسون ويبدلون عن أول تهديد ووعيد من جند الشيطان لم يقدروا الله حق قدره، ولم يعظم في صدورهم، ولم يكبروا الله بعد حق التكبير.

إليك نبأ عجب:

خرج الملك الصالح نجم الدين أيوب سلطان مصر في ذاك الزمان يوم عيد في أُبهة عظيمة، حوله عساكره، والناس حوله، هذا يقبل يده، وهذا يطأطأ رأسه، وهذا يتذلف نحوه، وهذا يتملقه.

رأى ذاك المنظر الشيخ العز بن عبد السلام ﷺ تعالى، فقال له بصوت عال يناديه:

يا أيوب ما حجتك عند الله إذا قال لك ألم أبوئ لك ملك مصر ثم تبيح الخمور؟

فقال السلطان: هل جرى هذا؟

فقال الشيخ: نعم الحانة الفلانية يباع فيها الخمور وغيرها من المنكرات وأنت تتقلب في نعمة هذه المملكة.

فقال: يا سيدي هذا أنا ما عملته، هذا من زمان أبي.

فقال الشيخ: أنت من الذين يقولون » إنا وجدنا آباءنا على أمة «؟.

فأصدر السلطان أمرا بغلق هذه الحانة، ومنع بيع الخمر.

ثم عاد الشيخ إلى بيته، لقيه تلميذه الإمام الباجي بعد أن شاع الخبر في الناس، فقال له: يا سيدي أما خفته؟



فقال الشيخ: والله يا بني استحضرت هيبة الله تعالى فصار السلطان قدامي كالقط»[١٦].

هذه هي الخلاصة: استحضرت هيبة الله تعالى فصار السلطان قدامي كالقط.

إذا حضرت هيبة الله في قلبك، سيعظم عندك ويكبر في قلبك، ويصغر كل من سواه.

سيأتيك الشيطان يعظم أولياءه في صدرك حتى تخشاهم وتخافهم دون الله.

قال الله: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾. سورة آل عمران (١٧٥)

طالما ظن القلب أن غير الله له ذرة مُلك سيضعف القلب.

حياتك وموتك بيد الله وحده، هو من يتوفى الأنفس، هو من قدّر الآجال.

أولئك الذين جبنوا ودبّ في قلوبهم الوهن خوفا من الموت، ألم يعلموا أن الجبن وترك النزال لا يؤخر الموت، وأن الشجاعة والإقدام لا يعجل حتف النفوس

ها هو خالد بن الوليد رضي الله عنه، لما حضرته الوفاة: «**لَقَدْ حَضَرْت كَذَا وَكَذَا صَفًّا وَأَنَّ بِبَدَنِي بِضْعًا وَثَمَانِينَ مَا بَيْنَ ضَرْبَةٍ بِسَيْفٍ وَطَعْنَةٍ بِرُمْحٍ وَرَمْيَةٍ بِسَهْمٍ. وهأنذا أَمُوتُ عَلَى فِرَاشِي كَمَا يَمُوتُ الْعِيرُ. فَلَا نَامَتْ أَعْيُنُ الْجُبَنَاءِ**»[١٧].

عندما توقن أنّ روحك بيد الله، وأن من كُتب عليه قتلة رآها ولو كان في قعر بيته، حينئذ لن تخشى إلا الله.

هؤلاء الذين كانوا يتمنون الجهاد في سبيل الله لما كُتب عليهم القتال تلكأوا وتثاقلوا، حتى قالوا: ربنا لما كتبت علينا القتال.

قصّ الله علينا نبأهم فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾

لذا لما ندم المنافقون على خروجهم يوم أحد، قالوا لو لم نخرج لما وقع فينا القتل، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾. سورة آل عمران (١٥٤)

فمن كُتب عليه القتل سيخرج إليه رغم أنفه، فلماذا الخوف إذا؟

قل لهذا القلب: اطمئن فإن الأمور تجري بقدر الله لا بقدر أحد، هو من يقّدر المقادير، رفع القلم وجفت الصحف.

---

(١٦) نقله السبكي في «**طبقات الشافعية**» (٨/ ٢١٢).

(١٧) أخرجه الدينوري في «**المجالسة**» (٨٣٦).

القصة كلها في أن يكون الله معك، أن تحظى بمعية الملك، حينئذ كل شيء لا شيء، تصير المخاوف أمانا.

موسى وهارون عليهما السلام أمرهما الله بالذهاب إلى الطاغية فرعون، وما أدراك ما فرعون؟

حينئذ قالا كما قال الله: ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾. سورة طه (٤٥)

فطمأن الله قلوبهما: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾. سورة طه(٤٦)

استحضار معية الملك يغمر قلبك بالسكينة.

يكمل موسى مسيرته، وبلتقي بجند الطاغية، جمع فرعون السحرة، ألقوا حبالهم وعصيهم فخيّل لموسى أنها تسعى، هنا لا يزال في نفسه بقية خوف، لكنه كاد أن يزول، طمأنه الله ثانية: لا تخف، ستُنصر، أنت الأعلى.

قال الله: ﴿قَالُوا يَامُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ (٦٨) طه

ثم كانت الثالثة، حيث جمع الفرعون جنوده من كل مكان، تعبئة تامة، أصدر قراره بقتل موسى ومن معه، يُعلم الله موسى بالأمر ويأمره بالخروج ببني إسرائيل، ويمضي ركب الإيمان، لكن كادت جنود الشيطان أن تلحق، وفجأة يرى المؤمنون جموعا هادرة سلت سيوف البطش تريد الفتك بالمؤمنين، ومن أمامهم بحر عظيم، إنه الموت إما قتلا بيد الزبانية أو غرقا في هذا البحر الخضم، فصاحوا: إنا لمدركون.

لكن موسى موقن بأن الله معه، وأنه منجيه، وأن الكون كله بيده.

الله هو من حوّل النار بردا وسلاما على إبراهيم.

الله هو من نجّى نوحا ومن معه وسط أمواج متلاطمة كالجبال.

الله هو من نجى يوسف من البئر، وحفظ يونس في بطن الحوت.

فقالها موسى تملأ قلبه: كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ

فقال الله: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (٦٣) وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ (٦٤) وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (٦٥) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٦٦)﴾ سورة الشعراء

هكذا: ينفلق البحر، وتحدث النجاة، بل لا يرضى الكريم حتى أن تبتل أرجلهم، فيجعل أرض البحر يبسا.

قال الله: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾. سورة طه (٧٧)

ويمضي ركب الإيمان....

كن منهم فحسب، والله يكفيك.



فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ



في مشهد مهيب يصرخ الملك الذي لبس ثوب الربوبية باطلا وزورا، قائلا لهذا الغلام بعد كل مرة يريد قتله فيفشل هو وجنوده، فشل في البر والبحر.

قال وقد كاد يموت غيظا: مَا فَعَلَ أَصْحَابُكَ؟

قَالَ الغلام: كَفَانِيهِمُ اللهُ.

ثم يُكمل الغلام تحديه ليثبت للناس جميعا أن هذا الملك طاغوت باطل، لا حقيقة له.

فقال الغلام: إِنَّكَ لَسْتَ بِقَاتِلِي حَتَّى تَفْعَلَ مَا آمُرُكَ بِهِ.

قَالَ: وَمَا هُوَ؟

هنا ظهر جليا إفلاس الطاغية، فهو بجنوده وملكه وسلطانه لا يقدر على نزع روح غلام.

قَالَ الغلام: تَجْمَعُ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَتَصْلُبُنِي عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ خُذْ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِي، ثُمَّ ضَعِ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قُلْ: بِاسْمِ اللهِ رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ ارْمِنِي، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ قَتَلْتَنِي.

استجاب الملك فَجَمَعَ النَّاسَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، وَصَلَبَهُ عَلَى جِذْعٍ، ثُمَّ أَخَذَ سَهْمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثُمَّ وَضَعَ السَّهْمَ فِي كَبِدِ الْقَوْسِ، ثُمَّ قَالَ: بِاسْمِ اللهِ، رَبِّ الْغُلَامِ، ثُمَّ رَمَاهُ فَوَقَعَ السَّهْمُ فِي صُدْغِهِ، فَوَضَعَ يَدَهُ فِي صُدْغِهِ فِي مَوْضِعِ السَّهْمِ فَمَاتَ.

وهنا قَالَ النَّاسُ: آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ، آمَنَّا بِرَبِّ الْغُلَامِ»[١٨].

كفانيهم الله، ويستمر ركب الإيمان...

يخرج النبي ﷺ من مكة مهاجرا ومعه صاحبه الصديق، ترك لهم مكة، أراد أن يقيم دينه في موطن آخر، ومع ذلك لم يهدأ مشركوا قريش، لابد أن يصمت النبي ﷺ عن دعوته ويتخلى عن طريقه، فينذرون الأموال لمن يأتي برسول الله ﷺ مقتولا أو غير ذلك.

يخرج المشركون في طلبهم، حتى كاد سراقة بن مالك أن يدرك رسول الله ﷺ.

وهنا يقول النبي ﷺ: «**اللهُمَّ اكْفِنَاهُ بِمَا شِئْتَ**».

الله الكافي، يكفيك كل شيء بما شاء كيفما شاء.

---

(١٨) أخرجه مسلم (٣٠٠٥).





وفجأة تسيخ أقدام الفرس في الأرض حتى سقط عنها، ثم يعود ويتمطي جواده يريد أن يدرك، لكنه يسقط ويسقط، هنا أدرك سراقة أنّ هذا ليس صنع بشر، فينادي على رسول الله ﷺ: «**يَا مُحَمَّدُ، قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ هَذَا عَمَلُكَ، فَادْعُ اللهَ أَنْ يُنْجِّيَنِي مِمَّا أَنَا فِيهِ، فَوَاللهِ لَأُعَمِّيَنَّ عَلَى مَنْ وَرَائِي مِنَ الطَّلَبِ**»[19].

يمضي رسول الله ﷺ في طريقه حتى أوى إلى غار، وفجأة يصل الفجار الكفار إلى الغار، وهنا يخشى الصديق على رسول الله من أذى المجرمين، فيقول مشفقا: «يَا رَسُولَ اللهِ لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ أَبْصَرَنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ.

فيطمئنه النبي ﷺ: «**يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا**»[20].

تمضي الأيام ويدعو النبي ﷺ الصحابة لقتال الروم، ومأ أدراك ما الروم يومئذ.

إنه يندبهم لغزو الروم، فالقصة ليست دفاعا عن المدينة، وإنما حمل أمانة هذا الدين إلى العالمين.

وكأن بعض الناس تباطئوا، فعاتبهم الله جميعا إلا أبا بكر، وذكرهم بهذا اليوم، يوم الهجرة، حيث كانت معيته لنبيه ﷺ وصاحبه، حيث أنزل الله سكينته، حيث أعلى الله وسيعلي دينه ولو كره الكافرون.

قال الله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ سورة التوبة.

ينام النبي ﷺ في ظل شجرة، يعلق عليها سيفه، يأتي رجل من المشركين، وعلى حين غفلة، يأخذ سيف النبي ﷺ، ويشهر السيف في وجه النبي ﷺ، ثم يوقظه قائلا: من يمنعك مني، من يمنعك مني، من يمنعك مني؟

فيقول النبي ﷺ: **الله**.

يسقط السيف من يد الرجل، ثم يأخذه النبي ﷺ، ثم يقول للرجل: وأنت من يمنعك مني؟

فيقول الرجل: كُنْ خَيْرَ آخِذٍ. فيعفو عنه رسول الله ﷺ[21].

الله يعصم عبده من الناس، يعيذه من شر كل ذي شر، يكفيه بما شاء، فقط إن حقق العبودية.

---

(١٩) أخرجه مسلم (٢٠٠٩)، وأحمد في «**مسنده**» (٣).
(٢٠) أخرجه البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١).
(٢١) أخرجه البخاري (٢٩١٠)، ومسلم (٨٤٣).



على قدر العبودية تكون الكفاية، وعلى قدر الاستسلام تكون الرعاية.

قال الله: ﴿أَلَيْسَ الله بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾. سورة الزمر (٣٧)

فتوكلك على الله، ويقينك بكفايته، سيجعل قلبك أقوى ما يكون، فلا يناله جبن ولا خور.

وهذا حال الأنبياء الذين بلغوا دين الله رغم كل هذا الكم الرهيب من الأذى.

قال الله : ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾. سورة الأحزاب (٣٩)

كن مثلهم يا عبد الله، ليكن حسبك الله، لتكن كفايتك بربك، واعلم أن إيمانك وقولك الحق لن يقرب أجلك ولن يباعد عنك رزقك.

قال النبي ﷺ: «لَا يَمْنَعَنَّ أَحَدَكُمْ مَخَافَةُ النَّاسِ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِالْحَقِّ إِذَا رَآهُ وَعَلِمَهُ، أَوْ رَآهُ وَسَمِعَهُ، فَإِنَّهُ لَا يُقَرِّبُ مِنْ أَجَلٍ، وَلَا يُبَاعِدُ مِنْ رِزْقٍ، أَنْ يَقُولَ بِحَقٍّ أَوْ يُذَكِّرَ بِعَظِيمٍ»[٢٢].

(٢٢) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٢٧٨)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٦٨).

وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ



كانت أول كلمة سمعها النبي ﷺ بعد أن نزل عليه الوحي، عندما أخذته زوجته خديجة إلى ورقة بن نوفل، أن قال له: «**لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ»، قَالَ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ**»[٢٣].

لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي.

ستحدث المواجهة قطعا، ويبعث كلٌّ جنوده.

الشيطان يحشد أولياءه، هؤلاء يشككون في الله ودينه وكتابه وسنة رسوله ﷺ، وهؤلاء يفسّقون الناس ويفسدونهم، وهؤلاء ينشرون الفواحش، وهؤلاء يضللون الخلق، وهؤلاء يرهبون الناس، وهؤلاء يبطشون بطش الجبابرة، غصبا وطردا وسجنا وقتلا.

ورب العالمين يربي أولياءه، لأنه أبى أن ينطفأ نور الهدى، سيقذف الله قذائف الحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق.

سيحدث الصدام، وكلٌّ يبتغي النصير.

سيقول الشيطان لأوليائه: إني جار لكم.

أما الله فيقول: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾. سورة محمد (٣٥)

سيكيد الشيطان، ويكيد أولياء الشيطان، ويجمعون الأموال، ويمكرون مكرا كبارا كادت تزول منه الجبال.

والله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾. سورة آل عمران (١٢٠)

والله تعالى يقول: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾. سورة آل عمران (٥٤)

سيجمعون جنودهم، لكن:

إن كان للشيطان جنودا، فلله جنود السموات والأرض.

قال الله: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾. سورة الفتح (٧)

---

(٢٣) أخرجه البخاري (٣)، ومسلم (١٦٠).





جنود الله لا يعلمها إلا هو، كل خلقه جنوده، حتى ذاك الرجل الفاجر سيرغمه الله على نصر دينه.

قال الله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾. سورة المدثر (٣١)

وقال النبي ﷺ: «وَإِنَّ اللهَ لَيُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الفَاجِرِ»[٢٤].

أنسيت يوم الأحزاب، بم هزم الله أعداءه، ريح، وانتهى الأمر، ألقى في قلوبهم الرعب، ففروا فرار النعاج.

قال الله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ الله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾. سورة الأحزاب (٩)

وإن بعث الشيطان وأولياؤه جيوشهم، فإن الله يبعث جيوشه.

إنما فقط أن تبعث أنت نفسك، أن تقوم لله قومة ترضيه، يبعث الله معك جيوشا تؤيدك، ويمدك بمدد من عنده.

قال النبي ﷺ:

«وَإِنَّ اللهَ أَمَرَنِي أَنْ أُحَرِّقَ قُرَيْشًا».

فَقُلْتُ: رَبِّ إِذًا يَثْلَغُوا رَأْسِي فَيَدَعُوهُ خُبْزَةً.

قَالَ: اسْتَخْرِجْهُمْ كَمَا اسْتَخْرَجُوكَ.

وَاغْزُهُمْ نُغْزِكَ، وَأَنْفِقْ فَسَنُنْفِقَ عَلَيْكَ، وَابْعَثْ جَيْشًا نَبْعَثْ خَمْسَةً مِثْلَهُ، وَقَاتِلْ بِمَنْ أَطَاعَكَ مَنْ عَصَاكَ»[٢٥].

وابعث جيشا نبعث خمسة مثله.

في يوم بدر نزلت الملائكة ألوفا تقاتل مع المؤمنين.

قال الله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾. سورة الأنفال (٩)

أوحى الله إليهم: ﴿أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾. سورة الأنفال (١٢)

الله هو النصير، لا ناصر إلا هو، فإن نصر عبده وأيده فهو المنصور، وإن تولى عن عبده فهو مخذول مدحور.

(٢٤) أخرجه البخاري (٣٠٦٢)، ومسلم (١١١).
(٢٥) أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

قال الله: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ الله فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِى يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾. آل عمران (١٦٠)

من ينصرك أيها المؤمن المستضعف من دون الله؟

أتظن أن ركونك للظالمين سيكون لك به العون والنصر؟!

أتظن أن الكلام الذي يحتمل وجوها ترضي به المنافقين وأعداء الدين سيسلم به مالك وعرضك وروحك؟!

لا والله، ليس لك من دون الله من ولي ولا نصير.

قال الله: ﴿أَمَّنْ هَذَا الَّذِى هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ﴾. سورة الملك (٢٠)

قال الله: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾. سورة هود (١١٣)

ألم تسمع ختام الآية: ثم لا تنصرون.

لن يغني عنك أحد من الله شيئا، فكل شيء غير الله عنه عوض، وليس عن الله عوض.

لذا كان النبي ﷺ يدعو ربه فيقول: «**وَانْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ**»(٢٦).

تبرأ من حولك وقتك، واستنصر ربك، فكفى به وليا وكفى به نصيرا.

تبرأ من ذكاءك وفطنتك وعدتك وجمعك، واركن فحسب إلى ربك، كل هذه محض أسباب تأخذ بها لأنه هو من أمرك بذلك، لكن إياك أن يلتفت قلبك إليها، فيقول: لن نهزم اليوم من قلة، فيكلك الله إلى ذلك، وذاك هو الخذلان.

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا غَزَا قَالَ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَضُدِي، وَنَصِيرِي، بِكَ أَحُولُ، وَبِكَ أَصُولُ، وَبِكَ أُقَاتِلُ**»(٢٧).

لذا كان أشجع الناس ﷺ، لم يفر قط، ثبت ثبوت الجبال.

يوم الحديبية يأتيه بديل بن ورقاء مفاوضا عن قريش، فيقول: إِنِّي تَرَكْتُ كَعْبَ بْنَ لُؤَيٍّ، وَعَامِرَ بْنَ لُؤَيٍّ نَزَلُوا أَعْدَادَ مِيَاهِ الحُدَيْبِيَةِ، وَمَعَهُمُ العُوذُ المَطَافِيلُ، وَهُمْ مُقَاتِلُوكَ وَصَادُّوكَ عَنِ البَيْتِ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ، وَلَكِنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِينَ، وَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهَكَتْهُمُ الحَرْبُ، وَأَضَرَّتْ بِهِمْ، فَإِنْ شَاءُوا مَادَدْتُهُمْ مُدَّةً، وَيُخَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ النَّاسِ، فَإِنْ أَظْهَرْ: فَإِنْ شَاءُوا**

(٢٦) أخرجه الترمذي في «سننه» (٣٥٥١)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٨١٦).

(٢٧) أخرجه أبو داود في «سننه» (٢٦٣٢)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح أبي داود» (٢٣٦٦).



أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دَخَلَ فِيهِ النَّاسُ فَعَلُوا، وَإِلَّا فَقَدْ جَمُّوا، وَإِنْ هُمْ أَبَوْا، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأُقَاتِلَنَّهُمْ عَلَى أَمْرِي هَذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِي، وَلَيُنْفِذَنَّ الله أَمْرَهُ»[٢٨].

حتى تنفرد سالفتي، حتى لو زالت عنقي فإني لن أفر.

يوم حنين أخذ يجول بين الناس ينادي عليهم: «**أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب**»

يقول البراء بن عازب ﷺ: كُنَّا وَالله إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ نَتَّقِي بِهِ، وَإِنَّ الشُّجَاعَ مِنَّا لَلَّذِي يُحَاذِي بِهِ، يَعْنِي النَّبِيَّ ﷺ»[٢٩].

ثم انصر دين الله ما استطعت، ولا يهولنك جموعهم، ولا يفت عزمك بأسهم، فالله أشد بأسا وأشد تنكيلا.

قال الله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾. سورة محمد (٧)

انصر دين الله الذي أنزله، وإن كرهوه.

وإن ساوموك عليه لتبدله، فقل لهم: ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي.

إياك وأهوائهم، سيحول الحق بينهم وبين أهوائهم، إنها ليست شريعتك إنما هي شريعة الله، فبلغ ما أنزل الله، لا ما أراد الناس، والله سيعصمك من الناس.

قال الله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالله وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ سورة الجاثية

ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ الله لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ.

في خضم الملاحاة والتدافع بين الحق والباطل، قد يكون للباطل يوما جولة، يصول فيها ويجول.

تدول الأيام، وفي إحدى فصول المعركة ينتفش الباطل، وتنكسر شوكة أهل الحق شيئا ما، لكن لا ينطفأ نور الله.

سيكون للباطل جولة ثم يضمحل، وللحق دولة لا تذل ولا تقل.

وهنا قد يستبطأ بعض المؤمنين نصر الله حتى يقول قائلهم: متى نصر الله؟

قال الله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾. سورة البقرة (٢١٤)

(٢٨) أخرجه البخاري (٢٧٣١).
(٢٩) أخرجه مسلم (١٧٧٦).



وعندما ينهزم المسلمون يتساءل أحدهم: أنى هذا؟

الله يُحمد على جميع أفعاله، لا يُسأل عما يفعل وهم يسألون، ومع ذلك فقد نبأنا الله طيفا من حكمته في ذلك:

أولا: الله هو من يسّلط من يشاء على من يشاء، وهو من يكف يد من شاء عمن يشاء.

قال الله: ﴿وَلَوْ شَاءَ الله لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ﴾. سورة النساء (٩٠)

وقال الله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾. سورة المائدة (١١)

إن هؤلاء جميعا لا يعجزون ربك، ولا يفوتونه، بل هم في قبضة الملك، يسلطهم إذا شاء، ويكفهم إذا شاء.

قال الملك: «وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾. سورة الأنفال (٥٩)

لكن هو محض ابتلاء بذنوب أهل الإيمان، فما دال الكفار يوما على المسلمين إلا بما كسبت أيدينا ويعفو ربنا عن كثير، فيقدر الله ذلك يبتلي بعضنا ببعض، فيتوب المسيء، ويرجع العاصي، وتظهر من أهل الإيمان عبوديات ما كانت لتظهر إلا في مثل هذه المواطن.

قال الله: ﴿ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ الله لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ﴾. سورة محمد (٤)

لو شاء الله لأهلكهم جميعا، ولكن حتمية البلاء.

في غزوة أحد حدث ما حدث، تسائل المؤمنون بعد المعركة أنى ذلك؟ من أين أوتينا؟

قال الله: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. سورة آل عمران (١٦٥)

ومع ذلك كانت حكم الله التي لا يحصيها أحد هي محض الخير للمؤمنين.

فمن ذلك: تمحيص القلوب، وإظهار ما في النفوس، حتى يتعلم المؤمنون، فيعرفوا موطن الداء، فلا يخذلون بعد ذلك.

قال الله: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ الله وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾. آل عمران (١٥٢)

يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «**مَا كُنْتُ أَرَى أَنَّ أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يُرِيدُ الدُّنْيَا، حَتَّى نَزَلَتْ فِينَا يَوْمَ أُحُدٍ: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا، وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]**»[٣٠].

(٣٠) أخرجه الطبراني في «**المعجم الأوسط**» (١٣٩٩)، وله طرق أخرى، فهو حسن لغيره ان شاء الله..



يظل أحدنا طيلة عمره معجبا بنفسه، لا يرى عيوبه، فإذا امتُحن بان الخلل والعطب، فإن كان صادقا أقبل على ربه فسأله تطهير نفسه وتزكيتها، ولو شاء الله لتركه حتى تخذله نفسه أحوج ما يكون إليها.

هؤلاء الذين فروا عن رسول الله ﷺ يوم أحد، وكذلك كل مؤمن يفر من أمام عدوه ولا يثبت إنما أُتي من قبل نفسه، خذلته ذنوبه.

قال الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾. سورة آل عمران (١٥٥)

انظر إلى هذه الأمة من بني إسرائيل التي ذاقت الذل، حتى أخذ الكفار أرضهم، ووقع أبناؤهم في السبي.

انظر إليهم يوم أن جاءوا لنبي لهم حتى يبعث معهم ملكا يقاتلون معه في سبيل الله.

ما أسهل الدعاوى، كلٌ يدعي الإخلاص، وكلٌ يدعي التجرد، وكلٌ يدعي أنه يفعل ما يفعل في سبيل الله، فيبعث الله الفتن لتكشف عما في القلوب.

قال الله: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ الله الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝٣﴾ سورة العنكبوت

يوم أن جاءوا لنبيهم يقولون: ﴿ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. سورة البقرة (٢٤٦)

كانوا يومئذ مائة ألف رجل، كلهم يدّعي أنه يريد القتال في سبيل الله.

لكن لم يثبت أمام جالوت وجنوده إلا ٣١٤ رجل فقط، النسبة مرعبة، لا تتجاوز نصف بالمائة.

لماذا سقط هؤلاء جميعا، ولم يثبت إلا هذا النذر اليسير؟

جاءت الفتن ترقق بعضها بعضا.

يوم أن قال لهم نبيهم: «إِنَّ اللهَّ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا». **اعترضوا وتبجحوا، مع أنه قال: إن الله قد بعث، ولم يقل أنا من جعلته، ومع ذلك قالوا: «أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ».**

كم في المسلمين من أمثال هؤلاء، ممن يريدون الملك، يريدون التصدر، يريدون الشهرة، يقول في نفسه: أنا خير منه.

ثم جاء الاختبار الثاني: نهر الشهوات

قال الله: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾. سورة البقرة (٢٤٩)



من لم يصبر على رغبات نفسه ستخذله نفسه.

من ضعف أمام شراب ماء لن يثبت عندما تتطاير الرؤوس.

وتأمل حجم الذين سقطوا: فشربوا منه إلا قليلا منهم.

تفضحنا شهواتنا، نظل نبكي على هزائمنا، ولا نبكي حقيقة على هزيمتنا أمام نفوسنا.

ثم جاء الاختبار الثالث، الثبات أمام الأعداء.

قال الله: ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾.

هؤلاء منْ؟

إنهم الذين نجحوا في اختبار النهر، لكنهم لم يتحملوا رؤية جالوت بجنوده، ففروا وجبنوا وآثروا الحياة الدنيا.

فمن الذي ثبت؟

قال الله: ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَالله مَعَ الصَّابِرِينَ ۝٢٤٩ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۝٢٥٠ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ﴾. سورة البقرة

الذين يوقنون أنهم إن ماتوا سيلقون ربهم، الذين يوقنون أن النصر من عند الله وحده، الذين يوقنون أن الله مع الصابرين

يا صديقي: قد تفر يوما من معركة فيغفر الله لك بسابقة لك عنده، أو محض فضله وكرمه، لكن لم ينته الأمر بعد.

ستُدعى مرة أخرى للمواجهة، وربما لو فررت مرة أخرى وتوليت قد تكون العقوبة ألا توبة لك عند الله.

وتأمل هذا الحديث الذي سيترك فيك كلوما إن كان لك قلب.

يقول النبي ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَنْزِلَ الرُّومُ بِالْأَعْمَاقِ أَوْ بِدَابِقٍ، فَيَخْرُجُ إِلَيْهِمْ جَيْشٌ مِنَ الْمَدِينَةِ، مِنْ خِيَارِ أَهْلِ الْأَرْضِ يَوْمَئِذٍ، فَإِذَا تَصَافُّوا، قَالَتِ الرُّومُ: خَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الَّذِينَ سَبَوْا مِنَّا نُقَاتِلْهُمْ، فَيَقُولُ الْمُسْلِمُونَ: لَا، وَالله لَا نُخَلِّي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا، فَيُقَاتِلُونَهُمْ، فَيَنْهَزِمُ ثُلُثٌ لَا يَتُوبُ الله عَلَيْهِمْ أَبَدًا، وَيُقْتَلُ ثُلُثُهُمْ، أَفْضَلُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ الله، وَيَفْتَتِحُ الثُّلُثُ، لَا يُفْتَنُونَ أَبَدًا»[٣١].

هذا الجيش يقول فيه النبي ﷺ: «من خيار أهل الأرض يومئذ»، ومع ذلك ثلثه سيفر، ثلثه

(٣١) أخرجه مسلم (٢٨٩٧).



سيهرب، ثلثه سيتولى، لم يتحملوا أهوال المعركة، فروا حيث وجب عليهم الثبات.

فماذا كانت العقوبة؟

قال: لا يتوب الله عليهم أبدا. أي: لا يوفقون إليها، لا يندمون على فعلتهم أبدا، حتى يلقون الله بكبيرتهم تلك.

ومن تلك الحكم أيضا:

حتى تتمايز الصفوف، فيظهر الطيب ويظهر الخبيث، ويُعرف المؤمن الصادق من المنافق المخادع.

فكم من أدعياء خبثاء في صفوف المؤمنين، يريدون الدنيا، ما خرجوا لله، فيسلط الله هؤلاء على المؤمنين فتتمايز الصفوف، ويمحص الله القلوب.

قال الله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾. سورة آل عمران (١٦٧)

قال الله: ﴿مَا كَانَ الله لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ الله لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾. سورة آل عمران (١٧٩)

كم فينا من هو لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، يتواصل مع المجرمين، يلين لهم القول، يتخذ عندهم يدا يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة، فلو ظل النصر دائما لأهل الإيمان لظل الخبث مختلطا بالطيب، فتكون دولة الباطل فيفصح الجبان المخادع، وتنكشف الأقنعة، وكما قيل الفتن كواشف.

قال الله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ الله الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَالله خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾. سورة التوبة (١٦)

ثم أخرى حسنة جميلة، وهي: «**وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ**». وإليك شيء من جمالها..

وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ



وكأني بذاك الفتى المدلل، يمشي في طرقات مكة، أعطر شباب مكة، يفوح منه أعطر الطيب، يغدو في حُلة جميلة، ويروح في غيرها، تُغدق عليه أمه الأموال، يرفل في أثواب النعيم.

يقذف الله في قلبه نور الإيمان فيسلم، ويكون من السابقين، يكتم إسلامه، لكن..

فجأة يصل خبر إسلامه لأمه، فيوثقونه بالحبال والقيود.

يمنعون عنه الطعام والشراب، حتى تبدل حاله من نعيم الدنيا وبهجتها إلى فقر وجوع.

يحل قيوده ويهاجر إلى الحبشة مع أوائل المهاجرين، يمضي من مكة مع ركب المؤمنين، وفي طريقه لا يملك بعيرا ولا شيئا، حتى ذاك الحذاء الذي يقيه الشوك والحصى، لا يملكه، يمشي حافيا، ولرقته فهو شاب تربى في الترف جعلت تسيل الدماء من قدمه، ولا يقف، بل يمضي، حتى خلع له عامر بن ربيعة حذاءه يؤثره به عليه.

ثم يرجع منها فيبعثه النبي ﷺ إلى المدينة بعد بيعة العقبة.

يرسله النبي ﷺ إلى المدينة يدعو الناس إلى الإسلام، ويعلم المسلمين الجدد القرآن والسنة وأحكام الشريعة.

أتدري من أسلم على يدي مصعب؟

أسمعت عن هذا الشاب الذي اهتز لموته عرش الرحمن [٣٢]، والذي شيع جنازته سبعون ألف ملك [٣٣]، سعد بن معاذ رضي الله عنه، هذا الجبل في صحيفة مصعب بن عمير، أسلم على يديه.

أتعرف محمد بن مسلمة، ذاك الجبل الأشم الذي قال فيه حذيفة رضي الله عنه: **إِنِّي لَأَعْرِفُ رَجُلًا لَا تَضُرُّهُ الْفِتَنُ شَيْئًا**»[٣٤].

أسمعت عن أُسَيد بن حضير، ذاك الذي قرأ القرآن، فدنت الملائكة تستمع تلاوته، فقال له رسول الله ﷺ: «**تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ دَنَتْ لِصَوْتِكَ، وَلَوْ قَرَأْتَ لَأَصْبَحَتْ يَنْظُرُ النَّاسُ إِلَيْهَا، لَا تَتَوَارَى مِنْهُمْ**»[٣٥].

---

(٣٢) أخرجه البخاري (٣٨٠٣).

(٣٣) أخرجه أحمد في «**فضائل الصحابة**» (١٤٩١)، وصححه الشيخ الألباني في «**السلسلة الصحيحة**» (٣٣٤٥).

(٣٤) أخرجه أبو داود في «**سننه**» (٤٦٦٤)، وإسناده صحيح.

(٣٥) أخرجه البخاري (٥٠١٨).



أسمعت عن عباد بن بشر، ذاك الصحابي العابد المجاهد، الذي كان يحرس ليلة في سبيل الله، فوقف يصلي بالليل، فرماه مشرك بسهم، فنزعه وأكمل صلاته، فرماه بسهم آخر فنزعه وأكمل صلاته، فرماه بالثالث، فركع وسجد وأكل صلاته وأيقظ صاحبه، فلما رآه على تلك الحال والدم يسيل، قال له: سُبْحَانَ اللهَّ أَلَا أَنْبَهْتَنِي أَوَّلَ مَا رَمَى، قَالَ: كُنْتَ فِي سُورَةٍ أَقْرَؤُهَا فَلَمْ أُحِبَّ أَنْ أَقْطَعَهَا، وَايْمُ اللهِ لَوْلَا أَنْ أُضَيِّعَ ثَغْرًا أَمَرَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِحِفْظِهِ، لَقَطَعَ نَفْسِي قَبْلَ أَنْ أَقْطَعَهَا»[٣٦].

هذان الجبلان خرجا يوما من عند النبي ﷺ في ليلة مظلمة، فإذا بين يديهما مِثْلُ الْمِصْبَاحَيْنِ يُضِيئَانِ بَيْنَ أَيْدِيهِمَا، فَلَمَّا افْتَرَقَا صَارَ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ، مِنْهُمَا وَاحِدٌ حَتَّى أَتَى أَهْلَهُ»[٣٧].

هؤلاء الكبار جميعا أسلموا على يدي مصعب بن عمير رضي الله عنه، جميعهم في صحيفته يوم القيامة.

ليس هؤلاء فقط، بل يظل يذهب إلى أهل المدينة يدعوهم رجلا رجلا، بيتا بيتا، حتى لم يعد هناك بيت إلا وفيه من آمن بالله ورسوله ﷺ.

يأتي يوم أُحد فيخرج هو وزوجته حمنة رضي الله عنهما.

أما هو فيحمل الراية، وأما زوجته فتسقي العطشى، وتداوي الجرحى.

يوم أُحد يحمل مصعب الراية، لقد حملها دوما بقلبه، وحملها بلسانه وبيانه، واليوم يحملها بيديه، يقاتل بين الصفوف كالليث الغاضب، وكالموج الهادر، لا يقف أمامه أحد، لم يفر، ولم يهتز.

تتقدم جموع المشركين صنديدا بعد صنديد يريدون الفتك برسول الله ﷺ، فيلتف حول النبي ﷺ عصابة من أبطال المؤمنين، كان منهم مصعب رضي الله عنه.

بعد ما انتهى القتال والنزال، يتفقد النبي ﷺ أصحابه.

فإذا البطل مدرج في دماءه، ترجل الفارس، إنه مصعب بن عمير، سقط شهيدا، لا بل ارتقى شهيدا.

لم يجدوا له كفنا إلا ثوبا قصيرا لا يغطي جسده كله، إن غطوا رأسه بدت رجلاه، وإن غطوا رجليه بدى رأسه، فغطوا رأسه ووضعوا على رجله حشائش الإزخر.

إن مصعب رضي الله عنه لم ير عز الإسلام، لم ير بعينه فتح مكة، ولم ير تلك الجموع التي دخلت في دين الله أفواجا، ولم ير تلك الألوف التي وقفت مع النبي ﷺ يوم عرفة، ولم ير فتوح الشام والعراق، ولم يدرك كنوز كسرى وقيصر.

لكن مصعب وأمثاله من الصادقين كانوا ذاك الجسر المتين الذي عبر الإسلام عليه حتى وصل إلى قلوب الخلق في مشارق الأرض ومغاربها.

---

(٣٦) أخرجه أبو داود في «سننه» (١٩٨)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح أبي داود» (١٩٣).
(٣٧) أخرجه البخاري (٤٦٥).



إنهم شهدوا بقلوبهم ودمائهم لهذا الدين أنه الحق الصراح، وأنه نور الله الذي لا ينطفئ ولا يزول.

هؤلاء هم الشهداء الذين يصطفيهم رب العالمين.

قال الله: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾. سورة آل عمران (١٤٠)

أتدري من الشهيد، ولماذا سُمّي بالشهيد؟

إنه ذاك المؤمن الذي آمن بربه ولقاءه كأنه يشهد هذا بعيني قلبه.

إنه ذاك المؤمن الذي يشهد بدمه أنه أحب ربه، وباعه روحه ونفسه، ولم يفر ولم يبدل ولم ينكث.

إنه ذاك المؤمن الذي يأتي يوم القيامة بدمه يفوح منه المسك، يشهد عنه أمام العالمين أنه كان من الصادقين.

هؤلاء الشهداء يصطفيهم رب العالمين، يختارهم عنده، يجتبيهم فيسقيهم شراب الشهادة.

هؤلاء لا يفتنون في قبورهم، ولماذا؟

كفى ببارقة السيوف على رؤوسهم فتنة، حيث رأوا تلك السيوف تبرق فوق رؤوسهم تحصد الأرواح وهم صامدون ثابتون.

كفى بأعواد المشانق عند رؤوسهم فتنة، اقتادهم الجلادون إليها كي يعودوا، كي يغيروا، كي يبدلوا، لكن آثروا ذاك الرداء الأحمر، وذاك الحبل الخشن، وقفوا صامدين ثابتين يهزأون بجلاديهم إلى يوم الدين.

كفى بطلقات الرصاص عند رؤوسهم فتنة.

تطايرت الأشلاء أمام أعينهم، فما ضعفوا وما استكانوا.

وما ضرهم يا عبد الله؟!

يقول النبي ﷺ: «**لِلشَّهِيدِ عِنْدَ اللهِ سِتُّ خِصَالٍ: يُغْفَرُ لَهُ فِي أَوَّلِ دَفْعَةٍ، وَيَرَى مَقْعَدَهُ مِنَ الجَنَّةِ، وَيُجَارُ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَيَأْمَنُ مِنَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ، وَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الوَقَارِ، اليَاقُوتَةُ مِنْهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، وَيُزَوَّجُ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ زَوْجَةً مِنَ الحُورِ العِينِ، وَيُشَفَّعُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَقَارِبِهِ**»[٣٨].

واحدة من هذه الخصال الست تملأ القلب شجاعة وإقداما، فكيف بها جميعا.

(٣٨) أخرجه الترمذي في «سننه» (١٦٦٣)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٢١٣).





إنهم لم يموتوا على الحقيقة بل هم أحياء عند ربهم يرزقون.

قال الله: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ الله مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ سورة آل عمران

ولعلك تسأل: كيف يكونوا أحياءً وقد قُتلوا؟

سأل عن ذلك تلاميذُ عبد الله بن مسعود ﷺ، فأخبرهم أن الصحابة سألوا النبي ﷺ ذات السؤال، فقال لهم:

«أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بِالْعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثُمَّ تَأْوِي إِلَى تِلْكَ الْقَنَادِيلِ، فَاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلَاعَةً»، فَقَالَ: «هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ قَالُوا: أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا، فَفَعَلَ ذَلِكَ بِهِمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا، قَالُوا: يَا رَبِّ، نُرِيدُ أَنْ تَرُدَّ أَرْوَاحَنَا فِي أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِي سَبِيلِكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا»[٣٩].

وكأني بذاك الشعور الذي يسيطر عليك الآن يراود نفسك يقول: ولكن: كيف كان حالهم عند وقع السيوف، وكيف كان حالهم عندما أُزهقت أرواحهم، ماذا فعلوا في تلك الآلام؟

الله الكريم ما كان ليسلم أولياءه، فكان من فضله أنّ من رزقه الشهادة لا يشعر عند الموت من الألم إلا بمقدار مس القرصة

هل قرصك أحد قبل ذلك؟

بالتأكيد: نعم.

فما هو أقصى ألم يمكن أن تشعره من قرصة.

يقول النبي ﷺ: «مَا يَجِدُ الشَّهِيدُ مِنْ مَسِّ القَتْلِ إِلاَّ كَمَا يَجِدُ أَحَدُكُمْ مِنْ مَسِّ القَرْصَةِ»[٤٠].

فمع كل هذا الفضل، وعظيم الثواب، كان الألم كمس القرصة، فلا نامت أعين الجبناء.

---

(٣٩) أخرجه مسلم (١٨٨٧).

(٤٠) أخرجه الترمذي في «سننه» (١٦٦٨)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩٦٠).



وهو الرزاق المُقيت



يسوق لكل خلقه رزقهم وقوتهم
وهو الغني، خزائنه ملأى لا تنفد
وهو الكريم، يده سحاء الليل والنهار، ينفق كيف يشاء
هو وحده إن تولاك يغنيك عمن سواه
ويملأ قلبك غنى، ويسد فقرك، ويجمع عليك شملك،
ويقضي لك دَينك، فكيف لا يُحب

يد فقيرة، وقلب غني



جلس جمعٌ من أصحاب الأموال يوما، وكانت الأوضاع الاقتصادية يومئذ غير مستقرة بنحو كبير، فكانت كلماتهم مليئة بالرعب الذي ملأ قلوبهم حتى نضح على وجوههم وكلامهم، حالة من الفزع والهلع لا مثيل له، يخشون الفقر وضياع أولادهم حتى أنك إن لم تعرفهم تظن أنهم لن يجدوا طعام العشاء، مع أن أقلهم مالا يملك عشرات الملايين، وبعد فترة أصيب أحدهم بالضغط، وآخر بالسكر، كل ذلك من عظم الهموم والخوف من الفقر في المستقبل.

ضع هؤلاء على جانب، وإليك نبأ آخر:

امرأة مسكينة تجاوزت الستين من عمرها، تعيش على معاش لا يتجاوز ٥٠٠ جنيه، تمكث في حجرة على سطح بيت متهالك، التقى بها أحدهم عندما سمع بأمرها أراد أن يساعدها.

يقول: خلال نصف ساعة من الحوار لم تفارق البسمة وجهها، سمعت منها الحمد لله أكثر من خمسين مرة، كأنه ذكر مصاحب لكل جملة، كلما سألتها عن حاجتها تقول بلهجتها: ألف حمد وألف شكر لك يا رب، مستورة والله يا بني، الحمد لله، أحتاج ربنا يختم لي بخير. وانتهى الحوار أنها لا تحتاج غير ذلك أن يختم الله لها بخير.

ما هو الفارق بين الحالتين؟

لماذا خاف أصحاب الملايين الفقر، حتى مرضوا، ولماذا اطمئنت هذه المرأة مع أنها لا تملك من أسباب الحياة شيئا؟

الجواب: أن الفقر والغنى أمر متعلق بالقلوب.

قال النبي ﷺ يوما لأبي ذر الغفاري رضي الله عنه: «**يَا أَبَا ذَرٍّ، أَتَرَى كَثْرَةَ الْمَالِ هُوَ الْغِنَى؟**» **قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ:** «**وَتَرَى أَنَّ قِلَّةَ الْمَالِ هُوَ الْفَقْرُ؟**» **قُلْتُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ:** «**لَيْسَ كَذَلِكَ إِنَّمَا الْغِنَى غِنَى الْقَلْبِ وَالْفَقْرُ فَقْرُ الْقَلْبِ**»[1].

فالغنى حال للقلب يشعر فيه بالاستغناء بما في يده عما ليس في يده.

والفقر حال للقلب يشعر فيه بعدم كفاية ما في يده، فيفتقر إلى ما ليس في يده.

في ذات يوم كان مع النبي ﷺ مالا، فأعطى بعض الناس، ولم يعط آخرين، فعتب عليه بعض الناس، فجمعهم، ثم قال:

(١) أخرجه ابن حبان في «**صحيحه**» (٦٨٥)، وصححه الشيخ الألباني في «**صحيح الترغيب والترهيب**» (٨٢٧)..





« فَـوَاللَّهِ إِنِّي لَأُعْطِي الرَّجُـلَ، وَأَدَعُ الرَّجُـلَ، وَالَّـذِي أَدَعُ أَحَـبُّ إِلَيَّ مِـنَ الَّـذِي أُعْطِي، وَلَكِـنْ أُعْطِي أَقْوَامًـا لِمَـا أَرَى فِي قُلُوبِهِـمْ مِـنَ الجَـزَعِ وَالهَلَـعِ، وَأَكِلُ أَقْوَامًـا إِلَى مَـا جَعَـلَ اللهُ فِي قُلُوبِهِـمْ مِـنَ الغِنَـى وَالخَـيْرِ، فِيهِـمْ عَمْـرُو بْـنُ تَغْلِـبَ»

قال عمرو بن تغلب: فَوَاللَّهِ مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِكَلِمَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حُمْرَ النَّعَمِ»[٢].

سبحان من فاوت بين القلوب، فهذا قلب ملأه الله غنى وخيرا، فلا تراه مادا عينيه إلى متاع الناس.

وهذا قلب امتلأ جزعا وهلعا وفقرا، فتراه فقيرا ولو كان أغنى الناس مالا.

(٢) أخرجه البخاري (٩٢٣).

وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ



وما الذي يُغني قلب المؤمن، حتى يكون مطمئنا تغشاه السكينة؟

إنه الغنى بالله، الغنى بكونه هو رب العالمين، الاستكفاء والاستغناء بتدبيره وما ضمنه لعبده.

يقول النبي ﷺ يقول: «**وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ الله**»[٣].

عندما تستغني بربك عمن سواه، يغنيك سبحانه حتى لا تشعر بفاقة ولا تخشى فقرا قط.

تستغني بربك فتنزل حوائجك به، تتعلق به وحده، حتى تلك الأسباب ستراها أسبابا فقط، فلا تكون ذليلا إلا لله، وتأتي الناس كل الناس وهامتك في السماء، تحيا عزيزا كريما غنيا بربك.

قال النبي ﷺ: «**من أصابته فَاقَةٌ، فأنزلها بالناس؛ لم تُسَدَّ فَاقَتُهُ. ومن أنزلها بالله أوشك الله له بالغنى: إما بِمَوْتٍ عاجلٍ، أو غِنىً عاجل**»[٤].

هذا إن آمنت به ورضيت به ربا، إن كنت واثقا من كرمه، راضيا بعطاءه.

لذا كان ﷺ يدعو ربه فيقول: «**اللَّهُمَّ اكْفِنِي بِحَلَالِكَ عَنْ حَرَامِكَ، وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ**»[٥].

إنه اليقين بأن الله هو الرزاق، لا توجد دابة إلا وهو متكفل برزقها، يرزقه بقوته ورحمته.

قال الله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾. سورة هود (٦)

قال الله: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا الله يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾. سورة العنكبوت (٦٠)

حتى لو كان العبد كافرا سيسوق إليه رزقه، لن يمنعه رزقه بكفره لأنه رب، ورب لا يتخلى عن خلقه.

قال النبي ﷺ: «**لَيْسَ أَحَدٌ أَصْبَرَ عَلَى أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللهِ، إِنَّهُمْ لَيَدْعُونَ لَهُ وَلَدًا، وَإِنَّهُ لَيُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ**»[٦].

إنه اليقين أن الرزق سيأتيك رغم أنفك، لا يمنعه عنك أحد، يطلبك كما يطلبك أجلك، ولن تموت نفس حتى تستوفي أجلها ورزقها.

في ذات يوم كان النبي ﷺ جالسا بين أصحابه، فجاءه سائل يطلب شيئا، فكانت بين يدي النبي ﷺ تمرة عائرة أي ساقطة، فأعطاها للرجل السائل، ثم قال له: «**خُذْهَا، لَوْ لَمْ تَأْتِهَا لَأَتَتْكَ**»[٧].

---

(٣) أخرجه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣).

(٤) أخرجه الترمذي في «سننه» (٢٣٢٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح أبي داود» (١٤٥٢).

(٥) أخرجه الترمذي في «سننه» (٣٥٦٣)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٨٢٢)..

(٦) أخرجه البخاري (٦٠٩٩)، ومسلم (٢٨٠٤).

(٧) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٣٢٤٠)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٧٠٥).



يقول النبي ﷺ: «**إِنَّ الرِّزْقَ لَيَطْلُبُ الْعَبْدَ كَمَا يَطْلُبُهُ أَجَلُهُ**»(٨).

بل لا مهرب لك من رزقك، يقول النبي ﷺ: «**لَوْ أَنَّ ابْنَ آدَمَ هَرَبَ مِنْ رِزْقِهِ كَمَا يَهْرُبُ مِنَ الْمَوْتِ، لَأَدْرَكَهُ رِزْقُهُ كَمَا يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ**»(٩).

إنه اليقين بأن الله هو المقيت، الذي يسوق لكل مخلوق قوته، يسوق لكل مخلوق ما تقوم به حياته، طالما لا يزال في عُمره لحظة سيصل الله إلى ذاك المخلوق قوام حياته، حتى لو كانت نملة في قعر جبل، لأنه رب مقيت.

قال الله: ﴿**وَكَانَ الله عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا**﴾. سورة النساء (٨٥)

اليقين أن خزائن كل شيء عنده وحده، لم يعطها لأحد سواه، وخزائنه ملأى لا تنفد، فما عند العباد مهما كان كثيرا فإنه ينفد وما عند الله باق، ثم هو لا يخشى النفقة أن تنقص مما عنده.

قال الله: ﴿**وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ**﴾. سورة الحجر (٢١)

غني كريم، ينفق ليل نهار، جواد محسن، لا يخشى القلة.

يقول النبي ﷺ: «**إِنَّ يَمِينَ اللهَّ مَلْأَى لاَ يَغِيضُهَا نَفَقَةٌ، سَحَّاءُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْفَقَ مُنْذُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ، فَإِنَّهُ لَمْ يَنْقُصْ مَا فِي يَمِينِهِ**»(١٠).

ثم هو فوق ذلك كله لا يخفى عليه أحد من خلقه، لا ينسى مخلوقا ولو كان ضعيفا لا يُرى.

قال الله: ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا**﴾. سورة مريم (٦٤)

إن من عرف ربه بملكه العظيم، وغناه الواسع، وكرمه وجوده الذي عمّ جميع خلقه، لا يمكنه أن يخشى الفقر، فهو يحسن ظنه بربه، ويعلم أنه وعده الفضل والسعة، وأن الشيطان هو من يخوف الناس الفقر.

قال الله: ﴿**الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَالله يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَالله وَاسِعٌ عَلِيمٌ**﴾. سورة البقرة (٢٦٨)

وكأني بك تقول: لكنّا نجد من الناس فقيرا وغنيا، فهلا كان الجميع غنيا؟

حنانيك لا تعجل، فألطاف حكمته لا يحيط بها خلقه، لكن إليك طيف نور يذهب عنك وساوس الشيطان.

(٨) أخرجه ابن حبان في «**صحيحه**» (٣٢٣٨)، وحسنه الشيخ الألباني في «**صحيح الجامع**» (١٦٣٠).
(٩) أخرجه أبو نعيم في «**حلية الأولياء**» (٧/ ٩٠)، وحسنه الشيخ الألباني في «**السلسلة الصحيحة**» (٩٥٢).
(١٠) أخرجه البخاري (٧٤١٩)، ومسلم (٩٩٣)..





لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ



الله هـو الكريـم الأكـرم، لكنـه يعطـي وبمنـع بحكمتـه ورحمتـه، فهـو يفعـل وفـق مـراده وعلمـه، لا وفـق أهـواء الخلـق، فهـو أعلـم بخلقـه مـن علمهـم بأنفسـهم، يعلـم مـا يصلحهـم ومـا يفسـدهم.

فيبسط الرزق لمن يشاء، ويقبض رزقه ويَقْدره عمن يشاء.

قال الله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾. سورة الإسراء (٣٠)

وأسرار حكمتـه في بسـط رزقـه وتقديـره لا يحيـط بهـا إنسـان، لكنـه أعلمنـا قليـلا منـه لأن الإنسـان عجـول ظلـوم جهـول، فلعلـه لـو علـم شـيئا منهـا اسـتراح، وإليـك قبـس مـن أنـوار حكمتـه، جـل جلالـه.

فأول ما تقع عينك عليه أن بذلك البسط والقبض قوام الدنيا، ولولاه لفسدت حياة الناس.

قـال الله: ﴿أَهُـمْ يَقْسِـمُونَ رَحْمَـتَ رَبِّـكَ نَحْـنُ قَسَـمْنَا بَيْنَهُـمْ مَعِيشَـتَهُمْ فِي الْحَيَـاةِ الدُّنْيَـا وَرَفَعْنَـا بَعْضَهُـمْ فَـوْقَ بَعْـضٍ دَرَجَـاتٍ لِيَتَّخِـذَ بَعْضُهُـمْ بَعْضًـا سُـخْرِيًّا وَرَحْمَـتُ رَبِّـكَ خَـيْرٌ مِمَّـا يَجْمَعُـونَ﴾.
سورة الزخرف (٣٢)

فلـو كان النـاس جميعـا أهـل غنـى وفي سـعة مـن الـرزق لفسـدت الدنيـا، ولـما خـدم أحـدٌ أحـداً، فجعـل الله النـاس طبقـات في الغنـى والفقـر فيخـدم هـذا ذاك، ويسـتأجر الغنـي الفقـير، والقـوي الضعيـف، والمريـض الصحيـح، فتقـوم الدنيـا ويصلـح نظـام العـالم.

ثـم إنهـا حتميـة البـلاء، فهـذه الدنيـا ليسـت مسـتقر العبـاد، بـل هـي دار أولى، يبتـلي الله عبـاده فيهـا بـما شـاء سـبحانه، فيظهـر علمـه فيهـم، ويكـون بـلاؤه سـبحانه في مقدورهـم، فإنـه عـدل لا يكلـف عبـده فـوق طاقتـه، بـل يكلفـه مـا يسـتطيعه وزيـادة، وهـو الوسـع.

قـال الملـك: «فَأَمَّـا الْإِنْسَـانُ إِذَا مَـا ابْتَـلَاهُ رَبُّـهُ فَأَكْرَمَـهُ وَنَعَّمَـهُ فَيَقُـولُ رَبِّي أَكْرَمَـنِ (١٥) وَأَمَّـا إِذَا مَـا ابْتَـلَاهُ فَقَـدَرَ عَلَيْـهِ رِزْقَـهُ فَيَقُـولُ رَبِّي أَهَانَـنِ (١٦) كَلَّا». الفجـر

فجعـل الله السـعة في الـرزق بـلاء، وليسـت دليـل كرامـة، وجعـل تقتـير الـرزق بـلاء، وليـس ذلـك دليـل مهانـة.

فترى عبدا يبتليه الله بالفقر والحاجة، وآخر يبتليه الله بالغنى، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

قال الله: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾. سورة الأنبياء (٣٥)

وقال الله: ﴿وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. سورة الأعراف (١٦٨)





فهذا يُبتلى بالفقر فيصبر، وقد يُبتلى نفس الشخص بالغنى فيطغى.

وهذا قد يُبتلى بالغنى فيشكر، وقد يُبتلى بالفقر فيجزع وينسى.

فالفقر والغنى كلاهما فتنة وامتحان وابتلاء، يبتلي الله بهما من يشاء من عباده، فلا يطلب الفقر لذاته، ولا يطلب الغنى لذاته، إنما العبد المؤمن يسأل الله ما هو خير له في دينه ودنياه، فالله أعلم بالعبد من نفسه، وأعلم بما يصلحه وما يفسده.

ألم يقصّ ربنا علينا نبأ ذاك الرجل الذي كان فقيرا فعاهد ربه إن أغناه وأكثر ماله ليكونن منفقا جوادا متصدقا كريما، فلما أعطاه الله المال، نقض عهده مع الله، وبخل وتولى، نعوذ بالله من الخذلان.

قال الله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧)﴾ سورة التوبة

وانظر إلى قارون كيف وسّع الله عليه الرزق حتى إن مفاتيح خزائنه يستصعب الرجال الشداد حملها، فلما رأى أهل الدنيا زينته تمنوا مكانه، وقالوا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون، فلما رأوا عاقبة كفره نعمة الله، وعقاب الله له بأن خسف به وبداره الأرض، أدركوا عظيم رحمة الله بهم وحلمه عليهم.

قال الله: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠) فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ (٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ الله عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (٨٢)﴾ سورة القصص

والإنسان فيه داعية الطغيان، فإن سُقيت تلك البذرة، ولم تجد النفس دينا يحجزها استغنت فطغت فبغت.

قال الله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ الله الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾. الشورى (٢٧)

إنه بعباده خبير بصير، ولعلمه بهم بسط لهذا وضيق على ذاك، إستصلاحا لهم لا بخلا عليهم.

قال سبحانه: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ (٧)﴾ سورة العلق

مجرد أن يرى الإنسان نفسه مستغنيا يطغى، مع أن الإنسان لا غنى له عن ربه ولا عن فضله طرفة عين.



فتعوذ بربك من شر فتنة الغنى والفقر، وسله أن يقضي لك بما يصلحك.

فإن النبي ﷺ كان يتعوذ بالله فيقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الكَسَلِ وَالهَرَمِ، وَالمَأْثَمِ وَالمَغْرَمِ، وَمِنْ فِتْنَةِ القَبْرِ، وَعَذَابِ القَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ النَّارِ وَعَذَابِ النَّارِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الغِنَى، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الفَقْرِ**». أخرجه البخاري (٦٣٦٨)، ومسلم (٥٨٩)



وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى



أثنى الله على نفسه فقال: ﴿وَأَنَّـهُ هُـوَ أَغْـنَىٰ وَأَقْـنَىٰ﴾. النجم (٤٨)، أي أعطى ورضّى، وذاك هو الغنى.

أن يُرَضّيك الله عنه، أن يملأ الله قلبك رضا بما قسمه لك من رزق الدنيا، ذاك هو الغنى حقا.

أن تكون راضيا عن عطاء الله لك، فتستكثر ما أعطاك من فضله، فترضى به ربا.

قال النبي ﷺ: «**وَارْضَ بِمَا قَسَمَ الله لَكَ تَكُنْ أَغْنَى النَّاسِ**»[(١١)].

ستشعر بالغنى عند الرضى، وتشعر بالفقر عند السخط.

ولكن كيف أكون راضيا مع قلة المال؟

حوائج العبد، وحوائج زوجته وأولاده، لا تنتهي، والمال محدود، فأنى لي بالرضا؟

ابتداء: الله هو من بيده أن يُرَضّيك، فسله الرضا، كما في حديث الاستخارة حيث تقول في آخره: «**وَاقْدُرْ لِي الخَيْرَ حَيْثُ كَانَ، ثُمَّ رَضِّنِي بِهِ**»[(١٢)].

ستكون راضيا:

عندما تكون الآخرة همك، لن تحزن على ما فاتك الدنيا إن سلم لك دينك.

عندما تُردّ إليك روحك في صباح كل يوم ويكون هم قلبك مرضاة ربك وحسب، فإن الله سيقدّر لك ما يكون خيرا لك، سواء كان الغنى أو قلة ذات اليد.

عندما يراك الله تلتمس مراضيه، وتتجنب مساخطه يغمرك برحماته، ولك أن تتخيل عبد غمره الله وشمله برحمته.

واقرأ معي هذا الحديث بيقين:

يقول النبي ﷺ: «**إِنَّ الْعَبْدَ لَيَلْتَمِسُ مَرْضَاةَ الله فَلَا يَزَالُ بِذَلِكَ، فَيَقُولُ اللهُ لِجِبْرِيلَ: إِنَّ فُلَانًا عَبْدِي يَلْتَمِسُ أَنْ يُرْضِيَنِي أَلَا وَإِنَّ رَحْمَتِي عَلَيْهِ، فَيَقُولُ جِبْرِيلُ: رَحْمَةُ الله عَلَى فُلَانٍ، وَيَقُولُهَا حَمَلَةُ الْعَرْشِ، وَيَقُولُهَا مَنْ حَوْلَهُمْ حَتَّى يَقُولَهَا أَهْلُ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ، ثُمَّ تَهْبِطُ لَهُ إِلَى الْأَرْضِ**»[(١٣)].

كم من إنسان صلح دينه وآخرته على الغنى، وكم من إنسان صلح دينه وآخرته على الفقر.

المهم أن يختار الله لك ما يصلحك لا ما تريده نفسك.

---

(١١) أخرجه الترمذي في «سننه» (٢٣٠٥)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩٣٠).

(١٢) أخرجه البخاري (٦٣٨٢).

(١٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٢٤٠١)، وإسناده حسن.

وسبيل ذلك أن يطلع الله إلى قلبك فيراه لا يريد إلا مرضاته.

فإن رأى الله ذلك منك جمع عليك أمرك وشملك، وجعل الغنى يملأ قلبك، ويأتيك بما يبلغك إياه من الدنيا راغمة تحت قدمك، وأنت عزيز النفس كريم طيب الحياة.

وتعال لتفرح قلبك بهذا الحديث الجميل:

قال النبي ﷺ: **«مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ، وَسَدَمَهُ، لَهَا يَشْخَصُ، وَإِيَّاهَا يَنْوِي، جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ، وَسَدَمَهُ، لَهَا يَشْخَصُ، وَإِيَّاهَا يَنْوِي، جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ مَا قُدِّرَ لَهُ»**(١٤).

من خرج من بيته همه ونيته وعمله ما يرضي ربه، هم آخرته، يكفيه الله جميع الهموم، يجعل غناه في قلبه، فلا يفتقر إلى ما في أيدي الناس، ويجمع عليه ضيعته، يدبر له أموره أحسن ما يكون فلا يبتأس، ويأتيه رزقه من دنياه وهو في غاية العز والكرامة.

ومن خرج من بيته همه ونيته وعمله دنياه وإن أسخط ربه، ملأ الله قلبه فقره، فلا ترى عينه إلا الفاقة والحاجة إلى ما في أيدي الناس، دائما يشعر بالعوز، وتتفرق عليه أموره، فلا يستطيع جمعها مهما أوتي من الدنيا، ثم هو لا يأخذ من الدنيا إلا ما كتبه الله له.

قال النبي ﷺ: **«مَنْ جَعَلَ الْهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا، هَمَّ آخِرَتِهِ، كَفَاهُ اللهُ هَمَّ دُنْيَاهُ، وَمَنْ تَشَعَّبَتْ بِهِ الْهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا لَمْ يُبَالِ اللهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهَا هَلَكَ»**(١٥).

عندما لا تشغلك الدنيا عن الآخرة سيملأ الله قلبك غنى ويسد فقرك.

عندما تترك الحرام الذي فيه سعة المال، وتؤثر عليه الآخرة وإن كان فيه ضيق المال سيملأ الله قلبك غنى ويسد فقرك.

عندما تترك وظيفة محرمة راتبها كبير لأجل الله سيملأ الله قلبك غنى ويسد فقرك.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«قَالَ رَبُّكُمْ تَعَالَى: «ابْنَ آدَمَ تَفَرَّغْ لِعِبَادَتِي أَمْلأْ قَلْبَكَ غِنًى، وَامْلأْ يَدَيْكَ رِزْقًا، ابْنَ آدَمَ لَا تَبَاعَدْ عَنِّي فَأَمْلأْ قَلْبَكَ فَقْرًا، وَأَمْلأْ يَدَيْكَ شُغْلًا»**(١٦).

والعبد إن رضي عن الله وقسمه له، جازاه الله بأمرين عظيمين:

السعة والبركة، ستجد رزقك ولو كان قليلا عددا إلا أن الله سيضع فيه البركة، فتشعر بالسعة، والغنى.

قال النبي ﷺ: **«إِنَّ اللهَ يَبْتَلِي عَبْدَهُ بِمَا أَعْطَاهُ، فَمَنْ رَضِيَ بِمَا قَسَمَ اللهُ لَهُ، بَارَكَ اللهُ لَهُ فِيهِ، وَوَسَّعَهُ،**

---

(١٤) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (٤١٠٥)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩٥٠).

(١٥) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (٢٥٧)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٢٠٧).

(١٦) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٠/ ٢١٦)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣/ ٣٤٧).



وَمَنْ لَمْ يَرْضَ لَمْ يُبَارِكْ لَهُ»[17].

البركة أن يكفيك الله بما أعطاك وزيادة.

سيصرف عنك أمورا فتحها على غيرك.

سيُرضي قلب امرأتك، وقلوب أولادك.

كانت دعوة النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، وَوَسِّعْ لِي فِي دَارِي، وَبَارِكْ لِي فِيمَا رَزَقْتَنِي**»[18].

ستكون راضيا:

عندما تعلم أن الله صرف عنك شر فتنة الغنى رفقا بقلبك لا بخلا عنك.

كم من عبد منع الله عنه الدنيا يحميه منها، كما يحمي أحدنا حبيبه مما يؤذيه.

يقول النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَيَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ مِنَ الدُّنْيَا، وَهُوَ يُحِبُّهُ كَمَا تَحْمُونَ مَرِيضَكُمْ مِنَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ تَخَافُونَهُ عَلَيْهِ**»[19].

لم يمنعها عنك لهوانك عليه، بل لكرامتك عليه.

يقول النبي ﷺ: «**إِنَّ لِمَنْ أُمَّتِي مَنْ لَوْ قَامَ عَلَى بَابِ أَحَدِكُمْ فَسَأَلَهُ دِينَارًا مَا أَعْطَاهُ أَوْ دِرْهَمًا مَا أَعْطَاهُ أَوْ فِلْسًا مَا أَعْطَاهُ وَلَوْ سَأَلَ اللهَ الدُّنْيَا مَا أَعْطَاهُ وَمَا يَمْنَعُهُ إِلَّا لِكَرَامَتِهِ عَلَيْهِ وَلَوْ سَأَلَ الْجَنَّةَ لَأَعْطَاهُ وَلَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ**»[20]. بل كثير ممن فُتحت عليهم الدنيا كانت تلك عقوبة من الله لهم، واستدراج لهم حتى يأخذهم العذاب الأليم.

يقول النبي ﷺ: «**إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ**» **ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قوله تعالى:** ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾. **الأنعام (٤٤)**[21].

بل كثير ممن تسببوا بهلاك الأمم كانوا من أهل الترف، ممن حملهم الترف في الدنيا على استجلاب سخط الله.

قال الله: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾. سورة الإسراء (١٦)

ستكون راضيا:

---

(١٧) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٠٢٧٩)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٦٥٨).

(١٨) أخرجه الترمذي في «سننه» (٣٥٠٠)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (١٢٦٥).

(١٩) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٣٦٢٢)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣١٧٩).

(٢٠) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (١١٠٣)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٦٤٣).

(٢١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٧٣١١)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤١٣).

عندما تعلم أن النبي ﷺ لم يخف على أصحابه الفقر، وإنما خاف عليهم الدنيا.

الصحابة الأوائل الكرام رضي الله عنهم، الذين تركوا الدنيا وراء ظهورهم لله وحده، فأما المهاجرون فتركوا ديارهم وأموالهم لله، وأما الأنصار فآثروا إخوانهم على أنفسهم مع شدة الفاقة والحاجة، كان أغلبهم فقراء مملقون، حتى أن أحدهم يوما سأل النبي ﷺ عَنِ الصَّلَاةِ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَوَلِكُلِّكُمْ ثَوْبَانِ**»[22]. ومع ذلك لما سمع بعضهم أن أبا عبيدة بن الجراح قدم بمال من البحرين، صلوا الفجر مع النبي ﷺ، ثم تعرضوا له حتى يعطيهم من هذا المال لأجل ما بهم من الحاجة، فلما رأى ذلك تبسم النبي ﷺ، ثم قال لهم: «**أَظُنُّكُمْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدِمَ بِشَيْءٍ» قَالُوا: أَجَلْ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ، فَوَاللهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ**»[23].

على من يخشى رسول الله ﷺ الدنيا؟

على أصحابه!!، إنه يعلم كم فتنت الدنيا عباد الله، كم فُتحت على فقير ففتن وضاع دينه، وكم باع الناس دينهم لعرض من الدنيا زائل. كم من عالم كان في عافية، فلما عُرضت عليه الدنيا باع دينه.

أليس هو القائل ﷺ: «**بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ، يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا، أَوْ يُمْسِي مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، يَبِيعُ دِينَهُ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا**»[24].

وأكثر الناس تفتنهم الدنيا وزهرتها، يصبرون على الفقر، بل ويكونون أقرب إلى الله حال فقرهم ومسكنتهم، تراه قريبا إلى الله، مقبلا عليه، معاصيه محدودة، فإذا فتح الله عليه الدنيا فُتن.

يقول عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: «**ابْتُلِينَا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالضَّرَّاءِ فَصَبَرْنَا، ثُمَّ ابْتُلِينَا بِالسَّرَّاءِ بَعْدَهُ فَلَمْ نَصْبِرْ**»[25]..

عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه المنفق الجواد الذي ملأ الدنيا معروفا، هو من يقول هذا.

يقول الإمام الزهري رحمه الله: «**تَصَدَّقَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِشَطْرِ مَالِهِ أَرْبَعَةِ آلَافٍ، ثُمَّ تَصَدَّقَ بِأَرْبَعِينَ أَلْفًا، ثُمَّ تَصَدَّقَ بِأَرْبَعِينَ أَلْفَ دِينَارٍ، ثُمَّ حَمَلَ عَلَى خَمْسِمِائَةِ فَرَسٍ فِي سَبِيلِ اللهِ، ثُمَّ حَمَلَ عَلَى أَلْفٍ وَخَمْسِمِائَةِ رَاحِلَةٍ فِي سَبِيلِ اللهِ**»[26].

فيا عبد الله قليل يكفيك خير من كثير يطغيك، فاحمد ربك على تقديره لك، فلعله هو الخير بك ولك، ولولاه لضعت.

يقول النبي ﷺ: «**مَا طَلَعَتْ شَمْسٌ قَطُّ إِلَّا بُعِثَ بِجَنْبَتَيْهَا مَلَكَانِ يُنَادِيَانِ، يُسْمِعَانِ أَهْلَ الْأَرْضِ**

(٢٢) أخرجه البخاري (٣٥٨)، مسلم (٥١٥).

(٢٣) أخرجه البخاري (٤٠١٥)، ومسلم (٢٩٦١).

(٢٤) أخرجه مسلم (١١٨).

(٢٥) أخرجه الترمذي في «سننه» (٢٤٦٤)، وإسناده حسن.

(٢٦) أخرجه أبو نعيم في «**حلية الأولياء**» (١/ ٩٩).



إِلَّا الثَّقَلَيْنِ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ هَلُمُّوا إِلَى رَبِّكُمْ فَإِنَّ مَا قَلَّ وَكَفَى خَيْرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَلْهَى»[٢٧].

ومن الذي أخبرك أنّ كثرة المال نعيم لصاحبه؟

والله لقد رأيت كثيرا من أهل الغنى والمال وهو من أبأس الناس حالا، وأشقاهم حياة، حيث لم يزدهم مالهم إلا خسارا وبعدا عن الله، وإستجلابا لغضبه سبحانه.

ألم تعلم أنّ ناسا عذبهم الله في الدنيا بأموالهم.

قال الله: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ الله لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾. التوبة (٥٥)

هكذا يعذبهم الله بنعمه، هي نفس النعمة تطيب بها حياة المؤمن، ويعذب الله بها الفاجر.

يعذبهم الله بأن يلقي في قلوبهم حبها حتى قد يصل أحدهم لدرجة العبودية، فتراه عبدا للدرهم والدينار والدولار، هو همه وقصده، وله ولاءه، وله يسعى ويكد.

سيشقى أعظم الشقاء في تحصيله، تراه طيلة النهار في عمل شاق حتى يحصّل الأموال، ولأجل الافتراس سيكون كالسباع يسُب هذا ويضرب ذاك، ويرشي هذا ويسرق ذاك.

ستراه منافقا بوجهين، يفعل كل شيء ليحصل على المال، ينافق هذا، ويتملق ذاك، وهو عندهم من أسافل الناس وإن عظموه ظاهرا فلأجل ما معه من مال، والأدهى أنه يعلم ذلك.

ثم هو لا يشبع، في جوع دائم وفقر عريض، وحسد بالغ، يتابع أصحاب الملايين، دائما يمد عينيه إلى متاع غيره، يتقطع قلبه على الدنيا حسرات، فلا هو راض بما قسمه الله، ولا سلم قلبه لعباد الله.

ثم هو في خوف دائم من نقصان المال، أحرص الناس عليه، سيء الظن في كل من حوله، حتى أقرب الناس إليه.

ثم هو لا يستطيع إرضاء أهله، ولا زوجته ولا أولاده، بل دائما هو عندهم شحيح بخيل، يكنز المال ولا ينفق عليهم، موضوع عندهم في خانة المقارنات، إنسان بئيس.

وبضد ذلك تجد المؤمن الذي أغنى الله قلبه، وذاق حلاوة الإيمان، ورضي بالله وعن الله، تراه أهنأ الناس عيشا، وأطيبهم حياة.

جلس إبراهيم بن أدهم وصاحبيه على شطر نهر، فأخرجوا كسرات خبز يابسات، فأكلوا، ثم دخل إبراهيم بن أدهم إلى النهر فشرب منه، ثم حمد الله، وقال: «**لَوْ عَلِمَ الْمُلُوكُ وَأَبْنَاءُ الْمُلُوكِ مَا نَحْنُ فِيهِ مِنَ السُّرُورِ وَالنَّعِيمِ إِذًا لَجَالَدُونَا عَلَى مَا نَحْنُ فِيهِ بِأَسْيَافِهِمْ أَيَّامَ الْحَيَاةِ عَلَى مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ لَذَّةِ الْعَيْشِ وَقِلَّةِ التَّعَبِ**»[٢٨].

---

(٢٧) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢١٧٢١)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤٤٣).

(٢٨) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٣٧٠).



أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ



دخل عمر بن الخطاب ﷺ يوما على النبي ﷺ بيته، فوجده ينام على حصير أثر في جنبيه، وتحت رأسه وسادة من جلد، حشوها ليف، فلما رأى عمر ذلك بكى، فسأله النبي ﷺ: «مَا يُبْكِيكَ؟»

فَقَالَ عمر: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ كِسْرَى وَقَيْصَرَ فِيمَا هُمَا فِيهِ، وَأَنْتَ رَسُولُ اللهِ.

فَقَالَ النبي ﷺ: «**أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمُ الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ**»(٢٩).

ليس أكرم على الله من رسول الله ﷺ، ومع ذلك لم يكن النبي ﷺ في سعة من المال ورغد من العيش.

فإن اختار الله ما اختاره لنبيه أفلا يرضيك ذلك.

إن كنت قد تجوع يوما أو أياما فقد جاع نبينا ﷺ ليالي وأياما، حتى أنه كثيرا ما يبيت من غير عشاء.

يجوع حتى يربط الحجر على بطنه، يجوع ويتلوى ويتألم حتى لا أنه لا يجد التمر الرديء كي يشبع منه

يقول عمر بن الخطاب ﷺ: «**لَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَظَلُّ الْيَوْمَ يَلْتَوِي، مَا يَجِدُ دَقَلًا يَمْلأُ بِهِ بَطْنَهُ**»(٣٠).

بل يخرج من بيته ﷺ في شدة الحر يوما، فيجد أبا بكر وعمر، فيسألهما: مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟» قَالَا: الْجُوعُ يَا رَسُولَ اللهِ،، قَالَ: «**وَأَنَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا**»(٣١).

بل ربما يبيت ليالي طاويا جائعا من غير عشاء ﷺ

يقول عبد الله بن عباس ﷺ: «**كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَبِيتُ اللَّيَالِي الْمُتَتَابِعَةَ طَاوِيًا وَأَهْلُهُ لاَ يَجِدُونَ عَشَاءً وَكَانَ أَكْثَرُ خُبْزِهِمْ خُبْزَ الشَّعِيرِ**»(٣٢).

بل لم يكن حتى يشبع من الخبز المصنوع من البُرّ أو الشعير.

تقول عائشة ﷺ: «**مَا شَبِعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ تِبَاعًا مِنْ خُبْزِ بُرٍّ، حَتَّى مَضَى لِسَبِيلِهِ**»(٣٣).

ولم ير ﷺ خبزا مرققا حتى مات(٣٤).

وإن مرت بك أيام لا تطبخ فيها لأولادك، فقل صلى الله على محمد وسلم الذي كان تمر الأشهر

(٢٩) أخرجه البخاري (٤٩١٣)، ومسلم (١٤٧٩).
(٣٠) أخرجه مسلم (٢٩٧٨).
(٣١) أخرجه مسلم (٢٠٣٨).
(٣٢) أخرجه الترمذي في «سننه» (٢٣٦٠)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢١١٩).
(٣٣) أخرجه مسلم (٢٩٧٠).
(٣٤) أخرجه البخاري (٥٤٢١).





الثلاث ولا يُوقد في بيته نار، يعيشون على التمر والماء، وربما أرسل إليه وإلى أهل بيته بعض الأنصار لبنا فيشرب منه هو وأهله ﷺ.

يقول عروة بن الزبير، قالت لي أم المؤمنين عائشة ﵂: وَاللهِ يَا ابْنَ أُخْتِي إِنْ كُنَّا لَنَنْظُرُ إِلَى الْهِلَالِ، ثُمَّ الْهِلَالِ، ثُمَّ الْهِلَالِ، ثَلَاثَةَ أَهِلَّةٍ فِي شَهْرَيْنِ، وَمَا أُوقِدَ فِي أَبْيَاتِ رَسُولِ اللهِ ﷺ نَارٌ، قَالَ: قُلْتُ: يَا خَالَةُ فَمَا كَانَ يُعَيِّشُكُمْ؟ قَالَتْ: **«الْأَسْوَدَانِ التَّمْرُ وَالْمَاءُ، إِلَّا أَنَّهُ قَدْ كَانَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ جِيرَانٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، وَكَانَتْ لَهُمْ مَنَائِحُ، فَكَانُوا يُرْسِلُونَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ أَلْبَانِهَا، فَيَسْقِينَاهُ»**(٣٥).

وإن نظرت إلى الأسِرة اللينة، فلم تجد ما تحلم به، قل لنفسك نام خير الخلق على وسادة من جلد، حشوها ليف، حشوها قشر النخيل(٣٦).

بل مات النبي ﷺ ودرعه مرهون عند يهودي، أتدري لأجل ماذا؟، لأجل ثلاثين صاعا من شعير.

تقول أم المؤمنين عائشة ﵂: **«تُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَدِرْعُهُ مَرْهُونَةٌ عِنْدَ يَهُودِيٍّ، بِثَلَاثِينَ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ»**(٣٧).

كل هذا يهون ويمضي طالما أن الله سلّم لك دينك.

أتدري أين الإشكال الأكبر، وما هو المصاب الأعظم؟

المصاب الأعظم هو أن يجتمع على العباد شقاء الدنيا والآخرة، أن يُقتر عليه في الدنيا والآخرة.

قال النبي ﷺ: **«النَّاسُ أَرْبَعَةٌ، وَالْأَعْمَالُ سِتَّةٌ، فَالنَّاسُ مُوَسَّعٌ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمُوَسَّعٌ لَهُ فِي الدُّنْيَا مَقْتُورٌ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ، وَمَقْتُورٌ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا مُوَسَّعٌ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ، وَشَقِيٌّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ»**(٣٨).

لكن إن كانت القصة كلها ما فاتك من الدنيا، فما فاتك لا يساوي عند الله جناح بعوضة، إن دخلت الجنة.

فلا تحزن يا صديقي، فغمسة في الجنة تنسيك شقاء الدنيا.

يقول النبي ﷺ: **«يُؤْتَى بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُصْبَغُ فِي النَّارِ صَبْغَةً، ثُمَّ يُقَالُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ خَيْرًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ»**(٣٩).

فإذا كانت غمسة في الجنة تُنسي شقاء أشد الناس بؤسا، فكيف إن أصبح من ملوك الجنة وسكانها.

وأقل أهل الجنة منزلة من له عشرة أمثال الدنيا، فما الذي فاتك يا عبد الله.

ورحم الله سفيان الثوري إذ يقول: **«مَا ضَرَّهُمْ مَا أَصَابَهُمْ فِي الدُّنْيَا، جَبَرَ اللهُ لَهُمْ بِالْجَنَّةِ كُلَّ مُصِيبَةٍ»**(٤٠).

---

(٣٥) أخرجه مسلم (٢٩٧٢).

(٣٦) أخرجه البخاري (٦٤٥٦).

(٣٧) أخرجه البخاري (٢٩١٦).

(٣٨) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٩٠٣٥)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٦٠٤).

(٣٩) أخرجه مسلم (٢٨٠٧)..

(٤٠) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٧/ ٧٩).

500 سنة فرق



بينما الناس وقوف في أرض المحشر يُحاسبون على أعمالهم يوم القيامة، إذ بفئة من أهل الإيمان كانوا قد حطوا رحالهم في قصورهم في الجنة، فذاقوا من نعيمها وطيبها.

وبعد أن دخلوها بخمسمائة عام إذا بفئة أخرى من أهل الإيمان يلحقون بهم.

بينهم فترة زمنية خمسمائة عام، فما القصة؟

القصة أن فقراء المؤمنين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام.

يقول النبي ﷺ: «**يَدْخُلُ فُقَرَاءُ الْمُؤْمِنِينَ الْجَنَّةَ قَبْلَ أَغْنِيَائِهِمْ بِخَمْسِ مِائَةِ عَامٍ**»(٤١).

يُحبس أصحاب الأموال حتى يُحاسبون، في الوقت الذي يكون فيه فقراء المؤمنين في الجنة ينعمون، فما ضرك يا عبد الله.

يقول النبي ﷺ: «**قُمْتُ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ، فَكَانَ عَامَّةَ مَنْ دَخَلَهَا الْمَسَاكِينُ، وَأَصْحَابُ الْجَدِّ مَحْبُوسُونَ**»(٤٢).

ولماذا حُبس أهل الغنى والمال؟

لأنه لابد من السؤال عن هذا المال، من أين اكتسبته؟ وفيم أنفقته؟

قال النبي ﷺ: «**لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ**»(٤٣).

فتخيل فقير لم يملك من مال الدنيا إلا بضعة آلاف طيلة عمره، أنفقها على ما تقوم به حياته، وآخر غني ملك مئات الآلاف وربما الملايين، يوقفه الله بين يديه، ثم يسأله عن كل جنيه من أين لك به؟ وفيم أنفقته؟

يقول النبي ﷺ: «**اثْنَتَانِ يَكْرَهُهُمَا ابْنُ آدَمَ: الْمَوْتُ، وَالْمَوْتُ خَيْرٌ لِلْمُؤْمِنِ مِنَ الْفِتْنَةِ، وَيَكْرَهُ قِلَّةَ الْمَالِ، وَقِلَّةُ الْمَالِ أَقَلُّ لِلْحِسَابِ**»(٤٤).

وليس ذلك إلا لمن ابتلي بالفقر فصبر، أما من ابتلاه الله بالفقر فجزع وتسخط فأنى له ذلك.

يقول النبي ﷺ: «**تَجْتَمِعُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ: أَيْنَ فُقَرَاءُ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَمَسَاكِينُهَا؟ قَالَ: فَيَقُومُونَ فَيُقَالُ لَهُمْ: مَاذَا عَمِلْتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا ابْتَلَيْتَنَا فَصَبَرْنَا وَآتَيْتَ الْأَمْوَالَ وَالسُّلْطَانَ غَيْرَنَا فَيَقُولُ اللهُ: صَدَقْتُمْ قَالَ: فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ قَبْلَ النَّاسِ، وَيَبْقَى شِدَّةُ الْحِسَابِ عَلَى ذَوِي الْأَمْوَالِ وَالسُّلْطَانِ**»(٤٥).

فإن وقر في قلبك ما قد مضى رضيت بعطاءه ومنعه، بل عددت منعه لك عطاءً.

---

(٤١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٧٩٤٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٣٢٦).

(٤٢) أخرجه البخاري (٥١٩٦)، ومسلم (٢٧٣٦).

(٤٣) أخرجه الترمذي في «سننه» (٢٤١٧)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٢٦).

(٤٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٣٦٢٥)، وجود إسناده الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٨١٣).

(٤٥) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٧٤١٩)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣١٨٧).



أَدَّى الله عَنْهُ



الزبير بن العوام، حواري رسول الله ﷺ، قتل مظلوما شهيدا رضي الله عنه.

في اليوم الذي قُتل فيه الزبير، كان يقف بجواره ولده عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما، فقال له: «يَا بُنَيِّ، إِنَّهُ لاَ يُقْتَلُ الْيَوْمَ إِلَّا ظَالِمٌ أَوْ مَظْلُومٌ، وَإِنِّي لاَ أُرَانِي إِلَّا سَأُقْتَلُ الْيَوْمَ مَظْلُومًا، وَإِنَّ مِنْ أَكْبَرِ هَمِّي لَدَيْنِي، أَفَتُرَى يُبْقِي دَيْنُنَا مِنْ مَالِنَا شَيْئًا؟ فَقَالَ: يَا بُنَيِّ بِعْ مَالَنَا، فَاقْضِ دَيْنِي.. يقول عبد الله: فَجَعَلَ يُوصِينِي بِدَيْنِهِ.

ويقول له: يَا بُنَيِّ إِنْ عَجَزْتَ عَنْهُ فِي شَيْءٍ، فَاسْتَعِنْ عَلَيْهِ مَوْلاَيَ»

قال عبد الله: يَا أَبَةِ مَنْ مَوْلاَكَ؟

قَالَ: «اللهُ»

قَالَ عبد الله: فَوَاللهِ مَا وَقَعْتُ فِي كُرْبَةٍ مِنْ دَيْنِهِ، إِلَّا قُلْتُ: يَا مَوْلَى الزُّبَيْرِ اقْضِ عَنْهُ دَيْنَهُ، فَيَقْضِيهِ».

كان دَينه أنه كان أمينا، فكان الناس يودعون عنده المال، فيقول لهم: «**لاَ وَلَكِنَّهُ سَلَفٌ، فَإِنِّي أَخْشَى عَلَيْهِ الضَّيْعَةَ**».

بلغ دَينه أَلْفَيْ أَلْفٍ وَمِائَتَيْ أَلْفٍ. يعني مليونين ومائتي ألف.

لم يترك الزبير رضي الله إلا بعض الدور، وأرضين.

لكن إن بارك الله في مال في عبد فلا تسل كيف يكون الخير، وإن أراد الله قضاء دين عبد فلا تسل من أين.

بارك الله في أرض الزبير، وبدأ يقضي دين والده.

وكلما شعر بضيق قال: «اللهم يا مولى الزبير اقض عن الزبير دينه »، فيقضي الله الدَّين.

أخذ أصحاب الديون أموالهم جميعا، وبقي للورثة مالا.

كان قد ترك أربع نسوة، أخذت كل واحدة منهن ألف ألف ومائة ألف، مليون ومائة ألف[٤٦].

كان النبي ﷺ يدعو الله فيقول: «**اللهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَرَبَّ الْأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَى، وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ كُلِّ شَيْءٍ أَنْتَ**

(٤٦) أخرجه البخاري (٣١٢٩).

آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ، اللهُمَّ أَنْتَ الْأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ، اقْضِ عَنَّا الدَّيْنَ، وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ»(٤٧).

الدَّين أمر عظيم، لأن حقوق الناس أمر عظيم عند الله، وقد شدّدت الشريعة في أموال الناس صيانة لها من العدوان عليها، سواء كان بالسرقة، أو بالتفريط والإهمال.

وبلغ التأكيد عليها بأن كانت أطول آية في كتاب الله تتكلم عن كتابة الديون والإشهاد على ذلك.

وبلغ التشديد في قضية الديون أن النبي ﷺ كان ذات يوم مع أصحابه بِفِنَاءِ الْمَسْجِدِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: «**سُبْحَانَ الله مَاذَا أُنْزِلَ مِنَ التَّشْدِيدِ؟**»، **فَظَلَلْنَا بَقِيَّةَ يَوْمِنَا وَلَيْلَتِنَا، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ غَدَوْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله مَاذَا أُنْزِلَ مِنَ التَّشْدِيدِ؟، قَالَ: «لَوْ أَنَّ رَجُلًا قُتِلَ فِي سَبِيلِ الله ثُمَّ أُحْيِيَ ثُمَّ قُتِلَ ثم أُحيِىَ لَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ وَعَلَيْهِ دَيْنٌ**»(٤٨).

سبحان الله، رجل يُقتل ثلاث مرات في سبيل الله، لا يدخل الجنة طالما عليه ديون لعباد الله.

ظلّ أمر الدّين يؤرق قلوب المؤمنين، فهو أمر قد يضطر الإنسان له، فما العمل حينئذ؟

عندما يتولاك الله فإنه لا يتخلى عنك، لا في الدنيا، ولا في الآخرة.

إن اقترضت من الناس، أو تدينت منهم، فأحسن نيتك في الأداء، واصدق مع الله في السداد، فإن الله يؤدي عنك دينك.

قال النبي ﷺ: «**مَنْ أَخَذَ أَمْوَالَ النَّاسِ يُرِيدُ أَدَاءَهَا أَدَّى الله عَنْهُ، وَمَنْ أَخَذَ يُرِيدُ إِتْلَافَهَا أَتْلَفَهُ الله**»(٤٩).

القصة هنا في هذه المضغة، في هذا القلب وصدقه، فرق عظيم بين إنسان يريد الأداء، وآخر لا يهتم بالقضية، فضلا عمن أخذ أموال الناس وهو لا يريد أداءها، فهذا يلقى الله سارقا.

قال النبي ﷺ: «**أَيُّمَا رَجُلٍ تَدِينُ دَيْنًا وَهُوَ مُجْمِعٌ أَنْ لا يُوَفِّيَهُ إِيَّاهُ لَقِيَ اللهَ سَارِقًا**»(٥٠).

فإن صدقت نيتك، وبذلت ما تستطيع من أسباب أعانك الله ولابد على قضاء دينك، ويسر لك الرزق، وبارك لك فيه.

قال النبي ﷺ: «**مَا مِنْ عَبْدٍ كَانَتْ لَهُ نِيَّةٌ فِي أَدَاءِ دَيْنِهِ، إِلَّا كَانَ لَهُ مِنَ الله عَزَّ وَجَلَّ عَوْنٌ**»(٥١).

وانظر إلى هذه القصة العجيبة، التي يحكيها لنا رسول الله ﷺ عن رجل من بني إسرائيل.

---

(٤٧) أخرجه مسلم (٢٧١٣).

(٤٨) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٩/ ٢٤٨)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٨٠٤).

(٤٩) أخرجه البخاري (٢٣٨٧).

(٥٠) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (٢٤١٠)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح ابن ماجه» (١٩٥٤).

(٥١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٤٤٣٩)، وصححه بطرقه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٨٢٢).



يحكي النبي ﷺ أن رَجُلًا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، سَأَلَ بَعْضَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يُسْلِفَهُ أَلْفَ دِينَارٍ، فَقَالَ: ائْتِنِي بِالشُّهَدَاءِ أُشْهِدُهُمْ، فَقَالَ: كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا، قَالَ: فَأْتِنِي بِالكَفِيلِ، قَالَ: كَفَى بِاللهِ كَفِيلًا، قَالَ: صَدَقْتَ، فَدَفَعَهَا إِلَيْهِ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى، فَخَرَجَ فِي البَحْرِ فَقَضَى حَاجَتَهُ، ثُمَّ التَمَسَ مَرْكَبًا يَرْكَبُهَا يَقْدَمُ عَلَيْهِ لِلأَجَلِ الَّذِي أَجَّلَهُ، فَلَمْ يَجِدْ مَرْكَبًا، فَأَخَذَ خَشَبَةً فَنَقَرَهَا، فَأَدْخَلَ فِيهَا أَلْفَ دِينَارٍ وَصَحِيفَةً مِنْهُ إِلَى صَاحِبِهِ، ثُمَّ زَجَّجَ مَوْضِعَهَا، ثُمَّ أَتَى بِهَا إِلَى البَحْرِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي كُنْتُ تَسَلَّفْتُ فُلاَنًا أَلْفَ دِينَارٍ، فَسَأَلَنِي كَفِيلاً، فَقُلْتُ: كَفَى بِاللهِ كَفِيلًا، فَرَضِيَ بِكَ، وَسَأَلَنِي شَهِيدًا، فَقُلْتُ: كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا، فَرَضِيَ بِكَ، وَأَنِّي جَهَدْتُ أَنْ أَجِدَ مَرْكَبًا أَبْعَثُ إِلَيْهِ الَّذِي لَهُ فَلَمْ أَقْدِرْ، وَإِنِّي أَسْتَوْدِعُكَهَا، فَرَمَى بِهَا فِي البَحْرِ حَتَّى وَلَجَتْ فِيهِ، ثُمَّ انْصَرَفَ وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَلْتَمِسُ مَرْكَبًا يَخْرُجُ إِلَى بَلَدِهِ، فَخَرَجَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ، يَنْظُرُ لَعَلَّ مَرْكَبًا قَدْ جَاءَ بِمَالِهِ، فَإِذَا بِالخَشَبَةِ الَّتِي فِيهَا المَالُ، فَأَخَذَهَا لِأَهْلِهِ حَطَبًا، فَلَمَّا نَشَرَهَا وَجَدَ المَالَ وَالصَّحِيفَةَ، ثُمَّ قَدِمَ الَّذِي كَانَ أَسْلَفَهُ، فَأَتَى بِالأَلْفِ دِينَارٍ، فَقَالَ: وَاللهِ مَا زِلْتُ جَاهِدًا فِي طَلَبِ مَرْكَبٍ لِآتِيَكَ بِمَالِكَ، فَمَا وَجَدْتُ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي أَتَيْتُ فِيهِ، قَالَ: هَلْ كُنْتَ بَعَثْتَ إِلَيَّ بِشَيْءٍ؟ قَالَ: أُخْبِرُكَ أَنِّي لَمْ أَجِدْ مَرْكَبًا قَبْلَ الَّذِي جِئْتُ فِيهِ، قَالَ: فَإِنَّ اللهَ قَدْ أَدَّى عَنْكَ الَّذِي بَعَثْتَ فِي الخَشَبَةِ، فَانْصَرِفْ بِالأَلْفِ الدِّينَارِ رَاشِدًا»[٥٢].

ما أعجب هذا الرجل، وما أعجب يقينه في الله، وما أعظم الله وأكرمه إذ حفظ له ماله حتى أداه إلى صاحبه.

لكن القضية في الأصل نقاء هذا القلب، وأمانته، وتوكله على ربه، ويقينه في معونته، فإن الرجل مع ثقته في ضمان الله وكفالته يعلم أن الديون لا تُقضى هكذا، فجمع ألفا أخرى ومضى لصاحبه ليدفع له المال.

فإن كنت تريد أن يؤدي الله عنك دينك فإليك السبيل:

أولا: اصدق مع الله في أداء المال.

ثانيا: سل ربك العون على قضاءه.

ثالثا: ابذل ما تستطيع من أسباب، والله يتولى عنك القضاء.

في ذات يوم لقي النبي ﷺ معاذ بن جبل رضي الله عنه، فقال له **«يَا مُعَاذُ، مَا لِي لَمْ أَرَكَ؟» قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ لِيَهُودِيٍّ عَلَيَّ أُوقِيَّةٌ مِنْ تِبْرٍ فَخَرَجْتُ إِلَيْكَ فَحَبَسَنِي عَنْكَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا مُعَاذُ، أَلَا أُعَلِّمُكَ دُعَاءً تَدْعُو بِهِ؟ فَلَوْ كَانَ عَلَيْكَ مِنَ الدَّيْنِ مِثْلُ جَبَلِ صَبِرٍ أَدَّاهُ اللهُ عَنْكَ - وَصَبِرٌ جَبَلٌ بِالْيَمَنِ - فَادْعُ بِهِ يَا مُعَاذُ قُلِ: اللهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ، وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ، وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ، وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ، وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ، وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ، وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ رَحْمَنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَرَحِيمَهُمَا، تُعْطِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمَا، وَتَمْنَعُ مَنْ تَشَاءُ، ارْحَمْنِي رَحْمَةً**

(٥٢) أخرجه البخاري (٢٢٩١).



تُغْنِينِي بِهَا عَنْ رَحْمَةِ مَنْ سِوَاكَ»[٥٣].

لا تقنط من رحمة الله، فإنه رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، وسبحانه يكفيك ما أهمك.

قل: اللَّهُمَّ اكْفِنِي بِحَلاَلِكَ عَنْ حَرَامِكَ، وَأَغْنِنِي بِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ. لو كان عليك دين مثل الجبل فإن الله سيؤديه عنك، هذا وعد الله كما أخبرنا نبينا ﷺ[٥٤].

فإن أدركت الوفاة قبل الوفاء والقضاء، وكنت كما ذكرت لك، فإن الله يرضي خصومك القيامة، ويقضي عنك بفضله.

قال النبي ﷺ: «**الدَّيْنُ دَيْنَانِ: فمَنْ مَاتَ وهُوَ يَنْوِي قَضَاءَهُ فَأَنَا وَلِيُّهُ، ومَنْ مَاتَ ولاَ يَنْوِي قَضَاءَهُ فَذَلِكَ الَّذِي يُؤْخَذُ مِنْ حَسَنَاتِهِ؛ لَيْسَ يَوْمَئِذٍ دِينَارٌ ولاَ دِرْهَمٌ**»[٥٥].

(٥٣) أخرجه الطبراي في «المعجم الكبير» (٢٠/ ١٥٤)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٨٢١).
(٥٤) أخرجه الترمذي في «سننه» (٣٥٦٣)، و حسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٦٦).
(٥٥) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٣/ ٣٣٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٣٤١٨).

وهو الشافي



لا شافي إلا هو.
يعافيك، وبرحمته يبتليك، وإذا مرضت فهو يشفيك،
ويطهرك به من ذنبك وفي درجات الجنان يرقيك
فكيف لا يُحب

طَيِّبَتْهُ الْعَافِيَةُ



على تلك الأريكة الناعمة، جلس رجل من أهل الأموال، وعلى يمينه صاحب له مسكين من أهل الدنيا، كان يعرفه أيام الصبا.

كان صاحبنا المسكين هذا ينظر دوما لحاله بعين السُخط، ويرى صاحبه الغني هذا في رغد من العيش، ونعيم من الحياة.

قدّر الله بينهما هذا اللقاء، وبينما يتجاذبان أطراف الحديث إذ جاء الغني بطعام الغداء.

وُضع الطعام فإذا فيه ما لذ وطاب، من شتى أصناف الطعام، لكن..

فيه نوع غريب، بلا يبدو أنه شهي مطلقا، لا يشبه جميع ألوان الطعام.

دعاه صاحبه ليستمتع بطعامه، لكن ذاك الرجل الميسور الحال لم يطعم إلا لقيمات من ذاك الطعام الغريب.

تعجب المسكين، وسأله ألا تأكل معي؟

قال له: إني منذ سنين وأنا ممنوع من كل هذا، لا أكل إلا هذه اللقيمات التي تراها، منزوعة الطعم والرائحة، والله إني على استعداد أن أدفع ملايين لأكل مرة واحدة ما أشتهي، ولكن قد يكون بها موتي.

رجع صاحبنا المسكين إلى بيته: وهو يقول الحمد لله على العافية.

ذكّرني هذا الموقف بذاك الرجل الذي دعاه أحدهم على الطعام، قائلا له إنه طعام طيب، فقال له ذاك الرجل: يا هذا إن هذا الطعام إنما طيّبته العافية.

نعمة العافية، تلك النعمة التي لا يشعر بها الإنسان إلا بعد فقدها.

كم عافاك الله من السوء؟

كان النبي ﷺ يقول: «**مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا**»[1].

ثلث الدنيا موضوع في أن يعافي الله جسدك من الألم والمرض.

---

(١) أخرجه الترمذي في «سننه» (٢٣٤٦)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٣٤٠).



هل تتذكر ذلك اليوم الذي تألمت فيه قطعة من جسدك فكدّرت عليك حياتك؟

هل شكرت ربك بعدها على عافيته لك سنين طوال؟

هل تعلم ما هي حياة رجل يغسل كليته أسبوعيا مرتين، وهل نظرت إلى ساعديه؟

بل هل نظرت يوما إلى وجه من أصيب بسرطان يوم أن كان يأخذ جرعة الكيماوي؟

هل وهل،...

العافية، تلك النعمة المنسية غالبا، والتي بها تطيب الحياة، الله هو من عافاك سبحانه.

يا أهل العافية، اذهبوا إلا المشفى فانظروا حجم النعيم الذي ترفلون فيه.

كان النبي ﷺ يدعو الله كل يوم بالعافية له في دينه ودنياه، فيقول: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ**»[٢].

كان النبي ﷺ يدعو الله صباح كل يوم ومساءه، فيقول: «**اللَّهُمَّ عَافِنِي فِي بَدَنِي، اللَّهُمَّ عَافِنِي فِي سَمْعِي، اللَّهُمَّ عَافِنِي فِي بَصَرِي، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ**»[٣].

وعلّم الحسن رضي الله عنه أن يدعو الله بالعافية في صلاة الوتر، فيقول: «**وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ**»[٤].

وكان الرجل إذا أسلم يعلمه هذا الدعاء: «**اللهُمَّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَاهْدِنِي، وَعَافِنِي وَارْزُقْنِي**»[٥].

سل ربك العافية، وإن عافاك فاشكره دوما على عافيته، فأنت لا تدري ما حال قلبك إن ابتُليت.

كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول: «**وَسَلُوا اللهَ الْمُعَافَاةَ، فَإِنَّهُ لَمْ يُؤْتَ أَحَدٌ بَعْدَ الْيَقِينِ خَيْرًا مِنَ الْمُعَافَاةِ**»[٦].

لا تتمنى البلاء، فإن البلاءات كواشف فواضح، لكن سل ربك العافية، واشكره على العافية، فإن ابتلاك فسله الصبر.

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه، عَادَ النبي ﷺ رَجُلاً قَدْ جُهِدَ حَتَّى صَارَ مِثْلَ الفَرْخِ فَقَالَ لَهُ: أَمَا كُنْتَ تَدْعُو؟ أَمَا كُنْتَ تَسْأَلُ رَبَّكَ العَافِيَةَ؟ قَالَ: كُنْتُ أَقُولُ: اللَّهُمَّ مَا كُنْتَ مُعَاقِبِي بِهِ فِي الآخِرَةِ فَعَجِّلْهُ لِي فِي الدُّنْيَا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: سُبْحَانَ الله، إِنَّكَ لاَ تُطِيقُهُ أَوْ لاَ تَسْتَطِيعُهُ، أَفَلاَ كُنْتَ تَقُولُ: اللَّهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ»[٧].

---

(٢) أخرجه أبو داود في «سننه» (٥٠٧٤).

(٣) أخرجه أبو داود في «سننه» (٥٠٩٠)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٥٤٢).

(٤) أخرجه الترمذي في «سننه» (٤٦٤)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح أبي داود» (١٢٨١).

(٥) أخرجه مسلم (٢٦٩٧).

(٦) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٧)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٥٦١).

(٧) أخرجه مسلم (٢٦٨٨).

قال أحد المحبين وهو يناجي ربه: «فَلَيْسَ لِي فِي سِوَاكَ حَظٌّ... فَكَيْفَ مَا شِئْتَ فَامْتَحِنِّي.

فَحُصِرَ بَوْلُهُ مِنْ سَاعَتِهِ، فظل يلتوي من الألم أربعة عشر يوما، فلما شفاه الله، قال » رب تبت إليك «، وكان يبكي، ويمر على الصبيان يقول لهم: استغفروا لعمكم الكذاب[8].

فعافية من الله وشكر، خير لك من بلاء وصبر، فإن قدّر عليك البلاء فاعلم أنّ هذا خير لك.

يقول عُمَرُ بْنُ السَّكَنِ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ، فَقَامَ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَغْدَادَ، فَقَالَ: أَخْبِرْنِي عَنْ قَوْلِ مُطَرِّفٍ: لَأَنْ أُعَافَى فَأَشْكُرَ. أَحَبُّ إِلَيْكَ أَمْ قَوْلُ أَخِيهِ أَبِي الْعَلَاءِ: اللَّهُمَّ رَضِيتُ لِنَفْسِي مَا رَضِيتَ لِي؟

قَالَ: فَسَكَتَ سَكْتَةً، ثُمَّ قَالَ: قَوْلُ مُطَرِّفٍ أَحَبُّ إِلَيَّ.

قَالَ الرجل: وَكَيْفَ وَقَدْ رَضِيَ هَذَا لِنَفْسِهِ مَا رَضِيَ الله لَهُ؟

قَالَ: إِنِّي قَرَأْتُ الْقُرْآنَ فَوَجَدْتُ صِفَةَ سُلَيْمَانَ مَعَ الْعَافِيَةِ الَّتِي كَانَ فِيهَا ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾، وَوَجَدْتُ صِفَةَ أَيُّوبَ مَعَ الْبَلَاءِ الَّذِي كَانَ فِيهِ: ﴿نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾، فَاسْتَوَتِ الصِّفَتَانِ فَهَذَا مُعَافًى وَهَذَا مُبْتَلًى، وَرَأَيْتُ الشُّكْرَ قَدْ قَامَ مَقَامَ الصَّبْرِ، فَلَمَّا اعْتَدَلَا كَانَتِ الْعَافِيَةُ مَعَ الشُّكْرِ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الْبَلَاءِ مَعَ الصَّبْرِ»[9].

(٨) أخرجه أبو نعيم في «**حلية الأولياء**» (١٠/ ٣١٠)، وانظر مدارج السالكين (٢/ ٥٠).

(٩) أخرجه ابن الأعرابي في «**معجمه**» (٢٣٧٧).



وقد يبتلي ليهذب



جاء شاب يوما يذكر ذاك المرض الذي طال أمده على والدته، أقعدها طريحة الفراش عدد سنين، وكان شديد الحب لأمه، يقوم على خدمتها، يأمل ذاك اليوم الذي تسترد فيه عافيتها، فينعم بالحياة معها، لكن، طالت سنون البلاء..

قلت له: ماذا لو كانت لوالدتك ذنوب لا يعلمها إلا الله، قد تكون نُسيت مع الحياة فلم تحدث لها توبة، بقيت ونُسيت لكنّ الله لم ينسى، فكان هناك خياران: إما أن تتطهر منها في الدنيا بهذه الآلام والأوجاع، أو تتطهر بها في النار عياذا بالله، فلو خيرناك لأمك، ماذا كنت تختار؟

قال: بلا شك أن تتطهر منها في الدنيا بمرضها هذا.

قلت: ماذا لو كانت والدتك يريد الله لها منزلة عليا في جنان الخلد، لكن قصُر بها عملها، فقدّر الله عليها الله هذا البلاء لتبلغ تلك المنزلة، أكنت تحمد الله على بلاءه أم تسخط؟

قال: بل أحمد الله بلا شك.

دوما هذا الإنسان عجول، يؤثر حياته الفانية على الباقية.

لكن الله الذي لا يريد لعبده الهلكة، ولا يفعل شيئا بعذاب عبده، قد يُقدّر على عبده ألما وأوجاعا وأمراضا يهذبه بها ويرقيه، لا ليعذبه بها ويشقيه، والعبد لا يدرك ألطاف الكريم.

فإليك بعض ألطاف الكريم:

كلنا بنو آدم نخطئ، نذنب، نغفل، تلهينا الدنيا بشهواتها، وكثيرا ما ننسى ذنوبنا، أحصاها الله ونسيناها.

تلك الذنوب التي دائما حالت بين العبد وربه، كل ذنب أبعدك عن الله خطوة، كل ذنب وضع به على قلب العبد سواد، كل ذنب يقسي قلبك، كل ذنب يحول بينك وبين القرآن ولذة المناجاة، كل ذنب يقربك من النار خطوة، يثقل ميزان السيئات ذرة، يباعدك عن الجنة خطوة.

كم من ذنب نسيه العبد، وربك ليس ينسى، فبرحمته أراد أن يُطهرك، فابتلاك لتخرج نقيا تصلح لجواره.

لما نزلت هذه الآية، وهي قوله سبحانه: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾، **جاء أبو بكر الصديق إلى النبي ﷺ، فقال: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ الصَّلَاحُ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ، فَكُلُّ سُوءٍ عَمِلْنَا جُزِينَا بِهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «غَفَرَ اللهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَسْتَ تَمْرَضُ؟ أَلَسْتَ تَنْصَبُ؟ أَلَسْتَ تَحْزَنُ؟ أَلَسْتَ تُصِيبُكَ اللَّأْوَاءُ؟» قَالَ: بَلَى. قَالَ: «فَهُوَ مَا تُجْزَوْنَ بِهِ»**(١٠).

فأول ألطافه سبحانه أن كل وجع، وكل ألم، وكل نصب، حتى تلك الشوكة التي تُشاكها، حتى

(١٠) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦٨)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٤٣٠).

تلك الإبرة التي توخذ بها، حتى غُصة ذاك الدواء الذي يمر من حلقك، كل هذا يكفر الله به ذنوبك، حتى تخرج من بلاءك ومرضك كيوم ولدتك أمك.

يقول النبي ﷺ: «**مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ، مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ، وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حُزْنٍ وَلاَ أَذًى وَلاَ غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ**»(١١).

عندما يصيبك الصداع، لا تحسب أن الله سيترك هذا بل ثواب.

قال النبي ﷺ: «**صُدَاعُ الْمُؤْمِنِ، أَوْ شَوْكَةٌ يُشَاكُهَا، أَوْ شَيْءٌ يُؤْذِيهِ يَرْفَعُهُ اللهُ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ دَرَجَةً، وَيُكَفِّرُ بِهَا عَنْهُ ذُنُوبَهُ**»(١٢).

بل حتى تلك العثرة، عندما تعثرت قدماك في ذاك الحجر، لم يتركه ربك بلا ثواب.

يقول النبي ﷺ: «**فِي كُلِّ مَا يُصَابُ بِهِ الْمُسْلِمُ كَفَّارَةٌ، حَتَّى النَّكْبَةِ يُنْكَبُهَا، أَوِ الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا**»(١٣).

أرأيت تلك الشجرة التي يتساقط عنها ورقها اليابس ورقة ورقة، هكذا أنت، كل ألم، وكل لحظة مرض، تسقط عنك خطاياك، كما هي تلك الشجرة.

يقول النبي ﷺ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى إِلَّا حَاتَّ اللهُ عَنْهُ خَطَايَاهُ، كَمَا تَحَاتُّ وَرَقُ الشَّجَرِ**»(١٤).

وقد يطول البلاء، ويعظم المصاب، ويشتد الألم، فلا تظن أن ذلك لهوانك على ربك، لا والله، بل هكذا يفعل الله بعباده الصالحين، حتى يخرجوا من الدنيا كما ولدتهم أمهاتهم، ليس عليهم خطيئة.

يقول النبي ﷺ: «: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: إِنِّي إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنًا، فَحَمِدَنِي عَلَى مَا ابْتَلَيْتُهُ، فَإِنَّهُ يَقُومُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ مِنَ الْخَطَايَا**»(١٥).

ويقول النبي ﷺ: «**مَا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ**»(١٦).

ويقول النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَيَبْتَلِي عَبْدَهُ بِالسَّقَمِ حَتَّى يُكَفِّرَ ذَلِكَ عَنْهُ كُلَّ ذَنْبٍ**»(١٧).

ومن ألطاف الكريم:

أنه يرفعك بهذا المرض في درجات الجنان.

الجنة درجات، بين كل درجة والتي تليها كما بين السماء والأرض.

---

(١١) أخرجه البخاري (٥٦٤١)، مسلم (٢٥٧٢)..

(١٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٤٠٩)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٤٣٤).

(١٣) أخرجه مسلم (٢٥٧٤).

(١٤) أخرجه البخاري (٥٦٤٦).

(١٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٧١١٨)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤/ ١٤٤).

(١٦) أخرجه الترمذي في «سننه» (٢٣٩٩)، و صححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٢٨٠).

(١٧) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١٢٨٦)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٣٩٣).



هل تمنيت يوما أن تكون مع النبي ﷺ في درجته؟

ذاك الصحابي الشاب الفقير كانت تلك أمنيته، أن يكون رفيق النبي ﷺ في الجنة.

قد يريد الله لك درجة عالية في الجنة، مع الأنبياء، مع الشهداء، مع أهل العلم الكبار.

قد يريد الله لكِ أمة الله أن تكوني مع مريم الصديقة، أو مع أمهات المؤمنين.

لكن قد تقصر بنا أعمالنا، لا تبلغنا تلك الدرجات العلى.

فيتفضل الكريم على عبده الصالح وأمته الصالحة ببعض الأوجاع والآلام التي ستنتهي حتما، ثم...

ثم يُصبرك على بلاءك، ينزل على قلبك برد الرضا، ثم يبلغك المنزلة التي أراد.

فيكون كل ألم، وكل همّ، وكل نصب، يحطّ الله به عنك خطيئة، ويرفعك به في الجنة درجة.

قال النبي ﷺ: «**إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ مَنْزِلَةٌ لَمْ يَبْلُغْهَا بِعَمَلِهِ، ابْتَلَاهُ اللهُ فِي جَسَدِهِ أَوْ فِي مَالِهِ أَوْ فِي وَلَدِهِ، ثُمَّ صَبَّرَهُ عَلَى ذَلِكَ حَتَّى يُبْلِغَهُ مَنْزِلَتَهُ الَّتِي سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ**»(١٨).

عندما تزداد آلامك، ويشتد وجعك، تذكر أوجاع النبي ﷺ عندما كان يمرض، كان الألم يشتد عليه حتى أنه يضاعف له الألم فيظل يتقلب في فراشه، وهو راض عن الله.

تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «**مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَشَدَّ عَلَيْهِ الوَجَعُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ**»(١٩).

وتحكي لنا أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ طَرَقَهُ وَجَعٌ، فَجَعَلَ يَشْتَكِي وَيَتَقَلَّبُ عَلَى فِرَاشِهِ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: لَوْ صَنَعَ هَذَا بَعْضُنَا لَوَجَدْتَ عَلَيْهِ؟ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ الصَّالِحِينَ يُشَدَّدُ عَلَيْهِمْ**»(٢٠).

ومن ألطاف الكريم:

أن كل أعمالك الصالحة التي كنت تعملها وأنت صحيح سليم ثم أقعدك عنها المرض فمن كرمه سبحانه أنه يكتبها لك كأنك تعملها، أجرك فيها تام غير منقوص.

قال النبي ﷺ: «**إِنَّ أَقْوَامًا بِالْمَدِينَةِ خَلْفَنَا، مَا سَلَكْنَا شِعْبًا وَلَا وَادِيًا إِلَّا وَهُمْ مَعَنَا فِيهِ، شَرِكُوكُمْ فِي الْأَجْرِ، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ**»، وفي رواية «**حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ**»(٢١).

وقال النبي ﷺ: «**إِذَا مَرِضَ العَبْدُ، أَوْ سَافَرَ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا**»(٢٢).

الله تعالى لما قدّر على عبده المرض جعل ذلك كأنه هو من أوثقك فلم تعد تستطيع فعل

(١٨) أخرجه أبو داود في «سننه» (٣٠٩٠)، وصححه لغيره الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٤٠٩).

(١٩) أخرجه البخاري (٥٦٤٦).

(٢٠) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٥٢٦٤)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٦١٠).

(٢١) أخرجه البخاري (٢٨٣٩)، ومسلم (١٩١١).

(٢٢) أخرجه البخاري (٢٩٩٦).

طاعاتـك التـي كنـت تفعلهـا، فـكان مـن كرمـه أن يبتليـك فيكفـر عنـك ذنوبـك، وفي ذات الوقـت يوفيـك أجـر طاعاتـك.

قـال النبـي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ عَـزَّ وَجَـلَّ يَقُـولُ: إِنِّي إِذَا ابْتَلَيْـتُ عَبْـدًا مِـنْ عِبَـادِي مُؤْمِنًـا، فَحَمِـدَنِي عَـلَى مَـا ابْتَلَيْتُـهُ، فَإِنَّـهُ يَقُـومُ مِـنْ مَضْجَعِـهِ ذَلِـكَ كَيَـوْمِ وَلَدَتْـهُ أُمُّـهُ مِـنَ الْخَطَايَـا، وَيَقُـولُ الـرَّبُّ عَـزَّ وَجَـلَّ: أَنَـا قَيَّـدْتُ عَبْـدِي، وَابْتَلَيْتُـهُ، فَأَجْـرُوا لَـهُ كَـمَا كُنْتُـمْ تُجْـرُونَ لَـهُ وَهُـوَ صَحِيـحٌ**»[٢٣].

وقـال النبـي ﷺ: «**مَـا أَحَـدٌ مِـنَ النَّـاسِ يُصَـابُ بِبَـلَاءٍ فِي جَسَـدِهِ إِلَّا أَمَـرَ اللهُ عَـزَّ وَجَـلَّ الْمَلَائِكَـةَ الَّذِيـنَ يَحْفَظُونَـهُ فَقَـالَ: اكْتُبُـوا لِعَبْـدِي فِي كُلِّ يَـوْمٍ وَلَيْلَـةٍ، مَـا كَانَ يَعْمَـلُ مِـنْ خَـيْرٍ، مَـا كَانَ فِي وِثَاقِـي**»[٢٤].

بـل ليـس فقـط أجـر مـا كنـت تعمـل، بـل يعطيـك عـلى أفضـل مـا كنـت تعمـل، أي أن قيـاس الأجـر عـلى أعظـم مـا وفقـك إليـه مـن اجتهـاد في الطاعـة.

يقـول النبـي ﷺ: «**إِذَا اشْـتَكَى الْعَبْـدُ المسـلم قَـالَ اللهُ تَعَـالَى لِلَّذِيـنَ يَكْتُبُـونَ: اكْتُبُـوا لَـهُ أَفْضَـلَ مَـا كَانَ يَعْمَـلُ إِذَا كَانَ طَلَقًـا حَتَّـى أُطْلِقَـهُ**»[٢٥].

لـذا في يـوم القيامـة عندمـا ينظـر أهـل العافيـة لعظيـم ثـواب أهـل البـلاء يتمنـوا ألـو كانـت قُرضـت أجسـادهم بالمقاريـض في الدنيـا لمـا يـرون مـن عظيـم الثـواب لأهـل البـلاء.

قـال النبـي ﷺ: «**يَـوَدُّ أَهْـلُ العَافِيَـةِ يَـوْمَ القِيَامَـةِ حِـينَ يُعْطَـى أَهْـلُ البَـلَاءِ الثَّـوَابَ لَـوْ أَنَّ جُلُودَهُـمْ كَانَـتْ قُرِضَـتْ فِي الدُّنْيَـا بِالْمَقَارِيـضِ**»[٢٦].

ومن ألطاف الكريم:

أنه ما أنزل داء إلا وأنزل له دواء.

قال النبي ﷺ: «**مَا أَنْزَلَ الله دَاءً إِلَّا أَنْزَلَ لَهُ شِفَاءً**»[٢٧].

فأنـزل الله الـداء ابتـلاءً، وأنـزل الشـفاء والـدواء رحمـة وامتنانـا، فـلا يوجـد داء البتـة إلا ولـه دواء، علمـه مـن علمـه، وجهلـه مـن جهلـه.

ثـم مـن لطفـه لم يجعـل شـيئا خبيثـا دواء لأدواء عبـاده، فالبلـد الطيـب يخـرج نباتـه بـإذن ربـه، والـذي خبـث لا يخـرج إلا نكـدا.

قال النبي ﷺ: «**من تداوى بِحَرَامٍ لَمْ يَجْعَلْ اللهُ له فيه شِفَاءً**»[٢٨].

---

(٢٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٧١١٨)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤/ ١٤٤).

(٢٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦٤٨٢)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣/ ٢٣٣).

(٢٥) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٣٠٩)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٢٣٢).

(٢٦) أخرجه الترمذي في «سننه» (٢٤٠٢)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٤٠٤)..

(٢٧) أخرجه البخاري (٥٦٧٨).

(٢٨) أخرجه أبو نعيم في «الطب النبوي» (٥٣)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٨٨١).



وَأَنْتَ الشَّافِي، لاَ شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ



ومن عظيم لطفه أن الشفاء بيده وحده لا بيد غيره.

إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِالله دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ.

استوقفتني هذه الكلمة التي قالها غلام أصحاب الأخدود لجليس الملك عندما جاءه بهدايا كثيرة، ثم قال له: «مَا هَاهُنَا لَكَ أَجْمَعُ، إِنْ أَنْتَ شَفَيْتَنِي.

فَقَالَ الغلام كلاما في غاية الوضوح، حتى لا تتعلق القلوب بالسراب، وإنما تتعلق بمن بيده الشفاء حقا.

قال: إِنِّي لَا أَشْفِي أَحَدًا إِنَّمَا يَشْفِي اللهُ، فَإِنْ أَنْتَ آمَنْتَ بِالله دَعَوْتُ اللهَ فَشَفَاكَ.

فَآمَنَ الرجل بِالله فَشَفَاهُ اللهُ.

فَأَتَى جليس الملك إلى الملك، فَجَلَسَ إِلَيْهِ كَمَا كَانَ يَجْلِسُ، فَقَالَ لَهُ الْمَلِكُ: مَنْ رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؟

قَالَ: رَبِّي.

قَالَ: وَلَكَ رَبٌّ غَيْرِي؟

قَالَ: رَبِّي وَرَبُّكَ اللهُ»(٢٩).

تخيل لو أن الشفاء بيد أحد من الناس كيف يكون الحال؟

الحمد لله الذي جعل الشفاء بيده لا بيد غيره.

حتى أن عيسى عليه السلام لما أجرى الله على يديه شفاء الأكمه والأبرص، قال: «**وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ**». آل عمران (٤٩)

عندما توقن أن الشفاء بيد الله، وأنه وحده قادر أن يزيل بأسك وضرك، وأن ما أمرضك بيده أن يصرفه عنك، ستلجأ إليه لجأ الموقن برحمته.

أيوب عليه السلام يمكث السنين الطوال طريح الفراش، ولم يقنط من رحمة ربه، فنادى مولاه قائلا: «**أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**». الأنبياء (٨٣)

---

(٢٩) أخرجه مسلم (٣٠٠٥).



فقال الله: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ﴾. الأنبياء (٨٤)

في كل ليلة ينزل الله تعالى نزولا يليق بجلاله، يقول: «: «**أَلَا سَائِلٌ يُعْطَى أَلَا دَاعٍ يُجَابُ أَلَا سَقِيمٌ يَسْتَشْفِي فَيُشْفَى أَلَا مُذْنِبٌ يَسْتَغْفِرُ فَيُغْفَرَ لَهُ**»[٣٠].

ألا سقيم يستشفي، فسبحان الكريم الشافي، يدعو عباده ليسألوه الشفاء.

الله يحب منك أن تتضرع إليه، أن تدعوه، أن تستشفيه، والله يسمع تضرعك، ويثيبك على دعائك، ويشفيك ويذهب بأسك سبحانه، فهو الشافي وحده، لا شافي إلا هو، لا شفاء إلا شفاؤه.

كان النبي ﷺ يرقي نفسه فيقول: «**اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ، مُذْهِبَ البَاسِ، اشْفِ أَنْتَ الشَّافِي، بيدك الشفاء، لاَ شَافِيَ إِلَّا أَنْتَ، شِفَاءً لاَ يُغَادِرُ سَقَمًا**»[٣١].

وكَانَ إِذَا أَتَى مَرِيضًا أَوْ أُتِيَ بِهِ، قَالَ: «**أَذْهِبِ البَاسَ رَبَّ النَّاسِ، اشْفِ وَأَنْتَ الشَّافِي، لاَ شِفَاءَ إِلَّا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لاَ يُغَادِرُ سَقَمًا**»[٣٢].

استعذ بالله من ضُرك، مما نزل بك من ألم، استعذ بعزته وقدرته مما تجد وتحاذر يعذك سبحانه، فهو قدير أن يذهب كل آلامك في غمضة عين.

جاء عثمان بن أبي العاص إلى رسول الله ﷺ، فشكا إليه يَجِدُهُ في جَسَدِهِ مُنْذُ أَسْلَمَ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ: «**ضَعْ يَدَكَ عَلَى الَّذِي تَأَلَّمَ مِنْ جَسَدِكَ، وَقُلْ بِاسْمِ اللهِ ثَلَاثًا، وَقُلْ سَبْعَ مَرَّاتٍ أَعُوذُ بِالله وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ» ففعلتُ ذلك، فأذهبَ اللهُ عزَّ وجل ما كان بي**»[٣٣].

(٣٠) أخرجه أحمد في «**مسنده**» (٩٦٧)، بإسناد حسن.

(٣١) أخرجه البخاري (٥٧٤٢)، (٥٧٤٤).

(٣٢) أخرجه البخاري (٥٦٧٥)، ومسلم (٢١٩١).

(٣٣) أخرجه مسلم (٢٢٠٢).



لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ



أرق شيء وجدته لطفا من الكريم بمن ابتُلي بالمرض هذه المعية الربانية، فكيف لا يُحب.

يحكي لنا النبي ﷺ هذا الحوار بين الله وعبد من عباده، يعاتبه الله تعالى:

يقول الله: يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي.

قَالَ العبد: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟

قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ[٣٤]؟

إن الله بجلاله على عرشه، بائن من خلقه سبحانه لا يحيط به مكان، فهو الظاهر فليس فوقه شيء، والباطن فليس دونه شيء.

لكن لله معية خاصة، قرب خاص، كرم خاص، مزيد فضل ورعاية، لمن؟

الله سبحانه عند المنكسرة قلوبهم، ولا يكسر قلب العبد مثل المرض.

عندما يمرض الإنسان منا يقعده مرضه عن رؤية الناس، ويكسره مرضه وحاجته لمن حوله، تسوء ظنونه، هذا مع آلامه التي قد تفقده لذة الحياة.

تمر عليه الساعات الطوال، ليل ونهار، لا يرى إلا حبات الدواء.

يحتاج مؤنسا يسليه، يسمع منه كلمة تكون أملا له فيما ساءت ظنونه.

لما قرأت هذا الحديث لم أستطع أن أقاوم ذاك الحب الذي ملكني ساعتها، جبريل يزور مؤمنا في مرضه، أيمكن هذا؟!!

في ذات يوم عَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَلَمَّا دَنَا مِنْ مَنْزِلِهِ سَمِعَهُ يَتَكَلَّمُ فِي الدَّاخِلِ، فَلَمَّا اسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ دَخَلَ فَلَمْ يَرَ أَحَدًا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**سَمِعْتُكَ تُكَلِّمُ غَيْرَكَ**»

قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، لَقَدْ دَخَلْتُ الدَّاخِلَ اغْتِمَامًا بِكَلَامِ النَّاسِ مِمَّا بِي مِنَ الْحُمَّى، فَدَخَلَ عَلَيَّ دَاخِلٌ، مَا رَأَيْتُ رَجُلًا بَعْدَكَ قَطُّ أَكْرَمَ مَجْلِسًا، وَلَا أَحْسَنَ حَدِيثًا مِنْهُ.

قَالَ: «**ذَاكَ جِبْرِيلُ ﷺ، وَإِنَّ مِنْكُمْ لِرِجَالًا لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ يُقْسِمُ عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لَأَبَرَّهُ**»[٣٥].

---

(٣٤) أخرجه مسلم (٢٥٦٩).

(٣٥) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٧١٧)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣١٣٥).



من كرم الله ولطفه أنه حث خلقه أعظم الحث وأطيبه على عيادة المرضى.

وأعظم هذا أنه قال: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟

أن يعاتب الله ابن آدم على أنه لم يزر مريضا، فكيف لا يُحب!

أن يذكر الله أنه عند المريض، فكيف لا يُحب!

كل هذا ليدعوك لتؤنس أخاك، لتذهب وحشته، أما علمت أن إيناس الوحشان معروف يرضي الله تعالى.

يقول النبي ﷺ: «**لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تُؤْنِسَ الْوَحْشَانَ فِي الْأَرْضِ**»[36].

لما مرض الإمام الشافعي رحمه الله، زاره يونس بن عبد الأعلى، فلما أن أراد أن ينصرف قال له الإمام الشافعي رحمه الله: «**لا تَغْفُلْ عَنِّي، فَإِنِّي مَكْرُوبٌ**»[37].

هكذا المكروب والمهموم، يحتاج من يؤنسه ويسليه.

بل يملأ القلب حبا ذاك الفضل العظيم الذي جعله الله لمن يزور مريضا.

تعجب أشد العجب، تقول كل هذا الفضل لأجل ماذا؟

لأجل دقائق أمضاها المرء مع أخيه المريض!!

أولها: أنك من أول ما تخرج من بيتك لعيادة أخيك المريض كأنك تمشي في طريق من طريق الجنة، يتساقط عليك من جنى ثمارها، وهكذا أنت تنزل عليك رحمات الله وفضله وعظيم ثوابه حتى ترجع.

يقول النبي ﷺ: «**مَنْ عَادَ مَرِيضًا، لَمْ يَزَلْ فِي خُرْفَةِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرْجِعَ**». وخرفة الجنة أي جنى ثمارها[38].

وثانيها: أن من عاد أخاه المريض كان يمشي في رحمات الله، فإن جلس إليه استقر فيها.

قال النبي ﷺ: «**مَنْ عَادَ مَرِيضًا خَاضَ فِي الرَّحْمَةِ، حَتَّى إِذَا قَعَدَ اسْتَقَرَّ فِيهَا**»[39].

وثالثها: أن من عاد أخاه في الصباح صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسي، ومن عاد أخاه في المساء صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح.

يكاد عقلك يذهب، كل هذا، سبعون ألف ملك يقولون: اللهم اغفر لفلان، اللهم ارحم فلانا،

(٣٦) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٥٩٥٥)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٤٢٢).
(٣٧) أخرجه ابن أبي حاتم في «مناقب الشافعي» (ص٥٧).
(٣٨) أخرجه مسلم (٢٥٦٨).
(٣٩) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٥٢٢)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٤٠٧).



ليست مرة ولا مرات، ولا ساعة ولا ساعتين، إنما طول النهار، النهار كله حتى المساء، أو المساء كله حتى الصباح.

قال النبي ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَعُودُ مُسْلِمًا غُدْوَةً إِلاَّ صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُمْسِيَ، وَإِنْ عَادَهُ عَشِيَّةً إِلاَّ صَلَّى عَلَيْهِ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ حَتَّى يُصْبِحَ»(٤٠).

ومن عظيم معية الله للمريض، وقربه منه، أنه ينزل الصبر مع البلاء.

يقول النبي ﷺ: «إِنَّ الْمَعُونَةَ تَأْتِي مِنَ اللهِ عَلَى قَدْرِ الْمُؤْنَةِ، وَإِنَّ الصَّبْرَ يَأْتِي مِنَ اللهِ عَلَى قَدْرِ الْبَلاَءِ»(٤١).

ومن جميل معيته سبحانه للمريض أنه يطعمه ويسقيه، يسوق إليه ما به حياته.

وفي ذلك حديث رقراق جدا، ملأني حبا لله ورب الكعبة.

يقول النبي ﷺ: «لاَ تُكْرِهُوا مَرْضَاكُمْ عَلَى الطَّعَامِ، فَإِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُطْعِمُهُمْ وَيَسْقِيهِمْ»(٤٢).

كل هذا لا أقول يدعوك إلى الصبر، بل يدعوك إلى الرضا، ترضى عن كل أفعاله بك، فإن كان قدّر عليك المرض سنين فقد عافاك سنين أخرى، وإن كان أخذ منك بعض قوتك فقد أخذ ما له لا ما لك، وأبقى لك ما لا فضل لك فيه، ثم أجزل لك الثواب، فطهرك به من ذنبك، ورفع به درجتك، وكان معك في مرضك، معك بفضله، ينزل عليك سكينته، يطعمك ويسقيك، فإن شكوته لعوادك شكوت من يرحمك بما به يرحمك إلى من لا يرحمك، وإن صبرت كانت العاقبة لك في الدنيا والآخرة.

يقول الله تعالى في الحديث القدسي: «إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِيَ الْمُؤْمِنَ، وَلَمْ يَشْكُنِي إِلَى عُوَّادِهِ أَطْلَقْتُهُ مِنْ أَسَارِي، ثُمَّ أَبْدَلْتُهُ لَحْمًا خَيْرًا مِنْ لَحْمِهِ، وَدَمًا خَيْرًا مِنْ دَمِهِ، ثُمَّ يُسْتَأْنَفُ الْعَمَلَ»(٤٣).

وصدق والله من قال: «لَوْلَا مَصَائِبُ الدُّنْيَا قَدِمْنَا عَلَى اللهِ مَفَالِيسَ».

(٤٠) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦١٢)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٣٦٧).

(٤١) أخرجه البزار في «مسنده» (٨٨٧٨)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٦٦٤).

(٤٢) أخرجه الترمذي في «سننه» (٢٠٤٠)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٧٢٧).

(٤٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١٢٩٠)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٧٢).

وهو الخافض الرافع



قلوب الخلق بيده، يضع لأولياءه القبول برحمته،
وللأشقياء السخط بعدله
فإن أرضيته كفاك مؤنة الناس، يدفع عنك إفكهم،
يبرئك في الدنيا والآخرة، فكيف لا يُحب.

وَالله وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ



رجل فيه شركاء متشاكسون، ورجل سلم لرجل.

إنسان ينظر إلى قلوب الخلق، يؤرقه حبهم وبغضهم، يبحث عن إرضائهم ويخشى سخطهم.

إنسان يسمع كلمة ثناء من مخلوق مثله فيطير فرحا، ويسمع كلمة ذم فيبتئس.

ذاك هو الإنسان البائس في هذه الدنيا.

وآخر:

تعلق قلبه بربه وحده، يسعى لمرضاته فحسب.

الذي يؤرقه: من هو عند الله؟ ما اسمه عند ربه؟ ما وزنه لديه؟

أكريم هو على ربه أم هين؟

يرى الناس يخوضون فيه مدحا وذما، وكل هذا عنده تراب.

عنوان حياته:

فَلَيْتَكَ تَحْلُو، وَالْحَيَاةُ مَرِيرَةٌ... وَلَيْتَكَ تَرْضَى. وَالْأَنَامُ غِضَابُ

وَلَيْتَ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَامِرٌ ... وَبَيْنِي وَبَيْنَ الْعَالَمِينَ خَرَابُ

إِذَا صَحَّ مِنْكَ الْوُدُّ فَالْكُلُّ هَيِّنٌ.... وَكُلُّ الَّذِي فَوْقَ التُّرَابِ تُرَابُ

ما الفارق بين هذا وذاك؟

المؤمن بالله ربا، موقن أن الله وحده بيده الأمر كله، هو من يدبر الأمر، هو من يعطي ويمنع، هو من يضر وينفع، هو من يخفض ويرفع.

يوقن أن الناس كل الناس لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، بل لا يملكون قلوبهم بالحب والبغض، لا يملكون ألسنتهم بالثناء والذم، بل الله يملكهم ويملك قلوبهم وألسنتهم.

وقف أعرابي يوما أمام النبي ﷺ، فقال: «إِنَّ حَمْدِي زَيْنٌ وَإِنَّ ذَمِّي شَيْنٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ذَاكَ الله عَزَّ وَجَلَّ»[1].

كأن الرجل ظن نفسه ذا كلمة مسموعة، يرفع بمدحه من شاء، ويخفض بذمه من شاء.

فقال له النبي ﷺ: ذاك الله.

---

(١) أخرجه الترمذي في «سننه» (٣٢٦٧)، صححه الشيخ الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٦٠٥).





الله وحده هو الخافض الرافع، فمن مدحه الله ورضي عنه كان عظيم القدر، مقبولا عند الخلق وإن كرهوا، ومن سخط الله عليه، وذمه، كان مهينا ذليلا بغيضا عند الخلق رغم أنوفهم.

ألم يقل المولى: ﴿وَمَنْ يُهِنِ الله فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾. سورة الحج (١٨)

أتدري كيف يوضع القبول في الأرض لعبد مسكين من عباد الله؟

إليك القصة:

تبدأ القصة بعبد يتلمّس مراضي الله، وإن سخط الناس جميعا.

يراه الله على ذلك فيحبه ربه، ثم..

استمع إلى هذا الجمال

يقول النبي ﷺ: «إِذَا أَحَبَّ اللهُ العَبْدَ نَادَى جِبْرِيلَ: إِنَّ اللهَّ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحْبِبْهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَّ يُحِبُّ فُلاَنًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ القَبُولُ فِي الأَرْضِ

وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّي أُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ، قَالَ فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ: فَيُبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ»[٢].

الله هو من يضع القبول أو يضع البغضاء.

لقد استراح المؤمن إذ قلبه يصمد لإله واحد، لا يرى الخير إلا منه.

نظر إلى الناس فوجدهم مثله، عبيد، مربوبون، ينتظرون رزقهم من الله، لا يملكون مثقال ذرة.

إن تكلم فلله، وإن سكت فلله.

إن أعطى فلله، وإن منع فلله.

إن أحبّ فلله، وإن أبغض فلله.

فهو بالله ولله، ليس للناس منه نصيب.

تراه يقول لنفسه: وما الناس؟

ليس كبرا على أحد، بل هو يرى نفسه أقل الناس، لكن لا وزن لهم في قلبه، رضاهم وسخطهم عنده سواء، وذاك هو الحرُّ.

أما الآخر:

فهو عبد الكلمة، ترضيه كلمه وتسخطه كلمة، يتلمس مراضي الناس، ولا يستطيع، يبحث عن وزنه عندهم، يظن المسكين أن لهم من الأمر شيئا، وذاك هو الأسير.

---

(٢) أخرجه البخاري (٣٢٠٩)، ومسلم (٢٦٣٧).



هل جاءك نبأ أول من تُسعر بهم جهنم، خابوا وخسروا؟

إنهم ثلاثة أجود ما يكون عملهم:

أولهم: رجل قرأ القرآن، وتعلم العلم، وأقرأ القرآن، وعلم العلم.

وثانيهم: رجل غني أعطاه الله من أصناف الأموال، فلم يدع باب خير إلا وأنفق فيه.

وثالثهم: رجل خرج إلى ساحة الجهاد في سبيل الله، فقاتل حتى قتل[(٣)].

أتدري ما محنة هؤلاء؟

أنهم فعلوا كل هذا الخير لأجل: ليقال عنهم.

لأجل الناس، ابتغاء السمعة والمنزلة والحظوة والمدح عند الناس.

قل لي بربك: ماذا أغنى عنهم الناس بعد أن ألقوا في الجحيم؟

الشرك يا صديقي خفي كدبيب النمل، يتسلل إلى قلب العبد عندما يلتفت القلب إلى الناس.

أسقط الناس من حساباتك.

خَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «**أَيُّهَا النَّاسُ إِيَّاكُمْ وَشِرْكَ السَّرَائِرِ**». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! وَمَا شِرْكُ السَّرَائِرِ؟ قَالَ: «يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي، فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ، جَاهِدًا لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ النَّاسِ إِلَيْهِ، فَذَلِكَ شِرْكُ السَّرَائِرِ»[(٤)].

اكتف بعلم الله بك عن علم الخلق.

فماذا لو علم الله طاعاتك وخفيت عن الناس؟

إن كان الخير منه وإليه فما ضرك علم الناس أم لم يعلموا.

لما فتح المسلمون نهاوند، وجاء الخبر إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال له من جاء بخبر الفتح: «**احْتَسِبِ النُّعْمَانَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَبَكَى عُمَرُ وَاسْتَرْجَعَ، فَقَالَ: وَمَنْ وَيْحَكَ؟. قَالَ: وَفُلَانٌ وَفُلَانٌ- حَتَّى عَدَّ نَاسًا- ثُمَّ قَالَ: وَآخَرِينَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَا تَعْرِفُهُمْ. فَقَالَ عُمَرُ- رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِ- وَهُوَ يَبْكِي-: لَا يَضُرُّهُمْ أَنْ لَا يَعْرِفَهُمْ عُمَرُ، لَكِنَّ اللهَ يَعْرِفُهُمْ**»[(٥)].

في ذات يوم قال الربيع بن خثيم لأهله: اصْنَعُوا لِي خَبِيصًا» قَالَ: فَصَنَعُوا، فَدَعَا رَجُلًا كَانَ بِهِ خَبَلٌ، قَالَ: فَجَعَلَ الرَّبِيعُ يُلْقِمُهُ وَلُعَابُهُ يَسِيلُ، فَلَمَّا أَكَلَ وَخَرَجَ قَالَتْ لَهُ أَهْلُهُ: تَكَلَّفْنَا وَصَنَعْنَا فِيهِ، ثُمَّ أَطْعَمْتَهُ مَا يَدْرِي هَذَا مَا أَكَلَ؟ قَالَ الرَّبِيعُ: «**لَكِنَّ اللهَ يَدْرِي**»[(٦)].

هكذا فليكن: لكن الله يدري، وحسبك به.

---

(٣) أخرجه مسلم (١٩٠٥).

(٤) أخرجه ابن خزيمة في «**صحيحه**» (٩٣٧)، وحسنه الشيخ الألباني في «**صحيح الترغيب والترهيب**» (٣١).

(٥) أخرجه ابن حبان في «**صحيحه**» (٤٧٥٦)، وإسناده صحيح..

(٦) أخرجه ابن أبي شيبة في «**مصنفه**» (٢٤٥٤٠)..



بل أنت عند الله غال



من أنت عند الله؟ ومن أنت عند الناس؟

زاهر بن حرام، رجل من أصحاب النبي ﷺ، من أهل البادية، ربما لا يعرفه أكثر الناس.

كان يُهْدِي إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْهَدِيَّةَ فَيُجَهِّزُهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ.

جاء النبي ﷺ يوما إلى السوق، فوجده يبيع متاعه، فاحتضنه من خلفه، وزاهر لا يبصر رسول الله ﷺ.

فقال زاهر: أرسلني، من هذا؟ فالتفت، فإذا هو رسول الله ﷺ.

جعل النبي ﷺ يمزح معه وهو يحتضنه ويقول: مَنْ يَشْتَرِي هَذَا الْعَبْدَ؟

فَقَالَ زَاهِرٌ: تَجِدُنِي يَا رَسُولَ اللهِ كَاسِدًا.

فقَالَ النبي ﷺ: «**بَلْ أَنْتَ عِنْدَ الله غال**»[7].

إن كنت كريما على الله، غاليا عنده، فما ضرك ألا يكون لك وزن عند الناس.

وإن كان العبد عظيما عند الناس، وهو عند الله مهان، فماذا ربح المسكين.

يقول النبي ﷺ: «**رُبَّ أَشْعَثَ، مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى الله لَأَبَرَّهُ**»[8].

عندما يكون وزن عبد عند الله أنه لو أقسم على الله لأبره، فماذا فعل هذا العبد؟

أنس بن النضر رضي الله عنه، كانت له أخت تُدعى الرُّبَيِّعَ.

وفي ذات يوم كسرت الرُبيع ثَنِيَّةَ جَارِيَةٍ، فكان حكم النبي ﷺ: القصاص.

طلب أنس من أهل الجارية العفو أو يدفعوا دية لذلك، لكنهم أبوا.

قال أنس بن النضر: أَتُكْسَرُ ثَنِيَّةُ الرُّبَيِّعِ يَا رَسُولَ اللهِ، لَا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ، لَا تُكْسَرُ ثَنِيَّتُهَا.

وفجأة رضي القوم وعفوا.

فقال النبي ﷺ: إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ»[9].

يوم القيامة تنصب الموازين بالقسط، توزن الأعمال ويوزن الناس.

فمن الناس من يزن عند الله الجبال، ومنهم من لا يزن عند الله جناح بعوضة.

صعد عبد الله بن مسعود يوما على شجرة يجتني منها شيئا، فظهرت ساقه، فضحك بعضهم

(٧) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٥٧٩٠)، وصححه الشيخ الألباني في «مختصر الشمائل» (ص١٢٧).

(٨) أخرجه مسلم (٢٦٢٢).

(٩) أخرجه البخاري (٢٧٠٣).



من دقة ساقيه.

فقال النبي ﷺ: «**لَرِجْلُ عَبْدِ اللهِ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ أُحُدٍ**»[10].

الميزان يوم القيامة ليس بالأجساد، ولا بالأموال، ولا بالجاه، ولا بالسلطان، وإنما بما في القلوب.

يقول النبي ﷺ: «**إِنَّهُ لَيَأْتِي الرَّجُلُ العَظِيمُ السَّمِينُ يَوْمَ القِيَامَةِ، لاَ يَزِنُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، وَقَالَ: اقْرَءُوا، ﴿فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ وَزْنًا﴾ [الكهف: ١٠٥]**»[11].

كم من إنسان مغمور بين الناس، لا وزن له في جلساتهم، ولا في حياتهم، وهو عند الله خير من ملء الأرض منهم جميعا.

كان النبي ﷺ جالسا يوما بين أصحابه، فمرّ رجل من أشراف الناس.

فقال النبي ﷺ لأصحابه: مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟

قالوا: هَذَا مِنْ أَشْرَافِ النَّاسِ، هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ أَنْ يُخَطَّبَ، وَإِنْ شَفَعَ أَنْ يُشَفَّعَ، وَإِنْ قَالَ أَنْ يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ.

فَسَكَتَ النَّبِيُّ ﷺ. فَمَرَّ رَجُلٌ مِنْ فُقَرَاءِ المُسْلِمِينَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟

قالوا: هَذَا مِنْ فُقَرَاءِ المُسْلِمِينَ، هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ لَمْ يُنْكَحْ، وَإِنْ شَفَعَ لَا يُشَفَّعْ، وَإِنْ قَالَ لَا يُسْمَعْ لِقَوْلِهِ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «**هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الْأَرْضِ مِثْلَ هَذَا**»[12].

تخيل لو ملأنا الأرض رجالا، الواحد منهم في غاية الغنى والوجاهة والسلطان، قد تكون أعدادهم تتجاوز مليارات المليارات، هؤلاء جميعا لا يزنون عبدا واحدا عند الله، هو عند الناس لا يُسمع قوله إن تكلم، وإن نكح امرأة رفضه الناس، لكنه عند الله غال.

أويس بن عامر القرني، خير التابعين، لم يكن يعرفه أهل اليمن، بل هو عندهم لا وزن له، لكن يخبر به النبي ﷺ أصحابه قبل موته، حتى أنه قال: «**يَأْتِي عَلَيْكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ، مِنْ مُرَادٍ، ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ، كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ، لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ، فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ**».

تمر الأيام، ويتولى الفاروق الخلافة، يفد عليه الناس، ويسأل عن أويس، لكن لا يعرفه أحد، حتى أتى عليه يوم جمع من أهل اليمن، فعرفه عمر رضي الله عنه، فقال له: «**أَنْتَ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: مِنْ مُرَادٍ ثُمَّ مِنْ قَرَنٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَكَانَ بِكَ بَرَصٌ فَبَرَأْتَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: لَكَ وَالِدَةٌ؟ قَالَ: نَعَمْ. فذكر له قول النبي ﷺ فيه، ثم قال عمر له: فَاسْتَغْفِرْ لِي، فَاسْتَغْفَرَ لَهُ، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: أَيْنَ تُرِيدُ؟ قَالَ: الْكُوفَةَ، قَالَ: أَلَا أَكْتُبُ لَكَ إِلَى عَامِلِهَا؟ قَالَ: أَكُونُ فِي غَبْرَاءِ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَيَّ**»[13]. لا يعرفه الناس، لكن لو أقسم على الله لأبره.

---

(١٠) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٢٣٧)، وصححه بطرقه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٧٥٠).

(١١) أخرجه البخاري (٤٧٢٩)، ومسلم (٢٧٨٥)..

(١٢) أخرجه البخاري (٥٠٩١).

(١٣) أخرجه مسلم (٢٥٤٢).





وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ



وَأَنْ نَقُومَ أَوْ نَقُولَ بِالحَقِّ حَيْثُمَا كُنَّا، لاَ نَخَافُ فِي اللهِ لَوْمَةَ لاَئِمٍ، على هذا بايع الصحابة رسول الله ﷺ[١٤].

إرضاء الله أو إرضاء الناس.

أكثر الناس كما قال الله (لا يؤمنون، لا يعلمون، لا يشكرون)

والنفس جبلت على الحرص والشح وحب الدنيا وشهواتها وملذاتها، فإن قال بالحق أو عمل به غضب الناس، فتحدث المنازعة، إن عارضت أهوائهم أسخطتهم فمنعوك دنياهم، وإن وافقتهم أرضيتهم وشاركوك دنياهم .

لكن المؤمن يؤثر مرضاة الله على من سواه، يقول الحق ويعمل به لا يخاف في الله لومة لائم.

هكذا وصف الله أولياءه، فقال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي الله بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَالله وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾. سورة المائدة (٥٤)

عندما تنظر إلى سيرة عمر رضي الله عنه، وترى شدته في دين الله، وكيف أنه ما كان يبالي بأحد، يقول الحق كائن في ذلك ما هو كائن، تدرك حينها ثناء حذيفة بن اليمان رضي الله عنه على عمر.

قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه يوما لأصحابه: «وَاللَّهِ مَا أَعْلَمُ فِي الأَرْضِ مِائَةَ مُؤْمِنٍ، فَنَظَرَ بَعْضُنَا إِلَى بَعْضٍ، فَقُلْنَا: أَمَا فِي شَامِ الأَرْضِ وَعِرَاقِهَا مِائَةُ مُؤْمِنٍ، فَعَرَفَ ذَلِكَ فِينَا، فَقَالَ: وَاللَّهِ، مَا أَعْلَمُ رَجُلا لا تَأْخُذُهُ فِي اللَّهِ لَوْمَةُ لائِمٍ غَيْرَ هَذَا الرَّجُلِ، عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه، فَكَيْفَ أَنْتُمْ لَوْ فَارَقَكُمْ[١٥]؟

إن هذا الدين لا يقوم إلا على هؤلاء الأسود، الذين يرضون الله ولو سخط الناس.

هم يوقنون أن الله سيكفيهم الناس، رضوا أم لم يرضوا، فالأمور تدبر من السماء لا من الأرض.

قال النبي ﷺ: «**مَنْ أَرْضَى اللَّهَ بِسَخَطِ النَّاسِ كَفَاهُ الله وَمَنْ أَسْخَطَ اللَّهَ بِرِضَا النَّاسِ وَكَلَهُ الله إلى الناس**»[١٦].

هما سبيلان:

أن تُرضي ربك بسخط الناس، فيكفيك ربك شر الناس.

أو أن تُرضي الناس بسخط الله، فيكلك الله إلى الناس فتخذل، بل يعود حامدهم لك ذاما مبغضا.

ألم يقل الله: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا﴾. سورة الإسراء (٢٢)

---

(١٤) أخرجه البخاري (٧١٩٩)، ومسلم (١٧٠٩).

(١٥) أخرجه ابن بشران في «**الأمالي**» (١٢٢٥)، بإسناد صحيح..

(١٦) أخرجه ابن حبان في «**صحيحه**» (٢٧٧)، وصححه الشيخ الألباني في «**السلسلة الصحيحة**» (٢٣١١).

هذا التعلق بالناس تكون عاقبته لمن تعلق بهم أن يكون مخذولا لا ناصر له، مذموما لا مادح له.

عندما تخلف كعب بن مالك ﷺ عن غزوة تبوك، حدثت عنده تلك المنازعة.

أيكذب كما كذب المنافقون؟ أم أيختلق المعاذير لينجو من سخط رسول الله ﷺ؟

كان كعب ﷺ مؤمنا حقا، أزاح الله عنه الباطل، فقرر الصدق، لأنه يعلم أن به نجاته.

جاء كعب حتى جلس بين يدي رسول الله ﷺ، فسأله: مَا خَلَّفَكَ، أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ».

قال كعب: بَلَى، إِنِّي وَاللهِّ لَوْ جَلَسْتُ عِنْدَ غَيْرِكَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، لَرَأَيْتُ أَنْ سَأَخْرُجُ مِنْ سَخَطِهِ بِعُذْرٍ، وَلَقَدْ أُعْطِيتُ جَدَلًا، وَلَكِنِّي وَاللهِّ، لَقَدْ عَلِمْتُ لَئِنْ حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذِبٍ تَرْضَى بِهِ عَنِّي، لَيُوشِكَنَّ اللهُ أَنْ يُسْخِطَكَ عَلَيَّ، وَلَئِنْ حَدَّثْتُكَ حَدِيثَ صِدْقٍ، تَجِدُ عَلَيَّ فِيهِ، إِنِّي لَأَرْجُو فِيهِ عَفْوَ اللهِّ، لاَ وَاللهِّ، مَا كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ، وَاللهِّ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى، وَلاَ أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عَنْكَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِّ ﷺ: «**أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِيكَ**»[17].

هو موقن أن الله هو من يملك قلب رسول الله ﷺ، وأن الله قادر على أن يُرضي النبي ﷺ عنه أو يُسخطه عليه، فلجأ إلى من بيده ذلك فاستراح.

هكذا المؤمن مستريح، لا يصانع الناس، يرضي به وكفى.

كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري، فقال: «**فَمَنْ خَلُصَتْ نِيَّتُهُ فِي الْحَقِّ وَلَوْ كَانَ عَلَى نَفْسِهِ كَفَاهُ اللهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ تَزَيَّنَ لَهُمْ بِمَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ شَانَهُ اللهُ**»[18].

ثم هل ستُرضي الناس حقا؟

الناس يا صديقي لم يرضوا عن الله، منهم من يسخط قضاءه وقدره، ومنهم من يسخط أفعاله في خلقه، ومنهم من يكره شرعه ودينه، أفترى لا يرضون عن ربهم ويرضون عنك؟

: قيل للحسن البصري: إن الناس يأتون مجلسك ليأخذوا سقط كلامك فيجدون الوقيعة فيك، فقال: «**هون عليك فإني أطمعت نفسي في جوار الله، فطمعت، وأطمعت نفسي في الجنان فطمعت، وأطمعت نفسي في الحور العين، فطمعت، وأطمعت نفسي في السلامة من الناس، فلم أجد إلى ذلك سبيلا، إني لما رأيت الناس لا يرضون عن خالقهم علمت أنهم لا يرضون عن مخلوق مثلهم**»[19].

وقال قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ ليونس بن عبد الأعلى: «**يَا أَبَا مُوسَى لَوْ جَهَدْتَ كُلَّ الْجُهْدِ عَلَى أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ كُلَّهُمْ، فَلَا سَبِيلَ لَهُ، فَإِذَا كَانَ كَذَلِكَ فَأَخْلِصْ عَمَلَكَ وَنِيَّتَكَ للهِّ عَزَّ وَجَلَّ**»[20].

---

(١٧) أخرجه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩)..

(١٨) أخرجه البيهقي في «**السنن الكبرى**» (١٠/ ١٥٠)، وصححه الشيخ الألباني في «**إرواء الغليل**» (٢٦١٩).

(١٩) أخرجه البيهقي في «**الزهد الكبير**» (١٨٠).

(٢٠) أخرجه البيهقي في «**شعب الإيمان**» (٦٥١٨).

وَقَرِّي عَيْنًا



مريم الصديقة.

هكذا هي في كتاب الله، وهكذا هي في قلوب الموحدين وعلى ألسنتهم.

كانت جنينة في بطن امرأة آل عمران، نذرتها أمها لله قبل أن تعلم أنها أنثى.

وضعتها، وتقبل الله نذرها، وأنبتها نباتا حسنا، وجعل كفالتها لنبي الله زكريا عليه السلام.

كان الله يأتي إليها برزقها، حتى تعجب زكريا من ذلك، فقالت: هو من عند الله.

كانت كريمة على الله حتى أنك لن تجد ثناء من الله في كتابه على أحد من غير الأنبياء مثل مريم الصديقة.

قال الله: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَامَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾. سورة آل عمران (٤٢)

جعلها الله وابنها آية.

حملت مريم العذراء بعيسى من غير أب.

جاءها المخاض، حزنت، ماذا ستقول لبني إسرائيل؟

تعلم عنهم أنهم قوم بهتان وافتراء، حتى تمنت فقالت: يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا.

لكن العليم سبحانه طمأنها قائلا: ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾. سورة مريم (٢٦)

وقري عينا: طيبي نفسا يا مريم، ولا تحزني.

تأتي بجنينها تحمله، يلقاها بنو إسرائيل، يقول المتبجحون مدعو الطهارة: ﴿يَامَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا (٢٧) يَاأُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا (٢٨)﴾ سورة مريم

لم تزد مريم الصديقة على أن أشارت إلى جنينها، فأنطقه الله دفاعا عنها قائلا: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا (٣٠) وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا (٣١) وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا (٣٢) وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا (٣٣)﴾ سورة مريم

نطق عيسى في مهده، فكان نطقه كافيا لبراءة مريم العذراء، وكافيا ليكون آية لبني إسرائيل، لكن..

لكن ظل أهل الرجس من بني إسرائيل على فريتهم.

قال الله: ﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾. سورة النساء (١٥٦)

ولا يضر مريم ذلك، فإن الله إذا رفع ذكر عبد رُفع، فهو الخافض الرافع.





وَيَوْمَ الوِشَاحِ مِنْ أَعَاجِيبِ رَبِّنَا



امرأة كافرة، كانت أَمَةً لحي من أحياء العرب، وكان لهم صبية، عليها وشاح أحمر مُرصع بالجواهر، خرجت به فوقع منها، فمرت به حُدَيَّاةٌ وَهُوَ مُلْقًى، فَحَسِبَتْهُ لَحْمًا فَخَطِفَتْهُ.

بحثوا عنه فلم يجدوه، فاتهموها به.

أنكرت، لكن لم يصدقوها.

فتشوها، حتى فتشوا فرجها، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

أتُهمت ظلما، لم تجد لها ملاذا إلا الله، فدعت الله أن يبرئها.

فبينما هي قائمة معهم إذ مَرَّتِ الحُدَيَّاةُ فَأَلْقَتْهُ.

فقالت: هَذَا الَّذِي اتَّهَمْتُمُونِي بِهِ، زَعَمْتُمْ وَأَنَا مِنْهُ بَرِيئَةٌ، وَهُوَ ذَا هُوَ.

ثم جَاءَتْ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَسْلَمَتْ»، وكَانَ لَهَا خِبَاءٌ فِي المَسْجِدِ، وكانت تأتي إلى أم المؤمنين عائشة فَلاَ تَجْلِسُ عِنْدها مَجْلِسًا، إِلَّا قَالَتْ:

وَيَوْمَ الوِشَاحِ مِنْ أَعَاجِيبِ رَبِّنَا... أَلاَ إِنَّهُ مِنْ بَلْدَةِ الكُفرِ أَنْجَانِي[٢١].

الله يدفع عن عرض عبده بما شاء.

يُبرء الله من شاء من خلقه من إفك الأفاكين، وبهتان الظالمين.

حتى لو كان المظلوم المفترى عليه كافرا، فإن الله لا يرضى بالبهتان.

عندما خاض أهل الإفك في عائشة رضي الله عنها، وانقطع الوحي عن النبي ﷺ، جاء إلى عائشة رضي الله عنها، فقال لها: «**يَا عَائِشَةُ، فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً، فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ، وَإِنْ كُنْتِ أَلْمَمْتِ بِذَنْبٍ، فَاسْتَغْفِرِي اللهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ العَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ بِذَنْبِهِ، ثُمَّ تَابَ تَابَ اللهُ عَلَيْهِ**»، **فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ مَقَالَتَهُ**، تقول عائشة: **قَلَصَ دَمْعِي حَتَّى مَا أُحِسُّ مِنْهُ قَطْرَةً، وَقُلْتُ لِأَبِي: أَجِبْ عَنِّي رَسُولَ اللهِ ﷺ، قَالَ: وَاللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ لِأُمِّي: أَجِيبِي عَنِّي رَسُولَ اللهِ ﷺ فِيمَا قَالَ، قَالَتْ: وَاللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ، قَالَتْ: وَأَنَا جَارِيَةٌ حَدِيثَةُ السِّنِّ، لاَ أَقْرَأُ كَثِيرًا مِنَ القُرْآنِ، فَقُلْتُ: إِنِّي وَاللهِ لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكُمْ سَمِعْتُمْ مَا يَتَحَدَّثُ بِهِ النَّاسُ، وَوَقَرَ فِي أَنْفُسِكُمْ وَصَدَّقْتُمْ بِهِ، وَلَئِنْ قُلْتُ لَكُمْ إِنِّي بَرِيئَةٌ، وَاللهُ يَعْلَمُ إِنِّي لَبَرِيئَةٌ لاَ تُصَدِّقُونِي بِذَلِكَ، وَلَئِنْ**

(٢١) أخرجه البخاري (٤٣٩).



اعْتَرَفْتُ لَكُمْ بِأَمْرٍ، وَاللهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَرِيئَةٌ لَتُصَدِّقُنِّي، وَاللهِ مَا أَجِدُ لِي وَلَكُمْ مَثَلًا، إِلَّا أَبَا يُوسُفَ إِذْ قَالَ: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ، وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨]، ثُمَّ تَحَوَّلْتُ عَلَى فِرَاشِي وَأَنَا أَرْجُو أَنْ يُبَرِّئَنِي اللهُ، وَلَكِنْ وَاللهِ مَا ظَنَنْتُ أَنْ يُنْزِلَ فِي شَأْنِي وَحْيًا، وَلَأَنَا أَحْقَرُ فِي نَفْسِي مِنْ أَنْ يُتَكَلَّمَ بِالقُرْآنِ فِي أَمْرِي، وَلَكِنِّي كُنْتُ أَرْجُو أَنْ يَرَى رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي النَّوْمِ رُؤْيَا يُبَرِّئُنِي اللهُ، فَوَاللهِ مَا رَامَ مَجْلِسَهُ وَلَا خَرَجَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ البَيْتِ، حَتَّى أُنْزِلَ عَلَيْهِ الوَحْيُ، فَأَخَذَهُ مَا كَانَ يَأْخُذُهُ مِنَ البُرَحَاءِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَتَحَدَّرُ مِنْهُ مِثْلُ الجُمَانِ مِنَ العَرَقِ فِي يَوْمِ شَاتٍ، فَلَمَّا سُرِّيَ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ يَضْحَكُ، فَكَانَ أَوَّلَ كَلِمَةٍ تَكَلَّمَ بِهَا، أَنْ قَالَ لِي: «يَا عَائِشَةُ احْمَدِي اللهَ، فَقَدْ بَرَّأَكِ اللهُ»، فَقَالَتْ لِي أُمِّي: قُومِي إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ: لَا وَاللهِ، لَا أَقُومُ إِلَيْهِ، وَلَا أَحْمَدُ إِلَّا اللهَ»[٢٢].

هكذا كان يقينه ﷺ: فَإِنْ كُنْتِ بَرِيئَةً، فَسَيُبَرِّئُكِ اللهُ.

فتنزل الآيات تتلى إلى يوم القيامة تحمل براءة أم المؤمنين من بهتان أهل الأفك الكاذبين.

موسى عليه السلام طالما آذاه اليهود، وافتروا عليه كذبا.

كان من أشدّ ذلك عليه أن اتهموه بقتل هارون.

هؤلاء أهل البهتان دوما، إنهم يتهمون موسى أنه قاتل، ويقتل من أيها المجرمون؟ هارون، سبحانك هذا بهتان عظيم!

برأه الله مما قالوا.

قال الله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾. سورة الأحزاب (٦٩)

فما الذي حدث؟

يقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «صَعِدَ مُوسَى وَهَارُونُ عَلَيْهِمَا السَّلامُ الْجَبَلَ فَمَاتَ هَارُونُ فَقَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَنْتَ قَتَلْتَهُ وَكَانَ أَشَدَّ حُبًّا لَنَا مِنْكَ وَأَلْيَنَ لَنَا مِنْكَ فَآذَوْهُ بِذَلِكَ فَأَمَرَ اللهُ الْمَلائِكَةَ فَحَمَلُوهُ حَتَّى مَرُّوا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فَتَكَلَّمَتِ الْمَلائِكَةُ بِمَوْتِهِ حَتَّى عَرَفَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ قَدْ مَاتَ فَانْطَلَقُوا بِهِ فَدَفَنُوهُ»[٢٣].

يأمر الله الملائكة بحمل جثته حتى رآها بنو إسرائيل، فرأوه قد مات ولم يقتل، بل وتكلمت الملائكة بموته، وبقي عرض موسى عليه السلام صينا من إفكهم وبهتانهم.

سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، شَكَاهُ أَهْلُ الكُوفَةِ إِلَى عُمَرَ رضي الله عنه، فَعَزَلَهُ، وَاسْتَعْمَلَ عَلَيْهِمْ عَمَّارًا، فَشَكَوْا حَتَّى ذَكَرُوا أَنَّهُ لَا يُحْسِنُ يُصَلِّي، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: يَا أَبَا إِسْحَاقَ إِنَّ هَؤُلَاءِ يَزْعُمُونَ أَنَّكَ لَا تُحْسِنُ

(٢٢) أخرجه البخاري (٢٦٦١).

(٢٣) أخرجه الضياء في في «**المختارة**» (٦١١)، وصححه ابن حجر في «**المطالب العالية**» (٣٤٥٥).

تُصَلِّي، قَالَ أَبُو إِسْحَاقَ: أَمَّا أَنَا وَاللَّهِ «فَإِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي بِهِمْ صَلَاةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مَا أَخْرِمُ عَنْهَا، أُصَلِّي صَلَاةَ العِشَاءِ، فَأَرْكُدُ فِي الأُولَيَيْنِ وَأُخِفُّ فِي الأُخْرَيَيْنِ»، قَالَ: ذَاكَ الظَّنُّ بِكَ يَا أَبَا إِسْحَاقَ، فَأَرْسَلَ مَعَهُ رَجُلًا أَوْ رِجَالًا إِلَى الكُوفَةِ، فَسَأَلَ عَنْهُ أَهْلَ الكُوفَةِ وَلَمْ يَدَعْ مَسْجِدًا إِلَّا سَأَلَ عَنْهُ، وَيُثْنُونَ مَعْرُوفًا، حَتَّى دَخَلَ مَسْجِدًا لِبَنِي عَبْسٍ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ يُقَالُ لَهُ أُسَامَةُ بْنُ قَتَادَةَ يُكْنَى أَبَا سَعْدَةَ قَالَ: أَمَّا إِذْ نَشَدْتَنَا فَإِنَّ سَعْدًا كَانَ لَا يَسِيرُ بِالسَّرِيَّةِ، وَلَا يَقْسِمُ بِالسَّوِيَّةِ، وَلَا يَعْدِلُ فِي القَضِيَّةِ، قَالَ سَعْدٌ: أَمَا وَاللَّهِ لَأَدْعُوَنَّ بِثَلَاثٍ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ عَبْدُكَ هَذَا كَاذِبًا، قَامَ رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَأَطِلْ عُمْرَهُ، وَأَطِلْ فَقْرَهُ، وَعَرِّضْهُ بِالفِتَنِ، وَكَانَ بَعْدُ إِذَا سُئِلَ يَقُولُ: شَيْخٌ كَبِيرٌ مَفْتُونٌ، أَصَابَتْنِي دَعْوَةُ سَعْدٍ، قَالَ عَبْدُ المَلِكِ: فَأَنَا رَأَيْتُهُ بَعْدُ، قَدْ سَقَطَ حَاجِبَاهُ عَلَى عَيْنَيْهِ مِنَ الكِبَرِ، وَإِنَّهُ لَيَتَعَرَّضُ لِلْجَوَارِي فِي الطُّرُقِ يَغْمِزُهُنَّ»[٢٤].

إن الله توعّد الذين يقذفون الناس بالباطل بالعذاب والخزي في الدنيا والآخرة.

قال الله: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾. سورة الأحزاب (٥٨)

وقال الله: ﴿وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾. سورة النساء (١١٢)

أولئك الذين يقولون في الناس ما ليس فيهم سيسكنهم الله في عصارة أهل النار، ذاك القيح والصديد.

قال النبي ﷺ: «وَمَنْ قَالَ فِي مُؤْمِنٍ مَا لَيْسَ فِيهِ أَسْكَنَهُ اللهُ رَدْغَةَ الْخَبَالِ حَتَّى يَخْرُجَ مِمَّا قَالَ»[٢٥].

وليس لذلك كفارة، مهما عمل العبد من الصالحات ستظل مغبتها تلاحقه في الدنيا والآخرة، إلا أن يتوب، ثم يبقى حق المظلوم يوم القيامة، فما ظنك ماذا يأخذ يوم القصاص؟!

قال النبي ﷺ: «خَمْسٌ لَيْسَ لَهُنَّ كَفَّارَةٌ: الشِّرْكُ بِاللهِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَبَهْتُ مُؤْمِنٍ، وَفِرَارٌ يَوْمَ الزَّحْفِ، وَيَمِينٌ صَابِرَةٌ يَقْتَطِعُ بِهَا مَالًا بِغَيْرِ حَقٍّ»[٢٦].

وبهت مؤمن: أي الافتراء عليه.

وأعظم هذا الافتراء رميه في دينه، أن يقذفه بالكفر، هذا عند الله مثل القتل.

قال النبي ﷺ: «وَمَنْ رَمَى مُؤْمِنًا بِكُفْرٍ فَهُوَ كَقَتْلِهِ»[٢٧].

ويليه قذف المحصنات الغافلات المؤمنات، فإن من كبائر الذنوب عند الله.

قال الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٢٣) يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ

(٢٤) أخرجه البخاري (٧٥٥).

(٢٥) أخرجه أبو داود في «سننه» (٣٥٩٩)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤٣٧).

(٢٦) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (١١٨٤)، وحسنه لغيره الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٣٣٩).

(٢٧) أخرجه البخاري (٦١٠٥).





الله دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ (٢٥) ﴾ النور

وقال النبي ﷺ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ المُؤْمِنَاتِ الغَافِلاتِ»(٢٨).

وإن مرت الدنيا واتُّهم بريئ بما ليس فيه فلن يمر الأمر يوم القيامة، لأن الله هو الديان، الذي يجمع الناس يوم القيامة، ثم ينادي فيهم جميعا: «أَنَا المَلِكُ الدَّيَّانُ؛ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ؛ لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَلِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عِنْدَهُ مَظْلِمَةٌ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَدْخُلُ النَّارَ، وَلِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ عِنْدَهُ مُظْلِمَةٌ حَتَّى اللَّطْمَةُ بِالْيَدِ»(٢٩).

ستجد يوم القيامة إناسا تُجلد ظهورهم، قذفوا أعراض المؤمنات في الدنيا، لكنهم نجوا من الحد في الدنيا، فوالله لن ينجو أحدهم يوم القيامة.

يقول النبي ﷺ: «مَنْ قَذَفَ مَمْلُوكَهُ، وَهُوَ بَرِيءٌ مِمَّا قَالَ، جُلِدَ يَوْمَ القِيَامَةِ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ كَمَا قَالَ»(٣٠).

فلا تحزن أيها البريء، إن لم تظهر براءتك في الدنيا، ستمضي الدنيا، ويبرؤك الله أمام الناس جميعا، وتُعطى حقك غير منقوص.

(٢٨) أخرجه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩).

(٢٩) أخرجه الروياني في «مسنده» (١٤٩١)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٥٧٠).

(٣٠) أخرجه البخاري (٦٨٥٨)، ومسلم (١٦٦٠).

وهو من يتوفى الأنفس يحيي ويميت



فإن أحببته، فأعظم ما يكون أن المرء مع من أحب
حتى الموت لا يؤرقك، إن متّ تلقى من لم تر منه إلا كل
خير.
يجمعك بأحبابك، فكيف لا يُحب.

لِإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ



مَرِضَ أَعْرَابِيٌّ، فَقِيلَ لَهُ: إِنَّكَ تَمُوتُ.

قَالَ: أَيْنَ يُذْهَبُ بِي؟

قيل له: إِلَى الله.

قَالَ: فَمَا كَرَاهَتِي أَنْ أَذْهَبَ إِلَى مَنْ لَا أَرَى الْخَيْرَ إِلَّا مِنْهُ»[1].

قال الله: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾. سورة آل عمران (١٥٨)

لإلى الله تحشرون.

أعظم ما يُسلي العبد عندما يأتيه خاطر الموت، سواء له أو لأحبته أن يقول: ومن ألقى بعد الموت؟

تلقى رب العالمين الرحمن الرحيم، الذي لم تر منه إلا كل خير، إلا كل معروف، إلا كل جميل.

تلقى الذي هو أرحم بك من أمك.

قال النبي ﷺ: «**الْمُؤْمِنُ بِخَيْرٍ عَلَى كُلِّ حَالٍ تُنْزَعُ نَفْسُهُ مِنْ بَيْنِ جَنْبَيْهِ وَهُوَ يَحْمَدُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ**»[2].

مات ابن لرجل صالح، فذهب أخوه يعزيه، فقال له: أرأيت لو كنت أنت وولدك في سجن، ثم أُفرج عنه قبلك، أكنت تحزن؟

قال: لا.

قال له: الدنيا سجن المؤمن، وقد أُفرج عن ولدك، ولقي ربه، فلا تحزن لفرجه.

هكذا المؤمن يعلم أنه إن مات استراح من شقاء الدنيا، ولقي الله فعوضه عما لقي من أحزانها وكدرها.

مرت جنازة على النبي ﷺ، فقال: «**مُسْتَرِيحٌ وَمُسْتَرَاحٌ مِنْهُ**».

قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا الْمُسْتَرِيحُ وَالْمُسْتَرَاحُ مِنْهُ؟

قَالَ: «**الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ يَسْتَرِيحُ مِنْ نَصَبِ الدُّنْيَا وَأَذَاهَا إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ، وَالْعَبْدُ الْفَاجِرُ يَسْتَرِيحُ مِنْهُ الْعِبَادُ وَالْبِلَادُ، وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ**»[3].

الموت ليس ذلك الكابوس الذي يدور في عقلك.

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦٧١٧).

(٢) أخرجه النسائي في «سننه» (١٨٤٣)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٦٦٥٢).

(٣) أخرجه البخاري (٦٥١٢)، ومسلم (٩٥٠).

إن المؤمن الذي تولاه ربه في الدنيا لن يتخلى عنه عند الموت.

دعني أقول لك: إنها بداية النعيم والراحة والسرور، إنك قادم على مولاك.

من بعد الآن تعاملاتك لن تكون إلا مع ملائكة الرحمة.

تراهم عندما يأتيك أجلك، ملائكة بِيضُ الْوُجُوهِ، كَأَنَّ وُجُوهَهُمُ الشَّمْسُ.

مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ، وَحَنُوطٌ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ.

يجلسون منك مَدَّ الْبَصَرِ، لا تخف، لا تحزن

تسمع الآن من ملائكة الرحمة تلك البشريات.

لا تخف، أي مما هو قادم، ولا على أهلك وولدك.

لا تحزن، فقد مضت الأحزان، ومن اليوم السرور النعيم.

سلام عليك، سلمك الله أيها الطيب.

قال الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢)﴾ سورة فصلت

قال الله: ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. سورة النحل (٣٢)

ثم يأتي ملك الموت يجلس عند رأسك.

يقول: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ، اخْرُجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ، اخْرُجِي رَاضِيَةً مَرْضِيًّا عَنْكِ إِلَى رَوْحِ اللهِ، وَرَيْحَانٍ، وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ

فَتَخْرُجُ روحك تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السِّقَاءِ.

تخرج كَأَطْيَبِ نَفْحَةِ مِسْكٍ وُجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ

ثم يضعها ملائكة الرحمة في هذا الكفن الذي جاءوا به من الجنة، ويضعوا عليها ذاك الطيب الذي جاءوا به من الجنة.

ثم يصعدون بها إلى السموات العلى، فيمرون بروحك على الملائكة الذي هم في هذه الأرض.

فلا تمر على ملأ منهم، إلا سألوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ؟

فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِك الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَك بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهُوا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَسْتَفْتِحُونَ لَك، فَيُفْتَحُ لَهُمْ فَيُشَيِّعُك مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِك إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ.

فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عِلِّيِّينَ، وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أُخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى



القبر، لا تخف، إنها ليست تلك الحفرة المظلمة، إنما هي روضة من رياض الجنة.

إياك أن تنظر إلى هذه الحفرة الضيقة، فتعيش رعبا وهلعا، ليس الأمر كما تظن.

هناك حياة أخرى من النعيم ينتظرك إن كنت صالحا.

إن المؤمن في حياة البرزخ في أهنئ عيش وأطيبه.

يُفرش له فراش من الجنة، ويلبس ثيابا من الجنة، ويملأ الله له قبره نورا، ويُفسح له في قبره مدّ بصره، ويُفتح له باب إلى الجنة، يأتيه من نعيمها وطيبها، ويجعل الله له جليسا وجهه أحسن الوجوه، وريحه أطيب الريح، إنه عمله الصالح، يحوله الله إلى هذه الصورة الطيبة ليؤنسه في قبره.

هذا الأعمال الصالحات تحوط بك في قبرك من كل جانب.

إن جاءك عذاب من قبل رأسك، تقول الصلاة: مَا قِبَلِي مَدْخَلٌ.

وإن جاءك عن يمينك، يقول الصيام: مَا قِبَلِي مَدْخَلٌ.

وإن جاءك عن يسارك، تقول الزكاة: مَا قِبَلِي مَدْخَلٌ

وإن جاءك من قبل رجليك، يقول فعلك الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس: مَا قِبَلِي مَدْخَلٌ[(٤)].

فإذا رأى المؤمن هذا النعيم، قال: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي، وَمَالِي.[(٥)].

فيُقال له: نَمْ كَنَوْمَةِ العَرُوسِ الَّذِي لاَ يُوقِظُهُ إِلاَّ أَحَبُّ أَهْلِهِ إِلَيْهِ، حَتَّى يَبْعَثَهُ الله مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ[(٦)].

وما ظنك بحال إنسان في ليلة عرسه، كم من السعادة والبهجة واللطف والحفاوة والتكريم ممن يحبه في هذه الليلة.

ما أحلى البشرى من رسول الله ﷺ.

أما روحك فيجعلها الله في طائر، يطير في جنان الخلد، يأكل من ثمارها، ويشرب من أنهارها، فإذا كان يوم القيامة ردّ الله روحه إلى جسده.

قال النبي ﷺ: **«نَسَمَةُ الْمُؤْمِنِ طَائِرٌ يَعْلُقُ فِي شَجَرِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَرُدَّهَا الله إِلَى جَسَدِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**[(٧)].

---

(٤) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٣١١٣)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٥٦١)..

(٥) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (٤٢٦٢)، من حديث أبي هريرة، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٤٣٧)، وأخرجه أحمد في «مسنده» (١٨٥٣٤)، من حديث البراء بن عازب، وصححه الشيخ الألباني في «أحكام الجنائز» (ص١٥٩).

(٦) أخرجه الترمذي في «سننه» (١٠٧١)، وجود إسناده الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٣٩١).

(٧) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (٤٢٧١)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩٥٥).

غدا ألقى الأحبة



لما حضرت الوفاةُ أمنا عائشة رضي الله عنها، جاءها عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، فكان مما قاله لها: «**إِنَّكِ كُنْتِ مِنْ أَحَبِّ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ إِلَيْهِ، وَلَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُحِبُّ إِلَّا طَيِّبًا، وَمَا بَيْنَكِ وَبَيْنَ أَنْ تَلْقِي الْأَحِبَّةَ إِلَّا أَنْ تُفَارِقَ الرُّوحُ الْجَسَدَ**»[8].

ما أجمل البشرى.

عندما يكون الموت هو العائق بينك وبين لقيا من تُحب.

وليس أي محبوب، إنما هو رسول الله ﷺ، فهل يُبكى على الدنيا بعد ذلك؟!

يوم أن قُتل عمار بن ياسر رضي الله عنه، كان ينادي فيقول: «**الْيَوْمَ نَلْقَى حَبِيبَنَا مُحَمَّدًا ﷺ**»[9].

يقول سعيد بن عبد العزيز رحمه الله، لما حضرت الوفاةُ بلال بن رباح رضي الله عنه، قالت زوجته: «**وَاوَيْلَاهُ**»، **فقال**: «**وَافَرْحَاهُ، غَدًا نَلْقَى الْأَحِبَّةَ، مُحَمَّدًا وَحِزْبَهُ**»[10].

إنك إن متّ وكنت من أهل الجنة لقيتْ روحك أرواح من تُحب من المؤمنين، يفرحون بك، وتفرح بهم.

هل أحزنك الفقد؟

هل تشعر بغصة الفراق؟

هل يحدوك الشوق لتلقى من تحب؟

ما أن تلقى الله حتى يجمعك بمن تحب.

هذا مما يُسلي قلبك، أنك ستجتمع عما قريب بولدك الذي فارقك، بزوجك الذي غادر الحياة قبلك، بأبيك وأمك الذي تشتاق لهما.

لما مات ولد الإمام ابن عقيل الحنبلي، وكان ولده هذا نجيبا عالما تفقه على والده، توفي شابا، فقال ابن عقيل رحمه الله، يسلي نفسه: «**لَوْلَا أن الْقُلُوب توقن باجتماع ثَان لتفطرن المرائر لفراق المحبوبين**»[11].

أتدري أين الإشكال الأكبر؟

---

(٨) أخرجه أحمد في «**مسنده**» (١٩٠٥)، وإسناده صحيح.

(٩) أخرجه الحاكم في «**المستدرك**» (٥٦٦٨)، وصححه الشيخ الألباني في «**السلسلة الصحيحة**» (٣٢١٧).

(١٠) أخرجه ابن أبي الدنيا في «**المحتضرين**» (٢٩٤).

(١١) نقله عنه ابن النجار في «**ذيل تاريخ بغداد**» (٢/ ٢٠٠).

أن يُفرق بين العبد وبين أحبته، فيدخل أحدهما النار.

احرص على أن تكون وأحبتك من أهل الجنة، ألا ينقص منكم أحد.

وتعالى لتستمتع بهذا الحديث:

قال النبي ﷺ: «إِذَا حُضِرَ الْمُؤْمِنُ أَتَتْهُ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ بِحَرِيرَةٍ بَيْضَاءَ فَيَقُولُونَ: اخْرُجِي رَاضِيَةً مَرْضِيًّا عَنْكِ إِلَى رَوْحِ اللهِ، وَرَيْحَانٍ، وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَتَخْرُجُ كَأَطْيَبِ رِيحِ الْمِسْكِ، حَتَّى أَنَّهُ لَيُنَاوِلُهُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، حَتَّى يَأْتُونَ بِهِ بَابَ السَّمَاءِ فَيَقُولُونَ: مَا أَطْيَبَ هَذِهِ الرِّيحَ الَّتِي جَاءَتْكُمْ مِنَ الْأَرْضِ، فَيَأْتُونَ بِهِ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ فَلَهُمْ أَشَدُّ فَرَحًا بِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِغَائِبِهِ يَقْدَمُ عَلَيْهِ، فَيَسْأَلُونَهُ: مَاذَا فَعَلَ فُلَانٌ؟ مَاذَا فَعَلَ فُلَانٌ؟ فَيَقُولُونَ: دَعُوهُ فَإِنَّهُ كَانَ فِي غَمِّ الدُّنْيَا، فَإِذَا قَالَ: أَمَا أَتَاكُمْ؟ قَالُوا: ذُهِبَ بِهِ إِلَى أُمِّهِ الْهَاوِيَةِ، وَإِنَّ الْكَافِرَ إِذَا احْتُضِرَ أَتَتْهُ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ بِمِسْحٍ فَيَقُولُونَ: اخْرُجِي سَاخِطَةً مَسْخُوطًا عَلَيْكِ إِلَى عَذَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَتَخْرُجُ كَأَنْتَنِ رِيحِ جِيفَةٍ، حَتَّى يَأْتُونَ بِهِ بَابَ الْأَرْضِ، فَيَقُولُونَ: مَا أَنْتَنَ هَذِهِ الرِّيحَ حَتَّى يَأْتُونَ بِهِ أَرْوَاحَ الْكُفَّارِ»[١٢].

ما أجمل قوله ﷺ: «فَيَأْتُونَ بِهِ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ فَلَهُمْ أَشَدُّ فَرَحًا بِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ بِغَائِبِهِ يَقْدَمُ عَلَيْهِ».

وما أخوف هذه العبارة: «ذُهِبَ بِهِ إِلَى أُمِّهِ الْهَاوِيَةِ».

الآن تستشعر لماذا كان من دعاء الصالحين: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾.
سورة الفرقان (٧٤)

أيُّ قرة للعين بزوجك أو ولدك وأنت تعلم أنه من أهل النار؟ عياذا بالله من ذلك.

وأي قرة للعين إن فُرق بين العبد وأحبته يوم القيامة؟ نعوذ بالله من ذلك.

يقول جبير بن نفير، جَلَسْنَا إِلَى الْمِقْدَادِ بْنِ الْأَسْوَدِ يَوْمًا، فَمَرَّ بِهِ رَجُلٌ فَقَالَ: طُوبَى لِهَاتَيْنِ الْعَيْنَيْنِ اللَّتَيْنِ رَأَتَا رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَاللهِ لَوَدِدْنَا أَنَّا رَأَيْنَا مَا رَأَيْتَ، وَشَهِدْنَا مَا شَهِدْتَ. فَاسْتُغْضِبَ، فَجَعَلْتُ أَعْجَبُ، مَا قَالَ إِلَّا خَيْرًا، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْهِ فَقَالَ: «مَا يَحْمِلُ الرَّجُلُ عَلَى أَنْ يَتَمَنَّى مُحْضَرًا غَيَّبَهُ اللهُ عَنْهُ؟ لَا يَدْرِي لَوْ شَهِدَهُ كَيْفَ يَكُونُ فِيهِ؟ وَاللهِ، لَقَدْ حَضَرَ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَقْوَامٌ كَبَّهُمُ اللهُ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي جَهَنَّمَ، لَمْ يُجِيبُوهُ وَلَمْ يُصَدِّقُوهُ، أَوَلَا تَحْمَدُونَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذْ أَخْرَجَكُمْ لَا تَعْرِفُونَ إِلَّا رَبَّكُمْ، فَتُصَدِّقُونَ بِمَا جَاءَ بِهِ نَبِيُّكُمْ ﷺ، قَدْ كُفِيتُمُ الْبَلَاءَ بِغَيْرِكُمْ، وَاللهِ لَقَدْ بُعِثَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أَشَدِّ حَالٍ بُعِثَ عَلَيْهَا نَبِيٌّ قَطُّ، فِي فَتْرَةٍ وَجَاهِلِيَّةٍ، مَا يَرَوْنَ أَنَّ دِينًا أَفْضَلُ مِنْ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، فَجَاءَ بِفُرْقَانٍ فَرَّقَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَفَرَّقَ بِهِ بَيْنَ الْوَالِدِ وَوَلَدِهِ، حَتَّى إِنْ كَانَ الرَّجُلُ لَيَرَى وَالِدَهُ أَوْ وَلَدَهُ أَوْ أَخَاهُ كَافِرًا، وَقَدْ فَتَحَ اللهُ قُفْلَ قَلْبِهِ بِالْإِيمَانِ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ إِنْ هَلَكَ دَخَلَ النَّارَ، فَلَا تَقَرُّ عَيْنُهُ، وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ حَبِيبَهُ فِي النَّارِ»، وَأَنَّهَا لَلَّتِي قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ [الفرقان: ٧٤][١٣].

نعم والله، فلا تقر عينه، وهو يعلم أن حبيبه في النار.

---

(١٢) أخرجه النسائي في «سننه» (١٨٣٣)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٣٠٩).

(١٣) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٨٧)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٧٤).



ينتظرونك على أبواب الجنة



أعظم مصائب الدنيا فقد الأولاد.

لكن تعال لتحب ربك على مصابه ذاك، عافانا الله وإياك.

كان رجل من الصحابة يأتي ليجلس عند النبي ﷺ، ومعه ابن له، يلعب حوله، يجلسه على رجله، يبدو عليه الحب، فالمحب تفضحه حتى نظراته.

سأله النبي ﷺ: «أَتُحِبُّهُ؟

كان الجواب جميلا، بل في غاية الجمال، قال» فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَحَبَّكَ اللهُ كَمَا أُحِبُّهُ.

أكل هذا الحب، حتى يدعو بهذا الدعاء، سبحان الملك.

تدور الأيام، ويغيب الرجل عن مجلس رسول الله ﷺ، فيسأل النبيُ ﷺ عنه.

فقال الصحابة: مات ولده يارسول الله.

ذهب إليه رسول الله ﷺ فعزاه، ثم قال: «**يا فُلَانُ، أَيُّمَا كَانَ أَحَبُّ إِلَيْكَ أَنْ تَمَتَّعَ بِهِ عُمُرَكَ، أَوْ لَا تَأْتِي غَدًا إِلَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ إِلَّا وَجَدْتَهُ قَدْ سَبَقَكَ إِلَيْهِ يَفْتَحُهُ لَكَ**».

قَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، بَلْ يَسْبِقُنِي إِلَى بَابِ الْجَنَّةِ فَيَفْتَحُهَا لِي لَهُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ، قَالَ: «**فَذَاكَ لَكَ**»

فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَهُ خَاصَّةً أَوْ لِكُلِّنَا؟ قَالَ: «**بَلْ لِكُلِّكُمْ**»[١٤].

نعم قد يكون المصاب جللا عظيما، لكن عظيم الأجر يسلي مصاب الفقد.

وأي عوض يساوي جنان الخلد، ستزول الدنيا ولابد، ثم يكون الملتقى الجنة، فماذا فقد العبد حينئذ.

عندما تلقاه يوم القيامة، يأخذ بيدك حتى يدخلك الجنة، جزاء مصيبتك به، وصبرك عليه.

يقول أبو حسان: قُلْتُ لِأَبِي هُرَيْرَةَ: إِنَّهُ قَدْ مَاتَ لِيَ ابْنَانِ، فَمَا أَنْتَ مُحَدِّثِي عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِحَدِيثٍ تُطَيِّبُ بِهِ أَنْفُسَنَا عَنْ مَوْتَانَا؟ قَالَ: قَالَ: نَعَمْ، «**صِغَارُهُمْ دَعَامِيصُ الْجَنَّةِ يَتَلَقَّى أَحَدُهُمْ أَبَاهُ - أَوْ قَالَ أَبَوَيْهِ -، فَيَأْخُذُ بِثَوْبِهِ - أَوْ قَالَ بِيَدِهِ -، كَمَا آخُذُ أَنَا بِصَنِفَةِ ثَوْبِكَ هَذَا، فَلَا يَتَنَاهَى - أَوْ قَالَ فَلَا يَنْتَهِي - حَتَّى يُدْخِلَهُ اللهُ وَأَبَاهُ الْجَنَّةَ**»[١٥].

---

(١٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٠٣٦٥)، وصححه الشيخ الألباني في «أحكام الجنائز» (ص١٦٢).

(١٥) أخرجه مسلم (٢٦٣٥).

بـل حتـى السـقط، عندمـا يسـقط جنـين المـرأة رغـما عنهـا، تشـعر مهـما يكـن بـألم الفقـد، لقـد كان في أحشـاءها، كانـت تنتظـره، كانـت ترسـم لـه الأحـلام، اختـارت لـه اسـما، وتنتظـر يـوم قدومـه، وأعدت لـه ثيابـه وسريـره، لكـن شـاء الله ألا يولـد.

لا تحزني أمة الله، هذا السقط يجرك جرا إلى الجنة يوم القيامة.

قال النبي ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّ السِّقْطَ، لَيَجُرُّ أُمَّهُ بِسَرَرِهِ إِلَى الْجَنَّةِ إِذَا احْتَسَبَتْهُ**»(١٦).

لكـن لابـد مـن الصـبر، إيـاك أن تفقـد أجـرك بسـخطك عـلى الله، بـل إيمانـك بـالله، وأنـه اسـترد وديعته، ولم يظلمـك، ينـزل عـلى قلبـك بـرد الرضا.

هل سمعت عن بيت الحمد؟

يقـول النبـي ﷺ: «إِذَا مَـاتَ وَلَـدُ العَبْـدِ قَـالَ اللهُ لِمَلَائِكَتِـهِ: قَبَضْتُـمْ وَلَـدَ عَبْـدِي، فَيَقُولُـونَ: نَعَـمْ، فَيَقُـولُ: قَبَضْتُـمْ ثَمَـرَةَ فُـؤَادِهِ، فَيَقُولُـونَ: نَعَـمْ، فَيَقُـولُ: مَـاذَا قَـالَ عَبْـدِي؟ فَيَقُولُـونَ: حَمِـدَكَ وَاسْـتَرْجَعَ، فَيَقُـولُ اللهُ: ابْنُـوا لِعَبْـدِي بَيْتًـا فِي الجَنَّـةِ، وَسَـمُّوهُ بَيْـتَ الحَمْـدِ»(١٧).

ولـدك ثمـرة فـؤادك، الله يعلـم ذلـك، لكـن إن حمـدت الله، وقلـت: إنـا لله وإنـا إليـه راجعـون، بنـى ربـك لـك بيتـا في جنتـه، أسـماه الملـك: «**بيـت الحمـد**».

ليـس الولـد فحسـب، بـل أي حبيـب لـك إن مـات فاحتسـبته وصـبرت، لم يـرض الله لـك ثوابـا عـلى صـبرك إلا الجنـة.

قـال النبـي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَـرْضَى لِعَبْـدِهِ الْمُؤْمِـنِ إِذَا ذَهَـبَ بِصَفِيِّـهِ مِـنْ أَهْـلِ الْأَرْضِ فَصَـبَرَ وَاحْتَسَـبَ**»، **وَقَـالَ**: «**مَـا أُمِـرَ بِـهِ بِثَـوَابٍ دُونَ الْجَنَّـةِ**»(١٨).

(١٦) أخرجه ابن ماجه في «**سننه**» (١٦٠٩)، **وصححه الشيخ الألباني في** «**صحيح ابن ماجه**» (١٣٠٥).

(١٧) أخرجه الترمذي (١٠٢١)، وحسنه الشيخ الألباني في «**السلسلة الصحيحة**» (١٤٠٨).

(١٨) أخرجه النسائي في «**سننه**» (١٨٧١)، **وحسنه الشيخ الألباني في** «**أحكام الجنائز**» (ص٢٣).



وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا



ترتيبه الحادي عشر في هذه الأمة.

أول المهاجرين مع زوجته إلى الحبشة، وأول المهاجرين إلى المدينة.

إنه أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد ﵁، كان قد تزوج بأم سلمة بنت أبي أمية ﵂.

شاء الله تعالى أن يموت زوجها أبو سلمة ﵁، وكانت تجله وتحبه حبا جما، لكن حدث أمر عجيب، دعونا نسمع منها هي القصة:

تقول سَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ، يَقُولُ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ تُصِيبُهُ مُصِيبَةٌ، فَيَقُولُ مَا أَمَرَهُ اللهُ: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ اللهُمَّ أْجُرْنِي فِي مُصِيبَتِي، وَأَخْلِفْ لِي خَيْرًا مِنْهَا، إِلَّا أَخْلَفَ اللهُ لَهُ خَيْرًا مِنْهَا**».

قَالَتْ: فَلَمَّا مَاتَ أَبُو سَلَمَةَ، قُلْتُ: أَيُّ الْمُسْلِمِينَ خَيْرٌ مِنْ أَبِي سَلَمَةَ؟ أَوَّلُ بَيْتٍ هَاجَرَ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ، ثُمَّ إِنِّي قُلْتُهَا، فَأَخْلَفَ اللهُ لِي رَسُولَ الله ﷺ»[١٩].

الله تعالى يُخلف على عبده أحسن وأفضل مما أخذه منه، إن هو صبر لله واسترجع.

أبو سلمة من السابقين الأولين، وأول المهاجرين، ومن كتائب المجاهدين في بدر وأُحد، لكن عندما يكون العوض برسول الله ﷺ، فإنه خير من الدنيا ومن عليها، بل هو خير خلق الله أجمعين.

هذا العوض مشروط بالتسليم والإيمان.

أن تقول موقنا: إن لله، أي ملك له، لا نملك ما معنا من أنفس أو ثمرات، إنما هي ودائع الله في أيدينا، أعطاها عارية، وأخذها بحكمته، فمن رضي كانت عاقبته الرضا والخلف بأحسن منها وأطيب، ومن سخط كانت عاقبته السخط، ولا يغير ذلك من قدر الله شيئا.

انظر إلى هذا الرجل الصالح وزوجته، يوم أن جاءهما خبر مقتل ولدهما، كيف أن المصاب كان عظيما، لكن عوضهما الله خيرا منه وأطيب.

قال الله: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١)﴾ سورة الكهف

هذا أبو طلحة الأنصاري ﵁، كان له ابن مريض، اشتد عليه مرضه ثم تُوفي، فلما رجع سأل زوجته أم سُليم عنه، فقالت: خَيْرُ مَا كَانَ.

---

(١٩) أخرجه مسلم (٩١٨).



ثم تزينت، وقربت له عشاءه، فكان بينهما ما يكون بين الرجل وزوجته.

فلما قضى حاجته منها، قَالَتْ: يَا أَبَا طَلْحَةَ، أَلَمْ تَرَ إِلَى آلِ فُلَانٍ اسْتَعَارُوا عَارِيَةً فَتَمَتَّعُوا بِهَا، فَلَمَّا طُلِبَتْ كَأَنَّهُمْ كَرِهُوا ذَاكَ. قَالَ: مَا أَنْصَفُوا.

قَالَتْ: فَإِنَّ ابْنَكَ كَانَ عَارِيَةً مِنَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَإِنَّ اللهَ قَبَضَهُ.

فَاسْتَرْجَعَ وَحَمِدَ اللهَ.

فَلَمَّا أَصْبَحَ غَدَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَلَمَّا رَآهُ قَالَ: «**بَارَكَ اللهُ لَكُمَا فِي لَيْلَتِكُمَا**».

فَحَمَلَتْ أم سُليم هذه الليلة، وأنجبت بعد ذلك طفلا، أخذه أخوه أنس إلى رسول الله ﷺ فحنّكه النبي ﷺ، فكان أول ما دخل فمه ريق النبي ﷺ، وسماه رسول الله ﷺ عبد الله[20].

إنه عبد الله بن أبي طلحة، يقول عنه أنس: كَانَ مِنْ خَيْرِ أَهْلِ زَمَانِهِ[21].

رزق الله عبد الله بن أبي طلحة عشرة من الولد، كلهم حفظ القرآن، ومات شهيدا بفارس، رضي الله عنه.

هذا شيء من عِوض الله وجبره كسر من صبر له، ورضي بقضاءه.

(٢٠) أخرجه البخاري (٥٤٧٠)، ومسلم (٢١٤٤)، وأحمد في «**مسنده**» (١٢٠٢٨).

(٢١) أخرجه عبد بن حميد في «**مسنده**» (١٢٣٨).



وبه تطيب الحياة



يحييك الحياة الطيبة، وينزل في قلبك السكينة
إن تولاك الله
لا شقاء
لا ضياع
لا حيرة
لا قلق
لا خوف
لا حزن
لا ذل
لا ضيق
لا عسر
لا يأس
أنت تشملك رحمات الكريم المنان

فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً



طيب الحياة، وضنك العيش.

طريقان في هذه الدنيا، إما أن يُطَيِّبَ الله حياتك، أو يتولى عن عبده فيكون في المعيشة الضنك.

قال الله: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (١٢٧)﴾ سورة طه

فلا يضل ولا يشقى.

مقاييس الناس في هذه الدنيا غالبا مقاييس لذة الجسد، فترى الناس إلا - من رحم ربك - يظنون السعادة مالا وفيرا، ومسكنا فاخرا، وزوجة حسناء، ومنصبا رفيعا.

هذه لذات الجسد، لكن أين نعيم الروح؟

عندما تذبل الروح لا تأخذ ما تحيا به تظمأ فلا ترتوي، وتظل تتألم تبحث عن غذائها، فإن لم تجد تشقى الروح، فيُعَذب الإنسان، ويشعر بالضيق والحسرة، ويبحث عن العلة فلا يجد.

ويظل الإنسان هكذا يروي روحه بما لا ينفعها ولا تقوم به، حتى تموت روحه، و يكون الجسد قبرا لها في هذه الدنيا.

الروح لا تطيب إلا بربها، إنها سماوية لا أرضية، لا تستقر إلا هناك.

لذا الحياة الطيبة لا تكون إلا لأهل الإيمان الذين يعملون الصالحات، تطيب حياتهم في الدنيا والآخرة.

قال الله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. سورة النحل (٩٧)

قال الله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾. سورة الرعد (٢٩)

المؤمن طابت حياته فلا يعيش في شقاء التيه، ولا يشعر بوحشة الشك والريب، بل هو مطمئن بالإيمان.

فتح الله قُفل قلبه فرأى نور الحق الذي ملأ الدنيا، فلا يعشى عنه إلا المتهوكون.

يرى آيات الله المشهودة ناطقة دالة على مولاه، فأينما ولى وجهه رأى دليلا يقوده إلى اليقين بالحق





الـذي هـو عليـه.

فلا يعرف الشك ولا الحيرة ولا التخبط.

إن التبس شيء يمـم وجهـه إلى السـماء قائلا مناجيا ربه الهـادي: «**اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك**».

بين يديه كلام ربه الذي لا ريب فيه، يفتحه متى شاء فيجد فيه جوابا شافيا عن كل ما عنَّ له.

طابـت حياتـه لأنـه مطمئـن بإيمانـه، جـاءه اليقـين عـلى الحـق الـذي عليـه، لا تأتيـه الشـكوك ولا يعتريـه ريـب، أمـا غـيره فحـيران لا يعـرف الحـق مـن الباطـل، في شـك مـن ربـه، وفي شـك مـن طريقـه.

ولا سـواء بينـه وبـين ذاك الحـيران الـذي قـال الله فيـه: ﴿قُـلْ أَنَدْعُـو مِـنْ دُونِ اللَّهِ مَـا لَا يَنْفَعُنَـا وَلَا يَضُرُّنَـا وَنُـرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَـا بَعْـدَ إِذْ هَدَانَـا الله كَالَّذِي اسْـتَهْوَتْهُ الشَّـيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَـيْرَانَ لَهُ أَصْحَـابٌ يَدْعُونَـهُ إِلَى الْهُـدَى ائْتِنَـا قُـلْ إِنَّ هُـدَى اللَّهِ هُـوَ الْهُـدَى وَأُمِرْنَـا لِنُسْـلِمَ لِـرَبِّ الْعَالَمِـينَ﴾. سورة الأنعام (٧١)

طابـت حياتـه فعـاش آمنـا في جـوار سـيده ومـولاه، لا يخشـى إلا هـو، كل الخلـق عنـده عبيـد لا يملكـون لأنفسـهم مثقـال ذرة، فهـو متعلـق بـالله وحـده، يـرى العطـاء والمنـع بيـده، والـضر والنفـع بإذنـه، وكل الخلـق نواصيهـم بيـده.

طابـت حياتـه لأنـه سـلم لله، ليـس لـه وجهـة ولا قصـد إلا مرضـاة رب واحـد، فهـو لا يصانـع أحـدا، ولا يـرضي غـير ربـه، ولا يعمـل إلا لربـه.

والله يقـول: ﴿ضَرَبَ الله مَثَـلًا رَجُـلًا فِيـهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُـونَ وَرَجُـلًا سَـلَمًا لِرَجُـلٍ هَـلْ يَسْـتَوِيَانِ مَثَـلًا الْحَمْـدُ لِلَّهِ بَـلْ أَكْثَرُهُـمْ لَا يَعْلَمُـونَ﴾. سورة الزمر (٢٩)

طابـت حياتـه فـلا يسـترقه أحـد، حرٌّ عمـن سـوى الله، لا تسـتعبده امـرأة، ولا دنيـا، ولا سـلطان، لا ينحنـي إلا في محرابـه بـين يـدي ربـه فحسـب، لا يتذلـل إلا لمـولاه.

قـال النبـي ﷺ: «**تَعِسَ عَبْـدُ الدِّينَـارِ، وَعَبْـدُ الدِّرْهَـمِ، وَعَبْـدُ الخَمِيصَـةِ، إِنْ أُعْطِـيَ رَضِـيَ، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَـخِطَ، تَعِـسَ وَانْتَكَـسَ، وَإِذَا شِـيكَ فَـلاَ انْتَقَـشَ، طُوبَى لِعَبْـدٍ آخِـذٍ بِعِنَـانِ فَرَسِـهِ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ، أَشْـعَثَ رَأْسُـهُ، مُغْـبَرَّةٍ قَدَمَـاهُ، إِنْ كَانَ فِي الحِرَاسَـةِ، كَانَ فِي الحِرَاسَـةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّـاقَةِ كَانَ فِي السَّـاقَةِ، إِنِ اسْـتَأْذَنَ لَمْ يُـؤْذَنْ لَـهُ، وَإِنْ شَـفَعَ لَمْ يُشَـفَّعْ**»[1].

طابت حياته فلا يخشى فوات الرزق، فهو مطمئن أن رزقه سيأتيه ولابد.

طابت حياته، فقد أغنى الله قلبه، وجمع عليه شمله، ويؤتيه الدنيا وهي راغمة.

طابت حياته فلا يخشى المستقبل، لأنه يعلم أنه بيد الله.

لا يخشـى عـلى أولاده، فهـو يعلـم أن الله هـو الحفيـظ السـلام، يتكفـل بحفـظ أولاده، ويُسـلّمهم مـن

(١) أخرجه البخاري (٢٨٨٧).

كل شر، ويتولاهـم عـلى عينـه.

طابـت حياتـه، فهـو راض بقضـاء الله، يوقـن أن اختيـار الله لـه أحسـن وأطيـب مـن اختيـاره لنفسـه، ويوقـن أن الخـير كلـه بيـدي ربـه، والـشر ليـس إليـه.

طابـت حياتـه، فلربـه يبـث شـكواه ونجـواه، يطـرق بـاب ربـه في أي سـاعة شـاء، لا ييـأس مـن فرجـه، يوقـن أن مـع العـسر يـأتي الله باليـسر.

قال الله: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾. سورة مريم (٤)

طابت حياته بطاعة الله.

يفـرح قلبـه بـكلام ربـه، كما قـال الله: ﴿وَالَّذِيـنَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَـابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْـزِلَ إِلَيْكَ﴾. سورة الرعد (٣٦)

تحيا روحه بنور الوحي.

يوقن أن الاستجابة لربه هي الحياة، والنعيم والسرور.

قـال الله: ﴿يَاأَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـوا اسْـتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُـولِ إِذَا دَعَاكُـمْ لِمَـا يُحْيِيكُـمْ وَاعْلَمُـوا أَنَّ اللَّهَ يَحُـولُ بَـيْنَ الْمَـرْءِ وَقَلْبِـهِ وَأَنَّـهُ إِلَيْـهِ تُحْشَرُونَ﴾. سورة الأنفال (٢٤)

ولأنه الشكور



أعظم الثواب وأحسنه ثواب رب العالمين
لذا لن يهلك يوم القيامة إلا هالك

وَاللَّهِ لاَ نَطْلُبُ ثَمَنَهُ إِلَّا إِلَى اللَّهِ



لـو أردت أن تتخيـل رقـما للذيـن صلـوا في مسـجد رسـول الله ﷺ إلى اليـوم، كـم يكـون العـدد يـا تُـرى؟

ومعلوم أن الصلاة فيه بألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام.

كم يكون أجر من تبرع بأرض مسجد النبي ﷺ؟

لما هاجـر النبـي ﷺ إلى المدينـة، كان يركـب عـلى الناقـة، وكلـما مـرّ عـلى مـلأ مـن الأنصـار، تسـارعوا إليها كلهـم يريـد أن يضيـف النبـي ﷺ، فيقـول لهـم: «**دَعُوهَـا، فَإِنَّهَـا مَأْمُـورَةٌ**». فبركـت الناقـة بفنـاء دار أبي أيـوب، حيـث كان مسـجده بعـد ذلـك.

أراد النبـي ﷺ أن يبنـي المسـجد في هـذا المكان، وكان أرضـا فيهـا نخـل وبعـض البنايـات القديمـة لبنـي النجـار، فطلـب منهـم شراءه ليبنـي فيـه مسـجده، فقـال لهـم: «**يَـا بَنِي النَّجَّـارِ ثَامِنُـونِي بِحَائِطِكُـمْ هَـذَا**». أي: اذكـروا لي ثمنـه.

فقالُوا: لاَ وَاللهِ لاَ نَطْلُبُ ثَمَنَهُ إِلَّا إِلَى اللهِ[1].

ربح البيع يا بني النجار.

الله الشكور أعظم الأجر أجره، وأحسن الثواب ثوابه.

جُبـل الله الإنسـان عـلى محبتـه الثـواب، وخوفـه للعقـاب، فـترى كل إنسـان يبحـث عـن جـزاء فعلـه ليقـدم عليـه، وينظـر إلى عاقبـة مـا يريـد فعلـه ليتركـه أو ليتحمـل عواقبـه.

لذا كان أعظم الثواب وأكرمه وأحسنه ثواب الله الشكور العظيم.

وصف الله أجره الذي جعله للمؤمنين بأنه أجر عظيم، وأجر كبير، وأجر كريم، وأجر حسن.

قال الله: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ الله الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦)﴾ سورة النساء

قـال الله: ﴿إِنَّ هَـذَا الْقُـرْآنَ يَهْـدِى لِلَّـتِي هِىَ أَقْـوَمُ وَيُبَـشِّرُ الْمُؤْمِنِـينَ الَّذِيـنَ يَعْمَلُـونَ الصَّالِحَـاتِ أَنَّ لَهُـمْ أَجْـرًا كَبِـيرًا (٩)﴾

قـال الله: ﴿وَيُبَـشِّرَ الْمُؤْمِنِـينَ الَّذِيـنَ يَعْمَلُـونَ الصَّالِحَـاتِ أَنَّ لَهُـمْ أَجْـرًا حَسَـنًا (٢) مَاكِثِـينَ فِيـهِ أَبَـدًا (٣)﴾

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٨)، ومسلم (٥٢٤)..



قال الله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٤٢) هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (٤٤)﴾ سورة الأحزاب

ولك أن تتخيل غنيا كريما قال لك افعل كذا وأجرك عندي كبير، أو أجرك عندي عظيم، كيف يكون الأجر؟

الذي وعدك بالأجر العظيم هو الله العظيم الذي لا أعظم منه، فعطاؤه العظيم على قد عظمته.

والذي وعدك بالأجر الكبير هو الله الكبير الأكبر الذي لا أكبر منه، فعطاؤه على قدر كبريائه.

والذي وعدك بالأجر الكريم هو الله الكريم الأكرم الذي لا أكرم منه، فعطاؤه على قدر كرمه.

لذا كان جميع الأنبياء يعلنون لأقوامهم دوما أنهم لا يسألونهم أجرا، لأن أجورهم على رب العالمين، وهو يوفيهم إياها.

قال الله: ﴿وَيَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾. سورة هود (٢٩)

قال الله: ﴿يَاقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾. سورة هود(٥١)

قال الله: ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. سورة الشعراء(١٠٩)

وأي أجر يعطيه أهل الدنيا، ولو كانت الدنيا كلها فهي لا شيء في ثواب الله وجزاءه.

لذا لما رأى أهل الدنيا مال قارون قالوا: يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون، وأما الذين أعلمهم الله حقيقة الدنيا، وأعلمهم عظيم ثوابه، قالوا لهم: ويلكم ثواب الله خير، خير من الدنيا وما عليها.

قال الله: ﴿ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠)﴾ سورة القصص

فما أبئس وأخسر هؤلاء الذين باعوا دينهم بدنياهم، والله لقد اشتروا بدينهم الثمن القليل، ولو كانت الدنيا كلها.

قال الله: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾. سورة البقرة(٧٩)

وكيف لا تكون الدنيا كلها ثمنا قليلا، وهي حتى لو أعطوها لك لتترك دينك فإنها زائلة، ونعيمها كله كدر، لا تصفو لك بحال.





أما المؤمنون فقد وعد الله أقلهم وأدناهم منزلة بعشرة أمثال الدنيا منذ خلقها الله إلى أن أفناها، مع ما اشتهت نفسه ولذت عينه.

يقول النبي ﷺ: «سَأَلَ مُوسَى رَبَّهُ، مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً، قَالَ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، فَيُقَالُ لَهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ، وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ، فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ، وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ، فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ، وَلَذَّتْ عَيْنُكَ، فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، قَالَ: رَبِّ، فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟ قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»، قَالَ: وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: «﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] الْآيَةَ[٢].

---

(٢) أخرجه البخاري (٤٢٨)، ومسلم (٥٢٤).



وَلَا يَهْلِكُ عَلَى اللهِ إِلَّا هَالِكٌ



إذا رأيت أحدا يوم القيامة خفت موازينه، وأمر الله به إلا النار فاعلم أن هذا عبد آبق شارد عن الله حقا، اختار الهلاك، بل وأصر عليه.

إنك الآن على موعد لترى كيف أن الله تعالى أعظم وأكثر فرص النجاة، وكيف أن الله تعالى أحسن المثوبة، وكيف أن الله تعالى ثقّل الموازين بفضله ورحمته، حتى أنك ستقول كما قال النبي ﷺ: «**وَلَا يَهْلِكُ عَلَى اللهِ إِلَّا هَالِكٌ**»[٣].

ابتداء: لا تنسى أن الله هو الذي منّ عليك بالإيمان، وهو الذي وفقك لطاعته، فكل شيء منك هو منه سبحانه، فهو الأول والآخر.

قال الله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ الله يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾. سورة الحجرات (١٧)

ومع أنه سبحانه هو الذي منَّ علينا بطاعته، فهو كذلك منّ علينا بثوابه وحسن جزاءه وعطاءه.

وقبل أن أذكر لك عظيم ثوابه، استحضر معي أنه سبحانه الغني الكريم العظيم الشكور المنان، محسن غاية الإحسان، واسع الفضل، عظيم المنْ.

الشكور الذي يشكرك لإحسانك لنفسك.

تأتي بحسنة فيزيدك بها وفيها حسنا.

قال الكريم المنان: ﴿وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾. سورة الشورى (٢٣)

وإليك الآن قطرات من فيض عظيم ثوابه سبحانه:

أولا:

من همّ بحسنة كتبها الله له حسنة كاملة.

ومن عمل حسنة كتبها له بعشر حسنات، ثم تتضاعف عنده إلى سبع مائة، ثم أضعاف ذلك، إلى الحد الذي يصل إلى الجبال، بل أعظم من ذلك.

ومن همّ بسيئة فتركها لله كتبها له حسنة كاملة.

---

(٣) أخرجه مسلم (١٣١).





ومن عملها كتبها عليه سيئة واحدة، ويذهبها سبحانه بعد ذلك إما بحسنة أو بمصاب حتى لو شوكة أو بتوبة، أو يعفو سبحانه عمن يشاء تكرما وفضلا.

قال النبي ﷺ: «**إِذَا أَحْسَنَ أَحَدُكُمْ إِسْلَامَهُ: فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ، وَكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ لَهُ بِمِثْلِهَا**»(٤).

قال النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَإِنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا، كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، وَإِنْ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا اللهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً،وَمَحَاهَا اللهُ، وَلَا يَهْلِكُ عَلَى اللهِ إِلَّا هَالِكٌ**»(٥).

بل من أجمل ما يطرق قلبك أن هذا نداء الله بنفسه لك حتى تقبل عليه، ومخاطبة الله ملائكته الحفظة وهم يكتبون أعمالك، نداء في غاية اللطف.

قال الله الجليل كما في الحديث القدسي:

« مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَأَزِيدُ.

وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَجَزَاؤُهُ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا أَوْ أَغْفِرُ.

وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ مِنِّي ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا.

وَمَنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً، وَمَنْ لَقِيَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطِيئَةً لَا يُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَقِيتُهُ بِمِثْلِهَا مَغْفِرَةً»(٦).

وقال الله سبحانه يخاطب ملائكته:

« إِذَا هَمَّ عَبْدِي بِسَيِّئَةٍ فَلَا تَكْتُبُوهَا عَلَيْهِ، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا سَيِّئَةً، وَإِذَا هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا فَاكْتُبُوهَا حَسَنَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا فَاكْتُبُوهَا عَشْرًا»(٧).

وانظر إلى عظيم الفضل وجميل الثواب، كيف أن تمرة واحدة تصدّق بها العبد من طيب ماله، كيف جعلها مثل الجبل.

قال النبي ﷺ: «**مَا تَصَدَّقَ أَحَدٌ بِصَدَقَةٍ مِنْ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، إِلَّا أَخَذَهَا الرَّحْمَنُ بِيَمِينِهِ، وَإِنْ كَانَتْ تَمْرَةً، فَتَرْبُو فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ حَتَّى تَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ الْجَبَلِ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ**

---

(٤) أخرجه البخاري (٤٢).

(٥) أخرجه مسلم (١٣١).

(٦) أخرجه مسلم (٢٦٨٧).

(٧) أخرجه مسلم (١٢٨).



أَوْ فَصِيلَهُ»[٨].

بل قد يتضاعف ثواب العمل عند الله، حتى يغفر الله للعبد بهذا العمل كل ذنوبه.

فهذا رجل نحّى غصن شوك كان على الطريق، شكر الله له ذلك، فغفر له.

يقول النبي ﷺ: «بَيْنَمَا رَجُلٌ يَمْشِي بِطَرِيقٍ وَجَدَ غُصْنَ شَوْكٍ عَلَى الطَّرِيقِ فَأَخَّرَهُ، فَشَكَرَ اللهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ»[٩].

ثانيا:

من نوى بصدق عملا صالحا وعجز عنه، أعطاه الله ثواب العاملين، وبلغه درجة هذا العمل وإن لم يبلغها بعمله.

فهذه مرتبة الشهادة قد يتمناها العبد، لكنه قد لا يدركها، فإن رأى الله منه صدقا بلّغه منازل الشهداء، وإن مات على فراشه.

قال النبي ﷺ: «مَنْ سَأَلَ اللهَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ، بَلَّغَهُ اللهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ»[١٠].

وهذا الذي رأى رجلا غنيا صالحا ينفق ماله في وجوه الخير، فتمنى بصدق أن يفعل مثله لو كان معه، فإن الله يعطيه مثل أجر المتصدق.

قال النبي ﷺ: «: إِنَّمَا الدُّنْيَا لأَرْبَعَةِ نَفَرٍ، عَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ مَالاً وَعِلْمًا فَهُوَ يَتَّقِي فِيهِ رَبَّهُ، وَيَصِلُ فِيهِ رَحِمَهُ، وَيَعْلَمُ للهِ فِيهِ حَقًّا، فَهَذَا بِأَفْضَلِ الْمَنَازِلِ، وَعَبْدٍ رَزَقَهُ اللهُ عِلْمًا وَلَمْ يَرْزُقْهُ مَالاً فَهُوَ صَادِقُ النِّيَّةِ يَقُولُ: لَوْ أَنَّ لِي مَالاً لَعَمِلْتُ بِعَمَلِ فُلَانٍ فَهُوَ بِنِيَّتِهِ فَأَجْرُهُمَا سَوَاءٌ...»[١١].

ومن كان يعمل شيئا من الصالحات ثم امتنع عنها بعذر من سفر أو مرض، كتب الله له ما كان يعمل وهو صحيح أو مقيم.

قال النبي ﷺ: «إِنَّ أَقْوَامًا بِالْمَدِينَةِ خَلْفَنَا، مَا سَلَكْنَا شِعْبًا وَلاَ وَادِيًا إِلَّا وَهُمْ مَعَنَا فِيهِ، شَرِكُوكُمْ فِي الْأَجْرِ، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ»، وفي رواية «حَبَسَهُمُ الْمَرَضُ»[١٢].

وقال النبي ﷺ: «إِذَا مَرِضَ العَبْدُ، أَوْ سَافَرَ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا»[١٣].

قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: إِنِّي إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنًا، فَحَمِدَنِي عَلَى مَا ابْتَلَيْتُهُ، فَإِنَّهُ يَقُومُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ مِنَ الْخَطَايَا، وَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: أَنَا

(٨) أخرجه مسلم (١٠١٤).

(٩) أخرجه البخاري (٦٥٢).

(١٠) أخرجه مسلم (١٩٠٩).

(١١) أخرجه الترمذي في «سننه» (٢٣٢٥)، و صححه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٦).

(١٢) أخرجه البخاري (٢٨٣٩)، ومسلم (١٩١١) .

(١٣) أخرجه البخاري (٢٩٩٦).

قَيَّدْتُ عَبْدِي، وَابْتَلَيْتُهُ، فَأَجْرُوا لَهُ كَمَا كُنْتُمْ تُجْرُونَ لَهُ وَهُوَ صَحِيحٌ»[14].

وقال النبي ﷺ: «مَا أَحَدٌ مِنَ النَّاسِ يُصَابُ بِبَلَاءٍ فِي جَسَدِهِ إِلَّا أَمَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ يَحْفَظُونَهُ فَقَالَ: اكْتُبُوا لِعَبْدِي فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، مَا كَانَ يَعْمَلُ مِنْ خَيْرٍ، مَا كَانَ فِي وِثَاقِي»[15].

بل ليس فقط أجر ما كنت تعمل، بل يعطيك على أفضل ما كنت تعمل، أي أن قياس الأجر على أعظم ما وفقك إليه من اجتهاد في الطاعة.

يقول النبي ﷺ: «إِذَا اشْتَكَى الْعَبْدُ المسلم قَالَ اللهُ تَعَالَى لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ: اكْتُبُوا لَهُ أَفْضَلَ مَا كَانَ يَعْمَلُ إِذَا كَانَ طَلَقًا حَتَّى أُطْلِقَهُ»[16].

ومن نوى بصدق قيام الليل ثم نام عنه، فإن الله يعطيه ثواب القائم، ويكون نومه صدقة عليه من الله.

قال النبي ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ بِقِيَامِ سَاعَةٍ مِنَ اللَّيْلِ، فَيَنَامُ عَنْهَا، إِلَّا كَانَ نَوْمُهُ صَدَقَةً تَصَدَّقَ اللهُ بِهَا عَلَيْهِ، وَكُتِبَ لَهُ أَجْرُ مَا نَوَى»[17].

ثالثا:

المجازاة عند رب العالمين بأدنى أدنى عمل، حتى لو كان مثقال ذرة، يعلمها، ويحصيها، ويضاعفها سبحانه.

قال الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا (٤٠)﴾ النساء

حتى ظمأك ونصبك وخطواتك، معدودة عند الله، يجزيك بها أحسن الثواب.

قال الله: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١)﴾ سورة التوبة

حتى لو كانت صدقتك شق تمرة، يقيك بها النار.

وانظر إلى عظيم كرمه كيف لم يحتقر جهدك وطاعتك مع أنه قليل جدا، لكن لما كان هذا هو جهدك علم به وأعظمه بل وذكر في كتابه أنه علمه، بل وسخر من الذين يسخرون منه.

يقول ابن مسعود رضي الله عنه، لَمَّا أُمِرْنَا بِالصَّدَقَةِ كُنَّا نَتَحَامَلُ، فَجَاءَ أَبُو عَقِيلٍ بِنِصْفِ صَاعٍ، وَجَاءَ إِنْسَانٌ

(١٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٧١١٨)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤/ ١٤٤).

(١٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦٤٨٢)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣/ ٢٣٣).

(١٦) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٨/ ٣٠٩)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٢٣٢).

(١٧) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٢٥٨٨)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٦٠٢).



بِأَكْثَرَ مِنْهُ، فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ: إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنْ صَدَقَةِ هَذَا، وَمَا فَعَلَ هَذَا الآخَرُ إِلَّا رِئَاءً، فَنَزَلَتْ: «**الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩)**»[١٨].

ومن جميل جزاء الله تعالى أن أدنى أدنى مثقال ذرة من خير تُخرج العبد من النار يوم القيامة

فبعد أن يدخل أهل النار النار، يأذن الله في الشفاعة، فيقول لنبينا محمد ﷺ: «**انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ، فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ - أَوْ خَرْدَلَةٍ - مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ، فَأَنْطَلِقُ، فَأَفْعَلُ، ثُمَّ أَعُودُ فَأَحْمَدُهُ بِتِلْكَ الْمَحَامِدِ، ثُمَّ أَخِرُّ لَهُ سَاجِدًا، فَيَقُولُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي، فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ، فَأَنْطَلِقُ فَأَفْعَلُ**»[١٩].

رابعا:

وعد الله المؤمنين ثواب الدنيا، وحسن ثواب الآخرة.

قال الله: ﴿**وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨)**﴾ سورة آل عمران

قال النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً، فَأَمَّا الْكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِهَا للهِ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الْآخِرَةِ، لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ، فَإِنَّ اللهَ يَدَّخِرُ لَهُ حَسَنَاتِهِ فِي الْآخِرَةِ وَيُعْقِبُهُ رِزْقًا فِي الدُّنْيَا عَلَى طَاعَتِهِ**»[٢٠].

خامسا:

أنه سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملا، فهو سبحانه يعطي الكافر نظير عمله الحسن ثوابا في الدنيا، عافية ورزقا وثناء من الناس عليه، وإن أسلم أثابه الله عليه بعد إسلامه حسنات مضاعفة، فضلا منه وكرما.

فقد جاء حكيم بن حزام ﷺ، فقال: أَيْ رَسُولَ اللهِ، أَرَأَيْتَ أُمُورًا كُنْتُ أَتَحَنَّثُ بِهَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، مِنْ

---

(١٨) أخرجه البخاري (٤٦٦٨)، ومسلم (١٠١٨).

(١٩) أخرجه البخاري (٧٥١٠)، ومسلم (١٣٩).

(٢٠) أخرجه مسلم (٢٨٠٨).



صَدَقَةٍ، أَوْ عَتَاقَةٍ، أَوْ صِلَةِ رَحِمٍ، أَفِيهَا أَجْرٌ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَسْلَمْتَ عَلَى مَا أَسْلَفْتَ مِنْ خَيْرٍ**»(٢١).

سادسا:

من جميل ثوابه، وعظيم إحسانه، أنه يعطي أجورا عظيمة على أعمال يسيرة، يثقل بها ميزان العبد عنده يوم القيامة.

فمائة تسبيحة بألف حسنة، ويحط بها ألف سيئة.

قال النبي ﷺ لأصحابه يوما: «**أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكْسِبَ، كُلَّ يَوْمٍ أَلْفَ حَسَنَةٍ؟**» **فَسَأَلَهُ سَائِلٌ مِنْ جُلَسَائِهِ: كَيْفَ يَكْسِبُ أَحَدُنَا أَلْفَ حَسَنَةٍ؟** قَالَ: «**يُسَبِّحُ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ، فَيُكْتَبُ لَهُ أَلْفُ حَسَنَةٍ، أَوْ يُحَطُّ عَنْهُ أَلْفُ خَطِيئَةٍ**»(٢٢).

وقراءة سورة الإخلاص تعدل قراءة ثلث القرآن، جزاء لا إجزاءً.

قال النبي ﷺ: «**أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ فِي لَيْلَةٍ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟**» **قَالُوا: وَكَيْفَ يَقْرَأُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟ قَالَ:** «**قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ**»(٢٣).

وصيام رمضان مع ست من شوال يعدل صيام السنة.

قال النبي ﷺ: «**مَنْ صَامَ رَمَضَانَ فَشَهْرٌ بِعَشَرَةِ أَشْهُرٍ، وَصِيَامُ سِتَّةِ أَيَّامٍ بَعْدَ الْفِطْرِ فَذَلِكَ تَمَامُ صِيَامِ السَّنَةِ**»(٢٤).

وصيام ثلاثة أيام من كل شهر يعدل صيام الدهر.

قال النبي ﷺ: «**مَنْ صَامَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِنَ الشَّهْرِ فَقَدْ صَامَ الدَّهْرَ كُلَّهُ**»، **ثُمَّ قَالَ:** «**صَدَقَ اللهُ فِي كِتَابِهِ: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾**» [سورة الأنعام: ١٦٠]»(٢٥).

بل ويعطي ثواب عتق عشر رقاب، ومائة حسنة، وتكفير مائة سيئة، وحرز من الشيطان، لمن قال ذكرا لا يتجاوز ستة عشر كلمة مائة مرة، تقريبا لا يأخذ من الإنسان سوى ثلث ساعة على أقصى تقدير.

قال النبي ﷺ: «**مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، كَانَتْ لَهُ عَدْلَ عَشْرِ رِقَابٍ، وَكُتِبَتْ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ، وَمُحِيَتْ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنَ الشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ، وَلَمْ يَأْتِ أَحَدٌ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ، إِلَّا**

---

(٢١) أخرجه البخاري (٢٥٣٨)، ومسلم (١٢٣).

(٢٢) أخرجه مسلم (٢٦٩٨).

(٢٣) أخرجه مسلم (٨١١).

(٢٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٢٤١٢)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٠٠٧).

(٢٥) أخرجه النسائي في «سننه» (٢٤٠٩)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع » (٦٣٢٤).

أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ»[٢٦].

وأجر الصيام والقيام، يعطيه الله تعالى على طاعة يستطيعها كل مسلم، وذلك كل أسبوع.

هذا الأجر في غاية العظمة ورب الكعبة.

قال النبي ﷺ: «**مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَغَسَّلَ، وَبَكَّرَ وَابْتَكَرَ، وَدَنَا وَاسْتَمَعَ وَأَنْصَتَ، كَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ يَخْطُوهَا أَجْرُ سَنَةٍ صِيَامُهَا وَقِيَامُهَا**»[٢٧].

لو تخيلنا رجلا يبعد عن المسجد ألف خطوة فقط، ثم قام يوم الجمعة مبكرا، فاغتسل وتنظف وتطيب، ثم مشى إلى الجمعة، ثم دنا من الإمام في الصفوف الأولى، ثم استمع وانصت، كان له أجر ألف سنة صام نهارها وقام ليلها.

وأجر آخر في غاية الكرم، وهو لمن دخل السوق، حيث الغفلة، وكثرة الحلف، وربما الكذب، ونحو ذلك، فمن دخل السوق وذكر الله بهذا الذكر المعين، أعطاه الله مليون حسنة، ومحا عنه مليون سيئة، ورفعه مليون درجة.

قال النبي ﷺ: «مَنْ دَخَلَ السُّوقَ، فَقَالَ: لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ يُحْيِي وَيُمِيتُ، وَهُوَ حَيٌّ لاَ يَمُوتُ، بِيَدِهِ الخَيْرُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، كَتَبَ اللهُ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ حَسَنَةٍ، وَمَحَا عَنْهُ أَلْفَ أَلْفِ سَيِّئَةٍ، وَرَفَعَ لَهُ أَلْفَ أَلْفِ دَرَجَةٍ»[٢٨].

بل أجر الحج والعمرة يجعله الله تعالى على طاعات يسيرة، فضلا منه وكرما لعبده الفقير الذي لا يملك الحج والعمرة.

جعل سبحانه تطهرك في بيتك ثم إتيانك الصلاة في جماعة كأجر الحاج المحرم، وتطهرك في بيتك وخروجك لصلاة الضحى كأجر المعتمر.

قال النبي ﷺ: «**مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ مُتَطَهِّرًا إِلَى صَلَاةٍ مَكْتُوبَةٍ فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ الْحَاجِّ الْمُحْرِمِ، وَمَنْ خَرَجَ إِلَى تَسْبِيحِ الضُّحَى لَا يَنْصِبُهُ إِلَّا إِيَّاهُ فَأَجْرُهُ كَأَجْرِ الْمُعْتَمِرِ**»[٢٩].

وجعل صلاتك الفجر في جماعة، ثم مكوثك في مصلاك تذكر الله حتى تشرق الشمس، ثم صلاة ركعتين، جعل لك بهما أجر حجة وعمرة تامتين.

قال النبي ﷺ: «**مَنْ صَلَّى الْغَدَاةَ فِي جَمَاعَةٍ ثُمَّ قَعَدَ يَذْكُرُ اللهَ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ، ثُمَّ صَلَّى رَكْعَتَيْنِ كَانَتْ لَهُ كَأَجْرِ حَجَّةٍ وَعُمْرَةٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تَامَّةٍ تَامَّةٍ تَامَّةٍ**»[٣٠].

---

(٢٦) أخرجه البخاري (٣٢٩٣)، ومسلم (٢٦٩١).

(٢٧) أخرجه الترمذي (٤٩٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح أبي داود» (٣٧٣).

(٢٨) أخرجه الترمذي في «سننه» (٣٤٢٨)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣١٣٩).

(٢٩) أخرجه أبو داود في «سننه» (٥٥٨)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح أبي داود» (٥٦٧).

(٣٠) أخرجه الترمذي في «سننه» (٥٨٦)، وحسنه بشواهده الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٤٠٣).

وجعل صلاتك الجنازة بجبل من الحسنات، ولو شيعت الجنازة كان لك مثل جبلين من الحسنات

قال النبي ﷺ: «مَنْ شَهِدَ الجَنَازَةَ حَتَّى يُصَلِّيَ، فَلَهُ قِيرَاطٌ، وَمَنْ شَهِدَ حَتَّى تُدْفَنَ كَانَ لَهُ قِيرَاطَانِ»، قِيلَ: وَمَا القِيرَاطَانِ؟ قَالَ: «مِثْلُ الجَبَلَيْنِ العَظِيمَيْنِ»[٣١]..

سابعا:

أن من جميل فضله، أنه جعل سعيك في الدنيا، وإنفاقك على زوجك وولدك في ميزان حسناتك.

هذه اللقمة التي تضعها في فم امرأتك وولدك، لك بها عنده أجر.

يقول النبي ﷺ: «**إِذَا أَنْفَقَ الرَّجُلُ عَلَى أَهْلِهِ يَحْتَسِبُهَا فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ**»[٣٢].

ويقول النبي ﷺ: «**إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا، حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فَمِ امْرَأَتِكَ**»[٣٣].

ذاك الثوب الذي تشتريه لامرأتك، مع أنه واجب عليك، إلا أن لك به صدقة.

في ذات يوم أَتَى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عَلَى عَمْرِو بْنِ أُمَيَّةَ الضَّمْرِيِّ وَهُوَ يَسُومُ بِمِرْطٍ فِي السُّوقِ فَقَالَ: مَا تَصْنَعُ يَا عَمْرُو؟ قَالَ: أَشْتَرِي هَذَا فَأَتَصَدَّقُ بِهِ فَقَالَ لَهُ: فَأَنْتَ إِذًا، قَالَ: ثُمَّ مَضَى ثُمَّ رَجَعَ فَقَالَ: يَا عَمْرُو مَا صَنَعَ الْمِرْطُ؟ قَالَ: اشْتَرَيْتُهُ فَتَصَدَّقْتُ بِهِ قَالَ: عَلَى مَنْ؟ قَالَ: عَلَى الرَّقِيقَةِ؟ قَالَ: وَمَنْ رَقِيقَةٌ؟ قَالَ: امْرَأَتِي، قَالَ: وَتَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى امْرَأَتِكَ؟ قَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**مَا أَعْطَيْتُمُوهُنَّ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ لَكُمْ صَدَقَةٌ**» فَقَالَ: **يَا عَمْرُو لَا تَكْذِبْ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: وَاللهِ لَا أُفَارِقُكَ حَتَّى تَأْتِيَ عَائِشَةَ فَتَسْأَلَهَا، قَالَ: فَانْطَلَقَا حَتَّى دَخَلَا عَلَى عَائِشَةَ فَقَالَ لَهَا عَمْرٌو: يَا أُمَّتَاهُ هَذَا عُمَرُ يَقُولُ لِي: لَا تَكْذِبْ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، نَشَدْتُكِ بِاللهِ أَسَمِعْتِ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا أَعْطَيْتُمُوهُنَّ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ لَكُمْ صَدَقَةٌ»؟ قَالَتْ: اللَّهُمَّ نَعَمْ، اللَّهُمَّ نَعَمْ**»[٣٤].

بل جعل النفقة على العيال أفضل من النفقة فيما سواه.

قال النبي ﷺ: «**دِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ فِي رَقَبَةٍ، وَدِينَارٌ تَصَدَّقْتَ بِهِ عَلَى مِسْكِينٍ، وَدِينَارٌ أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ، أَعْظَمُهَا أَجْرًا الَّذِي أَنْفَقْتَهُ عَلَى أَهْلِكَ**»[٣٥].

وليس هذا للرجل فحسب، بل لو أنّ زوجة مثلا أنفقت في بيت زوجها أقل ما يكون، فإن الله يعطيها عليه أجرا.

---

(٣١) أخرجه البخاري (١٣٢٥)، ومسلم (٩٤٥).

(٣٢) أخرجه البخاري (٥٥).

(٣٣) أخرجه البخاري (٥٦).

(٣٤) أخرجه أبو داود الطيالسي في «مسنده» (١٤٦١)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٠٢٤).

(٣٥) أخرجه مسلم (٩٥٥).



فهذه امرأة عبد الله بن مسعود ﷺ، كانت امْرَأَةً صَنَاعًا، وَكَانَتْ تَبِيعُ وَتَصَدَّقُ - فَقَالَتْ لِعَبْدِ الله يَوْمًا: لَقَدْ شَغَلْتَنِي أَنْتَ وَوَلَدُكَ، فَمَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَتَصَدَّقَ مَعَكُمْ، فَقَالَ: مَا أُحِبُّ إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ أَجْرٌ أَنْ تَفْعَلِي، فَسَأَلَا عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ الله ﷺ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ الله ﷺ: «**لَكِ أَجْرُ مَا أَنْفَقْتِ عَلَيْهِمْ**»[٣٦].

بل جعل إتيانك لأهلك (الجماع) لك به صدقة وأجر، فهل بعد هذا الكرم شيء، تأتي شهوتك، ويثيبك عليه.

قال النبي ﷺ: «**وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ**»[٣٧].

ومن جميل كرمه أنّ ما غرسه الإنسان من شجر أو ثمر، له به أجر الصدقة، وكل ثمرة طعمها إنسان أو حيوان أو طير له بها أجر الصدقة.

قال النبي ﷺ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا، أَوْ يَزْرَعُ زَرْعًا، فَيَأْكُلُ مِنْهُ طَيْرٌ أَوْ إِنْسَانٌ أَوْ بَهِيمَةٌ، إِلَّا كَانَ لَهُ بِهِ صَدَقَةٌ**»[٣٨].

بل حتى ما سُرق منه له به أجر الصدقة، كأنه تصدق بها.

قال النبي ﷺ: «**مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَغْرِسُ غَرْسًا إِلَّا كَانَ مَا أُكِلَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةً، وَمَا سُرِقَ مِنْهُ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ مِنْهُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَمَا أَكَلَتِ الطَّيْرُ فَهُوَ لَهُ صَدَقَةٌ، وَلَا يَرْزَؤُهُ أَحَدٌ إِلَّا كَانَ لَهُ صَدَقَةٌ**»[٣٩].

فقل لي بالله عليك: كيف لا يُحب وقد جعل ما تأكله مما زرعته أو غرسته لك به صدقة.

تخيل: تزرع وتغرس وتأكل ولك بكل ما تأكله صدقة.

ولك بكل شيء أكله حيوان من زرعك صدقة.

ولك بكل شيء سرقه أحد من زرعك صدقة.

ثامنا:

من عظيم فضله سبحانه، أنه نوّع ألوان الصدقات، فلم يجعلها متوقفة على المال فحسب، بل يجد كل مسلم ما يتصدق به لله تعالى.

(٣٦) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٦٠٨٥)، وصححه الشيخ الألباني في «إرواء الغليل» (٣/ ٣٩٠).
(٣٧) أخرجه مسلم (١٠٠٦).
(٣٨) أخرجه البخاري (٢٣٢٠).
(٣٩) أخرجه مسلم (١٥٥٢).



تسبح الله لك بها صدقة، وتكبر الله لك بها صدقة، وتحمد الله لك بها صدقة، و تقول لا إله إلا الله لك بها صدقة، و تستغفر الله بك بها صدقة.

تزيل حجرا أو شوكا من طريق الناس لك به صدقة.

تأمر بمعروف أو تنهى عن منكر لك به صدقة.

تمسك عن الشر لك به صدقة.

تعدل بين اثنين بك به صدقة.

تعين أو تساعد أحدا في أي شيء لك به صدقة، حتى دلالتك الرجل على الطريق لك به صدقة.

بل تبصر لضعيف البصر طريقه، أو تنظر له كتابه، لك به صدقة.

تؤنس المستوحش لك بها صدقة.

تبسمك في وجه أخيك صدقة.

الكلمة الطيبة لك بها صدقة.

جاء ناس مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فقَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: يَا رَسُولَ الله، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ، قَالَ: **«أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ»**(٤٠).

وقال النبي ﷺ: **«عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ صَدَقَةٌ» قِيلَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَجِدْ؟ قَالَ «يَعْتَمِلُ بِيَدَيْهِ فَيَنْفَعُ نَفْسَهُ وَيَتَصَدَّقُ» قَالَ قِيلَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؟ قَالَ: «يُعِينُ ذَا الْحَاجَةِ الْمَلْهُوفَ» قَالَ قِيلَ لَهُ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ؟ قَالَ: «يَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ أَوِ الْخَيْرِ» قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ يَفْعَلْ؟ قَالَ: «يُمْسِكُ عَنِ الشَّرِّ، فَإِنَّهَا صَدَقَةٌ»**(٤١).

وقال النبي ﷺ: **«تَعْدِلُ بَيْنَ الِاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ» قَالَ: «وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ خُطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَتُمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ»**(٤٢).

وقال أبو ذر رضي الله عنه للنبي ﷺ: مِنْ أَيْنَ أَتَصَدَّقُ وَلَيْسَ لَنَا أَمْوَالٌ؟ قَالَ: **«لِأَنَّ مِنْ أَبْوَابِ الصَّدَقَةِ التَّكْبِيرَ، وَسُبْحَانَ اللهِ، وَالْحَمْدُ للهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَسْتَغْفِرُ اللهَ، وَتَأْمُرُ بِالْمَعْرُوفِ، وَتَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ،**

---

(٤٠) أخرجه مسلم (١٠٠٦).

(٤١) أخرجه مسلم (١٠٠٨).

(٤٢) أخرجه مسلم (١٠٠٩).



وَتَعْزِلُ الشَّوْكَةَ عَنْ طَرِيقِ النَّاسِ وَالْعَظْمَ وَالْحَجَرَ، وَتَهْدِي الْأَعْمَى، وَتُسْمِعُ الْأَصَمَّ وَالْأَبْكَمَ حَتَّى يَفْقَهَ، وَتُدِلُّ الْمُسْتَدِلَّ عَلَى حَاجَةٍ لَهُ قَدْ عَلِمْتَ مَكَانَهَا، وَتَسْعَى بِشِدَّةِ سَاقَيْكَ إِلَى اللهْفَانِ الْمُسْتَغِيثِ، وَتَرْفَعُ بِشِدَّةِ ذِرَاعَيْكَ مَعَ الضَّعِيفِ، كُلُّ ذَلِكَ مِنْ أَبْوَابِ الصَّدَقَةِ مِنْكَ عَلَى نَفْسِكَ، وَلَكَ فِي جِمَاعِكَ زَوْجَتَكَ أَجْرٌ»[٤٣].

وقال النبي ﷺ: «تَبَسُّمُكَ فِي وَجْهِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ، وَأَمْرُكَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيُكَ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَإِرْشَادُكَ الرَّجُلَ فِي أَرْضِ الضَّلَالِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَبَصَرُكَ لِلرَّجُلِ الرَّدِيءِ الْبَصَرِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِمَاطَتُكَ الْحَجَرَ وَالشَّوْكَةَ وَالْعَظْمَ عَنِ الطَّرِيقِ لَكَ صَدَقَةٌ، وَإِفْرَاغُكَ مِنْ دَلْوِكَ فِي دَلْوِ أَخِيكَ لَكَ صَدَقَةٌ»[٤٤].

وقال النبي ﷺ: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا، وَلَوْ أَنْ تُعْطِيَ صِلَةَ الْحَبْلِ، وَلَوْ أَنْ تُعْطِيَ شِسْعَ النَّعْلِ، وَلَوْ أَنْ تَنْزِعَ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ الْمُسْتَسْقِي، وَلَوْ أَنْ تُنَحِّيَ الشَّيْءَ مِنْ طَرِيقِ النَّاسِ يُؤْذِيهِمْ، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ، وَوَجْهُكَ إِلَيْهِ مُنْطَلِقٌ، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ فَتُسَلِّمَ عَلَيْهِ، وَلَوْ أَنْ تُؤْنِسَ الْوَحْشَانَ فِي الْأَرْضِ»[٤٥].

تاسعا:

أن الله تعالى قد يعطي على العمل الواحد ثوابا لعدة أشخاص، فهو عمل واحد، لكنه يثيب عليه ثواب أكثر من عامل.

فيطي من دلّ غيره على عمل صالح مثل ثواب الفاعل، من غير أن ينقص من أجره شيئا.

يقول النبي ﷺ: «مَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةً حَسَنَةً، فَلَهُ أَجْرُهَا، وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ»[٤٦].

وقال النبي ﷺ: «مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ»[٤٧].

فلو أسلم إنسان على يديك، كانت كل طاعاته في سجل حسناتك، من غير أن ينقص من أجر العامل شيئا.

ولو دللت مسلما على طاعة ففعلها، كان لك مثل أجره.

وكذلك كل من تسبب في فعل خير، أو أعان على خير، يعطيه الله تعالى أجرا وإن لم يعمله.

فمن فطّر صائما كان له مثل أجره، ومن جهّز غازيا كأنما غزى.

---

(٤٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢١٤٨٤)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٥٧٥).

(٤٤) أخرجه الترمذي في «سننه» (١٩٥٦)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٥٧٢).

(٤٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٥٩٥٥)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٤٢٢).

(٤٦) أخرجه مسلم (١٠١٧).

(٤٧) أخرجه مسلم (١٨٩٣).

قال النبي ﷺ: «**مَنْ فَطَّرَ صَائِمًا كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِهِ، غَيْرَ أَنَّهُ لاَ يَنْقُصُ مِنْ أَجْرِ الصَّائِمِ شَيْئًا**»(٤٨).

وقال النبي ﷺ: «**مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَقَدْ غَزَا، وَمَنْ خَلَفَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِخَيْرٍ فَقَدْ غَزَا**»(٤٩).

ومن حج بطفل مثلا، أعطى الله أجر الحج لهذا الصبي غير المكلف، وأعطى ثوابا عظيما لمن يقوم على شأنه يحج به.

فعندما حجّ النبي ﷺ، لقيته امرأة، فَرَفَعَتْ إِلَيْهِ صَبِيًّا، فَقَالَتْ: أَلِهَذَا حَجٌّ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، وَلَكِ أَجْرٌ**»(٥٠).

بل قد يتسع فضل الله لمن حج أو اعتمر عن غيره، بأن يعطي الله ثواب الحج أو العمرة لهما جميعا.

سأل رجل سعيد بن المسيب ؒ، فقال: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ، لِأَيِّهِمَا الْأَجْرُ أَلِلْحَاجِّ أَمْ لِلْمَحْجُوجِ عَنْهُ؟ فَقَالَ سَعِيدٌ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى وَاسِعٌ لَهُمَا جَمِيعًا»(٥١).

وهذه المرأة التي تتصدق من مال زوجها بعلمه، يعطي الله تعالى ثواب الصدقة لها ولزوجها.

قال النبي ﷺ: «**إِذَا أَنْفَقَتِ الْمَرْأَةُ مِنْ طَعَامِ بَيْتِهَا غَيْرَ مُفْسِدَةٍ كَانَ لَهَا أَجْرُهَا بِمَا أَنْفَقَتْ، وَلِزَوْجِهَا بِمَا كَسَبَ، وَلِلْخَازِنِ مِثْلُ ذَلِكَ، لاَ يَنْقُصُ بَعْضُهُمْ أَجْرَ بَعْضٍ شَيْئًا**»(٥٢).

وهذا الخازن على مال الصدقة، إن كان أمينا، يؤدي أموال الصدقات كما أمر الله، يعطيه الله نفس ثواب الصدقة، مع أنّ المال ليس ماله، لكن الله كريم، جعله متصدقا لأمانته وحفظه أموال الناس.

قال النبي ﷺ: «**الْخَازِنُ الْمُسْلِمُ الأَمِينُ، الَّذِي يُنْفِذُ - وَرُبَّمَا قَالَ: يُعْطِي - مَا أُمِرَ بِهِ كَامِلًا مُوَفَّرًا طَيِّبًا بِهِ نَفْسُهُ، فَيَدْفَعُهُ إِلَى الَّذِي أُمِرَ لَهُ بِهِ أَحَدُ الْمُتَصَدِّقَيْنِ**»(٥٣).

عاشرا:

أن العبد كلما كان العمل عليه أشق لأجل الفتن، أو لأجل صعوبة فيه، ثم هو يقاوم ويجاهد ويعمل، كان الأجر من الله مضاعفا.

ففي أيام الفتن، حيث يكون القابض على دينه كالقابض على الجمر يعطي الله تعالى للعامل أجر

(٤٨) أخرجه الترمذي (٨٠٧)، وصححه الشيخ الألباني في «**صحيح ابن ماجه**» (١٤١٧).

(٤٩) أخرجه البخاري (٢٨٤٣).

(٥٠) أخرجه مسلم (١٣٣٦).

(٥١) أخرجه ابن حزم في «المحلى (٥/ ٣٩).

(٥٢) أخرجه البخاري (٢٠٦٥)، ومسلم (١٠٢٤).

(٥٣) أخرجه البخاري (١٤٣٨)، ومسلم (١٠٢٣).

خمسين من الصحابة الكرام.

قال النبي ﷺ: **«إِنَّ وَرَاءَكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ، الْمُتَمَسِّكُ فِيهِنَّ يَوْمَئِذٍ بِمِثْلِ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ لَهُ كَأَجْرِ خَمْسِينَ مِنْكُمْ»، قَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَوَمِنْهُمْ؟ قَالَ: «لَا، بَلْ مِنْكُمْ»**»[٥٤].

والذي يقرأ القرآن، ويتتعتع فيه، وهو شاق عليه، يعطيه الله أجرين.

قال النبي ﷺ: **«مَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ، وَهُوَ حَافِظٌ لَهُ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ، وَمَثَلُ الَّذِي يَقْرَأُ، وَهُوَ يَتَعَاهَدُهُ، وَهُوَ عَلَيْهِ شَدِيدٌ فَلَهُ أَجْرَانِ»**[٥٥].

الحادي عشر:

أنه لا يضيع عنده عمل، طالما فعل العبد ما عليه، فإن الله يوفيه أجره، وإن لم يبلغ ما يريد.

فمن ذهب ليصلي صلاة الجماعة، لكنه لم يدركها، وجدهم قد صلوا، فإن الله بكرمه يعطيه أجر الجماعة كأنه صلى معهم.

قال النبي ﷺ: **«مَن توضَّأ فأحسَنَ وضوءَه، ثمَّ راحَ فوجد الناسَ قد صلَّوا، أعطاه الله عز وجل مثلَ أجرِ مَن صلاّها وحَضَرَها، لا يَنقُصُ ذلك من أجرِهم شيئاً»**[٥٦].

فهذا المجتهد سواء كان عالما أو حاكما إن اجتهد فأصاب كان له أجران، فإن أخطأ يعطيه أجرا واحدا، ولا يضيع جهده.

قال النبي ﷺ: **«إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»**[٥٧].

الثاني عشر:

أنه بكرمه بلّغ بعض أصحاب المصائب ممن ماتوا ببعض الأمراض، بلّغهم مراتب الشهداء، تفضلا منه وكرما.

فمن مات في الطاعون، أو مات بداء في بطنه، أو مات محروقا، أو وقع عليه بناء فمات، أو مات غريقا، أو ماتت المرأة وهي تلد، كل هؤلاء يبلغهم رب العالمين منزلة الشهادة.

داود ٣١١١ - قال النبي ﷺ: **«الشَّهَادَةُ سَبْعٌ سِوَى الْقَتْلِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ: الْمَطْعُونُ شَهِيدٌ، وَالْغَرِقُ شَهِيدٌ، وَصَاحِبُ ذَاتِ الْجَنْبِ شَهِيدٌ، وَالْمَبْطُونُ شَهِيدٌ، وَصَاحِبُ الْحَرِيقِ شَهِيدٌ، وَالَّذِي يَمُوتُ تَحْتَ الْهَدْمِ شَهِيدٌ، وَالْمَرْأَةُ تَمُوتُ بِجُمْعٍ شَهِيدٌ»**[٥٨].

---

(٥٤) أخرجه الطبراني في «**المعجم الأوسط**» (٣١٢١)، وصححه الشيخ الألباني في «**السلسلة الصحيحة**» (٤٩٤).

(٥٥) أخرجه البخاري (٤٩٣٧)، ومسلم (٧٩٨).

(٥٦) أخرجه أبو داود في «سننه» (٥٦٤)، وصححه الشيخ الألباني في «**صحيح أبي داود**» (٥٧٣)..

(٥٧) أخرجه البخاري (٧٣٥٢)، ومسلم (١٧١٦).

(٥٨) أخرجه أبو داود في «سننه» (٣١١١)،وصححه الشيخ الألباني في «**صحيح الترغيب والترهيب**» (١٣٩٨).

الثالث عشر:

حتى بعد موتك يُجري لك عملك الصالح الذي كنت سببا فيه، سواء كان علما نافعا، أو صدقة جارية، أو ولدا صالحا يدعو لك، أو مسلم يتصدق عنك.

قال النبي ﷺ: «**إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: إِلَّا مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ**»(٥٩).

قال النبي ﷺ: «**سَبْعَةٌ يَجْرِي لِلْعَبْدِ أَجْرُهُنَّ وَهُوَ فِي قَبْرِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ: مَنْ عَلَّمَ عِلْمًا، أَوْ أَجْرَى نَهَرًا أَوْ حَفَرَ بِئْرًا، أَوْ غَرَسَ نَخْلًا، أَوْ بَنَى مَسْجِدًا، أَوْ وَرَّثَ مُصْحَفًا، أَوْ تَرَكَ وَلَدًا يَسْتَغْفِرُ لَهُ بَعْدَ مَوْتِهِ**»(٦٠).

جاء رجل إلى النبي ﷺ، فسأله وقال: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ أُمِّيَ افْتُلِتَتْ نَفْسَهَا وَلَمْ تُوصِ، وَأَظُنُّهَا لَوْ تَكَلَّمَتْ تَصَدَّقَتْ، أَفَلَهَا أَجْرٌ، إِنْ تَصَدَّقْتُ عَنْهَا؟ قَالَ: «**نَعَمْ**»(٦١).

بل يرفع الله العبد في درجات الجنة، فيسأل عن سبب ذلك، فقد توقف عمله، فيقال له: باستغفار ولدك لك.

قال النبي ﷺ: «**إِنَّ الرَّجُلَ لَتُرْفَعُ دَرَجَتُهُ فِي الْجَنَّةِ فَيَقُولُ: أَنَّى هَذَا؟ فَيُقَالُ: بِاسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ لَكَ**»(٦٢).

بعد كل هذا تدرك حينئذ ثناء المؤمنين على ربهم يوم القيامة عندما يقولون: «**أَلَمْ يُثَقِّلِ اللهُ مَوَازِينَنَا**».

قال النبي ﷺ: «**إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، نَادَى مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ، فَيَقُولُونَ: وَمَا هُوَ؟ أَلَمْ يُثَقِّلِ اللهُ مَوَازِينَنَا، وَيُبَيِّضْ وُجُوهَنَا، وَيُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَيُنْجِنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَوَاللهِ مَا أَعْطَاهُمُ اللهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ - يَعْنِي إِلَيْهِ - وَلَا أَقَرَّ لِأَعْيُنِهِمْ**»(٦٣).

---

(٥٩) أخرجه مسلم (١٦٣١).

(٦٠) أخرجه البزار في «مسنده» (٧٢٨٩)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٣٦٠٢).

(٦١) أخرجه مسلم (١٠٠٤).

(٦٢) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (٣٦٦٠)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٢٩٥٣).

(٦٣) أخرجه ابن ماجه في «سننه» ١٨٧)، صححه الشيخ الألباني في «التعليقات الحسان» (٧٣٩٨).

وفي أثناء سيرك إلى الله، ستضعف نفسك، وتذل قدمك، وتقع في الذنب، وهو يرحم ضعفك، وعدك إن اجتنبت الكبائر أن يغفرها لك بطاعاتك، أو يبتليك فيطهرك، فكيف لا يُحب.



إلَّا اللَّمَمَ

يقول النبي ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ»(١).

نحن بنو آدم، ننسى كما نسي، ونعصي كما عصى.

ترد على الإنسان مهما كان إيمانه لحظات تقصير، تعلو قلبَه سحابةٌ كسحابة القمر، تراه مضيئا ثم يحجب السحاب ضوئه شيئا قليلا، ثم لا يلبث إلا أن يعود نوره، كذلك القلب تعتريه غفلة، فينسى قليلا، ثم سُرعان ما يتذكر ويعود.

قال الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾. سورة الأعراف (٢٠١)

هذا حال المتقين، ما أن يحوم الشيطان حول قلوبهم، يوسوس لهم، حتى يتذكروا ربهم وجلاله وسمعه وبصره وعلمه وإحسانه وفضله وعقابه، وحينئذ لا يتمادون في الغفلة، بل لا يظفر منهم الشيطان بسيئة إلا كاللص يخطفها ويمضي.

وكان من فضل الله ورحمته لما علم ضعف عباده أنه يتجاوز عن هذه السيئات الصغار التي لا يسلم منها أحد من عباد الله المتقين، بل إن أحدهم ليأتيها وقلبه يعتصر ألما، ثم لا تزال نُصب عينيه يطهرها بطاعات وأعمال صالحة.

تجاوز الله عن هذه الصغائر بشرط اجتناب الكبائر، ووجود الحسنات الماحية.

قال الله: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا﴾. سورة النساء (٣١)

وقال الله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾. سورة هود (١١٤)

تلا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، هذه الآية: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾. النجم (٣٢). ثم قال: قال النبي ﷺ: «: إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا، وَأَيُّ عَبْدٍ لَكَ لَا أَلَمَّا»(٢).

إن تغفر اللهم تغفر جما: أي تغفر ذنبا كثيرا.

وأي عبد لك لا ألما: وأي عبد هذا الذي لم يلم بمعصية.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٩).

(٢) أخرجه الترمذي في «سننه» (٣٢٨٤)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٦١٨).





ما أكرم الله وأحلمه وأرأفه.

يقول أنس بن مالك رضي الله عنه: «لَمْ أَرَ مِثْلَ الَّذِي بَلَغَنَا عَنْ رَبِّنَا، لَمْ نَخْرُجْ لَهُ مِنْ كُلِّ أَهْلٍ وَمَالٍ، ثُمَّ سَكَتَ هُنَيْهَةً وَقَالَ: وَاللهِ لَقَدْ كَلَّفَنَا رَبُّنَا أَهْوَنَ مِنْ ذَلِكَ، لَقَدْ تَجَاوَزَ لَنَا عَمَّا دُونَ الْكَبَائِرِ، فَمَا لَنَا وَلَهَا ثُمَّ تَلَى: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النساء: ٣١].. الْآيَةَ»[٣].

لكن: أهذا يدعو العبد إلى الغرور أم الخوف أم الحب؟ تعال لنرى...

(٣) أخرجه أبو داود في «الزهد» (٣٦٧)، بإسناد صحيح.



إِلَى سَبْعِمِائَةٍ أَقْرَبُ



إن الله تعالى عندما عفا عن الصغائر جعل لذلك شرطين:

الأول: اجتناب الكبائر، والثاني: الحسنات الماحية.

لكن ابتداء:

كم من كبيرة يأتيها الإنسان منا يظنها هينة صغيرة، وهي عند الله من كبائر الإثم، وفواحش الذنب.

ألم يقل الله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾. سورة النور (١٥)

بعض الناس يظن أن الكبائر هي السبعة التي جاءت في الحديث المشهور: «**اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ**»، **قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالسِّحْرُ، وَقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلَّا بِالْحَقِّ، وَأَكْلُ الرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ الْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ، وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ الْغَافِلَاتِ**»[٤].

الكبائر هي كل ذنب كبير عند الله، عظيم الإثم عند الله.

وإنما يُعرف عِظم الذنب عند الله بنص من كلام الله أو كلام رسوله ﷺ جاء فيه ما يدل على أنّ هذا الذنب عظيم كبير.

لذا كل ذنب جاء في القرآن أو السنة الصحيحة أنه كبير أو عظيم فهو من الكبائر.

وكل ذنب وضع الله له حدا في الدنيا فهو من الكبائر.

وكل ذنب توعّد الله فاعله باللعن أو الغضب أو العذاب أو النار أو الحرمان من الجنة أو ريحها فهو من الكبائر.

وكل ذنب وُصف بالشرك أو الفسق أو الكفر فهو من الكبائر.

وكل ذنب نفى الله أو رسوله ﷺ عن فاعله مسمى الإيمان فهو من الكبائر.

وكل ذنب قيل عن صاحبه أنه ليس منا فهو من الكبائر.

وكل ذنب أقدم عليه فاعله مستخفا به متهاونا بفعله فهو من الكبائر.

وكل ذنب أصرّ عليه العبد، يقيم عليه بلا ندم ولا توبة صحيحة فهو من الكبائر.

(٤) أخرجه البخاري (٢٧٦٦)، ومسلم (٨٩).



لذا لما سأل رجل عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «**كَم الْكَبَائِرُ أَسَبْعٌ هِيَ؟** قَالَ: «**إِلَى سَبْعِمِائَةٍ أَقْرَبُ مِنْهَا إِلَى سَبْعٍ غَيْرَ أَنَّهُ لَا كَبِيرَةَ مَعَ اسْتِغْفَارٍ وَلَا صَغِيرَةَ مَعَ إِصْرَارٍ**»[٥].

أقرب إلى ٧٠٠، كثير منها في حياتنا دون أن نشعر، والصغيرة مع الإصرار كبيرة.

الحافظ ابن حجر الهيتمي ألف كتاب: «الزواجر عن اقتراف الكبائر»، جمع فيه ٤٦٧ كبيرة، لابد أن تقف عليها، فالأمر خطير والله، عافانا الله وإياك.

وإليك بعض الكبائر المنتشرة بيننا، والتي أوردها ابن حجر، ولا يلتفت لها الكثير

الغيبة، والنميمة، والبهتان، والسخرية، والتنابز بالالقاب.

شرب كل مسكر من الكبائر، ومن ذلك شرب الحشيش والأفيون، وجوزة الطيب.

أكل الربا، والرشوة.

الاستدانة مع عدم رجاء السداد غالبا.

المماطلة في سداد الديون مع القدرة.

إنفاق مال فيما حرم الله ولو فلسا.

إيذاء الجار ولو ذميا.

التصرف في شارع المسمين بما يضرهم.

استعمال العارية في غير المأذون فيه.

تأخير الأجرة عن صاحبها.

أخذ أجرة على شوارع المسلمين.

النظر إلى الأجنبية بشهوة مع خوف الفتنة.

النمص والوشم وتفليج الأسنان.

إفساد المرأة على زوجها.

ترويع المسلم ولو بالمزاح.

نصيحة مشفق: لابد أن تعرف كبائر الذنوب، لتكن منها على حذر، فإنه مهلكة، عافانا الله وإياك.

---

(٥) أخرجه الطبري في «تفسيره» (٦/ ٦٥١)، وإسناده صحيح.

فَإِنَّ لَهَا مِنَ اللَّهِ طَالِبًا



رجل من أصحاب النبي ﷺ كان يعرف امرأة بغيا في الجاهلية، أسلم وأسلمت، وقدّر الله تعالى أن قابلها في إحدى طرقات المدينة، فكأن نفسه تذكرت تلك الأيام الخالية، فأقبل عليها يمازحها ويضاحكها، حتى بسط يده إليها، وفجأة:

توقفت المرأة، وقالت له: مَهْ إِنَّ اللهَ أَذْهَبَ بِالشِّرْكِ، وَجَاءَ بِالْإِسْلَامِ.

تركها وولى، وجعل ينظر إليها وهو يمشي، يلتفت إليها ويمضي، حتى اصطدم وجههُ بالحائط، وسال الدم على وجهه.

فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ: **«أَنْتَ عَبْدٌ أَرَادَ اللهُ بِكَ خَيْرًا، إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِذَا أَرَادَ بِعَبْدٍ خَيْرًا عَجَّلَ لَهُ عُقُوبَةَ ذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»**[٦].

إن أخطر ما يكون في الصغائر أن لها من الله طالبا.

من قواعد السير إلى الله هذه الآية: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾. سورة النساء(١٢٣)

حتى لو كان هذا السوء مثقال ذرة، فالمحاسبة عند الله بالذرة ومثقال الذرة.

لما نزلت هذه الآية شق ذلك على أصحاب القلوب الحية أصحاب النبي ﷺ، وبلغت منهم مبلغا شديدا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«قَارِبُوا، وَسَدِّدُوا، فَفِي كُلِّ مَا يُصَابُ بِهِ الْمُسْلِمُ كَفَّارَةٌ، حَتَّى النَّكْبَةِ يُنْكَبُهَا، أَوِ الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا»**[٧].

بل لما سمع الصديق أبو بكر رضي الله عنه هذه الآية، قال: يَا رَسُولَ اللهِ كَيْفَ الصَّلَاحُ بَعْدَ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣] فَكُلُّ سُوءٍ عَمِلْنَا جُزِينَا بِهِ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«غَفَرَ اللهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، أَلَسْتَ تَمْرَضُ؟ أَلَسْتَ تَنْصَبُ؟ أَلَسْتَ تَحْزَنُ؟ أَلَسْتَ تُصِيبُكَ اللَّأْوَاءُ؟» قَالَ: بَلَى. قَالَ: «فَهُوَ مَا تُجْزَوْنَ بِهِ»**[٨].

فلابد لكل ذنب من عقوبة، إن لم يمح الله ذلك الذنب حتى لو كان صغيرا، لابد أن يكون له أثر، ومن آثار ذلك هذه المصائب التي جعلها الله برحمته كفارة لأولياءه.

المؤمن يظل وجلا خائفا مشفقا يرى ذنوبه كالجبل فوق رأسه، يوشك أن يسقط عليه، أما الفاجر فلا يرى ذنبه أصلا.

---

(٦) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٦٨٠٦)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٢٢٠).

(٧) أخرجه مسلم (٢٥٧٤).

(٨) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦٨)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٤٣٠).





يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنْفِهِ»(٩).

لذا أنس بن مالك رضي الله عنه، لما رأى تهاونا عند بعض الناس، قال لهم: «إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا، هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعَرِ، إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ الْمُوبِقَاتِ»(١٠).

إن هذه الصغائر إن اجتمعت على العبد أهلكته، لذا قنع بها الشيطان.

قال النبي ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يُعْبَدَ بِأَرْضِكُمْ هَذِهِ، وَلَكِنَّهُ قَدْ رَضِيَ مِنْكُمْ بِمَا تَحْقِرُونَ»(١١).

وحذرنا النبي ﷺ منها، لأنه يعلم خطرها إذا تكاثرت، فالعبد إن استصغر الشيء أهمله، حتى يكون به هلاكه.

قال النبي ﷺ يوما لعائشة رضي الله عنها: «إِيَّاكِ وَمُحَقَّرَاتِ الْأَعْمَالِ، فَإِنَّ لَهَا مِنَ اللهِ طَالِبًا»(١٢).

وضرب لها نبينا ﷺ مثلا خطيرا.

مثل الصغائر، كمثل جماعة سافروا، ثم في أثناء الطريق أرادوا صنع طعامهم وانضاجه، فذهب كل واحد منهم فأتى بعود صغير، حتى اجتمعت كومة عظيمة فأججوا بها النار.

هذا العود لا ينضج نارا، لكن لما اجتمعت الأعواد كان الجحيم، كذلك الصغائر تجتمع على العبد حتى تهلكه.

قال رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ» وَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ضَرَبَ لَهُنَّ مَثَلًا: كَمَثَلِ قَوْمٍ نَزَلُوا أَرْضَ فَلَاةٍ، فَحَضَرَ صَنِيعُ الْقَوْمِ، فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَنْطَلِقُ، فَيَجِيءُ بِالْعُودِ، وَالرَّجُلُ يَجِيءُ بِالْعُودِ، حَتَّى جَمَعُوا سَوَادًا، فَأَجَّجُوا نَارًا، وَأَنْضَجُوا مَا قَذَفُوا فِيهَا(١٣).

ووالله لو لم يكن من عاقبة الصغائر إلا أن يُوقف العبد عليها يوم القيامة يُقرره بها لكفى، إذ كيف نجيب ربنا بعد كل هذه النعم، وجميل الإحسان.

يقول النبي ﷺ: «إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا، رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ، وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا، فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ، فَيُقَالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: نَعَمْ، لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ، فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً، فَيَقُولُ: رَبِّ، قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَا هُنَا «فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ»(١٤).

---

(٩) أخرجه البخاري (٦٣٠٨).

(١٠) أخرجه البخاري (٦٤٩٢).

(١١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٨٨١٠)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤٧١).

(١٢) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (٤٢٤٣)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٥١٣).

(١٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٣٨١٨)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٨٩).

(١٤) أخرجه مسلم (١٩٠).

عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا، وعملت يوم كذا وكذا كذا وكذا.

موقف عظيم يقطع قلوب المحبين، حتى وإن عفا الله.

يقول بلال بن سعد: «**إِنَّ اللهَ يغْفِرُ الذُّنُوبَ وَلَكِنْ لَا يمْحُوهَا مِنَ الصَّحِيفَةِ حَتَّى يُوقِفَهُ عَلَيْهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَإِنْ تَابَ**»[١٥].

اللهم اعف عنا بفضلك يا كريم.

(١٥) أخرجه أبو نعيم في «**حلية الأولياء**» (٥/ ٢٢٦).



قُومُوا فَأَطْفِئُوا عَنْكُمْ مَا أَوْقَدْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ



المعاصي قذر يدنس القلب، ونار تحرق الفؤلاد، وغم يحزن العبد، لكن الله أرحم بالعبد من نفسه، جعل لعبده ثلاثة أنهار يغسل فيها درنه فلا يبقى منه شيء، ويطفئ بها نيران ذنبه، ويزيل بها حزنه وغمه.

نهر الحسنات الماحية، ونهر المصائب المكفرة، ونهر التوبة النصوح.

أما الصغائر فإنه لما كان لا يسلم منها أحد، فإن الله تعالى يمحها إن اجتُنبت الكبائر إما بالحسنات الماحية، أو بالمصائب المكفرة. أما الكبائر فلابد لها من توبة نصوح.

قال النبي ﷺ: «**الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَالْجُمْعَةُ إِلَى الْجُمْعَةِ، وَرَمَضَانُ إِلَى رَمَضَانَ، مُكَفِّرَاتٌ مَا بَيْنَهُنَّ إِذَا اجْتَنَبَ الْكَبَائِرَ**»[١٦].

فتعال أحدثك عن النهر الأول الذي جعله الله طهورا لعباده.

هذا النهر عظيم جدا، ملآن بالماء الطهور، لا أظن عبدا صالحا يدخله فلا يتطهر.

فمن ذلك هذه الصلوات الخمس، لا يبقى من درن المعاصي شيء البتة إن حافظ عليها العبد.

ملحمة من محو السيئات.

قال النبي ﷺ: «**أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهَرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسًا، مَا تَقُولُ: ذَلِكَ يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ» قَالُوا: لَا يُبْقِي مِنْ دَرَنِهِ شَيْئًا، قَالَ: «فَذَلِكَ مِثْلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا**»[١٧].

ابتداء من الوضوء حتى يُسلّم العبد منها.

لذا قال النبي ﷺ: «**يُبْعَثُ مُنَادٍ عِنْدَ حَضْرَةِ كُلِّ صَلَاةٍ فَيَقُولُ: يَا بَنِي آدَمَ، قُومُوا فَأَطْفِئُوا عَنْكُمْ مَا أَوْقَدْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَيَقُومُونَ فَيَتَطَهَّرُونَ وَتَسْقُطُ خَطَايَاهُمْ مِنْ أَعْيُنِهِمْ، وَيُصَلُّونَ فَيُغْفَرُ لَهُمْ مَا بَيْنَهُمَا، ثُمَّ يُوقِدُونَ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ، فَإِذَا كَانَ عِنْدَ صَلَاةِ الْأُولَى نَادَى: يَا بَنِي آدَمَ، قُومُوا فَأَطْفِئُوا مَا أَوْقَدْتُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَيَقُومُونَ فَيَتَطَهَّرُونَ وَيُصَلُّونَ فَيُغْفَرُ لَهُمْ مَا بَيْنَهُمَا، فَإِذَا حَضَرَتِ الْعَصْرُ فَمِثْلُ ذَلِكَ، فَإِذَا حَضَرَتِ الْمَغْرِبُ فَمِثْلُ ذَلِكَ، فَإِذَا حَضَرَتِ الْعَتَمَةُ فَمِثْلُ ذَلِكَ، فَيَنَامُونَ وَقَدْ غُفِرَ لَهُمْ**»[١٨].

قوموا فأطفئوا ما أوقدتم على أنفسكم.

يبدأ النهر في جريانه عندما تسمع المؤذن فتقول: «أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ

قال النبي ﷺ: «**مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ الْمُؤَذِّنَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا**

---

(١٦) أخرجه مسلم (٢٣٣).

(١٧) أخرجه البخاري (٥٢٨)، ومسلم (٦٦٧).

(١٨) أخرجه الطبراني في «**المعجم الكبير**» (١٠/ ١٤١)، وحسنه الشيخ الألباني في «**السلسلة الصحيحة**» (٢٠٢٠).



عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ»(١٩).

ثم وضوءك كما توضأ النبي ﷺ، تخرج به خطاياك مع آخر قطر الماء.

قال النبي ﷺ: **«إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ - أَوِ الْمُؤْمِنُ - فَغَسَلَ وَجْهَهُ خَرَجَ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنَيْهِ مَعَ الْمَاءِ - أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ -، فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَ مِنْ يَدَيْهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ كَانَ بَطَشَتْهَا يَدَاهُ مَعَ الْمَاءِ أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ -، فَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَشَتْهَا رِجْلَاهُ مَعَ الْمَاءِ - أَوْ مَعَ آخِرِ قَطْرِ الْمَاءِ - حَتَّى يَخْرُجَ نَقِيًّا مِنَ الذُّنُوبِ»**(٢٠).

وقال النبي ﷺ: **«مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ خَرَجَتْ خَطَايَاهُ مِنْ جَسَدِهِ، حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِ أَظْفَارِهِ»**(٢١).

ثم ذهابك إلى المسجد لأداء الجماعة، لا تخرج إلا إليها، تكون خطواتك إحداها يرفعك الله بها درجة، والأخرى يحط عنك بها خطيئة.

قال النبي ﷺ: **«صَلَاةُ الْجَمِيعِ تَزِيدُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ، وَصَلَاتِهِ فِي سُوقِهِ، خَمْسًا وَعِشْرِينَ دَرَجَةً، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ، وَأَتَى الْمَسْجِدَ، لَا يُرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ، لَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْهُ خَطِيئَةً، حَتَّى يَدْخُلَ الْمَسْجِدَ، وَإِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ، كَانَ فِي صَلَاةٍ مَا كَانَتْ تَحْبِسُهُ، وَتُصَلِّي - يَعْنِي عَلَيْهِ الْمَلَائِكَةُ - مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ الَّذِي يُصَلِّي فِيهِ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ»**(٢٢).

وقال النبي ﷺ: **«مَنْ تَطَهَّرَ فِي بَيْتِهِ، ثُمَّ مَشَى إِلَى بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ لِيَقْضِيَ فَرِيضَةً مِنْ فَرَائِضِ اللهِ، كَانَتْ خَطْوَتَاهُ إِحْدَاهُمَا تَحُطُّ خَطِيئَةً، وَالْأُخْرَى تَرْفَعُ دَرَجَةً»**(٢٣).

فإن دخلت الصلاة مع الجماعة، فقرأ الإمام الفاتحة فأمنت، فوافق تأمينك تأمين الملائكة غفر لك ما تقدم من ذنبك.

وإن قال الإمام سمع الله لمن حمده، فقلت ربنا ولك الحمد، غفر الله لك ما تقدم من ذنبك.

قال النبي ﷺ: **«إِذَا أَمَّنَ الْإِمَامُ، فَأَمِّنُوا، فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ تَأْمِينُهُ تَأْمِينَ الْمَلَائِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»**(٢٤).

وقال النبي ﷺ: **«إِذَا قَالَ الْإِمَامُ سَمِعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ، فَقُولُوا: اللهُمَّ رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ، فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ قَوْلُهُ قَوْلَ الْمَلَائِكَةِ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»**(٢٥).

ثم تركع وتسجد، فتتساقط عنك ذنوبك، كما تتساقط الأوراق عن الشجر.

قال النبي ﷺ: **«إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا قَامَ يُصَلِّي أُتِيَ بِذُنُوبِهِ فَوُضِعَتْ عَلَى رَأْسِهِ أَوْ عَاتِقِهِ فَكُلَّمَا رَكَعَ أَوْ سَجَدَ تساقطت عنه»**(٢٦).

---

(١٩) أخرجه مسلم (٣٨٦).

(٢٠) أخرجه مسلم (٢٤٤).

(٢١) أخرجه مسلم (٢٤٥).

(٢٢) أخرج البخاري (٤٧٧).

(٢٣) أخرجه مسلم (٦٦٦).

(٢٤) أخرجه البخاري (٧٨٠)، مسلم (٤١٠).

(٢٥) أخرجه البخاري (٤٠٩).

(٢٦) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (١٧٣٤)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (١٦٧١).



وفوق ذلك كل سجدة يرفعك الله بها درجة، ويحط عنك بها خطيئة.

قال النبي ﷺ: «**عَلَيْكَ بِكَثْرَةِ السُّجُودِ للهِ، فَإِنَّكَ لَا تَسْجُدُ للهِ سَجْدَةً، إِلَّا رَفَعَكَ اللهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحَطَّ عَنْكَ بِهَا خَطِيئَةً**»(٢٧).

وإن لم تصل مع الجماعة لأنك أنثى لا تجب عليك الجماعة، أو لأنك من أصحاب الأعذار، فلا تحزن، فما من صلاة مفروضة تحسن وضوءها وركوها وخشوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الصغائر، وذلك طيلة عمرك.

قال النبي ﷺ: «**مَا مِنَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلَاةٌ مَكْتُوبَةٌ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا، إِلَّا كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ مَا لَمْ يُؤْتِ كَبِيرَةً وَذَلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ**»(٢٨). فإن لم تكن صلاة مفروضة، فصلاة ركعتين بخشوع وحضور قلب يمح الله بهما ذنوبك.

قال النبي ﷺ: «**مَا مِنْكُمْ رَجُلٌ يُقَرِّبُ وَضُوءَهُ فَيَتَمَضْمَضُ، وَيَسْتَنْشِقُ فَيَنْتَثِرُ إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ، وَفِيهِ وَخَيَاشِيمِهِ، ثُمَّ إِذَا غَسَلَ وَجْهَهُ كَمَا أَمَرَهُ اللهُ، إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا وَجْهِهِ مِنْ أَطْرَافِ لِحْيَتِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَغْسِلُ يَدَيْهِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ، إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا يَدَيْهِ مِنْ أَنَامِلِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَمْسَحُ رَأْسَهُ، إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رَأْسِهِ مِنْ أَطْرَافِ شَعْرِهِ مَعَ الْمَاءِ، ثُمَّ يَغْسِلُ قَدَمَيْهِ إِلَى الْكَعْبَيْنِ، إِلَّا خَرَّتْ خَطَايَا رِجْلَيْهِ مِنْ أَنَامِلِهِ مَعَ الْمَاءِ، فَإِنْ هُوَ قَامَ فَصَلَّى، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَمَجَّدَهُ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، وَفَرَّغَ قَلْبَهُ للهِ، إِلَّا انْصَرَفَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ**»(٢٩).

فإذا انتهيت من الصلوات الخمس، فسبحت الله عشرا، وحمدت الله عشرا، وكبرت الله عشرا، وذلك دبر كل صلاة، كفّر الله عنك ألفا وخمس مائة سيئة، فإن سبحت الله عند نومك ثلاثا وثلاثين، وحمدت الله ثلاثا وثلاثين، وكبرت الله أربعا وثلاثين، كفّر الله عنك ألف سيئة، فيكون عدد السيئات التي مُحيت عنك بذلك ألفين وخمس مائة سيئة.

قال النبي ﷺ: «**الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، يُسَبِّحُ أَحَدُكُمْ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ عَشْرًا، وَيَحْمَدُ عَشْرًا، وَيُكَبِّرُ عَشْرًا، فَهِيَ خَمْسُونَ وَمِائَةٌ فِي اللِّسَانِ، وَأَلْفٌ وَخَمْسُ مِائَةٍ فِي الْمِيزَانِ**»، **وَأَنَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَعْقِدُهُنَّ بِيَدِهِ، «وَإِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ أَوْ مَضْجَعِهِ سَبَّحَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَحَمِدَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَكَبَّرَ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ، فَهِيَ مِائَةٌ عَلَى اللِّسَانِ، وَأَلْفٌ فِي الْمِيزَانِ»، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، «فَأَيُّكُمْ يَعْمَلُ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ أَلْفَيْنِ وَخَمْسَ مِائَةِ سَيِّئَةٍ؟» قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَكَيْفَ لَا نُحْصِيهَا؟ فَقَالَ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَأْتِي أَحَدَكُمْ وَهُوَ فِي صَلَاتِهِ، فَيَقُولُ: اذْكُرْ كَذَا، اذْكُرْ كَذَا، وَيَأْتِيهِ عِنْدَ مَنَامِهِ فَيُنِيمُهُ**»(٣٠).

وإن سبحت دبر الصلوات ثلاثا وثلاثين، وحمدت الله ثلاثا وثلاثين، وكبرت ربك ثلاثا وثلاثين، ثم قلت تمام المائة: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. غفر الله خطاياك وإن كانت مثل زبد البحر.

قال النبي ﷺ: «**مَنْ سَبَّحَ اللهَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَحَمِدَ اللهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَكَبَّرَ اللهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، فَتْلِكَ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ، وَقَالَ: تَمَامَ الْمِائَةِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ**

(٢٧) أخرجه مسلم (٤٨٨).

(٢٨) أخرجه مسلم (٢٢٨).

(٢٩) أخرجه مسلم (٨٣٢).

(٣٠) أخرجه النسائي في «سننه» (١٣٤٨)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٧١٤).

وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ غُفِرَتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ»[٣١].

ثم كل يوم فرصة لتمحى عنك ألف سيئة، فقط مائة تسبيحة.

قال النبي ﷺ يوما لجُلَسائِهِ: أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَكْسِبَ أَلْفَ حَسَنَةٍ؟ فَسَأَلَهُ سَائِلٌ مِنْ جُلَسَائِهِ: كَيْفَ يَكْسِبُ أَحَدُنَا أَلْفَ حَسَنَةٍ؟ قَالَ: يُسَبِّحُ أَحَدُكُمْ مِائَةَ تَسْبِيحَةٍ تُكْتَبُ لَهُ أَلْفُ حَسَنَةٍ، وَتُحَطُّ عَنْهُ أَلْفُ سَيِّئَةٍ»[٣٢].

بل يغفر الكريم كل ذنوبك الصغائر بقول: سبحان الله وبحمده مائة مرة.

قال النبي ﷺ: «**مَنْ قَالَ: سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، فِي يَوْمٍ مِائَةَ مَرَّةٍ، حُطَّتْ خَطَايَاهُ، وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ**»[٣٣].

ثم تأتي صلاة الجمعة كل أسبوع، لتغسل ذنوبك وما جنيت خلال الأسبوع كله.

تغتسل، وتتطهر، وتتطيب، ثم تأتي صلاة الجمعة، لا تفرق بين اثنين، وتنصت للإمام، يغفر الله لك ما بين الجمعتين، بل وزيادة ثلاثة أيام.

قال النبي ﷺ: «**لاَ يَغْتَسِلُ رَجُلٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَيَتَطَهَّرُ مَا اسْتَطَاعَ مِنْ طُهْرٍ، وَيَدَّهِنُ مِنْ دُهْنِهِ، أَوْ يَمَسُّ مِنْ طِيبِ بَيْتِهِ، ثُمَّ يَخْرُجُ فَلاَ يُفَرِّقُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، ثُمَّ يُصَلِّي مَا كُتِبَ لَهُ، ثُمَّ يُنْصِتُ إِذَا تَكَلَّمَ الإِمَامُ، إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الأُخْرَى**»[٣٤].

قال النبي ﷺ: «**مَنِ اغْتَسَلَ؟ ثُمَّ أَتَى الْجُمُعَةَ، فَصَلَّى مَا قُدِّرَ لَهُ، ثُمَّ أَنْصَتَ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْ خُطْبَتِهِ، ثُمَّ يُصَلِّي مَعَهُ، غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ الْأُخْرَى، وَفَضْلُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ**»[٣٥].

ثم يأتي شهر رمضان، فنهر آخر عظيم من غفران الذنوب، من صامه إيمانا واحتسابا، غُفر له ما تقدم من ذنبه.

ومن قام لياليه إيمانا واحتسابا غُفر له ما تقدم ن ذنبه.

ومن قام ليلة القدر إيمانا واحتسابا غُفر له ما تقدم من ذنبه.

يقول النبي ﷺ: «**مَنْ صَامَ رَمَضَانَ، إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»[٣٦].

ويقول النبي ﷺ: «**مَنْ قَامَ رَمَضَانَ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»[٣٧].

ويقول النبي ﷺ: «**مَنْ قَامَ لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»[٣٨].

ثم يأتي الحج، فمن حجّ ولم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه.

---

(٣١) أخرجه مسلم (٥٩٧).

(٣٢) أخرجه الترمذي في «سننه» (٣٤٦٣)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٧٥٦).

(٣٣) أخرجه البخاري (٦٤٠٥)، ومسلم (٢٦٩١).

(٣٤) أخرجه البخاري (٨٨٣).

(٣٥) أخرجه مسلم (٨٥٧).

(٣٦) أخرجه البخاري (٣٨)، ومسلم (٧٦٠).

(٣٧) أخرجه البخاري (٣٧)، ومسلم (٧٥٩).

(٣٨) أخرجه البخاري (١٩٠١).

قال النبي ﷺ: «مَنْ حَجَّ للهِ فَلَمْ يَرْفُثْ، وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[٣٩].

ثم يأتي صيام يوم عرفه، وصيام عاشوراء، يكفر صيامهم ذنوب سنوات وليس أياما.

قال النبي ﷺ: «صِيَامُ يَوْمِ عَرَفَةَ، أَحْتَسِبُ عَلَى اللهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ، وَالسَّنَةَ الَّتِي بَعْدَهُ، وَصِيَامُ يَوْمِ عَاشُورَاءَ، أَحْتَسِبُ عَلَى اللهِ أَنْ يُكَفِّرَ السَّنَةَ الَّتِي قَبْلَهُ»[٤٠].

وتجلس مع إخوانك مجلسا تذكروا فيه ربكم، تتلون آياته، يذكر بعضكم بعضا بالله، إلا قمتم وقد بدلت سيئاتكم حسنات.

قال النبي ﷺ: «مَا مِنْ قَوْمٍ اجْتَمَعُوا يَذْكُرُونَ اللهَ، لَا يُرِيدُونَ بِذَلِكَ إِلَّا وَجْهَهُ، إِلَّا نَادَاهُمْ مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ قُومُوا مَغْفُورًا لَكُمْ، قَدْ بُدِّلَتْ سَيِّئَاتُكُمْ حَسَنَاتٍ»[٤١].

بل يغفر الله بأشياء يسيرة، ما تخطر لك على بال.. فمثلا: إن لقيت أخاك المسلم فصافحته.

قال النبي ﷺ: «ما مِن مُسلِمَينِ يلتقيانِ، فيتصافحان، إلا غُفِر لهُما قبلَ أن يَفْتَرِقا»[٤٢].

وتَطْعَمُ من رزقه، ثم تثني عليه يغفر لك ذنوبك.

قال النبي ﷺ: «مَنْ أَكَلَ طَعَامًا فَقَالَ: الْحَمْدُ للهِ الَّذِي أَطْعَمَنِي هَذَا، وَرَزَقَنِيهِ مِنْ غَيْرِ حَوْلٍ مِنِّي، وَلَا قُوَّةٍ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»[٤٣].

وهذا الذي كان في الصحراء حيث لا أحد، فأذن وصلى، يغفر الله له بذلك.

قال النبي ﷺ: «يَعْجَبُ رَبُّكَ مِنْ رَاعِي غَنَمٍ فِي رَأْسِ شَظِيَّةِ الْجَبَلِ يُؤَذِّنُ بِالصَّلَاةِ وَيُصَلِّي، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي هَذَا يُؤَذِّنُ وَيُقِيمُ الصَّلَاةَ يَخَافُ مِنِّي، قَدْ غَفَرْتُ لِعَبْدِي وَأَدْخَلْتُهُ الْجَنَّةَ»[٤٤].

بل حتى ذاك الشيب الذي يكون برأسك ولحيتك، لا تشيب منك شعرة إلا غفر لك بها سيئة.

قال النبي ﷺ: «لَا تَنْتِفُوا الشَّيْبَ، فَإِنَّهُ نُورُ الْمُسْلِمِ، مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَشِيبُ شَيْبَةً فِي الْإِسْلَامِ إِلَّا كُتِبَ لَهُ بِهَا حَسَنَةٌ، وَرُفِعَ بِهَا دَرَجَةً، أَوْ حُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ»[٤٥].

أسباب الغفران لا تُعد ولا تحصى، لمن اجتنب الكبائر، وأحسن الفرائض، فالله كريم، يمح سيئات العبد بما وفقه إليه من طاعات.

قال الله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾. سورة هود (١١٤)

وقال النبي ﷺ: «اتَّقِ اللهِ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»[٤٦].

---

(٣٩) أخرجه البخاري (١٥٢١)، ومسلم (١٣٥٠).

(٤٠) أخرجه مسلم (١١٦٢).

(٤١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٢٤٥٣)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٢١٠).

(٤٢) أخرجه أبو داود في «سننه» (٥٢١٢)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٥٢٥).

(٤٣) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (٣٢٨٥)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٢٦٥٦).

(٤٤) أخرجه النسائي في «سننه» (٦٦٦)، وصححه الشيخ الألباني في «إرواء الغليل» (٢١٤).

(٤٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦٦٧٢)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٥٧٦٠).

(٤٦) أخرجه الترمذي في «سننه» (١٩٨٧)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣١٦٠).

حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ



ذاك النهر الثاني الذي جعله الله رحمة لعباده، فقد تكثر المعاصي، ولا يكفي لمحوها تلك الحسنات الماحية، فيقدّر الله البلاء على عبده، ويمح بكل ذرة ألم، وكل لحظة وجع، حتى الشوكة يتأذى منها العبد، حتى الهم والحزن، يمح الله به الخطايا، فلا يزال البلاء بالعبد، حتى يلقى الله وليس عليه خطيئة.

يقول النبي ﷺ: **«مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ، مِنْ نَصَبٍ وَلاَ وَصَبٍ، وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حُزْنٍ وَلاَ أَذًى وَلاَ غَمٍّ، حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا، إِلَّا كَفَّرَ اللهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ»**(٤٧).

هل أصابك الصداع يوما، هل تألمت منه؟

ستحمد ربك يوم القيامة عندما ترى سيئاتك أذهبها الله بهذا البلاء.

قال النبي ﷺ: **«صُدَاعُ الْمُؤْمِنِ، أَوْ شَوْكَةٌ يُشَاكُهَا، أَوْ شَيْءٌ يُؤْذِيهِ يَرْفَعُهُ اللهُ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ دَرَجَةً، وَيُكَفِّرُ بِهَا عَنْهُ ذُنُوبَهُ»**(٤٨).

هل تعثرت قدمك يوما؟ لعلك نسيت تلك العثرات، وربك ليس ينسى حتى عثراتك، سيغفر لك بها سيئاتك.

يقول النبي ﷺ: **«فِي كُلِّ مَا يُصَابُ بِهِ الْمُسْلِمُ كَفَّارَةٌ، حَتَّى النَّكْبَةِ يُنْكَبُهَا، أَوِ الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا»**(٤٩).

أرأيت تلك الشجرة التي يتساقط عنها ورقها اليابس ورقة ورقة، هكذا أنت، كل ألم، وكل لحظة مرض، تسقط عنك خطاياك، كما هي تلك الشجرة.

يقول النبي ﷺ: **«مَا مِنْ مُسْلِمٍ يُصِيبُهُ أَذًى إِلَّا حَاتَّ اللهُ عَنْهُ خَطَايَاهُ، كَمَا تَحَاتُّ وَرَقُ الشَّجَرِ»**(٥٠).

وقد يطول البلاء، ويعظم المصاب، ويشتد الألم، فلا تظن أن ذلك لهوانك على ربك، لا والله، بل هكذا يفعل الله بعباده الصالحين، حتى يخرجوا من الدنيا كما ولدتهم أمهاتهم، ليس عليهم خطيئة.

يقول النبي ﷺ: «: **«إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: إِنِّي إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدًا مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنًا، فَحَمِدَنِي عَلَى مَا ابْتَلَيْتُهُ، فَإِنَّهُ يَقُومُ مِنْ مَضْجَعِهِ ذَلِكَ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ مِنَ الْخَطَايَا»**(٥١).

---

(٤٧) أخرجه البخاري (٥٦٤١)، مسلم (٢٥٧٢)..

(٤٨) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٩٤٠٩)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٤٣٤).

(٤٩) أخرجه مسلم (٢٥٧٤).

(٥٠) أخرجه البخاري (٥٦٤٦).

(٥١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٧١١٨)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٤/ ١٤٤).



ويقول النبي ﷺ: «**مَا يَزَالُ البَلاَءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ**»(٥٢).

ويقول النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لَيَبْتَلِي عَبْدَهُ بِالسَّقَمِ حَتَّى يُكَفِّرَ ذَلِكَ عَنْهُ كُلَّ ذَنْبٍ**»(٥٣).

(٥٢) أخرجه الترمذي في «سننه» (٢٣٩٩)، و صححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٢٨٠).

(٥٣) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١٢٨٦)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٣٩٣).



وماذا لو عصيته؟

وماذا لو فررت عنه؟

وماذا لو غرتك نفسك؟

وماذا لو فتنك الشيطان؟

ماذا يفعل بك؟

ستجد ربك حليما لا يعاجل بالعقوبة

ستيرا لا يحب الفضيحة

يدعوك ليل نهار لتتوب إليه

فإن أبيت إلا الإصرار عاقبك رحمة منه بك لتعود إليه

فإن عدت كان العجب

حليم لا يعاجل



لما حضرت الوفاةُ عمرو بن العاص ﵁، أخذ يَبْكِي طَوِيلًا، وَحَوَّلَ وَجْهَهُ إِلَى الْجِدَارِ، فَجَعَلَ ابْنُهُ يَقُولُ: يَا أَبَتَاهُ، أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِكَذَا؟ أَمَا بَشَّرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِكَذَا؟ قَالَ: فَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: إِنَّ أَفْضَلَ مَا نُعِدُّ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، إِنِّي قَدْ كُنْتُ عَلَى أَطْبَاقٍ ثَلَاثٍ، لَقَدْ رَأَيْتُنِي وَمَا أَحَدٌ أَشَدَّ بُغْضًا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنِّي، وَلَا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَكُونَ قَدِ اسْتَمْكَنْتُ مِنْهُ، فَقَتَلْتُهُ، فَلَوْ مُتُّ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ لَكُنْتُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ[1].

نحن خلْقُ الله، هو ربنا، سبقت رحمته غضبه، لا يريد لنا الهلاك ولا العذاب، العفو أحب إليه من العقوبة.

لذا إن عصى العبد ربه، وشرد عن مولاه، فهو حليم لا يعاجل بالعقوبة.

عمرو بن العاص ﵁ أسلم متأخرا في العام الثامن قبل فتح مكة.

لم يكن عمرو شخصا عاديا، إنما كان في غاية الدهاء والذكاء، وطالما استخدمته قريش في حربها ضد الإسلام والمسلمين.

أوفدته قريش إلى النجاشي بالحبشة ليرجع بالمسلمين المهاجرين إلى مكة ليفتنهم المشركون عن دينهم، واستخدم في ذلك كل حيلة.

خرج يقاتل المسلمين في بدر وأحد، وكان مقاتلا شرسا، عشرون سنة وعمرو وثني مشرك، يصد عن سبيل الله بكل قوة

بل لم يكن أحد أبغض إلى قلب عمرو من رسول الله ﷺ، وكانت أعظم أمانيه أن يقتل النبي ﷺ.

والله يرى ذلك كله، ومع ذلك يمهله، يحلم عليه، لا يعاجله بالعقوبة.

تخيل: لو مات عمرو وهو على هذا الحال، لكان من أهل النار.

ليس عمر بن العاص فقط، بل غالب الصحابة لم يكونوا على الإسلام، بل قاتلوا رسول الله وحاربوه، وأمهلهم الله ولم يعاجلهم بعقوبته.

أسلم عمر بن الخطاب بعد خمس سنوات من الكفر والصد عن سبيل الله، حتى كان يقال: لو أسلم حمار الخطاب لأسلم عمر، فأمهله الله فأسلم عمر، وكان الفاروق الإمام العادل.

(١) أخرجه مسلم (١٢١).



وأسلم خالد بن الوليد بعدما حارب المسلمين، وأثخن فيهم في أحد، حتى قُتل من الصحابة سبعون، ويحلم الله عليه، ثم يسلم خالد بعد ذلك، ويكون سيفا من سيوف الله.

بل أبو سفيان وسهيل بن عمرو، وغيرهم من كبار سادة قريش، الذين طالما خططوا لإطفاء نور النور، تمر الأيام، ويأتي اليوم فيسلموا ويجاهدوا في سبيل الله، فيفقد أبو سفيان عينه في سبيل الله، ويموت سهيل بن عمرو مقبلا غير مدبر.



اللهمَّ لكَ الحمدُ عَلَى حِلْمِكَ بَعْدَ عِلْمِكَ



كان الحسن البصري ﵀ كثيرا ما يردد تلك الكلمة: «**اللهمَّ لكَ الحمدُ عَلَى حِلْمِكَ بَعْدَ عِلْمِكَ**»[2].

لله تعالى كمال العلم، فلا يخفى عليه شيء، يعلم ما في الصدور، وهو عالم الغيب والشهادة، ومع كمال علمه فهو عظيم الحلم.

قال الله: ﴿وَاللهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾. سورة النساء (١٢)

كلما قرأت قوله تعالى عن نوح عليه السلام: «**وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا**». العنكبوت (١٤)، أتعجب من حلم الله، ٩٥٠ سنة يكفرون بالله، ويسخرون من الذين آمنوا، بل والله يعلم أنه لن يؤمن إلا القليل، ومع ذلك يمهلهم ويحلم عليهم، ويؤخر عنهم عقوبته كل هذه المدة.

هذا فرعون أظلم طواغيت الأرض، يكفر بالله، بل وينصب نفسه إلها، بل ويزعم أنه الرب الأعلى، ويستعبد بني إسرائيل، يذبح أبناءهم، ويستحيي نساءهم.

ومع أن الله يعلم أنه ذا نفس خبيثة، قد امتلأت نفسه كبرا وعلوا، وأنه سيظل على كفره حتى يموت، ومع هذا يقول الله لنبيه موسى وأخيه هارون عليهما السلام: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤)﴾ سورة طه

والله تعالى من جميل حلمه، أنه حليم مع كمال الغنى.

فإن أحدنا قد يحلم على من أساء إليه فيؤخر عقوبته لاحتياجه إليه، لكن الله تعالى مع كما استغناءه عن الخلق هو عظيم الحليم.

قال الله: ﴿وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾. سورة البقرة (٢٦٣)

إنه حليم لأجلك أنت، يعطيك ليس فرصة واحدة، بل آلاف الفرص حتى تعود إليه.

والله تعالى حليم مع كمال القدرة، فلا يحلم لأنه عاجز عن العقوبة، لا والله، فإن الله لا يعجزه أحد، وهو لا يخاف الفوت

قال الله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾. سورة الأنفال (٥٩)

وحلم الله عظيم مثله، لا يحيط بعظمة حلمه أحد.

لذا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَدْعُو عِنْدَ الكَرْبِ يَقُولُ: «**لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ، لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ، وَرَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ**»[3].

---

(٢) أخرجه أحمد في «**الزهد**» (ص٢٦٢)..

(٣) أخرجه البخاري (٦٣٤٥)، ومسلم (٢٧٣٠).



وَلاَ أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ العُذْرُ مِنَ اللَّهِ



فكيف لا يُحب.

يقول النبي ﷺ: «**وَلاَ أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ العُذْرُ مِنَ اللَّهِ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ المُبَشِّرِينَ وَالمُنْذِرِينَ**»(٤).

كنت أتعجب كثيرا من إمهال الله لطاغية أو ظالم، ملأ الأرض فسادا، وأقول في نفسي: إلى متى يترك الله هذا المجرم يسفك الدماء، وينتهك الأعراض، ويصد عن سبيل الله؟

كنت أقول: لماذا كل هذا الإمهال والحلم العظيم من رب العالمين؟

فإذ بي أجد أجوبة لا جوابا، وحِكَمًا لا حكمة واحدة.

فمن ذلك أنه رب لجميع خلقه، وهؤلاء منهم، نحن نعجل لأننا مثلهم، نعاملهم بمقتضى الجبلة، كما قال الله: ﴿**وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا**﴾ سورة الإسراء (١١)

أما الله فلا يعجل لعجلة أحدنا، فأفعاله بمقتضى رحمته وعدله لا بأهوائنا، يعامل الله خلقه بكونه ربهم ليس لهم غيره، فيمهلهم لا يهملهم.

حتى إذا أخذهم لا يكون لهم عنده عذرا، فلا أحد أحبُّ إليه العذر من الله.

قال النبي ﷺ: «**لَنْ يَهْلِكَ النَّاسُ حَتَّى يُعْذِرُوا مِنْ أَنْفُسِهِمْ**»(٥).

إن أقوال الناس وأفعالهم كفيلة بغضب سائر المخلوقات على هذا الإنسان، تكاد السموات تتشقق وتتساقط كسفا على ابن آدم، وتكاد الأرض تنشق تأخذهم في باطنها، وتكاد الجبال تخر عليهم هدا، ويكاد البحر يثور فيغرق من فيه من بني آدم

قال الله: ﴿**وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١)**﴾ سورة مريم

إلا أن الله لحلمه يمسك السموات والأرض عن إهلاك بني آدم.

قال الله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زالَتا إِنْ أَمْسَكَهُما مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كانَ حَلِيماً غَفُوراً**﴾. فاطر (٤١)

ولأنه حليم أمر ملائكته ألّا يعجلوا بكتابة السيئة التي فعلها العبد، بل أمرهم أن يتمهلوا لعله

(٤) أخرجه البخاري (٧٤١٦)، ومسلم (١٤٩٩).

(٥) أخرجه أبو داود في «**سننه**» (٤٣٧٤).

يستغفر، فإن استغفر لم تكتب عليه.

يقول النبي ﷺ: «إِنَّ صَاحِبَ الشِّمَالِ لِيَرْفَعُ الْقَلَمَ سِتَّ سَاعَاتٍ عَنِ الْعَبْدِ الْمُسْلِمِ الْمُخْطِئِ أَوْ الْمُسِيءِ فَإِنْ نَدِمَ وَاسْتَغْفَرَ اللهَ مِنْهَا أَلْقَاهَا، وَإِلَّا كُتِبَتْ وَاحِدَةً»[6].

ولأنه الغفور ذو الرحمة لا يعاجل بالعقوبة.

يقول الله: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا﴾. سورة الكهف (٥٨)

ولكن لا يغرنك حلمه، ولا طول إمهاله، فإنه يغضب، ويعاقب، ويأخذ بالذنب، بل وينتقم من أعدائه.

قال الله: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾. سورة فاطر (٤٥)

يقول النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ» قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ هود (١٠٢)[7].

---

(٦) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٨/ ١٨٥)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٢٠٩)..

(٧) أخرجه البخاري (٤٦٨٦).



ثُمَّ هُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ



لئن أنجيتنا. هكذا كانت دعواتهم، فاستجاب وهو يعلم أنهم لن يفوا له بوعدهم.

ركبوا الفلك، وفي عرض البحر هاجت الريح، وأحاط بهم الموج من كل مكان، وأيقنوا بالهلاك، فنسوا طواغيتهم وآلهتهم الباطلة.

فتوجهت قلوبهم إلى السماء قائلين: يا رب، لئن أنجيتنا لنكونن من الشاكرين.

العجيب: أنه استجاب، أنه عافاهم، أنه نجاهم، وهو يعلم أنهم يكذبون، سيعودون للكفر والضلال.

قال الله: ﴿هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّٰكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم مَّتَٰعَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٢٣)﴾ سورة يونس

سبحان من لم يمنع عنهم رزقه وعافيته.

قال النبي ﷺ: «**لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، إِنَّهُ يُشْرَكُ بِهِ، وَيُجْعَلُ لَهُ الْوَلَدُ، ثُمَّ هُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ**»[٨].

أمر يجل عن الوصف:

عبد يجحد وجود ربه وخالقه، بل ويدعو الناس إلى الإلحاد، وإنكار وجود الله سبحانه، ويبث الشبهات ليل نهار.

وعبد آخر أشرك بالله سبحانه، زعم كذبا وزورا أن الله اتخذ ولدا سبحانه، يسب الله في كل حين.

نعم: كل من زعم أن الله اتخذ ولدا فإنه يسب الله تعالى، إذ نسب إليه النقص، وهو ذو الكمال والجلال.

قال الله في الحديث القدسي: «**كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي، كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ، لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ، وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُئًا أَحَدٌ**»[٩].

وعبد آخر يصد عن سبيل الله من آمن، يؤذي عباد الله المؤمنين، يقتل هذا، ويسجن ذاك،

---

(٨) أخرجه البخاري (٦٠٩٩)، ومسلم (٢٨٠٤).
(٩) أخرجه البخاري (٤٩٧٤).

وينتهـك عـرض هـذه.

وآخر يأتي الموبقات، وينشر الفواحش، ويسخر من عباد الله المؤمنين.

وآخر، وآخر، وآخرون كُثر يعصون الله ليل ونهار.

كل هؤلاء يراهم على كفرهم، وشركهم، ويرزقهم ويعافيهم.

يراهـم يقتلـون أوليـاءه، ويظلمـون النـاس، ولا يعاجلهـم بالعقوبـة، بـل يحْلُـم عليهـم أعظـم الحلـم، ويصـبر عليهـم أجمـل الصـبر.

يسمعهم يتآمرون على دينه وشرعه، ويعلم مكرهم، ويسوق إليهم رزقه، ولا يقطع عنهم عافيته.

يمرضون فيشفيهم.

يضل أحدهم طريقه فيهديه.

يقع في كربة فيفرج عنه كربته.

يُظلم أحدهم فيدعو ربه فيستجيب له.

يغلقـون الأبـواب، وينتهكـون الحرمـات، ويبارزونـه بأقبـح المعـاصي، ويمـرر لهـم الهـواء يتنفسـوه بإذنـه.

كل هذا لأنه الرب الحليم، فكيف لا يُحب.



سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا



في موقف مهيب يوم القيامة، حيث يُنادى على العبد يوم القيامة، للعرض على رب العزة.

يتقدم العبد خطوة فخطوة، تلحظه أعين الناس.

يدنيه الله منه، ثم برحمته يضع على عبده كنفه وستره.

ثم يبدأ هذا الحوار الجميل الرائق.

رب العالمين: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟

العبد: نَعَمْ أَيْ رَبِّ.

حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ.

قال الله لعبده: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ[١٠].

كان النبي ﷺ يدعو ربه صباح كل يوم ومساءه يقول: «**اللهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَاتِي، وَآمِنْ رَوْعَاتِي**»[١١].

العورة كل ما يقبح ظهوره للخلق، وتُسمى سوءة، لأن كل ما يسوء الإنسان ظهوره للناس يُسمى عورة وسوءة.

الله هو الستير، عظيم الستر، يحب الستر.

لأجل ذلك امتنّ على خلقه فأنزل عليهم لباسا يواري عوراتهم، ألهمهم وركز في فطرهم ستر عوراتهم، ودعك من منتكسي الفطر، عافانا الله وإياكم.

قال الله الحليم الستير: ﴿**يَابَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ**﴾. سورة الأعراف (٢٦)

ولأنه ستير يحب الستر أمر عباده بستر عوراتهم، وأمر المرأة خاصة بزيادة من الستر صيانة لها من أذى الفساق.

قال الله: ﴿**يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ الله غَفُورًا رَحِيمًا**﴾. سورة الأحزاب (٥٩)

وما أعظم تلك المرأة التي كانت تُصرع، فإذا سقطت انكشفت، فأحزنها ذلك، فأتت رسول الله ﷺ، فقالت: إِنِّي أُصْرَعُ، وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللهَ لِي، قَالَ: «**إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ**

(١٠) أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

(١١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٤٧٨٥)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣١٢١).



دَعَوْتُ اللهَّ أَنْ يُعَافِيَكِ» فَقَالَتْ: أَصْبِرُ، فَقَالَتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللهَّ لِي أَنْ لاَ أَتَكَشَّفَ، فَدَعَا لَهَا»[١٢].

قارن اليوم بين حال هذه المرأة التي لم تطق أن يظهر منها شيء أمرها الله بستره، رغم مرضها، وأن هذا رغما عنها، وبين بعض نساء المسلمين اليوم ممن يهتكون ستر الله عليهم طواعية، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ذلكم الله الستير، أما الشيطان عدوك اللعين فإنه يحب العري، يحب الفضيحة، يشتهي كشف سوءتك.

قال الله: ﴿يَابَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. سورة الأعراف (٢٧)

وكل من أراد نزع ثوبك عن سوءتك فاعلم أنه شيطان، أو من أولياء الشيطان.

لذا يأتي اللعين يريد منك أن تهتكي ستر الله عليك، يوسوس لك بنزع ثيابك، وكشف عورتك.

وكل عورة تبدينها لغير من أحل الله فهو هتك لستر الله المرخي عليك.

قال النبي ﷺ: «مَا مِنْ امْرَأَةٍ تَضَعُ ثِيَابَهَا فِي غَيْرِ بَيْتِ زَوْجِهَا إِلاَّ هَتَكَتِ السِّتْرَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ رَبِّهَا»[١٣].

ومن محبته للستر أنه جعل ذكرك اسمه سترا لعورتك عن الجن، فما أن تذكر اسم الله قبل دخولك الخلاء حتى يحجب الله عورتك عنهم.

قال النبي ﷺ: «سِتْرُ مَا بَيْنَ أَعْيُنِ الْجِنِّ، وَعَوْرَاتِ بَنِي آدَمَ إِذَا وَضَعُوا ثِيَابَهُمْ أَنْ يَقُولُوا: بِسْمِ اللهِّ»[١٤].

ومن محبته للستر يكره أن يتحدث الرجل أو المرأة بما يكون بينهما من حلال طيب، يكره الله أن يكشف العبد ذلك، بعد أن ستره الله، فإنه وإن كان مباحا في أصله إلا أنه عورة يقبح كشفها، فإن كشفها العبد مقته الله على ذلك.

أَقْبَلَ عَلَى الرِّجَالِ فَقَالَ: «هَلْ مِنْكُمُ الرَّجُلُ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ فَأَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَهُ وَأَلْقَى عَلَيْهِ سِتْرَهُ وَاسْتَتَرَ بِسِتْرِ اللهِّ» قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «ثُمَّ يَجْلِسُ بَعْدَ ذَلِكَ فَيَقُولُ فَعَلْتُ كَذَا فَعَلْتُ كَذَا» قَالَ: فَسَكَتُوا، قَالَ فَأَقْبَلَ عَلَى النِّسَاءِ، فَقَالَ: «هَلْ مِنْكُنَّ مَنْ تُحَدِّثُ؟» فَسَكَتْنَ فَجَثَتْ فَتَاةٌ قَالَ مُؤَمَّلٌ، فِي حَدِيثِهِ فَتَاةٌ كَعَابٌ عَلَى إِحْدَى رُكْبَتَيْهَا وَتَطَاوَلَتْ لِرَسُولِ اللهِّ ﷺ لِيَرَاهَا وَيَسْمَعَ كَلَامَهَا فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِّ، إِنَّهُمْ لَيَتَحَدَّثُونَ، وَإِنَّهُنَّ لَيَتَحَدَّثْنَهُ، فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَا مَثَلُ ذَلِكَ؟» فَقَالَ: «إِنَّمَا مَثَلُ ذَلِكَ مَثَلُ شَيْطَانَةٍ، لَقِيَتْ شَيْطَانًا فِي السِّكَّةِ فَقَضَى مِنْهَا حَاجَتَهُ وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ»[١٥].

بل ومن عظيم محبته لستر عبده، أنه حتى بعد الموت يعطي جزاء الستر لمن غسّل ميتا فستره.

---

(١٢) أخرجه البخاري (٥٦٥٢)، ومسلم (٢٥٦٧).

(١٣) أخرجه الترمذي (٢٨٠٣)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٧٠).

(١٤) أخرجه الترمذي في «سننه» (٢٩٧)، وصححه بمجموع طرقه الشيخ الألباني في «إرواء الغليل» (٥٠).

(١٥) أخرجه أبو داود في «سننه» (٢١٧٤)، وصححه بطرقه الشيخ الألباني في «إرواء الغليل» (٢٠١١).



قال النبي ﷺ: «**مَنْ غَسَّلَ مَيِّتًا، فَسَتَرَهُ سَتَرَهُ اللهُ مِنَ الذُّنُوبِ**»[١٦].

وهو الستير يرى عبده على الذنب فيستره عن أعين الناس، يلقي عليه كنفه، فلا يرى الناس منه إلا كل جميل.

فإذا رأيت الناس يعجبون بك، فاعلم أن ذلك بجميل ستر الله عليك.

تخيل لو أننا كلما فعلنا ذنبا وضعت على جباهنا نقطة سوداء، فأصبحت تراني وأراك، كيف يكون حالنا.

تخيل لو أن للذنوب رائحة، كلما أذنب العبد ذنبا فاحت منه رائحة كريهة، أكان يمكننا الحياة، فالحمد لله على ستره.

وستير كثير الستر، عظيم الستر، لا يستر مرة ولا مرتين، بل مرات ومرات.

وستير يحب الستر، يحب أن يراك مستورا، لا يحب فضيحتك بين الناس.

قال النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ حَيِيٌّ سِتِّيرٌ يُحِبُّ الْحَيَاءَ وَالسِّتْرَ**»[١٧].

ومن محبته لسترك أن الأحب له أن تستر على نفسك، لا تخبر الناس بذلتك، حتى لو كان كبيرة لها حدّ كالزنى مثلا، يحب الله أن تستر على نفسك.

يقول النبي ﷺ: «**اجْتَنِبُوا هَذِهِ الْقَاذُورَةَ الَّتِي نَهَى اللهُ عَنْهَا فَمَنْ أَلَمَّ فَلْيَسْتَتِرْ بِسِتْرِ اللهِ وَلْيَتُبْ إِلَى اللهِ فَإِنَّهُ مَنْ يُبْدِ لَنَا صَفْحَتَهُ نُقِمْ عَلَيْهِ كِتَابَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ**»[١٨].

ومن حبه لسترك أن يستر من سترك، يستره في الدنيا والآخرة لأنه لم يفضحك بين خلقه حيث عصيته سبحانه، فقل لي بربك كيف لا تُحب بعد ذلك كله!

يقول النبي ﷺ: «**وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا، سَتَرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**»[١٩].

ومن محبته لسترك توعد أن يفضح من يفضحك، بل توعدّ من يتجسس عليك ليفضحك بين الناس.

يقول النبي ﷺ: «**مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ**»[٢٠].

ومن حبه للستر حرم الفواحش، وحرّم إشاعة الفواحش، وتوعّد ذاك العبد الذي بات يستره ربه ثم يصبح يهتك ستر الله عليه، يجاهر بذنبه عباد الله.

(١٦) أخرجه الطبراني في «**المعجم الكبير**» (٨/ ٢٨١)، وحسنه الشيخ الألباني في «**السلسلة الصحيحة**» (٢٣٥٣).

(١٧) أخرجه أبو داود في «سننه» (٤٠١٢)، وصححه الشيخ الألباني في «**إرواء الغليل**» (٢٣٣٥)..

(١٨) أخرجه الطحاوي في «**شرح مشكل الآثار**» (٩١) .

(١٩) أخرجه مسلم (٢٦٩٩).

(٢٠) أخرجه الترمذي في «سننه» (٢٠٣٢)، وصححه الشيخ الألباني في «**صحيح الترغيب والترهيب**» (٢٣٣٩).



قال النبي ﷺ: «**كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا، ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولَ: يَا فُلَانُ، عَمِلْتُ البَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عَنْهُ**»(٢١).

ومن حبه للستر أنه يستر عبده المؤمن يوم القيامة، يلقي عليه كنفه، فلا يفضحه بين خلقه..

في هذا اليوم الذي فيه تبلى السرائر، كم فيها ممن يُعرى بين الناس.

استيقظ النبي ﷺ ذات ليلة، فقال: «**سُبْحَانَ اللهِ مَاذَا أُنْزِلَ اللَّيْلَةَ مِنَ الفِتْنَةِ، مَاذَا أُنْزِلَ مِنَ الخَزَائِنِ، مَنْ يُوقِظُ صَوَاحِبَ الحُجُرَاتِ؟ يَا رُبَّ كَاسِيَةٍ فِي الدُّنْيَا عَارِيَةٍ فِي الآخِرَةِ**»(٢٢).

لكن من كرم ربنا وحبه لستر عباده، أن من ستره في الدنيا على ذنب، لم يفضحه يوم القيامة.

قال النبي ﷺ: «**لَا يَسْتُرُ اللهُ عَلَى عَبْدِهِ فِي الدُّنْيَا إِلَّا سَتَرَ عَلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ**»(٢٣).

يدنيه الله منه، ثم برحمته يضع على عبده كنفه وستره

ثم يكلمه الله: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟

العبد: نَعَمْ أَيْ رَبِّ

حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ

قال الله لعبده: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ(٢٤).

والناس ينظرون لكن لا يسمعون هذا الحوار، ولا يعلمون شيئا، بل يرون العبد يسجد بين يدي الله شكرا، ثم يسجد ويسجد، حتى يقول الناس: طوبى لهذا العبد الذي لم يعمل سوءا قط.

يقول أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: «**يُؤْتَى بِالْعَبْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَسْتُرُهُ اللهُ تَعَالَى بِيَدِهِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، فَيَرَى خَيْرًا فَيَقُولُ: قَدْ قَبِلْتُ، وَيَرَى شَرًّا وَيَقُولُ: قَدْ غَفَرْتُ، فَيَسْجُدُ الْعَبْدُ عِنْدَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، فَيَقُولُ الْخَلَائِقُ: طُوبَى لِهَذَا الْعَبْدِ الَّذِي لَمْ يَعْمَلْ سُوءًا قَطُّ**»(٢٥).

إن الله إن ستر عبدا فستره لا تخرقه الرماح، ولا تزيله الرياح

دَخَلَتْ أَعْرَابِيَّةٌ الطَّوَافَ فَقَالَتْ: يَا حَسَنَ الصُّحْبَةِ، أَقْبَلْتُ مِنْ بَعِيدٍ أَسْأَلُكَ سِتْرَكَ الَّذِي لَا تَخْرِقُهُ الرِّمَاحُ، وَلَا تُزِيلُهُ الرِّيَاحُ.

(٢١) أخرجه البخاري (٦٠٦٩).

(٢٢) أخرجه البخاري (١١٢٦).

(٢٣) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٤٥٦٧)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٣٨٧)..

(٢٤) أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).

(٢٥) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ٢٦١)، والبيهقي في «البعث والنشور» (٥٤)، وإسناده حسن،، وله حكم الرفع لأن هذا مما لا يقال بالرأي.



إِنَّ بَنِي آدَمَ يُعَيِّرُونَ وَلَا يُغَيِّرُونَ



لماذا يحب الله سترك مع أنك تعصيه، تبارزه بما يغضبه؟

لأنه ربك، يريد لك النجاة، يريد أن يطهرك، يريدك أن تتوب إليه، يريدك لأجلك، وهو يعلم أن بني آدم يعيرون ولا يغيرون، لا ينسون ماضيك، حتى لو صرت طاهرا نقيا ستجد أكثرهم يُعيرك، يذكرك بآثامك وأخطاءك.

وانظر إلى هذا الحديث الرائق الذي يملأ قلبك حبا لمولاك الستير جل جلاله

سُئِلَ النبي ﷺ: كَمْ لِلْمُؤْمِنِ مِنْ سِتْرٍ؟، قَالَ: «**هِيَ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى، وَلَكِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا عَمِلَ خَطِيئَةً هُتِكَ مِنْهَا سِتْرٌ، فَإِذَا تَابَ رَجَعَ إِلَيْهِ ذَلِكَ السِّتْرُ وَتِسْعَةٌ مَعَهُ، وَإِنْ هُوَ لَمْ يَتُبْ هُتِكَ عَنْهُ مِنْهَا سِتْرٌ وَاحِدٌ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَبْقَ عَلَيْهِ مِنْهَا شَيْءٌ قَالَ اللهُ لِمَنْ شَاءَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ: إِنَّ بَنِي آدَمَ يُعَيِّرُونَ وَلَا يُغَيِّرُونَ، فَحُفُّوهُ بِأَجْنِحَتِكُمْ، فَيَفْعَلُونَ ذَلِكَ، فَإِنْ فَعَلَ رَجَعَتْ إِلَيْهِ الْأَسْتَارُ كُلُّهَا، وَإِنْ لَمْ يَتُبْ عَجَّتْ مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ، فَيَقُولُ اللهُ لَهُمْ: أَسْلِمُوهُ، فَيُسْلِمُونَهُ حَتَّى لَا يُسْتَرَ مِنْهُ عَوْرَةٌ**»[٢٦].

أستار الله لا تُحصى، ليست مرة ولا مرتين، بل مرات ومرات، يستر عبده، لعله يتوب.

إنها كتلك الأستار التي تلقى على الشيء فتحجبه عن الآخرين، وكلما قارف العبد ذنبا هتك منها سترا.

فإن تاب العبد بعد ذنبه الذي ستره الله عليه، كان جزاء الحسنة بعشر أمثالها، فيعود إليه ذاك الستر وتسعة معه تتمة العشرة، كرما وفضلا منه سبحانه.

فإن لم يتب العبد، كان كلما أذنب كلما هتك سترا سترا.

حتى لا يصبح عليه منها ستر، وحينئذ يقول الله لبعض ملائكته: استروا عبدي بأجنحتكم.

لماذا كل هذا الستر؟

لأن بني آدم يعيرون ولا يغيرون، لا ينسون ماضيك، حتى لو تبت إليه يوما يظل ذنبك وصمة عار في جبينك، تجد منهم من يعيرك به، بل ويعيّر به أهلك وولدك، فلأجل ذلك ربك عظيم الحلم عظيم الستر.

كل هذا لعل العبد يتوب، فلا تنكشف عورته ولا تبدو للناس سوءته.

(٢٦) أخرجه الروياني في «**مسنده**» (٧٢٤)، وإسناده صحيح..

فـإن لم يتـب، وكان عبـدا آبقـا شـاردا عـن ربـه، تعـج منـه الملائكـة حينئـذ، مـا هـذا العبـد، أبعـد هـذا الكـرم والحلـم والسـتر لا تظـل شـاردا عـن مـولاك!!

وهنا يرفع الله كنفه عن عبده، ويقول للملائكة: أسلموه، دعوه.

فلا يفضح الله عبدا من أول مرة أبدا.

يقـول أنـس رضي الله عنه: أُتِيَ بِسَـارِقٍ إلى عمـر بـن الخطـاب رضي الله عنه، فَقَـالَ: وَاللهِ مَـا سَرَقْـتُ قَـطُّ قَبْلَهَـا، فَقَـالَ: «**كَذَبْـتَ مَـا كَانَ اللهُ لِيُسْـلِمَ عَبْـدًا عِنْـدَ أَوَّلِ ذَنْبِـهِ فَقَطَعَـهُ**»[٢٧].

وهنا تظهر السوءات والقبائح، ويفضح العبد بين الناس.

ولعـل فضيحتـه تلـك كانـت رحمـة مـن الله بـه، فبعـض النـاس يكسرهـم الإحسـان، وبعـض النـاس لا يـأتي بهـم إلا العقوبـة.

(٢٧) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (١٢٢٧٧)، وصححه ابن كثير في «مسند الفاروق» (٢/ ٥٠٩).



لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ



ملوك الأرض قد يوقعون العقوبة على بريء مظلوم.

وقد يوقعون العقوبة من باب التشهي، يطفئُ بتعذيبه شهوته، هكذا هناك إناس كالسباع يستمتعون بآلام الناس.

وقد يوقعون العقوبة بمن آلمهم، أو أغاظهم، أو أخافهم.

أما الله الملك الحكيم الرحيم، فلا يعاقب أحدا ظلما، ولا عبثا، ولا ليشفي غيظا، ولا يخشى أحدا، وتعالى عن أن يؤذيه أحد، إنما عقابه دائر بين الرحمة والحكمة.

قال الله: ﴿مَا يَفْعَلُ الله بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ الله شَاكِرًا عَلِيمًا﴾. سورة النساء (١٤٧)

الله غني عن عذاب الخلق، لا يفعل شيئا بعذابنا، لذا لم يكن المراد من أحكامه قط حدوث المشقة، بل هي بعض مشقة مُتحملة في وُسع العباد لإصلاح نفوسهم، وتطهير قلوبهم.

ولما رأى النبي ﷺ رجلا نذر لله أن يمشي ولا يركب، نهاه عن ذلك، وعلّل نهيه بأن الله غني عن تعذيب العباد.

يقول أنس رضي الله عنه: رَأَى النبي ﷺ شَيْخًا يُهَادَى بَيْنَ ابْنَيْهِ، قَالَ: «**مَا بَالُ هَذَا؟**»، **قَالُوا: نَذَرَ أَنْ يَمْشِيَ، قَالَ**: «**إِنَّ اللهَ عَنْ تَعْذِيبِ هَذَا نَفْسَهُ لَغَنِيٌّ**»، **وَأَمَرَهُ أَنْ يَرْكَبَ**»[٢٨].

ولأنه غني عن تعذيب الناس، توعّد الذين يعذبون الناس أن يعذبهم لتعذيبهم خلق الله.

في ذات يوم مَرَّ هِشَامُ بْنُ حَكِيمِ بْنِ حِزَامٍ رضي الله عنه عَلَى أُنَاسٍ مِنَ الْأَنْبَاطِ بِالشَّامِ، قَدْ أُقِيمُوا فِي الشَّمْسِ، فَقَالَ: مَا شَأْنُهُمْ؟ قَالُوا: حُبِسُوا فِي الْجِزْيَةِ، فَقَالَ هِشَامٌ: أَشْهَدُ لَسَمِعْتُ رَسُولَ الله ﷺ، يَقُولُ: «**إِنَّ اللهَ يُعَذِّبُ الَّذِينَ يُعَذِّبُونَ النَّاسَ فِي الدُّنْيَا**»[٢٩].

حتى لو كانوا نصارى لم يدفعوا الجزية لا يُعذبون على دفعها، ولو كان العذاب وقوفهم في الشمس، فإن الله يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا.

لكنه سبحانه يعاقب ويعذب، لكنه بحكمته ورحمته.

يعاقب عباده ببعض ذنوبهم، ليرجعوا إلى جنابه، فيكون عقابه لهم رحمة بهم، إذ لا صلاح لهم،

(٢٨) أخرجه البخاري (١٨٦٥)، ومسلم (١٦٤٢).
(٢٩) أخرجه مسلم (٢٦١٣).



ولا نعيم لأرواحهم إلا بحبه والأنس به والخضوع لأمره.

فيأخذهم بالبأساء والضراء لعلهم ينظروا في أمر أنفسهم فيعلموا أنهم في شقاء بسبب عصيانهم وطغيانهم.

قال الملك سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ﴾. سورة الأنعام (٤٢)

وقال الملك: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ الروم (٤١)

وقال الملك: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾. سورة السجدة (٢١)

ومن هذه العقوبات المعجلة في الدنيا الحدود التي فرضها زواجر في الأصل، وكفارات لمن أتى منها ما حرم الله.

ففرض القصاص حفاظا على النفوس، وفرض الرجم والجلد حفاظا على الأعراض، وفرض قطع الأيدي حفاظا على الأموال

ثم من أتى منهم ذنبا من ذلك فعوقب بحد من حدود الله فإنه يكفر عنه ذنبه بهذا العذاب الأدنى حتى يتوب إلى الله ويرجع.

في ليلة العقبة وقف النبي ﷺ يبايع أصحابه على الإسلام، فقال: «**تَعَالَوْا بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لاَ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلاَ تَسْرِقُوا، وَلاَ تَزْنُوا، وَلاَ تَقْتُلُوا أَوْلاَدَكُمْ، وَلاَ تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلاَ تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ بِهِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ لَهُ كَفَّارَةٌ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسَتَرَهُ اللهُ فَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ، إِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ، وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ**»(٣٠).

بل جعل المصائب التي يبتلي بها عباده عقوبات ومطهرات، فلا يصاب العبد إلا بما كسبت يده، ثم إن عاقبه بذنبه لا يُثنِّي عليه العقوبة مرتين، إن عاقبه في الدنيا على ذنب لم يعاقبه عليه في الآخرة.

يقول أبو تميمة الجهيمي رضي الله عنه: بَيْنَا أَنَا فِي حَائِطٍ مِنْ حِيطَانِ الْمَدِينَةِ إِذْ بَصُرْتُ بِامْرَأَةٍ، فَلَمْ يَكُنْ لِي هَمٌّ غَيْرُهَا حَتَّى جَازَتْنِي، ثُمَّ أَتْبَعْتُهَا بَصَرِي، حَتَّى حَازَيْتُ الْحَائِطَ، فَالْتَفَتُّ فَأَصَابَ وَجْهِي وَأَدْمَانِي، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ، فَقُلْتُ: هَلَكْتُ. فَقَالَ: «**وَمَا ذَاكَ يَا أَبَا تَمِيمَةَ؟**» فَأَخْبَرْتُهُ فَقَالَ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ إِذَا أَرَادَ بِعَبْدٍ خَيْرًا عَجَّلَ لَهُ عُقُوبَةَ ذَنْبِهِ فِي الدُّنْيَا، وَرَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُعَاقِبَ**

(٣٠) أخرجه البخاري (٢٦١٣)، ومسلم (١٧٠٩).





بِذَنْبٍ مَرَّتَيْنِ»(٣١).

أما النار فهي سوطه الذي به يسوق الناس إلى رحمته، يخوفهم عذابه إستصلاحا لهم، ثم إذا كان يوم القيامة لم يدخلها إلا الآبقون الشاردون عن الله، ثم مهما مكثوا فيها فإنه يُخرج منها من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان، ولا يبقى فيها إلا الكافرون المشركون الذي جحدوا ربهم، أو جعلوا له شريكا، وظلوا على كفرهم حتى ماتوا، وهو يعلم أنهم لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه.

ورغم ذلك لم يسو بينهم في العذاب يوم القيامة، فهم في دركات من الجحيم، فلا سواء بين كافر عاش حياته صاداً عن سبيل الله مجرما يعذب أولياء الله وآخر لم يفعل ذلك.

قال الله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾. سورة النحل (٨٨)

ويقول النبي ﷺ: «**إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا مَنْ لَهُ نَعْلَانِ وَشِرَاكَانِ مِنْ نَارٍ، يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاغُهُ كَمَا يَغْلِ الْمِرْجَلُ، مَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا أَشَدُّ مِنْهُ عَذَابًا وَإِنَّهُ لَأَهْوَنُهُمْ عَذَابًا**»(٣٢).

(٣١) أخرجه الطبراني في «**المعجم الأوسط**» (**٥٣١٥**)، **وحسنه ابن حجر في «فتح الباري»** (١/ ٦٧)..
(٣٢) أخرجه البخاري (٦٥٦١)، ومسلم (٢١٣).

وهو التواب، غافر الذنب، وقابل التوب



والله يريد أن يتوب عليك، فيلقي في قلبك الإنابة إليه، ويقبل توبتك إليه مهما عظم ذنبك، فكيف لا يُحب.

وَالله يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ



رجل سولت له نفسه أن يقتل نفسا بريئة بغير نفس، ونفسا بعد نفسا، ظل يقتل ويقتل، حتى قتل تسعة وتسعين نفسا كلهم قتلهم ظلما.

وفجأة عرضت له التوبة.

يشاء الله لهذا العبد أن يتوب إليه، فيلقي في قلبه ألم الذنب وحسرة الخطيئة، فيبحث عن أعلم أهل الأرض ليسأله: هل له من توبة، بعد أن قتل تسعة وتسعين نفسا معصومة؟

فدله الناس على راهب، ذهب إليه فسأله فقال: إِنِّي قَتَلْتُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ نَفْسًا فَهَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ؟

قَالَ الرجل المسئول: بَعْدَ قَتْلِ تِسْعَةٍ وَتِسْعِينَ نَفْسًا؟

كأنه استعظم أن يغفر الله لعبد بعد كل هذا، أغلق في وجهه باب الرحمة، فقتله، وأكمل به المائة.

لكن لا يزال القلب يتقطع، يريد أن يتوب، عرضت له التوبة مرة أخرى، فسأل مرة أخرى عن أعلم أهل الأرض؟

فدله الناس على عالم، فأتاه فقال له: إِنِّي قَتَلْتُ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ؟

قَالَ: لَئِنْ قُلْتُ لَكَ: إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لا يَتُوبُ عَلَى مَنْ تَابَ لَقَدْ كَذَبْتُ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟ اخْرُجْ مِنَ الْقَرْيَةِ الْخَبِيثَةِ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا إِلَى الْقَرْيَةِ الصَّالِحَةِ قَرْيَةِ كَذَا وَكَذَا، فَإِنَّ بِهَا نَاسًا يَعْبُدُونَ اللهَ، فَاعْبُدْ مَعَهُمْ، وَلَا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ، فَإِنَّهَا أَرْضُ سُوءٍ

خرج الرجل من قريته إلى تلك البلدة الصالح أهلها، وفي الطريق أدركه الموت، فنأى بصدره ناحية البلدة الصالح أهلها، ثم مات.

نزلت ملائكة الرحمة وملائكة العذاب يختصمون فيه.

تقول ملائكة الرحمة: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى الله عَزَّ وَجَلَّ.

وتقول ملائكة العذاب: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ.

فبعث الله ملكا في صورة آدمي، فاحتكموا له.

فقال: قِيسُوا مَا بَيْنَ الْأَرْضَيْنِ: أَيُّهُمَا كَانَ أَقْرَب، فَهِيَ لَهُ.

فَأَوْحَى الله إِلَى هَذِهِ أَنْ تَقَرَّبِي، وَأَوْحَى الله إِلَى هَذِهِ أَنْ تَبَاعَدِي

فَقَاسُوهُ فَوَجَدُوهُ أَدْنَى إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَتْهُ بِهَا مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ»[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦).



ما الذي جعل هذا الرجل يندم بعد تسعة وتسعين نفسا؟

ما الذي جعله يرجع إلى الله ويندم؟

الله هو التواب، يحب توبة عباده إليه، يريد أن يتوب عليهم.

يبسط يده بالليل والنهار ليتوب خلقه إليه، في أي لحظة عدت إليه قبلك.

قال النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ، حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا**»(٢).

ينزل كل ليلة، نزولا يليق بجلاله وكماله، يقول: «**هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ، هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ يُغْفَرُ لَهُ**»(٣).

لأنه ربك لا يريد لك العذاب والهلاك، يعلم أن شرودك عنه وفرارك عن بابه فيه المعيشة الضنك في الدنيا، والعذاب الأليم في الآخرة.

لذا لا يزال الله يلقي في قلوب عباده التوبة إليه.

هذا الرجل الذي قتل مائة نفس، قالت ملائكة الرحمة فيه: جَاءَ تَائِبًا مُقْبِلًا بِقَلْبِهِ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

لما صدق في إقباله وتوبته تغيرت معالم الأرض، غمرته الرحمة.

قال الله: ﴿وَالله يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾. سورة النساء (٢٧)

ولأنه يريد أن يتوب على عباده دعا جميع عباده إلى التوبة إليه، ولم يغلق الله بابه في وجه من أراد الرجوع والإنابة.

دعا الكفار الذين أشركوا به ما لم ينزل به سلطانا، بل وحاربوا أولياءه، دعاهم إليه بألطف خطاب وأجمله.

قال سبحانه: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ﴾. سورة الأنفال (٣٨)

دعا الذين يسبونه ليل نهار، ينسبون له الولد والشريك، تعالى عما يقولون علوا كبيرا، دعاهم إليه، فقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٣) أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَالله غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٤)﴾ سورة المائدة

دعا جميع العصاة الذين أسرفوا على أنفسهم أن يتوبوا إليه، وألا يقنطوا من رحمته.

قال الكريم: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (٥٤)﴾ سورة الزمر

---

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٥٩).

(٣) أخرجه مسلم (٧٨٥).





إِلَّا مَنْ تَابَ

ومن محبته أن تتوب إليه لم يذكر وعيدا على ذنب قط إلا واستثنى منه من تاب، كأنه يقول لك هذا وعيدي لمن فعل هذا الجرم، لكن لو تبت فكل شيء سيتبدل، لا تخف، لن تعاقب، بل ستجد ربا عظيم الكرم، جميل العفو، ستجد ربا غفورا رحيما.

هؤلاء الذين أشركوا بالله، وقتلوا النفوس المعصومة، وانتهكوا الأعراض، بعد كل هذه الجرائم يتوعدهم بالعذاب المضاعف في الجحيم، إلا من تاب إليه.

قال الله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ الله إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ الله غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١)﴾ سورة الفرقان

بل أولئك الذين حرّقوا أولياءه، إنهم لم يكفروا فحسب، بل صدوا عن سبيله، بل عذبوا أولياءه بالنار في الدنيا، توعدهم بعذاب الحريق، ثم يفتح أبواب رحمته لمن تاب منهم.

قال الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾. سورة البروج(١٠)

قال الحسن البصري: انظروا إلى هذا الكرم والجود، قتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة[٤].

حتى أولئك الذين حرفوا دينه، كتموا آيات الله حتى ضل الناس، لعنهم، طردهم من رحمته، لكن من تاب منهم وأصلح وبين الدين الحق يتوب عليه، يقبله، يغفر له.

قال الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ الله وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ (١٥٩) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠)﴾ سورة البقرة

أولئك المنافقون الذين أبطنوا الكفر، وكادوا للإسلام وأهلهم يتوعدهم بالعذاب في الدرك الأسفل من النار، لكنه لا يقطنهم بل يدعوهم إلى جنابه، أن من تاب منهم وأخلص فإنه مع المؤمنين، يُمحى عنه اسم النفاق

قال الله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا (١٤٥) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ الله الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (١٤٦)﴾ سورة النساء

حتى المرتد الذي ترك الإسلام فتح الله له باب التوبة.

هذا رجل من الأنصار كان ارتد عن الإسلام، وَلَحِقَ بِالشِّرْكِ، ثُمَّ تَنَدَّمَ فَأَرْسَلَ إِلَى قَوْمِهِ، سَلُوا

(٤) تفسير ابن كثير (٨/ ٢٧١).



لِي رَسُولَ اللهِ ﷺ هَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَجَاءَ قَوْمُهُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: إِنَّ فُلَانًا قَدْ نَدِمَ وَإِنَّهُ أَمَرَنَا أَنْ نَسْأَلَكَ: هَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَنَزَلَتْ: «﴿كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٨) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩)﴾، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَأَسْلَمَ»[٥].

أولئك الذين اتبعوا شهواتهم حتى تركوا صلواتهم، يتوعدهم بالغي والعذاب، ثم يفتح أبواب رحمته لمن تاب منهم.

قال الله: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا (٥٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا (٦٠)﴾ سورة مريم

هذا السارق الذي ضعف أمام شهوته فأخذ أموال الناس، بل أقيم عليه الحد فقطعت يده، يفتح له باب التوبة.

قال الله: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٣٨) فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٩)﴾ سورة المائدة

ذاك السكير الذي يشرب الخمر في الدنيا، توعده بأن يحرمه خمر الجنة، إلا أن يتوب.

قال النبي ﷺ: «**مَنْ شَرِبَ الخَمْرَ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا، حُرِمَهَا فِي الآخِرَةِ**»[٦].

ذاك الذي قذف المحصنات الغافلات المؤمنات، يتهدده بالعذاب، ويضع له حد الجلد، ويسمه باسم الفسق، ومع هذا يفتح له باب الإنابة.

قال الله: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٤) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥)﴾ سورة النور

تلك التي سخطت على قدر الله، فقامت تصرخ عند المصيبة، فاستحقت سخط الله كما سخطت على قضاءه، توعدها بسربال من نار إلا أن تتوب.

قال النبي ﷺ: «**النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا، تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ، وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ**»[٧]. أتدري لماذا فتح الله الباب لكل خلقه؟

لأنه ربك، هو خلقك، ما يفعل بعذابك، خلقك ليرحمك.

قال الله: ﴿مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾. سورة النساء (١٧٤)

لأن رحمته سبقت عضبه، هكذا كتب الله كتابا فوق عرشه

(٥) أخرجه النسائي في «سننه» (٤٠٦٨)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٠٦٦).
(٦) أخرجه البخاري (٥٥٧٥)، ومسلم (٢٠٠٣).
(٧) أخرجه مسلم (٩٣٤).



قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الخَلْقَ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي، فَهُوَ مَكْتُوبٌ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ»[٨].

فتح لك باب التوبة لأنه يعلم أنك ستذنب، ستقع في المعصية، لست معصوما، فهو يعاملك بمقتضى بشريتك.

وانظر إلى هذه الآية التي تفوح لطفا ورحمة ورأفة.

قال الله الكريم: ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. سورة الأنعام (٥٤)

حتى لو كنت مؤمنا ستذنب، ستقصر، ستأتي على القلب سحابة مثل سحابة القمر، تغطيه شيئا ولو قليلا ثم تزول، هكذا أنا وأنت.

يقول النبي ﷺ: «مَا مِنَ الْقُلُوبِ قَلْبٌ، إِلَّا وَلَهُ سَحَابَةٌ كَسَحَابَةِ الْقَمَرِ، بَيْنَا الْقَمَرُ مُضِيءٌ إِذْ عَلَتْ عَلَيْهِ سَحَابَةٌ، فَأَظْلَمَ إِذْ تَجَلَّتْ عَنْهُ فَأَضَاءَ»[٩].

نحن بنو آدم، نسي آدم وعصى، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى.

مع كل هذا الكرم والفضل الذي حباه الله آدم إلا أنه لما وسوس إليه الشيطان، ضعفت نفسه فأكل مما حرمه الله عليه، لكن في نفس اللحظة يلقي الله التوبة في قلب آدم، يشعر بالندم، يفر إلى ربه، ينادي ربه قائلا: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. الأعراف (٢٣)

إنها الكلمات التي ألقاها الله في روعه، كلمات الندم والاعتراف والتوبة لرب العالمين.

قال الله: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. سورة البقرة (٣٧)

ليس الإشكال في الذنب، وإنما الإشكال في الإصرار على الذنب، وعدم الرجوع والإنابة.

يقول النبي ﷺ: «كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»[١٠].

وليس شرط الإيمان العصمة، بل تكون مؤمنا ثم تعصي وتزل وتنسى، ثم يحملك إيمانك على الندم، على سرعة الإنابة، على إحسان التوبة.

يقول النبي ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَهُ ذَنْبٌ يَعْتَادُهُ: الْفَيْنَةَ بَعْدَ الْفَيْنَةِ، أَوْ ذَنْبٌ هُوَ مُقِيمٌ عَلَيْهِ لَا يُفَارِقُهُ حَتَّى يُفَارِقَ، إِنَّ الْمُؤْمِنَ خُلِقَ مُفْتَنًا تَوَّابًا نَسِيًّا إِذَا ذُكِّرَ ذَكَرَ»[١١].

هكذا خلقنا الله، نستقيم، ونطيع، لكن تزل أقدامنا أحيانا، تضعف نفوسنا أحيانا، حتى نتعلق به وحده، ونتبرأ من حولنا وقوتنا إلى حوله وقوته.

---

(٨) أخرجه البخاري (٧٥٥٤).

(٩) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٥٢٢٠)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٢٦٨).

(١٠) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (٤٢٥١)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٤٢٨).

(١١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١١٨١٠)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٢٧٦)..



لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ



رجع النبي ﷺ من غزوة أحد، وكان المُصاب جليلا، والأسى عظيما.

كان هناك رؤوس من كفار قريش هم الذين خططوا ودبروا وكادوا للمسلمين في أُحد.

النبي ﷺ وقف يصلي بالناس، وفي صلاة الفجر، وبعد أن رفع من الركوع في الركعة الثانية، وقف يدعو، يقول:

اللَّهُمَّ العَنْ أَبَا سُفْيَانَ، اللَّهُمَّ العَنِ الحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ، اللَّهُمَّ العَنْ صَفْوَانَ بْنَ أُمَيَّةَ، اللهم العن سُهَيْلَ بْنَ عَمْرٍو.

الصحابة خلفه، يسمعون دعاءه، ويؤمنون على دعاءه.

لعلك تظن بعد ذلك أن هؤلاء هلكوا قطعا، فأنى لهم الفلاح بعد ذلك؟!

لكن يُنزل الله على نبيه آيات تتلى إلى يوم القيامة، يقول الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾. سورة آل عمران (١٢٨)

فيكف النبي ﷺ عن الدعاء عليهم..

تمر الأيام والشهور والسنين، ويُسلم هؤلاء الأربعة جميعا، تاب الله عليهم جميعا فأسلموا، بل وحسن إسلامهم[١٢].

بل ويخرج صفوان بن أمية في قتال الروم يوم اليرموك.. ويخرج أبو سفيان للجهاد يوم اليرموك فيفقد عينه في سبيل الله.

بل ويُقتل سهيل بن عمرو والحارث بن هشام شهيدين يوم اليرموك.

التوبة بيده وحده، يصطفي لها من شاء من خلقه، لا يحول بينها وبين أحد مخلوق مهما كانت منزلته.

هو التواب الرحيم.

كم من إنسان كان أكفر الخلق، وأشدهم صدا عن سبيل الله، ثم يتوب الله عليه، فيصير وليا لله تبارك وتعالى.

تراه في كفره، تقول: لا يمكن لهذا أن يسلم.

---

(١٢) أخرجه البخاري (٤٠٧٠)، والترمذي في «**سننه**» (٣٠٠٤)..



تراه في فجوره تقول: أهذا يتوب ويترك ما هو عليه الآن؟

ثم تمر الأيام، وتجده أسلم، وتجده اهتدى وتاب، بل صار أفضل وأقرب إلى الله من كثير ممن سبقه.

قال الله: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَالله وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَالله ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤)﴾ سورة آل عمران

هل سمعت عن طُليحة الأسدي، ذاك رجل جاء فبايع النبي ﷺ على الإسلام، فلما مات النبي ﷺ ادعى النبوة أيام الصديق أبي بكر، حاربه خالد بن الوليد، ونصر الله خالدا عليه.

أيام ردته قتل بعض الصحابة، منهم الصحابي الجليل عكاشة بن محصن رضي الله عنه.

تمر الأيام، ويتوب الله على طليحة، ويسلم، بل ويحسن إسلامه، ويخرج للجهاد في سبيل الله، حتى يموت شهيدا في معركة نهاوند[١٣].

أيها المحب: نحن نعامل ربا كريما توابا رحيما، ما أن يقبل العبد إليه حتى يقبله ويتوب عليه.

لا يرد أحدا مهما كانت جنايته، لأنه التواب.

حتى لو كان قاتلا؟

بل حتى لو كان المقتول صحابيا، والقاتل كافرا، لا تستبعد هدايته، وتوبة الله عليه.

بل من جميل الأحاديث ما ستقرأ الآن:

يقول النبي ﷺ: «**يَضْحَكُ اللهُ إِلَى رَجُلَيْنِ، يَقْتُلُ أَحَدُهُمَا الْآخَرَ كِلَاهُمَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ**»، **فَقَالُوا: كَيْفَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ:** «**يُقَاتِلُ هَذَا فِي سَبِيلِ الله عَزَّ وَجَلَّ فَيُسْتَشْهَدُ، ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ عَلَى الْقَاتِلِ، فَيُسْلِمُ، فَيُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ الله عَزَّ وَجَلَّ فَيُسْتَشْهَدُ**»[١٤].

هؤلاء الأبطال من الصحابة الكرام، كانوا يوما محاربين لله ورسوله وللمؤمنين، بل وسيوفهم كانت تقطر دما من دماء المسلمين، ثم يمن الله عليهم فيتوبوا ويسلموا، وينصر الله بهم دينه.

انظر ماذا فعل خالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل، وعمرو بن العاص، في جاهليتهم، وانظر ماذا فعلوا بعد إسلامهم.

إن الله لا يعجل بعجلتنا، إنما هو رب حكيم عليم، تواب رحيم، تواب حكيم.

لكن لعل الشيطان يأتيك يقول: هؤلاء كانوا كفارا وليس بعد الكفر ذنب، فإن أسلموا فالإسلام يجب ما قبله، لكن ما حيلة المسلم الذي تغلبه نفسه فيعصي ربه، أيقبله الله بعد جرائمه وآثامه؟

---

(١٣) انظر الإصابة لابن حجر (٣/ ٤٤١).

(١٤) أخرجه البخاري (٢٨٢٦)، ومسلم (١٨٩٠).



وَغَدَرَاتِي وَفَجَرَاتِي



جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: أَرَأَيتَ رَجُلًا عَمِلَ الذُّنُوبَ كُلَّهَا فَلَمْ يُشْرِكْ بِاللهِ تَعَالَى شَيْئًا وَهُوَ فِي ذَلِكَ لَا يَتْرُكُ حَاجَةً أَوْ دَاجَةً إِلَّا اقْتَطَعَهَا بِيَمِينِهِ، فَهَلْ لِذَلِكَ مِنْ تَوْبَةٍ؟

قَالَ: «**هَلْ أَسْلَمْتَ؟**» قَالَ: أَمَّا أَنَا فَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ.

قَالَ: «**نَعَمْ، تَفْعَلُ الْخَيْرَاتِ، وَتَتْرُكُ السَّيِّئَاتِ، فَيَجْعَلُهُنَّ اللهُ لَكَ خَيْرَاتٍ كُلَّهُنَّ**».

قَالَ وَغَدَرَاتِي وَفَجَرَاتِي؟

قَالَ: «**نَعَمْ**»

قَالَ: اللهُ أَكْبَرُ، فَمَا زَالَ يُكَبِّرُ حَتَّى تَوَارَى»[١٥].

هذا رجل سأل النبي ﷺ عن رجل اتبع ما تهواه نفسه، حتى أنه لم يترك ذنبا صغيرا ولا كبيرا إلا فعله، فهل يغفر الله له؟

كان جواب النبي ﷺ أنه إن ترك السيئات، وهذا هو شرط التوبة الأول، ثم فعل الخيرات، وهذا علامة على صلاحه بعد توبته، فإن الله يغفر له، بل يبدل الله السيئات حسنات.

تعجب الرجل، فقال: وغدراتي وفجراتي، كأنه يقول وهذه الكبائر العظام، لقد أكثر في الفجور والغدر، أبعد كل لك؟

قال له: نعم.

حتى الغدرات والفجرات يحولها الله إلى حسنات.

قد يكون ذنبك عظيما، لكنه لا يتعاظم على الله شيء، فقط تب إلى ربك، دع ذنبك، واندم على تفريطك في حق الله، واعزم على أن تكون صالحا، وفرّ إلى الله، تجد الله غفورا رحيما.

في مجتمع الصحابة الأطهار ضعفت نفوس بعضهم، فمنهم من وقع في الزنى، ومنهم من وقع في شرب الخمر، ومنهم من وقعت في السرقة، ومنهم من تخلّف عن الجهاد مع رسول الله ﷺ.

لكنهم ندموا وتابوا توبة نصوحا، قطّع الندم قلوبهم، فقبلهم الله، وأعلن شأنهم.

(١٥) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٢٣٥)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٣٩١).

هذا ماعز ﵁، شاب متزوج، لكنه وقع في الزنى.

أحرق الذنب قلبه، مع أنه لم يره أحد، ستره الله، لكنه أراد أن يطمئن قلبه أن الله غفر له.

جاء إلى النبي ﷺ حتى يقيم عليه الحد، وهو يعلم أنه سيرجم بالحجارة حتى الموت، لكن حرارة الندم على الخطيئة.

قال يا رسول الله: طَهِّرْنِي.

فَقَالَ: «**وَيْحَكَ، ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرِ اللهَ وَتُبْ إِلَيْهِ**».

فَرَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، طَهِّرْنِي.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**وَيْحَكَ، ارْجِعْ فَاسْتَغْفِرِ اللهَ وَتُبْ إِلَيْهِ**».

فَرَجَعَ غَيْرَ بَعِيدٍ، ثُمَّ جَاءَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، طَهِّرْنِي، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: مِثْلَ ذَلِكَ حَتَّى إِذَا كَانَتِ الرَّابِعَةُ، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ: «**فِيمَ أُطَهِّرُكَ؟**».

فَقَالَ: مِنَ الزِّنَى.

قال له النبي ﷺ: «**لَعَلَّكَ قَبَّلْتَ، أَوْ غَمَزْتَ، أَوْ نَظَرْتَ؟**

قَالَ: لاَ يَا رَسُولَ اللهِ.

فَسَأَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَبِهِ جُنُونٌ؟**» فَأُخْبِرَ أَنَّهُ لَيْسَ بِمَجْنُونٍ.

فَقَالَ: «**أَشَرِبَ خَمْرًا؟**» فَقَامَ رَجُلٌ فَاسْتَنْكَهَهُ، فَلَمْ يَجِدْ مِنْهُ رِيحَ خَمْرٍ،

قَالَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَزَنَيْتَ؟**»

فَقَالَ: نَعَمْ، فَأَمَرَ بِهِ فَرُجِمَ،

فلما رُجم، قال النبي ﷺ: «**اسْتَغْفِرُوا لِمَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ**»، **قَالَ: فَقَالُوا: غَفَرَ اللهُ لِمَاعِزِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ** ﷺ: «**لَقَدْ تَابَ تَوْبَةً لَوْ قُسِمَتْ بَيْنَ أُمَّةٍ لَوَسِعَتْهُمْ**»[16].

وهذه امرأة غامدية، ضعفت نفسها كذلك، فزنت حتى صارت حُبلى من الزنى.

أصبح الذنب نارا تحرق فؤادها، مع أنها امرأة، ومتزوجة، تعلم أنها ستقتل، وستجلب لأهلها الفضيحة، لكنها أرادت أن يطمئن القلب أنها قد طُهرت.

جاءت إلى رسول الله ﷺ، فقالت يا رسول الله: إِنِّي قَدْ زَنَيْتُ فَطَهِّرْنِي.

---

(١٦) أخرجه البخاري (٦٨٢٤)، ومسلم (١٦٩٥).



فقال لها النبي ﷺ: وَيْحَكِ ارْجِعِي فَاسْتَغْفِرِي اللهَ وَتُوبِي إِلَيْهِ، وردها.

فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، لِمَ تَرُدُّنِي؟ لَعَلَّكَ أَنْ تَرُدَّنِي كَمَا رَدَدْتَ مَاعِزًا، فَوَاللهِ إِنِّي لَحُبْلَى.

فقال لها النبي ﷺ: فَاذْهَبِي حَتَّى تَلِدِي.

فَلَمَّا وَلَدَتْ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ فِي خِرْقَةٍ، قَالَتْ: هَذَا قَدْ وَلَدْتُهُ

قَالَ لها: «**اذْهَبِي فَأَرْضِعِيهِ حَتَّى تَفْطِمِيهِ**».

فَلَمَّا فَطَمَتْهُ أَتَتْهُ بِالصَّبِيِّ فِي يَدِهِ كِسْرَةُ خُبْزٍ، فَقَالَتْ: هَذَا يَا نَبِيَّ اللهِ قَدْ فَطَمْتُهُ، وَقَدْ أَكَلَ الطَّعَامَ.

فَدَفَعَ الصَّبِيَّ إِلَى رَجُلٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، ثُمَّ أَمَرَ بِهَا فَحُفِرَ لَهَا إِلَى صَدْرِهَا، وَأَمَرَ النَّاسَ فَرَجَمُوهَا، فَيُقْبِلُ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ بِحَجَرٍ، فَرَمَى رَأْسَهَا فَتَنَضَّحَ الدَّمُ عَلَى وَجْهِ خَالِدٍ فَسَبَّهَا، فَسَمِعَ نَبِيُّ اللهِ ﷺ سَبَّهُ إِيَّاهَا، فَقَالَ: «**مَهْلًا يَا خَالِدُ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ تَابَتْ تَوْبَةً لَوْ تَابَهَا صَاحِبُ مَكْسٍ لَغُفِرَ لَهُ**»(١٧).

سنتان على أقل تقدير، والمرأة يعتصر ألم الذنب قلبها، لم تتحمل، تأتي فيردها، ثم تأتي فيردها، ثم تأتي فيردها، ثلاث مرات، لعلها تستر على نفسها، لكن هكذا التوبة الصادقة.

علامة التوبة الصادقة أن يتقطع القلب ندما، وتفيض العين دمعا، على ما فرط العبد في جنب الله.

قال الله: ﴿**لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾. سورة التوبة (١١٠)

تسمعون جميعا قصة أسامة بن زيد رضي الله عنه وعن أبيه، عندما جاء يشفع في المرأة المخزومية التي سرقت، فكان حدها أن تقطع يدها، لما شفع فيها أسامة غضب النبي ﷺ، حتى قال: «**أَتُكَلِّمُنِي فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ، إِنَّمَا أَهْلَكَ النَّاسَ قَبْلَكُمْ: أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الحَدَّ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا** » **ثُمَّ أَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِتِلْكَ الْمَرْأَةِ فَقُطِعَتْ يَدُهَا**».

إلى هنا كلنا نعلم القصة.

لكن هل تعلم أنها تابت بعد ذلك، وحسنت توبتها.

قالت عائشة: «**فَحَسُنَتْ تَوْبَتُهَا بَعْدَ ذَلِكَ وَتَزَوَّجَتْ، وكَانَتْ تَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ فَأَرْفَعُ حَاجَتَهَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ**»(١٨).

مع أنها مخزومية، من أشراف العرب، وامرأة كذلك، قد قُطعت يدها، وغالب الأمر عند النساء أن ذلك لا يُتحمل.

(١٧) أخرجه مسلم (١٦٩٥).

(١٨) أخرجه البخاري (٤٣٠٤)، ومسلم (١٦٨٨).





لعل كثيرا ممن في حالتها ربما لو حدث لها مثل ذلك لكرهت هذا الدين، أو لارتدت عنه، لكنها قبلت حكم الله، بل وندمت وتابت، وحسنت توبتها، وتأتي تستفي رسول الله ﷺ ولا يردها.

هؤلاء الصحابة الثلاثة الكبار الذين تخلفوا عن الجهاد معه في غزوة تبوك، مع أنهم لا عُذر لهم، ندموا، وتقطعت قلوبهم ندما على تخلفهم عن رسول الله ﷺ.

يعلم الله صدق توبتهم، وبعد خمسين يوما من هجر النبي ﷺ وأصحابه لهم، تنزل الآيات بشرا بقبول توبتهم من الله تعالى.

قال الملك التواب: ﴿لَقَدْ تَابَ الله عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١١٧) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨)﴾

ولكن: أرأيت إن تبت إلى ربك، ثم غلبك الشيطان بعد ذلك، أو ضعفت أمام نفسك فعصيت، أيقبلك مرة أخرى؟



يَا رَبُّ أَنْتَ الْعَوَّادُ بِالْمَغْفِرَةِ، وَأَنَا الْعَوَّادُ بِالذُّنُوبِ



الله هو التواب، كثير التوبة، عظيم التوبة.

يا صديقي: الله لا يمل من تكرار ذنبك، ولا يملُّ من قبول توبتك، ولا يملُّ من ندمك واعتذارك.

قال النبي ﷺ: «**مَرَّ رَجُلٌ بِجُمْجُمَةٍ فَوَقَفَ عَلَيْهَا وَجَعَلَ يُفَكِّرُ، فَقَالَ: يَا رَبُّ أَنْتَ أَنْتَ، وَأَنَا أَنَا، أَنْتَ الْعَوَّادُ بِالْمَغْفِرَةِ، وَأَنَا الْعَوَّادُ بِالذُّنُوبِ، فَقِيلَ لَهُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ، فَأَنْتَ الْعَوَّادُ بِالذُّنُوبِ، وَأَنَا الْعَوَّادُ بِالْمَغْفِرَةِ، قَالَ: فَغَفَرَ لَهُ**»[١٩].

أنت يا ابن آدم العواد بالذنوب، والله هو العواد بالمغفرة.

ودّ الشيطان ألّو قنّطك من رحمة الله، ويأّسك من نفسك، حتى لا ترجع ولا تتوب، إياك أن تنصت له، لا ملجأ ولا منجا منه إلا إليه سبحانه.

جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يَا رَسُولَ الله، أَحَدُنَا يُذْنِبُ؟.

قَالَ: «**يُكْتَبُ عَلَيْهِ**».

قَالَ: ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ مِنْهُ وَيَتُوبُ؟

قَالَ: «**يُغْفَرُ لَهُ وَيُتَابُ عَلَيْهِ**».

قَالَ: فَيَعُودُ وَيُذْنِبُ؟.

قَالَ: «**يُكْتَبُ عَلَيْهِ**».

قَالَ: ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ مِنْهُ وَيَتُوبُ؟.

قَالَ: «**يُغْفَرُ لَهُ وَيُتَابُ عَلَيْهِ**».

قَالَ: فَيَعُودُ وَيُذْنِبُ؟.

قَالَ: «**يُكْتَبُ عَلَيْهِ**».

قَالَ: ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ مِنْهُ وَيَتُوبُ؟.

---

(١٩) أخرجه تمام في «**الفوائد**» (٦٥٩)، وحسنه الشيخ الألباني في «**السلسلة الصحيحة**» (٣٢٣١).



قَالَ: «يُغْفَرُ لَهُ وَيُتَابُ عَلَيْهِ، وَلَا يَمَلُّ اللهُ حَتَّى تَمَلُّوا»[٢٠].

ذلكم الله ربكم، لا يملّ منا، ولا من خطايانا، ولا من توبتنا، ولا من ندمنا، مهما عُدنا، ومهما أخطأنا، المهم أن تتوب، أن تندم، أن تقلع حقا عن ذنبك، أن تصدق في عدم العود إليه أبدا، وعلامة ذلك أن تمكث ما شاء الله على الطاعة، أن تمكث بعيدا عن هذا الذنب، علامة ذلك ألّا تنوي فعله وأنت تستغفر ربك منه، فإن ضعفت بعد ذلك فتب إليه، وهو يقبلك.

يقول النبي ﷺ: «إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا، فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ فَاغْفِرْ لِي، فَقَالَ رَبُّهُ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا، فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ آخَرَ، فَاغْفِرْهُ؟ فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا، قَالَ: قَالَ: رَبِّ أَصَبْتُ آخَرَ، فَاغْفِرْهُ لِي، فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ثَلَاثًا، فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ»[٢١].

ذاك عبد يذنب، ثم يتوب توبة صادقة، نادم عازم على عدم العود إلى الذنب، يخشى عقاب ربه، لكنه غير مُصِرٍ على الذنب، والله تعالى وعد المستغفر التائب الذي لم يُصر على الذنب أن يغفر له.

قال الله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦)﴾ سورة آل عمران

والإصرار: أن ينوي الإنسان بقلبه ألا يفارق الذنب، يعزم على ارتكاب الذنب متى تيسر له، فهذه توبة الكذابين، ويل له كما قال رسول الله ﷺ: «وَيْلٌ لِلْمُصِرِّينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ»[٢٢].

أما عودتك إلى الذنب دون نية سابقة، مع ألم القلب، فهذا يغفره الله بتوبتك وندمك واستغفارك، فهو يعلم ضعفك.

قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «مَا أَصَرَّ مَنِ اسْتَغْفَرَ وَإِنْ عَادَ فِي الْيَوْمِ سَبْعِينَ مَرَّةً»[٢٣].

إنك لن تجد خيرا من ربك، بنو آدم إن أخطأت في حق أحدهم قد يسامحك مرة أو مرتين، لكن عند حد معين لا مسامحة مهما اعتذرت، أما الله فيراك تذنب فيسترك، ثم يلقي في قلبك الندم، ويوفقك للتوبة إليه، فيتوب عليك، ويقبلك، وهو يعلم أنك ستعود، بل قد يعلم منك أنك ستظل تذنب هذا الذنب ثم تتوب منه ثم تذنب ثم تتوب، هكذا حتى الموت، وفي كل مرة يعود فيسترك، ويتوب عليك.

قال النبي ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَهُ ذَنْبٌ يَعْتَادُهُ: الْفَيْنَةَ بَعْدَ الْفَيْنَةِ، أَوْ ذَنْبٌ هُوَ مُقِيمٌ عَلَيْهِ

---

(٢٠) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٨٦٨٩)، وحسن إسناده الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٧٥٣٠).

(٢١) أخرجه البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٥٨).

(٢٢) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٣٨٠)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٢٩٣).

(٢٣) أخرجه أبو داود في «سننه» (١٥١٤)، وحسنه ابن كثير في «تفسيره» (٢/ ١٠٩)، وابن حجر في «فتح الباري» (١/ ١١٢).



لَا يُفَارِقُهُ حَتَّى يُفَارِقَ، إِنَّ الْمُؤْمِنَ خُلِقَ مُفْتَنًا تَوَّابًا نَسِيًّا إِذَا ذُكِّرَ ذَكَرَ»(٢٤).

القصة يا عبد الله ألّا تصر على بقاءك في وحل المعصية، إنما قم، وتطهر، واستغفر ربك، واستقم ما استطعت، فإن تعثرت استعن بمولاك، وقم ثانية وثالثة، هكذا حتى يكون الشيطان هو المحسور.

لكن، حتى لو كثرت ذنوبي، أيغفر الله لي إن تبت إليه؟

(٢٤) أخرجه الطبراني في «**المعجم الكبير**» (١١/ ٣٠٤)، **وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة»** (٢٢٧٦).



لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ



ما أجمل نداءات الملك:

يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلاَ أُبَالِي.

يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ، وَلاَ أُبَالِي.

يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً[٢٥].

ما أرق قول الكريم: ولا أبالي.

ليس بيننا وبين ربنا خصومة، يقبلك مهما طال بُعدك، ومهما كثُر ذنبك.

حتى لو بلغت الذنوب عنان السماء، حتى كانت الذنوب قراب الأرض.

ثم استغفرت ربك وتبت، لجاءك بمثلها مغفرة.

قال النبي ﷺ: «**لَوْ أَخْطَأْتُمْ حَتَّى تَبْلُغَ خَطَايَاكُمْ السَّمَاءَ، ثُمَّ تُبْتُمْ لَتَابَ الله عَلَيْكُمْ**»[٢٦].

مهما عظم ذنبك فعفو الله أعظم.

ومهما كثرت ذنوبك فغفران الله أكثر من ذنبك.

ومهما كبر ذنبك فرحمة الله أكبر وأوسع من ذنبك.

تب إليه تجده غفورا رحيما.

قال الله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾. سورة النساء (٦٤)

مهما أسرفت فهو ينادي عليك، طالما لم يأتك الموت، فباب التوبة مفتوح لا يغلق في وجهك.

قال الله: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣)﴾ سورة الزمر

قال الله: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾. سورة النساء (١١٠)

---

(٢٥) أخرجه الترمذي في «سننه» (٣٥٤٠)، وحسنه الشيخ الألباني في «**السلسلة الصحيحة**» (١٢٧).

(٢٦) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (٤٢٤٨)، وحسنه لغيره الشيخ الألباني في «**السلسلة الصحيحة**» (١٩٥١).





قال الله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦). آل عمران

سله مغفرته، أقبل عليه مقرا بذنبك، منكسرا بين يديه، تجده قريبا، بل لا أقرب منه.

قال الله: ﴿فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ﴾. سورة هود (٦١)

لقد أقسم بعزته وجلاله أن يغفر لك إن استغفرته.

قال النبي ﷺ: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَالَ: وَعِزَّتِكَ يَا رَبِّ، لَا أَبْرَحُ أُغْوِي عِبَادَكَ مَا دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ، قَالَ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَزَالُ أَغْفِرُ لَهُمْ مَا اسْتَغْفَرُونِي**»[٢٧].

هو يعلم أنك ستذنب، وهو الغفور، يغفر الذنوب جميعا، فاستغفره يغفر لك.

قال الله في الحديث القدسي: «**يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ**»[٢٨].

هو عفو يحب العفو، غفور يحب المغفرة.

في ذات ليلة يرسل الله جبريل إلى النبي ﷺ يقول له: «: «**إِنَّ رَبَّكَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَ أَهْلَ الْبَقِيعِ فَتَسْتَغْفِرَ لَهُمْ**»[٢٩].

أقبل على ربك وقل له: إلهي إن عظمت ذنوبي في جنب نهيك فقد صغرت في جنب عفوك.

ورحم الله الإمام الشافعي لما قال: وَلَمَّا قَسَى قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذَاهِبِي... جَعَلْتُ رَجَائِي نَحْوَ عَفْوِكَ سُلَّمًا

تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُهُ... بِعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمَا[٣٠].

---

(٢٧) أخرجه أحمد في «مسنده» (١١٢٣٧)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٠٤).
(٢٨) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).
(٢٩) اخرجه مسلم (٩٧٤).
(٣٠) أخرجه البيهقي في «مناقب الشافعي» (٢/ ٢٩٤).

فإن تبت إليه
فرح بك أعظم الفرح، وطهر قلبك.
وغفر لك ذنبك، وبدَّل سيئاتك حسنات
ووقاك السيئات حتى يبلغك درجات الأولياء
بل ويحبك بعد ذنبك لأنه الغفود الودود



إذاً يَفرحُ الله بك، ويضحكُ إليك



لـو أن مسـافرا سـفرا طويـلا، معـه سـيارته، حمـل عليهـا مـا يلـزم لحياتـه حتـى يصـل إلى وجهتـه مـن طعـام وشـارب ومـال وغـير ذلـك.

وفي أثنـاء الطريـق خـرج عليـه لصـوص قطعـوا عليـه الطريـق ثـم أخـذوا سـيارته وعليهـا طعامـه وشرابـه ومالـه، بـل وأخـذوا هاتفـه، وانطلقـوا ولم يتركـوا لـه كـسرة خبـز ولا قطـرة مـاء.

خرج في إثرهم لكنه لم يحصل على شيء.

ذهب يمينا ويسار، لعله يجد شيئا، لكن عاد بصره خاسئا حسيرا.

أصابه الجوع والعطش، حتى كاد أن يهلك، وأدرك أنه ميت لا محالة.

وبعـد عـدة ليـال وأيـام، وهـو جالـس تحت صخـرة، قـد يـأس مـن النجاة، وأيقـن بالموت إذ برجـل ينـادي عليـه، قـد جـاءه بسـيارته التـي أخذهـا منه اللصـوص، وعليهـا طعامـه وشرابـه ومالـه كلـه، لم ينقـص منـه شيء.

فرح الرجل بعودة الحياة إليه بعد إياسه، سجد شاكرا ربه، قائلا: اللهم أنت عبدي وأنا ربك.

نعم هكذا قال، كما قرأت، أخطأ من شدة الفرح.

يا تُرى كم تكون فرحة هذا الرجل بعودة سيارته إليه.

لقد عادت له حياته بعد أن أيقن الهلاك والضياع.

هـل تتصـور أن فـرح الله الغني الحميـد المجيـد بتوبـة عبـده إليـه أعظـم وأشـد مـن فرحـة هـذا الرجـل بعـودة الحيـاة إليـه.

إي والله، شيء لا يوصف.

هذا الحديث أرق حديث تسمعه في الدنيا، يأخذك بكل قلبك إليه.

يقـول النبـي ﷺ: «**للهُ أَفْـرَحُ بِتَوْبَـةِ عَبْـدِهِ مِـنْ رَجُـلٍ نَـزَلَ مَنْـزِلًا وَبِـهِ مَهْلَكَـةٌ، وَمَعَـهُ رَاحِلَتُـهُ، عَلَيْهَـا طَعَامُـهُ وَشَرَابُـهُ، فَوَضَـعَ رَأْسَـهُ فَنَـامَ نَوْمَـةً، فَاسْـتَيْقَظَ وَقَـدْ ذَهَبَـتْ رَاحِلَتُـهُ، فَطَلَبَهَـا حَتَّـى أَدْرَكَـهُ الْعَطَـشُ، سَـعَى شَرَفًـا فَلَـمْ يَـرَ شَـيْئًا، ثُـمَّ سَـعَى شَرَفًـا ثَانِيًـا فَلَـمْ يَـرَ شَـيْئًا، ثُـمَّ سَـعَى شَرَفًـا ثَالِثًـا فَلَـمْ يَـرَ شَـيْئًا، ثُـمَّ قَـالَ: أَرْجِـعُ إِلَى مَكَانِيَ الَّـذِي كُنْـتُ فِيـهِ، فَأَنَـامُ حَتَّـى أَمُـوتَ، فَوَضَـعَ رَأْسَـهُ عَـلَى سَـاعِدِهِ لِيَمُـوتَ، فَرَجَـعَ فَنَـامَ نَوْمَـةً، ثُـمَّ رَفَـعَ رَأْسَـهُ، فَـإِذَا رَاحِلَتُـهُ عِنْـدَهُ، وَعَلَيْهَـا زَادُهُ وَطَعَامُـهُ وَشَرَابُـهُ، فَأَخَـذَ**





بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ»(١).

إن الله خلقك ليرحمك، لا ليعذبك، فهو غني عن عذابك، ما يفعل الله بعذاب عبده، لذا أرادك لك، وكلما شردت عنه هلكت وضعت، سرت في طريق الموت، فإن تبت إليه فإنك تعود لك الحياة، والله يريد لك الحياة.

ليس فرحا فقط، بل يضحك إليك، ضحكا يليق بجلاله، ليس كمثله شيء.

عطاءات الكريم لهذا العبد التائب يعجز الحديث عن بيانها.

كيف لا، وأول هذه العطاءات أن يفرح الله بعبده التائب، ويضحك إليه، فرحا وضحكا يليق بجماله وكماله.

يقول النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَضْحَكُ إِلَى عَبْدِهِ إِذَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي؛ فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، قَالَ: عَبْدِي عَرَفَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ وَيُعَاقِبُ**»(٢).

إن الفرح والضحك إنما يكون بحدوث المحبوب، والله تعالى يحب عبده التائب إليه، مع كمال غناه عنه.

قال الله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**﴾. سورة البقرة (٢٢٢)

المذنب عبد آبق شارد عن سيده، فارٌ عن مولاه، ظهير على ربه، في طوع عدوه، سالك سبيل الجحيم.

وتوبته إعلان ندمه على ما جنت يداه.

إعلان منه أنه يوالي ربه، ويأوي إلى جناب سيده، ويعادي عدوه الشيطان الرجيم، ويسلك طريقه إلى الجنان.

وانظر إلى قوله: «**أفرح**». أي: أشد فرحا، لأن الله شكور، فرحه أعظم من فرح العبد.

لأن الله أرحم بالعبد من الأم بولدها، ففرحه فرح رب محسن بر لطيف رؤوف بعبده، لا يريد له العذاب.

وتخيل لو أن والدة تحب ولدها حبا جما، هي به رحيمة غاية الرحمة، تنصح له أعظم النصح، تدفع عنه ما يؤذيه، ثم بينما هي تفعل ذلك له إذ به يذهب عنها، ويصالح عدوه وعدوها، ذاك العدو الذي يجهر بمعاداتها وولدها، بل ويسبها وأولياؤها، ويصفونها بأقبح الصفات.

وهي تعلم ذلك منه، تعلم أنه سيذهب بولدها إلى القتل، سيزهق روحه، وهي تصيح به: هذا

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٨)، ومسلم (٢٧٤٧).

(٢) أخرجه ابن بطة في «**الإبانة**» (٧٥)، وصححه الشيخ الألباني في «**السلسلة الصحيحة**» (١٦٥٣).



سيقتلك، هذا سيزهق روحك، وهو مع ذلك ينصت إليه، يطيعه فيما به هلاكه، يأخذ بيده إلى الضياع.

وهي رغم ذلك لا تفتأ تنادي عليه في كل حين، ليل نهار، يا ولدي: عد من هذا السبيل، إنك تؤذي نفسك، تذهب بها إلى الموت، إلا أنه لا يسمع نصحها، ولا يطيع أمرها، وهي مع ذلك تصبر عليه، لا تمل من النداء عليه.

وفجأة، يعود ولدها من سبيل الضياع، ويترك ذاك العدو اللعين، ويندم على عصيانه من هي به رحيمة، فأي فرح ساعتها يكون لهذه الوالدة، فقد عاد ولدها إلى الحياة، فقد كان معرضا للذبح في أي لحظة لو تمكن منه عدوه.

الله خلقك ليرحمك، ولأنه يعلم ضعفك حذرك من عدوك الشيطان اللعين، فهو يعلم أنه يريد لك ما هو أفظع من الموت، إنه يريد لك الهلاك والجحيم في الدنيا والآخرة.

الله أرحم بك من أمك، ومن نفسك، ومن الناس أجمعين.

صُقِلَ قَلْبُهُ



كل ذنب يقسو به القلب، وكل ذنب ينكت في القلب نكتة سوداء.

وكلما زادت الذنوب اشتدت القسوة، وكان الران الذي يحول بين القلب وبين رؤية الحق.

لكن ما أن يتوب العبد ويستغفر ويترك ذنبه حتى يتغير كل شيء.

أما الران فيزول، والقلب يصقل ويُجلى.

يقول النبي ﷺ: «**إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا أَذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ، فَإِنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ، صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ زَادَ زَادَتْ، حَتَّى يَعْلُوَ قَلْبَهُ ذَاكَ الرَّانُ (٤) الَّذِي ذَكَرَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي الْقُرْآنِ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾** [المطففين: ١٤]»(٣).

ينقلب الحال فيزول السواد، وتنجلي سحائب الذنوب، ويصير القلب نقيا مجليا كأنه مرآة صافية.

يقول عون بن عبد الله: «**رَأَيْنَا صَدَأَ الْقُلُوبِ إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ كَثْرَةِ الذُّنُوبِ، وَرَأَيْنَا جَلَاءَهَا إِنَّمَا يَكُونُ مِنْ قِبَلِ التَّوْبَةِ، حَتَّى تَدَعَ الْقُلُوبَ كَالسَّيْفِ النَّقِيِّ الْمُرْهَفِ**»(٤).

فإن لم يتب العبد إلى ربه، استحوذ عليه الشيطان فأنساه ذكر الله، حتى تصير الذنوب طبعا، فيطبع الله على قلبه، ويقفل عليه فلا يدرك خيرا.

يقول النبي ﷺ: «**مَنْ تَرَكَ الْجُمُعَةَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ تَهَاوُنًا بِهَا طَبَعَ اللهُ عَلَى قَلْبِهِ**»(٥).

وقال النبي ﷺ: «**لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجُمُعَاتِ، أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، ثُمَّ لَيَكُونُنَّ مِنَ الْغَافِلِينَ**»(٦).

انظر إلى عظيم الحلم، لم يطبع على قلبه من أول مرة، بل بعد ثلاث تهاونا بها طُبع على قلبه، خُتم على قلبه.

ورغم ذلك إن تاب العبد إلى ربه فُتحت الأقفال، وأُزيل الختم، ورُفع الطبع، وأحيا الله القلب بعد موته.

الله هو الفتاح يفتح أقفال القلوب، فإن كان على القلوب أقفالها، فإنها لا يفتح الأغاليق إلا هو

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٧٩٥٢)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٤٢٢).
(٤) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (٤/ ٢٥٠).
(٥) أخرجه الترمذي في «سننه» (٥٠٠)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح أبي داود» (٩٦٥).
(٦) أخرجه مسلم (٦٨٥).

سبحانه، فإن أقبلت عليه أقبل عليك بكل خير.

هو سبحانه من يزيل ذاك الختم الذي على القلب.

قال الله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ الله سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾. سورة الأنعام (٤٦)





يُبَدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ



يقول النبي ﷺ: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُقَالُ اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ قَالَ فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ وَيُخَبَّأُ عَنْهُ كِبَارُهَا فَيُقَالُ عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا وَهُوَ مُقِرٌّ لَا يُنْكِرُ وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنَ الْكِبَارِ فَيُقَالُ أَعْطُوهُ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً قَالَ فَيَقُولُ إِنَّ لِي ذُنُوبًا مَا أَرَاهَا»(٧).

هذا الرجل أتى بالصغائر والكبائر، إلا أنه تاب منها.

هو لا يعلم أَقَبِلَ الله توبته، وغفر ذنوبه، أم لا، هو بعد مشفق وجل خائف.

يؤتى به للعرض على الملك جل جلاله.

يقول الله للملائكة: اعرضوا عليه صغار ذنوبه. وأما الكبار فتُخبأ عنه، ثم يكلمه الله: عملت يوم كذا وكذا كذا وكذا.

يُقر العبد ولا ينكر، ويدب الوجل في قلبه من كبار ذنوبه، هو لا يراها في الصحف، والله يوقفه على صغارها.

وفجأة: يقول الله للملائكة: أعطوه مكان كل سيئة حسنة.

هنا يقول العبد: إن لي ذنوبا لا أراها.

الله لم يغفر فحسب، بل بدّل السيئات حسنات.

أبشر أيها التائب التارك للحرام لأجل ربك ومولاك، والله إنها ليست مغفرة فحسب. لن تُمحى السيئات فحسب، بل يُبدل الكريم السيئات حسنات.

ألم تسمع الكريم يقول: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ الله إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ الله غَفُورًا رَحِيمًا (٧٠) وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا (٧١)﴾ سورة الفرقان

إنّ التائب يوم القيامة عندما يرى فضل الله عليه، ويرى حسن تجاوزه، وكريم عفوه، حتى أنه أعطاه مكان السيئة حسنة، سيتمنى لو كان قد أكثر من ذنوبه.

قال النبي ﷺ: «لَيَتَمَنَّيَنَّ أَقْوَامٌ لَوْ أَكْثَرُوا مِنَ السَّيِّئَاتِ» قَالُوا: بِمَ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: «الَّذِينَ بَدَّلَ الله سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ»(٨).

(٧) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢١٣٩٣)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٠٥٢).

(٨) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٧٦٤٣)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢١٧٧).



وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ



أعظم المخلوقات حجما ووزنا عرش الرحمن.

يحمل عرش الرحمن ملائكة عظام ثمانية.

يقول النبي ﷺ: «**أُذِنَ لي أن أُحدِّثَ عن مَلَكٍ مِنْ ملائكةِ الله من حَمَلة العرش: إن ما بين شَحمةِ أُذُنِه إلى عاتِقِه مَسيرةُ سبع مئةِ عام**»[٩].

هؤلاء الملائكة الكرام يستغفرون للتائبين، ويدعون لهم هذه الدعوة الجميلة: «**وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ**».

قال الله: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩)﴾. سورة غافر

وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ: أي، يا رب قهم فعل السيئات، وعاقبة السيئات.

كثير منا يتسائل: أيمكن أن يكون العبد بعد التوبة عبدا صالحا عابدا وليا لله تعالى، أم غاية ما يمكنه أن يتحصل عليه أن يغفر الله له؟

أيمكن أن يعود العبد لحاله على الإيمان كما كان قبل الذنب؟

أيمكن له بعد توبته من ذنبه أن يكون له مقام ومنزلة عند ربه؟

أيمكن أن يبلغ منزلة الصديقين والشهداء والعلماء؟

أم أن ذنبه خسف به فغاية ما يطمح إليه أن يغفر الله ذنبه؟

أيها التائب إلى مولاك: التوبة تجب ما قبلها، والتائب بصدق من ذنبه كمن لا ذنب له.

يقول النبي ﷺ: «**التَّائِبُ مِنْ الذَّنْبِ كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ**»[١٠].

ثم احفظ هذه يا صديقي: السبق إلى الله سبق قلوب، وإنما العبرة بمن صدق، وليس من سبق.

إن وقوعك في الذنبك ليس نهاية المطاف، ولا دليل طرد وإبعاد، بل ربما يكون الذنب الذي وقع

---

(٩) أخرجه أبو داود في سننه (٤٧٢٧)، وصححه ابن حجر في فتح الباري (٨/ ٦٦٥)، والشيخ الألباني في مختصر العلو (ص١١٤)..

(١٠) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (٤٢٥٠)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٤٢٧).





فيه العبد فضلا من الله على عبده، وبه كانت نجاته وقربه.

كيف ذلك؟

قَالَ أبو حازم ﵀: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ الْحَسَنَةَ تَسُرُّهُ حِينَ يَعْمَلُهَا، وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ سَيِّئَةٍ أَضَرَّ لَهُ مِنْهَا، وَإِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ السَّيِّئَةَ حَتَّى تَسُوءَهُ حِينَ يَعْمَلُهَا، وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ حَسَنَةٍ أَنْفَعَ لَهُ مِنْهَا، وَذَلِكَ أَنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ الْحَسَنَةَ تَسُرُّهُ حِينَ يَعْمَلُهَا، فَيَتَجَبَّرُ فِيهَا وَيَرَى أَنَّ لَهُ بِهَا فَضْلًا عَلَى غَيْرِهِ، وَلَعَلَّ اللهَ تَعَالَى أَنْ يُحْبِطَهَا وَيُحْبِطَ مَعَهَا عَمَلًا كَثِيرًا، وَإِنَّ الْعَبْدَ حِينَ يَعْمَلُ السَّيِّئَةَ تَسُوءُهُ حِينَ يَعْمَلُهَا، وَلَعَلَّ اللهَ تَعَالَى يُحْدِثُ لَهُ بِهَا وَجَلًا يَلْقَى اللهَ تَعَالَى وَإِنَّ خَوْفَهَا لَفِي جَوْفِهِ بَاقٍ»[(١١)].

أتدري لما خلاك ومعصيته؟

لأنه التواب، ويحب التوابين، ويفرح برجوعهم، فلو لم تذنب، ولو لم يذنب الخلق فكيف سيكون أثر اسمه التواب وفرحه بتوبة عباده إليه.

إنه خلاك ومعصيته لتدرك أنه لا قيام لك إلا به، وأنه لا غنى لك عنه طرفة عين.

حتى تستغيث به ليعيذك من شر نفسك، ومن شر الشيطان الرجيم.

حتى تعرف حقيقة نفسك وأنها أصل كل سوء، وأنها الظالمة الجاهلة، وأن ما فيها من خير فهو من ربك، لا منها، وأنه سبحانه لو تركك وإياها فإنه الهلاك والضياع، فتظل طيلة عمرك منكسرا ذليلا بين يدي ربك، تحسن فيه الظن، وتسيء الظن بنفسك.

حتى تعرف جميل حلمه، وعظيم ستره، وأنه لو شاء لعاجلك بالعقوبة ففضحك بين الناس، ولكن بحلمه وستره كنت جميلا

حتى ترحم أصحاب المعاصي، فتأمرهم بالمعروف، وتنهاهم عن المنكر، شفقة ورحمة، لا غلظة وقسوة.

حتى ينقيك من داء إبليس وهو العجب، والذي إن دخلك قد يوصلك إلى الطرد من رحمته سبحانه، فلا ترى نفسك حينئذ.

حتى تعرف عظيم نعمه عليك إذ يغدق عليك النعم ثم تقابلها أنت بالشرود عنه، فيحملك هذا على دوام الشكر له سبحانه، وعلى استكثار نعمه عليك.

حتى تبقى على حذر دوما من عدوك اللدود الشيطان اللعين فلا تطمئن نفسك إلى نفسك، بل تظل دائما مستغيثا بربك اللهم يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك

في هذه النفوس أدواء وآفات، إن تمكن من العبد داء منه هلك.

---

(١١) أخرجه أبو نعيم في «**الحلية**» (٣/ ٢٤٢).

ومن أخطر هذه الأدواء داء إبليس، العجب.

عندما يرى الإنسان طاعاته، تحدث في النفس عجبا وكبرا، فيزدري عباد الله، ويلبس ثوب الربوبية، حتى أنه قد يتألى على الله فيدخل الناس النار، فيغضب الملك، ويهلك العبد.

ألم تر هذا العابد الذي أنسته طاعته فضل الله عليه فلم يرحم أهل الذنوب والمعاصي حتى قال لصاحبه العاصي يوما: والله لا يغفر الله لك. فهلك بهذه الكلمة في نار الجحيم.

يقول النبي ﷺ: **«كانَ رَجُلان في بني إسرائيلَ مُتواخيَين، فكان أحدُهما يُذنبُ والآخرُ مجتهدٌ في العبادة، فكان لا يزالُ المجتهدُ يرى الآخرَ على الذنب، فيقول: أقصِرْ، فوَجَدَه يوماً على ذنب، فقال له: أَقصِرْ، فقال: خلِّني وربِّي، أَبُعِثتَ عليَّ رقيباً؟ فقال: والله لا يَغفِرُ اللهُ لكَ -أو لا يُدْخِلُكَ اللهُ الجنةَ- فقَبَضَ أرواحَهُما، فاجتمعَا عند ربِّ العالمين، فقال لهَذا المجتهد: أكُنتَ بي عالماً؟ أو كنتَ على ما في يدي قادِراً؟ وقال للمُذنِب: اذهَبْ فادخُلِ الجنةَ برحمتي، وقال للآخر: اذهبُوا به إلى النار» قال أبو هريرة: والذي نفسِي بيدِه لتكلَّمَ بكلمةٍ أوبَقَت دُنياه وآخِرَتَه»**[١٢].

فإن تدارك الله هذا العبد برحمته تخلى عنه ووكله إلى نفسه قليلا، فيسقط في وحل الذنب.

ثم يلهمه التوبة والندم، فينكسر إلى ربه، ويرحم أهل المعاصي، ويظل وجلا مشفقا لا ينسى ذنبه، حتى يقوده ندمه على ذنبه إلى عظيم الطاعات، مع الإشفاق والخوف والتعظيم لله تعالى، فيكون الذنب حينئذ رحمة من الله به.

وكم من إنسان كان مسرفا على نفسه، بعيدا عن ربه، فلما تاب وأناب كان من أحسن الناس عبودية لله تعالى.

أليس هؤلاء الصحابة رضوان الله عليهم كانوا يوما كفارا على جاهليتهم، ثم أحيا الله قلوبهم، فكانوا سادة الأولياء.

ألم يسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه في السنة الخامسة، ثم هو ثاني هذه الأمة بعد أبي بكر.

أليس هو الذي قيل فيه: لو أسلم حمار الخطاب ما أسلم عمر، ثم يتوب الله عليه ويسلم، ويكون بعد ذلك الفاروق عمر، يسلك الشيطان فجاً غير فجه، ويبشره النبي ﷺ بالشهادة والجنة وهو على ظهر الدنيا.

لعلك تقول: لقد كانوا على الكفر، ثم رأوا النبي ﷺ، وهداهم الله، فماذا سيصبح عبد مسلم أسرف على نفسه؟

لا والله، لعلك لم تعرف بعد من تُعامل، إنك تعبد الرب العظيم، لا يتعاظمه شيء، قطرة من رضاه تجعل الكافر وليا.

---

(١٢) أخرجه أبو داود في «سننه» (٤٩٠١)، وحسنه الشيخ الألباني في تخريجه أحاديث «شرح العقيدة الطحاوية» (٢٩٦)، والحديث أصله في «صحيح مسلم» (٢٦٢١).



هـذا زاذان أبـو عمـر الكنـدي أحـد تلاميـذ عبـد الله بـن مسـعود رضي الله عنه، كان مغنيـا يـضرب بالعـود، يحكـي عـن قصـة توبتـه فيقـول: «**كُنْـتُ غُلامًـا حَسَـنَ الصـوت، جيـد الـضرب بالطنبـور، وكنـت أنـا وصاحـب لِي، وَعِنْدَنَـا نَبِيـذٌ، وَأَنَـا أُغَنِّيهِـمْ، فَمَـرَّ ابْـنُ مَسْـعُودٍ، فَدَخَـلَ فَضَـرَبَ الْبَاطِيَـةَ، بَدَّدَهَـا، وَكَـسَرَ الطُّنْبُـورَ، ثُـمَّ قَـالَ: لَـوْ كَانَ مَـا أَسْـمَعُ مِـنْ حُسْـنِ صَوْتِـكَ هَـذَا يَـا غُـلامُ بِالْقُـرْآنِ كُنْـتَ أَنْـتَ أَنْـتَ، ثُـمَّ مَضَـى، فَقُلْـتُ لأَصْحَـابِي: مَـنْ هَـذَا؟ قَالُـوا: هَـذَا ابْـنُ مَسْـعُودٍ، فَأُلْقِـيَ فِي نَفْـسِي التَّوْبَـةَ، فَسَـعَيْتُ وَأَنَـا أَبْكِـي، ثُـمَّ أَخَـذْتُ بِثَوْبِـهِ، فَقَـالَ: مَـنْ أَنْـتَ؟ قُلْـتُ: أَنَـا صَاحِـبُ الطُّنْبُـورِ، فَأَقْبَـلَ عَـلَيَّ فَاعْتَنَقَنِـي وَبَكَـى، ثُـمّ قَـالَ: مَرْحَبًـا بِمَـنْ أَحَبَّـهُ اللهُ، اجْلِـسْ مَكَانَـكَ، ثُـمَّ دَخَـلَ فَأَخْـرَجَ إِلَيَّ تَمْـرًا**»[١٣].

كلمـة واحـدة غيّرتـه مـن شـاب يغنـي ويـضرب بالعـود ويـشرب الخمـر، إلى قـارئ للقـرآن، محـدث يـروي حديـث رسـول الله صلى الله عليه وسلم.

وهـذا عبـد الرحمـن بـن النفيـس بـن الأسـعد الغياثـي، الفقيـه المقـرىء، مـن علـماء الحنابلـة، ترجـم لـه الحافـظ ابـن رجـب، فقـال: «كان في ابتـداء أمـره يغنـي، ولـه صـوت حسـن، ثـم تـاب وحسـنت توبتـه.

وقـرأ القـرآن في زمـن يسـير، وتعلـم الخـط في أيـام قلائـل، وحفـظ كتـاب الخرقـي وأتقنـه. وقـرأ مسـائل الخـلاف عـلى جماعـة مـن الفقهـاء... وكان فقيهـا فاضـلا، قارئـا مجـودا، مليـح التـلاوة، طيـب النغمـة.... كان قويـا في ديـن الله متمسـكا بالآثـار، لا يـرى منكـرا، ولا يسـمع بـه إلا غـيره، لا يحـابي في قـول الحـق أحـدا»[١٤].

وفي زماننـا هـذا كـم مـن إنسـان كان يجاهـر بذنبـه، يبـارز الله بالمعـاصي، ثـم يتغـير كل شيء، قلـب غـير القلـب، ووجـه غـير الوجـه، وحيـاة غـير الحيـاة، وهمـوم غـير الهمـوم.

إنسان آخر.

لا تيأس، ولا تقنط، إن ربك شكور عظيم الإحسان.

كل هـذه الكبائـر وهـذه الغـدرات وهـذه الفجـرات بتوبـة صادقـة منـك تُمحـى، بـل وتُبـدل السـيئات حسـنات، ويجتبيـك الله، ويؤويـك إليـه، ويُرقيـك عنـده لأعـلى المنـازل.

فقط قم وسارع وسابق إلى الله.

كن مع هؤلاء الذين يبتغون الوسيلة أيهم أقرب.

سيقربك يقينا إليه.

---

(١٣) أوردها الذهبي في «**تاريخ الإسلام**» (٢/ ٩٣٤).
(١٤) ذيل طبقات الحنابلة (٢/ ٢٨٣).



وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ



قد يغفر أحدنا لمخطىء في حقه، قد يسامحه، قد يعفو عنه، لكن أن يحبه، أيمكن هذا؟

هذا مستبعد من البشر، خاصة إذا توالت الأخطاء والزلات.

لكن رب العالمين، ليس كمثله شيء في غفرانه وعفوه.

إنه ليس فقط يغفر، ويبدل السيئة حسنة، بل ويحب عبده التائب إليه.

قال الله: ﴿وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ﴾. سورة البروج (١٤)

قال الله: ﴿وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ﴾. سورة هود (٩٠)

جمع الله بين اسميه الغفور والرحيم مع الودود، ليعلمك أنه يغفر لك بعد ذنبك ويحبك على ما كان منك، وأنه يرحمك بتوبتك إليه ويحبك على ما كان منك.

أولم تسمع قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾. سورة البقرة (٢٢٢)

وهو الرحمن الرحيم



رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما
وسعت رحمته كل شيء
سبقت رحمته غضبه
جعل الرحمة مائة جزء، جزء منها شمل الخلق في هذه الدنيا،
وما تبقى يرحم به عباده يوم القيامة، فما ظنك؟
أرحم بالعبد من الوالدة بولدها، فما ظنك؟
ظننا بربنا أحسن الظن وأطيبه، فهو أهل التقوى وأهل المغفرة

فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ



الله رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما.

الله أوجد جميع خلقه، وهو يعلم أنهم لا غنى لهم عنه طرفة عين، لذا تولى تدبير أمورهم رحمة بهم، فهم أعجز وأضعف من أن يدبروا أمور أنفسهم.

رحمته وسعت كل شيء، وسع كل شيء رحمة وعلما، لا يوجد مخلوق إلا وهو أثر من آثار رحمته، وشملته رحمته.

قال الرحمن الرحيم: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾. سورة غافر (٧)

قال الرحمن الرحيم: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾. سورة الأعراف (١٥٦)

جعل الله الرحمة مائة جزء، كل جزء منها يملأ ما بين السماء والأرض، جزء واحد منها شمل جميع خلقه، حتى البهائم.

قال النبي ﷺ: «جَعَلَ اللهُ الرَّحْمَةَ مِائَةَ جُزْءٍ، كُلُّ رَحْمَةٍ طِبَاقَ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَأَمْسَكَ عِنْدَهُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ جُزْءًا، وَأَنْزَلَ فِي الْأَرْضِ مِنْهَا رَحْمَةً وَاحِدَةً بَيْنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْبَهَائِمِ وَالْهَوَامِّ، فَبِهَا يَتَعَاطَفُونَ، وَبِهَا يَتَرَاحَمُونَ، وَبِهَا تَعْطِفُ الْوَحْشُ عَلَى وَلَدِهَا، حَتَّى تَرْفَعَ الْفَرَسُ حَافِرَهَا عَنْ وَلَدِهَا، خَشْيَةَ أَنْ تُصِيبَهُ، وَأَخَّرَ اللهُ تِسْعًا وَتِسْعِينَ رَحْمَةً، يَرْحَمُ بِهَا عِبَادَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[١].

وسبحانه كتب على نفسه الرحمة، وسبقت رحمته غضبه، وكتب بذلك كتابا فهو موضوع فوق العرش.

قال الله: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. سورة الأنعام (١٢)

ويقول النبي ﷺ: «لَمَّا قَضَى اللهُ الخَلْقَ كَتَبَ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ العَرْشِ إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي»[٢].

وخزائن رحمته بيده، لا يملكها غيره، فإن أراد بعبد رحمة فمن ذا الذي يمسك رحمة الرحمن الرحيم.

قال الله: ﴿مَا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. سورة فاطر (٢)

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٠٠)، ومسلم (٢٧٥٢)، (٢٧٥٣).

(٢) أخرجه البخاري (٣١٩٤)، ومسلم (٢٧٥١).





ولأنه يعلم شُح الإنسان وتصرفه على مقتضى الهوى لم يجعل مفاتيح خزائن رحمته لأحد من خلقه.

قال الله: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾. سورة الإسراء (١٠٠)

وكل أفعاله فمن آثار رحمته، فيحيي ويميت برحمته، ويعز ويذل برحمته، ويعطي ويمنع برحمته، ويقبض ويبسط برحمته، ويخفض ويرفع برحمته، وينصر ويخذل برحمته.

فهو سبحانه استوى على عرشه برحمته، كما قال سبحانه: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾. سورة طه (٥)

و يخلق خلقه برحمته، ويرزق برحمته، ويرسل الرياح وينزل الغيب برحمته.

وبرحمته جعل الليل لخلقه ليسكنوا فيه، وجعل النهار معاشا، يبتغون فيه من فضله.

قال الله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣)﴾. سورة القصص

ومن رحمته سخر للإنسان ما به تقوم حياته.

قال الله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾. سورة الحج (٦٥)

وبرحمته يرسل الريح فتجري الفلك في البحر بأمره ليبتغ الناس من فضله ورزقه، ولو شاء لجعلها ساكنة فظلت رواكد في البحر.

قال الرحمن الرحيم: ﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢) وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنْقَذُونَ (٤٣) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ (٤٤)﴾ يس

قال الله: ﴿رَبُّكُمُ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾. سورة الإسراء(٦٦)

وبرحمته يمسك ذاك الطائر الذي يطير في السماء بحثا عن رزقه ومعاشه.

قال الله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾. سورة الملك(١٩)

وسخر الأنعام لتحمل العباد وأثقالهم إلى البلاد البعيدة، رأفة منه ورحمة بخلقه.

قال الله: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾. سورة النحل (٧)



وجعل الليل سكنا رحمة منه بخلقه، وجعل النهار مضيئا ليبتغ الناس من فضله، برحمته.

قال الله: ﴿وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾. سورة القصص(٧٣)

وينزل الغيث رحمة منه بخلقه بعدما قنطوا، ويحيي به الأرض بعد موتها.

قال الله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ﴾. سورة الشورى(٢٨)

قال الله: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٥٠)﴾ سورة الروم

وأسبغ على خلقه نعمه ظاهرة وباطنة فلا تُعد ولا تُحصى، فكل ذرة من نعمه على خلقه صغيرها وكبيرها رحمة منه بهم.

قال الله: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. سورة النحل (١٨)

خَلَقَك لِيَرْحَمك.

لَمَّا خَلَقَ اللهُ آدَمَ وَنَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ عَطَسَ فَقَالَ: الحَمْدُ للهِ، فَحَمِدَ اللهَ بِإِذْنِهِ، فَقَالَ لَهُ رَبُّهُ: رَحِمَكَ اللهُ يَا آدَمُ[٣].

هذا أول ما طرق سمع آدم: أن يسمع الله يقول له: رحمك الله يا آدم.

لأن الله خلقه ليرحمه، خلقه برحمته ليرحمه.

قال الله: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ..﴾ (١١٩) هود

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والضحاك: للرحمة خلقهم[٤].

برحمته خلق الإنسان، وعلمه البيان، أنطقه، وعلمه كيف يفصح عما في نفسه، وبدأ بتعليمه القرآن مع أن خلقه له أسبق في الزمان، لكن لأن رحمته به بتعليمه القرآن أعظم من خلقه له، فالإنسان بلا قرآن أضل من الأنعام.

قال الله: ﴿الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤)﴾. سورة الرحمن

وبرحمته يحفظ خلقه من الأذى، كلّف بهم ملائكة يحفظونه بأمره من كل شر، فإذا شاء سبحانه

---

(٣) أخرجه الترمذي في «سننه» (٣٣٦٨)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الترمذي» (٢٦٨٣).
(٤) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٢/ ٦٣٩).

الـضر كان مـا أراد.

قـال الله: ﴿قُـلْ مَـنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُـمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾. سورة الأنبياء (٤٢)

ومن رحمته خلق للإنسان زوجة تؤنسه، وجعل بين الزوجين المودة والرحمة.

قـال الله: ﴿وَمِـنْ آيَاتِـهِ أَنْ خَلَـقَ لَكُـمْ مِـنْ أَنْفُسِـكُمْ أَزْوَاجًـا لِتَسْـكُنُوا إِلَيْهَـا وَجَعَـلَ بَيْنَكُـمْ مَـوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾. سـورة الـروم (٢١)

ويقدر عليهم البلاء برحمته، يطهرهم به، ويرفع به درجاتهم.

قـال الله: ﴿أَأَتَّخِـذُ مِـنْ دُونِـهِ آلِهَـةً إِنْ يُـرِدْنِ الرَّحْمَـنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَـنِّي شَـفَاعَتُهُمْ شَـيْئًا وَلَا يُنْقِـذُونِ (٢٣)﴾ سـورة يس

وينزل دمع العين برحمته، جعل البكاء رحمة منه بخلقه، يخفف به آلامهم

لما مـات إبراهيـم بـن نبينـا ﷺ بكـى، فَقَـالَ سَـعْدٌ: يَـا رَسُـولَ اللهِ، مَـا هَـذَا؟ فقـال: «**هَـذِهِ رَحْمَـةٌ جَعَلَهَـا اللهُ فِي قُلُـوبِ عِبَـادِهِ، وَإِنَّـمَا يَرْحَـمُ اللهُ مِـنْ عِبَـادِهِ الرُّحَمَـاءَ**»[٥].

ويسمع دعاء خلقه، ويستجيب لهم ويعطيهم سؤلهم رحمة بهم.

قال الله: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢) إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣)﴾

هذه الرحمات تعم جميع خلقه، كل منهم يعيش بها وفيها.

وهنـاك رحمـات أخـرى، يخـرج الله بهـا خلقـه مـن الضـلال إلى الهـدى، ومـن الظلـمات إلى النـور، فهـو سـبحانه يعلـم تلـك النفـوس، ويعلـم جهلهـا وظلمهـا، فبرحمتـه أنـزل الكتـب، وأرسـل الرسـل.

قـال الله: ﴿هُـوَ الَّذِي يُصَـلِّي عَلَيْكُـمْ وَمَلَائِكَتُـهُ لِيُخْرِجَكُـمْ مِـنَ الظُّلُمَـاتِ إِلَى النُّـورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِـينَ رَحِيمًا﴾. سـورة الأحـزاب (٤٣)

قـال الله: ﴿ثُـمَّ آتَيْنَـا مُـوسَى الْكِتَـابَ تَمَامًـا عَلَى الَّذِي أَحْسَـنَ وَتَفْصِيـلًا لِـكُلِّ شَيْءٍ وَهُـدًى وَرَحْمَـةً لَعَلَّهُـمْ بِلِقَـاءِ رَبِّهِـمْ يُؤْمِنُـونَ﴾. سـورة الأنعـام (١٥٤)

قـال الله: ﴿حـم (١) وَالْكِتَـابِ الْمُبِـينِ (٢) إِنَّـا أَنْزَلْنَـاهُ فِي لَيْلَـةٍ مُبَارَكَـةٍ إِنَّـا كُنَّـا مُنْذِرِيـنَ (٣) فِيهَـا يُفْـرَقُ كُلُّ أَمْـرٍ حَكِيـمٍ (٤) أَمْـرًا مِـنْ عِنْدِنَـا إِنَّـا كُنَّـا مُرْسِـلِينَ (٥) رَحْمَـةً مِـنْ رَبِّـكَ إِنَّـهُ هُـوَ السَّـمِيعُ الْعَلِيـمُ (٦)﴾ سـورة الدخـان

قال الله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ (١٠٧)﴾ سورة الأنبياء

وهـذا القـرآن مـن أعظـم رحماتـه بعبـاده في الدنيـا، فسـبحانه لعلمـه ضعـف الإنسـان وجهلـه واتباعـه لهـواه، وترصـد الشـياطين لـه لإغوائـه، رحمـه فأنـزل القـرآن هـدى ورحمـة وشـفاء.

---

(٥) أخرجه البخاري (١٢٨٤)، ومسلم (٩٢٣).

قال الله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾. سورة العنكبوت (٥١)

قال الله: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ (٨٦)﴾ سورة القصص

قال الله: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٩)﴾ سورة الحديد

ثم شرع لهم برحمته ما فيه صلاحهم في الدنيا، ونعيمهم في الآخرة.

ولم يجعل عليهم في الدين من حرج، بل جعله يسرا لا حرج فيه، تخفيفا منه على خلقه ورحمة بهم.

قال الله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾. سورة البقرة (١٧٨)

وحرم على الإنسان قتل نفسه، رحمة به.

قال الله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾. سورة النساء (٢٩)

وفرض الحجاب على نساء المؤمنين، رحمة بهم حتى لا يؤذين من الفساق والفجار.

قال الله: ﴿يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ الله غَفُورًا رَحِيمًا﴾. سورة الأحزاب (٥٩)

وتجاوز عن الخطأ الذي لم يقصده العباد، رحمة بهم.

قال الله: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ الله غَفُورًا رَحِيمًا﴾. سورة الأحزاب (٥)

وأباح المحرمات عند الضرورة، رحمة منه بعباده.

قال الله: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. سورة البقرة (١٧٣)

ثم برحمته يحلم على عباده فلا يعاجلهم بالعذاب.

قال الله: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ الله بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ (٤٥) أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٤٧)﴾ سورة النحل

قال الله: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ

﴿لَـنْ يَجِـدُوا مِـنْ دُونِـهِ مَوْئِـلًا﴾. سورة الكهف (٥٨)

لقد عظمت رحمة الله حتى أن جبريل عليه السلام لما رأى فرعون وهو في النزع الأخير، يموت غرقا، وهو يقول: آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل. خشي جبريل أن تدركه الرحمة فأخذ من طين البحر يدسه في فمه، مع أنه يعلم أنه لا ينفعه الإيمان الآن إن آمن، فإن شرط قبول الإيمان أن يكون قبل حضور الأجل، ثم هو لم يؤمن بل وهو يتكلم يفوح كبرا، إلا أن جبريل عليه السلام يدرك عظيم رحمة الله.

يقول النبي ﷺ: «قَالَ لِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: لَوْ رَأَيْتَنِي وَأَنَا آخُذُ مِنْ حَالِ الْبَحْرِ فَأَدُسُّهُ فِي فِي فِرْعَوْنَ مَخَافَةَ أَنْ تُدْرِكَهُ الرَّحْمَةُ»(٦).

وبرحمته يهدي من أقبل عليه، ويصرف عنه كيد الشيطان، وإضلال المجرمين.

قال الله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾. سورة النساء (٨٣)

قال الله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ﴾. سورة النساء (١١٣)

هو من عصمك برحمته، ولولا رحمته لهلك العبد بين وساوس النفس ونزغات الشياطين.

عندما ينزل العبد قبره، ويفتح له باب إلى الجنة يأتيه من طيبها ونعيمها، تُريه الملائكة بيتا في النار، ثم تقول له: «هَذَا بَيْتُكَ كَانَ لَكَ فِي النَّارِ، وَلَكِنَّ اللهَ عَصَمَكَ وَرَحِمَكَ، فَأَبْدَلَكَ بِهِ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ»(٧).

لذا كان النبي ﷺ يقول: «دَعَوَاتُ الْمَكْرُوبِ «اللَّهُمَّ رَحْمَتَكَ أَرْجُو، فَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ»(٨).

وبرحمته يُزكي النفوس، ويطهر القلوب.

قال الله: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَالله سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. سورة النور (٢١)

قال الله: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. سورة يوسف (٥٣)

وبرحمته يجعل لك من يعينك على طاعته، فهذا موسى عليه السلام سأل ربه معينا له في دعوته الطاغية فرعون، فوهب الله له من رحمته أخاه هارون نبيا.

قال الله: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾. سورة مريم (٥٣)

(٦) أخرجه أبو داود الطيالسي في «مسنده» (٢٧٤٠)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٠١٥).
(٧) أخرجه أبو داود في «سننه» (٤٧٥١)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣/ ٣٣١).
(٨) أخرجه أبو داود في «سننه» (٥٠٩٠)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٥٤٢).



وبرحمته يعين عباده على بلاءات الدنيا، ويعينهم في حوائجهم، ويمدهم بمدده.

فهذا يعقوب عليه السلام، لما فقد يوسف استعان بربه الرحمن، قال الله: ﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾. سورة يوسف (١٨)

يحفظهم في أولادهم برحمته، فهذان طفلان يتيمان، كان أبوهما صالحا، ترك أبوهما لهما كنزا تحت جدار، كاد أن يسقط فيظهر الكنز بين أهل قرية في غاية البخل، وحينئذ قد يضيع المال، والأطفال صغار، ليس لهم أحد، لكن يدركهم الله برحمته فيرسل إليهم نبيا من أولي العزم مع الخضر عليه السلام ليقيم الجدار، ويحفظ المال، كل هذا برحمته.

قال الله: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾. سورة الكهف (٨٢)

ويبتلي برحمته، ويرفع البلاء برحمته، ويعوض عباده ما فقدوه برحمته.

هذا أيوب عليه السلام، يشفيه ربه برحمته، ويؤتيه أهله الذين ماتوا في حياته، بل ومثلهم معهم، رحمة منه سبحانه

قال الله: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (٨٤)﴾ سورة الأنبياء

وينجي عباده المؤمنين من كل كرب وغم، ومن كل ظالم غشوم.

قال الله: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾. سورة الأعراف (٧٢)

قال الله: ﴿وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾. سورة يونس (٨٦)

وبرحمته يتوب على عبده، فهذا آدم مع أنه عصى ربه بعد كل هذا التكريم إلا أنه تاب عليه وهدى.

قال الله: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾. سورة البقرة (٣٧)

فبرحمته يدخلك في رحمته، فلا غنى لك عن رحمته طرفة عين.

قال الله: ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾. سورة الأعراف (١٥١)

قال الله: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾. سورة النمل (١٩)

هذا مصباح نور صغير جدا من ذاك الجزء الذي ملأ الكون رحمة، فكيف تكون رحماته يوم القيامة!





لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا



بينما النبي ﷺ بين أصحابه، إذ به يرى امرأة تبحث عن ولده، فقدته بين الناس، تتفرس الوجوه، تنظر يمينا ويسارا، تذهب وتجيء، يكاد قلبها ينخلع من مكانه، وفجاة وجدته، أخذته على الفور، ألصقته ببطنها، وألقمته ثديها ترضعه، احتوته بكلها، وكأن الرحمة كلها غُرست فيها ففاضت.

وهنا يقول النبي ﷺ لأصحابه: «أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟.

قال الصحابة: لَا وَاللهِ، وَهِيَ تَقْدِرُ عَلَى أَنْ لَا تَطْرَحَهُ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**للهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا**»(٩).

كل غمضة عين مرّت عليك في حياتك كان الله أرحم بك وأرأف من والدتك.

لو كان ثم خيارين، أحدهما أن يختار الله لك، أو تختار لك والدتك، وذلك في كل شئون حياتك، لكان الله أرحم بك منها، هذا مع كمال علمه وعظيم حكمته.

وكل ما استشعره قلبك من ألطاف رحمته في الدنيا، بك أو بجميع الخلق، هذا جزء من مائة جزء من رحمات الرحمن الرحيم.

فتعال أحدثك الآن عن شيء من رحماته يوم القيامة، فهذا أمر لا تصف الكلمات حسنه وجماله.

(٩) أخرجه البخاري (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٧٥٤).



يُؤمِّن أولياءه من الفزع
ويؤويهم في ظل عرشه
ويبيض وجوههم
ويثقل موازينهم
ويدخل سادتهم جنته بلا حساب ولا عذاب
ويحاسب بقيتهم الحساب اليسير
فيستر عبده، ويلقي عليه كنفه، ويتجاوز عن زلته.
ويأذن بالشفاعة، ويخرج من النار بأدنى أدنى أدنى
مثقال ذرة.
وتدرك رحماته من أوبقته ذنوبه في الجحيم، فيخرجه
بلا إله إلا الله

وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ



ذاك اليوم العظيم الذي يجمع الله فيه الخلائق للحساب والجزاء، يُحشر كل شيء حتى البهائم.

تشيب الرؤوس، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد.

تدنو الشمس من رؤوس العباد، كمقدار ميل(١)، وهم وقوف في وهج الشمس الحارقة، حفاة عراة(٢)، ويكون الناس على قدر أعمالهم في العرق، فمنهم من عرقه إلى كعبيه، ومنهم من يكون إلى ركبتيه، ومنهم إلى حقويه، ومنهم من يلجمه العرق إلجاما.

ثم يؤتى بجهنم لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها(٣). يعني ٤ مليار و٩٠٠ مليون مَلَك يجرونها

وبينما الناس وقوف، إذ بالنار يخرج منها عُنُقٌ، لَهُ عَيْنَانِ يُبْصِرُ بِهِمَا، وَأُذُنَانِ يَسْمَعُ بِهِمَا، وَلِسَانٌ يَنْطِقُ بِهِ، فَيَقُولُ: إِنِّي وُكِّلْتُ بِثَلَاثَةٍ: بِكُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ، وَبِكُلِّ مَنِ ادَّعَى مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ، وَالْمُصَوِّرِينَ»(٤).

في أرض المحشر تخرج ألسنة النار فتأخذ من شاء الله من أرض المحشر، تنطوي عليهم فتقذفهم في غمرات جهنم(٥).

هذا اليوم العظيم مقداره خمسين ألف سنة، ترى فيه كل أمة جاثية، خشعت الأصوات للرحمن، فلا تسمع إلا همسا.

لكن في وسط هذه الأهوال العظام، يسمع المؤمنون منادي الرحمن يقول: ﴿يَاعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٦٨) الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ (٦٩)﴾. الزخرف

لا خوف، لا حزن، من اليوم أمن لا خوف بعده، فرح لا حزن بعده.

هؤلاء الذين آمنوا بالله، واستسلموا لأمره، وخضعوا لشرعه، فلم يكونوا عبيدا إلا له، هم اليوم آمنون فرحون.

قال الله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾. النمل (٨٩)

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٤).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٢٧)، ومسلم (٢٨٥٩).

(٣) أخرجه مسلم (٢٨٤٢).

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (٨٤٣٠)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٥١٢).

(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (١١٣٥٤)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٦٩٩).





قال الله: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣)﴾. الأنبياء

من فزع يومئذ آمنون، لا يحزنهم الفزع الأكبر.. اطمئن أيها المؤمن، الله تولاك برحمته في الدنيا، ولن يتخلى عنك يوم القيامة.

يقول النبي ﷺ: «**لَا يَتَوَلَّى اللهُ عَبْدًا فَيُوَلِّيَهُ غَيْرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[٦].

قد كنت تخاف مقام ربك في الدنيا، تطيعه وأنت مشفق، تأتي الطاعة وقلبك وَجِلٌ تخشى ألّا تُقبل، منعك حبك لربك وخوفك من عقابه أن تتبع شهواتك، هذا الخوف سيجزيك الله به الأمن يوم القيامة.

يقول الملك الجليل في الحديث القدسي: «**وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَأَمْنَيْنِ: إِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[٧].

لا يجمع عليك أمنين وخوفين، تخافه في الدنيا خوفا يحجزك عما يغضبه فيؤمنك يوم الفزع الأكبر، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان.

هذا اليوم الطويل الذي هو مليء بالأهوال يمرُّ على المؤمنين كما بين الظهر والعصر.

خمسون ألف سنة تمرُّ على المؤمن مثل ثلاث ساعات، بل أقل.

يقول النبي ﷺ: «**يَوْمُ الْقِيَامَةِ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كَقَدْرِ مَا بَيْنَ الظُّهْرِ وَالْعَصْرِ**»[٨].

ويقول النبي ﷺ: «**يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ مِقْدَارَ نِصْفِ يَوْمٍ مِنْ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، فَيَهُونُ ذَلِكَ الْيَوْمُ عَلَى الْمُؤْمِنِ كَتَدَلِّي الشَّمْسِ لِلْغُرُوبِ إِلَى أَنْ تَغْرُبَ**»[٩].

وحتى هذه الساعات الثلاث، أو تلك الفترة التي تتدلى فيها الشمس للغروب، لن يتخلى الله عنك فيها إن كنت مؤمنا، بل يؤويك في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، فلا حرّ ولا عرق، أمن وظل.

---

(٦) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٤٥٦٦)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٣٨٧).

(٧) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٦٤٠)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٧٤٢).

(٨) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢٨٣)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٤٥٦).

(٩) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٦٠٢٥)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٥٨٩).



هل أعددت الظل؟ هل تشتاق إلى الرِّي؟



اختر لنفسك مقعدا في ظل عرش الرحمن يوم القيامة.

تستطيع أن تكون إماما عادلا، في ولايتك إن ولاك الله أمرا حتى لو كان صغيرا، عدلك سبيلك إلى الظل يوم القيامة.

أيها الشاب أمامك فرصة عظيمة لتحجز مقعدا في ظل العرش، كن صالحا، ودع عنك نزوات الشباب، كن في طاعة الملك في هذه الدنيا، يؤويك في ظل عرشه.

أيها المحب المتعلق قلبه ببيت الله، لا تخرج منه حتى تعود إليه، كالوتد الصامد فيه، هنيئا لك ظل الرحمن.

يا من أحببت في الله ولله، لا لدنيا زائلة، ولا لمصلحة فانية، أنت في ظل العرش.

يا من أخلصت صدقتك يوم أخرجتها إرضاء لمولاك، فلم تخبر بها أحدا، حتى أقرب الناس إليك، هنيئا لك الظل.

يا من عرضت له فتنة النساء، تَذْكُر تلك الليلة التي جاءتك فيها امرأة جميلة فاتنة، في مكالمة، في رسالة، أو في عمل، أو في شارع، تزينت وتجملت وتعطرت، تقول هيت لك، فقلت معاذ الله، وفررت بدينك من الفتن، قائلا: إن أخاف الله. أنت لما تركت هذا لله كنت في ظل عرش الرحمن.

يا من أسدل الليل عليك سدوله، فقمت تناجي ربك، تذكرت شوقك إليه، ووجلك من عقابه، فذرفت عينك الدموع، دموعك سقيا ظلك يوم القيامة.

يا من رحم المدين المعسر فأنظره، أو سامحه، هذه الدراهم المعدودة لا تضيع عند الله، يؤويك بها في ظل عرشه يوم القيامة.

يقول النبي ﷺ: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الإِمَامُ العَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ، أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ**»[١٠].

ويقول النبي ﷺ: «**مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ عَنْهُ، أَظَلَّهُ اللهُ فِي ظِلِّهِ**»[١١].

وليس ظلا فحسب، بل سُقيا تروي بها ظمأك.

---

(١٠) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).
(١١) أخرجه مسلم (٣٠٠٦).





برحمته جعل الله لكل نبي يوم القيامة حوضا، يجمع حوله المؤمنين من أمته، يسقيهم، فيرتوون بفضل الله ورحمته.

يقول النبي ﷺ: «**إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوْضًا وَإِنَّهُمْ يَتَبَاهَوْنَ أَيُّهُمْ أَكْثَرُ وَارِدَةً، وَإِنِّي أَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ وَارِدَةً**»(١٢).

وأعظم حوض وأطيبه يوم القيامة حوض نبينا ﷺ.

وكأني به ﷺ واقف عليه، وُضعت عند الحوض الآنية، كعدد نجوم السماء.

ماءه أبيض من الثلج، وأحلى من العسل الممزوج باللبن، وريحه أطيب من المسك، من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبدا (١٣).

والنبي ﷺ يعرفنا بنور في أعضاء الوضوء، يُنادي علينا أن تعالوا، أقبلوا.

يقول النبي ﷺ: «**إِنَّ حَوْضِي أَبْعَدُ مِنْ أَيْلَةَ مِنْ عَدَنٍ لَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ الثَّلْجِ، وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ بِاللَّبَنِ، وَلَآنِيَتُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ النُّجُومِ وَإِنِّي لَأَصُدُّ النَّاسَ عَنْهُ، كَمَا يَصُدُّ الرَّجُلُ إِبِلَ النَّاسِ عَنْ حَوْضِهِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ أَتَعْرِفُنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «نَعَمْ لَكُمْ سِيمَا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمَمِ تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرًّا، مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ**»(١٤).

وأول من يرد هذا الحوض أولئك الفقراء من المهاجرين، الذين عضهم الفقر بنابه، إلا أنهم لم يمنعهم فقرهم عن طاعة الله، ولم تحملهم فاقتهم على أخذ مال حرام، صبروا لله مع شدة الحاجة، كانوا يُدفعون عن الأبواب، إن تقدم أحدهم ينكح امرأة لا تقبل به زوجا لفقره، قد لا يجد ثوبا منعما، ولا فراشا وثيرا ممهدا، لكنه وجد الله فأغناه عن كل شيء.

يقول النبي ﷺ: «**حَوْضِي مِنْ عَدَنَ إِلَى عَمَّانَ الْبَلْقَاءِ، مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ وَأَحْلَى مِنَ الْعَسَلِ، وَأَكْوَابُهُ عَدَدُ نُجُومِ السَّمَاءِ، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ شَرْبَةً لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهَا أَبَدًا، أَوَّلُ النَّاسِ وُرُودًا عَلَيْهِ فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ، الشُّعْثُ رُءُوسًا، الدُّنْسُ ثِيَابًا الَّذِينَ لَا يَنْكِحُونَ الْمُتَنَعِّمَاتِ وَلَا تُفْتَحُ لَهُمُ أَبْوَابُ السُّدَدِ**»(١٥).

و بينما ينادي رسول الله ﷺ على أمته ليشربوا من حوضه، يعرفهم بسيماهم من أثر الوضوء، فيقدمون عليه إلا أن الملائكة تصدهم عن الحوض، تطردهم عن الورود عليه، فيقول النبي ﷺ: «أَيْ رَبِّ أَصْحَابِي.

فيقال: لاَ تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ»(١٦).

أحدثوا بعدك: زادوا في دين الله، فابتدعوا دينا وشعائر وعبادات ما أنزل الله بها من سلطان.

---

(١٢) أخرجه الترمذي في «سننه» (٢٤٤٣)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٥٨٩).

(١٣) أخرجه مسلم (٢٢٩٢).

(١٤) أخرجه مسلم (٢٤٧).

(١٥) أخرجه الترمذي في «سننه» (٢٤٤٤)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٤٧٢).

(١٦) أخرجه البخاري (٧٠٤٩)، ومسلم (٢٤٧).

أخبرني بربك: أي شيء يستحق أن تغامر لأجله فتطرد عن حوض رسول الله ﷺ؟!

خير الهدي هدي رسول الله ﷺ، فكن على أثره، لا غلو، ولا تفريط.

في كل طاعة، وعند كل عبادة، قف وسل أهل العلم: أهذه الطاعة فعلها رسول الله ﷺ؟

فإن وجدت أثرا ودليلا فاستعن بالله وتعبد، وإن لم تجد إلا مواجيد وأذواق فلان وفلان، فقف، واعلم أن دينك لا يتحمل المغامرة، وأن الزود عن حوض النبي ﷺ ثقيل.

وإن جاءك الشيطان ليوهمك أنك تزيد تعبدا وقربا بما صنعت، فقل: كان النبي ﷺ أحرص مني على طاعة الله، وأعبد مني لربه ومولاه، فلو كان خيرا لسبقنا إليه، ولدلنا عليه.

وإن وسوس لك قائلا: أترى الله يعذبك على شيء تتقرب به إليه؟

فقل له جواب سعيد بن المسيب رحمه الله.

رأى سعيد بن المسيب رحمه الله رَجُلًا يُصَلِّي بَعْدَ طُلُوعِ الْفَجْرِ أَكْثَرَ مِنْ رَكْعَتَيْنِ يُكْثِرُ فِيهَا الرُّكُوعَ، وَالسُّجُودَ فَنَهَاهُ، فَقَالَ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ يُعَذِّبُنِي اللهُ عَلَى الصَّلَاةِ؟ قَالَ: «**لَا وَلَكِنْ يُعَذِّبُكَ عَلَى خِلَافِ السُّنَّةِ**»(١٧).

موعدنا حوض رسول الله ﷺ، بالله عليكم لا يتخلفن أحد منكم عن حوضه، تلك الأباريق التي كالنجوم تتلألأ تنتظركم يا أمة محمد ﷺ القائل: «**وَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْحَوْضُ**»(١٨).

---

(١٧) أخرجه عبد الرزاق في «مصنفه» (٤٧٥٥)، وصححه الشيخ الألباني في «إرواء الغليل» (٢/ ٢٣٦).

(١٨) أخرجه البخاري (٤٠٤٢).





الكريمُ يتجاوز ... بلا حساب ولا عذاب



من تُحب أن يلي حسابك يوم القيامة؟

لو خيروك بين الله ووالدتك من تختار؟

يقول أبو سيف الزاهد: مَا أُحِبُّ أَنْ يَلِيَ حِسَابَنَا غَيْرُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ لِأَنَّ الْكَرِيمَ يَتَجَاوَزُ[١٩].

الله أكرم الأكرمين، هو من يتولى حساب خلقه، والكريم يتجاوز، والكريم إذا قدر عفا، والكريم لا يستقصي.

وأول هذا الكرم، أنه سيدخل أقواما لا يعلم عددهم إلا الله الجنة من غير حساب ولا عذاب.

لا يسألهم عن شيء، من أرض المحشر إلى جنان الخلد.

أولهم: سبعون ألفاً، وجوههم كالقمر، يمسك بعضهم بيد بعض، متماسكين، يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب.

قال النبي ﷺ: «يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي زُمْرَةٌ هِيَ سَبْعُونَ أَلْفًا، تُضِيءُ وُجُوهُهُمْ إِضَاءَةَ القَمَرِ[٢٠]، مُتَمَاسِكِينَ، آخِذٌ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، حَتَّى يَدْخُلَ أَوَّلُهُمْ وَآخِرُهُمُ الجَنَّةَ[٢١]، لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَابَ[٢٢]، هُمُ الَّذِينَ لَا يَتَطَيَّرُونَ، وَلَا يَسْتَرْقُونَ، وَلَا يَكْتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ[٢٣].

هؤلاء السبعين ألفا، ليس أمرا عسيرا أن تدركهم، أو تلحق ركابهم، القاسم المشترك بينهم هو عظيم تعلق قلوبهم بالله وحده

لا يسترقون: لا يسألون غيرهم الرقية، بل يرقي نفسه بنفسه، يقصد ربه وحده في شفاءه.

لا يتطيرون: لا أثر لطائر ولا لأبراج ولا لأشخاص على قلبه فعلا وتركا، موقن أنه لا خير إلا خير ربه، وهو وحده بيده المقادير، يدبر شئون عباده، لا يتشاءم لأجل أي شيء، قبلة قلبه السماء، يبغي الخير من رب الأرض والسماء.

لا يكتوون: لا يعذبون أنفسهم بالكي دفعا لبلاء متوقع حدوثه، كما كان يفعل أهل الجاهلية، فلا دخل للنار في دفع أقدار الله، فإن الله إذا قدّر شيئا كان، ولا يدخل في ذلك التداوي بالكي بعد وقوع الداء.

---

(١٩) أخرجه البيهقي في «**شعب الإيمان**» (٢٥٧).

(٢٠) أخرجه البخاري (٥٨١١)، ومسلم (٢١٦).

(٢١) أخرجه البخاري (٦٥٤٣)، ومسلم (٢١٩).

(٢٢) أخرجه البخاري (٦٥٤١)، ومسلم (٢٢٠).

(٢٣) أخرجه البخاري (٥٧٥٢)، ومسلم (٢١٨).



وعلى ربهم يتوكلون: لا يثقون إلا في الله، لا في عقولهم، ولا في قوتهم، ولا في صحبتهم، ولا في عدتهم، ولا في أي شيء، لا يركنون إلا إلى الله، موقنون أن الله هو من بيده مقاليد السموات والأرض، وأن كل شيء، عقولهم وأموالهم وأولادهم وسلطانهم وعلومهم، هي محض أسباب فقط، يأخذون بها لأن الله أمرهم بذلك، وهم متبرءون من حولهم وقوتهم إلى حول الله وقوته، ثقة في الله وحده.

وقد تقول: سبعون ألفا، أين أنا منهم، لقد نفذوا يقينا من الصحابة والتابعين؟!!

لا والله، إليك البشرى...

يقول النبي ﷺ: «**وَعَدَنِي رَبِّي سُبْحَانَهُ أَنْ يُدْخِلَ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا، لَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ وَلَا عَذَابَ، مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعُونَ أَلْفًا، وَثَلَاثُ حَثَيَاتٍ مِنْ حَثَيَاتِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ**»(٢٤).

٧٠ مليون، كرم وفضل من رب العالمين فوق السبعين ألفا، بل ومعهم ثلاث حثيات من حثيات الكريم.

ولك أن تتخيل كم يكون العدد عندما يحثو رب العالمين بيده ثلاث حثيات، ألم أقل لك هذا كرم أكرم الأكرمين.

ثم ليس فقط أولئك الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون، بل أزيدك أصنافا أخرى، لن تخطئك صفة منها إن شاء الله.

مِن هؤلاء: كلُ من ضحك الله إليه في الدنيا.

ربنا يضحك ضحكا يليق بجلاله وكماله، وقد قال النبي ﷺ: «**إِنَّ رَبَّكَ إِذَا ضَحِكَ إِلَى قَوْمٍ فَلَا حِسَابَ عَلَيْهِمْ**»(٢٥).

فمن هؤلاء الذين شرفوا بضحك رب العالمين لهم؟

أولهم: هذا الشهيد الذي قاتل في سبيل الله حتى قُتل، لكنه لما لقي أعداء الله تقدم نحوهم ولم يلتفت، ثبت ولم يفر.

يقول النبي ﷺ: «**الَّذِينَ إِذَا لَقَوُا الْعَدُوَّ لَمْ يَلْفِتُوا وُجُوهَهُمْ حَتَّى يُقْتَلُوا أُولَئِكَ الَّذِينَ يَتَلَبَّطُونَ فِي الْغُرُفَاتِ الْعُلَا مِنَ الْجَنَّةِ وَيَضْحَكُ رَبُّكَ إِلَيْهِمْ فَإِذَا ضَحِكَ رَبُّكَ إِلَى عَبْدٍ فِي مَوْطِنٍ فَلَا حِسَابَ عَلَيْهِ**»(٢٦).

وكيف لا، وقد ضحوا بأنفسهم لله تعالى، هانت عليهم الدنيا، هانت عليهم أموالهم وأزواجهم وأولادهم.

لا تظن أنّ الأمر هين، لا والله، ما أسهل الدعاوى، إذا اصطفت الصفوف يظهر من بكى ممن تباكى.

كثير منا يجبن لأجل ولده، أو لا يتصور فراق زوجه، وربما لا يهون عليه ماله وكنزه، لكن أن يضحي

(٢٤) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (٤٢٨٦)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٤٥٩)..

(٢٥) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٤١٣١)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٥٥٨)..

(٢٦) أخرجه ابن أبي أسامة في مسنده كما في «بغية الباحث» (٦٣٣)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (١١٠٧).





بكل ذلك لله، فذاك شأن آخر.

يقول النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَدْعُو يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْجَنَّةَ، فَتَأْتِي بِزُخْرُفِهَا وَرِيِّهَا.

فَيَقُولُ: «**أَيْنَ عِبَادِيَ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ، وَقُتِلُوا فِي سَبِيلِي، وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي، وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِي، ادْخُلُوا الْجَنَّةَ**» فَيَدْخُلُونَهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَلَا عَذَابٍ.

فَتَأْتِي الْمَلَائِكَةُ فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا نَحْنُ نُسَبِّحُ لَكَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ، وَنُقَدِّسُ لَكَ مَنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ آثَرْتَهُمْ عَلَيْنَا؟

فَيَقُولُ الرَّبُّ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «هَؤُلَاءِ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِي، وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي.

فَتَدْخُلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ، فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ»(٢٧).

وثانيهم: من آثر الله على شهوته وراحته، حمله حبه لمناجاة ربه على أن يترك ما أحل الله له من زوجة حسناء، وفراش لين، فقام يصلي لربه، يناجيه، فأنسه بالله ونعيم ذكره أطيب عنده من الدنيا وما عليها.

قال النبي ﷺ: «**ثَلَاثَةٌ يُحِبُّهُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، يَضْحَكُ إِلَيْهِمْ وَيَسْتَبْشِرُ بِهِمْ، الَّذِي إِذَا انْكَشَفَتْ فِئَةٌ قَاتَلَ وَرَاءَهَا بِنَفْسِهِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِمَّا أَنْ يُقْتَلَ، وَإِمَّا أَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَيَكْفِيهِ، فَيَقُولُ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي كَيْفَ صَبَّرَ لِي نَفْسَهُ، وَالَّذِي لَهُ امْرَأَةٌ حَسْنَاءُ وَفِرَاشٌ لَيِّنٌ حَسَنٌ، فَيَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ فَيَذَرُ شَهْوَتَهُ فَيَذْكُرُنِي وَيُنَاجِينِي وَلَوْ شَاءَ لَرَقَدَ، وَالَّذِي يَكُونُ فِي سَفَرٍ وَكَانَ مَعَهُ رَكْبٌ فَسَهِرُوا وَنَصَبُوا ثُمَّ هَجَعُوا فَقَامَ فِي السَّحَرِ فِي سَرَّاءٍ أَوْ ضَرَّاءٍ**»(٢٨).

وثالثهم: ذاك التائب الذي اعترف لربه بذنبه وظلمه لنفسه، نادما عازما ألّا يعود، منكسر الربه يسأله غفرانه.

يقول النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَضْحَكُ إِلَى عَبْدِهِ إِذَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي؛ فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، قَالَ: عَبْدِي عَرَفَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ وَيُعَاقِبُ**»(٢٩).

الأمر يسير على من يسّره الله عليه، فقط اصدق مع ربك، وضع لك هدفا تسعين ربك على بلوغه، تصل إن شاء الله.

---

(٢٧) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢٣٩٣)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٥٥٩).

(٢٨) أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» (٩٨٣)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٤٧٨).

(٢٩) أخرجه ابن بطة في «الإبانة» (٧٥)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٦٥٣).



فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا



في ذات يوم سمعت أم المؤمنين عائشة ﵂ النبي ﷺ يقول: «**لَيْسَ أَحَدٌ يُحَاسَبُ إِلَّا هَلَكَ**».

قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ جَعَلَنِي اللهُ فِدَاءَكَ، أَلَيْسَ يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٨].

قَالَ: «**ذَاكَ العَرْضُ يُعْرَضُونَ وَمَنْ نُوقِشَ الحِسَابَ هَلَكَ**»[٣٠].

يقول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ (٧) فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا (٨) ﴾. الانشقاق

قد يفوتك أن تدخل الجنة بلا حساب ولا عذاب، لكن لا ينبغي أن يفوتك الحساب اليسير.

من رحمات الكريم يوم القيامة أنه يحاسب عباده المؤمنين حسابا يسيرا.

فما هو الحساب اليسير؟

سألت أمنا عائشة ﵂ النبي ﷺ هذا السؤال، فقال: «**أَنْ يَنْظُرَ فِي كِتَابِهِ فَيَتَجَاوَزَ عَنْهُ**»[٣١].

الكريم يتجاوز، لا يستقصي في حسابه، فما ظنك بأكرم الأكرمين.

موقف عظيم مهيب أن يُسأل الإنسان عن كل صغير وكبير.

عندما يُوقف العبد بين يدي ربه، ويعدد عليه نعمه، حتى يقول له: أَلَمْ أُكْرِمْكَ، وَأُسَوِّدْكَ، وَأُزَوِّجْكَ، وَأُسَخِّرْ لَكَ الخَيْلَ وَالإِبِلَ، وَأَذَرْكَ تَرْأَسُ، وَتَرْبَعُ، أَلَمْ أَجْعَلْ لَكَ سَمْعًا وَبَصَرًا وَمَالًا وَوَلَدًا، أَلَمْ أُزَوِّجْكَ فُلَانَةَ خَطَبَهَا الخُطَّابُ، فَمَنَعْتُهُمْ وَزَوَّجْتُكَ، أَلَمْ نُصِحَّ لَكَ جِسْمَكَ، وَنُرْوِيكَ مِنَ المَاءِ البَارِدِ، فَأَيْنَ شُكْرُ ذَلِكَ؟

هل تتخيل كيف يكون حياؤك يوم القيامة وأنت تُسأل عن النعم، فكيف لو سُئلت عن التقصير في الطاعات، وإتيان الزلات؟

من نوقش الحساب يهلك، لكن الله بكرمه يذكر عبده ببعض ذنوبه، حتى إذا أقرّ العبد، غفر له ما كان، وأدخله جنته برحمته.

يقول النبي ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ يُدْنِي المُؤْمِنَ، فَيَضَعُ عَلَيْهِ كَنَفَهُ وَيَسْتُرُهُ، فَيَقُولُ: أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا، أَتَعْرِفُ ذَنْبَ كَذَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ أَيْ رَبِّ، حَتَّى إِذَا قَرَّرَهُ بِذُنُوبِهِ، وَرَأَى فِي نَفْسِهِ أَنَّهُ هَلَكَ، قَالَ: سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَأَنَا أَغْفِرُهَا لَكَ اليَوْمَ، فَيُعْطَى كِتَابَ حَسَنَاتِهِ**»[٣٢].

سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم. رحمن رحيم.

---

(٣٠) أخرجه البخاري (٤٩٣٩)، ومسلم (٢٨٧٦).

(٣١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٤٢١٥)، وحسنه الشيخ الألباني في «ضعيف أبي داود» (٢/ ٤٧٢).

(٣٢) أخرجه البخاري (٢٤٤١)، ومسلم (٢٧٦٨).



أَلَمْ يُثَقِّلْ الله مَوَازِينَنَا



بينما أهل الجنة في النعيم، إذ نَادَى مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ.

فَيَقُولُونَ: وَمَا هُوَ؟ أَلَمْ يُثَقِّلْ الله مَوَازِينَنَا، وَيُبَيِّضْ وُجُوهَنَا، وَيُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَيُنْجِنَا مِنَ النَّارِ؟

قَالَ: فَيَكْشِفُ الحِجَابَ، فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَوَاللهِ مَا أَعْطَاهُمْ الله شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنْ النَّظَرِ، يَعْنِي إِلَيْهِ، وَلَا أَقَرَّ لِأَعْيُنِهِمْ»[٣٣].

من رحمات الكريم يوم القيامة أن يُثَقّل موازين عباده المؤمنين يوم القيامة.

إياك أن تظن أن عملك يثقل في الميزان بفضلك، لا والله، بل بفضله ورحمته، فإن كل طاعاتك المتقبلة لو وزنت بنعمة واحدة ما أدت شكرها، لكن الكريم يهب لعبده نعمه، ويثقل له ميزانه برحمته.

لذا كان النبي ﷺ يدعو الله كل ليلة قبل نومه، فيقول: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي، وَأَخْسِئْ شَيْطَانِي، وَفُكَّ رِهَانِي، وَثَقِّلْ مِيزَانِي، وَاجْعَلْنِي فِي النَّدِيِّ الْأَعْلَى**»[٣٤].

وَثَقِّلْ مِيزَانِي.. احفظ هذه الدعوة جيدا، وأكثر من ذكرها، فنحن في أمسّ الحاجة لذلك يوم القيامة.

يوزن العبد وتوزن حسناته وسيئاته، فمن ثقلت موازينه أفلح، ومن خفت موازينه خسر.

قال الله: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (٩) الأعراف

الله هو من يُثقل ميزان العبد برحمته، فيجد العبد الجزاء العظيم على طاعات يسيرة، ما كان يظن أن تبلغ ما بلغت، فينميها الله له بفضله وكرمه.

فهذا عبد تصدّق يوما بتمرة، من مال طيب، تقبلها الله، فنماها له، كما يكون لأحدنا ذاك المهر الصغير، فيغذيه حتى يصير فرسا، كذلك الكريم ينمي تلك التمرة حتى تصير جبلا من تمر، يعطي الله على قدره.

يقول النبي ﷺ: «**مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ الله إِلَّا الطَّيِّبَ، وَإِنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ**»[٣٥].

---

(٣٣) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (١٨٧)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٥٢٢).
(٣٤) أخرجه الطبراني في «الدعاء» (٢٦٤)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٤٦٤٩).
(٣٥) أخرجه البخاري (١٤١٠)، ومسلم (١٠١٤).





وجاء رجل يوما فتصدق بناقة في سبيل الله، فقال له النبي ﷺ: «**لَتَأْتِيَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِسَبْعِمِائَةِ نَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ**»[٣٦].

هي ناقة واحدة، وعند الله سبع مائة ناقة، ضوعفت إلى سبعمائة ضعف، وقد تزيد.

بل قد يصاحب العمل إخلاصا عظيما، أو صدقا جليلا، أو مجاهدة، فيعظم عند الله جدا، وانظر إلى جمال هذه الصورة

يقول النبي ﷺ: «**سَبَقَ دِرْهَمٌ مِائَةَ أَلْفٍ**» **قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ؟ قَالَ: «رَجُلٌ لَهُ دِرْهَمَانِ فَأَخَذَ أَحَدَهُمَا فَتَصَدَّقَ بِهِ، وَرَجُلٌ لَهُ مَالٌ كَثِيرٌ فَأَخَذَ مِنْ عُرْضِ مَالِهِ مِائَةَ أَلْفٍ، فَتَصَدَّقَ بِهَا**»[٣٧].

شتان بين رجل دعاه الله للصدقة فأخرج نصف ماله، نصف ما يملك، كل ما يملكه درهمان، فأخرج درهما، نعم هو قليل، لكن نسبيا يساوي نصف ما يملك، فكيف كان حال قلبه حينئذ؟

ألم يخش الفاقة؟ كيف كان توكله على ربه؟ كيف كان يقينه بعوض الله وإخلافه عليه خيرا مما أنفق؟

الآخر مليونير بعرف الناس اليوم، معه ملايين، تلك المائة ألف يسيرة عليه، قد لا يجد عشر مجاهدة ذاك الأول حتى يخرجها.

السبق إلى الله بالقلوب، سبق درهم ألف درهم، وسبقت ركعة ألف ركعة، وسبقت كلمة ألف كلمة.

والله يضاعف لمن يشاء.

(٣٦) أخرجه النسائي في «سننه» (٣١٨٧)، **وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة»** (٦٣٤).

(٣٧) أخرجه النسائي في «سننه» (٢٥٢٨)، **وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب»** (٨٨٣).





وَعَلَى الْأَعْرَافِ



بين الجنة والنار سور أو جبل، يُوقف عليه جماعة من المؤمنين، حتى يُقضى بين الخلائق.

وزنت حسناتهم وسيئاتهم، فتعادلت الكفتان.

فلم تعبر بهم حسناتهم إلى الجنة، ولم تهو بهم سيئاتهم إلى الجحيم.

فيتركوا على هذا الجبل حتى يقضي الله بين الخلائق.

ينظرون فيرون أهل الجنة يدخلونها زمرا، كل ملك من ملوك الجنة ذاهب إلى قصوره، وحوله خدمه كاللؤلؤ المكنون، فينادونهم سلام عليكم يا أهل الجنة، يلقون عليهم السلام وهم طامعون في فضل الله ورحمته أن يثقل الميزان ويلحقهم بأهل الجنة.

وينظرون فإذا أهل النار يصرخون، ويبكون، والنار تحرق أجسادهم، غاية أمانيهم قطرة ماء، فلا يستجاب لهم.

حينئذ يدعون ربهم: لا تجعلنا مع القوم الظالمين.

إنها مشكلة التباطؤ، التردد في اتخاذ القرار.

حسنة واحدة كانت كفيلة بإنهاء المشهد، لأن الله يقول: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾. الأنبياء (٤٧)

لكن إلى أين سيذهبون؟.. قطعا إلى رحمة الله، فإنه سبقت رحمته غضبه.

قال الله: ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَغْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩)﴾ الأعراف

تلك كانت الخاتمة: ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ.

يقول حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: «**أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ قَوْمٌ تَجَاوَزَتْ بِهِمْ حَسَنَاتُهُمُ النَّارَ، وَقَصُرَتْ بِهِمْ سَيِّئَاتُهُمْ عَنِ الْجَنَّةِ، فَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ، قَالُوا: رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذِ اطَّلَعَ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ. قَالَ: «قُومُوا ادْخُلُوا الْجَنَّةَ فَإِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»[٣٨].

قوموا ادخلوا الجنة فإني فد غفرت لكم.

---

(٣٨) أخرجه الحاكم في «**المستدرك**» (٣٢٤٧)، وإسناده صحيح متصل، فإنه من رواية صلة عن حذيفة، وله حكم الرفع.



اُذْكُرُوا صَاحِبَ الرَّغِيفِ



يحكي لنا عبد الله بن مسعود رضي الله، وكذلك أبو موسى الأشعري قصة في غاية العجب.

راهب من بني إسرائيل، اعتزل الناس في صومعته، ظل يعبد الله ستين أو سبعين سنة.

كان الرجل ينزل يوما واحدا إلى البلدة يتزود لحوائجه، وفي يوم من أيام نزوله تلك رأى امرأة فأعجبته، ففتن بها. تبعها، وكانت الكارثة... وقع معها في الفاحشة، بل ظل معها ست ليال، يواقعها في الحرام.

وفي اليوم السابع استيقظ قلبه من غفلته، ندم، ترك المرأة، فرّ عنها.

وكان لا يخطو خطوة إلا سجد لله سجدة، ثم آواه الليل إلى مكان فيه جمع من المساكين، وكانوا اثني عشر مسكينا، يأتي لهم رجل باثني عشر رغيفا، لكل واحد منهم رغيف خبز.

وزع الرجل الخبز على المساكين، وأخذ صاحبنا التائب رغيفا، فهو لم يطعم من ثلاث.

لكن بقي رجل من المساكين لم يأخذ رغيفه، فقال للمعطي: ما لك لم تُعط لي رغيفي، ما كان لي عنه غنى؟

فقال الرجل المعطي: تراني أمسكه عنك؟!، سل: هل أعطيت أحدا منكم رغيفين؟

قالوا: لا. فقال الرجل المعطي: والله لا أعطيك الليلة شيئا، ثم مضى.

فأعطى الراهب التائب رغيفه إلى المسكين، ونام جائعا.

وعند الفجر، مات الراهب.

والآن نحن عند الميزان، توزن أعمال العابد الصالحة، وأعماله السيئة.

معنا ستون سنة طاعة، وستة أيام زنى، كبائر، وصدقة من رغيف خبز.

وضعت الستون سنة في كفة، والستة أيام في كفة. فرجحت الأيام الست على الستين.

ثم وضعت الستة أيام في كفة، والرغيف في كفة، فرجحت كفة الرغيف.

فكان أبو موسى رضي الله عنه يقص هذه القصة، ويقول: اذكروا صاحب الرغيف[٣٩].

(٣٩) رواها ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٥٣٥٢)، من طريق ابن مسعود، موقوفا عليه، وصحح إسنادها الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٨٨٥)، ورواها ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٥٣٥٣)، من طريق أبي موسى الأشعري، موقوفا عليه، وصححها ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» (١٧٣).





ليست القصة يا صديقي في رغيف خبز، فلربما أطعم غيره آلاف الفقراء، ولا يأخذ نفس الأجر، إنما الذي ثقل الميزان ما كان في قلبه حينما آثر المسكين على نفسه، مع شدة الجوع والحاجة إلى كسرة خبز، لكنه رحم مسكينا، وآثره على نفسه، وربك كريم، يجازي العبد من جنس عمله، فهذه طاعة ليس له فيها حظ نفس، ثقَّل الله بها ميزانه، رحمة منه بعبده المسكين التائب.

يقول النبي ﷺ: «**الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ، ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ**»(٤٠).

وجاء رجل يوما إلى النبي ﷺ، فقال: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي لَأَذْبَحُ الشَّاةَ، وَأَنَا أَرْحَمُهَا - أَوْ قَالَ: إِنِّي لَأَرْحَمُ الشَّاةَ أَنْ أَذْبَحَهَا - فَقَالَ: «**وَالشَّاةُ إِنْ رَحِمْتَهَا رَحِمَكَ اللهُ» وَالشَّاةُ إِنْ رَحِمْتَهَا رَحِمَكَ اللهُ**»(٤١).

ويقول النبي ﷺ: «**مَنْ رَحِمَ، وَلَوْ ذَبِيحَةَ عُصْفُورٍ رَحِمَهُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٤٢).

من أعظم أسباب الرحمات يوم القيامة ما يكون من رحمة في قلب العبد في هذه الدنيا، حتى لو كانت للبهائم والدواب.

الجزاء من جنس العمل.

عندما يرحم العبد مخلوقا مثله، لا يبتغي منه نفعا، ولا شكورا، فإن الله تعالى قد يرحمه بهذا العمل، وإن لم يكن له غيره. حتى لو كان هذا الذي رحمته هو ولدك، الذي أنت أصلا في غاية الشفقة والرحمة به، يهبك الله الولد، ويضع في قلبك الرحمة به، ثم يرحمك برحمتك إياه، فكيف لا يُحب.

في ذات دخلت امرأة معها ابنان لها على عائشة ﵂، تسألها طعاما لها ولولديها، فَأَمَرْتُ لَهَا بِثَلَاثِ تَمَرَاتٍ، فَأَطْعَمَتْ صَبِيَّيْهَا تَمْرَةً تَمْرَةً وَأَدْخَلَتْ تَمْرَةً فِي فِيهَا، فَأَكَلَ الصَّبِيَّانِ تَمْرَتَيْهِمَا، ثُمَّ لَحَظَا إِلَى أُمِّهِمَا، فَأَخْرَجَتِ التَّمْرَةَ مِنْ فِيهَا، فَشَقَّتْهَا بَيْنَهُمَا، فَدَخَلَ عَلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ لَقَدْ رَأَيْتُ الْيَوْمَ عَجَبًا، قَالَ: «**وَمَا ذَلِكَ؟**» **فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: «وَمَا تَعْجَبِينَ مِنَ امْرَأَةٍ غَفَرَ اللهُ لَهَا بِرَحْمَتِهَا وَلَدَهَا**»(٤٣).

وانظر إلى هذا العجب:

يوم القيامة يحاسب الله عبدا، فلا يوجد له من الخير بعد إيمانه شيء، إلا أنه كان رجلا ذي تجارة، وربما كان له الدَّيون عند الناس، فيقول لغلمانه (الموظفين): تَجَاوَزُوا عَنْهُ، لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَتَجَاوَزَ عَنَّا.

هذا الذي لا يجد وفاء دينه، تجاوزوا عنه.

فلما عرض على الله، ولم يكن له إلا ذلك العمل، غفر الله كل ذنوبه، وقال: «**نَحْنُ أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْهُ، تَجَاوَزُوا عَنْهُ**».

يقول النبي ﷺ: «**حُوسِبَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَلَمْ يُوجَدْ لَهُ مِنَ الْخَيْرِ شَيْءٌ، إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يُخَالِطُ النَّاسَ، وَكَانَ مُوسِرًا، فَكَانَ يَأْمُرُ غِلْمَانَهُ أَنْ يَتَجَاوَزُوا عَنِ الْمُعْسِرِ**»، قَالَ: «قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: نَحْنُ

---

(٤٠) أخرجه الترمذي في «سننه» (١٩٢٤)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٩٢٥).

(٤١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٥٥٩٢)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٦).

(٤٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٨/ ٢٣٤)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٧).

(٤٣) أخرجه أبو داود الطيالسي في «مسنده» (١٥٥٠)، و صححه الشيخ الألباني في «صحيح الأدب المفرد» (٦٦).

أَحَقُّ بِذَلِكَ مِنْهُ، تَجَاوَزُوا عَنْهُ[٤٤].

بل ما هو أعجب من ذلك:

هذه امرأة بغي من بغايا بني إسرائيل – والبغي هي من تمتهن الزنى – بينما تمشي إذ رأت كلبا يلهث، كاد أن يقتله العطش، فخلعت خفها الذي تلبسه، واستقت به الماء من البئر، ثم سقته، فغفر الله لها بذلك[٤٥].

القصة ليست في سُقيا كلب، فقد يشق الإنسان نهرا، ولا يلقى مثل هذا الجزاء.

تأمل الصورة كاملة: امرأة ضعيفة، ترى حيوانا تأنف منه النفوس عادة، بل تزجره، ثم الحصول على الماء في غاية المشقة، إنه داخل بئر، فتخلع المرأة الضعيفة خفها، وتغامر وتنزل إلى البئر، مع مظنة التلف، وتخرج الماء لتسقي كلبا، ولا يراها أحد، فهي لم تقصد إلا الله بذاك العمل، فكم كان في قلبها من الإخلاص في رحمة هذا الحيوان؟!، فغفر لها الرحمن الرحيم.

(٤٤) أخرجه البخاري (٢٠٧٧)، ومسلم (١٥٦١).

(٤٥) أخرجه البخاري (٣٤٦٧)، ومسلم (٢٢٤٥).



أَلَكَ عذر؟

يقول النبي ﷺ: «**وَلاَ أَحَدَ أَحَبُّ إِلَيْهِ العُذْرُ مِنَ اللهِ، وَمِنْ أَجْلِ ذَلِكَ بَعَثَ المُبَشِّرِينَ وَالمُنْذِرِينَ**»(٤٦).

لا أحد أحبُّ إليه العذر من الله.

ومن جميل ما ذُكر في كونه سبحانه يعذر خلقه هذا الحدث الرقراق.

لما فتح النبي ﷺ مكة قال: «**مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَلْقَى السِّلَاحَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابهُ فَهُوَ آمِنٌ**»..

ظن بعض الأنصار أن النبي ﷺ قد حنّ لموطنه مكه، وأنه قد لا يرجع معهم إلى المدينة..

فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ: أَمَّا الرَّجُلُ فَقَدْ أَخَذَتْهُ رَأْفَةٌ بِعَشِيرَتِهِ، وَرَغْبَةٌ فِي قَرْيَتِهِ، فَنَزَلَ الْوَحْيُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، فقَالَ ﷺ: «**يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ**» قَالُوا: لَبَّيْكَ يَا رَسُولَ الله، قَالَ: «قُلْتُمْ: أَمَّا الرَّجُلُ فَقَدْ أَخَذَتْهُ رَأْفَةٌ بِعَشِيرَتِهِ، وَرَغْبَةٌ فِي قَرْيَتِهِ؟

قَالُوا: قَدْ كَانَ ذَاكَ.

فقال ﷺ: أَلَا فَمَا اسْمِي إِذًا؟ - ثَلَاثَ مَرَّاتٍ -

أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ، هَاجَرْتُ إِلَى الله وَإِلَيْكُمْ، فَالْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ، وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ»

قَالُوا: وَالله، مَا قُلْنَا إِلَّا ضَنًّا بِالله وَرَسُولِهِ، قَالَ: «**فَإِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ يُصَدِّقَانِكُمْ وَيَعْذِرَانِكُمْ**»(٤٧).

انظر إلى الحب: لا يفرطون في رسول الله ﷺ، يحبونه بكل قلوبهم، يضنون به عن أي أحد.

وانظر إلى الوفاء منه ﷺ: هاجرت إلى الله وإليكم، المحيا محياكم والممات مماتكم.

وانظر إلى عظمة رب العالمين إذ عذرهم فيما قالوا، لأنه كريم والمحب يُعذر.

وأجمل من ذلك سؤاله عبده المذنب المسرف على نفسه بالخطايا: ألك عذر؟

بينما الميزان قد نُصب، يُنادى على رجل مسلم، ويؤتى بصحف أعماله لتوزن.

وفجأة: إذ بالرجل له تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مَدَّ الْبَصَرِ، كلها ذنوب.

---

(٤٦) أخرجه البخاري (٧٤١٦)، ومسلم (١٤٩٩).

(٤٧) أخرجه مسلم (١٧٨٠).

ثُمَّ يَقُولُ الله عَزَّ وَجَلَّ للرجل: هَلْ تُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟

فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ.

فَيَقُولُ: أَظَلَمَتْكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟

فيقول: لا، يا رب.

ثُمَّ يَقُولُ: أَلَكَ عذر، أَلِكَ حَسَنَةٌ؟

فَيَهَابُ الرَّجُلُ، فَيَقُولُ: لَا.

فَيَقُولُ الله عَزَّ وَجَلَّ: بَلَى، إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَاتٍ، وَإِنَّهُ لَا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ.

فَتُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ، فِيهَا: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

فَيَقُولُ: يَا رَبِّ، مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلَّاتِ.

فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تُظْلَمُ. فَتُوضَعُ السِّجِلَّاتُ فِي كِفَّةٍ وَالْبِطَاقَةُ فِي كِفَّةٍ، فَطَاشَتْ السِّجِلَّاتُ، وَثَقُلَتْ الْبِطَاقَةُ»(٤٨).

الرب العظيم الجليل هو من يقول للعبد: ألك عذر؟ ألك حسنة؟

في حق منْ أخطأ العبد؟ وكم مرة أذنب؟ وكيف كيف ترجح ورقة كل هذه السجلات؟

إن كلمة التوحيد لها نور، على حسب يقين العبد بها، وهذا الرجل لم يكن في قلبه تعلق بغير الله، كان مخلصا في توحيده، قالها بصدق، بيقين، فثقلت لثقلها في قلبه، ونجاه الله بها، فضلا منه ورحمة.

يقول النبي ﷺ: «**مَا عَلَى الْأَرْضِ نَفْسٌ تَمُوتُ لَا تُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا تَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللهِ** ﷺ، **يَرْجِعُ ذَاكُمْ إِلَى قَلْبٍ مُوقِنٍ، إِلَّا غُفِرَ لَهَا**»(٤٩).

ذاك هو الشرط: قلب موقن.

(٤٨) أخرجه الترمذي في «سننه» (٢٦٣٩)، وصححه الشيخ الألباني في «**السلسلة الصحيحة**» (١٣٥).

(٤٩) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٢٠٠٠)، وحسنه الشيخ الألباني في «**السلسلة الصحيحة**» (٢٢٧٨).





قال: مَخَافَتُكَ يَا رَبِّ



جمع الله في كتابه بين اسمه العزيز والرحيم، فقال: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾. الشعراء (٩)

عزة ورحمة، عزيز في غاية الرحمة، ورحمة عن عزة لا عن ضعف وحاجة.

رجل ممن كان قبلنا، أسرف على نفسه بالذنوب والمعاصي، بل لم يعمل خيرا قط، سوى أنه مسلم.

فلما حضرته الوفاة، جمع أولاده، فقال لهم: أَيَّ أَبٍ كُنْتُ لَكُمْ؟

قَالُوا: خَيْرَ أَبٍ.

قَالَ: فَإِنِّي لَمْ أَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، إِذَا مُتُّ فَاجْمَعُوا لِي حَطَبًا كَثِيرًا، ثُمَّ أَوْرُوا نَارًا، حَتَّى إِذَا أَكَلَتْ لَحْمِي، وَخَلَصَتْ إِلَى عَظْمِي، فَخُذُوهَا فَاطْحَنُوهَا فَذَرُّونِي فِي الْيَمِّ فِي يَوْمٍ حَارٍّ، فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَدَرَ عَلَيَّ رَبِّي لَيُعَذِّبَنِّي عَذَابًا مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا.

فَلَمَّا مَاتَ فُعِلَ بِهِ ذَلِكَ، فَأَمَرَ اللهُ الأَرْضَ فَقَالَ: اجْمَعِي مَا فِيكِ مِنْهُ، فَفَعَلَتْ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ.

فقال الله له: مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟

قال الرجل: مِنْ خَشْيَتِكَ وَأَنْتَ أَعْلَمُ، وفي رواية: «**مَخَافَتُكَ يَا رَبِّ**»

فَغَفَرَ اللهُ لَهُ(٥٠).

الوجل والخوف والإشفاق من لقاء الله، من أعظم ما يدرك به العبد رحمات الملك.

الله يقول في الحديث القدسي: «**وَعِزَّتِي وَجَلَالِي لَا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَأَمْنَيْنِ: إِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(٥١).

لحظة الخوف التي مرّ بها هذا الرجل جعلته تهون عليه نفسه، حتى يأمر أولاده بحرق جسده، وسحقه، وذره في الريح، يخشى أن يجمعه الله فيحاسبه على ذنوبه.

الخوف مركب لا يضل حامله، هو والرجاء جناحان يسير العبد بهما إلى ربه.

وإذا اجتمعا خاصة عند الموت فإن الله يؤمن العبد مما يخاف، ويعطيه ما يرجو.

دخل النبي ﷺ عَلَى شَابٍّ وَهُوَ فِي الْمَوْتِ، فَقَالَ: «**كَيْفَ تَجِدُكَ؟**» **قَالَ: أَرْجُو اللَّهَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَأَخَافُ ذُنُوبِي**. فقال النبي ﷺ: «**لَا يَجْتَمِعَانِ فِي قَلْبِ عَبْدٍ فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ، إِلَّا أَعْطَاهُ اللهُ مَا يَرْجُو، وَآمَنَهُ مِمَّا يَخَافُ**»(٥٢).

---

(٥٠) أخرجه البخاري (٣٤٧٩)، ومسلم (٢٧٥٦).

(٥١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٦٤٠)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٧٤٢).

(٥٢) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (٤٢٦١)، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٤٣٦).

تَبارَكَ الَّذِي نَجَّانِي مِنْكِ



هذا آخر من ينجو من على الصراط..

يؤمر الناس بالمرور من على الصراط، يقال لهم: انجوا على قدر نوركم.

ويُعطى كل عابر نورا على قدر عمله، ويُعطى المنافقون نورا[٥٣].

فمنهم من نوره كالجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، ومنهم من نوره على قدر إبهامه يضيء مرة وينطفئ أخرى[٥٤].

يبدأ الناس في العبور، والظلام حالك، وكلٌّ معه نوره على قدر عمله، وفجأة:

كثير ممن على الصراط ممن كان معهم نور، فجأة انطفأ نورهم، ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون.

وهنا ينادي المؤمنون ربهم ووليهم، يستغيثون: ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا.

قال الكريم: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. التحريم (٨)

فيتولاهم الكريم برحمته وفضله.

فمنهم من يمر كطرفة العين، ومنهم من يمر كالبرق، ومنهم من يمر كالريح، ومنهم من يمر كأجاويد الخيل، ومنهم من يهرول عليه.

لكن هذا الأخير شأنه عجيب، ورحمة الله به أعجب.

إنه الآن على الصراط، نوره في غاية الضعف، ينطفئ مرة، ويضيء مرة، يرى حوله الناس يسقطون في الجحيم، وتكاد قدمه أن تزل، لكنه يحبو على يديه ورجليه، يتعلق برجله مرة، وبيده مرة، يكاد يسقط، تلفحه النار من جوانبه، لكنه يمضي، يحبو، حتى انتهى، فنجى.

فالتفت إلى النار، فقال تَبَارَكَ الَّذِي نَجَّانِي مِنْكِ، لَقَدْ أَعْطَانِي اللهُ شَيْئًا مَا أَعْطَاهُ أَحَدًا مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ»[٥٥].

فناج سليم، وناج مخدوش، ومكدوس في نار جهنم. اللهم سلمنا يارب.

هؤلاء الذين نجوا والله ما نجوا إلا بفضله.

(٥٣) أخرجه مسلم (١٩١).

(٥٤) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣٧٨٥)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٥٩١).

(٥٥) أخرجه مسلم (١٨٧).



عملك يا مسكين محض سبب، ينجيك الله به، لكن من نجّاك على الحقيقة الله الكريم.

قال الله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا (٦٨) ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا (٦٩) ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا (٧٠) وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا (٧١) ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا (٧٢)﴾ مريم.

يقول النبي ﷺ: «**لَنْ يُنَجِّيَ أَحَدًا مِنْكُمْ عَمَلُهُ**»

قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**وَلاَ أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي الله بِرَحْمَةٍ**»[٥٦].

النجاة من كل شر برحمته، فكمى نجاهم في الدنيا برحمته، ينجيهم يوم القيامة برحمته.

(٥٦) أخرجه البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦).



آخر أهل الجنة دخولا



أتذكر ذاك الذي كان آخر من نجى من على الصراط..

ما أن وضع الرجل قدمه على آخر موضع في الصراط، ونجى، وحمد الله، إذ به تُرفع له شَجَرَةٌ.

فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ فَلِأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا، وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا.

فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا ابْنَ آدَمَ، لَعَلِّي إِنْ أَعْطَيْتُكَهَا سَأَلْتَنِي غَيْرَهَا.

فَيَقُولُ: لَا، يَا رَبِّ، وَيُعَاهِدُهُ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا.

وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ.

هل قرأت هذه: «**وربه يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليه**».

فَيُدْنِيهِ مِنْهَا فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا، وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا، ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الْأُولَيَيْنِ.

فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ لِأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا، وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا، لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا.

فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا.

قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، هَذِهِ لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا.

وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهَا.

أيضا يعذره، مرة أخرى يعذره لأنه ربه، يعلم ضعفه، بل هو من رفع له شجرة أحسن وأجمل من الأولى ليشوقه إلى الجنة.

فَيُدْنِيهِ مِنْهَا، فَإِذَا أَدْنَاهُ مِنْهَا فَيَسْمَعُ أَصْوَاتَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَدْخِلْنِيهَا.

فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ مَا يَصْرِينِي مِنْكَ؟ أَيُرْضِيكَ أَنْ أُعْطِيَكَ الدُّنْيَا وَمِثْلَهَا مَعَهَا؟

قَالَ: يَا رَبِّ، أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟،

فَضَحِكَ رب العالمين، وقال له: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ مِنْكَ، وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ.

فَيَقُولُ اللهُ لَهُ: تَمَنَّ، فَيَتَمَنَّى حَتَّى إِذَا انْقَطَعَ أُمْنِيَّتُهُ، قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: مِنْ كَذَا وَكَذَا، أَقْبَلَ يُذَكِّرُهُ رَبُّهُ، حَتَّى إِذَا انْتَهَتْ بِهِ الْأَمَانِيُّ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: «**لَكَ ذَلِكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ**»[٥٧].

والله تعجز الكلمات عن عظيم رحمته بهذا العبد.

---

(٥٧) أخرجه البخاري (٨٠٦)، ومسلم (١٨٧).

أولا: نجاه من النار، بعد أن كاد يسقط في الجحيم.

ثم يرفع به شجرة، فيكون أقصى أمانيه أن يستظل بظل هذه الشجرة، ويشرب من مائها، ويأكل من ثمارها، فيسأل ربه ذلك، فيعطيه سؤله على ألّا يسأل غير ذلك، والله يعلم أنه سيسأل فوق ذلك.

ثم شجرة أحسن وأطيب، وشجرة أخرى أحسن وأطيب، وفي كل مرة لا يصبر العبد، وربه يعذره لأنه يرى ما لا صبر له عليه.

ثم شجرة على أبواب الجنة.

كيف حال هذا العبد عندما رأى أسوار الجنة، ورأى قصورها، وأنهارها، ورائحتها تفوح، أيمكن أن يصبر؟

لا والله، ومن يصبر على ذلك.

فما أن يصل إلى أبواب الجنة، حتى يتذلل لربه: يارب أدخلني الجنة.

فيدخله ربه الجنة، وفوق ذلك يقول له: لك الدنيا، ومثلها معها.

هل أنت مدرك حجم العطاء: الدنيا كلها، ومثلها معها.

العبد كأنه يحلم، أبَعْد ما كان فيه، يكون له الدنيا ومثلها معها، فقال من فوره: «أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟

فيجيبه ربه جواب الملك الرؤوف الرحيم: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ مِنْكَ، وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ».

هل انتهى الأمر عند هذا الحد؟

لا، بل يقول له: تمن.

ما هي أمانيك؟ ماذا تطلب؟ ماذا تريد؟ فوق الدنيا ومثلها، لك كل ما تريد.

العبد تمنى حتى انتهت أمانيه، ولكن لم يقف الكرم والعطاء عند هذا الحد، بل يذكره الله ببعض المنن واللطائف.

تخيل مثلا: رجل عاش طيلة عمره حياة بسيطة، فعندما تقول له: ماذا تشتهي؟ سيكون منتهى آماله بسيطة مثله.

الله يقبل على العبد يذكره بما هو لا يدركه من النعيم.

ثم فوق ذلك: له عشرة أمثال الدنيا.

الدنيا، ومثلها عشر مرات.

هذا عطاؤه سبحانه لأدنى أهل الجنة منزلة، فكيف يكون عطاؤه للسابقين وأصحاب اليمين؟!!



مثقال ذرة من إيمان



هلك من شرد عن ربه وتنكب الصراط المستقيم في الدنيا، فهوى لما اتبع ما هوى.

وقع في النار، وما أدراك ما النار؟

غمسة فيها تنسي نعيم الدنيا.

لكن: رحمات الله لا تنتهي، تدرك كثيرا ممن استحقوا النار.

يأذن الملك بعزته للشفعاء أن يشفعوا لعصاة الموحدين.

يأذن للنبين والملائكة والصديقين والشهداء والصالحين.

يقول النبي ﷺ: «**يُحْمَلُ النَّاسُ عَلَى الصِّرَاطِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَتَقَادَعُ بِهِمْ جَنَبَتَا الصِّرَاطِ تَقَادُعَ الْفَرَاشِ فِي النَّارِ، فَيُنْجِي اللهُ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ، ثُمَّ يُؤْذَنُ لِلْمَلَائِكَةِ وَالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ أَنْ يَشْفَعُوا فَيَشْفَعُونَ، وَيُخْرِجُونَ وَيَشْفَعُونَ، وَيُخْرِجُونَ وَيَشْفَعُونَ، وَيُخْرِجُونَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مَا يَزِنُ ذَرَّةً مِنْ إِيمَانٍ**»(٥٨).

ومن جميل كرمه أن الشفاعة ليست فقط للأنبياء والملائكة والشهداء، بل للصالحين.

هؤلاء الصالحون الذين نجاهم الله برحمته من على الصراط، يرون إخوانهم الذين كانوا معهم يسقطون في الجحيم، فلا يهنأ لهم عيش، ولا تطيب لهم حياة حتى يشفعوا عند ربهم في إخوانهم، وقبل أن أذكر لك جميل مناشدتهم ربهم في إخوانهم دعني أسألك:

في صحبة من أنت؟

من رفقتك، ومن جلساؤك، ومن خلانك؟

هل لك صحبة خير كنت تجتمع معهم على الطاعة، على الصلاة، على الصيام؟

هل كانت لك صحبة تجتمعون سويا على كتاب الله، حفظا، وتلاوة، ومدارسة؟

هل كان إخوانك قوم صالحون يحثونك على طلب العلم، والدعوة إلى الله؟

هل حقا في صُحبتك من إذا مت سيجلس عند قبرك بعد أن ينصرف القريب والبعيد يدعو لك الله بالثبات والعفو؟

---

(٥٨) أخرجه أحمد في «**مسنده**» (٢٠٤٤٠)، بإسناد حسن.



هل تجد من أصحابك من تظن أنه سيقف يشفع لك عند ربه إن لم يرك معه في الجنة؟

هؤلاء الأطهار لم تكن صحبتهم لدنيا، إنما لله، فلما فقدوا إخوانهم لم تطب لهم الحياة حتى يخرجوا إخوانهم من الجحيم.

انظر إلى شدة الإلحاح على الله، حتى قال النبي ﷺ: مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ بِأَشَدَّ مُنَاشَدَةً للهِ فِي اسْتِقْصَاءِ الْحَقِّ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ للهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ فِي النَّارِ».

يقولون: رَبَّنَا إِخْوَانُنَا، كَانُوا يُصَلُّونَ مَعَنَا، وَيَصُومُونَ مَعَنَا، وَيَحُجُّونَ، وَيَعْمَلُونَ مَعَنَا.

فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَى: اذْهَبُوا، فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ دِينَارٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ، وَيُحَرِّمُ اللهُ صُوَرَهُمْ عَلَى النَّارِ.

فَيَأْتُونَهُمْ وَبَعْضُهُمْ قَدْ غَابَ فِي النَّارِ إِلَى قَدَمِهِ، وَإِلَى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا.

ثُمَّ يَعُودُونَ، فَيَقُولُ: اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ نِصْفِ دِينَارٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا.

ثُمَّ يَعُودُونَ، فَيَقُولُ: اذْهَبُوا فَمَنْ وَجَدْتُمْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجُوهُ، فَيُخْرِجُونَ مَنْ عَرَفُوا»[٥٩].

الشفاعة لابد فيها من إذن الملك سبحانه، ورضاه عن المشفوع فيه.

فمع أنهم استحقوا دخول النار، إلا أنه يأذن في الشفاعة، رحمة منه سبحانه.

يُخرج سبحانه بشفاعة المؤمنين من كان في قلبه مثقال ذرة من خير ممن عرفوه من المسلمين في الدنيا، فكيف لا يُحب.

صاحب هؤلاء الأتقياء، الذين إذا ذكرت الله أعانوك، وإذا نسيت الله ذكروك.

صاحب الأتقياء الذي يأخذون بيدك إلى الله.

ولا تنس: «**هم القوم لا يشقى بهم جليسهم**».

(٥٩) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).

إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلَا نَسُوءُكَ



في ذات ليلة كان النبي ﷺ يتلو قَوْلَ الله عَزَّ وَجَلَّ فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾. إبراهيم (٣٦)

ويتلو قول الله عز وجل في عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾. المائدة (١١٨).

ثم رفع يديه باكيا، يقول: «**اللهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي**».

رأى الله نبيه يبكي، وسمعه وهو يقول: «**اللهُمَّ أُمَّتِي أُمَّتِي**».

فيأمر الله جبريل فيقول: «**يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، وَرَبُّكَ أَعْلَمُ، فَسَلْهُ مَا يُبْكِيكَ؟**»

فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَسَأَلَهُ فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ الله ﷺ بِمَا قَالَ، وَهُوَ أَعْلَمُ،

فَقَالَ اللهُ: «**يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ، وَلَا نَسُوءُكَ**»(٦٠).

عطاؤه لك يا رسول الله في أمتك حتى الرضا.

ذاك النبي العظيم الذي كاد أن يهلكه الحزن شفقة على أمته، يخشى عليهم الهلكة.

وكأني به يوم الطائف، وقد أغروا بهم سفهاءهم، يرمونه بالحجارة، حتى سالت دماءه الشريفة ﷺ، ومَلَك الجبال فوق رأسه، يقول له: «إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأَخْشَبَيْنِ؟ أي: الجبلين.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ الله مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللهَ وَحْدَهُ، لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»(٦١).

هذا الحرص الذي كان عليه في الدنيا لم ينته بعد، ففي يوم القيامة، يذهب إلى ربه، يسجد تحت العرش، يثني على ربه ويحمده بمحامد لا يفتحها الله على أحد بعده، فيقول الله له: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ.

فيقول: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي.

فَيَقُولُ الله له: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ شَعِيرَةٍ مِنْ إِيمَانٍ، فيفعل، ثم يعود فيسجد ويحمد الله.

---

(٦٠) أخرجه مسلم (٢٠٢).

(٦١) أخرجه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).



فيقول الله له: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ.

فيقول: يَا رَبِّ، أُمَّتِي أُمَّتِي.

فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مِنْهَا مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ - أَوْ خَرْدَلَةٍ - مِنْ إِيمَانٍ فَأَخْرِجْهُ.

ثم يعود فيسجد ويحمد ربه، ويثني عليه .

فَيَقُولُ الله: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ.

فَأَقُولُ: يَا رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي.

فَيَقُولُ: انْطَلِقْ فَأَخْرِجْ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى أَدْنَى أَدْنَى مِثْقَالِ حَبَّةِ خَرْدَلٍ مِنْ إِيمَانٍ، فَأَخْرِجْهُ مِنَ النَّارِ، فيفعل»[٦٢].

أدنى أدنى أدنى مثقال حبة خردل من إيمان.

تخيل كم سيُخرجُ النبيُ ﷺ من النار بعد هذا الحد؟

بل من يمكن أن يبقى فيها بعد هذا الحد، وفيه خير؟

تستشعر حينها لماذا اختار النبي ﷺ الشفاعة على أن يُدخل الله نصف أمته الجنة.

يقول النبي ﷺ: «**خُيِّرْتُ بَيْنَ الشَّفَاعَةِ وَبَيْنَ أَنْ يَدْخُلَ نِصْفُ أُمَّتِي الْجَنَّةَ، فَاخْتَرْتُ الشَّفَاعَةَ**»[٦٣].

نصف الأمة أم الشفاعة.

كم يكون عدد أمة النبي ﷺ حتى يختار عليهم الشفاعة؟

لا شك أن من سيخرج من النار بشفاعته أعظم وأكثر من نصف أمته.

لقد آثرنا نبينا ﷺ على نفسه، فما من نبي إلا له دعوة مستجابة، فلم يسأل نبينا ربه دعوته في الدنيا، وإنما...

استمع حتى تصلي عليه، ﷺ.

يقول النبي ﷺ: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ قَدْ دَعَا بِهَا فَاسْتُجِيبَ، فَجَعَلْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[٦٤].

اللهم صل على عبدك ونبيك محمد وآله وسلم تسليما كثيرا.

---

(٦٢) البخاري (٧٥١٠)، و مسلم (١٩٣)

(٦٣) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (٤٣١١)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٤٨٠).

(٦٤) أخرجه البخاري (٦٣٠٥)، ومسلم (١٩٨).





وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (عتقاء الله)



شفع الأنبياء، وشفعت الملائكة، وشفع الشهداء، وشفع الصالحون.

حتى أخرجوا من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من خير.

أدنى شيء من الخير.

لكن ما حال من لم يعمل خيرا قط سوى أنه مسلم؟

النبي ﷺ بعدما أذن الله له أن يُخرج من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال ذرة من خير، سأل ربه شيئا آخر.

قال: يَا رَبِّ، ائْذَنْ لِي فِيمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

قَالَ الله: لَيْسَ ذَاكَ لَكَ - أَوْ قَالَ: لَيْسَ ذَاكَ إِلَيْكَ - وَلَكِنْ وَعِزَّتِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمَتِي وَجِبْرِيَائِي، لَأُخْرِجَنَّ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»[٦٥].

من يعلم عزة الله وعظمته وكبرياءه يدرك عظيم هذا القسم، فالعظيم لا يقسم إلا بعظيم.

إنه رحمن الدنيا والآخرة ورحيمها، يقول سبحانه في الحديث القدسي:

« شَفَعَتِ الْمَلَائِكَةُ، وَشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَيَقْبِضُ قَبْضَةً مِنَ النَّارِ، فَيُخْرِجُ مِنْهَا قَوْمًا لَمْ يَعْمَلُوا خَيْرًا قَطُّ قَدْ عَادُوا حُمَمًا، فَيُلْقِيهِمْ فِي نَهَرٍ فِي أَفْوَاهِ الْجَنَّةِ يُقَالُ لَهُ: نَهَرُ الْحَيَاةِ، فَيَخْرُجُونَ كَمَا تَخْرُجُ الْحِبَّةُ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ، أَلَا تَرَوْنَهَا تَكُونُ إِلَى الْحَجَرِ، أَوْ إِلَى الشَّجَرِ، مَا يَكُونُ إِلَى الشَّمْسِ أُصَيْفِرُ وَأُخَيْضِرُ، وَمَا يَكُونُ مِنْهَا إِلَى الظِّلِّ يَكُونُ أَبْيَضَ؟ فَيَخْرُجُونَ كَاللُّؤْلُؤِ فِي رِقَابِهِمُ الْخَوَاتِمُ، يَعْرِفُهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ هَؤُلَاءِ عُتَقَاءُ اللهِ الَّذِينَ أَدْخَلَهُمُ اللهُ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ عَمَلٍ عَمِلُوهُ، وَلَا خَيْرٍ قَدَّمُوهُ»[٦٦].

عتقاء الله، فقط قالوا: لا إله إلا الله، موقنين بها.

سيتمنى أقوام حينئذ ألّو كانوا مسلمين، ولكن لا ينفع الندم.

يقول النبي ﷺ: «**إِذَا اجْتَمَعَ أَهْلُ النَّارِ فِي النَّارِ، وَمَعَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ مَنْ شَاءَ اللهُ قَالُوا: مَا أَغْنَى عَنْكُمْ إِسْلَامُكُمْ، وَقَدْ صِرْتُمْ مَعَنَا فِي النَّارِ؟ قَالُوا: كَانَتْ لَنَا ذُنُوبٌ، فَأُخِذْنَا بِهَا، فَسَمِعَ اللهُ مَا قَالُوا، قَالَ: فَأَمَرَ بِمَنْ كَانَ فِي النَّارِ مِنْ أَهْلِ الْقِبْلَةِ فَأُخْرِجُوا فَيَقُولُ الْكُفَّارُ: يَا لَيْتَنَا كُنَّا مُسْلِمِينَ، فَنُخْرَجُ كَمَا أُخْرِجُوا، ثم قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ**

---

(٦٥) أخرجه مسلم (١٩٣).

(٦٦) أخرجه البخاري (٧٤٣٩)، ومسلم (١٨٣).



كَانُوا مُسْلِمِيْنَ﴾ الحجر (٢)»[٦٧].

هذا هو السر الأعظم، شهادة التوحيد، مفتاح الجنة، أدنى نور فيها يمنع الخلود، وإن عظم نورها تطيش لأجلها سجلات الذنوب، وكلما ارتقيت كلما علوت في درجات الجنة.

لقد أراد الله من عبده الذي خلقه بيده فقط أن يوحده ولا يشرك به شيئا، وهو يغفر له كل شيء، لكن أبى هذا العبد إلا أن يكفر بخالقه، وأن يجعل له شريكا وندا وعدلا.

يوم القيامة يؤتى بأهون أهل النار عذابا، فيقف بين يدي الله، فيسأله الله: «لَوْ كَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، أَكُنْتَ مُفْتَدِيًا بِهَا؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ.

فَيَقُولُ: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ: أَنْ لَا تُشْرِكَ وَلَا أُدْخِلَكَ النَّارَ - فَأَبَيْتَ إِلَّا الشِّرْكَ»[٦٨].

---

(٦٧) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢٩٥٤)، وصححه الشيخ الألباني في «ظلال السنة» (٨٤٣).

(٦٨) أخرجه مسلم (٢٨٠٥).



أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي



الله أهل التقوى وأهل المغفرة، عفو يحب العفو، عظيم الرحمات، واسع الغفران.

لا يخيب رجاء عباده فيه، أكرم الأكرمين، البر الرحيم.

يقول النبي ﷺ: «قَالَ اللهُ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي [٦٩]، إِنْ ظَنَّ بِي خَيْرًا فَلَهُ، وَإِنْ ظَنَّ شَرًا فَلَهُ»[٧٠].

فما ظنك برب العالمين؟

تعال أحدثك عن موقفين عظيمين، لتعرف عظمة إحسان رب العالمين:

الموقف الأول:

يقول النبي ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَفَرَغَ اللهُ مِنْ قَضَاءِ الْخَلْقِ فَيَبْقَى رَجُلَانِ، فَيُؤْمَرُ بِهِمَا إِلَى النَّارِ، فَيَلْتَفِتُ أَحَدُهُمَا. فَيَقُولُ الْجَبَّارُ: رُدُّوهُ. فَيَرُدُّونَهُ.

قَالَ الله لَهُ: لِمَ الْتَفَتَّ؟

قَالَ: إِنْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ تُدْخِلَنِي الْجَنَّةَ.

فَيُؤْمَرُ بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ الرجل: لَقَدْ أَعْطَانِي اللهُ حَتَّى لَوْ أَنِّي أَطْعَمْتُ أَهْلَ الْجَنَّةِ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مَا عِنْدِي شَيْئًا »

فَكَانَ رَسُولُ الله ﷺ إِذَا ذَكَرَ هذا الحديث يُرَى السُّرُورُ فِي وَجْهِهِ»[٧١].

الموقف الثاني:

يقول النبي ﷺ: «يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ أَرْبَعَةٌ فَيُعْرَضُونَ عَلَى الله.

فَيَلْتَفِتُ أَحَدُهُمْ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، إِذْ أَخْرَجْتَنِي مِنْهَا فَلَا تُعِدْنِي فِيهَا، فَيُنْجِيهِ اللهُ مِنْهَا»[٧٢].

كلاهما أُمر بهما إلى النار، كلاهما استحقا عذاب الله، لم يظلمهم مثقال ذرة.

وكلاهما التفت، وكأنه يقول: رب ما كنت أظن ذلك، كنت أرجو ألا تدخلني النار، كان ظني فيك أن تشملني رحمتك.

وكلاهما ينجو برحمة الله.

(٦٩) أخرجه البخاري (٧٥٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

(٧٠) أخرجه أحمد في «مسنده» (٩٠٧٦)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (١٦٦٣).

(٧١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٢٢٩٣)، وقال ابن كثير في «جامع المسانيد والسنن » (٤/ ٥٧١)،» إسناده حسن، ومتنه أحسن «.

(٧٢) أخرجه مسلم (١٩٢).





إن من أعظم الكبائر أن يقنط الإنسان من رحمة الله، أو أن يُقنِّط الناس من رحمة الله.

يقول الله تعالى: «**وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ**». الحجر (٥٦)

وسأل رجلٌ النبي ﷺ: «مَا الْكَبَائِرُ؟

فقَالَ: «**الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالإِيَاسُ مِنْ رُوحِ اللهِ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ**»(٧٣).

عندما تظن أنك لن تسعك رحمة الله فهذا سوء ظن فيه سبحانه.

لأنه كما قال النبي ﷺ: «**وَلَا يَهْلِكُ عَلَى اللهِ إِلَّا هَالِكٌ**»(٧٤).

إن لكثرة من يخرج من النار من عصاة الموحدين، يتطاول إبليس عدو الله، يرجو أن تصيبه.

يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «**لَا تَزَالُ الشَّفَاعَةُ بِالنَّاسِ وَهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ النَّارِ، حَتَّى إِنَّ إِبْلِيسَ الْأَبَالِسِ لَيَتَطَاوَلُ لَهَا رَجَاءَ أَنْ تُصِيبَهُ**»(٧٥).

لكن هناك فرق بين حسن الظن، والغرور بالله.

إن كثيرا من الناس حملهم حسن الظن على أن أساءوا العمل، وهؤلاء غرتهم بالله الأماني.

الله كما هو يرضى كذلك يسخط، وكما يحب يكره ويبغض، وكما يرحم يعذب، وكما يحلم ينتقم.

وكما أنه غفور رحيم، كذلك عذابه العذاب الأليم.

وأنا وأنت وكل الخلق مساكين لا طاقة لنا بنفحة من النار.

يقول الله تعالى: ﴿**وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَاوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ**﴾. الأنبياء (٤٦)

كل ما أردته أن يحملك الإحسان على الحب، ويحملك الحب على العمل، أما إن حملك ذلك على غرور فاعلم أن هذا من كيد الشيطان اللعين.

وانظر كيف تقرع أبواب السماء بالذل والانكسار للعزيز الغفار، مع حسن الظن بالله تعالى.

كان ذو النون يدعو ربه فيقول: «**إِلَهِي إِنْ كَانَ صَغُرَ فِي جَنْبِ طَاعَتِكَ عَمَلِي فَقَدْ كَبُرَ فِي جَنْبِ رَجَائِكَ أَمَلِي، إِلَهِي كَيْفَ أَنْقَلِبُ مِنْ عِنْدِكَ مَحْرُومًا وَقَدْ كَانَ حُسْنُ ظَنِّي بِكَ مَنُوطًا، إِلَهِي فَلَا تُبْطِلْ صِدْقَ رَجَائِي لَكَ بَيْنَ الْآدَمِيِّينَ، إِلَهِي سَمِعَ الْعَابِدُونَ بِذِكْرِكَ فَخَضَعُوا وَسَمِعَ الْمُذْنِبُونَ بِحُسْنِ عَفْوِكَ فَطَمِعُوا، إِلَهِي إِنْ كَانَتْ أَسْقَطَتْنِي الْخَطَايَا مِنْ مَكَارِمِ لُطْفِكَ فَقَدْ آنَسَنِي الْيَقِينُ إِلَى مَكَارِمِ عَطْفِكَ، إِلَهِي إِنْ أَمَتَتْنِي الْغَفْلَةُ مِنَ الِاسْتِعْدَادِ لِلِقَائِكَ فَقَدْ نَبَّهَتْنِي الْمَعْرِفَةُ لِكَرَمِ آلَائِكَ. إِلَهِي إِنْ دَعَانِي إِلَى النَّارِ أَلِيمُ عِقَابِكَ فَقَدْ دَعَانِي إِلَى الْجَنَّةِ جَزِيلُ ثَوَابِكَ**»(٧٦).

---

(٧٣) أخرجه البزار في مسنده كما في «كشف الأستار عن زوائد البزار» (١٠٦)، وحسنه الشيخ الألباني في «**السلسلة الصحيحة**» (٢٠٥١).

(٧٤) أخرجه مسلم (١٣١).

(٧٥) أخرجه الطبراني في «**المعجم الكبير**» (١٠/ ٢١٥)، وإسناده حسن.

(٧٦) أخرجه أبو نعيم في «**الحلية**» (٩/ ٣٨٥).

أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي



إنها الجنة، رحمة الله بعباده الصالحين.

ما ضرهم ما أصابهم من الدنيا، جبر الله لهم بالجنة كل مصيبة.

يقول النبي ﷺ: «**قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِلْجَنَّةِ: أَنْتِ رَحْمَتِي أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ مِنْ عِبَادِي**»[77].

هل تذكر ذاك الرجل، آخر من يدخل الجنة؟

تذكر أن الله تعالى أعطاه الدنيا وعشرة أمثالها، هذا الرجل هو أدنى أهل الجنة منزلة، فكيف تكون رحمات الله وعظيم فضله بالمتقين والسابقين وأصحاب اليمين؟

سأل موسى عليه السلام ربه يوما، فقال: «مَا أَدْنَى أَهْلِ الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً؟

قَالَ اللهُ: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، فَيُقَالُ لَهُ: ادْخُلِ الْجَنَّةَ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِلَهُمْ، وَأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ، فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ، وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ، فَقَالَ فِي الْخَامِسَةِ: رَضِيتُ رَبِّ، فَيَقُولُ: هَذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ، وَلَذَّتْ عَيْنُكَ، فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ.

قَالَ موسى عليه السلام: رَبِّ، فَأَعْلَاهُمْ مَنْزِلَةً؟

قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ »، **قَالَ: وَمِصْدَاقُهُ فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:** ﴿**فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ**﴾ [السجدة: ١٧] الْآيَةَ»[78].

غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها، فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر.

أمر فوق الوصف، لأننا يمكن أن نصف ما ندرك، فكيف نصف ما لا ندرك.

الجنة أعدها الله بنفسه لأجلك.

كل شيء فيها أراد الله به أن ينعمك.

قال الله في الحديث القدسي: «**أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لاَ عَيْنٌ رَأَتْ، وَلاَ أُذُنٌ سَمِعَتْ، وَلاَ خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ، فَاقْرَءُوا إِنْ شِئْتُمْ فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ**»[79].

كل شيء فيها أعده الله لأجلك، ليس فيه شائبة، ليس فيه كدر.

بلاد الأفراح، لا حزن، لا نصب، لا فراق، لا ألم، لا مرض، لا كذب، لا شر، لا أذى، لا خوف، فقط النعيم.

---

(٧٧) أخرجه البخاري (٤٨٥٠)، ومسلم (٢٨٦٤).

(٧٨) أخرجه مسلم (١٨٩).

(٧٩) أخرجه البخاري (٣٢٤٤)، ومسلم (٢٨٢٤).



هَلْ رَضِيتُمْ؟

النعيم في الجنة حتى الرضى.

كل شيء كان في الدنيا سيتغير.

جسدك، وجهك، قبحك، فقرك، مرضك، زوجك.

كل الشقاء سيزول عند أول غمسة في الجنة، ستنسيك غمسة في الجنان شقاء الدنيا وما فيها.

يقول النبي ﷺ: «**يُؤْتَى بِأَشَدِّ النَّاسِ بُؤْسًا فِي الدُّنْيَا، مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيُصْبَغُ صَبْغَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا ابْنَ آدَمَ هَلْ رَأَيْتَ بُؤْسًا قَطُّ؟ هَلْ مَرَّ بِكَ شِدَّةٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لَا، وَاللهِ يَا رَبِّ مَا مَرَّ بِي بُؤْسٌ قَطُّ، وَلَا رَأَيْتُ شِدَّةً قَطُّ**»(٨٠).

قيل لبعض السلف: متى يجد العبد الراحة؟

قال: عِنْدَ أَوَّلِ قَدَمٍ يَضَعُهَا فِي الْجَنَّةِ.

أريدك أن تنسى الدنيا وما كان فيها من منغصات وكدر، كانت دنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة، ولا تساوي من حياتك أي شيء أصلا، فاليوم خلود فلا موت.

كل شيء سيتغير تماما.

جاء رجل يوما إلى النبي ﷺ فقال: «يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي رَجُلٌ أَسْوَدُ مُنْتِنُ الرِّيحِ، قَبِيحُ الْوَجْهِ، لَا مَالَ لِي، فَإِنْ أَنَا قَاتَلْتُ هَؤُلَاءِ حَتَّى أُقْتَلَ، فَأَيْنَ أَنَا؟

قَالَ: «**فِي الْجَنَّةِ**»، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ.

فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «**قَدْ بَيَّضَ اللهُ وَجْهَكَ، وَطَيَّبَ رِيحَكَ، وَأَكْثَرَ مَالَكَ**»(٨١).

كم عانينا في الدنيا، كانت سجنا للمؤمن، يُعير لأجل دينه بفقره، ولونه، ونسبه.

كم آذوك لأجل الله، أخذوا منك مالك، وأنهكوا جسدك، وفرقوا بينك وبين ولدك وزوجك.

صدقني بالله، كل هذا سيمضي، والملتقى الجنة، في جوار الملك الرحيم، في النعيم المقيم.

ولو أن ما يحمله ظفرك من الجنة بدا لتزخرفت لأجل حُسنه ما بين السموات والأرض.

يقول النبي ﷺ: «**لَوْ أَنَّ مَا يُقِلُّ ظُفُرٌ مِمَّا فِي الْجَنَّةِ بَدَا لَتَزَخْرَفَتْ لَهُ مَا بَيْنَ خَوَافِقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَلَوْ أَنَّ رَجُلاً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَ فَبَدَا أَسَاوِرُهُ لَطَمَسَ ضَوْءَ الشَّمْسِ كَمَا تَطْمِسُ الشَّمْسُ ضَوْءَ النُّجُومِ**»(٨٢).

هذا الجسد سيكون شيئا آخر، جسد للخلود، جسد للنعيم.

يقول النبي ﷺ: «**مَا مِنْ أَحَدٍ يَمُوتُ سِقْطًا وَلَا هَرِمًا - وَإِنَّمَا النَّاسُ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ - إِلَّا بُعِثَ ابْنَ**

(٨٠) أخرجه مسلم (٢٨٠٧).

(٨١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢٤٦٣)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٣٨١).

(٨٢) أخرجه الترمذي في «سننه» (٢٥٣٨)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٣٩٦).



ثَلَاثِينَ سَنَةً فَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ كَانَ عَلَى مِسْحَةِ آدَمَ، وَصُورَةِ يُوسُفَ، وَقَلْبِ أَيُّوبَ»[٨٣].

السن ثلاثين، ولا هرم، على مسحة آدم ستون ذراعا، على حسن يوسف، وقلب أيوب.

أما أنتِ أيتها المؤمنة الصالحة، فلا يضرك ما فاتك من الدنيا، إن كان الله رضي عنك وأدخلك الجنة.

يقول النبي ﷺ: «وَلَوْ أَنَّ امْرَأَةً مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ اطَّلَعَتْ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ لَأَضَاءَتْ مَا بَيْنَهُمَا، وَلَمَلَأَتْهُ رِيحًا، وَلَنَصِيفُهَا عَلَى رَأْسِهَا خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا»[٨٤].

ثم كل جمعة تزداد حسنا فوق الحسن، وجمالا فوق الجمال.

يقول النبي ﷺ: «إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَسُوقًا، يَأْتُونَهَا كُلَّ جُمُعَةٍ، فَتَهُبُّ رِيحُ الشَّمَالِ فَتَحْثُو فِي وُجُوهِهِمْ وَثِيَابِهِمْ، فَيَزْدَادُونَ حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَرْجِعُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ وَقَدِ ازْدَادُوا حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَقُولُ لَهُمْ أَهْلُوهُمْ: وَاللهِ لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا، فَيَقُولُونَ: وَأَنْتُمْ، وَاللهِ لَقَدِ ازْدَدْتُمْ بَعْدَنَا حُسْنًا وَجَمَالًا»[٨٥].

قصور مبنية، لبنة من ذهب، ولبنة من فضة.

خيام من لؤلؤ مجوف.

أنهار من عسل، وأنهار من لبن مصفى، وأنهار من ماء غير آسن، وأنهار من خمر لذة للشاربين.

تجري الأنهار من غير أخاديد، تجري تحت القصور والخيام.

على الأرض اللؤلؤ والياقوت، كالحصى تدوسه بقدمك.

حور عين كأنهن الياقوت والمرجان.

خدم كأمثال اللؤلؤ المكنون.

أنية من الذهب والفضة، وثياب من الحرير الخالص، وأسرة مصنوعة من الذهب.

فواكه دانية مما تشتهي، ولحم طير شهي، لا يُملُّ ولا ينقطع.

حتى الريُّ على قدر اللذة، فلا جوع ولا عطش.

فيها ما تشتهيه نفسك، وتلذه عينك وسمعك.

تريد ولدا، يعطيك الله أولادا، يولدون في الجنة، في ساعة واحدة.

يقول النبي ﷺ: «الْمُؤْمِنُ إِذَا اشْتَهَى الْوَلَدَ فِي الْجَنَّةِ كَانَ حَمْلُهُ وَوَضْعُهُ وسنه فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ، كَمَا يَشْتَهِي»[٨٦].

نعيم حتى ترضى.

يقول النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ؟ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي، فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»[٨٧].

---

(٨٣) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٠/ ٢٣٨)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٧٠١).

(٨٤) أخرجه البخاري (٢٧٩٦).

(٨٥) أخرجه مسلم (٢٨٣٣).

(٨٦) أخرجه الترمذي في «سننه» (٢٥٦٣)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح ابن ماجه» (٣٥٠٠).

(٨٧) أخرجه البخاري (٦٥٤٩)، ومسلم (٢٨٢٩).



وَأَسْأَلُكَ النَّظَرَ إِلَى لَذَّةِ وَجْهِكَ



كل شقاء الدنيا تنسيه غمسة في الجنة، وكل نعيم الجنة تنسيه نظرة إلى الجليل الجميل رب العالمين.

كان من دعاء نبينا ﷺ: «**وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَأَسْأَلُكَ الشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ**»(٨٨).

أتدري ما نعيم النظر إلى وجه الكريم؟

الله نور السموات والأرض، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه.

يقول النبي ﷺ: «**إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَنَامُ، وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ عَمَلِ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ عَمَلِ اللَّيْلِ، حِجَابُهُ النُّورُ لَوْ كَشَفَهُ لَأَحْرَقَتْ سُبُحَاتُ وَجْهِهِ مَا انْتَهَى إِلَيْهِ بَصَرُهُ مِنْ خَلْقِهِ**»(٨٩).

الجميل الذي لا أجمل منه، الذي كل ذرة حسن وجمال في خلقه فهي محض هبته سبحانه.

يقول النبي ﷺ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ، قَالَ: يَقُولُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: تُرِيدُونَ شَيْئًا أَزِيدُكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ، وَتُنَجِّنَا مِنَ النَّارِ؟

قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَمَا أُعْطُوا شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ»(٩٠).

ويقول النبي ﷺ: «**إِذَا دَخَلَ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ وَأَهْلُ النَّارِ النَّارَ، نَادَى مُنَادٍ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، إِنَّ لَكُمْ عِنْدَ اللهِ مَوْعِدًا يُرِيدُ أَنْ يُنْجِزَكُمُوهُ، فَيَقُولُونَ: وَمَا هُوَ؟ أَلَمْ يُثَقِّلِ اللهُ مَوَازِينَنَا، وَيُبَيِّضْ وُجُوهَنَا، وَيُدْخِلْنَا الْجَنَّةَ وَيُنْجِنَا مِنَ النَّارِ؟ قَالَ: فَيَكْشِفُ الْحِجَابَ، فَيَنْظُرُونَ إِلَيْهِ، فَوَاللهِ مَا أَعْطَاهُمُ اللهُ شَيْئًا أَحَبَّ إِلَيْهِمْ مِنَ النَّظَرِ، يَعْنِي إِلَيْهِ، وَلَا أَقَرَّ لِأَعْيُنِهِمْ**»(٩١).

ليس فقط ترى الله، بل يكلمك وتكلمه، تُدعى لزيارة الملك جل جلاله، يحاورك، ويكلمك، كل فرد له حديث خاص، نرى ربنا كما نرى القمر، لا يحول بيننا وبينه شيء، جل في علاه.

هذا شيء من نعيم الجنة، التي جعلها رب العالمين رحمة يرحم بها من شاء من خلقه.

تلك الجنة غالية، حجبت بالمكاره، لابد لها من بذل وتضحية وجهاد وعمل.

(٨٨) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (١٩٧١)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (١٣٠١).

(٨٩) أخرجه مسلم (١٧٩).

(٩٠) أخرجه مسلم (١٨١).

(٩١) أخرجه ابن ماجه في «سننه» (١٨٧)، وصححه الشيخ الألباني في «صحيح الجامع» (٥٢١).

يقول النبي ﷺ: «مَنْ خَافَ أَدْلَجَ وَمَنْ أَدْلَجَ فَقَدْ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ»[٩٢].

أقبل على ربك، واستعن به، واصدق في نيتك، يؤويك إليه، واعلم أنه لن يهلك إلا من شرد عن الله شراد البعير.

قال النبي ﷺ: «كُلُّكُمْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ شَرَدَ عَلَى اللَّهِ شِرَادَ الْبَعِيرِ عَلَى أَهْلِهِ»[٩٣].

(٩٢) أخرجه الترمذي في «سننه» (٢٤٥٠)، وحسنه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٣٣٥).

(٩٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٢٢٢٦)، وصححه الشيخ الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٢٠٤٣).

وهكذا المحب



قال الملك سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾. البقرة (١٦٥)

في الدنيا أنداد كُثر، اتخذها الناس من دون الله، يحبونها حب تعظيم وتأليه، يغارون عليها، ويغضبون لها، وينصرونها بالباطل.

والله هو المعبود الحق، الذي هو أحق من عُبد، وأحق من ذُكر، وأحق من عُظِّم.

والمؤمنون أشد حبا لربهم من حب المشركين لأندادهم وطواغيتهم.

فما هو معيار الحب؟

كيف تقيس حبك لربك، حتى تعلم أنه لا أحبّ لقلبه من الله؟

ابتداء: أتدري ما هو الحب؟

هو تعلق القلب برب العالمين.

هو سكون القلب إليه سبحانه.

هو هيجان القلب عند ذكره جل في علاه.

هو اشتغال القلب به حتى لا يصبح في القلب موضع لغيره.

هو إيثار رب العالمين ومراضيه عن مراضي غيره وما تهواه نفسه.

هو عكوفك على باب سيدك تنظر إليه نظر العبد المترقب رحماته في كل طرفة عين.

هذا المحب تراه:

يبحث عن كل ما يدله على ربه، ينظر في كتاب الله، سورة سورة، وآية آية، كلما جاء ذكر ربه هش قلبه وبش، كلما جاء ذكر لاسم من أسماءه أو صفة من صفاته، أو فعلا من أفعاله تراه مسرورا أنه عرف شيئا عن الله.

المحب عظيم الذكر لربه، يلهج لسانه بذكره في كل حين، دائما يتحدث عن ربه.

عند أول لحظة تعود فيها روحه إليه يسبق ذكره لربه عن ذكر من سواه.

وإذا تحرك أول ما يتحرك نظر بقلبه إلى السماء متفكرا أي شيء يبدأ به لمرضاة سيده ومولاه.

ثم لا تراه في أي موطن إلا ذاكرا لربه.

إذا أكل، وإذا شرب، وإذا لبس، وإذا ركب.

فإذا خرج من بيته سمع بالله فلا يسمع إلا ما يرضيه.

وإذا أبصر أبصر بالله فلا يرى إلا ما يرضيه.

ينتظر بشوق مناجاة سيده، يتلهف بقلبه متى تحين الصلاة.

ثم لا يصبر حتى يذهب فيركع ركعات الضحى.

ثم يستطيل الوقت، يقول لما لم يؤذن المؤذن بعد.

ثم تراه يتجهز لملاقاة حبيبه، في أحسن حال وأحسن صورة وأطيب ثوب وأجمل ريح.

فتراه مقبلا على بيت الله إقبال الطفل إلى بيت أبيه الذي لم ير الخير إلا منه.

وما أن يضع قدمه في بيت ربه حتى يتنفس الصعداء فرحا مستبشرا.

أما صلاته فشأن آخر.

إنه لقاء المحب بربه، الذي لا أحب ولا أجل في عينيه وقلبه منه.

يقبل بقلبه نحوه،يطأطأ رأسه، يضع يده على يده موضع ذل بين يدي عز.

ثم يستشعر إقبال ربه عليه ونظره إليه.

فيرى ربه على عرشه، يراه بجلاله وجماله سميعا بصيرا عزيزا رحيما، يدبر أمور خلقه بحكمته ورحمته.

وما أن ينتهي من صلاته حتى يتألم لانتهاء اللقاء، يود ألو كانت امتدت به الصلاة لينعم بمناجاة ربه.

ثم يستغفر ربه من صلاته، فهو يستحيي أن تعرض صلاته تلك على حبيبه بجلاله وكماله.

وإن خرج من بيت الله ترك قلبه هناك معلقا فيه.

إنه الشوق إلى اللقيا بعد الذهاب.

فإذا جاء الليل وخلى كل حبيب بحبيبه، خلا بربه يناجيه، ويدعوه، يصف قدمه يترنم بآياته، ينعم بالسجود له، سجد له قلبه قبل جسده، حتى أنه لا يقدر على أن يرفع رأسه، منتهى أمله أن يظل ساجدا متنعما بقربه من مولاه.

ويظل كذلك مشتاقا لرؤية ربه حتى تأتي تلك اللحظة التي يرفع الرحمن الحجاب عن وجهه فتنسيه رؤيته نعيم الجنان.





هذا الشوق غرس الحب، والحب غرس المنن والصفات العلى.

فكلما منّ الله على عبده بمنة، وكلما عاين القلب أنوار صفات الملك، كلما اهتز القلب شوقا، يتوق أن يعاين وجه ربه الكريم.

تراه عند حدوث نعمة أو قوع بلية أول ما يذكر تراه يذكر به.

يذكر ربه بكل جميل، يثني عليه عند كل شيء، تراه دائما حامدا شاكرا، يحمد ربه عند طعامه وشرابه واستيقاظه، يحمده في كل نفس، يسبح بحمد ربه، يرى نعم الله عليه لا تُعد ولا تُحصى.

المحب لا يستقل عطاء ربه، بل عطاؤه عنده عظيم لا يستحقه، يستكثر نعم الله عليه.

المحب يرى كل ما في يديه محض فضل الله، تصدَّق به عليه، لا يستحق منه مثقال ذرة، لا يرى له اسما ولا رسما ولا ملكة، بل عنوان حياته: «**وأنا بك وإليك**».

المحب ليس فقط يصبر على القضاء، بل وليس فقط يرضى حال القضاء، بل يثني على ربه حال القضاء، إذ يرى ربه محسنا إليه بمنعه، متكرما عليه بما أخذه منه، أحبه إليه أحبه إلى ربه.

المحب يحب النصب لمن يحب، فتراه ينصب ويألم له عن طيب نفس.

المحب يبذل نفسه لربه، لا يؤثرها على الله، بل يهب نفسه وماله وكل شيء لربه.

المحب يغار على حبيبه أن يبقى أحد لا يعرفه ولا يؤمن به.

يعمل لأجل الله دون كلل أو ملل، يحزن إن رأى عاصيا، يشفق عليه، إذ كيف له أن يحيا بعيدا عن الله.

المحب يغار على حرمات حبيبه أن تنتهك.

المحب يغضب لحبيبه وينتقم له لا لنفسه.

المحب تقول أفعاله أنه محب.

المحب مسرور بخدمة حبيبه، يتنافس في إتيان مراضيه، لا يؤثر أحدا بقربه منه.

يلهج بذكره، يأنس بمناجاته، لا يستوحش، هو مستشعر أن الله معه، يسمعه ويذكره إذا ذكره.

المحب يحب ما يحبه حبيبه، ويبغض ما يبغضه حبيبه.

يحب الله ولله وفي الله، فيحب كلامه، ويحب دينه، ويحب أولياءه، ويحب بيت ربه، ويبغض الشيطان وأولياءه، ويبغض ما يبغضه ربه ومولاه.

حتى أنه إن عصى ربه على حين غفلة، لا تكاد تجده يستمتع بمعصية أو تدوم له لذة، بل منعه حبه لربه أن تصفو له معصية.

هذا حال المحب.



وهو الحميد المجيد



له الحمد كله، حمدا يليق بجلاله وكماله.

له الحمد الحسن والثناء الجميل.

سبحانه لا نُحصي ثناء عليه، هو كما أثنى على نفسه.

أيها المحب:

بعدما ذكرته لك عن الله:

الجليل ذو الجلال والعظمة والكبرياء.

الجميل، جميل الذات، وجميل الأسماء، وجميل الصفات، وجميل الفعال.

الكريم الأكرم المنان، عظيم الإحسان.

آن لك أن تُحب ربك، بل آن لك أن يكون الله أحب إليك من كل شيء.

آن لك أن تحمد مولاك، وتثني عليه بكل جميل.

آن لك أن تسجد في جوف الليل، وتناجيه، فتقول:

أنا العدم الذي أحييته، فلك الحمد.

وأنا المخلوق الذي أحسنت خلقه وصورته، فلك الحمد.

وأنا الفقير الذي أغنيته، فلك الحمد.

وأنا المسكين الذي عافيته، فلك الحمد.

وأنا الطريد الذي آويته، فلك الحمد.

وأنا المريض الذي شفيته، فلك الحمد.

وأنا الجاهل الذي علّمته، فلك الحمد.

وأنا الداعي الذي أجبته، فلك الحمد.

وأنا العزب الذي زوجته، فلك الحمد.



وأنا القبيح الذي جمّلته، فلك الحمد.

وأنا المكروب الذي فرجت عنه، فلك الحمد.

وأنا المحزون الذي أذهبت حزنه، فلك الحمد.

وأنا المدين الذي قضيت له دينه، فلك الحمد.

وأنا الضعيف الذي قويته، فلك الحمد.

وأنا الذليل الذي أعززته، فلك الحمد.

وأنا المدنّس الذي طهرته، فلك الحمد.

وأنا الضائع الذي حفظته، فلك الحمد.

وأنا الهالك الذي نجيته، فلك الحمد.

وأنا الخائف الذي أمنته، فلك الحمد.

وأنا الضال الذي هديته، فلك الحمد.

وأنا العاصي الذي سترته فلك الحمد.

وأنا التائب الذي ما رددته، فلك الحمد.

وأنا المستغفر فاغفر لي، ولك الحمد.

اللهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ مِلْءُ السَّمَاءِ، وَمِلْءُ الْأَرْضِ، وَمِلْءُ مَا شِئْتَ مِنْ شَيْءٍ بَعْدُ

اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ كَالَّذِي تَقُولُ وَخَيْرًا مِمَّا نَقُولُ، رَبَّنَا لَكَ الْحَمْدُ حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ.

لَكَ الْحَمْدُ حَتَّى تَرْضَى، وَلَكَ الْحَمْدُ إِذَا رَضِيتَ.